

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام الشوكاني

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني

المولود بصنعاء سنة ١١٧٣ هـ والمتوفى بها سنة ١٢٥٠ هـ

رحمه الله تعالى

المجلد الخامس

من إصدارات

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المملكة العربية السعودية

طبعة خاصة لـ
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

قامت بالإشراف على الطباعة
دار النوادر
شركة دار النوادر الكويتية - ذ. م. م - الكويت
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الجاثية (١)

هي سبع وثلاثون آية وقيل ست وثلاثون

وهي مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا آية منها ، وهي قوله (للذين آمنوا) إلى (أيام الله) فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب كما سيأتي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ
وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا

---

(١) تنبيه : جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع ، مع تعرضه للقراءات السبع ، وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني .

هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا
مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَٰتِ
رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ
بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا
لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) .

قوله (حم) قد تقدّم الكلام فى هذه الفاتحة وفى إعرابها فى فاتحة سورة غافر وما بعدها ، فإن جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ ، وإن جعل حروفا مسرودة على نمط التعديد فلا محلّ له ، وقوله (تنزيل الكتاب) على الوجه الأوّل خبر ثان ، وعلى الوجه الثانى خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره (من الله العزيز الحكيم) ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال(إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى فيها نفسها فإنها من فنون الآيات أو فى خلقها . قال الزجاج : ويدلّ على أن المعنى فى خلق السموات والأرض قوله (وفى خلقكم) أى فى خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة . قال مقاتل : من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا (وما يبثّ من دابة آيات) أى وفى خلق ما يبثّ من دابة ، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر وخبره الظرف قبله ، وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائى « آيات » بالنصب عطفا على اسم إن ، والخبر قوله (وفى خلقكم) كأنه قيل : وإن فى خلقكم وما يبثّ من دابة آيات ، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى . وقرأ الجمهور أيضا (آيات لقوم يعقلون) بالرّفع وقرأ حمزة والكسائى بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ فى اختلاف ، أما جرّ اختلاف فهو على تقدير حرف الجرّ : أى (و) فى (اختلاف الليل والنهار) آيات ، فمن رفع آيات فعلى أنها مبتدأ ،وخبرها : فى اختلاف ، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين. قال الفراء : الرفع على الاستئناف بعد إن ، تقول العرب : إنّ لى عليك مالا وعلى أخيك مال ، ينصبون الثانى ويرفعونه وللنحاة فى هذا الموضع كلام طويل . والبحث فى مسألة العطف على معمولى عاملين مختلفين وحجج المجوّزين له وجوابات المانعين له مقرّر فى علم النحو مبسوط فى مطوّلاته. ومعنى (ما يبثّ من دابة) ما يفرقه وينشره(واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما أو تفاوتهما فى الطول والقصر ، وقوله (وما أنزل الله من السماء من رزق) معطوف على اختلاف ، والرزق المطر ، لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ، وإحياء الأرض : إخراج نباتها ، و (موتها) خلوّها عن النبات (و) معنى (تصريف الرّياح) أنها تهب تارة من جهة ، وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارّة وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة وتارة ضارّة (تلك آيات الله نتلوها عليك) أى هذه الآيات المذكورة هى حجج الله وبراهينه ، ومحل : نتلوها عليك النصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة ، وآيات الله بيان له أو بدل منه ، وقوله (بالحقّ) حال من فاعل نتلو ، أو من مفعوله : أى محقين ، أو ملتبسة

بالحقّ ، ويجوز أن تكون الباء للسببية ، فتتعلق بنفس الفعل (فبأىّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد حديث الله وبعد آياته ، وقيل إن المقصود : فبأى حديث بعد آيات الله وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات فيكون من باب : أعجبنى زيد وكرمه ، وقيل المراد بعد حديث الله ، وهو القرآن كما فى قوله ـ الله نزّل أحسن الحديث ـ وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرّد التغاير العنوانى . قرأ الجمهور « تؤمنون » بالفوقية ، وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية . والمعنى : يؤمنون بأىّ حديث ، وإنما قدّم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام (ويل لكل أفاك أثيم) أى لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجبه ، والويل واد فى جهنم . ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال (يسمع آيات الله تتلى عليه) وقيل إن يسمع فى محل نصب على الحال ، وقيل استئناف ، والأوّل أولى ، وقوله (تتلى عليه) فى محل نصب على الحال (ثم يصرّ) على كفره ويقيم على ماكان عليه حال كونه (مستكبرا) أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد للحقّ ، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن ينحنى عليها صارّا أذنيه . قال مقاتل : إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا ، وجملة (كأن لم يسمعها) فى محل نصب على الحال أو مستأنفة ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف (فبشره بعذاب أليم) هذا من باب التهكم : أى فبشره على إصراره واستكباره وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم (وإذا علم من آياتنا شيئا) قرأ الجمهور : علم بفتح العين وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل . وقرأ قتادة ومطر الورّاق على البناء للمفعول . والمعنى : أنه إذا وصل إليه علم شىء من آيات الله (اتخذها) أى الآيات (هزوا) وقيل الضمير فى اتخذها عائد إلى شيئا ، لأنه عبارة عن الآيات ، والأوّل أولى . والإشارة بقوله (أولئك) إلى كلّ أفاك متصف بتلك الصفات (لهم عذاب مهين) بسبب مافعلوا من الإصرار والاستكبار عن سماع آيات الله واتخاذها هزوا ، والعذاب المهين هو المشتمل على الإذلال والفضيحة (من ورائهم جهنم) أى من وراء ماهم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحقّ جهنم ، فإنها من قدّامهم لأنهم متوجهون إليها ، وعبر بالوراء عن القدّام ، كقوله (من ورائه جهنم) وقول الشاعر : ٭ أليس ورائى إن تراخت منيتى ٭ وقيل جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا) أى لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) معطوف على ما كسبوا : أى ولا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام ، و « ما » فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد (ولهم عذاب عظيم) فى جهنم التى هى من ورائهم (هذا هدى) جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به (والذين كفروا بآيات ربهم) القرآنية (لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشدّ العذاب . قرأ الجمهور « أليم » بالجرّ صفة للرّجز . وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب (الله الذى سخر لكم البحر) أى جعله على صفة تتمكنون بها من الرّكوب عليه (لتجرى الفلك فيه بأمره) أى بإذنه وإقداره لكم (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة تارة ، والغوص للدرّ ، والمعالجة للصيد وغير ذلك (ولعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا النعم التى تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه) أى سخر لعباده جميع ما خلقه فى سماواته وأرضه مما تتعلق به مصالحهم وتقوم به معايشهم ، ومما سخره لهم من مخلوقات السموات : الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرّياح ، وانتصاب جميعا على الحال من مافى السموات وما فى الأرض أو تأكيد له ، وقوله : منه يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لجميعا : أى كائنة منه ، ويجوز أن يتعلق بسخر ، ويجوز أن يكون حالا من ما فى السموات ، أو خبرا لمبتدأ محذوف . والمعنى : أن كل ذلك رحمة منه

لعباده (إن فى ذلك) المذكور من التسخير (لآيات لقوم يتفكرون) وخصّ المتفكرين لأنه لاينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد (قل للذين آمنوا يغفروا) أى قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لايرجون أيام الله) وقيل هو على حذف اللام ، والتقدير : قل لهم ليغفروا . والمعنى : قل لهم يتجاوزوا عن الذين لايرجون وقائع الله بأعدائه : أى لايتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، وقيل هو على معناه الحقيق . والمعنى : لايرجون ثوابه فى الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى . والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدّم فى تفسير قوله ـ وذكرهم بأيام الله ـ قال مقاتل : لايخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لايؤمنون به فلا يخافون عقابه . وقيل المعنى : لايأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل لايخافون البعث . قيل والآية منسوخة بآية السيف (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « لنجزى » بالنون : أى لنجزى نحن. وقرأ باقى السبعة بالتحتية مبنيا للفاعل : أى ليجزى الله . وقرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم بالتحتية مبنيا للمفعول مع نصب قوما ، فقيل النائب عن الفاعل مصدر الفعل أى ليجزى الجزاء قوما ، وقيل إن النائب الجارّ والمجرور كما فى قول الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

قد أجاز ذلك الأخفش والكوفيون ، ومنعه البصريون ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه . وقيل المعنى : ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات كأنه قال : لاتكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن ، والأول أولى . ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركين وأعمالهم فقال (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) والمعنى : أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لايتجاوزه إلى غيره وفيه ترغيب وتهديد (ثم إلى ربكم ترجعون) فيجازى كلا بعمله إن كان خيرا فخير ، وإن كان شرّا فشرّ .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله (جميعا منه) قال : منه النور والشمس والقمر . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : كل شىء هو من الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن طاووس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ممّ خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدرى . ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير ، فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله ممّ خلق الخلق ؟ فقال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال فممّ خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه) فقال الرجل : ماكان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية قال : كان نبىّ الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه ، وكانوا يستهزئون به ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَٰءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ
عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَٰئِرُ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ
نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)
وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) .

قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب والحكم والنبوّة) المراد بالكتاب التوراة وبالحكم الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم ، وبالنبوّة من بعثه الله من الأنبياء فيهم (ورزقناهم من الطيبات) أي المستلذات التي أحلها الله لهم ، ومن ذلك المنّ والسلوى (وفضلناهم على العالمين) من أهل زمانهم حيث آتيناهم مالم نؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه ، وقد تقدّم بيان هذا في سورة الدخان (وآتيناهم بينات من الأمر) أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشواهد نبوّته ، وتعيين مهاجره (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) أي فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوته ، وقيل المراد بالعلم يوشع بن نون ، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم ، وقيل نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاختلفوا فيها حسدا وبغيا ، وقيل (بغيا) من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة (إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين ، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) الشريعة في اللغة المذهب . والملة والمنهاج ويقال : لمشرعة الماء وهي مورد شاربيه شريعة ، ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع : أي جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق (فاتبعها) فاعمل بأحكامها في أمتك (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) توحيد الله وشرائعه

لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم (إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا) أى لايدفعون عنك شيئا مما أراده الله بك إن اتبعت أهواءهم (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أى أنصار ينصر بعضهم بعضا قال ابن زيد : إن المنافقين أولياء اليهود (والله ولىّ المتقين) أى ناصرهم ، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصى ، والاشارة بقوله (هذا) إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة ، وهو مبتدأ وخبره (بصائر للناس) أى براهين ودلائل لهم فما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب وقرئ « هذه بصائر » : أى هذه الآيات ، لأن القرآن بمعناها كما قال الشاعر : * سائل بنى أسد ما هذه الصوت * لأن الصوت بمعنى الصيحة (وهدى) أى رشد وطريق يؤدى إلى الجنة لمن عمل به (ورحمة) من الله فى الآخرة (لقوم يوقنون) أى من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشبه (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) أم هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى ، والهمزة لإنكار الحسبان ، والاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المائدة ، والجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين ، وهو معنى قوله (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى نسوّى بينهم مع اجتراحهم السيّئات ، وبين أهل الحسنات (سواء محياهم ومماتهم) فى دار الدنيا وفى الآخرة ، كلا لايستوون ، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة . وقيل المراد إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة . قرأ الجمهور « سواء » بالرفع على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى : إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء . وقرأ حمزة والكسائى وحفص « سواء » بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فى قوله (كالذين آمنوا) أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيد ، وقال معناه : نجعلهم سواء ، وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر « مماتهم » بالنصب على معنى سواء فى محياهم ومماتهم ، فلما سقط الخافض انتصب ، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال (ساء ما يحكمون) أى ساء حكمهم هذا الذى حكموا به (وخلق الله السموات والأرض بالحقّ) أى بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد ، ومحل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل ، أو من المفعول ، أو الباء للسببية ، وقوله (ولتجزى كلّ نفس بما كسبت) يجوز أن يكون على الحقّ ، لأن كلا منهما سبب ، فعطف السبب على السبب ، ويجوز أن يكون معطوفا على محذوف ، والتقدير : خلق الله السموات والأرض ليدلّ بهما على قدرته ولتجزى ، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة (وهم لايظلمون) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس لايظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب . ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه مايهواه فلا يهوى شيئا إلا ركبه ، وقال عكرمة : يعبد ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئا وهواه اتخذه إلاها . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر (وأضله الله على علم) أى على علم قد علمه ، وقيل المعنى : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لايستحقه وقال مقاتل : على علم منه أنه ضالّ لأنه يعلم أن الصنم لاينفع ولا يضرّ . قال الزجاج : على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، ومحل على علم النصب على الحال من الفاعل أو المفعول (وختم على سمعه وقلبه) أى طبع على سمعه حتى لايسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى (وجعل على بصره غشاوة) أى غطاء حتى لايبصر الرشد . قرأ الجمهور « غشاوة » بالألف مع كسر الغين . وقرأ حمزة والكسائى « غشوة » بغير ألف مع فتح الغين ، ومنه قول الشاعر :

لئن كنت ألبستنى غشوة　　لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة . وقرأ الحسن وعكرمة بضمها وهي لغة عكل (فمن يهديه من بعد الله) أي من بعد إضلال الله له (أفلا تذكرون) تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال . ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا) أي ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها (نموت ونحيا) أي يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، وقيل نموت نحن ويحيا فيها أولادنا ، وقيل نكون نطفا ميتة ثم نصير أحياء ، وقيل في الآية تقديم وتأخير : أي نحيا ونموت وكذا قرأ ابن مسعود ، وعلى كل تقدير فرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة (وما يهلكنا إلا الدهر) أي إلا مرور الأيام والليالي قال مجاهد : يعني السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ، والمعنى واحد . وقال قطرب : المعنى وما يهلكنا إلا الموت . وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله (وما لهم بذلك من علم) أي ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة . ثم بين كون ذلك صادرا منهم لاعن علم فقال (إن هم إلا يظنون) أي ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أي إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث (ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) أنا نبعث بعد الموت : أي ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء ، وإنما سماه حجة تهكما بهم . قرأ الجمهور بنصب حجتهم على أنه خبر كان ، واسمها (إلا أن قالوا) وقرأ زيد بن علي وعمرو بن عبيد وعبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم فقال (قل الله يحييكم) أي في الدنيا (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) بالبعث والنشور (لاريب فيه) أي في جمعكم ، لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته (ولكن أكثر الناس لايعلمون) بذلك ، فلهذا حصل معهم الشك في البعث ، وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) يقول : على هدى من أمر دينه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (سواء محياهم ومماتهم) قال : المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان (وأضله الله على علم) يقول : أضله في سابق علمه . وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عنه قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) قال الله : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار » .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧)

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا
كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣)
وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ
لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) .

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك فقال (ولله ملك السموات والأرض) أى هو المتصرف فيهما وحده لايشاركه أحد من عباده . ثم توعد أهل الباطل فقال (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) أى المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل فى يوم هو يخسر ، ويومئذ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلا توكيديا ، والأولى أن يكون العامل فى يوم هو ملك : أى ولله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولا ليخسر (وترى كل أمة جاثية) الخطاب لكل من يصلح له ، أو للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والأمة الملة ، ومعنى جاثية ؛ مستوفزة ، والمستوفز ؛ الذى لايصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله ، وذلك عند الحساب . وقيل معنى جاثية: مجتمعة قال الفراء : المعنى وترى أهل كلّ ذى دين مجتمعين . وقال عكرمة : متميزة عن غيرها . وقال مؤرج : معناه بلغة قريش : خاضعة . وقال الحسن : باركة على الركب والجثو الجلوس على الركب ، تقول جثا يجثو ويجثى جثوا وجثيا : إذا جلس على ركبتيه ، والأوّل أولى . ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب . وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب ، ومنه قول طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفائح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك . وقال يحيى بن سلام : هو خاصّ بالكفار ، والأوّل أولى . ويؤيده قوله (كل أمة تدعى إلى كتابها) ولقوله فيما سيأتى ـ فأما الذين آمنوا ـ ، ومعنى إلى كتابها : إلى الكتاب المنزل عليها ، وقيل إلى صحيفة أعمالها، وقيل

إلى حسابها ، وقيل اللوح المحفوظ ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور «كل أمة» بالرفع على الابتداء ، وخبره: تدعى ؛ وقرأ يعقوب الحضرمى بالنصب على البدل من كل أمة (اليوم تجزون ماكنتم تعملون) أى يقال لهم اليوم تجزون ماكنتم تعملون من خير وشرّ (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ) هذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة وقيل هو من قول الله سبحانه : أى يشهد عليكم ، وهو استعارة ، يقال نطق الكتاب بكذا : أى بين ، وقيل إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، ومحل ينطق النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة ، وجملة (إناكنا نستنسخ ماكنتم تعملون) تعليل للنطق بالحقّ أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم : أى بكتبها وتثبيتها عليكم . قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه قالوا : لأن الاستنساخ لايكون إلا من أصل . وقيل المعنى : نأمر الملائكة بنسخ ماكنتم تعملون . وقيل إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد ، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات وتركوا المباحات . وقيل إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عزّ وجلّ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها مالا ثواب فيه ولا عقاب (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى الجنة ، وهذا تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة (ذلك) أى الإدخال فى رحمته (هو الفوز المبين) أى الظاهر الواضح (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ ، لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله ، فكذبوها ولم يعملوا بها (فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) أى تكبرتم عن قبولها وعن الإيمان بها ، وكنتم من أهل الإجرام ، وهى الآثام ، والاجترام الاكتساب ، يقال فلان جريمة أهله : إذا كان كاسبهم ، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصى (وإذا قيل إن وعد الله حقّ) أى وعده بالبعث والحساب أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لامحالة (والساعة) أى القيامة (لاريب فيها) أى فى وقوعها . قرأ الجمهور «والساعة» بالرفع على الابتداء ، أو العطف على موضع اسم إن ، وقرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن (قلتم ما ندرى ما الساعة) أى أىّ شىء هى ؟ (إن نظنّ إلا ظنا) أى نحدس حدسا ونتوهم توهما . قال المبرد : تقديره : إن نحن إلا نظنّ ظنا ، وقيل التقدير : إن نظنّ إلاأنكم تظنون ظنا ، وقيل إن نظنّ مضمن معنى نعتقد : أى ما نعتقد إلا ظنا لاعلما ، وقيل إن ظنا له صفة مقدّرة : أى إلا ظنا بينا ، وقيل إن الظنّ يكون بمعنى العلم والشكّ ، فكأنهم قالوا : مالنا اعتقاد إلا الشك (وما نحن بمستيقنين) أى لم يكن لنا يقين بذلك ، ولم يكن معنا إلا مجرّد الظنّ أن الساعة آتية (وبدا لهم سيئات ماعملوا) أى ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) أى أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعا ، لأنه أضاف إلى الشىء ما هو واقع فيه (ومأواكم النار) أى مسكنكم ومستقرّكم الذين تأوون إليه (وما لكم من ناصرين) ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) أى ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا (وغرّتكم الحياة الدنيا) أى خدعتكم بزخارفها وأباطيلها ، فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور (فاليوم لايخرجون منها) أى من النار . قرأ الجمهور «يخرجون» بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وضمّ الرّاء مبنيا للفاعل ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم (ولا هم يستعتبون) أى لايسترضون ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله ، لأنه يوم لاتقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة

(فلله الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين) لا يستحقّ الحمد سواه . قرأ الجمهور « ربّ » فى المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف . وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن بالرفع فى الثلاثة على تقدير مبتدأ : أى هو ربّ السموات الخ (وله الكبرياء فى السموات والأرض) أى الجلال والعظمة والسلطان ، وخصّ السموات والأرض لظهور ذلك فيهما (وهو العزيز الحكيم) أى العزيز فى سلطانه . فلا يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل أفعاله وأقواله وجميع أقضيته .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن عبد الله ابن باباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين ، ثم قرأ سفيان (ويرى كل أمة جاثية) » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله (وترى كل أمة جاثية) قال : كل أمة مع نبيها حتى يجىء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) قال : هو أمّ الكتاب فيه أعمال بنى آدم (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) قال : هم الملائكة يستنسخون أعمال بنى آدم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه بمعناه مطوّلا ، فقام رجل فقال : يا ابن عباس ، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم وليلة ، فقال ابن عباس إنكم لستم قوما عربا (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) هل يستنسخ الشىء إلا من كتاب . وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال : إن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روى عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب وأخرج نحوه الحاكم عنه وصححه . وأخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال : إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقا لما فى كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) قال : نترككم . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار

تفسير سورة الأحقاف

هى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس وثلاثون

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول جميعهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : نزلت سورة حمٓ الأحقاف بمكة . وأخرج ابن الضريس والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت من أقرأكها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : والله لقد أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير ذا ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت يارسول الله ألم تقرئنى كذا وكذا ؟ قال بلى ، وقال الآخر : ألم تقرئنى كذا وكذا ؟ قال

بلى ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : ليقرأ كلّ واحد منكما ما سمع ، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتٰبِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰتِ ائْتُونِي بِكِتٰبٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثٰرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَايَسْتَجِيبُ لَهُ إِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كٰفِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ آيٰتُنَا بَيِّنٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰيهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفٰى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَاكُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَايُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحٰى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) .

قوله (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة غافر وما بعدها مستوفى وذكرنا وجه الإعراب وبيان ما هو الحقّ من أن فواتح السور من المتشابه الذى يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما) من المخلوقات بأسرها (إلا بالحقّ) هو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال أى إلا خلقا ملتبسا بالحقّ الذى تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله (وأجل مسمى) معطوف على الحقّ : أى إلا بالحقّ ، وبأجل مسمى على تقدير مضاف محذوف : أى وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهى فيه السموات والأرض وما بينهما وتبدّل الأرض غير الأرض والسموات . وقيل المراد بالأجل المسمى هو انتهاء أجل كلّ فرد من أفراد المخلوقات ، والأوّل أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدّة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلا وعبثا لغير شىء ، بل خلقه للثواب والعقاب (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى عما أنذروا وخوّفوا به فى القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدّين له ، والجملة فى محل نصب على الحال : أى والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و « ما » فى قوله (ما أنذروا) يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله) أى أخبرونى ما تعبدون من دون الله من الأصنام (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى أىّ شىء خلقوا منها ، وقوله « أرونى » يحتمل أن يكون

تأكيدا لقوله أرأيتم : أى أخبرونى أرونى والمفعول الثانى لأرأيتم ماذا خلقوا ، ويحتمل أن لا يكون تأكيدا ، بل يكون هذا من باب التنازع ، لأن أرأيتم يطلب مفعولا ثانيا ، وأرونى كذلك (أم لهم شرك فى السموات) أم هذه هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، والمعنى : بل ألهم شركة مع الله فيها ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع (ائتونى بكتاب من قبل هذا) هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن ، فإنه قد صرّح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لاشريك له ، وأن الساعة حقّ لاريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أوحجة تنافى هذه الحجة (أوأثارة من علم) . قال فى الصحاح : أو أثارة من علم بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك . قال ابن قتيبة : أى بقية من علم الأوّلين . وقال الفراء والمبرد : يعنى ما يؤثر عن كتب الأوّلين . قال الواحدى : وهو معنى قول المفسرين . قال عطاء : أو شىء تأثرونه عن نبىّ كان قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء . وقال الزجاج : أو أثارة : أى علامة ، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهى الرواية : يقال أثرت الحديث آثره أثرة وأثارة وأثرا : إذا ذكرته عن غيرك . قرأ الجمهور « أثارة » على المصدر كالسماحة والغواية . وقرأ ابن عباس وزيد ابن على وعكرمة والسلمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف . وقرأ الكسائى « أثرة » بضم الهمزة وسكون الثاء (إن كنتم صادقين) فى دعواكم التى تدّعونها ، وهى قولكم إن لله شريكا ولم تأتوا بشىء من ذلك فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى والنقلى على خلافه (ومن أضلّ ممن يدعوا من دون الله من لايستجيب له) أى لاأحد أضل منه ولا أجهل فإنه دعا من لايسمع ، فكيف يطمع فى الإجابة فضلا عن جلب نفع أو دفع ضرّ ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضلّ الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله (إلى يوم القيامة) غاية لعدم الاستجابة (وهم عن دعائهم غافلون) الضمير الأوّل للأصنام ، والثانى لعابديها ، والمعنى : والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك ، لايسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع فى الضميرين باعتبار معنى من ، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) أى إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا وقد قيل إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم . وقيل المراد أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال . وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنهم يتبرّءون ممن عبدهم يوم القيامة كما فى قوله تعالى ـ تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون ـ (وكانوا بعبادتهم كافرين) أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين : أى جاحدين مكذبين وقيل الضمير فى كانوا للعابدين كما فى قوله ـ والله ربنا ماكنا مشركين ـ ، والأوّل أولى (وإذا تتلى عليهم آياتنا) أى آيات القرآن حال كونها (بينات) واضحات المعانى ظاهرات الدلالات (قال الذين كفروا للحقّ) أى لأجله وفى شأنه ، وهو عبارة عن الآيات (لما جاءهم) أى وقت أن جاءهم (هذا سحر مبين) أى ظاهر السحرية (أم يقولون افتراه) أم هى المنقطعة : أى بل أيقولون افتراه والاستفهام للإنكاروالتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحرا إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، وفى ذلك من التوبيخ والتقريع مالا يخفى . ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير : كما تدّعون ، فلا تقدرون على أن تردّوا عنى عقاب الله ، فكيف افترى على الله لأجلكم وأنتم لاتقدرون على دفع عقابه عنى (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى تخوضون فيه من التكذيب والإفاضة فى الشىء الخوض فيه والاندفاع فيه ، يقال أفاضوا فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، وأفاض البعير : إذا دفع جرّته من كرشه ،

والمعنى : الله أعلم بما تقولون فى القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له والقول بأنه سحر وكهانة (كفى به شهيدا بينى وبينكم) فإنه يشهد لى بأن القرآن من عنده وأنى قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفى هذا وعيد شديد (وهو الغفور الرحيم) لمن تاب وآمن وصدّق بالقرآن وعمل بما فيه : أى كثير المغفرة والرحمة بليغهما (قل ماكنت بدعا من الرسل) البدع من كلّ شيء المبدأ : أى ما أنا بأوّل رسول ، قد بعث الله قبلى كثيرا من الرسل. قيل البدع بمعنى البديع كالخفّ والخفيف ، والبديع مالم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع ، وشيء بدع بالكسر : أى مبتدع ، وفلان بدع فى هذا الأمر : أى بديع كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالا غدت من بعد موسى وأسعدا

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبى عبلة « بدعا » بفتح الدال على تقدير حذف المضاف : أى ماكنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء وكسر الدال على الوصف (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) أى ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون ؟ وهذا إنما هو فى الدنيا . وأما فى الآخرة فقد علم أنه وأمته فى الجنة وأن الكافرين فى النار . وقيل إن المعنى : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم يوم القيامة ، وإنها لما نزلت فرح المشركون وقالوا : كيف نتبع نبيا لايدرى ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لافضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى ـ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ـ والأوّل أولى (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) قرأ الجمهور « يوحى » مبنيا للمفعول : أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع من عندى شيئا ، والمعنى : قصر أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم على الوحى لاقصر اتباعه على الوحى (وما أنا إلا نذير مبين) أى أنذركم عقاب الله وأخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح .

وقد أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس (أو أثارة من علم) قال : الخط . قال سفيان : لاأعلم إلا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، يعنى أن الحديث مرفوع لاموقوف على ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان نبىّ من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم » ومعنى هذا ثابت فى الصحيح ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة . ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ، وأين السند الصحيح إلى ذلك النبىّ ، أو إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا الخط هو على صورة كذا ، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (أو أثارة من علم) قال : حسن الخط . وأخرج الطبرانى فى الأوسط والحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس (أو أثارة من علم) قال : خط كان يخطه العرب فى الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أو أثارة من علم) يقول : بينة من الأمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله (قل ماكنت بدعا من الرسل) يقول : لست بأوّل الرسل (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) فأنزل الله بعد هذا ـ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ـ وقوله ـ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ـ الآية ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعا . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله ـ ليغفر لك الله ـ وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء قالت « لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله ماأدرى وأنا رسول الله مايفعل بى ولابكم ، قالت أمّ العلاء : فوالله لاأزكى بعده أحدا » .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

قوله (قل أرأيتم) أى أخبرونى (إن كان من عند الله) يعنى ما يوحى إليه من القرآن ، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : إن كان مرسلا من عند غير الله ، وقوله (وكفرتم به) فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) والمعنى : أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله فى التوراة على مثله : أى القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور و غير ذلك ، وهذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ . وقال الجرجانى : مثل صلة ، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدى (فآمن) الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة و غيرهم ، وفى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد رجلا من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتى فى آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام وأن هذه الآية مدنية لامكية . وروى عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام ، وقوله (واستكبرتم) معطوف على شهد : أى آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان (إن الله لايهدى القوم الظالمين) فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الايمان ، ومن فقد هداية الله له ضلّ .

وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو ؟ فقال الزجاج : محذوف تقديره أتؤمنون ، وقيل قوله (فآمن واستكبرتم) وقيل محذوف تقديره : فقد ظلمتم لدلالة (إن الله لايهدي القوم الظالمين) عليه ، وقيل تقديره : فمن

أضلّ منكم ، كما فى قوله ـ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلّ ـ ـ الآية . وقال أبو على الفارسى تقديره أتأمنون عقوبة الله ، وقيل التقدير : ألستم ظالمين . ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) أى لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أى لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوّة خيرا ما سبقونا إليه لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختصّ برحمته من يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء (وإذ لم يهتدوا به) أى بالقرآن ، وقيل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل بالإيمان (فسيقولون هذا إفك قديم) فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا أساطير الأوّلين ، والعامل فى إذ مقدّر : أى ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه « فسيقولون » لتضادّ الزمانين : أعنى المضىّ والاستقبال ولأجل الفاء أيضا ، وقيل إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور : أى لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون (ومن قبله كتاب موسى) قرأ الجمهور بكسر الميم من « من » على أنها حرف جرّ ، وهى مع مجرورها خبر مقدّم ، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ، والكلام مسوق لردّ قولهم (هذا إفك قديم) فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة وتوافقا فى أصول الشرائع يدلّ على أنه حقّ وأنه من عند الله ، ويقتضى بطلان قولهم . وقرئ بفتح ميم من على أنها موصولة ونصب كتاب : أى وآتينا من قبله كتاب موسى ، ورويت هذه القراءة عن الكلبى (إماما ورحمة) أى يقتدى به فى الدين ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال . قاله الزجاج وغيره . وقال الأخفش على القطع ، وقال أبو عبيدة : أى جعلناه إماما ورحمة (وهذا كتاب مصدّق) يعنى القرآن فانه مصدّق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ولغيره من كتب الله ، وقيل مصدّق للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وانتصاب (لسانا عربيا) على الحال الموطئة وصاحبها الضمير فى مصدقّ العائد إلى كتاب ، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق ، والأوّل أولى ، وقيل هو على حذف مضاف : أى ذا لسان عربىّ ، وهو النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (لينذر الذين ظلموا) قرأ الجمهور « لينذر » بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب : أى لينذر الكتاب الذين ظلموا ، وقيل الضمير راجع إلى الله ، وقيل إلى الرسول ، والأوّل أولى . وقرأ نافع وابن عامر والبزى بالفوقية على أن فاعله النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقوله (وبشرى للمحسنين) فى محل نصب عطفا على محل لينذر . وقال الزجاج : الأجود أن يكون فى محل رفع : أى وهو بشرى ، وقيل على المصدرية لفعل محذوف : أى وتبشر بشرى ، وقوله « للمحسنين » متعلق ببشرى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة (فلا خوف عليهم) الفاء زائدة فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط (ولا هم يحزنون) المعنى : أنهم لايخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب وأن ذلك مستمر دائم (أولئك أصحاب الجنة) أى أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم (خالدين فيها) وفى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفى الخوف والحزن على الدوام والاستقرار فى الجنة على الأبد مما لاتطلب الأنفس سواه ولا تتشوّف إلى ما عداه (جزاء بما كانوا يعملون) أى يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) قرأ الجمهور « حسنا » بضم الحاء وسكون السين . وقرأ علىّ والسلمى بفتحهما . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إحسانا » وقد تقدّم فى سورة العنكبوت (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) من غير اختلاف بين القراء وتقدّم فى سورة الأنعام وسورة

بنى إسرائيل ـ وبالوالدين إحسانا ـ فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء فى هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية : أى وصيناه أن يحسن إليهما حسنا ، أو إحسانا ، وقيل على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى ألزمنا ، وقيل على أنه مفعول له (حملته أمه كرها ووضعته كرها) قرأ الجمهور « كرها » فى الموضعين بضم الكاف . وقرأ أبوعمرو وأهل الحجاز بفتحهما . قال الكسائى : وهما لغتان بمعنى واحد . قال أبوحاتم : الكره بالفتح لايحسن لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبوعبيد قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح إلا التى فى سورة البقرة ـ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ـ وقيل إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ماحمل على غيره . وإنما ذكر سبحانه حمل الأمّ ووضعها تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الذى وصى الله به ، والمعنى : أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره . ثم بين سبحانه مدّة حمله وفصاله فقال (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى مدّتهما هذه المدّة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع : أى يفطم عنه ، وقد استدلّ بهذه الآية على أن أقلّ الحمل ستة أشهر ، لأن مدّة الرضاع سنتان : أى مدّة الرضاع الكامل كما فى قوله ـ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ـ فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدّة الحمل ، وأكثر مدّة الرضاع . وفى هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدّة بتعب ونصب ولم يشاركها الأب فى شىء من ذلك . قرأ الجمهور « وفصاله » بالألف ، وقرأ الحسن ويعقوب وقتادة والجحدرى « وفصله » بفتح الفاء وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى : كالفطم والفطام والقطف والقطاف (حتى إذا بلغ أشدّه) أى بلغ استحكام قوّته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ولا بدّ من تقدير جملة تكون حتى غاية لها : أى عاش واستمرّت حياته حتى بلغ أشدّه ، قيل بلغ عمره ثمانى عشرة سنة ، وقيل الأشد الحلم قاله الشعبى وابن زيد . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأوّل أولى لقوله (وبلغ أربعين سنة) فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد . قال المفسرون : لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة (قال ربّ أوزعنى) أى ألهمنى . قال الجوهرى : استوزعت الله فأوزعنى : أى استلهمته فألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) أى ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية ، وعلى والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيرا . وقيل أنعمت علىّ بالصحة والعافية ، وعلى والدىّ بالغنى والثروة ، والأولى عدم تقييد النعمة عليه وعلى أبويه بنعمة مخصوصة (وأن أعمل صالحا ترضاه) أى وألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى (وأصلح لى فى ذرّيتى) أى اجعل ذرّيتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكنين منه . وفى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث (إنى تبت إليك) من ذنوبى (وإنى من المسلمين) أى المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس وهو مبتدأ ، وخبره (الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا) من أعمال الخير فى الدنيا ، والمراد بالأحسن الحسن كقوله ـ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ـ وقيل إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لاما لايثاب عليه كالمباح فإنه حسن وليس بأحسن (ونتجاوز عن سيئاتهم) فلا نعاقبهم عليها . قرأ الجمهور « يتقبل ويتجاوز » على بناء الفعلين للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز الغفران ، وأصله من جزت الشىء : إذا لم تقف عليه ، ومعنى (فى أصحاب الجنة) أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم ، فالجارّ والمجرور فى محل النصب على الحال كقولك : أكرمنى الأمير فى أصحابه : أى كائنا فى جملتهم ، وقيل إن فى بمعنى مع : أى مع أصحاب الجنة ، وقيل إنهما خبر مبتدإ محذوف : أى هم فى أصحاب الجنة (وعد الصدق الذى كانوا

يوعدون) وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله (أولئك الذين نتقبل عنهم) الخ فى معنى الوعد بالتقبل والتجاوز ، ويجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف . أى وعدهم الله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا .

وقد أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعى قال : « انطلق النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يحطّ الله تعالى عن كل يهودىّ تحت أديم السماء الغضب الذى عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال : أبيتم فو الله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا ، والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، قال : فإنى أشهد بالله أنه النبىّ الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردّوا عليه وقالوا شرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة ، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا وابن سلام ، فأنزل الله ـ قل أرأيتم إن كان من عند الله ـ إلى قوله ـ لا يهدى القوم الظالمين » وصححه السيوطى . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت ـ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ـ . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله نزلت فىّ ـ وشهد شاهد من بنى إسرائيل ـ ونزل فىّ ـ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ـ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) قال . عبد الله بن سلام ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال ناس من المشركين نحن أعزّ ونحن ونحن ، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) . وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها زنيرة ، وكان عمر يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله فى شأنها (وقال الذين كفروا) الآية . وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون لو كان خيرا ما جعلهم الله أوّل الناس فيه » . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل قوله (ووصينا الإنسان بوالديه) الآية إلى قوله (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى أبى بكر الصديق . وأخرج عبد الرّزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك . فقلت لعمر : لم تظلم ؟ قال كيف ؟ قلت اقرأ ـ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ـ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ـ كم الحول ؟ قال سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال اثنا عشر شهرا ، قلت : فأربعة وعشرون شهرا حولان كاملان ، ويؤخر الله من الحمل ما شاء ويقدّم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان ، لأن الله يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق (حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعنى) الآية ، فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعا وإخوته وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضا - فأما من أعطى واتقى - إلى آخر السورة .

وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَاهَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِنُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال (والذى قال لوالديه أف لكما) الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولهذا أخبر عنه بالجمع ، وأفّ كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه . قرأ نافع وحفص « أفّ » بكسر الفاء مع التنوين . وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بكسر من غير تنوين وهى لغات ، وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل ، واللام فى قوله « لكما » لبيان التأفيف : أى التأفيف لكما كما فى قوله - هيت لك - قرأ الجمهور (أتعداننى) بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة وأسكنها الباقون . وقرأ أبو حيوة والمغيرة وهشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع . وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى ، كأنهم فرّوا من توالى مثلين مكسورين . وقرأ الجمهور (أن أخرج) بضم الهمزة وفتح الراء مبنيا للمفعول . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبنيا للفاعل . والمعنى : أتعداننى أن أبعث بعد الموت ، وجملة (وقد خلت القرون من قبلى) فى محل نصب على الحال : أى والحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة (وهما يستغيثان الله) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدّى بنفسه وبالباء : يقال استغاث الله واستغاث به . وقال الرازى : معناه يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل ، وقيل الإستغاثة الدعاء فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : يقال أجاب الله دعاءه وغواثه ، وقوله (ويلك) هو بتقدير القول : أى يقولان له ويلك ، وليس المراد به الدعاء عليه ، بل الحثّ له على الإيمان ، ولهذا قالا له (آمن إن وعد الله حقّ) أى آمن بالبعث إن وعد الله حقّ لا خلف فيه (فيقول) عند ذلك مكذبا لما قالاه (ماهذا إلا أساطير الأوّلين) أى ماهذا الذى تقولانه من البعث إلا

أحاديث الأوّلين وأباطيلهم التي سطرونها فى الكتب . قرأ الجمهور : إن وعد الله بكسر إن على الاستئناف أو التعليل وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء . أى آمن بأن وعد الله بالبعث حق (أولئك الذين حقّ عليهم القول) أى أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول : أى وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس - لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين - كما يفيده قوله (فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس) ، وجملة (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن ابن أبى بكر وأنه الذى قال لوالديه ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء الله (ولكلّ درجات مما عملوا) أى لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سفلا ، ودرجات أهل الجنة تذهب علوّا (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاء أعمالهم . قرأ الجمهور « لنوفيهم » بالنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء التحتية . واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم (وهم لايظلمون) أى لايزاد مسىء ولا ينقص محسن ، بل يوفّى كل فريق مايستحقه من خير وشرّ ، والجملة فى محلّ نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) الظرف متعلق بمحذوف : أى اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها ، وقيل معنى يعرضون يعذبون من قولهم : عرضه على السيف ، وقيل فى الكلام قلب . والمعنى : تعرض النار عليهم (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) أى يقال لهم ذلك ، قيل وهذا المقدّر هو الناصب للظرف ، والأوّل أولى قرأ الجمهور : « أذهبتم » بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين ، ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ . قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين . قال الكلبى : المراد بالطيبات اللذات وماكانوا فيه من المعايش (واستمتعتم بها) أى بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التى فى معاصى الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيبا منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى العذاب الذى فيه ذلّ لكم وخزى عليكم . قال مجاهد وقتادة : الهون الهوان بلغة قريش (بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحقّ) أى بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده (وبما كنتم تفسقون) أى تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب فى عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصى الله سبحانه وتعالى ، وهذا شأن الكفرة فانهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا ، فقال خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه (والذى قال لوالديه أفّ لكما) فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبى بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أفّ لكما) الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته ، ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أبا مروان ومروان فى صلبه ، فمروان من لعنه الله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هذا ابن لأبى بكر . وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدّى ، ولا يصح هذا كما قدّمنا .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّى أَرَيٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصٰرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰتِ ٱللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

قوله (واذكر أخا عاد) أى واذكر يا محمد لقومك أخاعاد ، وهو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم فى النسب ، لافى الدين ، وقوله (إذ أنذرقومه) بدل اشتمال منه : أى وقت إنذاره إياهم (بالأحقاف) وهى ديارعاد جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم ، والمعنى أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا ، وقيل أمره بأن يتذكر فى نفسه قصتهم مع هودليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه . قال عطاء : الأحقاف رمال بلاد الشحر . وقال مقاتل : هى باليمن فى حضرموت وقال ابن زيد : هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) أى وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده كذا قال الفراء وغيره . وفى قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود وبين قوله لقومه (إنى أخاف عليكم) والأول أولى . والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكيا عنه (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقيل إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام وأوفق بالمعنى (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) أى لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل لتزيلنا ، وقيل لتمنعنا والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو   كا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك (فأتنا بما تعدنا) من العذاب العظيم (إن كنت

من الصادقين) فى وعدك لنا به (قال إنما العلم عند الله) أى إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لاعندى (وأبلغكم ما أرسلت به) إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجىء العذاب فما أوحاه إلىّ (ولكنى أراكم قوما تجهلون) حيث بقيتم مصرّين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ماليس من وظائف الرسل (فلما رأوه عارضا) الضمير يرجع إلى « ما » فى قوله « بما تعدنا » . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور وبينه قوله (عارضا) فالضمير يعود إلى السحاب : أى فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضا نصب على التكرير : يعنى التفسير ، وسمى السحاب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء . قال الجوهرى : العارض السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله ـ هذا عارض ممطرنا ـ وانتصاب عارضا على الحال أو التمييز (مستقبل أوديتهم) أى متوجها نحو أوديتهم . قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم : يقال له المغتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى غيم فيه مطر ، وقوله (مستقبل أوديتهم) صفة لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال (بل هو ما استعجلتم به) يعنى من العذاب حيث قالوا ـ فائتنا بما تعدنا ـ وقوله (ريح) بدل من ما ، أو خبر مبتدإ محذوف ، وجملة (فيها عذاب أليم) صفة لريح ، والريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه (تدمر كل شىء بأمر ربها) هذه الجملة صفة ثانية لريح : أى تهلك كل شىء مرّت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار ، وقرئ « يدمر » بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كلّ على الفاعلية من دمر دمارا ، ومعنى (بأمر ربها) أن ذلك بقضائه وقدره (فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم) أى لاترى أنت يا محمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم . قرأ الجمهور « لاترى » بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم . وقرأ حمزة وعاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع مساكنهم . قال سيبويه : معناه لايرى أشخاصهم إلا مساكنهم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية . قال الكسائى والزجاج : معناها لايرى شىء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى كما تقول : ماقام إلا هند ، والمعنى : ماقام أحد إلا هند ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم (كذلك نجزى القوم المجرمين) أى مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء ، وقد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف (و لقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) قال المبرد : ما فى قوله فيما بمنزلة الذى وإن بمنزلة ما : يعنى النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم فى الذى مامكناكم فيه من المال وطول العمر وقوّة الأبدان ، وقيل « إن » زائدة وتقديره : ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال قال القتيبى ، ومثله قول الشاعر:

فما إن طبن جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

والأوّل أولى لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) أى إنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواسّ التى بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء) أى فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدّمنا من الكلام على وجه إفراد السمع وجمع البصر مايغنى عن الإعادة ، و « من » فى (من شىء) زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شىء من الاغناء ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف متعلق بأغنى ، وفيها معنى التعليل : أى لأنهم كانوا يجحدون (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا (فائتنا بما تعدنا) . (ولقد أهلكنا ما حولكم

من القرى) الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم (وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون) أي بينا الحجج ونوّعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا . ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أي فهلا نصرهم آلهتهم التى تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا ـ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكسائى : القربان كل مايتقرّب به إلى الله من طاعة ونسيكة والجمع قرابين كالرهبان والرهابين ، وأحد مفعولى اتخذوا ضمير راجع إلى الموصول ، والثانى آلهة ، وقربانا حال ، ولايصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة بدلا منه لفساد المعنى ، وقيل يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبوحيان ، وأنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه (بل ضلوا عنهم) أي غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم ، وقيل بل هلكوا ، وقيل الضمير فى ضلوا راجع إلى الكفار : أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها ، والأوّل أولى ، والإشارة بقوله (وذلك) إلى ضلال آلهتهم . والمعنى وذلك الضلال والضياع أثر (إفكهم) الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقرّبهم إلى الله . قرأ الجمهور « إفكهم » بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا : أى كذبهم . وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل : أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء : أى صيرهم آفكين . قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ وكسر الفاء بمعنى صارفهم (وما كانوا يفترون) معطوف على إفكهم : أى وأثر افترائهم أو أثر الذى كانوا يفترونه . والمعنى : وذلك إفكهم : أى كذبهم الذى كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى الله وتشفع لهم (وما كانوا يفترون) أى يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف جبل بالشام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه فى قوله (هذا عارض ممطرنا) قال : هو السحاب . وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غيما أوريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ، قال : « ياعائشة : وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب ، فقالوا ـ هذا عارض ممطرنا ـ » . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير مافيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ مافيها وشرّ ما أرسلت به ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرّى عنه ، فسألته فقال : لا أدرى ، لعله كما قال قوم عاد ـ هذا عارض ممطرنا ـ » وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم) قالوا غيم فيه مطر ، فأوّل ماعرفوا أنه عذاب رأوا ماكان خارجا من رجالهم ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما لهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم فى البحر ، فهو قوله (فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

عنه فى قوله (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) يقول : لم نمكنكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : عاد مكنوا فى الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشدّ قوة وأكثر أموالا وأطول أعمارا .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ
مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا
دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ
دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)
فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

لما بين سبحانه أن فى الإنس من آمن ، وفيهم من كفر بين أيضا أن فى الجنّ كذلك ، فقال (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ) العامل فى الظرف مقدّر : أى واذكر إذ صرفنا . أى وجهنا إليك نفرا من الجنّ وبعثناهم إليك ، وقوله (يستمعون القرآن) فى محل نصب صفة ثانية لنفرا أو حال لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى (فلما حضروه) أى حضروا القرآن عند تلاوته ، وقيل حضروا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى (قالوا أنصتوا) أى قال بعضهم لبعض اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا (فلما قضى) قرأ الجمهور « قضى » مبنيا للمفعول : أى فرغ من تلاوته . وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ولاحق بن حميد وأبو مجلز على البناء للفاعل : أى فرغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى « حضروه » للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (ولوا إلى قومهم منذرين) أى انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومحذرين لهم ، وانتصاب : منذرين على الحال المقدّرة أى مقدّرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ذلك (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) يعنون القرآن ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا ياقومنا . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا (مصدّقا لما بين يديه) أى لما قبله من الكتب المنزّلة (يهدى إلى الحقّ) أى إلى الدين الحقّ (وإلى طريق مستقيم) أى إلى طريق الله القويم . قال مقاتل : لم يبعث الله نبيا إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه

وآله وسلم (ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به) يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أو القرآن (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعضها ، وهو ماعدا حقّ العباد ، وقيل إن من هنا لابتداء الغاية . والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ماهو الأولى ، وقيل هى زائدة (ويجركم من عذاب أليم) وهو عذاب النار ، وفى هذه الآية دليل على أن حكم الجنّ حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة . والأوّل أولى ، وبه قال مالك والشافعى وابن أبى ليلى . وعلى القول الأوّل ، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا ترابا ، كما يقال للبهائم والثانى أرجح . وقد قال الله سبحانه فى مخاطبة الجنّ والإنس - ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان - فامتنّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولا ينافى هذا الاقتصار هاهنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد يجازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لايجازى محسنهم بالجنة وهو مقام فضل ، ومما يؤيد هذا أيضا ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة ، وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال لا إله إلا الله الجنة ، وغير ذلك مما هو كثير فى الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم أم لا ، وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى - . وقال - وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق - وقال سبحانه فى إبراهيم الخليل - وجعلنا فى ذرّيته النبوّة والكتاب - ، فكل نبىّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذرّيته ، وأما قوله تعالى فى سورة الأنعام - يامعشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم - فقيل المراد من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما ، وهم الإنس : كقوله - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان - أى من أحدهما (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لا يفوت الله ولا يسبقه ولا يقدر على الهرب منه ، لأنه وإن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لاسبيل له إلى الخروج منها ، وفى هذا ترهيب شديد (وليس له من دونه أولياء أى أنصار يمنعونه من عذاب الله ، بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من لايجب داعى الله ، وأخبر أنهم (فى ضلال مبين) أى ظاهر واضح . ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث ، فقال (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض) الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدّر : أى ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذى خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداء (ولم يعى بخلقهنّ) أى لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال عىّ بالأمر وعيي : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامه

قرأ الجمهور « ولم يعى » بسكون العين وفتح الياء مضارع عي . وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء (بقادر على أن يحيى الموتى) . قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ، كما فى قوله - وكفى بالله شهيدا - . قال الكسائى والفراء والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور فى محل رفع على أنهما خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر والأعرج والجحدرى وابن أبى إسحاق ويعقوب وزيد بن علىّ « يقدر » على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء فى خبر أنّ قبيح (بلى إنه على كل شىء قدير) لايعجزه شىء (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) الظرف متعلق بقول مقدّر : أى يقال ذلك اليوم للذين كفروا (أليس هذا بالحق) وهذه الجملة هى المحكية

بالقول ، والإشارة بهذا إلى ماهو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفى الاكتفاء بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لايخفى ، كأنه أمر لايمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه (قالوا بلى وربنا) اعترفوا حين لاينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ، لأن المشاهدة هى حق اليقين الذى لايمكن جحده ولا إنكاره (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم بهذا فى الدنيا وإنكاركم له ، وفى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم . لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوّة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) والفاء جواب شرط محذوف : أى إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولوا العزم : أى أرباب الثبات والحزم فإنك منهم . قال مجاهد : أولوا العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب وليس منهم يونس . وقال الشعبى والكلبى : هم الذين أمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة ، وقيل هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط . واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم - أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده - وقيل إن الرسل كلهم أولوا عزم ، وقيل هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل . وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم وموسى وداود وعيسى (ولا تستعجل لهم) أى لاتستعجل العذاب يامحمد للكفار . لما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال (كأنهم يوم يرون مايوعدون) من العذاب (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم . قرأ الجمهور (بلاغ) بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هذا الذى وعظتهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أوهذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله (ولا تستعجل) أى لهم بلاغ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وزيد بن علىّ بلاغا بالنصب على المصدر : أى بلغ بلاغا ، وقرأ أبو مجلز « بلغ » بصيغة الأمر . وقرئ « بلغ » بصيغة الماضى (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) قرأ الجمهور « فهل يهلك » على البناء للمفعول . وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لايهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى الله . قال قتادة : لايهلك على الله إلا هالك مشرك . قيل وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء . قال الزجاج : تأويله لايهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن منيع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعنى الجن على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا أنصتوا ، قالوا صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزلَ الله (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ) إلى قوله (ضلال مبين) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن الزبير (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن) قال : بنخلة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى العشاء الآخرة - كادوا يكونون عليه لبدا - . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه(وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ) الآية . قال كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسلا إلى قومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبونعيم عنه

نحوه وقال : أتوه ببطن نخلة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عنه أيضا قال : صرفت الجنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّتين وكانوا أشراف الجنّ بنصيبين . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ قال : آذنته بهم شجرة . وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منكم أحدا ليلة الجنّ ؟ قال : ماصحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا اغتيل استطير مافعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فأخبرناه فقال : إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الجنّ . وقد روى نحو هذا من طرق . والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلى الله عليه وآله وسلم مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود ولم يحضر فى الأخرى . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجنّ بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّة بعد مرّة وأخذوا عنه الشرائع . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال (أولوا العزم من الرسل) النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما قال : ياعائشة إن الدنيا لاينبغى لمحمد ولا لآل محمد ، ياعائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ماكلفهم ، فقال (اصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وإنى والله لأصبرنّ كما صبروا جهدى ، ولا قوّة إلا بالله .

تفسير سورة محمد
صلى الله عليه وآله وسلم

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا . وهى تسع وثلاثون آية ، وقيل ثمان وثلاثون

وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع ؛ إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه ، فنزل قوله تعالى (وكأين من قرية هى أشدّ قوّة من قريتك) وقال الثعلبى : إنها مكية . وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير وهو غلط من القول ، فالسورة مدنية كما لايخفى . وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : نزلت سورة القتال بالمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عنه قال : نزلت سورة محمد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بهم فى المغرب ـ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ـ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢).

قوله (الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله) هم كفار قريش كفروا بالله وصدّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد والسدّى. وقال الضحاك: معنى عن سبيل الله: عن بيت الله بمنع قاصديه. وقيل هم أهل الكتاب والموصول مبتدأ وخبره (أضلّ أعمالهم) أى أبطلها وجعلها ضائعة. قال الضحاك: معنى أضلّ أعمالهم أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الدائرة عليهم فى كفرهم. وقيل أبطل ماعملوه فى الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق، من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقرى الأضياف، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم ببطلانها. ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد) ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل إنها نزلت فى الأنصار، وقيل فى ناس من قريش، وقيل فى مؤمنى أهل الكتاب، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالذكر مع اندراجه

تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه وعلوّ مكانه وجملة (وهو : الحقّ من ربهم) معترضة بين المبتدإ ، وهو قوله (والذين آمنوا) ، وبين خبره وهو قوله (كفر عنهم سيآتهم) ومعنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله ، وقوله (من ربهم) فى محل نصب على الحال ، ومعنى كفرعنهم سيآتهم : أى السيآت التى عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح (وأصلحَ بالهم) أى شأنهم وحالهم . قال مجاهد : شأنهم ، وقال قتادة : حالهم ، وقيل أمرهم ، والمعانى متقاربة . قال المبرد : البال الحال هاهنا . قيل والمعنى : أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم وأرشدهم إلى أعمال الخير ، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ، ونحوذلك ، وقال النقاش : إن المعنى أصلح نياتهم ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلى بالودّ أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

والإشارة بقوله (ذلك) إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، وقيل إنه خبر مبتدأ محذوف : أى الأمر ذلك (ب)سبب (أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربهم) فالباطل الشرك ، والحق التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم : أى أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة . قال الزجاج : كذلك يضرب يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين : يعنى أن من كان كافراً أضلّ الله عمله ، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار ، والمراد بالذين كفروا المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب ، وانتصاب ضرب على أنه مصدر لفعل محذوف . قال الزجاج : أى فاضربوا الرقاب ضربا ، وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر مايكون بقطعها ، وقيل هو منصوب على الإغراء . قال أبوعبيدة : هو كقولهم : يانفس صبراً ، وقيل التقدير : اقصدوا ضرب الرقاب . وقيل إنما خصّ ضرب الرقاب لأن فى التعبير عنه من الغلظة والشدّة ماليس فى نفس القتل، وهى حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوّه وأحسن أعضائه (حتى إذا أثخنتموهم) أى بالغتم فى قتلهم وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لالبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشىء الثخين : أى الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال (فشدّوا الوثاق) الوثاق بالفتح ويجىء بالكسر : اسم الشىء الذى يوثق به كالرباط . قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق : أى شدّه ، قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه . قرأ الجمهور « فشدّوا » بضم الشين ، وقرأ السلمى بكسرها . وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتوا ، والمعنى : اذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق (فإما منا بعد وإما فداء) أى فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء ، والمنّ : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : مايفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم . قرأ الجمهور « فداء » بالمد . وقرأ ابن كثير « فدى » بالقصر ، وإنما قدّم المنّ على الفداء ، لأنه من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك فقال (حتى تضع الحرب أوزارها) أوزار الحرب التى لاتقوم إلا بها من السلاح والكراع ، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور

إلى غاية هي أن لايكون حرب مع الكفار . قال مجاهد : المعنى حتى لايكون دين غير دين الإسلام وبه قال الحسن والكلبي . قال الكسائي : حتى يسلم الخلق . قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالا : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق .

وقد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ، فقيل إنها منسوخة فى أهل الأوثان وأنه لايجوز أن يفادوا ولا يمنّ عليهم ، والناسخ لها قوله ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ وقوله ـ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ـ وقوله ـ وقاتلوا المشركين كافة ـ وبهذا قال قتادة والضحاك والسدّى وابن جريج وكثير من الكوفيين : قالوا : والمائدة آخر مانزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة . وقيل إن هذه الآية ناسخة لقوله ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ روى ذلك عن عطاء وغيره . وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة والإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المنّ والفداء . وبه قال مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبو عبيد وغيرهم . وهذا هو الراجح لأن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك . وقال سعيد بن جبير : لايكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله ـ ماكان لنبىّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ـ فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى الأمر ذلك ، وقيل فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل : أى افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدلّ عليه ماتقدّم : أى ذلك حكم الكفار ، ومعنى لو يشاء الله لانتصر منهم : أى قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب (ولكن) أمركم بحربهم (ليبلو بعضكم ببعض) أى ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ويعذب الكفار بأيديهم (والذين قتلوا فى سبيل الله) قرأ الجمهور قاتلوا مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وحفص « قتلوا » مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا . وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حيوة « قتلوا » على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى والرابعة : أن المجاهدين فى سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين فى سبيل الله كذلك لايضيع الله سبحانه أجرهم . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد . ثم ذكر سبحانه مالهم عنده من جزيل الثواب فقال (سيهديهم) أى سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد فى الدنيا ويعطيهم الثواب فى الآخرة (ويصلح بالهم) أى حالهم وشأنهم وأمرهم . قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير (ويدخلهم الجنة عرّفها لهم) أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرّقوا إلى منازلهم . قال الواحدى : هذا قول عامة المفسرين . وقال الحسن : وصف الله لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل فيه حذف : أى عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها . وقيل هذا التعريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل . وقيل معنى عرفها لهم طيبها بأنواع الملاذّ ، مأخوذ من العرف ، وهو الرائحة . ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ويفتح لكم ، ومثله قوله ـ ولينصرنّ الله من ينصره ـ . قال قطرب : إن تنصروا نبىّ الله ينصركم (ويثبت أقدامكم) أى عند القتال وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى مواطن الحرب ، وقيل على الإسلام ، وقيل على الصراط (والذين كفروا فتعسا لهم) الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف

تمديره فتعسوا بدليل مابعده ، ودخلت الفاء تشبيها للمبتدإ بالشرط ، وانتصاب تعسا على المصدر للفعل المقدّر خبرا . قال الفراء : مثل سقيا لهم ورعيا ، وأصل التعس الانحطاط والعثار . قال ابن السكيت : التعس أن يجرّ على وجهه ، والنكس أن يجر على رأسه ، قال : والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهرى : وأصله الكبّ وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يامجمع

قال المبرّد : أى فكروها لهم ، وقال ابن جريج : بعدا لهم ، وقال السدّى : خزيا لهم . وقال ابن زيد : شقاء لهم . وقال الحسن : شتما لهم . وقال ثعلب : هلاكا لهم ، وقال الضحاك : خيبة لهم : وقيل قبحا لهم ، حكاه النقاش . وقال الضحاك : رغما لهم . وقال ثعلب أيضا : شرّا لهم . وقال أبو العالية : شقوة لهم . واللام فى لهم للبيان كما فى قوله ـ هيت لك ـ وقوله (وأضلّ أعمالهم) معطوف على ماقبله داخل معه فى خبرية الموصول ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال : أى الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر (بأنهم كرهوا ما أنزل الله) على رسوله من القرآن ، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على مافى القرآن من التوحيد والبعث (فأحبط) الله (أعمالهم) بذلك السبب ، والمراد بالأعمال ماكانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة وإن كانت باطلة من الأصل ، لأن عمل الكافر لايقبل قبل إسلامه . ثم خوّف سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض) أى ألم يسيروا فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية . ثم بين سبحانه ماصنع بمن قبلهم فقال (دمرّ الله عليهم) والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والتدمير الإهلاك : أى أهلكهم واستأصلهم ، يقال دمرّه ودمر عليه بمعنى . ثم توعد مشركى مكة فقال (وللكافرين أمثالها) أى لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة . قال الزجاج وابن جرير : الضمير فى أمثالها يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم ، وإنما جمع لأن العواقب متعدّدة بحسب تعدّد الأمم المعذبة ، وقيل أمثال العقوبة ، وقيل الهلكة ، وقيل التدميرة والأوّل أولى لرجوع الضمير إلى ماهو مذكور قبله ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماذكر من أن للكافرين أمثالها (بأن الله مولى الذين آمنوا) أى بسبب أن الله ناصرهم (وأن الكافرين لامولى لهم) أى لا ناصر يدفع عنهم . وقرأ ابن مسعود « ذلك بأن الله ولىّ الذين آمنوا » قال قتادة : نزلت يوم أحد (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع ، وتقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) أى يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه (والنار مثوى لهم) أى مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرّون فيه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله) قال : هم أهل مكة قريش نزلت فيهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : هم أهل المدينة الأنصار (وأصلح بالهم) قال : أمرهم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (أضلّ أعمالهم) قال : كانت لهم أعمال فاضلة لايقبل الله مع الكفر عملا . وأخرج النحاس عنه أيضا فى قوله (فإما منا بعد وإما فداء) قال : فجعل الله النبىّ والمؤمنين بالخيار فى الأسار ، إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ،

وإن شاءوا فادوهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : هذا منسوخ نسختها : فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ـ . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله ، فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا إنما قال الله (حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء) . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر وابن مردويه عن ليث قال : قلت لمجاهد : بلغنى أن ابن عباس قال : لايحلّ قتل الأسارى ، لأن الله قال (فإما منا بعد وإما فداء) فقال مجاهد: لاتعبأ بهذا شيئا أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم ينكر هذا، ويقول هذه منسوخة إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين ، فأما اليوم فلا، يقول الله ـ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ ويقول ـ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ـ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استحيوهم وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا. ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا وحكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » . وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائى والبغوى والطبرانى وابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم من حديث قال : « لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس (وللكافرين أمثالها) قال : لكفار قومك يامحمد مثل مادمرت به القرى فأهلكوا بالسيف .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَٰرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَيٰهُمْ (١٨) فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَيٰكُمْ (١٩) .

خوف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشدّ منهم فقال (وكأين من قرية هى أشدّ قوّة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) قد قدّمنا أن كأين مركبة من الكاف وأىّ ، وأنها بمعنى كم الخبرية : أى وكم من قرية، وأنشد الأخفش قول الوليد :

وكأين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من أهل قرية هم أشدّ قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها أهلكناهم (فلا ناصر لهم) فبالأولى من هو أضعف منهم وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهى مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما فى قوله ـ واسأل القرية ـ قال مقاتل : أى أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم . ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر فقال (أفمن كان على بينة من ربه) والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، ومن مبتدأ ، والخبر (كمن زين له سوء عمله) وأفرد فى هذا باعتبار لفظ من ، وجمع فى قوله (واتبعوا أهواءهم) باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لايستوى من كان على يقين من ربه ولا يكون كمن زين له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان والإشراك بالله والعمل بمعاصى الله ، واتبعوا أهواءهم فى عبادتها ، وانهمكوا فى أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلا عن حجة نيرة . ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال بين الفرق فى مرجعهما ومآلهما فقال (مثل الجنة التى وعد المتقون) والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان مافيها ، ومعنى مثل الجنة وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ وخبره محذوف . قال النضر بن شميل : تقديره مايسمعون ، وقدّره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل هو الوصف ومعناه وصف الجنة، وجملة (فيها أنهار من ماء غير آسن) الخ مفسرة للمثل . وقيل إن مثل زائدة ، وقيل إن مثل الجنة مبتدأ، والخبر فيها أنهار ، وقيل خبره كمن هو خالد ، والآسن المتغير ، يقال أسن الماء يأسن أسونا : إذا تغيرت رائحته، ومثله الآجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفرا أنامله يميد فى الرمح ميد المائح الأسن

قرأ الجمهور « آسن » بالمدّ . وقرأ حميد وابن كثير بالقصر، وهما لغتان كحاذر وحذر . وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصود يراد به الحال (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا ، لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى لذيذة لهم طيبة الشرب لايتكرهها الشاربون ، يقال شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله ـ بيضاء لذة للشاربين ـ قرأ الجمهور « لذة » بالجرّ صفة لخمر ، وقرئ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له ، وقرئ بالرفع صفة لأنهار (وأنهار من عسل مصفى) أى مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر (ولهم فيها من كل الثمرات) أى لأهل الجنة فى الجنة مع ماذكر من الأشربة من كل الثمرات : أى من كل صنف من أصنافها ، و« من » زائدة للتوكيد (ومغفرة من ربهم) لذنوبهم ، وتنكير مغفرة للتعظيم : أى ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم (كمن هو خالد فى النار) هو خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالدا فيها كمن هو خالد فى النار أو خبر لقوله مثل الجنة كما تقدّم . ورجح الأوّل الفراء فقال : أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار، فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم .

وقوله (وسقوا ماء حميا) عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى فى الأولى لفظ من ، وفى الثانية معناها ، والحميم الماء الحارّ الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهو معنى قوله (فقطع أمعاءهم) لفرط حرارته . والأمعاء جمع معى ، وهى مافى البطون من الحوايا (ومنهم من يستمع إليك) أى من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ من ، وجمع فى قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) باعتبار معناها ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومواطن خطبه التى يمليها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) وهم علماء الصحابة ، وقيل عبد الله بن عباس ، وقيل عبد الله بن مسعود ، وقيل أبو الدرداء ، والأول أولى : أى سألوا أهل العلم فقالوا لهم (ماذا قال آنفا) أى ماذا قال النبىّ الساعة على طريقة الاستهزاء ، والمعنى : أنا لم نلتفت إلى قوله ، وآنفا يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات ، ومنه أمر آنف : أى مستأنف ، وروضة أنف : أى لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية : أى وقتا مؤتنفا ، أو حال من الضمير فى قال . قال الزجاج : هو من استأنفت الشىء : إذا ابتدأته ، وأصله مأخوذ من أنف الشىء لما تقدّم منه ، مستعار من الجارحة ، ومنه قول الشاعر :

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم أنف القصاع

والإشارة بقوله (أولئك) إلى المذكورين من المنافقين (الذين طبع الله على قلوبهم) فلم يؤمنوا ولا توجهت قلوبهم إلى شىء من الخير (واتبعوا أهواءهم) فى الكفر والعناد . ثم ذكر حال أضدادهم فقال (والذين اهتدوا زادهم هدى) أى والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق ، وقيل زادهم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل زادهم القرآن . وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى وقيل زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيمانا وعلما وبصيرة فى الدين (وآتاهم تقواهم) أى ألهمهم إياها وأعانهم عليها . والتقوى قال الربيع : هى الخشية . وقال السدّى : هى ثواب الآخرة . وقال مقاتل : هى التوفيق للعمل الذى يرضاه ، وقيل العمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وقيل ترك الرخص والأخذ بالعزائم (فهل ينظرون إلا الساعة) أى القيامة (أن تأتيهم بغتة) أى فجأة ، وفى هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله (أن تأتيهم بغتة) بدل من الساعة بدل اشتمال . وقرأ أبو جعفر الرواسى « إن تأتهم » بإن الشرطية (فقد جاء أشراطها) أى أماراتها وعلاماتها وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن والضحاك . والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها . وقيل المراد بأشراطها هنا : أسبابها التى هى دون معظمها . وقيل أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن . وقال الكلبى : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، ومنه قول أبى زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوله تبدو

(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ذكراهم مبتدأ وخبره فأنى لهم : أى أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله - يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى - وإذا جاءتهم اعتراض بين المبتدأ والخبر (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أى إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشرّ هو الشرك والعمل بمعاصى الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا ربّ سواه ، والمعنى : إثبت على ذلك واستمر عليه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا ، وقيل ماعلمته إستدلالا فاعلمه خبرا يقينا . وقيل المعنى : فاذكر أنه لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر

بالعلم (واستغفر لذنبك) أي استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى . وقيل الخطاب له ، والمراد الأمة ، ويأبى هذا قوله (وللمؤمنين والمؤمنات) فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم (والله يعلم متقلبكم) فى أعمالكم (ومثواكم) فى الدار الآخرة ، وقيل متقلبكم فى أعمالكم نهارا ومثواكم فى ليلكم نياما . وقيل متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم فى الأرض : أى مقامكم فيها . قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا ، ومثواكم فى القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنت أحبّ بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج ، فأعتى الأعداء من عتا على الله فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية » فأنزل الله (وكأين من قرية) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أنهار من ماء غير آسن) قال : غير متغير . وأخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها » . وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل فى الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا) قال : كنت فيمن يسأل . وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال : أنا منهم . وفى هذا منقبة لابن عباس جليلة لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ ، فإن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مات وهو فى سنّ البلوغ ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ووصف الله سبحانه للمسئولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه ومزيد فقهه فى كتاب الله وسنة رسوله ، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس : ماذا قال آنفا ؟ فيقول كذا وكذا ، وكان ابن عباس أصغر القوم ، فأنزل الله الآية ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم وأخرج ابن أبى شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) قال : لما أنزل القرآن آمنوا به ، فكان هدى ، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى . وأخرج ابن المنذر عنه (فقد جاء أشراطها) قال : أوّل الساعات ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالوسطى والسبابة » ومثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد . وفى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة وبيان ما قد وقع منها وما لم يكن قد وقع ، وهى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والديلمى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار » ثم قرأ (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى

فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال : « أتيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : ولك ، فقيل : أتستغفر لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : نعم ولكم وقرأ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) » وقد ورد أحاديث فى استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ولأمته وترغيبه فى الاستغفار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (والله يعلم متقلبكم) فى الدنيا (ومثواكم) فى الآخرة .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَٰرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجلّ أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصا منهم على الجهاد ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى هلا نزلت (فإذا أنزلت سورة محكمة) أى غير منسوخة (وذكر فيها القتال) أى فرض الجهاد قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشدّ القرآن على المنافقين ، وفى قراءة ابن مسعود « فإذا أنزلت سورة محدثة » أى محدثة النزول . قرأ الجمهور « فإذا أنزلت » وذكر على بناء الفعلين للمفعول . وقرأ زيد بن علىّ وابن عمير « نزلت » وذكر على بناء الفعلين للفاعل ونصب القتال (رأيت الذين

فى قلوبهم مرض) أى شك ، وهم المنافقون (ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت) أى ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال وميلهم إلى الكفار . قال ابن قتيبة والزجاج : يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون إليك نظراً شديداً كما ينظر الشاخص بصره عند الموت (فأولى لهم) قال الجوهرى : وقولهم أولى لك تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل والكلبى وقتادة . قال الأصمعى : معنى قولهم فى التهديد أولى لك أى وليك وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاذيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل فى أولى أحسن مما قاله الأصمعى . وقال المبرد : يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت أولى لك : أى قاربت الغضب . وقال الجرجانى : هو مأخوذ من الويل : أى فويل لهم ، وكذا قال فى الكشاف . قال قتادة أيضا : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقوله (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف : أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم. قال الخليل وسيبويه : إن التقدير طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما . وقيل إن طاعة خبر أولى ، وقيل إن طاعة صفة لسورة ، وقيل إن لهم خبر مقدّم وطاعة مبتدأ مؤخر ، والأول أولى (فإذا عزم الأمر) عزم الأمر جدّ الأمر : أى جدّ القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا ، وجواب إذا قيل هو « فلو صدقوا الله » وقيل محذوف تقديره كرهوه . قال المفسرون معناه إذا جدّ الأمر ولزم فرض القتال خالفوا وتخلفوا (فلو صدقوا الله) فى إظهار الإيمان والطاعة (لكان خيرا لهم) من المعصية والمخالفة (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع . قال الكلبى : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم . وقال كعب (أن تفسدوا فى الأرض) أى بقتل بعضكم بعضا ، وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عزّ وجلّ أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم . وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة ، وقيل أعرضتم عن القتال وفارقتم أحكامه . قرأ الجمهور « توليتم » مبنيا للفاعل ، وقرأ علىّ بن أبى طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيا للمفعول ، وبها قرأ ابن أبى إسحاق وورش عن يعقوب ، ومعناها فهل عسيتم إن ولى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغى والظلم والقتل . وقرأ الجمهور (وتقطعوا) بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه وسلام وعيسى ويعقوب بالتخفيف من القطع يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهرى وغيره ، وخبر عسيتم هو أن تفسدوا ، والجملة الشرطية بينهما اعتراض ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ وخبره (الذين لعنهم الله) : أى أبعدهم من رحمته وطردهم عنها (فأصمهم) عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر مادعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والاستفهام فى قوله (أفلا يتدبرون القرآن) للإنكار ؛ والمعنى : أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التى تكفى من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه (أم على قلوب أقفالها) أم هى المنقطعة : أى بل أعلى قلوب أقفالها فهم لايفهمون ولا يعقلون . قال مقاتل : يعنى الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية أنه لايدخل فى قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك ، لأن الله سبحانه قد طبع عليها ، والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين . قرأ الجمهور « أقفالها » بالجمع ، وقرئ « إقفالها » بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال (إن الذين ارتدوا

على أدبارهم) أى رجعوا كفاراً كما كانوا . قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما عرفوا نعته عندهم ، وبه قال ابن جرير . وقال الضحاك والسدّى : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى لأن السياق في المنافقين (من بعد ما تبين لهم الهدى) بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة (الشيطان سوّل لهم) أى زين لهم خطاياهم وسهل لهم الوقوع فيها ، وهذه الجملة خبر إن ، ومعنى (وأملى لهم) أن الشيطان مدّ لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر ، وقيل إن الذى أملى لهم هو الله عزّ وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة . قرأ الجمهور (أملى) مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبوجعفر وشيبة على البناء للمفعول . قيل وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان كالقراءة الأولى ، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفرّاء والمفضل ، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدّم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) أى بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله، وهم المشركون (سنطيعكم فى بعض الأمر) وهذا البعض هو عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومخالفة ماجاء به . وقيل المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود : سنطيعكم فى بعض الأمر ، وقيل إن القائلين اليهود والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون ، وقيل إن الاشارة بقوله « ذلك » إلى الإملاء ، وقيل إلى التسويل ، والأوّل أولى . ويؤيد كون القائلين المنافقين والكارهين اليهود قوله تعالى ـ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ـ ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السرّ بينهم . قال الله سبحانه (والله يعلم أسرارهم) قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبوعبيد وأبوحاتم . وقرأ الكوفيون وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش بكسر الهمزة على المصدر : أى إخفاءهم (فكيف إذا توفتهم الملائكة) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وكيف فى محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، أو فى محل نصب بفعل محذوف : أى فكيف يصنعون ، أو خبر لكان مقدّرة : أى فكيف يكونون ، والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور « توفتهم » وقرأ الأعمش « توفاهم » وجملة (يضربون وجوههم وأدبارهم) فى محل نصب على الحال من فاعل توفتهم أومن مفعوله : أى ضاربين وجوههم وضاربين أدبارهم ، وفى الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى : أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه . وقيل ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل ذلك يوم القيامة ، والأوّل أولى . والإشارة بقوله (ذلك) إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) أى بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصى ، وقيل كتمانهم مافى التوراة من نعت نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، والأوّل أولى لما فى الصيغة من العموم (وكرهوا رضوانه) أى كرهوا مايرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة (فأحبط) الله (أعمالهم) بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم الأعمال التى صورتها صورة الطاعة وإلا فلا عمل لكافر، أوما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض) يعنى المنافقين المذكورين سابقا ، وأم هى المنقطعة : أى بل أحسب المنافقون (أن لن يخرج الله أضغانهم) الإخراج بمعنى الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما يضمر من المكروه ، واختلف فى معناه ، فقيل هو الغشّ ، وقيل الحسد ، وقيل الحقد . قال الجوهرى : الضغن والضغينة الحقد ، وقال قطرب : هو فى الآية العداوة ، وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر (ولو نشاء لأريناكهم) أى لأعلمناكهم وعرّفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية ، تقول العرب : سأريك ما أصنع : أى سأعلمك

(فلعرفتهم بسيماهم) أى بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها . قال الزجاج : المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة ، والفاء لترتيب المعرفة على الإراءة ، وما بعدها معطوف على جواب لو وكررت فى المعطوف للتأكيد ، وأما اللام فى قوله (ولتعرفنهم فى لحن القول) فهى جواب قسم محذوف . قال المفسرون : لحن القول فحواه ومقصده ومغزاه وما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لايتكلم منافق عنده إلا عرفه . قال أبو زيد : لحنت له اللحن : إذا قلت له قولا يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أى أحسنه ماكان تعريضا يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ، وأصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض (والله يعلم أعمالكم) لاتخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) أى لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاقّ ماكلف به . قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها ، ومعنى (ونبلو أخباركم) نظهرها ونكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل . وقرأ الجمهور « ونبلو » بنصب الواو عطفا على قوله « حتى نعلم » وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحقو الرحمن ، فقال مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أترضى أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى . قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اقرءوا إن شئتم (فهل عسيتم) الآية إلى قوله (أم على قلوب أقفالها) » والأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدّا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إن الذين ارتدّوا على أدبارهم) قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) قال : أعمالهم خبثهم والحسد الذى فى قلوبهم ، ثم دلّ الله تعالى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله (ولتعرفنهم فى لحن القول) قال : ببغضهم علىّ بن أبى طالب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ (٣٢) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَٰلَكُمْ (٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

قوله (إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله) المراد بهؤلاء هم المنافقون ، وقيل أهل الكتاب ، وقيل هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدّهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (و) معنى (شاقوا الرسول) عادوه وخالفوه (من بعد ما تبين لهم الهدى) أي علموا أنه صلى الله عليه وآله وسلم نبيّ من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة (لن يضرّوا الله شيئا) بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر وما ضرّوا إلا أنفسهم (وسيحبط أعمالهم) أي يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير وإن كانت باطلة من الأصل لأن الكفر مانع ، وقيل المراد بالأعمال المكائد التي نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التي كانوا يبغونها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله فقال (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب الله وسنة رسوله ، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر فقال (ولا تبطلوا أعمالكم) قال الحسن : أى لاتبطلوا حسناتكم بالمعاصى . وقال الزهرى : بالكبائر . وقال الكلبي وابن جريج : بالرياء والسمعة . وقال مقاتل : بالمنّ . والظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال كائنا ماكان من غير تخصيص بنوع معين . ثم بين سبحانه أنه لايغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال (إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لايغلقان على من كان حيا ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصا . ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال (فلا تهنوا) أى تضعفوا عن القتال ، والوهن الضعف (وتدعوا إلى السلم) أى ولاتدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لايكون إلا عند الضعف . قال الزجاج : منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي « وتدعوا » بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا . قال قتادة : معنى الآية : لاتكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

واختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل إنها محكمة ، وإنها ناسخة لقوله ـ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ـ وقيل منسوخة بهذه الآية . ولا يخفاك أنه لامقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص ، وجملة (وأنتم الأعلون) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى : أى وأنتم الغالبون بالسيف والحجة . قال الكلبي : أى آخر الأمر لكم وإن غلبوكم فى بعض الأوقات ، وكذا جملة قوله (والله معكم) فى محل نصب على الحال : أى معكم بالنصر

والمعونة عليهم (ولن يتركم أعمالكم) أى لن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم ، يقال وتره يتره وترا : إذا نقصه حقه وأصله من وترت الرجل : إذا قتلت له قريبا أو نهبت له مالا ، ويقال فلان مأتور : إذا قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه . قال الجوهرى : أى لن ينقصكم فى أعمالكم كما تقول دخلت البيت وأنت تريد فى البيت . قال الفراء : هو مشتق من الوتر وهو الدخل ، وقيل مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) أى باطل وغرور لاأصل لشىء منها ولا ثبات له ولا اعتداد به (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أى إن تؤمنوا بالله وتتقوا الكفر والمعاصى يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة ، والأجر الثواب على الطاعة (ولا يسألكم أموالكم) أى لايأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة . وقيل المعنى : لايسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها . وقيل لايسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة كما فى قوله ـ ما أسألكم عليه من أجر ـ والأوّل أولى (إن يسألكموها) أى أموالكم كلها (فيحفكم) قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، والمحفى المستقصى فى السؤال ، والإحفاء الاستقصاء فى الكلام ، ومنه إحفاء الشارب : أى استئصاله ، وجواب الشرط قوله (تبخلوا) أى إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال (ويخرج أضغانكم) معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور « يخرج » بالجزم ، وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف ، وروى عنه أنه قرأ بفتح الياء وضم الراء ورفع أضغانكم ، وروى عن يعقوب الحضرمى أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء . وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى البخل المداول عليه بتبخلوا . والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد وفى طريق الخير (فمنكم من يبخل) بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق فى سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لاتبخلون بالكثير وهو جميع الأموال . ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) أى يمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى . وقيل إن أصله أن يتعدى بعلى ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك (والله الغنى) المطلق المتنزّه عن الحاجة إلى أموالكم (وأنتم الفقراء) الى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة ، وجملة (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) معطوفة على الشرطية المتقدمة وهى وإن تؤمنوا ، والمعنى : وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم (ثم لايكونوا أمثالكم) فى التولى عن الإيمان والتقوى . قال عكرمة : هم فارس والروم . وقال الحسن : هم العجم . وقال شريح ابن عبيد : هم أهل اليمن ، وقيل الأنصار ، وقيل الملائكة ، وقيل التابعون . وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس . قال ابن جرير : والمعنى (ثم لايكونوا أمثالكم) فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرون أنه لايضرّ مع لا إله إلا الله ذنب كما لاينفع مع الشرك عمل حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى

صلى الله عليه وآله وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا قد هلك « حتى نزلت هذه الآية ـ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ـ فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئا رجوناه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (يتركم) قال : يظلمكم . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه قال : لما نزلت (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) قالوا من هؤلاء وسلمان إلى جانب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : هم الفرس هذا وقومه . وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرد به ، وفيه مقال معروف . وأخرجه عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لايكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس » وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

تفسير سورة الفتح

هى تسع وعشرون آية ، وهى مدنية

قال القرطبى : بالإجماع . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الفتح بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها وهذا لاينافى الإجماع على كونها مدنية ، لأن المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها . وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : هلكت أم عمر نزرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات كل ذلك لايجيبك ، فقال عمر : فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت على سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) » وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) الآية إلى قوله (فوزا عظيما) مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحروا الهدى بالحديبية فقال « لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرٰطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ ٱللهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمٰنًا مَعَ إِيمٰنِهِمْ وَلِلّٰهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنٰتِ جَنّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰرُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنٰفِقِينَ وَٱلْمُنٰفِقٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكٰتِ ٱلظَّانِّينَ بِٱللهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلّٰهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) .

قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) اختلف فى تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحا . قال الفراء : والفتح قد يكون صلحا ، ومعنى الفتح فى اللغة : فتح المنغلق ، والصلح الذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدودا متعذرا حتى فتحه الله. قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام فى قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام . قال الشعبى : لقد أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديبية مالم يصب فى غزوة ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال قوم : إنه فتح مكة . وقال آخرون : إنه فتح خيبر . والأوّل أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية . وقيل هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح ، وقيل هو ما فتح له من النبوّة والدعوة إلى الاسلام ، وقيل فتح الروم ، وقيل المراد بالفتح فى هذه الآية الحكم والقضاء ، كما فى قوله ـ افتح بيننا وبين قومنا بالحق ـ فكأنه قال : إنا قضينا لك قضاء مبينا : أى ظاهرا واضحا مكشوفا (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر) اللام متعلقة بفتحنا ، وهى لام العلة . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس : يعنى المبرد عن اللام فى قوله (ليغفر لك الله) فقال : هى لام كى معناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضمّ إلى المغفرة شىء حادث واقع حسن معنى كى ، وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة . وقال صاحب الكشاف : إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين ، وأغراض العاجل والآجل . وهذا كلام غير جيد ، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح ، فكيف يصح أن تكون معللة . وقال الرازى فى توجيه التعليل : إن المراد بقوله (ليغفر لك الله) التعريف بالمغفرة

تقديره : إنا فتحنا لك لنعرف أنك مغفور لك معصوم . وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة . وقال أبو حاتم : هى لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لاتكسر ولا ينصب بها .

واختلف فى معنى قوله (ما تقدّم من ذنبك وما تأخر) فقيل ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم . وقال عطاء : ما تقدّم من ذنبك : يعنى ذنب أبويك آدم وحوّاء ، وما تأخر من ذنوب أمتك . وما أبعد هذا عن معنى القرآن . وقيل ماتقدّم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده ، وهذا كالذى قبله . وقيل ما تقدّم من ذنب يوم بدر ، ما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين فى البعد . وقيل لوكان ذنب قديم أوحديث لغفرناه لك ، وقيل غير ذلك مما لاوجه له ، والأوّل أولى . ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى ، وسمى ذنبا فى حقه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنبا فى حق غيره (ويتمّ نعمته عليك) باظهار دينك على الدين كله ، وقيل بالجنة ، وقيل بالنبوّة والحكمة ، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام ، ومعنى يهديك يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه (وينصرك الله نصرا عزيزا) أى غالبا منيعا لايتبعه ذلّ (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) أى السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضما إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل . قال الكلبى : كلما نزلت آية من السماء فصدّقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم (ولله جنود السموات والأرض) يعنى الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ويحوط بعضهم ببعض (وكان الله عليما) كثير العلم بليغه (حكيما) فى أفعاله وأقواله (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله تقديره يبتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله والشرّ ممن قضى له به ليدخل ويعذب ، وقيل متعلقة بقوله (إنا فتحنا) كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل ويعذب ، وقيل متعلقة بينصرك : أى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل ويعذب ، وقيل متعلقة بيزدادوا : أى يزدادوا ليدخل ويعذب ، والأوّل أولى (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى يسترها ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقدّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى (وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفى حكمه فوزا عظيما : أى ظفرا بكل مطلوب ونجاة من كل غمّ وجلبا لكل نفع ودفعا لكل ضرّ ، وقوله (عند الله) متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزا ، لأنه صفة فى الأصل ، فلما قدمَ صار حالا : أى كائنا عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين . ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) وهو معطوف على يدخل : أى يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام وقهر المخالفين له وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفى الآخرة بعذاب جهنم . وفى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذابا وأحقّ منهم بما وعدهم الله به . ثم وصف الفريقين ، فقال (الظانين بالله ظنّ السوء) وهو ظنهم أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله ـ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ـ (عليهم دائرة السوء) أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم ، والمعنى : أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم . قال الخليل وسيبويه : السوء هنا الفساد . قرأ الجمهور « السوء » بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمها (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا) لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم (ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والانس والجنّ والشياطين (وكان الله عليما حكيما) كرّر هذه الآية لقصد التأكيد ، وقيل المراد بالجنود هنا جنود العذاب كما يفيده التعبير بالعزة هنا مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصارى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم ، إذ الناس يوجفون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ، فقال رجل : إى رسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية عشر سهما وكان الجيش ألفا وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى تاريخه وأبو داود والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحى ، وكان إذا أتاه اشتدّ عليه ، فسرّى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) وأخرج البخارىّ وغيره عن أنس فى قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) قال : الحديبية . وأخرج البخارىّ وغيره عن البراء قال : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكةّ فتحا ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) قال : فتح مكة » وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : « كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر قال : أفلا أكون عبدا شكورا » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله « (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) قال : السكينة هى الرحمة وفى قوله (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) قال : إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ ، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد . ثم أكمل لهم دينهم فقال ـ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ـ . قال ابن عباس : فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله » . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) قال : تصديقا مع تصديقهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال : « لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئا مريئا يارسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) حتى بلغ (فوزا عظيما) »

إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ
ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنْتُمْ
قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)
سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا
كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا
لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) .

قوله (إنا أرسلناك شاهدا) أى على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم (ومبشرا) بالجنة للمطيعين (ونذيرا) لأهل المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) قرأ الجمهور « لتؤمنوا » بالفوقية . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية ، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد المبشرين والمنذرين ، وانتصاب شاهدا ومبشرا ونذيرا على الحال المقدرة (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) الخلاف بين القراء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى « لتؤمنوا » كما سلف ، ومعنى تعزروه : تعظموه وتفخموه ؛ قاله الحسن والكلبى ، والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : تعظموه . وقال السدّى : تسوّدوه ، قيل والضميران فى الفعلين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهنا وقف تام ، ثم يبتدئ وتسبحوه : أى تسبحوا الله عزّ وجل (بكرة وأصيلا) أى غدوة وعشية ، وقيل الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة لله عزّ وجلّ ، فيكون معنى تعزروه وتوقروه : تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء ، وقيل تنصروا دينه وتجاهدوا مع رسوله . وفى التسبيح وجهان ، أحدهما التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى الصلاة (إن الذين يبايعونك) يعنى بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش (إنما يبايعون الله) أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم هى بيعة له كما قال ـ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ـ وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة (يد الله فوق أيديهم) مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ،

فى محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت . وقال الكلبى : المعنى إن نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة . وقيل يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء . وقال ابن كيسان : قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ، لأن ضرر ذلك راجع إليه لايجاوزه إلى غيره (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أى ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه فى البيعة لرسوله . قرأ الجمهور « عليه » بكسر الهاء وقرأ حفص والزهرى بضمها (فسيؤتيه أجرا عظيما) وهو الجنة . قرأ الجمهور « فسيؤتيه » بالتحتية وقرأ نافع وقرأ كثير وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم واختار القراءة الثانية الفراء (سيقول لك المخلفون من الأعراب) هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية . قال مجاهد وغيره : يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقيل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه ، والمخلف المتروك (شغلتنا أموالنا وأهلونا) أى منعنا عن الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذرارى وليس لنا من يقوم بهم ويخلفنا عليهم (فاستغفر لنا) ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب ، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وهذا هو صنيع المنافقين والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عنهم فقال (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) أى فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشرّ ، ثم بين ذلك فقال (إن أراد بكم ضرا) أى إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور « ضرا » بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضرا . وقرأ حمزة والكسائى بضمها وهو اسم مايضرّ ، وقيل هما لغتان (أو أراد بكم نفعا) أى نصرا وغنيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدفع عنه الضرّ ويجلب لهم النفع ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال (بل كان الله بما تعملون خبيرا) أى إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق وماخطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) وهذه الجملة مفسرة لقوله (بل كان الله بما تعملون خبيرا) لما فيها من الإبهام : أى بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة (وزين ذلك فى قلوبكم) أى وزين الشيطان ذلك الظن فى قلوبكم فقبلتموه . قرأ الجمهور « وزين » مبنيا للمفعول ، وقرئ مبنيا للفاعل (وظننتم ظنّ السوء) أن الله سبحانه لاينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظنّ الأوّل ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به ما هو أعمّ من الأوّل ، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا (وكنتم قوما بورا) أى هلكى قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد : قال الجوهرى : البور الرجل الفاسد الهالك الذى لاخير فيه . قال أبو عبيد (قوما بورا) هلكى ، وهو جمع بائر ، مثل حائل وحول ، وقد بار فلان : أى هلك ، وأباره الله أهلكه (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا) هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله : أى ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير (ولله ملك السموات والأرض) يتصرّف فيه كيف يشاء لايحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما

تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه ـ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ـ (وكان الله غفورا رحيما) أى كثير المغفرة والرحمة بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا ، والظرف متعلق بقوله « سيقول » والمعنى : سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون (إلى مغانم) يعنى مغانم خيبر (لتأخذوها) لتحوزوها (ذرونا نتبعكم) أى اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر. وأصل القصة أنه لما انصرف النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخصّ بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه (يريدون أن يبدّلوا كلام الله) أى يغيروا كلام الله ، والمراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدّلوه هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر. وقال مقاتل : يعنى أمر الله لرسوله أن لايسير معه أحد منهم . وقال ابن زيد : هو قوله تعالى ـ فإذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً ـ واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ورجحه ابن جرير وغيره . قرأ الجمهور « كلام الله » وقرأ حمزة والكسائى « كلم الله » قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لايكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يمنعهم من الخروج معه فقال (قل لن تتبعونا) هذا النفى هو فى معنى النهى ، والمعنى : لاتتبعونا (كذلكم قال الله من قبل) أى من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب (فسيقولون) يعنى المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله « لن تتبعونا » (بل تحسدوننا) أى بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون . ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله (بل كانوا لايفقهون إلا قليلا) أى لايعلمون إلا علما قليلا ، وهو علمهم بأمر الدنيا ، وقيل لايفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا ، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وتعزروه) يعنى الإجلال (وتوقروه) يعنى التعظيم ، يعنى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والضياء فى المختارة عنه فى قوله (وتعزروه) قال : تضربوا بين يديه بالسيف . وأخرج ابن عدىّ وابن مردويه والخطيب وابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله قال « لما أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (وتعزروه) قال لأصحابه : ماذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : لتنصروه » . وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة ، فمن وفى وفى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . وفى الصحيحين من حديث جابر « أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة » وفيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، وفى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له : إن جابرا قال كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله : وهم هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ
يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ
تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ
مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) .

قوله (قل للمخلفين من الأعراب) هم المذكورون سابقا (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) قال عطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن : هم الروم . وروى عن الحسن أيضا أنه قال : هم فارس والروم . وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين . وقال الزهرى ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين (تقاتلونهم أو يسلمون) أى يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام لاثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لاتؤخذ منهم الجزية . قال الزجاج : التقدير أوهم يسلمون ، وفى قراءة أبىّ « أويسلموا » أى حتى يسلموا (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) وهو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وإن تتولوا) أى تعرضوا (كما توليتم من قبل) وذلك عام الحديبية (يعذبكم عذابا أليما) بالقتل والأسر والقهر فى الدنيا وبعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم . قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية ، والحرج : الإثم (ومن يطع الله ورسوله) فيما أمراه به ونهياه عنه (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) قرأ الجمهور « يدخله » بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون (ومن يتولّ يعذبه عذابا أليما) أى ومن يعرض عن الطاعة يعذبه الله

عذابا شديد الألم . ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا بيعة الرضوان ، فقال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أى رضى الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهى بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، والعامل فى ـ تحت ـ إما يبايعونك ، أو محذوف على أنه حال من المفعول ، وهذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية وقيل سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفرّوا . وروى أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدّم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا ، والقصة مبسوطة فى كتب الحديث والسير (فعلم ما فى قلوبهم) معطوف على يبايعونك . قال الفراء : أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء . وقال قتادة وابن جريج : من الرضى بأمر البيعة على أن لايفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على الموت (فأنزل السكينة عليهم) معطوف على رضى ، والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس كما تقدّم ، وقيل الصبر (وأثابهم فتحا قريبا) هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية ، قاله قتادة وابن أبى ليلى وغيرهما ، وقيل فتح مكة ، والأوّل أولى (ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآتاكم ، وهى غنائم خيبر ، والالتفات لتشريفهم بالخطاب (وكان الله عزيزا حكيما) أى غالبا مصدرا أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها (فعجل لكم هذه) أى غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل صلح الحديبية (وكفّ أيدى الناس عنكم) أى وكفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح ، وقيل كفّ أيدى أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم وقذف فى قلوبهم الرعب . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحديبية وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير ، قال : لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله ـ وهو الذى كفّ أيديهم عنكم ـ وقيل كفّ أيدى الناس عنكم : يعنى عيينة بن حصن الفزارى ، وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم لهم (ولتكون آية للمؤمنين) اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدّر بعده : أى فعل ما فعل من التعجيل والكفّ لتكون آية ، أوعلى علة محذوفة تقديرها وعد فعجل وكفّ لتنتفعوا بذلك ولتكون آية . وقيل إن الواو مزيدة واللام لتعليل ما قبله : أى وكفّ لتكون ؛ والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جميع ما يعدكم به (ويهديكم صراطا مستقيما) أى يزيدكم بتلك الآية هدى ، أويثبتكم على الهداية إلى طريق الحقّ (وأخرى لم تقدروا عليها) معطوف على هذه : أى فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها ، وهى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى . وقال الضحاك وابن زيد وابن أبى إسحاق : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها . وقال قتادة : فتح مكة . وقال عكرمة : حنين ، والأوّل أولى (قد أحاط الله بها) صفة ثانية لأخرى . قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى ، أنه أعدّها لهم وجعلها كالشىء الذى قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لايفوت منه شىء ، فهم وإن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لاتفوتهم ، وقيل معنى أحاط : علم أنها ستكون لهم (وكان الله على كلّ شىء قديرا) لايعجزه شىء ولاتختصّ قدرته ببعض المقدورات دون بعض (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) قال قتادة يعنى كفار قريش بالحديبية ، وقيل أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأوّل أولى (ثم لايجدون وليا) يواليهم على قتالكم (ولا نصيرا) ينصرهم عليكم (سنة الله التى قد خلت من قبل) أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب سنة على المصدرية بفعل محذوف : أى بين الله سنة الله ،

أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدّمة (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى لن تجد لها تغييرا ، بل هى مستمرّة ثابتة (وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) أى كفّ أيدى المشركين عن المسلمين وأيدى المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدّون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهى المراد ببطن مكة . وقيل إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخذهم المسلمون ثم تركوهم . وفى رواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء الله (وكان الله بما تعملون بصيرا) لايخفى عليه من ذلك شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (أولى بأس شديد) يقول : فارس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنهم الأكراد . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : فارس والروم . وأخرج الفريابى وابن مردويه عنه قال : هوازن وبنى حنيفة . وأخرج الطبرانى . قال السيوطى بسند حسن عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : «كيف لى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج) الآية » . قال هذا فى الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : « بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لومكث كذا وكذا سنة ماطاف حتى أطوف » . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت . وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : بايعناه على أن لانفرّ ولم نبايعه على الموت . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . وأخرج مسلم من حديثه مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فأنزل السكينة عليهم) قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه (فعجل لكم هذه) يعنى الفتح . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (فعجل لكم هذه) يعنى خيبر (وكفّ أيدى الناس عنكم) يعنى أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ويستحلّ بكم وأنتم حرم (ولتكون آية للمؤمنين) قال سنة لمن بعدكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا فى قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا (وأخرى لم تقدروا عليها) قال : هى خيبر . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرّة رسول الله ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وفى صحيح مسلم وغيره : أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة ابن الأكوع يوم الحديبية . وأخرج أحمد والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل فى سبب نزول الآية

« أن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح فثاروا فى وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ الله بأسماعهم . ولفظ الحاكم بأبصارهم ، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل جئتم فى عهد أحد ، أوهل جعل لكم أحد أمانا ؟ فقالوا لا ، فخلى سبيلهم فنزلت هذه الآية » .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

قوله (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام) يعنى كفار مكة ، ومعنى صدّهم عن المسجد الحرام أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم (والهدى معكوفا) قرأ الجمهور بنصب « الهدى » عطفا على الضمير المنصوب فى صدّوكم ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجرّ عطفا على المسجد ، ولا بدّ من تقدير مضاف : أى عن نحر الهدى ، وقرئ بالرفع على تقدير وصدّ الهدى . وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال ، وروى عن أبى عمرو وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء : وانتصاب معكوفا على الحال من الهدى : أى محبوسا . قال الجوهرى عكفه : أى حبسه ووقفه ، ومنه (والهدى معكوفا) ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفا مجموعا ، وقوله (أن يبلغ محله) أى عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ،

والمعنى : صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله ، أوهو بدل من الهدى بدل اشتمال ، ومحله منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم ، وكان الهدى سبعين بدنة ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذى وصلوا إليه وهو الحديبية محلا للنحر . وللعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى : لم تعلموهم لم تعرفوهم ، وقيل لم تعلموا أنهم مؤمنون (أن تطئوهم) يجوز أن يكون بدلا من رجال ونساء ، ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلا من مفعول تعلموهم ، والمعنى أن تطئوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار ، وعند ذلك لايأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله (فتصيبكم منهم) أى من جهتهم (معرّة) أى مشقة بما يلزمهم فى قتلهم من كفارة وعيب ، وأصل المعرّة : العيب مأخوذة من العرّ ، وهو الجرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم . قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة : أى إثم ، وكذا قال الجوهرى وبه قال ابن زيد . وقال الكلبى ومقاتل وغيرهما : المعرّة كفارة قتل الخطأ كما فى قوله ـ فإن كان من قوم عدوّلكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ـ وقال ابن إسحاق : المعرّة غرم الدية . وقال قطرب : المعرّة الشدّة ، وقيل الغمّ ، و (بغير علم) متعلق بأن تطئوهم : أى غير عالمين ، وجواب لولا محذوف ، والتقدير : لأذن الله لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم ، واللام فى (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) متعلقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر أى ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار ويفكّ أسرهم ، ويرفع ماكان ينزل بهم من العذاب . وقيل اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، وتقديره : لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ، والأوّل أولى . وقيل إن من يشاء عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) التزيل : التميز : أى لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا ، وقيل التزيل : التفرق : أى لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء ، وقيل لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعانى متقاربة ، والعذاب الأليم هو القتل والأسر والقهر ، والظرف فى قوله (إذ جعل الذين كفروا) منصوب بفعل مقدّر : أى اذكر وقت جعل الذين كفروا (فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) وقيل متعلق بعذبنا ، والحمية : الأنفة ، يقال فلان ذو حمية : أى ذو أنفة وغضب : أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحمية الجاهلية بدل من الحمية . قال مقاتل ابن سليمان ومقاتل بن حيان ، قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا فى منازلنا ، فتتحدّث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزّى لايدخلونها علينا ، فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم . وقال الزهرى . حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة . قرأ الجمهور « لو تزيلوا » وقرأ ابن أبى عبلة وأبوحيوة وابن عون « لو تزايلوا » والتزايل التباين (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية ، وقيل ثبتهم على الرضى والتسليم (وألزمهم كلمة التقوى) وهى « لا إله إلا الله » كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم « محمد رسول الله » وزاد بعضهم « وحده لاشريك له » . وقال الزهرى هى « بسم الله الرحمن الرحيم » وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها ، وامتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت ذلك فى كتب الحديث والسير ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها ، والأوّل أولى ، لأن كلمة التوحيد

هى التى يتقى بها الشرك بالله ، وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه (وكانوا أحقّ بها وأهلها) أى وكان المؤمنون أحقّ بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ، لأن الله سبحانه أهلهم لدينه وصحبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية ، وقيل إن الرؤيا كانت بالحديبية . وقوله بالحقّ صفة لمصدر محذوف : أى صدقا ملتبسا بالحقّ ، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله (لتدخلنّ المسجد الحرام) أى فى العام القابل ، وقوله (إن شاء الله) تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله ـ ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ـ قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لايعلمون . وقيل كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى قاله الحسن بن الفضل . وقيل معنى إن شاء الله : كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ : يعنى إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك ، وانتصاب (آمنين) على الحال من فاعل لتدخلنّ ، وكذا (محلقين رءوسكم ومقصرين) أى آمنين من العدوّ ، ومحلقا بعضكم ومقصرا بعضكم ، والحلق والتقصير خاصّ بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير كما يدلّ على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم للمحلقين فى المرّة الأولى والثانية ، والقائل يقول له وللمقصرين ، فقال فى الثالثة وللمقصرين ، وقوله (لاتخافون) فى محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله « آمنين » (فعلم مالم تعلموا) أى مالم تعلموا من المصلحة فى الصلح لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق : أى صدق رسوله الرؤيا ، فعلم مالم تعلموا به (فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) أى فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله فتحا قريبا . قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية . وقال ابن زيد والضحاك : فتح خيبر . وقال الزهرى : لافتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر ، فإن المسلمين كانوا فى سنة ستّ ، وهى سنة الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) أى إرسالا ملتبسا بالهدى (ودين الحق) وهو الإسلام (ليظهره على الدين كله) أى يعليه على كل الأديان كما يفيده تأكيد الجنس ، وقيل ليظهر رسوله ، والأوّل أولى . وقد كان ذلك بحمد الله ، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان وانقهر له كل أهل الملل (وكفى بالله شهيدا) الباء زائدة كما تقدّم فى غير موضع : أى كفى الله شهيدا على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به وعلى صحة نبوّة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم (محمد رسول الله) محمد مبتدإ ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدإ محذوف ورسول الله بدل منه ، وقيل محمد مبتدأ ورسول الله نعت له (والذين معه) معطوف على المبتدإ وما بعده الخبر ، والأوّل أولى ، والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به « والذين معه » قيل هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم (أشداء على الكفار) أى غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد (رحماء بينهم) أى متوادّون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدّة والصلابة ، ولمن وافقه الرحمة والرأفة . قرأ الجمهور برفع « أشداء » و « رحماء » على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد وما عطف عليه كما تقدّم . وقرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح ، ويكون الخبر على هذه القراءة (تراهم ركعا سجدًا) أى

تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف : أعنى قوله تراهم (ويبتغون فضلا من الله ورضوانا) أي يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور أو فى محل نصب على الحال من ضمير تراهم ، وهكذا (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) السيما العلامة ، وفيها لغتان المدّ والقصر : أى تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة وكثرة التعبد بالليل والنهار . وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا ، فجعل هذا هو السيما . وقال الزهرى : مواضع السجود أشدّ وجوههم بياضا يوم القيامة . وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأوّل : أعنى كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود قال سعيد بن جبير ومالك . وقال ابن جرير : هو الوقار . وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل هو البهاء فى الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثورى : والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدّم من هذه الصفات الجليلة ، وهو مبتدأ وخبره قوله (مثلهم فى التوراة) أى وصفهم الذى وصفوا به فى التوراة ووصفهم الذى وصفوا به (فى الإنجيل) وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره وللتنبيه على غرابته وأنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة (كزرع أخرج شطأه) الخ كلام مستأنف : أى هم كزرع الخ ، وقيل هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف ، وقيل هو خبر لقوله (ومثلهم فى الإنجيل) أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع قال الفراء : فيه وجهان : إن شئت قلت ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل : يعنى كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ؛ وإن شئت قلت ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم تبتدئ ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قرأ الجمهور « شطأه » بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب شطاه كعصاه . وقرأه الجحدرى وابن أبى إسحاق « شطه » بغير همزة ، وكلها لغات قال الأخفش والكسائى : شطأه : أى طرفه . قال الفراء : شطأ الزرع فهو مشطئ إذا خرج . قال الزجاج : (أخرج شطأه) : أى نباته . وقال قطرب : الشطأ سوى السنبل . وروى عن الفراء أيضا أنه قال : هو السنبل . وقال الجوهرى . شطأ الزرع والنبات والجمع أشطاء ، وقد أشطأ الزرع خرج شطوه (فآزره) أى قوّاه وأعانه وشده ، قيل المعنى : إن الشطأ قوى الزرع ، وقيل إن الزرع قوّى الشطأ ، ومما يدلّ على أن الشطأ خروج النبات . قول الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى ... ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور « فآزره » بالمد . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

بمحنية قد آزر الضال نبتها ... بجرّ جيوش غانمين وخيب

قال الفراء : آزرت فلانا آزره أزرا إذا قوّيته (فاستغلظ) أى صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا (فاستوى على سوقه) أى فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق . وقرأ قنبل سؤقه بالهمزة الساكنة (يعجب الزراع) أى يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم يكونون فى الابتداء قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع ، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه . قال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتقويته لهم فقال (ليغيظ بهم الكفار) أى كثرهم وقوّاهم ليكونوا غيظا للكافرين ،

واللام متعلقة بمحذوف : أى فعل ذلك ليغيظ (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التى هى أكبر نعمة وأعظم منة .

وقد أخرج أحمد والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة ، فلما صدّت عن البيت حنت كما تحنّ إلى أولادها . وأخرج الحسن بن سفيان وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن قانع والباوردى والطبرانى وابن مردويه . قال السيوطى بسند جيد عن أبى جمعة حنيذ بن سبع قال : « قابلت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل النهار كافرا ، وقابلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان » وفى رواية عند ابن أبى حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلمو هم) قال : حين ردّوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم (أن تطئوهم) بقتلكم إياهم (لو تزيلوا) يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذابا أليما بقتلكم إياهم » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال : يوم صفين اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية : يعنى الصلح الذى كان بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولم يضيعنى الله أبدا ، فرجع متغيظا ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولم يضيعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح هو ؟ قال نعم » . وأخرج الترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن جرير والدارقطنى فى الإفراد ، وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبىّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (وألزمهم كلمة التقوى) قال « لا إله إلا الله » وفى إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذى بعد إخراجه : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وكذا قال أبو زرعة . وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن علىّ بن أبى طالب مثله من قوله . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد عن المسور بن مخرمة ومروان نحوه وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) قال : هو دخول محمد البيت والمؤمنين محلقين ومقصرين ، وقد ورد فى الدعاء للمحلقين والمقصرين فى الصحيحين وغيرهما أحاديث منها ما قدّمنا الإشارة إليه ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عمر وفيهما من حديث أبى هريرة أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (سيماهم فى وجوههم) قال : أما إنه ليس الذى يرونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه . وأخرج محمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هو

السمت الحسن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه . قال السيوطى بسند حسن عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) قال : النور يوم القيامة . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس (ذلك مثلهم فى التوراة) يعنى نعتهم مكتوب فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس (كزرع أخرج شطأه) قال : نباته فروخه .

تفسير سورة الحجرات

هى ثمانى عشرة آية ، وهى مدنية

قال القرطبى : بالإجماع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (١) يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ
صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ
جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَافَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ (٦)
وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ
إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ
ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله) قرأ الجمهور « تقدّموا » بضم المثناة الفوقية وتشديد الدال مكسورة . وفيه وجهان : أحدهما أنه متعدّ وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس

الفعل كقولهم هو يعطي ويمنع . والثانى أنه لازم نحو وجه وتوجه ، ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب « تقدموا » بفتح التاء والقاف والدال . قال الواحدى : قدم هاهنا بمعنى تقدّم ، وهو لازم . قال أبو عبيدة : العرب تقول لاتقدّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب : أى لاتعجل بالأمر دونه والنهى لأن المعنى : لاتقدّموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدى الإمام عبارة عن الإمام لامابين يدى الإنسان ، ومعنى الآية : لاتقطعوا أمرا دون الله ورسوله ولا تعجلوا به . وقيل المراد معنى بين يدى فلان بحضرته ، لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه (واتقوا الله) فى كلّ أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدّم بين يدى الله ورسوله دخولا أوّليا . ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله (إن الله سميع) لكلّ مسموع (عليم) بكل معلوم (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ) يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت ، لأن ذلك يدلّ على قلة الاحتشام وترك الاحترام ، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير . ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط ، والأوّل أولى . والمعنى لاترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . قال المفسرون : المراد من الآية تعظيم النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره وأن لاينادوه كما ينادى بعضهم بعضا (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) أى لاتجهروا بالقول إذا كلمتموه كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا . قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه وأن يغضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار ، وقيل المراد بقوله (ولا تجهروا له بالقول) لاتقولوا يا محمد ويا أحمد ، ولكن يانبىّ الله ويا رسول الله توقيرا له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف : أى جهرا مثل جهر بعضكم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر فى القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فان ذلك كفر ، وإنما المراد أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره . والحاصل أن النهى هنا وقع عن أمور : الأوّل عن التقدّم بين يديه بما لايأذن به من الكلام . والثانى عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره . والثالث ترك الجفاء فى مخاطبته ولزوم الأدب فى مجاورته ، لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره . ثم علل سبحانه ماذكره بقوله (أن تحبط أعمالكم) قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم التقدير لأن تحبط أعمالكم أى فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهى : أى نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهى : أى لاتفعلوا الجهر فإنه يؤدّى إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأوّل ، وجملة (وأنتم لاتشعرون) فى محل نصب على الحال ، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم . قال الزجاج : وليس المراد وأنتم لاتشعرون يوجب أن يكفر الإنسان وهو لايعلم ، فكما لايكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لايكون الكافر كافرا من حيث لايعلم . ثم رغب سبحانه فى امتثال ما أمر به ، فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) أصل الغض النقص من كل شىء ، ومنه نقص الصوت (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده من رديئه ويسقط خبيثه . وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة . وقال الأخفش : اختصها للتقوى ، وقيل طهرها من كلّ قبيح ، وقيل وسعها وسرّحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته . وقال أبو عمرو : كلّ شىء جهدته فقد محنته ، واللام فى للتقوى متعلقة بمحذوف : أى صالحة للتقوى كقولك أنت صالح لكذا ، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب ، كقولك جئتك لأداء الواجب : أى ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب (لهم مغفرة وأجر عظيم) أى أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون

مستأنفا لبيان ما أعدّ الله لهم فى الآخرة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) هم جفاة بنى تميم كما سيأتى بيانه ، ووراء الحجرات خارجها وخلفها : والحجرات جمع حجرة ، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة ، وقيل الحجرات جمع حجرة ، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع : والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . قرأ الجمهور الحجرات بضم الجيم . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفا ، وقرأ ابن أبى عبلة بإسكانها ، وهى لغات ، و« من » فى من وراء لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى (أكثرهم لايعقلون) لغلبة الجهل عليهم وكثرة الجفاء فى طباعهم (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) أى لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، لما فى ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل . وقيل إنهم جاءوا شفعاء فى أسارى ، فأعتق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصفهم وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ، ذكر معناه مقاتل (والله غفور رحيم) كثير المغفرة والرحمة بليغهما لايؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) قرأ الجمهور « فتبينوا » من التبين ، وقرأ حمزة والكسائى « فتثبتوا » من التثبت ، والمراد من التبين التعرّف والتفحص ، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة ، والتبصر فى الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر . قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط كما سيأتى بيانه إن شاء الله . وقوله (أن تصيبوا قوما بجهالة) مفعول له : أى كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ، لأنه لم يصدر عن علم ، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم (فتصبحوا على مافعلتم) بهم من إصابتهم بالخطأ (نادمين) على ذلك مغتمين له مهتمين به . ثم وعظهم الله سبحانه فقال (واعلموا أن فيكم رسول الله) فلا تقولوا قولا باطلا ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، وأن وما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى اعلموا ، وجملة (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) فى محل نصب على الحال من ضمير فيكم أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم فى كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة ، وتشيرون به عليه من الآراء التى ليست بصواب لوقعتم فى العنت ، وهو التعب والجهد . والإثم والهلاك ، ولكنه لايطيعكم فى غالب ماتريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) أى جعله أحبّ الأشياء إليكم ، أو محبوبا لديكم فلا يقع منكم إلا مايوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار وعدم التثبت فيها ، قيل والمراد بهؤلاء من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين ، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان وتوجبه محبته التى جعلها الله فى قلوبهم (وزينه فى قلوبكم) أى حسنه بتوفيقه حتى جروا على مايقتضيه فى الأقوال والأفعال (وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى جعل كل ماهو من جنس الفسوق ومن جنس العصيان مكروها عندكم . وأصل الفسق الخروج عن الطاعة ، والعصيان جنس مايعصى الله به ، وقيل أراد بذلك الكذب خاصة ، والأوّل أولى (أولئك هم الراشدون) أى الموصوفون بما ذكرهم الراشدون . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب ، من الرشادة : وهى الصخرة (فضلا من الله ونعمة) أى لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبب إليكم ما حبّب وكرّه ما كرّه لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك ، وقيل النصب بتقدير فعل : أى تبتغون فضلا ونعمة (والله عليم) بكل معلوم (حكيم) فى كل مايقضى به بين عباده ويقدّره لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عبد الله بن الزبير قال : « قدم ركب من بنى تميم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال أبوبكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبوبكر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله) حتى انقضت الآية » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله) قال : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى الآية قالت : لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وأخرج البخارى فى تاريخه عنها قالت : كان أناس يتقدّمون بين يدى رمضان بصيام : يعنى يوما أو يومين ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنها أيضا أن ناسا كانوا يتقدّمون الشهر فيصومون قبل النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا) الآية . وأخرج البزار وابن عدى والحاكم وابن مردويه عن أبى بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ) قلت : يارسول الله : والله لا أكلمك إلا كأخى السرار ، وفى إسناده حصين بن عمر ، وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : لما نزلت (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) قال أبو بكر : والذى أنزل عليك الكتاب يارسول الله لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال « لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ) إلى قوله (وأنتم لاتشعرون) وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حبط عملى ، أنا من أهل النار وجلس فى بيته حزينا ، ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا : فقدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبىّ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه بذلك ، فقال لا ، بل هو من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة قتل . وفى الباب أحاديث بمعناه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ) الآية : قال : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوى والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى : بسند صحيح من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس « أنه أتى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يامحمد اخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يامحمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال ذاك الله ، فأنزل الله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسندا غير هذا . وأخرج الترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال : جاء رجل فقال : يامحمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : ذاك الله . وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى : بإسناد حسن عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، فأتيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه يامحمد يامحمد فأنزل الله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

بأذنى وجعل يقول : لقد صدّق الله قولك يازيد ، لقد صدق الله قولك يازيد . وفى الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه قال السيوطى بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يارسول الله أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته وترسل إلىّ يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك ماجمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ّوبلغ الإبان الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت ، فظنّ الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان وقت لى وقتا يرسل إلىّ رسوله ليقبض ماكان عندى من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأتى رسول الله ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ماكان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقلّ البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال : لا والذى بعث محمدا بالحقّ ما رأيته بتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ قال : لا والذى بعثك بالحقّ مارأيته ولا رآنى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله ، فنزل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) إلى قوله (حكيم) قال ابن كثير : هذا من أحسن ماروى فى سبب نزول الآية . وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَيهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِنْ نِسَآءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا

تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢).

قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) قرأ الجمهور « اقتتلوا » باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله ـ هذان خصمان اختصموا ـ والضمير فى قوله « بينهما » عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ . وقرأ ابن أبى عبلة « اقتتلتا » اعتبارا بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن علىّ وعبيد بن عمير « اقتتلا » وتذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين . والبغى : التعدّى بغير حق والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والفىء : الرجوع . والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدّى مايجب عليها للأخرى . ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء . قال الحسن وقتادة والسدّى (فأصلحوا بينهما) بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضى بما فيه لهما وعليهما (فإن بغت إحداهما) وطلبت ماليس لها ولم ترجع إلى الصلح (فقاتلوا التى تبغى) حتى ترجع إلى طاعة الله والصلح الذى أمر الله به ، وجملة (إنما المؤمنون إخوة) مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان . قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب لأنهم لآدم وحواء (فأصلحوا بين أخويكم) يعنى كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى . قرأ الجمهور « بين أخويكم » على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود والحسن وحماد بن سلمة وابن سيرين « إخوانكم » بالجمع ، وروى عن أبى عمرو ونصر بن عاصم وأبى العالية والجحدرى ويعقوب أنهم قرءوا « بين إخوتكم » بالفوقية على الجمع أيضا . قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين الطائفتين ، لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين (واتقوا الله) فى كل أموركم (لعلكم ترحمون) بسبب التقوى ، والترجى باعتبار المخاطبين : أى راجين أن ترحموا ، وفى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « قتال المسلم كفر » فإن المراد بهذا الحديث وما ورد فى معناه قتال المسلم الذى لم يبغ . قال ابن جرير : لو كان الواجب فى كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حقّ ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق والفجور سببا إلى استحلال كل ماحرّم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم وسفك دمائهم بأن يتحزّبوا عليهم ، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « خذوا على أيدى سفهائكم » . قال ابن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، وعمدة فى حرب المتأوّلين ، وعليها عوّل

الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « تقتل عمارا الفئة الباغية » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى شأن الخوارج « يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ » (يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) السخرية : الاستهزاء : وحكى أبو زيد : سخرت به وضحكت به وهزأت به . وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى ، وقرئ بهما فى ـ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ـ ، ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهى بقوله (عسى أن يكونوا خيرا منهم) أى أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال ، لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال (ولا نساء من نساء) أى ولا يسخر نساء من نساء (عسى أن يكنّ) المسخور بهن (خيرا منهن) يعنى خيرا من الساخرات منهنّ ، وقيل أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهنّ أكثر (ولا تلمزوا أنفسكم) اللمز العيب ، وقد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله ـ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ـ قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لايكون إلا باللسان ، ومعنى (لاتلمزوا أنفسكم) لا يلمز بعضكم بعضا كما فى قوله ـ ولا تقتلوا أنفسكم ـ وقوله ـ فسلموا على أنفسكم ـ قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لايطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لايلعن بعضكم بعضا (ولا تنابزوا بالألقاب) التنابز : التفاعل من النبز بالتسكين وهو المصدر ، والنبز بالتحريك اللقب ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذى سمى به الإنسان ، والمراد هنا لقب السوء ، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضا . قال الواحدى : قال المفسرون : هو أن يقول لأخيه المسلم يافاسق يامنافق ، أو يقول لمن أسلم يايهودى يا نصرانى ، قال عطاء : هو كلّ شىء أخرجت به أخاك من الإسلام ، كقولك ياكلب ياحمار ياخنزير. قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بكفره ، فيقال له يايهودى يا نصرانى فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الاسم الذى يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر . قال ابن زيد : أى بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته . وقيل المعنى : أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبذ فهو فاسق . قال القرطبى : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوّزته الأئمة واتفق على قوله أهل اللغة اهـ ، (ومن لم يتب) عما نهى الله عنه (فأولئك هم الظالمون) لارتكابهم مانهى الله عنه وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ) الظنّ هنا : هو مجرد التهمة التى لاسبب لها كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش ولم يظهر عليه مايقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه ، لأن من الظنّ مايجب اتباعه ، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم ، ولكن هذا الظنّ الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به فارتفع عن الشكّ والتهمة . قال الزجاج : هو أن يظنّ بأهل الخير سوءا ، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذى ظهر منهم . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءا ، ولا بأس به مالم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم . وحكى القرطبى عن أكثر العلماء : أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لاحرج فى الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح ، وجملة (إنّ بعض الظنّ إثم) تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل

الخير ، والإثم هو مايستحقه الظانّ من العقوبة . ومما يدل على تقييد هذا الظن المأمور باجتنابه بظن السوء قوله تعالى ـ وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوما بورا ـ فلا يدخل فى الظنّ المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين ، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم ، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيادا للدّين وشذوذا عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظنّ فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها . ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال (ولا تجسسوا) التجسس : البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معايب الناس ومثالبهم . قرأ الجمهور « تجسسوا » بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء . قال الأخفش : ليس يبعد أحدهما من الآخر ، لأن التجسس بالجيم : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس بالحاء : طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقيل إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره قاله ثعلب (ولا يغتب بعضكم بعضا) أى لايتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، فقيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ فقال : إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لايعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىّ لايعلم بغيبة من اغتابه . ذكر معناه الزجاج . وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه ، وفى هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية ، وتستكرهه الجبلة البشرية ، فضلا عن كونه محرّما شرعا (فكرهتموه) قال الفراء : تقديره فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا . قال الرّازى : الفاء فى تقدير جواب كلام ، كأنه قال : لايحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذن . وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره : عرض عليكم ذلك فكرهتموه (واتقوا الله) بترك ما أمركم باجتنابه (إن الله توّاب رحيم) لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم « لو أتيت عبد الله ابن أبىّ ، فانطلق إليه وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عنى ، فوالله لقد آذانى ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فنزلت فيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية » . وقد روى نحو هذا من وجوه أخر . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عمر قال : ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية ، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أمر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ويقرّوا بحكم الله وأخرج ابن

جرير وابن مردويه عن ابن عباس (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية. قال: كان قتال بالنعال والعصي، فأمرهم أن يصلحوا بينهما. وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت: مارأيت مثل مارغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما). وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) قال: نزلت فى قوم من بنى تميم استهزءوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبى حذيفة. وأخرج عبد بن حميد والبخارىّ فى الأدب وابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله (ولا تلمزوا أنفسكم) قال: لايطعن بعضكم على بعض. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارىّ فى الأدب، وأهل السنن الأربع وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والشيرازى فى الألقاب، والطبرانى وابن السنى فى عمل يوم وليلة، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة (ولا تنابزوا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يارسول الله إنه يكرهه، فنزلت (ولا تنابزوا بالألقاب). وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحقّ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال: إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول: يا يهودىّ يا نصرانىّ يا مجوسىّ، ويقول للرجل المسلم: يا فاسق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ) قال: نهى الله المؤمن أن يظنّ بالمؤمن سوءا. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك». وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (ولا تجسسوا) قال: نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن زيد ابن وهب قال: أتى ابن مسعود فقيل هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذه. وقد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (ولا يغتب بعضكم بعضا) الآية قال: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشىء كما حرّم الميتة. والأحاديث فى تحريم الغيبة كثيرة جدا معروفة فى كتب الحديث.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ

لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥)
قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

قوله (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هما آدم وحوّاء ، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأمّ واحدة ، وأنه لاموضع للتفاخر بينهم بالأنساب ، وقيل المعنى : أن كل واحد منكم من أب وأمّ فالكل سواء (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعوب جمع شعب بفتح الشين ، وهو الحىّ العظيم : مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة ، وبنى تميم من مضر . قال الواحدى : هذا قول جماعة من المفسرين ، سموا شعبا لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد : يقال شعبته : إذا جمعته ، وشعبته إذا فرّقته ، ومنه سميت المنية شعوبا لأنها مفرّقة ، فأما الشعب بالكسر فهو الطريق فى الجبل . قال الجوهرى : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ، والقبائل دون ذلك . وقال قتادة : الشعوب النسب الأقرب . وقيل إن الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب . وحكى أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة ، ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة . ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائلُ من شعوب ليس فيهم كريم قد يعدّ ولا نجيب

قرأ الجمهور (لتعارفوا) بتخفيف التاء وأصله لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين . وقرأ البزّى بتشديدها على الإدغام . وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم : أى خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا . وقرأ ابن عباس « لتعرفوا » مضارع عرف . والفائدة فى التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره . والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب ، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن . ثم علل سبحانه مايدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لايوجب كرما ولا يثبت شرفا ولا يقتضى فضلا . قرأ الجمهور « إن أكرمكم » بكسر إن . وقرأ ابن عباس بفتحها : أى لأن أكرمكم (إن الله عليم) بكل معلوم ومن ذلك أعمالكم (خبير) بما تسرّون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية . ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال (قالت الأعراب آمنا) وهو بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يردّ عليهم فقال (قل لم تؤمنوا)

أى لم تصدّقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة (ولكن قولوا أسلمنا) أى استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة ، وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ماقبلها ، أو فى محل نصب على الحال ، وفى « لما » معنى التوقع . قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبىّ ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن . وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى لم تصدّقوا وإنما أسلمتم تعوّذا من القتل (وإن تطيعوا الله ورسوله) طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة ، وقلوب مصدقة غير منافقة (لايلتكم من أعمالكم شيئا) يقال لات يلت : إذا نقص ، ولاته يليته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى : لا ينقصكم من أعمالكم شيئا . قرأ الجمهور « يلتكم » من لاته يليته كباع يبيعه . وقرأ أبوعمرو « لا يألتكم » بالهمز من ألته يألته بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع ، واختار قراءة أبى عمرو أبوحاتم لقوله ـ وما ألتناهم من عملهم من شىء ـ وعليها قول الشاعر :

أبلغ بنى أسد غنى مغلغلة جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبوعبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول رؤبة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان (إن الله غفور) أى بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب (رحيم) بليغ الرحمة لهم . ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ولا دخل الإيمان فى قلوبهم بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) يعنى إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب واللسان (ثم لم يرتابوا) أى أى لم يدخل قلوبهم شىء من الريب ولا خالطهم شكّ من الشكوك (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) أى فى طاعته وابتغاء مرضاته ، ويدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، فإنها من جملة مايجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤدّيه كما أمر الله سبحانه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الجامعين بين الأمور المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره قوله (هم الصادقون) أى الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان والدخول فى عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه ، وادّعى أنه مؤمن ، ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولاعمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم وسائر أهل النفاق . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولا آخر لما ادّعوا أنهم مؤمنون فقال (قل أتعلمون الله بدينكم) التعليم هاهنا بمعنى الإعلام ، ولهذا دخلت الباء فى بدينكم : أى أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا (والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فكيف يخفى عليه بطلان ماتدّعونه من الإيمان ، والجملة فى محل النصب على الحال من مفعول تعلمون (والله بكلّ شىء عليم) لاتخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ماتبطنونه من الكفر وتظهرونه من الإسلام لخوف الضرّاء ورجاء النفع . ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه منهم بما يدّعونه من الإسلام فقال (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان (قل لاتمنوا علىّ إسلامكم) أى لاتعدّوه منة علىّ ، فإن الإسلام هو المنة التى لايطلب موليها ثوابا لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال (بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان) أى أرشدكم إليه وأراكم طريقه

سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه ، وانتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون ، أو بنزع الخافض : أى لأن أسلموا ، وهكذا قوله (أن هداكم للإيمان) فإنه يحتمل الوجهين (إن كنتم صادقين) فيما تدّعونه ، والجواب محذوف يدلّ عليه ماقبله : أى إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم . قرأ الجمهور « أن هداكم » بفتح أن ، وقرأ عاصم بكسرها (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) أى ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) لايخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . قرأ الجمهور « تعملون » على الخطاب ، وقرأ ابن كثير على الغيبة .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة . وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره ، فنزلت (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبوداود فى مراسيله وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا : يارسول الله ، أنزوّج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هى مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى : أى قبيلة لهم ، وأى شعاب ، وقوله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فقال : أتقاكم للشرك . وأخرج البخارى وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب القبائل العظام ، والقبائل البطون . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : الشعوب الجماع ، والقبائل الأفخاذ التى يتعارفون بها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا قال : القبائل الأفخاذ ، والشعوب الجمهور مثل مضر . وأخرج البخارى وغيره عن أبي هريرة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أىّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم ، قال : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » وقد وردت أحاديث فى الصحيح وغيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (قالت الأعراب آمنا) قال أعراب بنى أسد وخزيمة ، وفى قوله (ولكن قولوا أسلمنا) مخافة القتل والسبي . وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت فى بنى أسد . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى : أن ناسا من العرب قالوا : يارسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله (يمنون عليك أن أسلموا) . وأخرج النسائى والبزار وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد .

تفسير سورة قٓ

هى خمس وأربعون آية

وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا آية ، وهى قوله (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) وهى أوّل المفصل على الصحيح ، وقيل من الحجرات . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة قٓ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد أخرج مسلم وغيره عن قطبة بن مالك قال : « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الفجر فى الركعة الأولى قٓ والقرآن المجيد » . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن أبى واقد الليثى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى العيد بقاف واقتربت » وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجه والبيهقى عن أمّ هشام ابنة حارثة قالت : ما أخذت قٓ والقرآن المجيد إلا من فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يقرأ بها فى كلّ جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، وهو فى صحيح مسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ
يَنظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ
بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ (١١)
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣)
وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ
بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

قوله (قٓ والقرآن المجيد) الكلام فى إعراب هذا كالكلام الذى قدّمنا فى قوله ـ صٓ والقرآن ذى الذكر ـ وفى قوله ـ حمٓ والكتاب المبين ـ واختلف فى معنى قٓ ، فقال الواحدى : قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد والسماء مقبية عليه ، وهو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة . قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى قٓ لأنه اسم ، وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل : قلت لها قفى ، فقالت قاف ، أى أنا واقفة . وحكى الفراء والزجاج : أن قوما قالوا معنى قٓ : قضى الأمر وقضى ماهو كائن ، كما قيل فى حمٓ : حمّ الأمر . وقيل هو اسم من أسماء الله أقسم به . وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن . وقال الشعبى : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق معناه : قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما ، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه . والحق أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة ، ومعنى المجيد : أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة . وقال الحسن : الكريم ، وقيل الرفيع القدر ، وقيل الكبير القدر ، وجواب القسم قال الكوفيون هو قوله (بل عجبوا) وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : قٓ والقرآن المجيد لتبعثن ، يدل عليه (أئذا متنا وكنا ترابا) وقال ابن كيسان جوابه ـ مايلفظ من قول ـ وقيل هو ـ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم ـ بتقدير اللام : أى لقد علمنا ، وقيل هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتنذر ، كأنه قيل قٓ والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس . قرأ الجمهور قاف بالسكون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم بكسر الفاء . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء : وقرأ هارون ومحمد بن السميفع بالضم (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال ، وأن فى موضع نصب على تقدير : لأن جاءهم . والمعنى : بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يكتفوا بمجرّد الشك والردّ ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، وقيل هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا وقد تقدم تفسير هذا فى سورة صٓ . ثم فسر ماحكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) وفيه زيادة تصريح وإيضاح . قال قتادة : عجبهم أن دعوا إلى إله واحد ، وقيل تعجبهم من البعث ، فيكون لفظ « هذا » إشارة إلى مبهم يفسره مابعده من قوله (أئذا متنا) الخ ، والأوّل أولى . قال الرازى : الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجىء المنذر ، ثم قالوا (أئذا متنا) وأيضا قد وجد هاهنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدى معنى التعجب ، وهو قولهم (ذلك رجع بعيد) فإنه استبعاد وهو كالتعجب ، فلو كان التعجب بقولهم (هذا شىء عجيب) عائدا إلى قولهم : أئذا لكان كالتكرار ، فإن قيل التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شىء عجيب أنه يعود إلى مجىء المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قولهم : وعجبوا أن جاءهم ، فقوله (هذا شىء عجيب) يكون تكرارا ، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير لأنه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجبا كقوله ـ أتعجبين من أمر الله ـ ويقال فى العرف : لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب ، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم : لامعنى لتعجبكم ، فقالوا (هذا شىء عجيب) فكيف لانعجب منه ، ويدلّ على ذلك قوله هاهنا (فقال الكافرون) بالفاء ، فإنها تدلّ على أنه مترتب على ماتقدّم ، قرأ الجمهور « أئذا متنا » بالاستفهام . وقرأ ابن عامر فى رواية عنه وأبو جعفر والأعمش والأعرج بهمزة واحدة ، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور ، وهمزة الاستفهام مقدّرة ، ويحتمل أن معناه الإخبار ، والعامل فى الظرف مقدّر : أى أيبعثنا ، أو أنرجع إذا متنا لدلالة مابعده عليه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فجواب إذا محذوف : أى رجعنا ، وقيل ذلك رجع ، والمعنى : استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم ترابا . ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا (ذلك) أى البعث (رجع بعيد) أى بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان ،

يقال رجعته أرجعه رجعا ورجع هو يرجع رجوعا . ثم ردّ سبحانه ما قالوه فقال (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضلّ عنا شيء من ذلك ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى فى القبور لايصعب عليه البعث ولا يستبعد منه ، وقال السدّى : النقص هنا الموت ، يقول : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ، لأن من مات دفن ، فكأن الأرض تنقص من الأموات ، وقيل المعنى : من يدخل فى الإسلام من المشركين ، والأوّل أولى (وعندنا كتاب حفيظ) أي حافظ لعدّتهم وأسمائهم ولكلّ شيء من الأشياء ، وهو اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالكتاب هنا العلم والإحصاء ، والأوّل أولى . وقيل حفيظ بمعنى محفوظ : أي محفوظ من الشياطين ، أو محفوظ فيه كل شيء . ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأوّل وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال (بل كذبوا بالحق) فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ماتقدّم عنهم من الاستبعاد ، والمراد بالحق هنا القرآن . قال الماوردى فى قول الجميع ، وقيل هو الإسلام ، وقيل محمد ، وقيل النبوّة الثابتة بالمعجزات (لما جاءهم) أي وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم . وقرأ الجحدرى بكسر اللام وتخفيف الميم (فهم فى أمر مريج) أي مختلط مضطرب ، يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن : قاله الزجاج وغيره . وقال قتادة مختلف . وقال الحسن ملتبس ، والمعنى متقارب ، وقيل فاسد والمعانى متقاربة . ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس : أي فسدت ، ومرج الدين والأمر اختلط (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أي كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم (كيف بنيناها) وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه (وزيناها) بما جعلنا فيها من المصابيح (وما لها من فروج) أي فتوق وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج ، ومنه قول امرئ القيس : * يسدّ به فرجا من دبر * قال الكسائى ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق (والأرض مددناها) أي بسطناها (وألقينا فيها رواسى) أي جبالا ثوابت ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة الرعد (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أي من كل صنف حسن وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحج (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) هما علتان لما تقدّم منتصبان بالفعل الأخير منها ، أو بمقدّر : أي فعلنا مافعلنا للتبصير والتذكير قاله الزجاج . وقال أبو حاتم : انتصبا على المصدرية أي جعلنا ذلك تبصرة وذكرى . والمنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر فى بديع صنعه وعجائب مخلوقاته . وفى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أي نزّلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم (فأنبتنا به جنات) أي أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة (وحبّ الحصيد) أي مايقتات ويحصد من الحبوب ، والمعنى : وحبّ الزرع الحصيد ، وخصّ الحبّ لأنه المقصود ، كذا قال البصريون . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كمسجد الجامع ، حكاه الفرّاء . قال الضحاك : حبّ الحصيد البرّ والشعير ، وقيل كل حبّ يحصد ويدخر ويقتات (والنخل باسقات لها طلع نضيد) هو معطوف على جنات : أي وأنبتنا به النخل ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار ، وانتصاب باسقات على الحال ، وهى حال مقدّرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة . قال مجاهد وعكرمة وقتادة : الباسقات الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات . وقال الحسن وعكرمة والفراء : مواقير حوامل ، يقال للشاة إذا بسقت ولدت ، والأشهر فى لغة العرب الأوّل ، يقال بسقت النخلة بسوقا : إذا طالت ، ومنه قول الشاعر

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام فى السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدى الجنات

وجملة (لها طلع نضيد) فى محل نصب على الحال من النخل ، الطلع هو أول مايخرج من ثمر النخل ، يقال طلع الطلع طلوعا ، والنضيد المتراكب الذى نضد بعضه على بعض ، وذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد فى أكمامه فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد (رزقا للعباد) انتصابه على المصدرية : أى رزقناهم رزقا ، أو على العلة : أى أنبتنا هذه الأشياء للرزق (وأحيينا به بلدة ميتا) أى أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ، وجملة (كذلك الخروج) مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذى أحيا الله به الأرض الميتة ، قرأ الجمهور « ميتا » على التخفيف ، وقرأ أبو جعفر وخالد بالتثقيل . ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس) هم قوم شعيب كما تقدم بيانه ، وقيل هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى وقيل هم أصحاب الأخدود . والرس : إما موضع نسبوا إليه ، أو فعل ، وهو حفر البئر ، يقال رس : إذا حفر بئرا (وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (وإخوان لوط) جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره ، وقيل هم من قوم إبراهيم وكانوا من معارف لوط (وأصحاب الأيكة) تقدم الكلام على الأيكة واختلاف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى ، ونبيهم الذى بعثه الله إليهم شعيب (وقوم تبع) هو تبع الحميرى الذى تقدم ذكره فى قوله ـ أهم خير أم قوم تبع ـ واسمه سعد أبوكرب ، وقيل أسعد ؟ قال قتادة : ذم الله قوم تبع ، ولم يذمه (كل كذب الرسل) التنوين عوض عن المضاف إليه : أي كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذى أرسله الله إليه ، وكذب ماجاء به من الشرع ، واللام فى الرسل تكون للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس : أى كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، وإفراد الضمير فى كذب باعتبار لفظ كل ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنه قيل له : لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك ، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ولم يصدقهم إلا القليل منهم (فحق وعيد) أى وجب عليهم وعيدى وحقت عليهم كلمة العذاب ، وحل بهم ماقدره الله عليهم من الخسف والمسخ والإهلاك بالأنواع التى أنزلها الله بهم من عذابه (أفعيينا بالخلق الأول) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذى أنكرته الأمم : أى أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا ولم يكونوا شيئا ، فكيف نعجز عن بعثهم ، يقال عييت بالأمر : إذا عجزت عنه ولم أعرف وجهه . قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة . وقرأ ابن أبى عبلة بتشديد الياء من غير إشباع . ثم ذكر أنهم فى شك من البعث ، فقال (بل هم فى لبس من خلق جديد) أى فى شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، ومعنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول (بل هم فى لبس من خلق جديد) .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ق) قال : هو اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الدنيا مرفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له قاف السماء الثانية مرفرفة عليه ، حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات ، قال : وذلك قوله ـ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ـ قال ابن كثير : لايصح سنده عن

ابن عباس . وقال أيضا : وفيه انقطاع . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضا قال : هو جبل وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك ذلك العرق الذى يلى تلك القرية فيزلزلها ويحركها ، فمن ثم يحرك القرية دون القرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا (والقرآن المجيد) قال : الكريم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) قال : أجسادهم ومايذهب منها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : المريج الشيء المتغير . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن قطبة قال : « سمعت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الصبح قٓ ، فلما أتى على هذه الآية (والنخل باسقات) فجعلت أقول : ما بسوقها ؟ قال : طولها » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (والنخل باسقات) قال الطول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (لها طلع نضيد) قال : متراكم بعضه على بعض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (أفعيينا بالخلق الأوّل) يقول لم يعيينا الخلق الأوّل ، وفى قوله (بل هم فى لبس من خلق جديد) فى شكّ من البعث .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ
إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ
كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ
هَٰذَا مَالَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥)
ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ
وَلَٰكِنْ كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِٱلْوَعِيدِ (٢٨)
مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ
هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

قوله (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقيل آدم والوسوسة هى فى الأصل الصوت الخفىّ ، والمراد بها هنا مايختلج فى سرّه وقلبه وضميره : أى نعلم مايخفى ويكنّ فى نفسه ، ومن استعمال الوسوسة فى الصوت الخفىّ قول الأعشى : * تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت * فاستعمل لما خفى من حديث النفس (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان من عن يمين وشمال . وقال الحسن : الوريد الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان : أى نحن أقرب إليه من حبل وريده ، والإضافة بيانية : أى حبل هو الوريد . وقيل الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع . ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال (إذ يتلقى المتلقيان) الظرف منتصب بما فى « أقرب » من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون منصوبا بمقدّر هو اذكر ، والمعنى : أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به مايلفظ به وما يعمل به : أى يأخذان ذلك ويثبتانه ، والتلقى الأخذ : أى نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به ، وإنما جعلنا ذلك إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر . قال الحسن وقتادة ومجاهد : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . وقال مجاهد أيضا : وكل الله بالإنسان ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره (عن اليمين وعن الشمال قعيد) إنما قال قعيد ولم يقل قعيدان وهما اثنان ، لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأوّل لدلالة الثانى عليه ، كذا قال سيبويه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقول الفرزدق : * وأبى وكان وكنت غير عذور * أى وكان غير عذور وكنت غير عذور ، وقال الأخفش والفراء : إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير فى الأوّل . قال الجوهرى وغيره من أئمة اللغة والنحو : فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والقعيد المقاعد كالجليس بمعنى المجالس (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى مايتكلم من كلام ، فيلفظه ويرميه من فيه إلالديه : أى لدى ذلك اللافظ رقيب : أى ملك يرقب قوله ويكتبه ، والرقيب : الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذى يكتب مايقوله من خير وشرّ ، فكاتب الخير هو ملك اليمين ، وكاتب الشرّ ملك الشمال . والعتيد : الحاضر المهيأ . قال الجوهرى : العتيد الحاضر المهيأ ، يقال عتده تعتيدا وأعتده اعتدادا : أى أعده ، ومنه ـ وأعتدت لهن متكأ ـ والمراد هنا أنه معدّ للكتابة مهيوء لها (وجاءت سكرة الموت بالحق) لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ماينزل بهم من الموت ، والمراد بسكرة الموت شدّته وغمرته التى تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، ومعنى بالحق : أنه عند الموت يتضح له الحق ويظهر له صدق ماجاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد ، وقيل الحق هو الموت ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير : أى وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود . والسكرة هى الحق ، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين ، وقيل الباء للملابسة كالتى فى قوله ـ تنبت بالدهن ـ أى ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الحال ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى الموت ، والحيد الميل : أى ذلك الموت الذى كنت تميل عنه وتفرّ منه ، يقال : حاد عن الشىء يحيد حيودا وحيدة وحيدودة : مال عنه وعدل ، ومنه قول طرفة :

أبو منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

وقال الحسن : تحيد تهرب (ونفخ فى الصور) عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ، وهذه هى النفخة الآخرة للبعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الذى أوعد الله به الكفار . قال مقاتل : يعنى بالوعيد العذاب فى الآخرة ، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعا لتهويله (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ومن يشهد لها أو عليها .

واختلف فى السائق والشهيد ، فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم : يعنى الأيدى والأرجل . وقال الحسن وقتادة : سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين ، سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وقيل السائق الملك والشهيد العمل ، وقيل السائق كاتب السيئات ، والشهيد كاتب الحسنات ، ومحل الجملة النصب على الحال (لقد كنت فى غفلة من هذا) أى يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا ، والجملة فى محل نصب على الحال من نفس أو مستأنفة كأنه قيل مايقال له . قال الضحاك : المراد بهذا المشركون لأنهم كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال ابن زيد : الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : أى لقد كنت يامحمد فى غفلة من الرسالة . وقال أكثر المفسرين : المراد به جميع الخلق برّهم وفاجرهم ، واختار هذا ابن جرير . قرأ الجمهور بفتح التاء من « كنت » وفتح الكاف فى غطاءك وبصرك حملا على ما فى لفظ كل من التذكير . وقرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف بالكسر فى الجميع على أن المراد النفس (فكشفنا عنك غطاءك) الذى كان فى الدنيا : يعنى رفعنا الحجاب الذى كان بينك وبين أمور الآخرة ، ورفعنا ماكنت فيه من الغفلة عن ذلك (فبصرك اليوم حديد) أى نافذ تبصر به ماكان يخفى عليك فى الدنيا . قال السدّى : المراد بالغطاء أنه كان فى بطن أمه فولد ، وقيل إنه كان فى القبر فنشر ، والأوّل أولى . والبصر قيل هو بصر القلب وقيل بصر العين . وقال مجاهد : بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك وبه قال الضحاك (وقال قرينه هذا ما لدىّ عتيد) أى قال الملك الموكل به هذا ماعندى من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن وقتادة والضحاك . وقال مجاهد : إن الملك يقول للربّ سبحانه هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وروى عنه أنه قال : إن قرينه من الشياطين ، يقول ذلك : أى هذا ماقد هيأته لك بإغوائى وإضلالى . وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس ، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة ، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدإ محذوف (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) هذا خطاب من الله عزّ وجلّ للسائق والشهيد . قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق والشاهد : كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان (مناع للخير) لايبذل خيرا (معتد) ظالم لايقرّ بتوحيد الله (مريب) شاكّ فى الحق ، من قولهم أراب الرجل : إذا صار ذا ريب . وقيل هو خطاب للملكين من خزنة النار ، وقيل هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره . قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون : ارحلاها وازجراها وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء : العرب تقول للواحد قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان ، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر خليلىّ كما قال امرؤ القيس :

خليلى مرّا بى على أم جندب ... نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر : فإن تزجرانى يابن عفان أنزجر وإن تدعوانى أحم عرضا ممنعا

قال المازنى : قوله (ألقيا) يدل على ألق ألق . قال المبرد : هى تثنية على التوكيد ، فناب ألقيا مناب ألق ألق . قال مجاهد وعكرمة : العنيد المعاند للحق . وقيل المعرض عن الحق ، يقال عند يعند بالكسر عنودا : إذا خالف الحق (الذى جعل مع الله إلها آخر) يجوز أن يكون بدلا من كل أو منصوبا على الذم ، أو بدلا من كفار ، أو مرفوعا بالابتداء أو الخبر (فألقياه فى العذاب الشديد) تأكيد للأمر الأول أو بدل منه (قال قرينه ربنا ما أطغيته) هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد بالقرين هنا الشيطان الذى قيض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون أطغاه ، ثم قال (ولكن كان فى ضلال بعيد) أى عن الحق فدعوته فاستجاب لى ، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه ، وقيل إن قرينه الملك الذى كان يكتب سيئاته وإن الكافر يقول : ربّ إنه أعجلنى فيجيبه بهذا ، كذا قال مقاتل وسعيد بن جبير . والأوّل أولى ، وبه قال الجمهور (قال لاتختصموا لدىّ) هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل ، فماذا قال الله ؟ فقيل (قال لاتختصموا لدىّ) يعنى الكافرين وقرناءهم ، نهاهم سبحانه عن الاختصام فى موقف الحساب ، وجملة (وقد قدمت إليكم بالوعيد) فى محل نصب على الحال : أى والحال أن قد قدّمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والباء فى بالوعيد مزيدة للتأكيد أو على تضمين قدّم معنى تقدّم (مايبدّل القول لدىّ) أى لاخلف لوعدى ، بل هو كائن لامحالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب فلا تبديل له ، وقيل هذا القول هو قوله ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ـ وقيل هو قوله ـ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ وقال الفراء وابن قتيبة : معنى الآية : أنه مايكذب عندى بزيادة فى القول ولا بنقص منه لعلمى بالغيب ، وهو قول الكلبى . واختاره الواحدى لأنه قال ـ لدىّ ـ ولم يقل وما يبدل قولى ، والأوّل أولى . وقيل إن مفعول قدّمت إليكم هو مايبدّل أى وقد قدّمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد ، وهذا بعيد جدا (وما أنا بظلام للعبيد) أى لا أعذبهم ظلما بغير جرم اجترموه ولا ذنب أذنبوه . ولما كان نفى الظلام لايستلزم نفىّ مجرّد الظلم قيل إنه هنا بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر . وقيل إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ماذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم . وقيل صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة آل عمران وفى سورة الحج (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) قرأ الجمهور « نقول » بالنون . وقرأ نافع وأبوبكر بالياء . وقرأ الحسن أقول . وقرأ الأعمش « يقال » والعامل فى الظرف «مايبدّل القول لدىّ» أو محذوف أى اذكر أو أنذرهم ، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل ، والأولى أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع . قال الواحدى . قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله ـ لأملأنّ جهنم ـ فلما امتلأت قال لها (هل امتلأت وتقول هل من مزيد) أى قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ ، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان . وقيل إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة : أى إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها . وقيل : إن المعنى أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها ، والمزيد إما مصدر كالمحيد أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى هل من زيادة ، والثانى بمعنى هل من شىء تزيدونيه . ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع فى بيان حال المؤمنين فقال (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) أى قربت للمتقين تقريبا غير بعيد أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها فى الموقف ، وينظرون ما فيها مما لاعين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويجوز أن يكون انتصاب ـ غير بعيد ـ على الحال . وقيل المعنى : أنها زينت قلوبهم فى الدنيا بالترغيب والترهيب ، فصارت قريبة من قلوبهم ، والأوّل أولى . والإشارة بقوله (هذا ماتوعدون) إلى الجنة التى أزلفت لهم على معنى : هذا الذى ترونه من فنون نعيمها ماتوعدون ، والجملة بتقدير القول : أى ويقال لهم هذا ماتوعدون . قرأ الجمهور « توعدون » بالفوقية . وقرأ ابن كثير بالتحتية (لكل أوّاب حفيظ) هو بدل من للمتقين بإعادة الخافض أومتعلق بقول محذوف هوحال : أى مقولا لهم لكل أوّاب ، والأوّاب الرجاع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية ، وقيل هو المسبح ، وقيل هو الذاكر لله فى الخلوة . قال الشعبى ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وقال عبيد بن عمير هو الذى لايجلس مجلسا حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ : هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها . وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، قاله مجاهد . وقيل هو الحافظ لأمر الله . وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله له بالقبول (من خشى الرحمن بالغيب) الموصول فى محل جر بدلا أو بيانا لكل أوّاب ، وقيل يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر لأنه لايتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف والخبر ادخلوها بتقدير يقال لهم ادخلوها ، والخشية بالغيب أن يخاف الله ولم يكن رآه . وقال الضحاك والسدّى : يعنى فى الخلوة حيث لايراه أحد . قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب ، وبالغيب متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر خشى (وجاء بقلب منيب) أى راجع إلى الله مخلص لطاعته ، وقيل المنيب المقبل على الطاعة ، وقيل السليم (ادخلوها) هو بتقدير القول : أى يقال لهم ادخلوها ، والجمع باعتبار معنى من : أى ادخلوا الجنة (بسلام) أى بسلامة من العذاب ، وقيل بسلام من الله وملائكته ، وقيل بسلامة من زوال النعم ، وهو متعلق بمحذوف هو حال : أى ملتبسين بسلام ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء ، وخبره (يوم الخلود) وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له ، بل هو دائم أبدا (لهم مايشاءون فيها) أى فى الجنة ماتشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير (ولدينا مزيد) من النعم التى لم تخطر لهم على بال ولا مرّت لهم فى خيال .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل : هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (من حبل الوريد) قال : عروق العنق . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو نياط القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا ، فى قوله (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال : يكتب كل ماتكلم به من خير أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقرّ منه ماكان من خير أو شرّ وألقى سائره ، فذلك قوله ـ يمحو الله مايشاء ويثبت ـ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال : إنما يكتب الخير والشرّ ، لايكتب ياغلام اسرج الفرس ياغلام اسقنى الماء . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إن الله غفر لهذه الأمة ماحدّثت به أنفسها مالم تعمل أو تكلم » . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد والحكيم الترمذى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب عن عمرو بن ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر مايقول » . وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه والبيهقى فى البعث ،

وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم فى الكنى وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة فى الآية قال : السائق الملك ، والشهيد العمل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : السائق من الملائكة ، والشهيد شاهد عليه من نفسه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (لقد كنت فى غفلة من هذا) قال : هو الكافر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا (فكشفنا عنك غطاءك) قال : الحياة بعد الموت . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، و(قال قرينه) قال شيطانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (لا تختصموا لدىّ) قال : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجتهم وردّ عليهم قولهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا . فى قوله (وما أنا بظلام للعبيد) قال: ما أنا بمعذّب من لم يجترم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا . فى قوله (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) قال : وهل فىّ من مكان يزاد فىّ . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط ، وعزّتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة » . وأخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه ، وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (لكل أوّاب حفيظ) قال : حفظ ذنوبه حتى رجع عنها . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث والنشور عن أنس ، فى قوله (ولدينا مزيد) قال : يتجلى لهم الرّب تبارك وتعالى فى كل جمعة . وأخرج البيهقى فى الرؤية والديلمى عن علىّ فى الآية قال : يتجلى لهم الرب عزّ وجلّ ، وفى الباب أحاديث .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦)
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ
الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)
يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

خوّف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية (قبلهم) أى قبل قريش ومن وافقهم (من قرن) أى من أمة (هم أشد منهم بطشا) أى قوة كعاد وثمود وغيرهما (فنقبوا فى البلاد) أى ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها

وأصله من النقب ، وهو الطريق . قال مجاهد : ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دوّروا . وقال المؤرج تباعدوا . والأوّل أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

وقد نقبت فى الآفاق حتى　　رضيت من الغنيمة بالإياب

ومثله قول الحارث بن حلزة :

نقبوا فى البلاد من حذر المو　　ت وجالوا فى الأرض كل مجال

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو فى رواية « نقبوا » بفتح القاف مخففة ، والنقب هو الخرق والطريق فى الجبل وكذا المنقب والمنقبة ، كذا قال ابن السكيت ، وجمع النقب نقوب . وقرأ السلمى ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشدّدة على الأمر للتهديد : أى طوّفوا فيها وسيروا فى جوانبها . وقرأ الباقون بفتح القاف مشدّدة على الماضى (هل من محيص) أى هل لهم من مهرب يهربون إليه ، أو مخلص يتخلصون به من العذاب . قال الزجاج : لم يروا محيصا من الموت ، والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا : أى عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ، وفى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لايجدون من الموت والعذاب مفرّا (إن فى ذلك لذكرى) أى فيما ذكر من قصصهم تذكرة وموعظة (لمن كان له قلب) أى عقل . قال الفراء : وهذا جائز فى العربية ، تقول ما لك قلب وما قلبك معك : أى مالك عقل وما عقلك معك ، وقيل المراد القلب نفسه ، لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغى . وقيل لمن كان له حياة ونفس مميزة ، فعبر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها ، ومنه قول امرئ القيس :

أغرّك منى أن حبك قاتلى　　وأنك مهما تأمرى النفس تفعل

(أو ألقى السمع) أى استمع مايقال له ، يقال ألق سمعك إلىّ : أى استمع منى ، والمعنى : أنه ألقى السمع إلى مايتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم . قرأ الجمهور « ألقى » مبنيا للفاعل . وقرأ السلمى وطلحة والسدّى على البناء للمفعول ورفع السمع (وهو شهيد) أى حاضر الفهم أو حاضر القلب لأن من لا يفهم فى حكم الغائب وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه . قال الزجاج : أى وقلبه حاضر فيما يسمع . قال سفيان : أى لايكون حاضرا وقلبه غائب . قال مجاهد وقتادة : هذه الآية فى أهل الكتاب وكذا قال الحسن . وقال محمد بن كعب وأبو صالح : إنها فى أهل القرآن خاصة (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف وغيرها (وما مسنا من لغوب) اللغوب : التعب والإعياء ، تقول لغب يلغب بالضم لغوبا . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله (وما مسنا من لغوب . فاصبر على مايقولون) هذه تسلية للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمر لهم بالصبر على مايقوله المشركون : أى هوّن عليك ، ولا تحزن لقولهم وتلقّ مايرد عليك منه بالصبر (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى نزّه الله عما لايليق بجنابه العالى ملتبسا بحمده وقت الفجر ووقت العصر ، وقيل المراد صلاة الفجر وصلاة العصر ، وقيل الصلوات الخمس ، وقيل صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها ، والأول أولى (ومن الليل فسبحه) من للتبعيض : أى سبحه بعض الليل ، وقيل هى صلاة الليل ، وقيل ركعتا الفجر ، وقيل صلاة العشاء ، والأوّل أولى (وإدبار السجود) أى وسبحه أعقاب الصلوات قرأ الجمهور « أدبار » بفتح الهمزة جمع دبر . وقرأ

نافع وابن كثير وحمزة بكسرها على المصدر ، من أدبر الشيء إدبارا : إذا ولى . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر . وقد اتفق القراء السبعة فى إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة كما سيأتى (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب) أي استمع مايوحى إليك من أحوال القيامة : يوم ينادى المناد ، وهو إسرافيل أوجبريل ، وقيل استمع النداء أو الصوت أو الصيحة ، وهى صيحة القيامة : أعنى النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل ، وقيل إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى أهل المحشر ، ويقول : هلموا للحساب . فالنداء على هذا فى المحشر . قال مقاتل : هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول : يا أيها الناس هلموا للحساب (من مكان قريب) بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر . قال قتادة : كنا نحدّث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس . قال الكلبي : وهى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا (يوم يسمعون الصيحة بالحق) هو بدل من يوم ينادي : يعنى صيحة البعث ، وبالحق متعلق بالصيحة (ذلك يوم الخروج) أي يوم الخروج من القبور . قال الكلبي : معنى بالحق بالبعث . وقال مقاتل : يعنى أنها كائنة حقا (إنا نحن نحيي ونميت) أى نحيي فى الآخرة ونميت فى الدنيا لايشاركنا فى ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث (وإلينا المصير) فنجازى كل عامل بعمله (يوم تشقق الأرض عنهم) قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين . وقرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفا . وقرأ زيد بن علىّ : تتشقق بإثبات التاءين على الأصل ، وقرئ على البناء للمفعول ، وانتصاب (سراعا) على أنه حال من الضمير فى عنهم ، والعامل فى الحال تشقق ، وقيل العامل فى الحال هو العامل فى يوم : أى مسرعين إلى المنادى الذى ناداهم (ذلك حشر) أى بعث وجمع (علينا يسير) هين . ثم عزّى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال (نحن أعلم بما يقولون) يعنى من تكذيبك فيما جئت به ومن إنكار البعث والتوحيد (وما أنت عليهم بجبار) أى بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان ، والآية منسوخة بآية السيف (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى من يخاف وعيدى لعصاتى بالعذاب ، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم ، ثم أمره الله سبحانه بعد ذلك بالقتال .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (وما مسنا من لغوب) قال : من نصب . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل الغروب) صلاة العصر . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : «بت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : يابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم وركعتان بعد المغرب إدبار السجود» . وأخرج مسدّد فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علىّ بن أبي طالب قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إدبار النجوم وإدبار السجود ، فقال : إدبار السجود ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم الركعتان قبل الغداة» . وأخرج محمد بن نصر فى الصلاة وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : إدبار السجود ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم ركعتان قبل الفجر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن علىّ بن أبي طالب مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها . وأخرج ابن جرير عنه (واستمع يوم يناد المناد) قال : هى الصيحة . وأخرج الواسطى عنه أيضا (من مكان قريب) قال : من صخرة بيت المقدس . وأخرج ابن أبي حاتم وابن

المنذر عنه أيضا (ذلك يوم الخروج) قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : قالوا : يارسول الله لو خوّفتنا ، فنزلت (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

تفسير سورة الذاريات

هى ستون آية ، وهى مكية . قال القرطبى فى قول الجميع

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الذاريات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّرِيٰتِ ذَرْوًا (١) فَالْحٰمِلٰتِ وِقْرًا (٢) فَالْجٰرِيٰتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمٰتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوٰقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرّٰصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتٰيهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِى أَمْوٰلِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِى الْأَرْضِ آيٰتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٤) .

قوله (والذّاريات ذروا) يقال ذرت الريح التراب تذروه ذروا ، وأذرته تذريه ذريا ، أقسم سبحانه بالرّياح التى تذرى التراب ، وانتصار ذروا على المصدرية ، والعامل فيها اسم الفاعل والمفعول محذوف . قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا . وقرأ الباقون بدون إدغام . وقيل المقسم به مقدّر وهو ربّ الذاريات وما بعدها ، والأوّل أولى (فا لحاملات وقرا) هى السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب وقرا على أنه مفعول به كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا . قرأ الجمهور « وقرا » بكسر الواو اسم ما يوقر : أى يحمل ، وقرئ بفتحها على أنه مصدر والعامل فيه اسم الفاعل ، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة (فالجاريات يسرا) هى السفن الجارية فى البحر بالرّياح جريا سهلا ، وانتصاب يسرا على المصدرية ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو على الحال : أى جريا ذا يسر ، وقيل هى الرّياح ، وقيل السحاب ، والأوّل أولى . واليسر : السهل فى كل شيء

(فالمقسمات أمرا) هي الملائكة التي تقسم الأمور. قال الفرّاء : تأتي بأمر مختلف : جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتي بالموت ، وقيل تأتي بأمر مختلف من الجدب والخصب والمطر والموت والحوادث. وقيل هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد ، وقيل إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات الرياح ، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب وتحمل السحاب وتجرى في الهواء وتقسم الأمطار ، وهو ضعيف جدّا . وانتصاب أمرا على المفعول به ، وقيل على الحال : أي مأمورة ، والأوّل أولى (إنما توعدون لصادق) هذا جواب القسم : أي إنما توعدون من الثواب والعقاب لكائن لا محالة . و « ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية . ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة ، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به (والسماء ذات الحبك) قرأ الجمهور « الحبك » بضم الحاء والباء ، وقرئ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وفتح الباء وبكسر الحاء وضم الباء . قال ابن عطية : هي لغات ، والمراد بالسماء هنا هي المعروفة ، وقيل المراد بها السحاب ، والأوّل أولى .

واختلف المفسرون في تفسير الحبك ، فقال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوى الحسن . قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته واحتبكته . وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الزينة . وروى عن الحسن أيضا أنه قال : ذات النجوم . وقال الضحاك : ذات الطرائق ، وبه قال الفرّاء ، يقال لما تراه من الماء والرّمل إذا أصابته الريح حبك . قال الفراء : الحبك بكسر : كل شيء كالرمل إذا مرّت به الريح الساكنة والماء إذا مرّت به الرّيح ، ويقال للدرع الحديد حبك ، ومنه قول الشاعر :

كأنما جللها الحواك طنفسة في وشيها حباك

أي طرق ، وقيل الحبك الشدّة ، والمعنى : والسماء ذات الشدّة ، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره ، ومنه قول الشاعر : قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممرّ

وقول الآخر : مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الكتد

قال الواحدي بعد حكاية القول الأوّل : هذا قول الأكثرين (إنكم لفي قول مختلف) هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك : أي إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف متناقض في محمد صلى الله عليه وآله وسلم . بعضكم يقول إنه شاعر . وبعضكم يقول إنه ساحر ، وبعضكم يقول إنه مجنون . ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء ، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة ، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه . على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال : إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سببا لمزيد حسنها واستواء خلقها وحصول الزينة فيها ومزيد القوّة لها . وقيل إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر وبعضهم يشكّ فيه ، وقيل كونهم يقرّون أن الله خالقهم ويعبدون الأصنام (يؤفك عنه من أفك) أي يصرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به ، أو عن الحقّ ، وهو البعث والتوحيد من صرف . وقيل يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق ، يقال أفكه يأفكه إفكا : أي قلبه عن الشيء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى - قالوا أجئتنا لتأفكنا - وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، والأفن فساد العقل ، وقيل يحرمه من حرم . وقال قطرب : يخدع عنه من خدع . وقال اليزيدي : يدفع عنه من دفع (قتل الخرّاصون) هذا دعاء عليهم . وحكي الواحدي عن

المفسرين جميعا أن المعنى : لعن الكذابون . قال ابن الأنبارى : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال الفراء : معنى قتل لعن . والخراصون الكذابون الذين يتخرصون فيما لايعلمون فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب شاعر ساحر . قال الزجاج: الخراصون هم الكذابون ، والخرص : حزر ما على النخل من الرطب تمرا ، والخراص : الذى يخرصها ، وليس هو المراد هنا ، ثم قال (الذين هم فى غمرة ساهون) أى فى غفلة وعمى جهالة عن أمور الآخرة ، ومعنى ساهون : لاهون غافلون ، والسهو : الغفلة عن الشيء وذهابه عن القلب ، وأصل الغمرة ماستر الشيء وغطاه ، ومنها غمرات الموت (يسألون أيان يوم الدين) أي يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم واستهزاء . ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون ويعذبون ، يقال فتنت الذهب : إذا أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة الاختبار . قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل فتن . وانتصاب يوم بمضمر : أى الجزاء : يوم هم على النار ، ويجوز أن يكون بدلا من يوم الدين ، والفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة ، وقيل هومنصوب بتقدير أعنى . وقرأ ابن أبى عبلة برفع « يوم » على البدل من يوم الدين ، وجملة (ذوقوا فتنتكم) هى بتقدير القول : أى يقال لهم ذوقوا عذابكم قاله ابن زيد. وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأول الفراء ، وجملة (هذا الذى كنتم به تستعجلون) من جملة ماهو محكى بالقول : أى هذا ماكنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم ، وقيل هى بدل من فتنتكم (إن المتقين فى جنات وعيون) لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة : أى هم فى بساتين فيها عيون جارية لايبلغ وصفها الواصفون (آخذين ما آتاهم ربهم) أى قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة ، وجملة (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) تعليل لما قبلها : أى لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك مانهوا عنه. ثم بين إحسانهم الذى وصفهم به فقال (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، والمعنى : كانوا قليلا ماينامون من الليل ، وما زائدة ، ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة : أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو مايهجعون فيه ، ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى ... فما أطعم نوما غير تهجاع

والتهجاع : القليل من النوم ، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعى السميع ... يهيجنى وأصحابى هجوع

وقيل ما نافية : أى ما كانوا ينامون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير منه ، وهذا ضعيف جدا . وهذا قول من قال : إن المعنى كان عددهم قليلا . ثم ابتدأ فقال (مايهجعون) وبه قال ابن الأنبارى وهو أضعف مما قبله . وقال قتادة فى تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين ، وبه قال أبو العالية وابن وهب (وبالأسحار هم يستغفرون) أى يطلبون فى أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار . وقال الكلبى ومقاتل ومجاهد : هم بالأسحار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم لمغفرة . وقال الضحاك : هى صلاة الفجر . ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) ى يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل والمحروم تقربا إلى الله عز وجل . وقال محمد بن سيرين وقتادة : لحق هنا الزكاة المفروضة ، والأول أولى ، فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقرى الضيف ، لأن السورة مكية ، والزكاة لاتفرض إلا بالمدينة ، وسيأتى فى سورة سأل سائل ـ وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ـ زيادة معلوم ، والسائل هو الذى يسأل الناس لفاقته ،

واختلف فى تفسير المحروم ، فقيل هو الذى يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا فلا يتصدقون عليه ، وبه قال قتادة والزهرى . وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية : هو الذى لاسهم له فى الغنيمة ولا يجرى عليه من الفىء شىء . وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته . قال القرطبى : هو الذى أصابته الجائحة ، وقيل الذى لايكتسب ، وقيل هو الذى لايجد غنى يغنيه ، وقيل هو الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ، وقيل هو المملوك ، وقيل الكلب ، وقيل غير ذلك . قال الشعبى : لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ ، والذى ينبغى التعويل عليه مايدلّ عليه المعنى اللغوى ، والمحروم فى اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه . ثم ذكر سبحانه مانصبه من الدلائل الدالة على توحيده وصدق وعده ووعيده فقال (وفى الأرض آيات للموقنين) أى دلائل واضحة وعلامات ظاهرة من الجبال والبرّ والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذبة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه ، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه فينتفعون به (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى وفى أنفسكم آيات تدلّ على توحيد الله وصدق ماجاءت به الرّسل ، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواسّ ومجارى ومنافس ، ومعنى (أفلا تبصرون) أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرّازق المتفرّد بالألوهية ، وأنه لاشريك له ولا ضدّ ولا ندّ ، وأن وعده الحقّ ، وقوله الحقّ وأن ماجاءت إليكم به رسله هو الحقّ الذى لاشكّ فيه ولا شبهة تعتريه ، وقيل المراد بالأنفس الأرواح : أى وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات (وفى السماء رزقكم) أى سبب رزقكم ، وهو المطر فإنه سبب الأرزاق . قال سعيد ابن جبير والضحاك : الرزق هنا ماينزل من السماء من مطر وثلج . وقيل المراد بالسماء السحاب : أى وفى السحاب رزقكم ، وقيل المراد بالسماء المطر ، وسماه سماء لأنه ينزل من جهتها ، ومنه قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى ربّ السماء رزقكم ، قال : ونظيره ـ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ـ وهو بعيد . وقال سفيان الثورى : أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل المعنى : وفى السماء تقدير رزقكم . قرأ الجمهور « رزقكم » بالإفراد ، وقرأ يعقوب وابن محيصن ومجاهد « أرزاقكم » بالجمع (وما توعدون) من الجنة والنار ، قاله مجاهد . قال عطاء : من الثواب العقاب ، وقال الكلبى : من الخير والشرّ ، قال ابن سيرين : ماتوعدون من أمر الساعة ، وبه قال الربيع . والأولى الحمل على ماهو أعمّ من هذه الأقوال ، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء ، والقضاء والقدر ينزل منها ، والجنة والنار فيها . ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال (فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ) أى ما أخبركم به فى هذه الآيات . قال الزجاج : هو ماذكر من أمر الرزق والآيات . قال الكلبى : يعنى ماقصّ فى الكتاب . وقال مقاتل : يعنى من أمر الساعة . وقيل إن « ما » فى قوله (وما توعدون) مبتدأ وخبره فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ ، فيكون الضمير لما . ثم قال سبحانه (مثل ما أنكم تنطقون) قرأ الجمهور بنصب « مثل » على تقدير : كمثل نطقكم ، وما زائدة ، كذا قال بعض الكوفيون إنه منصوب بنزع الخافض . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد : أى لحق حقا مثل نطقكم . وقال المازنى : إن

« مثل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح . وقال سيبويه: هو مبنىّ لإضافته إلى غير متمكن ، واختار هذه القراءة أبوعبيد وأبوحاتم . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر والأعمش « مثل » بالرفع على أنه صفة لحقّ ، لأن مثل نكرة وإن أضيفت فهى لاتتعرّف بالإضافة كغير . ورجح قول المازنى أبوعلىّ الفارسى ، قال ومثله قول حميد : * وويحا لمن لم يدر ماهنّ ويحما * فبنى ويح مع ما ولم يلحقه التنوين ، ومعنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمى ووجوده ، وهذا كما تقول : إنه لحق كما أنك هاهنا ، وإنه لحق كما أنك تتكلم ، والمعنى : أنه فى صدقه ووجوده كالذى تعرفه ضرورة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى والدارقطنى فى الأفراد والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله (والذاريات ذروا) قال : الرياح (فالحاملات وقرا) قال : السحاب (فالجاريات يسرا) قال : السفن (فالمقسمات أمرا) قال : الملائكة . وأخرج البزار والدارقطنى فى الإفراد ، وابن مردويه وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله ورفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى إسناده أبو بكر بن سبرة وهو لين الحديث ، وسعيد بن سلام وليس من أصحاب الحديث ، كذا قال البزار . قال ابن كثير : فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب مافيه أنه موقوف على عمر . وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علىّ . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى العظمة عن ابن عباس (والسماء ذات الحبك) قال : حسنها واستواؤها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى العظمة عنه فى الآية قال : ذات البهاء والجمال وإن بنيانها كالبرد المسلسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ذات الخلق الحسن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن منيع عن علىّ قال : هى السماء السابعة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يؤفك عنه من أفك) قال : يضلّ عنه من ضلّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (قتل الخراصون) قال : لعن المرتابون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هم الكهنة (الذين هم فى غمرة ساهون) قال : فى غفلة لاهون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الغمرة الكفر والشك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : فى ضلالتهم يتمادون ، وفى قوله (يوم هم على النار يفتنون) قال : يعذبون . وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله (آخذين ما آتاهم ربهم) قال : الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) قال : قبل أن تنزل الفرائض يعملون . وأخرج هؤلاء أيضا والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) قال : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى الآية يقول : قليلا ماكانوا ينامون . وأخرج أبوداود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس فى الآية قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر (وبالأسحار هم يستغفرون) قال : يصلون . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فى أموالهم حق) قال : سوى الزكاة يصل بها رحما أو يقرى بها ضيفا أو يعين بها محروما . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : السائل الذى يسأل الناس ، والمحروم الذى ليس له سهم من فىء المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : المحروم هو المحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية . قالت : هو المحارف الذى لايكاد

يتيسر له مكسبه . وأخرج الترمذى والبيهقى فى سننه عن فاطمة بنت قيس « أنها سألت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قال : إن فى المال حقا سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية ـ ليس البر أن تولوا وجوهكم ـ إلى قوله ـ وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن الزبير فى قوله (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) قال : سبيل الغائط والبول .

هَلْ أَتَيٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلٰمًا قَالَ سَلٰمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) .

قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك . وفى الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه إنما علمه بطريق الوحى . وقيل إن هل بمعنى قد كما فى قوله ـ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ـ والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم فى سورة هود وسورة الحجر ، والمراد بكونهم مكرمين : أنهم مكرمون عند الله سبحانه لأنهم ملائكة جاءوا إليه فى صورة بنى آدم ، كما قال تعالى فى وصفهم فى آية أخرى ـ بل عباد مكرمون ـ وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مقاتل ومجاهد : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم ، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف ، وأمر امرأته أن تخدمهم . وقال الكلبى : أكرمهم بالعجل (إذ دخلوا عليه) العامل فى الظرف حديث : أى هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه ، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر ، أو العامل فيه المكرمين ، أو العامل فيه فعل مضمر : أى اذكر (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما (قال سلام) أى قال إبراهيم سلام . قرأ الجمهور بنصب « سلاما » الأول ورفع الثانى ، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا ، والمراد به التحية ، ويحتمل أن يكون المعنى : فقالوا كلاما حسنا لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ، فيكون على هذا مفعولا به . وأما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر : أى عليكم سلام ، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدّد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعانى : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة . وقرئ بالرفع فى الموضعين ، وقرئ بالنصب فيهما . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين . وقرئ سلم فيهما (قوم

منكرون) ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى أنتم قوم منكرون . قيل إنه قال هذا فى نفسه ولم يخاطبهم به ، لأن ذلك يخالف الإكرام . قيل إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسلام ولم يكن ذلك معهودا عند قومه ، وقيل لأنه رأى فيهم مايخالف بعض الصور البشرية ، وقيل لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم ، وقيل غير ذلك (فراغ إلى أهله) قال الزجاج : أى عدل إلى أهله ، وقيل ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب وقد تقدم تفسيره فى سورة الصافات . يقال راغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا يريغ : أى يريد ويطلب ، وأراغ إلى كذا : مال إليه سرّا وحاد (فجاء بعجل سمين) أى فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى سورة هود ـ بعجل حنيذ ـ وفى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة : أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به (فقرّبه إليهم) أى قرّب العجل إليهم ووضعه بين أيديهم ف(قال ألا تأكلون) الاستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه . قال فى الصحاح : العجل ولد البقر ، والعجول مثله والجمع العجاجيل والأنثى عجلة ، وقيل العجل فى بعض اللغات الشاة (فأوجس منهم خيفة) أى أحسّ فى نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا مما قرّبه إليهم . وقيل معنى أوجس أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه ، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشرّ ولم يأتوا للخير . وقيل إنه وقع فى قلبه أنهم ملائكة ، فلما رأوا ماظهر عليه من أمارات الخوف (قالوا لاتخف) وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه (وبشروه بغلام عليم) أى بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال ، والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق . وقال مجاهد وحده : إنه إسماعيل ، وهو مردود بقوله ـ وبشرناه بإسحاق ـ وقد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لايحتاج الناظر فيه إلى غيره (فأقبلت امرأته فى صرّة) لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هو كقولك : أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى ، كذا قال الفراء وغيره . والصرّة الصيحة والضجة ، وقيل الجماعة من الناس . قال الجوهرى : الصرّة : الضجة والصيحة ، والصرّة : الجماعة ، والصرّة الشدّة من كرب أوغيره ، والمعنى : أنها أقبلت فى صيحة ، أو فى ضجة ، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه جراجرها فى صرّة لم تزيل

وقوله (فى صرّة) فى محل نصب على الحال (فصكت وجهها) أى ضربت بيدها على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب . قال مقاتل والكلبى : جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبا ، ومعنى الصكّ : ضرب الشئ بالشئ العريض ، يقال صكه : أى ضربه (وقالت عجوز عقيم) أى كيف ألد وأنا عجوز عقيم ، استبعدت ذلك لكبر سنها ، ولكونها عقيما لاتلد (قالوا كذلك قال ربك) أى كما قلنا لك وأخبرناك قال : ربك فلا تشكى فى ذلك ولا تعجبى منه ، فإن ما أراده الله كائن لامحالة ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا ، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة ، وقد سبق بيان هذا مستوفى ، وجملة (إنه هو الحكيم العليم) تعليل لما قبلها : أى حكيم فى أفعاله وأقواله ، عليم بكل شىء ، وجملة (قال فما خطبكم أيها المرسلون) مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ، والخطب الشأن والقصة ، والمعنى : فما شأنكم وما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يريدون قوم لوط (لنرسل عليهم حجارة من طين) أى لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ، وانتصاب (مسوّمة) على الصفة لحجارة ، أو على الحال فى الضمير المستكنّ فى الجار والمجرور ، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور ، ومعنى (مسوّمة) معلمة بعلامات تعرف بها ، قيل كانت

مخططة بسواد وبياض ، وقيل بسواد وحمرة ، وقيل معروفة بأنها حجارة العذاب ، وقيل مكتوب على كل حجر من يهلك بها ، وقوله (عند ربك) ظرف لمسوّمة : أى معلمة عنده (للمسرفين) المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحدّ فى الفجور . وقال مقاتل : للمشركين ، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) هذا كلام من جهة الله سبحانه : أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت . يقال بيت شريف ويراد به أهله ، قيل وهم أهل بيت لوط ، والإسلام : الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله ـ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ـ وقد أوضح الفرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الإسلام والإيمان فى الحديث فى الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال « أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت وتصوم رمضان » وسئل عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشرّه » فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الذى قاله الصادق المصدوق ، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة ، وأما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى وتركنا فى تلك القرى علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب ، كلّ من يخاف عذاب الله ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ، وهذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى ، فإنها ظاهرة بينة ، وقيل هى الحجارة التى رجموا بها ، وإنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ويتفكرون فى الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث والوعد والوعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عباس فى قوله (فى صرّة) قال : فى صيحة (فصكت وجهها) قال : لطمت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال : لوط وابنتيه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٤٦) وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلْأَرْضَ

فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا
إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)
أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ
ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ
مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

قوله (وفى موسى) معطوف على قوله فيها بإعادة الخافض ، والتقدير : وتركنا فى قصة موسى آية أو معطوف على ـ وفى الأرض ـ والتقدير : وفى الأرض وفى موسى آيات ، قاله الفراء وابن عطية والزمخشرى . قال أبو حيان : وهو بعيد جدا ينزّه القرآن عن مثله ، ويجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدّرا لدلالة ـ وتركنا عليه ـ قيل ويجوز أن يعطف على وتركنا على طريقة قول القائل : * علفتها تبنا وماء باردا * والتقدير : وتركنا فيها آية ، وجعلنا فى موسى آية . قال أبوحيان : ولا حاجة إلى إضمار ، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور وتركنا . والوجه الأوّل هو الأولى ، وماعداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة ولا دعت إليه ضرورة (إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية : أى كائنة وقت أرسلناه ، أو بآية نفسها ، والأوّل أولى . والسلطان المبين الحجة الظاهرة الواضحة ، وهى العصى وما معها من الآيات (فتولى بركنه) التولى : الإعراض ، والركن : الجانب . قاله الأخفش . والمعنى : أعرض بجانبه كما فى قوله ـ أعرض ونأى بجانبه ـ قال الجوهرى : ركن الشىء جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد : أى عزّ ومنعة . وقال ابن زيد ومجاهد وغيرهما : الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوّى بهم ، ومنه قوله تعالى ـ أو آوى إلى ركن شديد ـ أى عشيرة ومنعة ، وقيل الركن : نفس القوّة ، وبه قال قتادة وغيره ، ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ولكن ما تقادم من زمانى

(وقال ساحر أو مجنون) أى قال فرعون : فى حقّ موسى هو ساحر أومجنون فردّد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لايتيسر على يد ساحر ولا يفعله من به جنون . وقيل إن أو بمعنى الواو ، لأنه قد قال ذلك جميعا ولم يتردّد ، قاله المؤرج والفرّاء ، كقوله ـ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ـ (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ) أى طرحناهم فى البحر ، وجملة (وهو مليم) فى محل نصب على الحال : أى آت بما يلام عليه حين ادّعى الربوبية وكفر بالله وطغى فى عصيانه (وفى عاد) أى وتركنا فى قصة عاد آية (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وهى التى لاخير فيها ولا بركة ، لاتلقح شجرا ولا

تحمل مطرا ، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب . ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال (ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أي ماتذر من شيء مرّت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا جعلته كالشيء الهالك البالي . قال الشاعر :

تركتني حين كفّ الدهر من بصرى وإذ بقيت كعظم الرّمة البالى

وقال قتادة : إنه الذي ديس من يابس النبات ، وقال السدّي وأبو العالية : إنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وأصل الكلمة من رمّ العظم : إذا بلى فهو رميم ، والرّمة : العظام البالية (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) أي وتركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك ، وهو ثلاثة أيام كما في قوله ـ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام (فعتوا عن أمر ربهم) أي تكبروا عن امتثال أمر الله (فأخذتهم الصاعقة) وهي كل عذاب مهلك . قرأ الجمهور « الصاعقة » وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن محيصن ومجاهد والكسائي « الصعقة » وقد مرّ الكلام على الصاعقة في البقرة ، وفي مواضع (وهم ينظرون) أي يرونها عيانا ، والجملة في محل نصب على الحال ، وقيل إن المعنى : ينتظرون ماوعدوه من العذاب ، والأوّل أولى (فما استطاعوا من قيام) أي لم يقدروا على القيام . قال قتادة : من نهوض : يعني لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى : أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب ، ومثله قوله ـ فأصبحوا في دارهم جاثمين ـ (وما كانوا منتصرين) أي ممتنعين من عذاب الله بغيرهم (وقوم نوح من قبل) أي من قبل هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون وعاد وثمود (إنهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن طاعة الله . قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بخفض « قوم » أي وفي قوم نوح آية ، وقرأ الباقون بالنصب : أي وأهلكنا قوم نوح ، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة ، أو على مفعول نبذناهم : أي نبذناهم ونبذنا قوم نوح ، أو يكون العامل فيه اذكر (والسماء بنيناها بأيد) أي بقوّة وقدرة ، قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، والتقدير : وبنينا السماء بنيناها . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها على الابتداء (وإنا لموسعون) الموسع ذو الوسع والسعة ، والمعنى : إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لانعجز عن ذلك ، وقيل لقادرون ، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة ، وقيل إنا لموسعون الرزق بالمطر . قال الجوهري : وأوسع الرجل : صار ذا سعة وغنى (والأرض فرشناها) قرأ الجمهور بنصب « الأرض » على الاشتغال . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها كما تقدّم في قوله (والسماء بنيناها) ومعنى فرشناها : بسطناها كالفراش (فنعم الماهدون) أي نحن ، يقال مهدت الفراش : بسطته ووطأته ، وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها (ومن كل شيء خلقنا زوجين) أي صنفين ونوعين من ذكر وأنثى وبرّ وبحر وشمس وقمر وحلو ومرّ وسماء وأرض وليل ونهار ونور وظلمة وجنّ وإنس وخير وشرّ (لعلكم تذكرون) أي خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شيء وتستدلوا بذلك على توحيده وصدق وعده ووعيده (ففرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي قل لهم يامحمد : ففرّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي ، وجملة (إني لكم منه نذير مبين) تعليل للأمر بالفرار ، وقيل معنى (ففرّوا إلى الله) اخرجوا من مكة . وقال الحسين بن الفضل : احترزوا من كل شيء غير الله ، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه . وقيل فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ، وقيل فرّوا من الجهل إلى العلم ، ومعنى (إني لكم منه) أي من جهته منذر بين الإنذار (ولا تجعلوا مع الله إلها آخر) نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله ، وجملة (إني لكم منه نذير مبين) تعليل للنهي (كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) في هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة

وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم ، و (كذلك) فى محل رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى الأمر كذلك . ثم فسر ما أجمله بقوله (ما أتى) الخ ، أو فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف : أى أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمنى من الرسل الذين أنذروا قومهم ، والأوّل أولى (أتواصوا به) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم : أى هل أوصى أوّلهم آخرهم بالتكذيب وتواطئوا عليه (بل هم قوم طاغون) إضراب عن التواصى إلى ماجمعهم من الطغيان : أى لم يتواصوا بذلك ، بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحدّ فى الكفر . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالإعراض عنهم فقال (فتولّ عنهم) أى أعرض عنهم وكفّ عن جدالهم ودعائهم إلى الحق ، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته (فما أنت بملوم) عند الله بعد هذا لأنك قد أدّيت ماعليك ، وهذا منسوخ بآية السيف . ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لايترك التذكير والموعظة بالتى هى أحسن فقال (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) قال الكلبى : المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم . وقال مقاتل : عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان فى علم الله أنه يؤمن . وقيل ذكرهم بالعقوبة وأيام الله ، وخصّ المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به ، وجملة (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون) مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، لأن كون خلقهم لمجرّد العبادة مما ينشط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للتذكير وينشطهم للإجابة . قيل هذا خاصّ فى من سبق فى علم الله سبحانه أنه يعبده ، فهو عموم مراد به الخصوص . قال الواحدى : قال المفسرون : هذا خاصّ لأهل طاعته ، يعنى من أهل من الفريقين . قال : وهذا قول الكلبى والضحاك واختيار الفراء وابن قتيبة . قال القشيرى : والآية دخلها التخصيص بالقطع ، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة ولا أرادها منهم ، وقد قال ـ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والإنس ـ ومن خلق لجهنم لايكون ممن خلق للعبادة . فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبىّ بن كعب « وما خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون » . وقال مجاهد : إن المعنى : إلا ليعرفونى . قال الثعلبى : وهذا قول حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى إلا لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله ـ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ـ واختار هذا الزجاج . وقال زيد بن أسلم : هو ماجبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية . وقال الكلبى : المعنى إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده فى الشدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدّة دون النعمة كما فى قوله ـ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ـ وقال جماعة : إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة : الذل والخضوع والانقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجنّ خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منقاد لما قدّره عليه . خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لايملك أحد منهم لنفسه نفعا ولاضرا . ووجه تقديم الجن على الإنس هاهنا تقدم وجودهم (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده ، وأنه لايريد منهم منفعة كما تريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغنىّ المطلق الرازق المعطى . وقيل المعنى : ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحدا من خلقى ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله ، فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه . وهذا كما ورد فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله عبدى استطعمتك فلم تطعمنى » أى لم تطعم عبادى ، ومن فى قوله (من رزق) زائدة لتأكيد العموم . ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لاغيره ، فقال (إن الله هو الرزاق) لا رزاق سواه ولامعطى غيره ، فهو الذى يرزق مخلوقاته ويقوم بما يصلحهم

فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة (ذو القوّة المتين) ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق ، أو للذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر . قرأ الجمهور « الرزاق » وقرأ ابن محيصن « الرازق » وقرأ الجمهور « المتين » بالرفع ، وقرأ يحيي بن وثاب والأعمش بالجرّ صفة للقوّة ، والتذكير لكون تأنيثها غير حقيقي . قال الفراء : كان حقه المتينة ، فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم القتل ، يقال حبل متين : أى محكم القتل ، ومعنى المتين : الشديد القوّة هنا (فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم) أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، فإن لهم ذنوبا : أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة . قال ابن الأعرابى : يقال يوم ذنوب : أى طويل الشرّ لاينقضى ، وأصل الذنوب فى اللغة الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب فى النصيب من الشيء قول الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات لكلّ بنى أب منها ذنوب

وما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير ، فهو تمثيل ، جعل الذنوب . مكان الحظ والنصيب قاله ابن قتيبة (فلا يستعجلون) أى لايطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب كما فى قولهم ـ ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ـ (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) قيل هو يوم القيامة وقيل يوم بدر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر فى قوله (فتولى بركنه) عن ابن عباس قال : بقومه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه فى قوله (الريح العقيم) قال : الشديدة التى لاتلقح شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : لاتلقح الشجر ولاتثير السحاب ، وفى قوله (إلا جعلته كالرميم) قال : كالشيء الهالك . وأخرج الفريابى وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : الريح العقيم النكباء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقىّ فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (والسماء بنيناها بأيد) قال : بقوّة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر عنه فى قوله (فتولّ عنهم فما أنت بملوم) قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم ، وعذر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فنسخها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون) قال : ليقرّوا بالعبودية طوعا أو كرها . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : على ماخلقتهم عليه من طاعتى ومعصيتى وشقوتى وسعادتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا فى قوله (المتين) يقول : الشديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ذنوبا) قال : دلوا .

تفسير سورة الطور

هى تسع وأربعون آية ، وقيل ثمان وأربعون

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقىّ عن ابن عباس قال : نزلت الطور بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى المغرب بالطور . وأخرج البخارى وغيره عن أمّ سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ (٤) وَٱلسَّقْفِ
ٱلْمَرْفُوعِ (٥) وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَالَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ
تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ
فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَاتُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)
فَٰكِهِينَ بِمَا آتَٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) .

قوله (والطور) قال الجوهرى : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى . قال مجاهد والسدّى : الطور بالسريانية الجبل ، والمراد به طور سيناء . قال مقاتل بن حيان : هما طوران : يقال لأحدهما طور سيناء ، وللآخر طور زيتا ، لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل هو جبل مدين ، وقيل إن الطور كل جبل ينبت ، وما لاينبت فليس بطور ، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفا له وتكريما (وكتاب مسطور) المسطور : المكتوب ، والمراد بالكتاب القرآن ، وقيل هو اللوح المحفوظ ، وقيل جميع الكتب المنزلة ، وقيل ألواح موسى ، وقيل ماتكتبه الحفظة قاله الفراء وغيره ، ومثله ـ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ـ وقوله ـ وإذا الصحف نشرت ـ (فى رقّ منشور) متعلق بمسطور : أى مكتوب فى رقّ . قرأ الجمهور « فى رق » بفتح الراء ، وقرأ أبو السماك بكسرها . قال الجوهرى : الرقّ بالفتح مايكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى (فى رقّ منشور) قال المبرد : الرقّ ما رقّ من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور المبسوط . قال أبو عبيدة : وجمعه رقوق ، ومن هذا قول المتلمس :

فكأنما هى من تقادم عهدها رقّ اتيح كتابها مسطور

وأما الرقّ بالكسر فهو المملوك ، يقال عبد رقّ وعبد مرقوق (والبيت المعمور) فى السماء السابعة . وقيل فى سماء الدنيا ، وقيل هو الكعبة ، فعلى القولين الأوّلين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ويعبد الله فيه . وعلى القول الثالث ، يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بنى آدم (والسقف المرفوع) يعنى السماء ، سماها سقفا لكونها كالسقف للأرض ، ومنه قوله ـ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ـ وقيل هو العرش (والبحر المسجور) أى الموقد ، من السجر : وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله ـ وإذا البحار سجرت ـ وقد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا ، وقيل المسجور المملوء ، قيل إنه من أسماء الأضداد ، يقال بحر مسجور : أى مملوء ، وبحر مسجور : أى فارغ ، وقيل المسجور الممسوك ، ومنه ساجور الكلب ، لأنه

يمسكه . وقال أبو العالية : المسجور الذى ذهب ماؤه ، وقيل المسجور المفجور ، ومنه - وإذا البحار فجرت - وقال الربيع بن أنس : هو الذى يختلط فيه العذب بالمالح . والأول أولى ، وبه قال مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش وغيرهم (إن عذاب ربك لواقع) هذا جواب القسم : أى كائن لامحالة لمن يستحقه (ماله من دافع) يدفعه ويرده عن أهل النار ، وهذه الجملة خبر ثان لإن ، أو صفة لواقع ، ومن مزيدة للتأكيد . ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية (يوم تمور السماء مورا) العامل فى الظرف لواقع : أى إنه لواقع فى هذا اليوم ، ويجوز أن يكون العامل فيه دافع . والمور : الاضطراب والحركة . قال أهل اللغة : مار الشيء يمور مورا : إذا تحرك وجاء وذهب قاله الأخفش وأبو عبيدة : وأنشدا بيت الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مشى السحابة لاريث ولا عجل

وليس فى البيت مايدل على ما قالاه إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة . وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض ، وقال مجاهد : تدور دورا ، وقيل تجرى جريا ، ومنه قول الشاعر :

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويطلق المور على الموج ، ومنه ناقة موارة اليد : أى سريعة تموج فى مشيها موجا ، ومعنى الآية أن العذاب يقع بالعصاة ولا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الذى تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة . وقيل إن السماء هاهنا الفلك ، وموره : اضطراب نظمه واختلاف سيره (وتسير الجبال سيرا) أى تزول عن أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب وتكون هباء منبثا ، قيل ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتها وخروجهما عن المعهود ، وقد تقدم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف (فويل يومئذ للمكذبين) ويل كلمة تقال للهالك ، واسم واد فى جهنم ، وإنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة : أى إذا وقع ماذكر من مور السماء وسير الجبال فويل لهم . ثم وصف المكذبين بقوله (الذين هم فى خوض يلعبون) أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه يلهون لايذكرون حسابا ولا يخافون عقابا . والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب والاستهزاء ، وقيل يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) الدع الدفع بعنف وجفوة : يقال دععته أدعه دعا : أى دفعته ، والمعنى : أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا . قال مقاتل : تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم . قرأ الجمهور بفتح الدال وتشديد العين . وقرأ على والسلمى وأبو رجاء وزيد بن على وابن السميفع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة : أى يدعون إلى النار من الدعاء . ويوم إما بدل من يوم تمور : أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه ، وهى (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا : أى هذه النار التى تشاهدونها هى النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار . ثم وبخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم ، فقال (أفسحر هذا) الذى ترون وتشاهدون كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ولكتبه المنزلة ، وقدم الخبر هنا على المبتدإ لأنه الذى وقع الاستفهام عنه وتوجه التوبيخ إليه (أم أنتم لاتبصرون) أى أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحق فى الدنيا (اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا) أى إذا لم يمكنكم إنكارها وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ولم يكن فى أبصاركم خلل ، فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لاتصبروا وافعلوا ماشئتم ، فالأمران (سواء عليكم) فى عدم النفع ، قيل أيضا تقول لهم الملائكة هذا القول ، وسواء خبر مبتدإ محذوف : أى الأمران سواء ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف : أى سواء عليكم

الصبر وعدمه ، وجملة (إنما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء ، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء (إن المتقين فى جنات ونعيم) لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ويجوز أن تكون من جملة مايقال للكفار زيادة فى غمهم وحسرتهم ، والتنوين (فى جنات ونعيم) للتفخيم (فاكهين بما آتاهم ربهم) يقال رجل فاكه : أى ذو فاكهة ، كما قيل لابن وتامر . والمعنى : أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة ، وقيل ذوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عزّ وجلّ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد تقدّم بيان معنى هذا . قرأ الجمهور « فاكهين » بالألف والنصب على الحال . وقرأ خالد « فاكهون » بالرفع على أنه خبر بعد خبر . وقرأ ابن عباس « فكهين » بغير ألف ، والفكه : طيب النفس كما تقدم فى الدخان ، ويقال للأشر والبطر ، ولا يناسب التفسير به هنا (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) معطوف على آتاهم ، أو على خبر إنّ ، أو الجملة فى محل نصب على الحال بإضمار قد (كلوا واشربوا هنيئا) أى يقال لهم ذلك ، والهنىء : مالا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ماصرتم إليه هناء ، والمعنى : كلوا طعاما هنيئا واشربوا شرابا هنيئا ، وقد تقدم تفسير هنيئا فى سورة النساء ، وقيل معنى هنيئا : أنكم لاتموتون (متكئين على سرر مصفوفة) انتصابه على الحال من فاعل كلوا ، أو من مفعول آتاهم ، أو من مفعول وقاهم ، أو من الضمير المستكنّ فى الظرف ، أو من الضمير فى فاكهين . قرأ الجمهور « على سرر » بضم الراء الأولى . وقرأ أبو السماك بفتحها ، والسرر جمع سرير . والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا (وزوّجناهم بحور عين) أى قرناهم بها . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوّجته امرأة وتزوّجت بامرأة ، وليس من كلام العرب زوّجته بامرأة . قال وقول الله تعالى (وزوّجناهم بحور عين) أى قرناهم بهنّ . وقال الفرّاء : زوّجته بامرأة لغة أزد شنوءة ، وقد تقدم تفسير الحور العين فى سورة الدخان . قرأ الجمهور « بحور عين » من غير إضافة . وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس (والطور) قال : جبل . وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الطور جبل من جبال الجنة » وكثير ضعيف جدّا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فى رقّ منشور) قال : فى الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه حتى تقوم الساعة » ، وفى الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة « ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه » . وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن البيت المعمور فقال : ذلك الضراح [1] بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن عمرو رفعه . قال : إن البيت المعمور لبحيال الكعبة لو سقط منه شىء لسقط عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا ثم لايعودون إليه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وضعف إسناده السيوطى

---

(١) الضراح : بالضم بيت فى السماء ، وهو البيت المعمور اه صحاح الجوهرى .

وأخرج ابن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عليّ بن أبي طالب في قوله (والسقف المرفوع) قال : السماء . وأخرج عبد الرزّاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله (والبحر المسجور) قال : بحر في السماء تحت العرش . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس . وأخرج ابن المنذر عنه قال : المسجور المرسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (يوم تمور السماء مورا) قال : تحرك ، وفي قوله (يوم يدعون) قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا : يوم يدعون (إلى نار جهنم دعا) قال : يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (كلوا واشربوا هنيئا) أي لا تموتون فيها ، فعندها قالوا ـ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ـ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤).

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص فقال (والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّياتهم) والموصول مبتدأ ، وخبره « ألحقنا بهم » ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر : أي وأكرمنا الذين آمنوا ، ويكون ألحقنا مفسرا لهذا الفعل المقدّر . قرأ الجمهور « واتبعتهم » بإسناد الفعل إلى الذرّية . وقرأ أبو عمرو « أتبعناهم » بإسناد الفعل إلى المتكلم ، كقوله ألحقنا . وقرأ الجمهور « ذرّيتهم » بالإفراد . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بالجمع ، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ : وأتبعناهم ، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع ، والمشهور عنه كقراءة الجمهور . وقرأ الجمهور « ألحقنا بهم ذرّيتهم » بالإفراد . وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب على الجمع ، وجملة (واتبعتهم ذرّيتهم) معطوف على آمنوا أو معترضة ، وبإيمان متعلق بالاتباع ، ومعنى هذه الآية : أن الله سبحانه يرفع ذرّية المؤمن إليه وإن كانوا

دونه فى العمل لتقرّ عينه وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين ، فيختصّ ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرّية وهم البالغون دون الصغار ، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية . وقيل إن الذرّية تطلق على الكبار والصغار كما هو المعنى اللغوى ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذرّيتهم وكبارهم ، ويكون قوله : بإيمان فى محل نصب على الحال : أى بإيمان من الآباء . وقيل إن الضمير فى بهم راجع إلى الذرّية المذكورة أولا : أى ألحقنا بالذرّية المتبعة لآبائهم بإيمان ذرّيتهم . وقيل المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار فقط ، وظاهر الآية العموم ، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب فى نزولها إن صحّ ذلك ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وما ألتناهم من عملهم من شىء) قرأ الجمهور بفتح اللام من «ألتنا» وقرأ ابن كثير بكسرها : أى وما نقصنا الآباء بإلحاق ذرّيتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئا ، فضمير المفعول عائد إلى الذين آمنوا . وقيل المعنى : وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئا لقصر أعمارهم ، والأول أولى ، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته وألاته فى سورة الحجرات . وقرأ ابن هرمز «آلتناهم» بالمدّ ، وهو لغة . قال فى الصحاح : يقال ما آلته من عمله شيئا أى مانقصه (كل امرئ بما كسب رهين) رهين بمعنى مرهون ، والظاهر أنه عامّ ، وأن كل إنسان مرتهن بعمله ، فإن قام به على الوجه الذى أمره الله به فكه وإلا أهلكه . وقيل هو بمعنى راهن ، والمعنى : كلّ امرئ بما كسب دائم ثابت . وقيل هذا خاصّ بالكفار لقوله ـ كلّ نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ـ ثم ذكر سبحانه ما أمدّهم به من الخير فقال (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوّعة ، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم ويستطيبونه (يتنازعون فيها كأسا) أى يتعاطون ويتناولون كأسا ، والكأس إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر أوغيره ، فإذا فرغ لم يسم كأسا (لا لغو فيها ولا تأثيم) قال الزجاج : لايجرى بينهم مايلغى ولا مافيه إثم كما يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير فى «فيها» راجع إلى الكأس ، وقيل لا لغو فيها : أى فى الجنة ولا يجرى فيها مافيه إثم والأوّل أولى . قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم مايؤثمهم . وقال الضحاك : لا تأثيم : أى لاكذب . قرأ الجمهور « لا لغو فيها ولا تأثيم » بالرفع والتنوين فيهما . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين . قال قتادة : اللغو الباطل . وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها . وقال سعيد بن المسيب : لا رفث فيها . وقال ابن زيد : لاسباب ولا تخاصم فيها . والجملة فى محل نصب على الحال صفة لكأسا (ويطوف عليهم غلمان لهم) أى يطوف عليهم بالكأس والفواكه والطعام وغير ذلك مماليك لهم ، وقيل أولادهم (كأنهم) فى الحسن والبهاء (لؤلؤ مكنون) أى مستور مصون فى الصدف لم تمسه الأيدى . قال الكسائى : كننت الشىء : سترته وصنته من الشمس ، وأكننته : جعلته فى الكنّ ، ومنه كننت الجارية ، وأكننتها فهى مكنونة (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله ، وماكان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف والهمّ ، وما كانوا فيه من الكدّ والنكد بطلب المعاش وتحصيل مالا بدّ منه من الرزق . وقيل يقول بعضهم لبعض : بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور . والأوّل أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا فى الجنة ، وجملة (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا إنا كنا قبل : أى قبل الآخرة ، وذلك فى الدنيا فى أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله (فمنّ الله علينا) بالمغفرة والرحمة أو بالتوفيق لطاعته (ووقانا عذاب السموم) يعنى عذاب جهنم ، والسموم من أسماء جهنم كذا قال الحسن ومقاتل . وقال الكلبى وأبو عبيدة : هو عذاب النار ،

وقال الزجاج : سموم جهنم مايوجد من حرّها . قال أبو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم فى لفح البرد، وفى لفح الشمس والحرّ أكثر ، ومنه قول الشاعر :

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

وقيل سميت الريح سموما لأنها تدخل المسامّ (إناكنا من قبل ندعوه) أى نوحد الله ونعبده : أو نسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة (أنه هو البرّ الرّحيم) قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ نافع والكسائى بفتحها : أى لأنه ، والبرّ كثير الإحسان ، وقيل اللطيف ، والرحيم كثير الرحمة لعباده (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى اثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير والباء متعلقة بمحذوف هو حال : أى ما أنت متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوّة بكاهن ولا مجنون ، وقيل متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام : أى ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، وقيل الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية ، والمعنى : انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك كما تقول ما أنا بمعسر بحمد الله . وقيل الباء للقسم متوسطة بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون ، والكاهن هو الذى يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحى : أى ليس ماتقوله كهانة، فإنك إنما تنطق بالوحى الذى أمرك الله بإبلاغه . والمقصود من الآية ردّ ماكان يقوله المشركون : إنه كاهن أو مجنون (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أم هى المنقطعة ، وقد تقدّم الخلاف هل هىّ مقدّرة ببل والهمزة ، أو ببل وحدها . قال الخليل : هى هنا للاستفهام . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى فى كلامهم . قال النحاس : يريد سيبويه أن أم فى كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، ونتربص فى محل رفع صفة لشاعر ، وريب المنون : صروف الدهر ، والمعنى : ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره ، أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنية . قال الأخفش : المعنى نتربص إلى ريب المنون، فحذف حرف الجرّ ، كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد، ومن هذا قول الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت خليلها

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعى : المنون واحد لا جمع له . قال الفرّاء : يكون واحدا وجمعا . وقال الأخفش : هو جمع لاواحد له. ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم ، فقال (قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى انتظروا موتى أو هلاكى ، فإنى معكم من المتربصين لموتكم أو هلاككم . قرأ الجمهور نتربص بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين . وقرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ، فإن الكاهن هو المفرط فى الفطنة والذكاء ، والمجنون : هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة وذكاء . قال الواحدى : قال المفسرون كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول فأزرأ الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحقّ من الباطل (أم هم قوم طاغون) أى بل أطغوا وجاوزوا الحدّ فى العناد ، فقالوا ماقالوا ، وهذه الإضرابات من شىء إلى شىء مع الاستفهام كما هومدلول أم المنقطعة تدل على أن ماتعقبها أشنع مما تقدّمها ، وأكثر جرأة وعنادا (أم يقولون تقوّله) أى اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله ، والتقوّل لايستعمل إلا فى الكذب فى الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه ، ويقال اقتال عليه : بمعنى تحكم عليه ومنه قول الشاعر :

ومنزلة فى دار صدق وغبطة   وما اقتال فى حكم علىّ طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم (تقوّله) وانتقل إلىٰ ماهو أشدّ شناعة عليهم فقال (بل لايؤمنون) أى سبب صدور هذه الأقوال المتناقضة عنهم كونهم كفارا لايؤمنون بالله ولا يصدقون ماجاء به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم تحدّاهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال (فليأتوا بحديث مثله) أى مثل القرآن فى نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه (إن كانوا صادقين) فيما زعموا من قولهم : إن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم تقوّله وجاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربىّ ، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر .

وقد أخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : « إن الله ليرفع ذرّية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقرّ به عينه . ثم قرأ (والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم) الآية . وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يارب قد عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس (والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم) » الآية . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة وإن المشركين وأولادهم فى النار ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا) الآية » وإسناده هكذا . قال عبد الله بن أحمد : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن علىّ بن أبى طالب قال « سألت خديجة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هما فى النار ، فلما رأى الكراهة فى وجهها قال : لو رأيت مكانهما لأبغضتهما ، قالت : يارسول الله فولدىّ منك . قال : فى الجنة ، قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وإن المشركين وأولادهم فى النار ، ثم قرأ (والذين آمنوا) » الآية . وقال الإمام أحمد فى المسند : حدّثنا يزيد حدّثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النجود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة ، فيقول يارب من أين لى هذا ، فيقول باستغفار ولدك لك » وإسناده صحيح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس (وما ألتناهم) قال : ما نقصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (لا لغو فيها) يقول : باطل (ولا تأثيم) يقول كذب . وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا ، فيتحدّثان فيتكىء ذا ويتكىء ذا فيتحدّثان بما كانوا فى الدنيا ، فيقول أحدهما : يافلان تدرى أىّ يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا » . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إنه هو البرّ) قال : اللطيف . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عنه أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة فى أمر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال قائل منهم احبسوه فى وثاق ، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله فى ذلك (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ريب المنون) قال : الموت .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩).

قوله (أم خلقوا من غير شيء) أم هذه هي المنقطعة كما تقدّم فيما قبلها ، وكما سيأتى فيما بعدها : أى بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة والصنعة العجيبة من غير خالق لهم . قال الزجاج : أى أخلقوا باطلا لغير شيء لايحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ، وجعل « من » بمعنى اللام . قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثا وتركوا سدى لايؤمرون ولاينهون . وقيل المعنى : أم خلقوا من غير أب ولا أمّ ، فهم كالجماد لايفهمون ولا تقوم عليهم حجة (أم هم الخالقون) أى بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم يقرّون أن الله خالقهم ، وإذا أقرّوا لزمتهم الحجة (أم خلقوا السموات والأرض) وهم لايدّعون ذلك فلزمتهم الحجة ، ولهذا أضرب عن هذا وقال (بل لايوقنون) أى ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخبطون فى ظلمات الشك فى وعد الله ووعيده (أم عندهم خزائن ربك) أى خزائن أرزاق العباد ، وقيل : مفاتيح الرحمة . قال مقاتل: يقول أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاءوا ؟ وكذا قال عكرمة : وقال الكلبي : خزائن المطر والرزق (أم هم المصيطرون) أى المسلطون الجبارون . قال فى الصحاح : المسيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر . وقال أبو عبيدة : سطرت علىّ : اتخذتنى خولا لك . قرأ الجمهور « المصيطرون » بالصاد الخالصة ، وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد وقنبل وهشام بالسين الخالصة ، ورويت هذه القراءة عن حفص ، وقرأ خلاد بصاد مشمة زايا (أم لهم سلم يستمعون فيه) أى بل أيقولون إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم ويصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الوحى . وقوله « فيه » صفة لسلم ، وهى للظرفية على بابها ، وقيل هى بمعنى على : أى يستمعون عليه كقوله ـ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ـ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : المعنى : أنهم كجبريل الذى يأتى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بالوحى ، وقيل هى فى محلّ نصب على الحال : أى صاعدين فيه (فليأت مستمعهم) إن ادّعى ذلك (بسلطان مبين) أى بحجة واضحة ظاهرة (أم له

البنات ولكم البنون) أى بل أتقولون لله البنات ولكم البنون ، سفه سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ووبخهم : أى أيضيفون إلى الله البنات وهى أضعف الصنفين ، ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما ، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحل سافل فى الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد . ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (أم تسألهم أجرا) أى بل أتسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم مثقلون) أى من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون : أى مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل . قال قتادة : يقول : هل سألت هؤلاء القوم أجرا فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) أى بل أيدعون أن عندهم علم الغيب ، وهو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب . قال قتادة : هذا جواب لقولهم - نتربص به ريب المنون - يقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون . قال ابن قتيبة : معنى يكتبون يحكمون بما يقولون (أم يريدون كيدا) أى مكرا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهلكونه بذلك المكر (فالذين كفروا هم المكيدون) أى الممكور بهم المجزيون بكيدهم ، فضرر كيدهم يعود عليهم - ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله - وقد قتلهم الله فى يوم بدر وأذلهم فى غير موطن ، ومكر سبحانه بهم - ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - (أم لهم إله غير الله) أى بل أيدعون أن لهم إلها غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم ، ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال (سبحان الله عما يشركون) أى عن شركهم به ، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له . ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم ، فقال (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) الكسف جمع كسفة : وهى القطعة من الشيء ، وانتصاب ساقطا على الحال ، أو على أنه المفعول الثانى ، والمركوم : المجعول بعضه على بعض . والمعنى : أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون هو سحاب متراكم بعضه على بعض ، وقد تقدم اختلاف القراء فى كسفا . قال الأخفش : من قرأ كسفا ، يعنى بكسر الكاف وسكون السين جعله واحدا ، ومن قرأ كسفا ، يعنى بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعا . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركهم ، فقال (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى اتركهم وخل عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم ، أو يوم قتلهم ببدر ، أو يوم القيامة . قرأ الجمهور « يلاقوا » وقرأ أبو حيوة « يلقوا » وقرأ الجمهور : يصعقون على البناء للفاعل ؛ وقرأ ابن عامر وعاصم على البناء للمفعول ، والصعقة : الهلاك على ماتقدم بيانه (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) هو بدل من يومهم : أى لاينفعهم فى ذلك اليوم كيدهم الذى كادوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الدنيا (ولا هم ينصرون) أى ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذابا فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة : أى قبله ، وهو قتلهم يوم بدر . وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا ، وذهاب الأموال والأولاد . وقال مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين ، وقيل عذاب القبر ، وقيل المراد بالعذاب هو القحط ، وبالعذاب الذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر (ولكن أكثرهم لايعلمون) مايصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة (واصبر لحكم ربك) إلى أن يقع لهم العذاب الذى وعدناهم به (فإنك بأعيننا) أى بمرأى ومنظر منا ، وفى حفظنا وحمايتنا فلا تبال بهم . قال الزجاج : انك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك فلا يصلون إليك (وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى نزه ربك عما لايليق به متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك . قال عطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده ؛

أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع بن أنس : حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وفيه نظر لأن التكبير يكون بعد القيام لاحال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأول أولى . وقيل المعنى : صلّ لله حين تقوم من منامك ، وبه قال أبو الجوزاء وحسان بن عطية . وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهى صلاة الفجر (ومن الليل فسبحه) أمره الله سبحانه أن يسبحه فى بعض الليل . قال مقاتل : أى صلّ المغرب والعشاء ، وقيل : ركعتى الفجر (وإدبار النجوم) أى وقت إدبارها من آخر الليل ، وقيل صلاة الفجر ، واختاره ابن جرير ، وقيل هو التسبيح فى إدبار الصلوات ، قرأ الجمهور « إدبار » بكسر الهمزة على أنه مصدر ، وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السميفع ويعقوب والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع : أى أعقاب النجوم وأدبارها : إذا غربت ، ودبر الأمر : آخره ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة « قٓ » .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أم هم المصيطرون) قال : المسلطون وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أم هم المنزلون . وأخرجا عنه أيضا (عذابا دون ذلك) قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى والحاكم وابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بآخرة إذا قام من المجلس يقول : سبحانك اللهمّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل : يارسول الله : إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، قال : كفارة لما يكون فى المجلس » . وأخرجه النسائى والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن رافع ابن خديج عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج الترمذى وابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهمّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » . قال الترمذى : حسن صحيح . وفى الباب أحاديث مسندة ومرسلة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وسبح بحمد ربك حين تقوم) قال : حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (ومن الليل فسبحه) قال : الركعتان قبل صلاة الصبح . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وإدبار النجوم) قال : ركعتى الفجر .

تفسير سورة النجم

هى إحدى وستون آية ، وقيل ثنتان وستون آية

وهى مكية جميعها فى قول الجمهور . وروى عن ابن عباس وعكرمة أنها مكية إلا آية منها ، وهى قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) الآية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة النجم بمكة . وأخرج أيضا عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : أوّل سورة أنزلت فيها سجدة والنجم ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسجد الناس كلهم ، إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أمية بن خلف . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال :

أول سورة استعلن بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها والنجم . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ النجم ، فسجد بنا فأطال السجود » . وأخرج ابن مردويه عن عائشة « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ النجم فلما بلغ السجدة سجد فيها » . وأخرج الطيالسى وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والطبرانى وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فلم يسجد فيها . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسجد فى النجم بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة تركها . وأخرج أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسجد فى شىء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ
إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ
دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ
الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ
الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا
أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا
تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ
وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) .

(قوله والنجم إذا هوى) التعريف للجنس ، والمراد به جنس النجوم ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

أحسن النجم فى السماء الثريا ... والثريا فى الأرض زين النساء

وقيل : المراد به الثريا ، وهو اسم غلب فيها ، تقول العرب النجم وتريد به الثريا ، وبه قال مجاهد وغيره ، وقال السدّى : النجم هنا هو الزهرة ، لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها ، وقيل النجم هنا النبت الذى لا ساق له

كما فى قوله ـ والنجم والشجر يسجدان ـ قاله الأخفش . وقيل النجم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل النجم القرآن ، وسمى نجما لكونه نزل منجما مفرّقا ، والعرب تسمى التفريق تنجيما ، والمفرّق : المنجم ، وبه قال مجاهد والفراء وغيرهما ، والأوّل أولى . قال الحسن : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقيل المراد بها النجوم التى ترجم بها الشياطين ، ومعنى هويه : سقوطه من علو ، يقال هوى النجم يهوى هويا : إذا سقط من علو إلى سفل ، وقيل غروبه ، وقيل طلوعه ، والأوّل أولى ، وبه قال الأصمعى وغيره ، ومنه قول زهير :

تسيح بها الأباعر وهى تهوى هوىّ الدلو أسلمها الرشاء

ويقال هوى فى السير : إذا مضى ، ومنه قول الشاعر :

بينما نحن بالبلاكث فالقا ع سراعا والعيس تهوى هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكـ راك وهنا فما استعطت مضيا

ومعنى الهوىّ على قول من فسر النجم بالقرآن : أنه نزل من أعلا إلى أسفل ، وأما على قول من قال إنه الشجر الذى لاساق له ، أو أنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا يظهر للهوىّ معنى صحيح ، والعامل فى الظرف فعل القسم المقدّر ، وجواب القسم قوله (ماضلّ صاحبكم وما غوى) أى ما ضلّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الحق والهدى ولا عدل عنه ، والغىّ : ضدّ الرشد ، أى ماصار غاويا ، ولا تكلم بالباطل ، وقيل ماخاب فيما طلب ، والغىّ : الخيبة ، ومنه قول الشاعر :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لايعدم على الغىّ لائما

وفى قوله (صاحبكم) إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، والخطاب لقريش (وما ينطق عن الهوى) أى مايصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولابغيره ، فعن على بابها . وقال أبو عبيدة : إنّ عن بمعنى الباء : أى بالهوى . قال قتادة : أى ماينطق بالقراءة عن هواه (إن هوإلاوحى يوحى) أى ماهوالذى ينطق به إلا وحى من الله يوحيه إليه . وقوله (يوحى) صفة لوحى تفيد الاستمرار التجددى ، وتفيد نفى المجاز : أى هو وحى حقيقة لالمجرد التسمية (علمه شديد القوى) القوى جمع قوّة ، والمعنى : أنه علمه جبريل الذى ، هوشديد قواه هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد جبريل . وقال الحسن : هو الله عزّ وجلّ ، والأوّل أولى وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف (ذومرّة فاستوى) المرّة : القوّة والشدّة فى الخلق ، وقيل ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ، ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم « لا تحل الصدقة لغنىّ ، ولا لذى مرّة سوى » . وقيل ذو حصافة عقل ومتانة رأى . قال قطرب : العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأى حصيف العقل ذو مرّة ، ومنه قول الشاعر

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّة عندى لكلّ مخاصم ميزانه

والتفسير للمرّة بهذا أولى ، لأن القوّة والشدّة قد أفادها قوله (شديد القوى) قال الجوهرى : المرّة إحدى الطبائع الأربع ، والمرّة : القوّة وشدّة العقل ، والفاء فى قوله (فاستوى) للعطف على علّمه ، يعنى جبريل : أى ارتفع وعاد إلى مكانه فى السماء بعد أن علم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . وقيل معنى استوى قام فى صورته التى خلقه الله عليها لأنه كان يأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى صورة الآدميين ، وقيل : المعنى فاستوى القرآن فى صدره صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الحسن : فاستوى يعنى الله عزّ وجلّ على العرش (وهو بالأفق الأعلى) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى فاستوى جبريل حال كونه

بالأفق الأعلى ، والمراد بالأفق الأعلى : جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب ، وقيل المعنى : فاستوى عاليا ، والأفق : ناحية السماء ، وجمعه آفاق . قال قتادة ومجاهد : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس ، وقيل : هو يعنى جبريل والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة (ثم دنا فتدلى) أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى : أى قرب من الأرض ، فتدلى فنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالوحى ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ثم تدلى فدنى ، قاله ابن الأنبارى وغيره . قال الزجاج : معنى دنا فتدلى واحد : أى قرب وزاد فى القرب كما تقول فدنا منى فلان وقرب ، ولو قلت : قرب منى ودنا جاز . قال الفراء : الفاء فى فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير : ثم تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أن تقدّم أيهما شئت . قال الجمهور : والذى دنا فتدلى هو جبريل ، وقيل هو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى : دنا منه أمره وحكمه ، والأوّل أولى . قيل ومن قال : إن الذى استوى هو جبريل ومحمد ، فالمعنى عنده : ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى : أى هوى للسجود ، وبه قال الضحاك (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى فكان مقدار مابين جبريل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو مابين محمد وربه قاب قوسين : أى قدر قوسين عربيين . والقاب والقيب ، والقاد والقيد : المقدار ، ذكر معناه فى الصحاح . قال الزجاج : أى فيما تقدّرون أنتم ، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ماجرت به عادة المخاطبة فيما بيننا . وقيل أو بمعنى الواو : أى وأدنى ، وقيل بمعنى بل : أى بل أدنى . وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهمدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة (فكان قاب قوسين) قدر ذراعين ، والقوس : الذّراع يقاس بها كل شىء ، وهى لغة بعض الحجازيين ، وقيل هى لغة أزد شنوءة . وقال الكسائى : فكان قاب قوسين أراد قوسا واحدة (فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى فأوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أوحى ، وفيه تفخيم للوحى الذى أوحى إليه ، والوحى : إلقاء الشىء بسرعة ، ومنه الوحا وهو السرعة ، والضمير فى عبده يرجع إلى الله كما فى قوله ـ ماترك على ظهرها من دابة ـ وقيل المعنى : فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى ، وبالأوّل قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . وقيل فأوحى الله إلى عبده محمد . قيل وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد ، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل أو إلى محمد ولم يبينه لنا ، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره . وقال سعيد بن جبير : الذى أوحى إليه هو ـ ألم نشرح لك صدرك ـ الخ ، و ـ ألم يجدك يتيما فآوى ـ الخ . وقيل أوحى الله إليه إن الجنة حرام على الأنبياء حتّى تدخلها ، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمتك » . وقيل إن ما للعموم لا للإبهام ، والمراد كل ما أوحى به إليه ، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم (ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه بصره ليلة المعراج ، يقال كذبه : إذا قال له الكذب ولم يصدقه . قال المبرد : معنى الآية أنه رأى شيئا فصدق فيه . قرأ الجمهور « ما كذب » مخففا ، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد ، « وما » فى « ما رأى » موصولة أو مصدرية فى محل نصب بكذب مخففا ومشدّدا (أفتمارونه على مايرى) . قرأ الجمهور « أفتمارونه » بالألف من المماراة ، وهى المجادلة والملاحاة ، وقرأ حمزة والكسائى « أفتمرونه » بفتح التاء وسكون الميم : أى أفتجحدونه ، واختار أبو عبيد القراءة الثانية . قال : لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه ، يقال مراه حقه : أى جحده ، ومريته أنا : جحدته . قال ومنه قول الشاعر :

لئن هجوت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ماكان يمريكا

أى بجحدله : قال المبرد : يقال أمرأه عن حقه وعلى حقه : إذا منعه منه ودفعه . وقيل على بمعنى عن . وقرأ ابن مسعود والشعبي ومجاهد والأعرج « أفتمرونه » بضم التاء من أمريت : أى أتريبونه وتشكون فيه . قال جماعة من المفسرين : المعنى على قراءة الجمهور أفتجادلونه ، وذلك أنهم جادلوه حين أسرى به فقالوا : صف لنا مسجد بيت المقدس ، أى أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، واللام فى قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) هى الموطئة للقسم : أى والله لقد رآه نزلة أخرى ، والنزلة المرة من النزول ، فانتصابها على الظرفية أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال : أى رأى جبريل نازلا نزلة أخرى ، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف : أى رآه رؤية أخرى . قال جمهور المفسرين : المعنى أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى ، وقيل رأى محمد ربه مرّة أخرى بفؤاده (عند سدرة المنتهى) الظرف منتصب برآه ، والسدر هو شجر النبق ، وهذه السدرة هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح ، وروى أنها فى السماء السابعة . والمنتهى : مكان الانتهاء ، أوهو مصدر ميمى ، والمراد به الانتهاء نفسه ، قيل إليها ينتهى علم الخلائق ولا يعلم أحد منهم ما وراءها ، وقيل ينتهى إليها مايعرج به من الأرض ، وقيل تنتهى إليها أرواح الشهداء ، وقيل غير ذلك . وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه (عندها جنة المأوى) أى عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى ، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم ، وقيل إن أرواح المؤمنين تأوى إليها . قرأ الجمهور « جنة » برفع جنة على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدّم . وقرأ على وأبوالدرداء وأبوهريرة وابن الزبير وأنس وزر بن حبيش ومحمد بن كعب ومجاهد وأبوسبرة الجهنى جنه فعلا ماضيا من جنّ يجن : أى ضمه المبيت ، أوستره إيواء الله له . قال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أى ستره وأدركه ، والجملة فى محل نصب على الحال (إذ يغشى السدرة مايغشى) العامل فى الظرف رآه أيضا ، وهو ظرف زمان ، والذى قبله ظرف مكان ، والغشيان بمعنى التغطية والستر ، وبمعنى الإتيان يقال : فلان يغشانى كل حين : أى يأتينى ، وفى الإبهام فى قوله (ما يغشى) من التفخيم مالا يخفى ، وقيل يغشاها جراد من ذهب وقيل طوائف من الملائكة . وقال مجاهد : رفرف أخضر ، وقيل رفرف من طيور خضر ، وقيل غشيها أمر الله ، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا للصورة البديعة ، أو للدلالة على الاستمرار التجددى (مازاغ البصر) أى ما مال بصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما رآه (وما طغى) أى ما جاوز ما رآى ، وفى هذا وصف أدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك المقام حيث لم يلتفت ، ولم يمل بصره ، ولم يمده إلى غير مارأى ، وقيل ما جاوز ما أمر به (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام مالا يحيط به الوصف ، قيل رأى رفرفا سدّ الأفق ، وقيل رأى جبريل فى حلة خضراء قد ملأ مابين السماء والأرض له ستمائة جناح ، كذا فى صحيح مسلم وغيره ، وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى ، وقيل هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه وعوده ، ومن للتبعيض ومفعول رأى الكبرى ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه ، ويجوز أن تكون من زائدة (أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى) لما قصّ الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين : موبخا لهم ومقرّعا (أفرأيتم) أى أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها ، وهل أوحت إليكم شيئا كما أوحى الله إلى محمد ، أم هى جمادات لاتعقل ولا تنفع . ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب وعظم اعتقادهم فيها . قال الواحدى وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى ، فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العزّى ، وهى تأنيث الأعزّ بمعنى العزيزة ، ومناة من منى الله الشيء إذا قدّره . قرأ الجمهور (اللات) بتخفيف التاء ، فقيل هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدّم ،

وقيل أصله لات يليت ، فالتاء أصلية ، وقيل هي زائدة وأصله لوى يلوى لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها أو يلتوون عليها ويطوفون بها . واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء أو بالهاء ؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء ووقف عليها الكسائي بالهاء ، واختار الزجاج والفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف فإنها تكتب بالتاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو الجوزاء وأبو صالح وحميد « اللاتّ » بتشديد التاء ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، فقيل هو اسم رجل كان يلتّ السويق ويطعمه الحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل . قال مجاهد : كان رجلا فى رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيسا ويطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه . وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم ، وقيل إنه عامر بن الظرب العدواني ، وكان هذا الصنم لثقيف ، وفيه يقول الشاعر :

لاتنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر

قال فى الصحاح : واللات اسم صنم لثقيف ، وكان بالطائف وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء (والعزّى) صنم قريش وبنى كنانة . قال مجاهد : هي شجرة كانت بغطفان ، وكانوا يعبدونها ، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، وقيل كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة . وقال سعيد بن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : هى بيت كان ببطن نخلة (ومناة) صنم بنى هلال . وقال ابن هشام : صنم هذيل وخزاعة . وقال قتادة : كانت للأنصار . قرأ الجمهور « مناة » بألف من دون همزة ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد والسلمي بالمدّ والهمز . فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى ، أى صبّ ، لأن دماء النسائك كانت تصب عندها يتقرّبون بذلك إليها . وأما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء ، وهو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء ، وقيل هما لغتان للعرب ، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير :

أزيد مناة توعد يابن تيم تأمل أين تاه بك الوعيد

ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي :

ألا هل أتى التيم بن عبد مناءة على السر فيما بيننا ابن تميم

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعا لرسم المصحف ، ووقف ابن كثير وابن محيصن عليها بالهاء . قال فى الصحاح : ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء ، وهى لغة . قوله (الثالثة الأخرى) هذا وصف لمناة ، وصفها بأنها ثالثة وبأنها أخرى ، والثالثة لاتكون إلا أخرى . قال أبو البقاء : فالو صف بالأخرى للتأكيد . وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية ، فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رءوس الآى كقوله ـ مآرب أخرى ـ وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيتم اللات والعزّى الأخرى ومناة الثالثة . وقيل إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة وقيل إن ذلك للتحقير والذم ، وإن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله ـ قالت أخراهم لأولاهم ـ أى وضعاؤهم لرؤسائهم . ثم كرّر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) أى كيف تجعلون لله ماتكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ماتحبون من الذكور ، قيل وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله ، وقيل المراد كيف تجعلون اللات والعزّى ومناة وهي إناث فى زعمكم شركاء لله ، ومن شأنهم أن

يحقروا الإناث . ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة فقال (تلك إذا قسمة ضيزى) قرأ الجمهور « ضيزى » بياء ساكنة بغير همزة ، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة ، والمعنى : أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق . قال الأخفش : يقال ضاز فى الحكم : أي جار ، وضازه حقه يضيزه ضيزا : أى نقصه وبخسه ، قال : وقد يهمز ، وأنشد :

فإن تنأ عنا ننتقصك وإن تغب فحقك مضئوز وأنفك راغم

وقال الكسائى : ضاز يضيز ضيزا ، وضاز يضوز ضوزا : إذا تعدى وظلم وبخس وانتقص ، ومنه قول الشاعر :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

قال الفراء : وبعض العرب يقول : ضئزى بالهمز ، وحكى أبو حاتم عن أبى زيد أنه سمع العرب بهمز ضيزى . قال البغوى : ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى النعوت إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى . قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد فى ضيزى وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة كما قالوا فى جمع أبيض بيض ، وكذا قال الزجاج . وقيل هى مصدر كذكرى ، فيكون المعنى : قسمة ذات جور وظلم . ثم رد سبحانه عليهم بقوله (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ماتدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة ، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التى تدعونها ، لأنها لاتبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع ، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلد الآخر فيها الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء . وفى هذا من التحقير لشأنها مالا يخفى كما تقول فى تحقير رجل : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ـ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ـ . يقال : سميته زيدا وسميته بزيد ، فقوله سميتموها صفة لأصنام ، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام : أى جعلتموها أسماء لاجعلتم لها أسماء . وقيل إن قوله « هى » راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة ، والأول أولى (ماأنزل الله بها من سلطان) أى ما أنزل بها من حجة ولا برهان . قال مقاتل : لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة ، ثم أخبر عنهم بقوله (إن يتبعون إلا الظن) أى مايتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إلا الظن الذى لايغنى من الحق شيئا ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وتحقيرا لشأنهم فقال (وما تهوى الأنفس) أى تميل إليه وتشتهيه من غير التفات إلى ماهو الحق الذى يجب الاتباع له . قرأ الجمهور « يتبعون » بالتحتية على الغيبة ، وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السميفع بالفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود وابن عباس وطلحة وابن وثاب (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون ، ويجوز أن يكون اعتراضا ، والأول أولى . والمعنى : كيف يتبعون ذلك والحال أن قد جاءهم مافيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذى بعثه الله بين ظهرانيهم وجعله من أنفسهم (أم للإنسان ماتمنى) أم هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة التى للإنكار ، فأضرب عن اتباعهم الظن الذى هو مجرد التوهم ، وعن اتباعهم هوى الأنفس وما تميل إليه ، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم مايتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم . ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله (فلله الآخرة والأولى) أى أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة وأطماعهم الفارغة . ثم أكد ذلك وزاد فى إبطال مايتمنونه فقال (وكم من ملك فى السموات لاتغني شفاعتهم شيئا) وكم هنا هى الخبرية

المفيدة التكثير ومحلها الرفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها ، ولما فى كم من معنى التكثير جمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك ، والمعنى : التوبيخ لهم بما يتمنون ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لاتشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم وهو معنى قوله (إلا من بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد ، وليس للمشركين فى ذلك حظ ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها لكونهم ليسوا من المستحقين لها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (والنجم إذا هوى) قال : إذا انصبّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو الثريا إذا تدلت . وأخرج عنه أيضا قال : أقسم الله أن ماضل محمد ولا غوى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ذو مرّة) قال : ذو خلق حسن . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير جبريل فى صورته إلا مرّتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فأراه صورته فسدّ الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله (وهو بالأفق الأعلى ـ لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال : خلق جبريل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح » وأخرجه أحمد عنه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وهو بالأفق الأعلى) قال : مطلع الشمس . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود فى قوله (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال « رأى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم جبريل له ستمائة جناح » . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه فى قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال « رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه حلتا رفرف أخضر قد ملأ مابين السماء والأرض » . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ثم دنا فتدلى) قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم دنا فتدلى إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال دنا ربه فتدلى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (فكان قاب قوسين) قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : القاب القيد ، والقوسين الذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أسرى بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم اقترب من ربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر . وأخرج النسائى وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال : عبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج مسلم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله (ماكذب الفؤاد ما رأى ـ ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى محمد ربه بقلبه مرّتين . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رأى محمد ربه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه بعينه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه قال : رأى محمد ربه مرّتين مرّة ببصره ومرّة بفؤاده . وأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا قال : لقد رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ربه عزّ وجلّ . وأخرج النسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ؟ وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج

مسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى ذرّ قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه ؟ » . وأخرج مسلم وابن مردويه عنه « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : رأيت نورا » . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه بقلبه ولم يره ببصره . وأخرج مسلم عن أبى هريرة فى قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) قال جبريل . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ينتهى مايعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها ينتهى مايهبط به من فوقها فيقبض منها » (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال : فراش من ذهب . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال « الجنة فى السماء السابعة العليا ، والنار فى الأرض السابعة السفلى » . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان اللات رجلا يلتّ السويق للحاجّ . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أن العزى كانت ببطن نخلة ، وأن اللات كانت بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (ضيزى) قال : جائرة لاحقّ لها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنْثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَٰنِ إِلَّا مَاسَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ (٤٢) .

قوله (إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى أن هؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء ، وهى أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى ، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله فجعلوهم إناثا وسموهم بنات (وما لهم به من

علم) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى يسمونهم هذه التسمية والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التى يخبر المخبرون عنها ، بل قالوا ذلك جهلا وضلالة وجرأة . وقرئ « مالهم بها » أى بالملائكة أو التسمية (إن يتبعون إلا الظن) أى ما يتبعون فى هذه المقالة إلا مجرّد الظنّ والتوهم . ثم أخبر سبحانه عن الظنّ وحكمه فقال (وإن الظنّ لايغنى من الحق شيئا) أى إن جنس الظنّ لايغنى من الحق شيئا من الإغناء ، والحقّ هنا العلم . وفيه دليل على أن مجرّد الظن لايقوم مقام العلم وأن الظانّ غير عالم . وهذا فى الأمور التى يحتاج فيها إلى العلم وهى المسائل العلمية ، لا فيما يكتفى فيه بالظنّ ، وهى المسائل العملية ، وقد قدّمنا تحقيق هذا . ولا بدّ من هذا التخصيص ، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد ونحو ذلك ظنية ، فالعمل بها عمل بالظن ، وقد وجب علينا العمل به فى مثل هذه الأمور ، فكانت أدلة وجوب العمل به فيها مخصصة لهذا العموم ، وما ورد فى معناه من الذمّ لمن عمل بالظنّ والنهى عن اتباعه (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) أى أعرض عمن أعرض عن ذكرنا ، والمراد بالذكر هنا القرآن ، أو ذكر الآخرة ، أو ذكر الله على العموم ، وقيل المراد بالذكر هنا الإيمان ، والمعنى : اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به وليس عليك إلا البلاغ ، وهذا منسوخ بآية السيف (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى لم يرد سواها ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها ، فإنه غير متأهل للخير ولا مستحقّ للاعتناء بشأنه . ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم فقال (ذلك مبلغهم من العلم) أى إن ذلك التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفرّاء : أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ، وقيل الإشارة بقوله « ذلك » إلى جعلهم للملائكة بنات الله وتسميتهم لهم تسمية الأنثى ، والأوّل أولى . والمراد بالعلم هنا مطلق الإدراك الذى يندرج تحته الظنّ الفاسد ، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرّد الظن ، وقيل معترضة بين المعلل والعلة وهى قوله (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق وأعرض عنه ولم يهتد إليه ، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاد له بأنه لايتعب نفسه فى دعوة من أصرّ على الضلالة وسبقت له الشقاوة ، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد . ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه فقال (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى هو المالك لذلك والمتصرّف فيه لايشاركه فيه أحد ، واللام فى (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) متعلقة بما دلّ عليه الكلام ، كأنه قال هو مالك ذلك يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء ليجزى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه . وقيل إن قوله ـ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ـ معترضة ، والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى ، وقيل هى لام العاقبة : أى وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسىء أن يجزى الله كلا منهما بعمله . وقال مكى : إن اللام متعلقة بقوله ـ لاتغنى شفاعتهم ـ وهو بعيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى . قرأ الجمهور « ليجزى » بالتحتية . وقرأ زيد بن علىّ بالنون ، ومعنى (بالحسنى) أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى . ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) فهذا الموصول فى محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل فى قوله ـ الذين أحسنوا ـ وقيل بدل منه ، وقيل بيان له ، وقيل منصوب على المدح بإضمار أعنى ، أو فى محل رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هم الذين يجتنبون كبائر الإثم ـ قرأ الجمهور « كبائر » على الجمع . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب « كبير » على الإفراد ، والكبائر : كل ذنب توعد الله عليه بالنار ، أو ذمّ فاعله ذما شديدا ، ولأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام

طويل . وكما اختلفوا فى تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا فى عددها ، والفواحش جمع فاحشة : وهى مافحش من كبائر الذنوب كالزنا ونحوه . وقال مقاتل : كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش كل ذنب فيه الحد ، وقيل الكبائر الشرك والفواحش الزنا ، وقد قدّمنا فى سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة ، والاستثناء بقوله (إلا اللمم) منقطع ، وأصل اللمم فى اللغة ما قلّ وصغر ، ومنه : ألمّ بالمكان قلّ لبثه فيه وألمّ بالطعام قل أكله منه . قال المبرد : أصل اللمم أن تلمّ بالشيء من غير أن تركبه : يقال ألم بكذا إذا قاربه ولم يخالطه . قال الأزهرى : العرب تستعمل الإلمام فى معنى الدنوّ والقرب ، ومنه قول جرير :

بنفسى من تجنبه عزيز ... علىّ ومن زيارته لمام

وقول الآخر : متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

قال الزجاج : أصل اللمم والإلمام مايعمله الإنسان المرّة بعد المرّة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ، يقال ألممت به : إذا زرته وانصرفت عنه ، ويقال مافعلته إلا لماما وإلماما : أى الحين بعد الحين ، ومنه إلمام الخيال . قال الأعشى : ألمّ خيال من قبيلة بعد ما ... وهى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال فى الصحاح : ألمّ الرجل من ألمم وهو صغائر الذنوب ، ويقال هو مقاربة المعصية من غير مواقعة ، وأنشد غيره :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقلّ أن تملينا فما ملك القلب

وقد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللمم المذكور فى الآية ، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب ، وقيل هو ماكان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة ، وقيل هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب ، وبه قال مجاهد والحسن والزهرى وغيرهم ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأىّ عبد لك لا ألما

اختارهذا القول الزجاج والنحاس ، وقيل هو ذنوب الجاهلية ، فإن الله لايؤاخذ بها فى الإسلام ، وقال نفطويه : هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة . قال : والعرب تقول : ما تأتينا إلا إلماما : أى فى الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لاتقول ألمّ بنا إلا إذا فعل ، لا إذا همّ ولم يفعل ، والراجح الأول ، وجملة (إن ربك واسع المغفرة) تعليل لما تضمنه الاستثناء : أى إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة فليس يخلو عن كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة الله ويحتاج إلى رحمته ، وقيل إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه . ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) أى خلقكم منها فى ضمن خلق أبيكم آدم وقيل المراد آدم فإنه خلقه من طين (وإذ أنتم أجنة) أى هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، والأجنة جمع جنين وهو الولد مادام فى البطن سمى بذلك لاجتنانه : أى استتاره ، ولهذا قال (فى بطون أمهاتكم) فلا يسمى من خرج عن البطن جنينا ، والجملة مستأنفة لتقرير ماقبلها (فلا تزكوا أنفسكم) أى لاتمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع ، وجملة (هو أعلم بمن اتقى) مستأنفة مقررة للنهى : أى هو أعلم بمن اتقى عقوبة الله وأخلص العمل له . قال الحسن : وقد علم سبحانه من كل نفس ماهى عاملة وما هى صانعة وإلى ماهى صائرة . ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم فقال : (أفرأيت الذى تولى) أى تولى عن الخير وأعرض عن اتباع الحق (وأعطى قليلا وأكدى) أى أعطى عطاء

قليلا أو أعطى شيئا قليلا وقطع ذلك وأمسك عنه ، وأصل أكدى من الكدية وهى الصلابة ، يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتم ، ولمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره ، ومنه قول الحطيئة :

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاؤه ومن يبذل المعروف فى الناس يحمد

قال الكسائى وأبو زيد ويقال كديت أصابعه : إذا كلت من الحفر ، وكدت يده : إذا كلت فلم تعمل شيئا ، وكدت الأرض : إذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشىء رددته ، وأكدى الرجل : إذا قل خيره . قال الفراء : معنى الآية : أمسك من العطية وقطع . وقال المبرد : منع منعا شديدا . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على دينه ، فعيره بعض المشركين فترك ورجع إلى شركه . قال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه . وقال الضحاك : نزلت فى النضر بن الحارث . وقال محمد بن كعب القرظى : نزلت فى أبى جهل (أعنده علم الغيب فهو يرى) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أعند هذا المكدى علم ماغاب عنه من أمر العذاب ، فهو يعلم ذلك (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى) أى ألم يخبر ولم يحدث بما فى صحف موسى : يعنى أسفاره ، وهى التوراة ، وبما فى صحف إبراهيم الذى وفى : أى تمم وأكمل ما أمر به . قال المفسرون : أى بلغ قومه ما أمر به وأداه إليهم ، وقيل بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه . ثم بين سبحانه ما فى صحفهما فقال (ألا تزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه : لاتؤخذ نفس بذنب غيرها ، وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر وخبرها الجملة بعدها ومحل الجملة الجر على أنها بدل من صحف موسى وصحف إبراهيم ، أو الرفع على أنها خبر مبتدإ محذوف ، وقد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) عطف على قوله (ألا تزر) وهذا أيضا مما فى صحف موسى ، والمعنى : ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولاينفع أحدا عمل أحد ، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه ـ ألحقنا بهم ذرياتهم ـ ، وبمثل ماورد فى شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لاينسخ العام ، بل يخصصه ، فكل ماقام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم (وأن سعيه سوف يرى) أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة (ثم يجزاه) أى يجزى الإنسان سعيه ، يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله ، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان والمنصوب إلى سعيه . وقيل إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله (الجزاء الأوفى) فيكون الضمير راجعا إلى متأخر عنه هو مفسر له ، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الذى هو مصدر يجزاه ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيرا للجزاء المدلول عليه بالفعل كما فى قوله ـ اعدلوا هو أقرب ـ قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما (وأن إلى ربك المنتهى) أى المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) قال الكبائر ماسمى الله فيه النار ، والفواحش : ماكان فيه حد الدنيا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله كتب على ابن آدم حظه

من الزنا أدرك ذلك لامحالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه » وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله (إلا اللمم) قال : زنا العينين : النظر ، وزنا الشفتين : التقبيل ، وزنا اليدين : البطش ، وزنا الرجلين : المشى ، ويصدّق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم. وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه سئل عن قوله (إلا اللمم) قال : هى النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة ، فإذا مسّ الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وأخرج سعيد بن منصور والترمذى وصححه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال فى قوله (إلا اللمم) هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأىّ عبد لك لا ألما

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (إلا اللمم) يقول : إلا ما قد سلف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله (إلا اللمم) قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فذلك الإلمام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال : اللمم كل شىء بين الحدّين حدّ الدنيا وحدّ الآخرة يكفره الصلاة ، وهودون كلّ موجب فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض الله عقوبته فى الدنيا ؛ وأما حدّ الآخرة فكلّ شىء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبىّ صغير قالوا هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « كذبت يهود ما من نسمة يخلقها فى بطن أمها إلا أنه شقىّ أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) الآية كلها » . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لاتزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البرّ منكم سموها زينب » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله « وأعطى قليلا وأكدى » قال : قطع ، نزلت فى العاص بن وائل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : أطاع قليلا ثم انقطع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والشيرازى فى الألقاب والديلمى قال السيوطى بسند ضعيف عن أبى أمامة عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتدرون ماقوله (وإبراهيم الذى وفى) قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : وفى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ وزعم أنها صلاة الضحى » وفى إسناده جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : سهام الإسلام ثلاثون سهما لم يتممها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله ـ وإبراهيم الذى وفى ـ . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : يقول إبراهيم الذى استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا ، والذى فى صحف موسى ـ ألا تزر وازرة وزر أخرى ـ إلى آخر الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ـ إلى آخر الآية » وفى إسناده ابن لهيعة . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس . قال : لما نزلت ـ والنجم ـ فبلغ ـ وإبراهيم الذى وفى ـ قال : وفى ـ ألا تزر وازرة وزر أخرى إلى قوله ـ من النذر

الأولى ـ . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه قال (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) فأنزل الله بعد ذلك ـ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم ـ ، فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) استرجع واستكان . وأخرج الدارقطنى فى الإفراد والبغوى فى تفسيره عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (وأن إلى ربك المنتهى) قال : لافكرة فى الرب .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا لُولَى (٥٠) وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّيهَا مَاغَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

قوله (وأنه هو أضحك وأبكى) أى هو الخالق لذلك والقاضى بسببه . قال الحسن والكلبى : أضحك أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهل النار فى النار . وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، وقيل أضحك من شاء فى الدنيا بأن سرّه وأبكى من شاء بأن غمه . وقال سهل بن عبد الله : أضحك المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط (وأنه هو أمات وأحيا) أى قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وقيل خلق نفس الموت والحياة كما فى قوله ـ خلق الموت والحياة ـ وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء ، وقيل أمات فى الدنيا وأحيا للبعث ، وقيل المراد بهما النوم واليقظة . وقال عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله ، وقيل أمات الكافر وأحيا المؤمن كما فى قوله ـ أو من كان ميتا فأحييناه ـ (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) المراد بالزوجين الذكر والأنثى من كل حيوان ، ولا يدخل فى ذلك آدم وحوّاء فإنهما لم يخلقا من النطفة : والنطفة الماء القليل ، ومعنى (إذا تمنى) إذ تصبّ فى الرحم وتدفق فيه ، كذا قال الكلبى والضحاك وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، يقال منى الرجل وأمنى : أى صب المنىّ . وقال أبو عبيدة ـ إذا تمنى ـ إذا تقدّر : يقال منيت الشى : إذا قدّرته ومنى له أى قدر له ـ ، ومنه قول الشاعر : * حتى تلاقى ما يمنى لك المانى * والمعنى : أنه يقدّر منها الولد (وأن عليه النشأة الأخرى) أى إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده . قرأ الجمهور « النشأة » بالقصر بوزن الضربة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة ، وهما على القراءتين مصدران (وأنه هو أغنى وأقنى) أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ومثله قوله ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ـ وقوله يقبض ويبسط ـ قاله ابن

زيد ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد وقتادة والحسن : أغنى : موّل ، وأقنى : أخدم ، وقيل معنى أقنى : أعطى القنية ، وهى ما يتأثل من الأموال . وقيل معنى أقنى أرضى بما أعطى : أى أغناه ، ثم رضاه بما أعطاه . قال الجوهرى : قنى الرجل قنى ، مثل غنى غنى : أى أعطاه مايقتنى ، وأقناه أرضاه ، والقنى الرضى . قال أبوزيد : تقول العرب من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى . قال الأخفش وابن كيسان : أقنى أفقر ، وهو يؤيد القول الأوّل (وأنه هو ربّ الشعرى) هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها ، والمراد بها الشعرى التى يقال لها العبور ، وهى أشدّ ضياء من الشعرى التى يقال لها الغميصاء . وإنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربا لكلّ الأشياء للردّ على من كان يعبدها ، وأوّل من عبدها أبو كبشة ، وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن أبى كبشة تشبيها له به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، ومن ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح : لقد أمرُ أمر ابن أبى كبشة (وأنه أهلك عادا الأولى) وصف عادا بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود . قال ابن زيد : قيل لها عادا الأولى ، لأنهم أوّل أمة أهلكت بعد نوح . وقال ابن إسحاق : هما عادان ، فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى أهلكت بالصيحة . وقيل عاد الأولى قوم هود وعاد الأخرى إرم . قرأ الجمهور « عادا الأولى » بالتنوين والهمز ، وقرأ نافع وابن كثير وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام وإدغام التنوين فيها (وثمودا فما أبقى) أى وأهلك ثمودا كما أهلك عادا فما أبقى أحدا من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة ، وقد تقدّم الكلام على عاد وثمود فى غير موضع (وقوم نوح من قبل) أى وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم ، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية ، أو أظلم وأطغى من مشركى العرب ، وإنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم ، كما فى قوله ـ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ـ (والمؤتفكة أهوى) الائتفاك الانقلاب ، والمؤتفكة مدائن قوم لوط ، وسميت المؤتفكة لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها ، تقول أفكته إذا قلبته ، ومعنى أهوى أسقط : أى أهواها جبريل بعد أن رفعها . قال المبرد : جعلها تهوى (فغشاها ماغشى) أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها ، كما فى قوله ـ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ـ وفى هذه العبارة تهويل للأمر الذى غشاها به وتعظيم له ، وقيل إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة : أى فغشاها من العذاب ماغشى على اختلاف أنواعه (فبأىّ آلاء ربك تتمارى) هذا خطاب للإنسان المكذب : أى فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمترى ، وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريضا لغيره ، وقيل لكلّ من يصلح له ، وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد متعلقه وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء : أى نعما مع كون بعضها نقما لا نعما ، لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ولكون فيها انتقام من العصاة ، وفى ذلك نصرة للأنبياء والصالحين . قرأ الجمهور « تتمارى » من غير إدغام ، وقرأ يعقوب وابن محيصن بادغام إحدى التاءين فى الأخرى (هذا نذير من النذر الأولى) أى هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدّمين من قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم ، كذا قال ابن جريج ومحمد بن كعب وغيرهما . وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى ، وقيل هذا الذى أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم مانزل بأولئك ، كذا قال أبو مالك . وقال أبو صالح : إن الإشارة بقوله « هذا » إلى ما فى صحف موسى وإبراهيم ، والأوّل أولى (أزفت الآزفة) أى قربت الساعة ودنت ، سماها آزفة لقرب قيامها ، وقيل لدنوّها من الناس ،

كما فى قوله ـ اقتربت الساعة ـ أخبرهم بذلك ليستعدّوا لها . قال فى الصحاح : أزفت الآزفة : يعنى القيامة وأزف الرجل عجل ، ومنه قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا　　لما تزل برحالنا وكأن قد

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه ، وقيل كاشفة بمعنى انكشاف ، والهاء فيها كالهاء فى العاقبة والداهية ، وقيل كاشفة بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة كراوية ، والأوّل أولى . وكاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا ، والمعنى : أنه لايقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله ، كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . ثم وبخهم سبحانه فقال (أفمن هذا الحديث تعجبون) المراد بالحديث القرآن : أى كيف تعجبون منه تكذيبا (وتضحكون) منه استهزاء مع كونه غير محلّ للتكذيب ولا موضع للاستهزاء (ولا تبكون) خوفا وانزجارا لما فيه من الوعيد الشديد ، وجملة (وأنتم سامدون) فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير مافيها ، والسمود : الغفلة والسهو عن الشيء . وقال فى الصحاح : سمد سمودا رفع رأسه تكبرا ، فهوسامد قال الشاعر : * سوامد الليل خفاف الأزواد * وقال ابن الأعرابى : السمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقينة أسمدينا : أى ألهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون خامدون . قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل عمرو　　بمقدار سمدن له سمودا
فردّ شعورهنّ السود بيضا　　وردّ وجوههنّ البيض سودا

(فاسجدوا لله واعبدوا) لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره أمر عباده المؤمنين بالسجود لله والعبادة له ، والفاء جواب شرط محذوف : أى إذا كان الأمر من الكفار كذلك ، فاسجدوا لله واعبدوا ، فإنه المستحق لذلك منكم ، وقد تقدم فى فاتحة السورة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه الكفار ، فيكون المراد بها سجود التلاوة ، وقيل سجود الفرض .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأنه هو أغنى وأقنى) قال : أعطى وأرضى . وأخرج ابن جرير عنه (وأنه هو ربّ الشعرى) قال : هو الكوكب الذى يدعى الشعرى . وأخرج الفاكهى عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية فى خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعرى ، وهو الكوكب الذى يتبع الجوزاء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله (هذا نذير من النذر الأولى) قال : محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الآزفة من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن صالح أبى الخليل قال : لما نزلت هذه الآية (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون) فما ضحك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم . ولفظ عبد بن حميد : فما رؤى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (سامدون) قال : لاهون معرضون عنه . وأخرج الفريابى وأبو عبيد فى فضائله وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه (وأنتم سامدون) قال : الغناء باليمانية ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا . وأخرج الفريابى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله

(سامدون) قال : كانوا يمرّون على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شامخين ، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال : خرج عليّ بن أبي طالب علينا وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدّم فقال : مالكم سامدون ، لا أنتم فى صلاة ولا أنتم فى جلوس تنتظرون

تفسير سورة القمر

ويقال سورة اقتربت ، وهى خمس وخمسون آية

وهى مكية كلها فى قول الجمهور . وقال مقاتل : هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله (أم يقولون نحن جميع منتصر) إلى قوله (والساعة أدهى وأمر) قال القرطبي : ولا يصح . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : اقتربت تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه . قال البيهقى : منكر . وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه « من قرأ اقتربت الساعة فى كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه ، وقد تقدم أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة فى الأضحى والفطر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ (١٧)

قوله (اقتربت الساعة وانشق القمر) أى قربت ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة مابقى بعد قيام النبوّة المحمدية إلى مامضى من الدنيا قريبة . ويمكن أن يقال إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة ، فكلّ آت قريب (وانشقّ القمر) أى وقد انشقّ القمر ، وكذا قرأ حذيفة بزيادة قد ، والمراد الانشقاق الواقع فى أيام النبوّة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف . قال الواحدى : وجماعة المفسرين على هذا إلا ماروى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : المعنى سينشقّ القمر ، والعلماء كلهم على خلافه . قال : وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ، لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونبوّته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة . قال ابن كيسان : فى الكلام تقديم وتأخير : أى انشقّ القمر واقتربت الساعة . وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة . وقيل معنى وانشقّ القمر : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح. وقيل انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه وطلوعه فى أثنائها كما يسمى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه . قال ابن كثير : قد كان الانشقاق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات . قال الزجاج : زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشقّ يوم القيامة ، والأمر بين فى اللفظ وإجماع أهل العلم ، لأن قوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ) يدلّ على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة انتهى ، ولم يأت من خالف الجمهور وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد ، فقال : لأنه لو انشق فى زمن النبوّة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء . ويجاب عنه بأنه لايلزم أن يراه كل أحد لا عقلا ولا شرعا ولا عادة ، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ، ويضرب به فى وجه قائله .

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشقّ ، ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبت فى الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوّة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذّ واستبعاد من استبعد ، وسيأتى ذكر بعض ماورد فى ذلك إن شاء الله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ) قال الواحدى : قال المفسرون : لما انشقّ القمر قال المشركون سحرنا محمد ، فقال الله (وإن يروا آية) يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ، ويقولوا سحر قوىّ شديد يعلو كل سحر ، من قولهم استمرّ الشيء : إذا قوى واستحكم ، وقد قال بأن معنى مستمرّ : قوى شديد جماعة من أهل العلم . قال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدّة فتله ، وبه قال أبو العالية والضحاك ، واختاره النحاس ، ومنه قول لقيط :

حتى استمر على شر لايزنه   صدق العزيمة لا رثا ولا ضرعا

وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة (سحر مستمرّ) أى ذاهب ، من قولهم مرّ الشيء واستمرّ إذا ذهب ، وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما ، واختاره النحاس . وقيل معنى مستمرّ : دائم مطرد ، ومنه قول الشاعر :

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر   وليس على شيء قديم بمستمر

أى بدائم باق ، وقيل مستمرّ باطل ، روى هذا عن أبى عبيدة أيضا . وقيل يشبه بعضه بعضا ، وقيل قد مرّ من

الأرض إلى السماء ، وقيل هو من المرارة : يقال مرّ الشيء صار مرّا : أي مستبشع عندهم . وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قررناه سابقا . ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي وكذبوا رسول الله ، وما عاينوا من قدرة الله ، واتبعوا أهواءهم وما زينه لهم الشيطان الرجيم ، وجملة (وكل أمر مستقرّ) مستأنفة لتقرير بطلان ماقالوه من التكذيب واتباع الأهواء : أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية ، فالخير يستقرّ بأهل الخير ، والشرّ يستقر بأهل الشرّ . قال الفراء : يقول يستقرّ قرار تكذيبهم وقرار قول المصدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب . قال الكلبي : المعنى لكل أمر حقيقة ماكان منه في الدنيا فسيظهر ، وما كان منه في الآخرة فسيعرف . قرأ الجمهور « مستقرّ » بكسر القاف ، وهو مرتفع على أنه خبر المبتدإ وهو كل . وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي بجر « مستقرّ » على أنه صفة لأمر ، وقرأ شيبة بفتح القاف ، ورويت هذه القراءة عن نافع . قال أبو حاتم : ولا وجه لها ، وقيل لها وجه بتقدير مضاف محذوف : أي وكل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكان استقرار ، على أنه مصدر ، أو ظرف زمان ، أو ظرف مكان (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أي ولقد جاء كفار مكة ، أو الكفار على العموم من الأنباء ، وهي أخبار الأمم المكذبة المقصوصة علينا في القرآن ـ ما فيه مزدجر ـ أي ازدجار على أنه مصدر ميميّ ، يقال زجرته : إذا نهيته عن السوء ووعظته ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، والمعنى : جاءهم مافيه موضع ازدجار : أي أنه في نفسه موضع لذلك ، وأصله مزتجر ، وتاء الافتعال تقلب دالا مع الزاي والدال والذال كما تقرّر في موضعه ، وقرأ زيد بن عليّ « مزّجر » بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاي في الزاي ، ومن في قوله « من الأنباء » للتبعيض وهي وما دخلت عليه في محل نصب على الحال ، وارتفاع (حكمة بالغة) على أنها خبر مبتدإ محذوف أو بدل من ما بدل كل من كل ، أو بدل اشتمال ، والمعنى : أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل ، وقرئ بالنصب على أنها حال من ما : أي حال كون مافيه مزدجر حكمة بالغة (فما تغن النذر) ما يجوز أن تكون استفهامية وأن تكون نافية : أي أيّ شيء تغني النذر أو لم تغن النذر شيئا ، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة ، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر ، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر . ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم فقال (فتولّ عنهم) أي أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهي منسوخة بآية السيف (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر : أي اذكر ، وإما بيخرجون المذكور بعده ، وإما بقوله (فما تغن) ، ويكون قوله (فتولّ عنهم) اعتراض ، أو بقوله ـ يقول الكافرون ـ أو بقوله ـ خشعا ـ وسقطت الواو من يدع اتباعا للفظ ، وقد وقعت في الرسم هكذا وحذفت الياء من الداع للتخفيف واكتفاء بالكسرة ، والداع هو إسرافيل ، والشيء النكر : الأمر الفظيع الذي ينكرونه استعظاما له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله . قرأ الجمهور بضم الكاف . وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفا . وقرأ مجاهد وقتادة بكسر الكاف وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول (خشعا أبصارهم) قرأ الجمهور « خشعا » جمع خاشع . وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو « خاشعا » على الإفراد ، ومنه قول الشاعر :

وشباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

وقرأ ابن مسعود « خاشعة » قال الفراء : الصفة إذا تقدّمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث والجمع : يعني جمع التكسير لا جمع السلامة ، لأنه يكون من الجمع بين فاعلين ، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد

وانتصاب خشعاً على الحال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير فى عنهم ، والخشوع فى البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العزّ والذلّ يتبين فيها (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من القبور ، وواحد الأجداث جدث وهو القبر ، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر : أى منبث فى الأقطار مختلط بعضه ببعض (مهطعين إلى الداع) الإهطاع : الإسراع أى قال كونهم مسرعين إلى الداعى ، وهو إسرافيل ، ومنه قول الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

أى مسرعين إليه . وقال الضحاك : مقبلين . وقال قتادة : عامدين . وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأوّل أولى ، وبه قال أبو عبيدة وغيره ، وجملة (يقول الكافرون هذا يوم عسر) فى محل نصب على الحال من ضمير مهطعين ، والرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا يكون حينئذ . والعسر : الصعب الشديد ، وفى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين . ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ماتقدّم من الأنباء المجملة فقال (كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذبوا نبيهم ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله (فكذبوا عبدنا) تفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأكيد : أى فكذبوا عبدنا نوحا ، وقيل المعنى : كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل فإنه منهم . ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب فقال (وقالوا مجنون) أى نسبوا نوحا إلى الجنون ، وقوله (وازدجر) معطوف على قالوا : أى وزجر عن دعوى النبوّة وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر ، والدال بدل من تاء الافتعال كما تقدّم قريبا ، وقيل إنه معطوف على مجنون : أى وقالوا إنه ازدجر : أى ازدجرته الجنّ وذهبت بلبه ، والأوّل أولى . قال مجاهد : هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسبّ وأنواع الأذى . قال الرازى : وهذا أصح ، لأن المقصود تقوية قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذكر من تقدّمه (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) أى دعا نوح ربه على قومه بأنى مغلوب من جهة قومى لتمرّدهم عن الطاعة وزجرهم لى عن تبليغ الرسالة ، فانتصر لى : أى انتقم لى منهم . طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما أيس من إجابتهم وعلم تمرّدهم وعتوّهم وإصرارهم على ضلالتهم . قرأ الجمهور « أنى » بفتح الهمزة : أى بأنى . وقرأ ابن أبى إسحاق والأعمش بكسر الهمزة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول : أى فقال . ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) أى منصبّ انصبابا شديدا ، والهمر : الصبّ بكثرة ، يقال : همر الماء والدمع يهمر همرا وهمورا : إذا كثر ، ومنه قول الشاعر :

أعينيّ جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معدّ وحاضر

ومنه قول امرئ القيس يصف غيثا :

راح تمرّ به الصبا ثم انتحى فيه بشؤبوب جنوب منهمر

قرأ الجمهور « فتحنا » مخففا . وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد (وفجرنا الأرض عيونا) أى جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة ، والأصل فجرنا عيون الأرض . قرأ الجمهور « فجرنا » بالتشديد . وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف . قال عبيد بن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون (فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم : أى كائنا على حال قدّرها الله وقضى بها . وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر ، بل كان ماء السماء وماء

الأرض على سواء . قال قتادة : قدّر لهم إذ كفروا أن يغرقوا. وقرأ الجحدرى « فالتقى الماآن » وقرأ الحسن « فالتقى الماوان » ورويت هذه القراءة عن عليّ بن أبي طالب ومحمد بن كعب (وحملناه على ذات ألواح ودسر) أي وحملنا نوحا على سفينة ذات ألواح ، وهي الأخشاب العريضة ـ ودسر ـ قال الزجاج : هي المسامير التي تشدّ بها الألواح واحدها دسار ، وكل شيء أدخل في شيء يشدّه فهو الدسر ، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب وابن زيد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : الدسر ظهر السفينة التي يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء : أي تدفعه ، والدسر الدفع . وقال الليث : الدسار خيط تشدّ به ألواح السفينة . قال في الصحاح : الدسار واحدالدسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال هي المسامير (تجرى بأعيننا) أي بمنظر ومرأى منا وحفظ لها كما في قوله ـ واصنع الفلك بأعيننا ـ وقيل بأمرنا ، وقيل بوحينا ، وقيل بالأعين النابعة من الأرض ، وقيل بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها (جزاء لمن كان كفر) قال الفراء : فعلنا به وبهم مافعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابا لمن كفر به وجحد أمره وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها فانتصاب جزاء على العلة ، وقيل على المصدرية بفعل مقدّر : أي جازيناهم جزاء . قرأ الجمهور « كفر » مبنيا للمفعول ، والمراد به نوح . وقيل هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به وجحدوا نعمته . وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد وعيسى كفر بفتح الكاف والفاء مبنيا للفاعل : أي جزاء وعقابا لمن كفر بالله (ولقد تركناها آية) أي السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين ، وقيل المعنى : ولقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة وموعظة (فهل من مدّكر) أصله مذتكر فأبدلت التاء دالا مهملة ، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما وأدغمت الدال في الذال ، والمعنى : هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها (فكيف كان عذابى ونذر) أي إنذارى . قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والاستفهام للتهويل والتعجيب : أي كانا على كيفية هائلة عجيبة لايحيط بها الوصف ، وقيل نذر جمع نذير ، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، وقيل هيأناه للتذكر والاتعاظ (فهل من مدّكر) أي متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره . وفي الآية الحث على درس القرآن والاستكثار من تلاوته والمسارعة في تعلمه ومدكر أصله مذتكر كما تقدّم قريبا.

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس « أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » . وروى عنه من طريق أخرى عند مسلم والترمذى وغيرهم وقال : فنزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر) وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اشهدوا » . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الدلائل عنه قال : رأيت القمر منشقا شقتين مرّتين : مرّة بمكة قبل أن يخرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : شقة على أبي قبيس ، وشقة على السويداء . وذكر أن هذا سبب نزول الآية . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم عنه أيضا قال : رأيت القمر وقد انشقّ ، وأبصرت الجبل بين فرجتى القمر . وله طرق عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : انشقّ القمر في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . وله طرق عنه . وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن ابن عمر في قوله (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال : كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انشقّ فرقتين : فرقة من دون الجبل ، وفرقة خلفه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم اشهد » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير والحاكم وصححه وابن

مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله : (وانشقّ القمر) قال : انشقّ القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقال الناس : سحرنا محمد ، فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لايستطيع أن يسحر الناس كلهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبدبن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن عبد الرحمن السلمى قال : « خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : اقتربت الساعة وانشقّ القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشقّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، اليوم المضمار وغدا السباق » وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مهطعين) قال ناظرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) قال كثير : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماآن .
وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (على ذات ألواح ودسر) قال : الألواح ألواح السفينة ، والدسر : معاريضها التى تشد بها السفينة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (ودسر) قال : المسامير . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : الدسر كلكل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا فى قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر) قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله . وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس (فهل من مدّكر) قال : هل من متذكر .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى
يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وٰحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِى ضَلٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا
مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ
شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٠)
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا
آلَ لُوطٍ نَجَّيْنٰهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذٰلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ

أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) .

قوله (كذبت عاد) هم قوم عاد (فكيف كان عذابى ونذر) أى فاسمعوا كيف كان عذابى لهم وإنذارى إياهم ، ونذر مصدر بمعنى إنذار كما تقدّم تحقيقه ، والاستفهام للتهويل والتعظيم (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب ، والصرصر شدّة البرد : أى ريح شديدة البرد ، وقيل الصرصر شدّة الصوت ، وقد تقدّم بيانه فى سورة حم السجدة (فى يوم نحس مستمرّ) أى دائم الشوم استمرّ عليهم بنحوسه ، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم . قال الزجاج : قيل فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر . قرأ الجمهور « فى يوم نحس » بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو على تقدير مضاف أى فى يوم عذاب نحس . وقرأ الحسن بتنوين يوم على أن نحس صفة له . وقرأ هارون بكسر الحاء . قال الضحاك : كان ذلك اليوم مرّا عليهم . وكذا حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة ، وقيل هو من المرّة بمعنى القوّة : أى فى يوم قوىّ الشوم مستحكمه كالشىء المحكم الفتل الذى لا يطاق نقضه ، والظاهر أنه من الاستمرار ، لامن المرارة ولا من المرّة : أى دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم ، وجملة (تنزع الناس) فى محل نصب على أنها صفة لريحا أو حال منها ، ويجوز أن يكون استئنافا : أى تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رءوسهم فتدقّ أعناقهم وتبين رءوسهم من أجسادهم ، وقيل تنزع الناس من البيوت ، وقيل من قبورهم لأنهم حفروا حفائر ودخلوها (كأنهم أعجاز نخل منقعر) الأعجاز جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء ، والمنقعر : المنقطع المنقلع من أصله ، يقال قعرت النخلة : إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط . شبههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رءوس ، وذلك أن الريح قلعت رءوسهم أولا ، ثم كبتتهم على وجوههم وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهى مؤنثة اعتبارا باللفظ ويجوز تأنيثه اعتبارا بالمعنى كما قال ـ أعجاز نخل خاوية ـ قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا . وقيل إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث (فكيف كان عذابى ونذر) قد تقدّم تفسيره قريبا ، وكذلك قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر) ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود فقال (كذبت ثمود بالنذر) يجوز أن يكون جمع نذير : أى كذبت بالرّسل المرسلين إليهم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار : أى كذبت بالإنذار الذى أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيبا للرسل ، لأن من كذب واحدا من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه) الاستفهام للإنكار : أى كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على مايدعو إليه . قرأ الجمهور بنصب « بشرا » على الاشتغال : أى أنتبع بشرا واحدا . وقرأ أبو السمال والدانى وأبو الأشهب وابن السميقع بالرفع على الابتداء ، وواحدا صفته ، ونتبعه خبره . وروى عن أبى السمال أنه قرأ برفع « بشرا » ونصب « واحدا » على الحال (إنا إذا لفى ضلال) أى إنا إذا اتبعناه لفى خطأ وذهاب عن الحق (وسعر) أى عذاب

وعناء وشدّة كذا قال الفراء وغيره . وقال أبو عبيدة : هو جمع سعير ، وهو لهب النار ، والسعر : الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدّة . وقال مجاهد : وسعر وبعد عن الحقّ . وقال السدّى : فى احتراق ، وقيل المراد بههنا الجنون ، من قولهم : ناقة مسعورة : أى كأنها من شدّة نشاطها مجنونة ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :

تخال بها سعرا إذ السعر هزها ذميل وإيقاع من السير متعب

ثم كرّروا الإنكار والاستبعاد فقالوا (أألقى الذكر عليه من بيننا) أى كيف خصّ من بيننا بالوحى والنبوّة، وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟ ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا فقالوا (بل هو كذاب أشر) والأشر : المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، ومنه قول الشاعر :

أشرتم بلبس الخز لما لبستم ومن قبل لاتدرون من فتح القرى

قرأ الجمهور « أشر » كفرح . وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر بفتح الشين وتشديد الرّاء على أنه أفعل تفضيل . ونقل الكسائى عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة . ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) والمراد بقوله غدا وقت نزول العذاب بهم فى الدنيا ، أو فى يوم القيامة جريا على عادة الناس فى التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد ، كما فى قولهم : إن مع اليوم غدا ، وكما فى قول الحطيئة :

للموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتا فى اليوم مات غدا

ومنه قول أبى الطماح :

ألا علانى قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل غد يا لهف نفسى على غد إذا راح أصحابى ولست برائح

قرأ الجمهور « سيعلمون » بالتحتية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه ، وجملة (إنا مرسلوا الناقة) مستأنفة لبيان ماتقدّم إجماله من الوعيد : أى إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه (فتنة لهم) أى ابتلاء وامتحانا ، وانتصاب فتنة على العلة (فارتقبهم) أى انتظر مايصنعون (واصطبر) على مايصيبك من الأذى منهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) أى بين ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، كما فى قوله ـ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ـ وقال « نبئهم » بضمير العقلاء تغليبا (كل شرب محتضر) الشرب بكسر الشين الحظ من الماء . ومعنى محتضر : أنه يحضره من هو له ، فالناقة تحضره يوما وهم يحضرونه يوما . قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم ، فيشربون ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون . قرأ الجمهور « قسمة » بكسر القاف بمعنى مقسوم . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها (فنادوا صاحبهم) أى نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها (فتعاطى فعقر) أى تناول الناقة بالعقر فعقرها ، أو اجترأ على تعاطى أسباب العقر فعقر . قال محمد بن إسحاق : كمن لها فى أصل شجرة على طريقها ، فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها ، والتعاطى : تناول الشىء بتكلف (فكيف كان عذابى ونذر) قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة . ثم بين ما أجمله من العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) قال عطاء : يريد صيحة جبريل ، وقد مضى بيان هذا فى سورة هود وفى الأعراف (فكانوا كهشيم المحتظر) قرأ الجمهور بكسر الظاء ، والهشيم : حطام الشجر ويابسه ، والمحتظر : صاحب الحظيرة ، وهو الذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح ، يقال احتظر على غنمه : إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض . قال فى الصحاح : والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح

الظاء : أى كهشيم الحظيرة ، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، ومعنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة وداسته الغنم بعد سقوطه ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجه كدخان نار تشب بغرقد بال هشيم

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو مايتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى . قال ابن زيد : العرب تسمى كلّ شىء كان رطبا فيبس هشيما ، ومنه قول الشاعر :

ترى جيف المطىّ بجانبيه كأن عظامها خشب الهشيم

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر) قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة . ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم فقال (كذبت قوم لوط بالنذر) وقد تقدّم تفسير النذر قريبا . ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال (إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أى ريحا ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى . قال أبو عبيدة والنضر بن شميل : الحاصب الحجارة فى الريح . قال فى الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منثور

(إلا آل لوط نجيناهم بسحر) يعنى لوطا ومن تبعه ، والسحر آخر الليل ، وقيل هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة ، ولو قصد معينا لامتنع . كذا قال الزجاج والأخفش وغيرهما ، وانتصاب (نعمة من عندنا) على العلة ، أو على المصدرية : أى إنعاما منا على لوط ومن تبعه (كذلك نجزى من شكر) أى مثل ذلك الجزاء نجزى من شكر نعمتنا ولم يكفرها (ولقد أنذرهم بطشتنا) أى أنذر لوط قومه بطشة الله بهم وهى عذابه الشديد وعقوبته البالغة (فتماروا بالنذر) أى شكوا فى الإنذار ولم يصدّقوه ، وهو تفاعلوا من المرية ، وهى الشك (ولقد راودوه عن ضيفه) أى أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم ، يقال راودته عن كذا مراودة ورِوادا : أى أردته ، وراد الكلام يروده رودا : أى طلبه ، وقد تقدّم تفسير المراودة مستوفى فى سورة هود (فطمسنا أعينهم) أى صيرنا أعينهم ممسوحة لايرى لها شقّ كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا (فذوقوا عذابى ونذر) قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقرّ) أى أتاهم صباحا عذاب مستقرّ بهم نازل عليهم لايفارقهم ولا ينفك عنهم . قال مقاتل : استقرّ بهم العذاب بكرة ، وانصراف بكرة لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق فى بسحر (فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر) قد تقدّم تفسير هذا فى هذه السورة ، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الاشعار بأنه منة عظيمة لاينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) قال : باردة (فى يوم نحس) قال أيام شداد . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه عن على

مرفوعا وأخرجه ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا ، وفيه «قيل : وكيف ذاك يارسول الله ؟ قال : أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عادا وثمودا » . وأخرج ابن مردويه والخطيب بسند . قال السيوطى : ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر » . وأخرج ابن المنذر عنه (كأنهم أعجاز نخل) قال : أصول النخل (منقعر) قال : منقلع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : أعجاز سواد النخل . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (وسعر) قال شقاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال (كهشيم المحتظر) قال : كحظائر من الشجر محترقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : كالعظام المحترقة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : كالحشيش تأكله الغنم .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

(النذر) يجوز أن يكون جمع نذير ، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى الإنذار كما تقدّم ، وهى الآيات التى أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى لقوله (كذبوا بآياتنا كلها) فإنه بيان لذلك ، والمراد بها الآيات التسع التى تقدّم ذكرها (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه قادر على إهلاكهم لايعجزه شىء . ثم خوّف سبحانه كفار مكة فقال (أكفاركم خير من أولئكم) والاستفهام للإنكار ، والمعنى النفى : أى ليس كفاركم يا أهل مكة ، أو يامعشر العرب خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ، فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب وأنتم شرّ منهم . ثم أضرب سبحانه عن ذلك وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأوّل فقال (أم لكم براءة فى الزبر) والزبر هى الكتب المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله فى شىء من كتب الأنبياء . ثم أضرب عن هذا التبكيت وانتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر فقال (أم يقولون نحن جميع منتصر) أى جماعة لاتطاق لكثرة عددنا وقوّتنا أو أمرنا مجتمع لانغلب ، وأفرد منتصرا اعتبارا بلفظ جميع . قال الكلبى : المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله (سيهزم الجمع) أى جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم . قرأ الجمهور « سيهزم » بالتحتية مبنيا للمفعول . وقرأ ورش عن يعقوب « سنهزم » بالنون وكسر الزاى ونصب الجمع . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة

بالتحتية مبنيا للفاعل ، وقرئ بالفوقية مبنيا للفاعل (ويولون الدبر) قرأ الجمهور « يولون » بالتحتية ، وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر الجنس ، وهو فى معنى الإدبار ، وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار ، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر ، فلله الحمد (بل الساعة موعدهم) أى موعد عذابهم الأخرويّ ، وليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدّمة من مقدّماته وطليعة من طلائعه ، ولهذا قال (والساعة أدهى وأمرّ) أى وعذاب الساعة أعظم فى الضرّ وأفظع ، مأخوذ من الدهاء ، وهو النكر والفظاعة ، ومعنى أمرّ : أشد مرارة من عذاب الدنيا ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه دهوا ودهيا (إن المجرمين فى ضلال وسعر) أى فى ذهاب عن الحقّ وبعد عنه ، وقد تقدّم فى هذه السورة تفسير وسعر فلا نعيده (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) والظرف منتصب بما قبله : أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يسحبون ، أو بقول مقدّر بعده : أى يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مسّ سقر) أى قاسوا حرّها وشدّة عذابها ، وسقر علم لجهنم . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بإدغام سين مسّ فى سين سقر (إنا كل شىء خلقناه بقدر) قرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شىء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبسا بقدر قدّره وقضاء قضاه سبق فى علمه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر التقدير ، وقد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إلا مرة واحدة أو كلمة واحدة كلمح بالبصر فى سرعته ، واللمح : النظر على العجلة والسرعة . وفى الصحاح لمحه وألمحه : إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة . قال الكلبي : وما أمرنا بمجىء الساعة فى السرعة إلا كطرف البصر (ولقد أهلكنا أشياعكم) أى أشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الأمم ، وقيل أتباعكم وأعوانكم (فهل من مدكر) يتذكر ويتعظ بالمواعظ ويعلم أن ذلك حق ، فيخاف العقوبة وأن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة (وكل شىء فعلوه فى الزبر) أى جميع ما فعلته الأمم من خير أو شرّ مكتوب فى اللوح المحفوظ ، وقيل فى كتب الحفظة (وكل صغير وكبير مستطر) أى كل شىء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور فى اللوح المحفوظ صغيره وكبيره وجليله وحقيره يقال : سطر يسطر سطرا كتب ، وأسطر مثله . ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال (إن المتقين فى جنات ونهر) أى فى بساتين مختلفة وجنان متنوعة وأنهار متدفقة . قرأ الجمهور « ونهر » بفتح الهاء على الإفراد ، وهو جنس يشمل أنهار الجنة وقرأ مجاهد والأعرج وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان ، وقرأ أبو مجلز وأبو نهشل والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة « نهر » بضم النون والهاء على الجمع (فى مقعد صدق) أى فى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة (عند مليك مقتدر) أى قادر على ما يشاء لا يعجزه شىء ، وعند ها هنا كناية عن الكرامة وشرف المنزلة ، وقرأ عثمان البتى « فى مقاعد صدق » .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (أكفاركم خير من أولئكم) يقول : ليس كفاركم خير من قوم نوح وقوم لوط . وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه فى قوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال : كان ذلك يوم بدر قالوا (نحن جميع منتصر) فنزلت هذه الآية . وفى البخارى وغيره عنه أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو فى قبة له يوم بدر « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا ، فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يارسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ) » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد

ومسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاصمونه فى القدر ، فنزلت (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) . وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (وكل صغير وكبير مستطر) قال : مسطور فى الكتاب اهـ.

تفسير سورة الرحمن

هى ست وسبعون آية

وهى مكية . قال القرطبى : كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر قال : قال ابن عباس إلا آية منها ، وهى قوله (يسأله من فى السموات والأرض) الآية . وقال ابن مسعود ومقاتل هى مدنية كلها ، والأوّل أصح ، ويدلّ عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزل بمكة سورة الرحمن . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة الرحمن علم القرآن بمكة . وأخرج أحمد وابن مردويه . قال السيوطى : بسند حسن عن أسماء بنت أبى بكر قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ويؤيد القول الثانى ما أخرجه ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بالمدينة ، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة . وأخرج الترمذى وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه . فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : مالى أراكم سكوتا لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ ، فكانوا أحسن مردودا منكم كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) قالوا : لا شىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وحكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير . وقال البزار : لانعرفه يروى إلا من هذا الوجه . وأخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطنى فى الإفراد وابن مردويه والخطيب فى تاريخه من حديث ابن عمر وصحح السيوطى إسناده . وقال البزار : لانعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . وأخرج البيهقى فى الشعب عن على سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لكل شىء عروس ، وعروس القرآن الرحمن » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا

لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن
مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

قوله (الرحمن علم القرآن) ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ وما بعده من الأفعال أخبار له ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف : أى الله الرحمن . قال الزجاج : معنى (علم القرآن) يسره . قال الكلبي : علم القرآن محمدا وعلمه محمد أمته ، وقيل جعله علامة لما يعبد الناس به ، قيل نزلت هذه الآية جوابا لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر ، وقيل جوابا لقولهم : وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التى أنعم بها على عباده قدم النعمة التى هى أجلها قدرا وأكثرها نفعا وأتمها فائدة وأعظمها عائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن ، فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحى الخيرين ، وعماد الأمرين . ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال (خلق الإنسان) ثم امتنّ ثالثا بتعليمه البيان الذى يكون به التفاهم ويدور عليه التخاطب وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ، لأنه لايمكن إبراز ما فى الضمائر ولا إظهار مايدور فى الخلد إلا به قال قتادة والحسن : المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالبيان أسماء كلّ شىء ، وقيل المراد به اللغات . وقال ابن كيسان : المراد بالإنسان هاهنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبالبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، وهو بعيد . وقال الضحاك : البيان الخير والشرّ . وقال الربيع بن أنس : هو ماينفعه مما يضرّه ، وقيل البيان الكتابة بالقلم . والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وحمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الذى يتكلمون به (الشمس والقمر بحسبان) أى يجريان بحساب ومنازل لايعدوانها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين . قال قتادة وأبو مالك : يجريان بحسبان فى منازل لايعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ، لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا . وقال الضحاك : معنى بحسبان : بقدر . وقال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحى : يعنى قطبهما الذى يدوران عليه . قال الأخفش : الحسبان جماعة الحساب ، مثل شهب وشهبان . وأما الحسبان بالضمّ فهو العذاب كما مضى فى سورة الكهف (والنجم والشجر يسجدان) النجم مالا ساق له من النبات ، والشجر ماله ساق . قال الشاعر :

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه ... وتمّ به حيا تميم ووائل

وقال زهير : مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح الجنوب لضاحي مابه حبك

والمراد بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما في قوله ـ يتفيؤ ظلاله ـ وقال الحسن ومجاهد : المراد بالنجم نجم السماء وسجوده طلوعه ، ورجح هذا ابن جرير . وقيل سجوده أفوله ، وسجود الشجر : تمكينها من الاجتناء لثمارها . قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن ، وترك الرابط فيهما لظهوره كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له (والسماء رفعها)قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء ، والمعنى : أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض (ووضع الميزان) المراد بالميزان العدل : أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به كذا قال مجاهد وقتادة والسدّي وغيرهم . قال الزجاج : المعنى أنه أمرنا بالعدل ، ويدل عليه قوله (ألا تطغوا في الميزان) أي لا تجاوزوا العدل . وقال الحسن والضحاك : المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف . وقيل الميزان القرآن لأن فيه بيان مايحتاج إليه ، وبه قال الحسين بن الفضل ، والأوّل أولى . ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم فقال (وأقيموا الوزن بالقسط) أي قوّموا وزنكم بالعدل ، وقيل المعنى : أقيموا لسان الميزان بالعدل ، وقيل المعنى : أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال ، و« أن » في قوله « ألا تطغوا » مصدرية : أي لئلا تطغوا ، ولا نافية : أي وضع الميزان لئلا تطغوا ، وقيل هي مفسرة ، لأن في الوضع معنى القول ، والطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال الميزان العدل ، قال طغيانه الجور ومن قال الميزان الآلة التي يوزن بها ، قال طغيانه البخس (ولا تخسروا الميزان) أي لا تنقصوه : أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس قرأ الجمهور « تخسروا » بضم التاء وكسر السين من أخسر ، وقرأ بلال بن أبي بردة وأبان بن عثمان وزيد بن علي بفتح التاء والسين من خسر ، وهما لغتان : يقال أخسرت الميزان وخسرته . ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال (والأرض وضعها للأنام) أي بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ . قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة (فيها فاكهة) في محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة ، وقيل مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها ، والمراد بها كل مايتفكه به من أنواع الثمار . ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال (والنخل ذات الأكمام) الأكمام جمع كم بالكسر ، وهو وعاء الثمر . قال الجوهري : والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء التنور ، والجمع كمام وأكمة وأكمام . قال الحسن : ذات الأكمام : أي ذات الليف ، فإن النخلة تكمم بالليف وكمامها ليفها ، وقال ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال (والحبّ ذو العصف والريحان) الحبّ هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف . قال السدّي والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أوّل ماينبت به . قال ابن كيسان : يبدو أولا ورقا ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماما ، ثم يحدث في الأكمام الحبّ . قال الفراء : والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال الصحاح . وقال الحسن : العصف التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله ـ كعصف مأكول ـ ، وقيل هو الزرع الكثير ، يقال قد أعصف الزرع ومكان معصف : أي كثير الزرع ، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

إذا جمادى منعت قطرها   إن جنانى عطن معصف

والريحان الورق فى قول الأكثر . وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد : إنه الريحان الذى يشم . وقال سعيد بن جبير : هو ماقام على ساق . وقال الكلبى : إن العصف هو الورق الذى لايؤكل ، والريحان هو الحب المأكول . وقال الفراء أيضا : العصف المأكول من الزرع ، والريحان مالا يؤكل ، وقيل الريحان كل بقلة طيبة الريح . قال ابن الأعرابى : يقال شىء ريحانى وروحانى : أى له روح : وقال فى الصحاح الريحان نبت معروف ، والريحان الرزق ، تقول : خرجت أبتغى ريحان الله . قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه   ورحمته وسماء درر

وقيل العصف رزق البهائم ، والريحان رزق الناس . قرأ الجمهور (والحبّ ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفا على فاكهة . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة بنصبهما عطفا على الأرض أو على إضمار فعل : أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان . وقرأ حمزة والكسائى والريحان بالجرّ عطفا على العصف (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الخطاب للجنّ والإنس ، لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما ، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل . وبهذا قال الجمهور من المفسرين : ويدلّ عليه قوله فيما سيأتى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) ويدلّ على هذا ماقدّمنا فى فاتحة هذه السورة أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأها على الجنّ والإنس ، وقيل الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدّمنا فى قوله ـ ألقيا فى جهنم ـ والآلاء النعم . قال القرطبى : وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إلى مثل معى وعصى . وقال ابن زيد : إنها القدرة : أى فبأى قدرة ربكما تكذبان ، وبه قال الكلبى . وكرّر سبحانه هذه الآية فى هذه السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للتذكير بها على عادة العرب فى الاتساع . قال القتيبى : إن الله عدّد فى هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقرّرهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك ، وهو يكفره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلا فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن فى مثل هذا ، ومنه قول الشاعر :

لاتقتلى رجلا إن كنت مسلمة   إياك من دمه إياك إياك

قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ذكر خلق العالم الصغير ، والمراد بالإنسان هنا آدم . قال القرطبى : باتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، والصلصال الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة ، وقيل هو طين خلط برمل ، وقيل هو الطين المنتن يقال : صلّ اللحم وأصلّ إذا أنتن ، وقد تقدّم بيانه فى سورة الحجر ، والفخار الخزف الذى طبخ بالنار ، والمعنى : أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يبسه الخزف (وخلق الجانّ من مارج من نار) يعنى خلق أبا الجنّ أو جنس الجنّ من مارج من نار ، والمارج اللهب الصافى من النار ، وقيل الخالص منها ، وقيل لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت ، وقال الليث : المارج الشعلة الصادعة ذات اللهب الشديد . قال المبرد : المارج النار المرسلة التى لاتمنع ، وقال أبو عبيدة : المارج خلط النار ، من مرج إذا اختلط واضطرب . قال الجوهرى : مارج من نار نار لادخان لها خلق منها الجانّ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإنه أنعم عليكما فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لاتحصى (رب

المشرقين ورب المغربين) قرأ الجمهور «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أيّ هو ربّ المشرقين والمغربين ، وقيل مبتدأ وخبره - مرج البحرين - وما بينهما اعتراض، والأوّل أولى ، والمراد بالمشرقين مشرقا الشتاء والصيف ، وبالمغربين مغرباهما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن فى ذلك من النعم مالايحصى ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده (مرج البحرين يلتقيان) المرج التخلية والإرسال، يقال : مرجت الدابة : إذا أرسلتها، وأصله الإهمال كما تمرج الدابة فى المرعى ، والمعنى : أنه أرسل كل واحد منهما ، يلتقيان : أى يتجاوران لافصل بينهما فى مرأى العين ، ومع ذلك فلم يختلطا ، ولهذا قال (بينهما برزخ) أى حاجز يحجز بينهما (لايبغيان) أى لايبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به . قال الحسن وقتادة : هما بحر فارس والروم . وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل بحر المشرق والمغرب ، وقيل بحر اللؤلؤ والمرجان ، وقيل بحر السماء وبحر الأرض . قال سعيد بن جبير : يلتقيان فى كل عام ، وقيل يلتقى طرفاهما . وقوله (يلتقيان) فى محلّ نصب على الحال من البحرين ، وجملة (بينهما برزخ) يجوز أن تكون مستأنفة ، وأن تكون حالا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن هذه الآية وأمثالها لايتيسر تكذيبها بحال (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) . قرأ الجمهور «يخرج» بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، وقرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، واللؤلؤ : الدرّ ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف . وقال الفرّاء : اللؤلؤ العظام ، والمرجان ماصغر . قال الواحدى : وهو قول جميع أهل اللغة . وقال مقاتل والسدّى ومجاهد : اللؤلؤ صغاره ، والمرجان كباره ، وقال (يخرج منهما) وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج وغيره . وقال أبو على الفارسى : هو من باب حذف المضاف : أى من أحدهما كقوله - على رجل من القريتين عظيم - . وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب ، وقيل هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ، وقيل هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خا جا منهما (فبأىّ آلاء ربكما تكذّبان) فإن فى ذلك من الآيات مالا يستطيع أحد تكذيبه ولا يقدر على إنكاره (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) المراد بالجوار : السفن الجارية فى البحر ، والمنشآت : المرفوعات التى رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت فى البحر كالأعلام وهى الجبال ، والعلم : : الجبل الطويل : وقال قتادة : المنشآت المخلوقات للجرى . وقال الأخفش : المنشآت المجريات ، وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة الشورى . قرأ الجمهور «الجوار» بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن مسعود والحسن وأبو عمرو فى رواية عنه برفع الراء تناسيا للحذف ، وقرأ يعقوب بإثبات الياء ، وقرأ الجمهور «المنشآت» بفتح الشين ، وقرأ حمزة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الشين (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لايمكن تكذيبه ولا إنكاره .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (الشمس والقمر بحسبان) قال : بحساب ومنازل يرسلان . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم عنه (والأرض وضعها للأنام) قال : للناس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : للخلق . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل شىء فيه روح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (والنخل ذات الأكمام) قال : أوعية الطلع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (والحبّ ذو العصف) قال : التبن (والريحان) قال خضرة الزرع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال (العصف) ورق الزرع إذا يبس (والريحان)

ما أنبتت الأرض من الريحان الذى يشم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال (العصف) الزرع أول مايخرج بقلا (والريحان) حين يستوى على سوقه ولم يسنبل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل ريحان فى القرآن فهو رزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) قال : يعنى بأى نعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : يعنى الجن والإنس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (من مارج من نار) قال : من لهب النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : خالص النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (رب المشرقين ورب المغربين) قال : للشمس مطلع فى الشتاء ، ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ، ومغرب فى الصيف غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : مشرق الفجر ومشرق الشفق ، ومغرب الشمس ومغرب الشفق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (مرج البحرين يلتقيان) قال : أرسل البحرين (بينهما برزخ) قال : حاجز (لايبغيان) لايختلطان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : بحر السماء وبحر الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (بينهما برزخ لايبغيان) قال : بينهما من البعد مالا يبغى كل واحد منهما على صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) قال : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهها فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن على بن أبى طالب قال : المرجان عظام اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : اللؤلؤ : ماعظم منه ، والمرجان : اللؤلؤ الصغار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود قال : المرجان الخرز الأحمر .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ

بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥).

قوله (كل من عليها فان) أى كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ من . وقيل أراد من عليها من الجنّ والإنس (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا ، وقيل : معنى (يبقى وجه ربك) تبقى حجته التى يتقرّب بها إليه ، والجلال : العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح ، يقال جلّ الشيء : أى عظم ، وأجللته : أى أعظمته ، وهو اسم من جلّ . ومعنى ذو الإكرام : أنه يكرم عن كل شيء لايليق به ، وقيل إنه ذو الإكرام لأوليائه ، والخطاب فى قوله ربك للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له . قرأ الجمهور « ذو الجلال » على أنه صفة لوجه ، وقرأ أبيّ وابن مسعود : ذى الجلال على أنه صفة لربّ (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) وجه النعمة فى فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب . وقال مقاتل : وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام (يسأله من فى السموات والأرض) أى يسألونه جميعا لأنهم محتاجون إليه لايستغنى عنه أحد منهم . قال أبو صالح : يسأله أهل السموات المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعا . وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة وتسأل لهم الملائكة أيضا الرزق والمغفرة ، وكذا قال ابن جريج . وقيل يسألونه الرحمة . قال قتادة : لايستغنى عنه أهل السماء ولا أهل الأرض . والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال مايطلبونه من خيرى الدارين أو من خيرى إحداهما (كل يوم هو فى شأن) انتصاب كل بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، والتقدير : استقرّ سبحانه فى شأن كل وقت من الأوقات ، واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر ، ومن جملة شئونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض مايطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم . قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت ، ويرزق ويفقر ، ويعزّ ويذلّ ، ويمرض ويشفى ، ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لايحصى . وقيل المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة . قال ابن بحر : الدّهر كله يومان : أحدهما مدّة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة . وقيل المراد كل يوم من أيام الدنيا (فبأىّ آلاء ربكما تكذّبان) فإن اختلاف شئونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لايمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذّب تكذيبها (سنفرغ لكم أيه الثقلان) هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجنّ والإنس . قال الزجاج والكسائى وابن الأعرابى وأبو على الفارسى : إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل ، ولكن تأويله القصد : أى سنقصد لحسابكم . قال الواحدى حاكيا عن المفسرين : إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده ، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك أى أقصد قصدك ، وفرغ يجىء بمعنى قصد ، وأنشد ابن الأنبارى قول الشاعر :

الآن وقد فرغت إلى نمير فهذا حين كنت له عذابا

يريد وقد قصدت ، وأنشد النحاس قول الشاعر : * فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل * أى قصدت ، وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرغ لكم مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد ، ويكون الكلام على طريق التمثيل . قرأ الجمهور « سنفرغ » بالنون

وضم الراء ، وقرأ حمزة والكسائي بالتحتية مفتوحة مع ضم الراء : أى سيفرغ الله ، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء . قال الكسائي : هى لغة تميم ، وقرأ عيسى الثقفى بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ الأعمش وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول ، وسمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض ، وقيل سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا كما فى قوله ـ وأخرجت الأرض أثقالها ـ وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب ، وجمع فى قوله « لكم » ثم قال « أيه الثقلان » لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع . قرأ الجمهور « أيه الثقلان » بفتح الهاء ، وقرأ أهل الشام بضمها (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته ، ويزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الذى هو النعيم فى الحقيقة (يامعشر الجن والإنس) قدم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدما على خلق آدم ، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ونواحيهما هربا من قضاء الله وقدره (فانفذوا) منها وخلصوا أنفسكم ، يقال نفذ الشىء من الشىء : إذا خلص منه كما يخلص السهم (لاتنفذون إلا بسلطان) أى لاتقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة ، والسلطان : القوة التى يتسلط بها صاحبها على الأمر ، والأمر بالنفوذ : أمر تعجيز . قال الضحاك : بينما الناس فى أسواقهم إذ انفتحت السماء ونزلت الملائكة فهرب الجن والإنس فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله ـ لاتنفذون إلا بسلطان ـ . قال ابن المبارك : إن ذلك يكون فى الآخرة . وقال الضحاك أيضا : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقيل إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان : أى ببينة من الله . وقال قتادة : معناها لا تنفذوا إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل الباء بمعنى إلى : أى لاتنفذون إلا إلى سلطان (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسىء عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة (يرسل عليكما شواظ من نار) قرأ الجمهور « يرسل » بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ زيد بن على بالنون ونصب « شواظ » والشواظ : اللهب الذى لادخان معه . وقال مجاهد : الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار . وقال الضحاك : هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقال الأخفش وأبوعمرو : هو النار والدخان جميعا . قرأ الجمهور : « شواظ » بضم الشين ، وقرأ ابن كثير بكسرها وهما لغتان ، وقرأ الجمهور (ونحاس) بالرفع عطفا على شواظ ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبوعمرو بخفضه عطفا على نار ، وقرأ الجمهور « نحاس » بضم النون ، وقرأ مجاهد وعكرمة وحميد وأبو العالية بكسرها . وقرأ مسلم بن جندب والحسن « ونحس » والنحاس : الصفر المذاب يصب على رءوسهم ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقال سعيد بن جبير : هو الدخان الذى لا لهب له ، وبه قال الخليل . وقال الضحاك : هو دردى الزيت المغلى . وقال الكسائي هو النار التى لها ريح شديدة ، وقيل هو المهل (فلا تنتصران) أى لاتقدران على الامتناع من عذاب الله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذا الوعيد الذى يكون به الانزجار عن الشر والرغوب فى الخير (فإذا انشقت السماء) أى انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة (فكانت وردة كالدهان) أى كوردة حمراء . قال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء ، وقيل فكانت كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذى يضرب إلى الحمرة أو الصفرة . قال الفراء وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدة حر النار . وقال الفراء أيضا : شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل ، وشبه الورد فى ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، والدهان جمع دهن ، وقيل المعنى

تصير السماء فى حمرة الورد ، وتجرى كالدهن : أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لذوبانها ، وقيل الدهان الجلد الأحمر . وقال الحسن كالدهان : أى كصبيب الدهن ، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا . وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت . قال الزجاج : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر . قال الماوردى : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق (فبأىّ آلاء ربكما تكذّبان) فإن من جملتها ما فى هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشرّ (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ) أى يوم تنشقّ السماء لايسأل أحد من الإنس ولا من الجنّ عن ذنبه ، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، والجمع بين هذه الآية وبين مثل قوله ـ فوربك لنسألنهم أجمعين ـ أن ماهنا يكون فى موقف والسؤال فى موقف آخر من مواقف القيامة : وقيل إنهم لايسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم ، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد ، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع ، ومثل هذه الآية قوله ـ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ـ قال أبو العالية : المعنى لايسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقيل إن عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو فى موقف الحساب (فبأىّ آلاء ربكما تكذّبان) فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة مايترتب عليه من الفوائد (يعرف المجرمون بسيماهم) هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال . السيما : العلامة . قال الحسن : سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين ، كما فى قوله ـ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ـ وقال ـ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ـ وقيل سيماهم مايعلوهم من الحزن والكآبة (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) الجار والمجرور فى محل رفع على أنه النائب ، والنواصى شعور مقدم الرءوس ، والمعنى : أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصى ، وتلقيهم الملائكة فى النار . قال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه فى سلسلة من وراء ظهره ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرّهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرّهم على رءوسهم (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد والوعيد البالغ الذى ترجف له القلوب وتضطرب لهوله الأحشاء (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) أى يقال لهم عند ذلك هذه جهنم التى تشاهدونها وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لاتكون ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصى والأقدام . فقيل يقال لهم هذه جهنم تقريعا لهم وتوبيخا (يطوفون بينها) أى بين جهنم فتحرقهم (وبين حميم آن) فتصبّ على وجوههم ، والحميم : الماء الحارّ ، والآن : الذى قد انتهى حرّه وبلغ غايته . كذا قال الفراء . قال الزجاج : أنى يأنى أنى فهو آن : إذا انتهى فى النضج والحرارة ، ومنه قول النابغة الذبيانى :

وتخضب لحية غدرت وخانت ... بأحمر من نجيع الجوف آن

وقيل هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فيغمسون فيه . قال قتادة : يطوفون مرّة فى الحميم ومرّة بين الجحيم (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف وما يحصل به من الترغيب فى الخير والترهيب عن الشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (ذو الجلال والإكرام) قال : ذو الكبرياء والعظمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (يسأله من فى السموات) قال : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو فى ذلك . وأخرج الحسن بن سفيان فى مسنده والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن منده وابن مردويه

وأبو نعيم وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال « تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (كل يوم هو فى شأن) فقلنا : يارسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنبا ويفرّج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن ماجه وابن أبى عاصم والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه وابن عساكر والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » زاد البزار « ويجيب داعيا » وقد رواه البخارى تعليقا ، وجعله من كلام أبى الدرداء . وأخرج البزار عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال : يغفر ذنبا ويفرج كربا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (سنفرغ لكم أيه الثقلان) قال : هذا وعيد من الله لعباده ، وليس بالله شغل ، وفى قوله (لاتنفذون إلا بسلطان) يقول : لاتخرجون من سلطانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (يرسل عليكما شواظ من نار) قال : لهب النار (ونحاس) قال : دخان النار . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ونحاس : قال الصفر يعذبون به . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (فكانت وردة) يقول حمراء (كالدهان) قال : هو الأديم الأحمر . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فكانت وردة كالدهان) قال : مثل لون الفرس الورد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) قال : لايسألهم هل عملتم كذا وكذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم لم عملتم كذا وكذا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث والنشور عنه أيضا فى قوله (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (وبين حميم آن) قال : هو الذى انتهى حرّه .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ

وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨) .

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التى أنعم بها عليهم : فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) مقامه سبحانه هو الموقف الذى يقف فيه العباد للحساب ، كما فى قوله ـ يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ فالمقام مصدر بمعنى القيام ، وقيل المعنى خاف قيام ربه عليه ، وهو إشرافه على أحواله واطلاعه على أفعاله وأقواله كما فى قوله ـ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ قال مجاهد والنخعى : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

واختلف فى الجنتين ، فقال مقاتل : يعنى جنة عدن وجنة النعيم ، وقيل إحداهما التى خلقت له والأخرى ورثها . وقيل إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه . وقيل إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقيل جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنىّ ، وقيل جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية ، وقيل جنة للعقيدة التى يعتقدها ، وأخرى للعمل الذى يعمله ، وقيل جنة بالعمل وجنة بالتفضل ، وقيل جنة روحانية وجنة جسمانية ، وقيل جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، وقال الفرّاء : إنما هى جنة واحدة ، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآى . قال النحاس : وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله ، فإن الله يقول (جنتان) ويصفهما بقوله فيهما فيهما الخ (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة ، وهى إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة (ذواتا أفنان) هذه صفة للجنتان ، وما بينهما اعتراض ، والأفنان الأغصان ، واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طولا ، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم . وقال الزجاج : الأفنان الألوان واحدها فنّ ، وهو الضرب من كل شىء ، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير ، وجمع عطاء بين القولين ، فقال فى كلّ غصن فنون من الفاكهة ، ومن إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة :

دعاء حمامة تدعو هديلا مفجعة على فنن تغنى

وقول الآخر : ماهاج شوقك من هدير حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وقيل معنى (ذواتا أفنان) ذواتا فضل وسعة على ماسواهما ، قاله قتادة ، وقيل الأفنان : ظلّ الأغصان على الحيطان ، روى هذا عن مجاهد وعكرمة (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار (فيهما عينان تجريان) هذا أيضا صفة أخرى لجنتان : أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال الحسن : إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، قيل كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعمة

الكائنة فى الجنة لأهل السعادة (فيهما من كلّ فاكهة زوجان) هذا صفة ثالثة لجنتان ، والزوجان الصنفان والنوعان ، والمعنى : أن فى الجنتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين يستلذ بكلّ نوع من أنواعه ، قيل أحد الصنفين رطب والآخر يابس لايقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل والطيب (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن فى مجرّد تعداد هذه النعم ووصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير والترهيب عن فعل الشرّ مالا يخفى على من يفهم ، وذلك نعمة عظمى ومنة كبرى ، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله (ولمن خاف) وإنما جمع حملا على معنى من ، وقيل عاملها محذوف ، والتقدير : يتنعمون متكئين . وقيل منصوب على المدح ، والفرش جمع فرش ، والبطائن : هى التى تحت الظهائر ، وهى جمع بطانة . قال الزجاج : هى مايلى الأرض ، والإستبرق : ماغلظ من الديباج ، وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه ـ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين ـ قيل إنما اقتصر على ذكر البطائن ، لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر . وقال الحسن : بطائنها من إستبرق وظهائرها من نور جامد . وقال الحسن : البطائن هى الظهائر ، وبه قال الفراء : وقال : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة ، لأن كلّ واحد منهما يكون وجها ، والعرب تقول هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذى نراه ، وأنكر ابن قتيبة هذا ، وقال لايكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين (وجنى الجنتين دان) مبتدأ وخبر ، والجنى : مايجتنى من الثمار ، قيل إن الشجرة تدنو حتّى يجنيها من يريد جناها ، ومنه قول الشاعر :

هذا جناى وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

قرأ الجمهور « فرش » بضمتين وقرأ أبوحيوة بضمة وسكون ، وقرأ الجمهور « جنى » بفتح الجيم ، وقرأ عيسى ابن عمر بكسرها ، وقرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها بموضع لايتيسر لمكذب أن يكذب بشىء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة (فيهنّ قاصرات الطرف) أى فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال فيهنّ ، لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل فيهنّ : أى فى الفرش التى بطائنها من إستبرق ، ومعنى (قاصرات الطرف) أنهنّ يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لاينظرن إلى غيرهم ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة الصافات (لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ) قال الفراء : الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية ، يقال طمث الجارية : إذا افترعها . قال الواحدى : قال المفسرون لم يطأهن ولم يغشهنّ ولم يجامعهنّ قبلهم أحد . قال مقاتل : لأنهن خلقن فى الجنة ، والضمير فى قبلهم يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف ، وقيل يعود إلى متكئين ، والجملة فى محل رفع صفة لقاصرات ، لأن إضافتها لفظية ، وقيل الطمث المسّ : أى لم يمسسهنّ قاله أبوعمرو . وقال المبرد : أى لم يذللهنّ ، والطمث التذليل ، ومن استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق :

دفعن إلىّ لم يطمثن قبلى وهنّ أصحّ من بيض النعام

قرأ الجمهور « يطمثهنّ » بكسر الميم ، وقرأ الكسائى بضمها ، وقرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف بفتحها ، وفى هذه الآية بل فى كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه وعملوا بفرائضه وانتهوا عن مناهيه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن فى مجرّد هذا الترغيب فى هذه النعم نعمة جليلة ومنة عظيمة ،

لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة والفرار من الأعمال الطالحة فكيف بالوصول إلى هذه النعم والتنعم بها فى جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال (كأنهن الياقوت والمرجان) هذا صفة لقاصرات ، أو حال منهن ، شبههن سبحانه فى صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان ، والياقوت هو الحجر المعروف ، والمرجان قد قدّمنا الكلام فيه فى هذه السورة على الخلاف فى كونه صغار الدرّ ، أو الأحمر المعروف . قال الحسن : هنّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ ، لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، والمعنى ما جزاء من أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة ، كذا قال ابن زيد وغيره . قال عكرمة : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ، وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت إليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد . قال الرازى : فى هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل : إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول : إحداها قوله تعالى - فاذكرونى أذكركم - وثانيها - وإن عدتم عدنا - وثالثها (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) . قال محمد بن الحنفية : هى للبرّ والفاجر : البرّ فى الآخرة ، والفاجر فى الدنيا (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها الإحسان إليكم فى الدنيا والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح والزجر عن العمل الذى لا يرضاه (ومن دونهما جنتان) أى ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدّمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة ، ومعنى من دونهما : أى من أمامهما ومن قبلهما : أى هما أقرب منهما وأدنى إلى العرش ، وقيل الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج : هى أربع جنات : جنتان منهما للسابقين المقرّبين - فيهما من كلّ فاكهة زوجان - وعينان تجريان ، وجنتان لأصحاب اليمين - فيهما فاكهة ونخل ورمان - و - فيهما عينان نضاختان : قال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقرّبين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها حقّ ونعم لا يمكن جحدها . ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال (مدهامتان) وما بينهما اعتراض . قال أبو عبيدة والزجاج : من خضرتهما قد اسودّتا من الرى ، وكل ما علاه السواد ريا فهو مدهم . قال مجاهد : مسودّتان ، والدهمة فى اللغة : السواد ، يقال فرس أدهم وبعير أدهم : إذا اشتدّت ورقته حتى ذهب البياض الذى فيه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر (فيهما عينان نضاختان) النضخ فوران الماء من العين ، والمعنى : أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين . قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة . قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رشّ المطر . وقال سعيد بن جبير : إنها تنضخ بأنواع الفواكه والماء (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإنها ليست بموضع للتكذيب ولا بمكان للجحد (فيهما فاكهة ونخل ورمان) هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا ، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهرى وغيرهما . وقيل إنما خصهما لكثرتهما فى أرض العرب ، وقيل خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعم التى فى جنات النعيم ، ومجرّد الحكاية لما تأثر فى نفوس السامعين وتجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين (فيهنّ خيرات حسان) قرأ الجمهور « خيرات »

بالتخفيف ، وقرأ قتادة وابن السميفع وأبو رجاء العطاردى وبكر بن حبيب السهمى وابن مقسم والنهدى بالتشديد؛ فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين ، يقال امرأة خيرة وأخرى شرّة ، أو جمع خيرة مخفف خيرة ، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد . قال الواحدى : قال المفسرون : الخيرات النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه . قيل وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ، ولا وجه لهذا فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف ـ كأنهنّ الياقوت والمرجان ـ وبين الصفتين بون بعيد (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن شيئا منها كائنا ما كان لايقبل التكذيب (حور مقصورات فى الخيام) أى محبوسات ، ومنه القصر ، لأنه يحبس من فيه ، والحور جمع حوراء وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها ، وقد تقدّم بيان معنى الحوراء والخلاف فيه . وقيل معنى مقصورات : أنهنّ قصرن على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم ، وحكاه الواحدى عن المفسرين . والأوّل أولى ، وبه قال أبو عبيدة ومقاتل وغيرهما . قال فى الصحاح : قصرت الشىء أقصره قصرا حبسته ، والمعنى : أنهنّ خدّرن فى الخيام . والخيام جمع خيمة ، وقيل جمع خيم ، والخيم جمع خيمة ، وهى أعواد تنصب وتظلل بالثياب ، فتكون أبرد من الأخبية ، قيل الخيمة من خيام الجنة درّة مجوّفة فرسخ فى فرسخ ، وارتفاع حور على البدلية من خيرات (لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان) قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأوليين (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها نعم لاتكفر ومنن لاتجحد (متكئين على رفرف خضر) انتصاب متكئين على الحال أو المدح كما سبق ، قال أبو عبيدة : الرّفارف البسط ، وبه قال الحسن ومقاتل والضحاك وغيرهم . وقال ابن عيينة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان : هى المرافق . وروى عن أبى عبيدة أنه قال : هى حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر وقيل الفرش المرتفعة ، وقيل كل ثوب عريض . قال فى الصحاح : والرّفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس ، الواحدة رفرفة . وقال الزجاج : قالوا الرّفرف هنا رياض الجنة ، وقالوا الرّفرف الوسائد ، وقالوا الرّفرف المحابس اهـ . ومن القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ : إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر ، وهى تحريك جناحيه فى الهواء . قرأ الجمهور « رفرف » على الإفراد . وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى « رفارف » على الجمع (وعبقرىّ حسان) العبقرىّ الزرابى ، والطنافس الموشية . قال أبوعبيدة : كل وشى من البسط عبقرىّ ، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى . قال الفرّاء : العبقرىّ الطنافس الثمان ، وقيل الزرابى ، وقيل البسط ، وقيل الديباج . قال ابن الأنبارى : الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق . قال الخليل : العبقرىّ عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء ، ومنه قول زهير :

تخيّل عليها جنّة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

قال الجوهرىّ : العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ . قال لبيد * كهول وشبان كجنة عبقرىّ * ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا عبقرىّ ، وهو واحد وجمع . قرأ الجمهور « عبقرىّ » وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى « عباقرىّ » وقرئ « عباقر » وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد . وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسىّ وكراسى وبختى وبخاتى . قرأ الجمهور « خضر » بضم الخاء وسكون الضاد ، وقرئ بضمهما وهى لغة قليلة (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرّق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر ، وقد قدّمنا فى أوّل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) تبارك تفاعل من البركة . قال الرّازى : وأصل التبارك من التبرّك ، وهو الدوام والثبات ، ومنه برك البعير وبركه الماء فإن الماء يكون دائما ، والمعنى : دام اسمه وثبت

أو دام الخير عنده ، لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير ، أو يكون معناه علا وارتفع شأنه . وقيل معناه : تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وإذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ وجلّ ، فما ظنك بذاته سبحانه ؟ وقيل الاسم بمعنى الصفة ، وقيل هو مقحم كما فى قول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقد تقدّم تفسير ذى الجلال والإكرام فى هذه السورة . قرأ الجمهور « ذى الجلال » على أنه صفة للربّ سبحانه . وقرأ ابن عامر « ذو الجلال » على أنه صفة لاسم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدّوا فرائضه الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف : من ركب طاعة الله وترك معصيته . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن عطاء أنها نزلت فى أبى بكر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال : لمن خافه فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن منيع والحاكم والترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدّرداء « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . الثانية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ، فقال الثالثة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : نعم وإن رغم أنف أبى الدّرداء » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقال أبو الدّرداء : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبى الدّرداء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبى الدّرداء فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : قيل لأبى الدّرداء : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق . وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك ، فقال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال أبو هريرة : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت : إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « جنات الفردوس أربع جنات : جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتّهما وأبنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وفى قوله (ومن دونهما جنتان) قال : جنتان من ذهب للمقرّبين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى موسى فى قوله ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ذواتا أفنان) قال : ذواتا ألوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : فنّ غصونها يمسّ بعضها بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : الفنّ الغصن . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقىّ فى البعث عن ابن مسعود فى قوله (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) قال : أخبرتم بالبطائن ،

فكيف بالظهائر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له بطائنها من إستبرق ، فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله ـ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ـ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيّ في البعث عنه في قوله (وجنى الجنتين دان) قال : جناها ثمرها ، والداني : القريب منك يناله القائم والقاعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيّ في البعث عنه أيضا في قوله (فيهنّ قاصرات الطرف) يقول : عن غير أزواجهنّ (لم يطمثهنّ) يقول : لم يدن منهنّ أو لم يدمهنّ . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « في قوله (كأنهنّ الياقوت والمرجان) قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوبا وينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك » . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السريّ والترمذيّ وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول : كأنهنّ الياقوت والمرجان ، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه » وقد رواه الترمذى موقوفا وقال هو أصحّ . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيّ في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « في قوله (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) قال : ماجزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » . وأخرج الحكيم الترمذيّ في نوادر الأصول ، والبغويّ في تفسيره ، والديلمي في مسند الفردوس ، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا في الآية قال : «هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة » . وأخرج ابن النجار في تاريخه عن عليّ بن أبي طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ـ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ـ قال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة . وأخرج ابن عديّ وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي والبيهقيّ في الشعب وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنزل الله عليّ هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . وأخرجه ابن مردويه موقوفا على ابن عباس . وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (مدهامتان) قال : هما خضراوان . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : قد اسودّتا من الخضرة من الريّ من الماء . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (مدهامتان) قال : خضراوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (نضاختان) قال : فائضتان . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ينضخان بالماء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (خيرات حسان) قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لا مراحات ولا طماحات ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حور) قال : بيض (مقصورات) قال : محبوسات (في الخيام) قال : في بيوت اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن

أبى حاتم قال : الحور سود الحدق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « الخيام درّ مجوّف » . وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم « الخيمة درّة مجوّفة طولها فى السماء ستون ميلا ، فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لايراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن » . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (متكئين على رفرف) قال : فضول المحابس والفرش والبسط . وأخرج عبد بن حميد عن علىّ بن أبى طالب قال : هى فضول المحابس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن عباس (رفرف خضر) قال : المحابس (وعبقرىّ حسان) قال : الزرابى . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : الرّفرف الرّياض ، والعبقرىّ الزرابى .

تفسير سورة الواقعة

هى سبع وتسعون ، أو ست وتسعون آية

وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وقال الكلبى : إنها مكية إلا أربع آيات منها ، وهى (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون) وقوله (ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين) . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الواقعة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن الضريس والحارث بن أبى أسامة وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « سورة الواقعة سورة الغنى ، فاقرءوها وعلموها أولادكم » . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى » ، وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وآله وسلم « شيبتنى هود والواقعة » اهـ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ (٩) وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) .

قوله (إذا وقعت الواقعة) الواقعة اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت واقعة لأنها كائنة لامحالة ، أو لقرب وقوعها ، أو لكثرة مايقع فيها من الشدائد ، وانتصاب إذا بمضمر : أى اذكر وقت وقوع الواقعة ، أو بالنفى المفهوم من قوله (ليس لوقعتها كاذبة) أى لايكون عند وقوعها تكذيب ، والكاذبة مصدر كالعاقبة : أى ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلا ، وقيل إذا شرطية وجوابها مقدّر : أى إذا وقعت كان كيت وكيت ، والجواب هذا هو العامل فيها ، وقيل إنها شرطية ، والعامل فيها الفعل الذى بعدها ، واختار هذا أبو حيان ، وقد سبقه إلى هذا مكىّ فقال : والعامل وقعت . قال المفسرون : والواقعة هنا هى النفخة الآخرة ، ومعنى الآية : أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا ، أو لايكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة . قال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة : أى لايردّها شىء ، وبه قال الحسن وقتادة . وقال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها . وقال الكسائى : ليس لها تكذيب : أى لاينبغى أن يكذب بها أحد (خافضة رافعة) قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدإ : أى هى خافضة رافعة . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى بنصبهما على الحال . قال عكرمة والسدّى ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى ؛ أى أسمعت القريب والبعيد . وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله ، ورفعت أقواما إلى طاعة الله . وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين ، والعرب تستعمل الخفض والرفع فى المكان والمكانة والعزّ والإهانة ، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخافض والرّافع فى الحقيقة هو الله سبحانه (إذا رجت الأرض رجا) أى إذا حرّكت حركة شديدة ، يقال رجه يرجه رجا إذا حرّكه ، والرّجة الاضطراب ، وارتجّ البحر اضطرب . قال المفسرون : ترتجّ كما يرتجّ الصبىّ فى المهد حتى ينهدم كل ماعليها وينكسر كل شىء من الجبال وغيرها . قال قتادة ومقاتل ومجاهد : معنى رجت زلزلت ، والظرف متعلق بقوله « خافضة رافعة » أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك يرتفع ماهو منخفض وينخفض ماهو مرتفع . وقيل إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رجّ الأرض ، وبس الجبال (وبست الجبال بسا) البس : الفت ، يقال : بس الشىء إذا فته حتى يصير فتاتا ، ويقال بس السويق : إذا لته بالسمن أو بالزيت . قال مجاهد ومقاتل : المعنى أن الجبال فتتت فتا . وقال السدّى : كسرت كسرا . وقال الحسن : قلعت من أصلها . وقال مجاهد أيضا : بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت ، والمعنى : أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت . وقال أبوزيد : البسّ السوق ، والمعنى على هذا : سيقت الجبال سوقا ؛ قال أبو عبيد : بسّ الإبل وأبسها لغتان : إذا زجرها . وقال عكرمة : المعنى هدّت هدّا (فكانت هباء منبثا) أى غبارا متفرّقا منتشرا . قال مجاهد : الهباء الشعاع الذى يكون فى الكوّة كهيئة الغبار ، وقيل هو الرّهج الذى يسطع من حوافر الدّواب ثم يذهب ، وقيل ماتطاير من النار إذا اضطرمت على

سورة الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا ، وقد تقدّم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله ـ فجعلناه هباء منثورا ـ قرأ الجمهور « منبثا » بالمثلثة . وقرأ مسروق والنخعى وأبوحيوة بالتاء المثناة من فوق : أى منقطعا ، من قولهم بته الله : أى قطعه . ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال (وكنتم أزواجا ثلاثة) والخطاب لجميع الناس أو للأمة الحاضرة ، والأزواج الأصناف ، والمعنى : وكنتم فى ذلك اليوم أصنافا ثلاثة . ثم فسر سبحانه هذه الأصناف فقال (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى أصحاب اليمين ، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب الميمنة مبتدأ ، وخبره : ما أصحاب الميمنة : أى أىّ شىء هم فى حالهم وصفتهم ، والاستفهام للتعظيم والتفخيم ، وتكرير المبتدإ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرّابط ، كما فى قوله ـ الحاقة ما الحاقة ـ ـ والقارعة ما القارعة ـ ولا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم والتعظيم (و) الكلام فى (أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) كالكلام فى أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، والمراد الذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم ، والمراد تعجيب السامع من حال الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة فى نهاية السعادة وحسن الحال ، وأصحاب المشأمة فى نهاية الشقاوة وسوء الحال . وقال السدّى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله . وقال زيد ابن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة . وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر ، والعرب تقول : اجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك : أى اجعلنى من المتقدّمين ولا تجعلنى من المتأخرين ، ومنه قول ابن الدمينة :

أبنيتى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال (والسابقون السابقون) والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم كما مرّ فى القسمين الأوّلين ، كما تقول أنت أنت وزيد زيد ، والسابقون مبتدأ ، وخبره السابقون . وفيه تأويلان : أحدهما أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك . والثانى أن متعلق السابقين مختلف ، والتقدير : والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة . والأوّل أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم . قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كلامه . وقال محمد بن كعب : إنهم الأنبياء . وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد ، وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هم السابقون إلى التوبة وأعمال البرّ . وقال الزجاج : المعنى والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله . قيل ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به مابعده ، وهو قوله (أولئك المقرّبون فى جنات النعيم) فالإشارة هى إليهم : أى المقرّبون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته ، أو الذين قربت درجاتهم وأعليت مراتبهم عند الله . وقوله « فى جنات النعيم » متعلق بالمقربون : أى مقرّبون عند الله فى جنات النعيم . ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك ، وأن يكون حالا من الضمير فى المقربون : أى كائنين فيها . قرأ الجمهور « فى جنات » بالجمع ، وقرأ طلحة بن مصرف « فى جنة » بالإفراد ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى مايكون فيه كما يقال : دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل ، وارتفاع (ثلة من الأوّلين) على أنه خبر مبتدإ محذوف : أي

هم ثلة ، والثلة الجماعة التى لايحصر عددها . قال الزجاج : معنى ثلة معنى فرقة ، من ثللت الشيء : إذا قطعته ، والمراد بالأوّلين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم (وقليل من الآخرين) أى من هذه الأمة ، وسموا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا . قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوا بهم أكثر ممن عاين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يخالف هذا ماثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، ثم قال : نصف أهل الجنة » لأن قوله « ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين » إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم ، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة ، والمقابلة بين الثلتين فى أصحاب اليمين لاتستلزم استواءهما لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة ، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور . ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال (على سرر موضونة) قرأ الجمهور « سرر » بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك وزيد بن عليّ بفتح الراء ، وهى لغة كما تقدّم ، والموضونة المنسوجة ، والوضن : النسج المضاعف . قال الواحدى : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب ، وقيل مشبكة بالدرّ والياقوت والزبرجد ، وقيل إن الموضونة المصفوفة . وقال مجاهد: الموضونة المرمولة بالذهب، وانتصاب (متكئين عليها) على الحال ، وكذا انتصاب (متقابلين) والمعنى : مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لاينظر بعضهم قفا بعض (يطوف عليهم ولدان مخلدون) الجملة فى محل نصب على الحال من المقربين ، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى يدور حولهم للخدمة غلمان لايهرمون ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائما . قال مجاهد : المعنى لايموتون . وقال الحسن والكلبى : لايهرمون ولا يتغيرون . قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط إنه لمخلد . وقال سعيد بن جبير : مخلدون مقرطون . قال الفراء : ويقال مخلدون مقرطون ، يقال خلد جاريته : إذا حلاها بالخلدة ، وهى القرطة . وقال عكرمة : مخلدون منعمون ، ومنه قول امرئ القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد　　　قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل مستورون بالحلية ، وروى نحوه عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما　　　أعجازهنّ أقاوز الكثبان

وقيل مخلدون ممنطقون ، قيل وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة ، وقيل هم أطفال المشركين، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين فى الجنة للقيام بهذه الخدمة ، والأكواب : هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها فى سورة الزخرف ، والأباريق : هى ذات العرى والخراطيم ، واحدها إبريق ، وهو الذى يبرق لونه من صفائه (وكأس من معين) أى من خمر جارية أو من ماء جار ، والمراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس فى سورة الصافات (لايصدّعون عنها) أى لاتتصدّع رءوسهم من شربها كما تتصدّع من شرب خمر الدنيا . والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الإنسان

فى رأسه ، وقيل معنى لايصدعون لايتفرقون كما يتفرق الشرّاب ، ويقوّى هذا المعنى قراءة مجاهد « يصدعون » بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون : أى يتفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم ، أو فى محل نصب على الحال ، وجملة (ولا ينزفون) معطوفة على الجملة التى قبلها ، وقد تقدم اختلاف القراء فى هذا الحرف فى سورة الصافات ، وكذلك تقدّم تفسيره : أى لايسكرون فتذهب عقولهم ، من أنزف الشارب : إذا نفد عقله أو شرابه ، ومنه قول الشاعر :

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

(وفاكهة مما يتخيرون) أى يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء : إذا أخذت خيره . قرأ الجمهور « وفاكهة » بالجر (و) كذا (لحم) عطفا على أكواب : أى يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به . وقرأ زيد ابن علىّ وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء ، والخبر مقدّر : أى ولهم فاكهة ولحم ، ومعنى (مما يشتهون) مما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) قرأ الجمهور « حور عين » برفعهما عطفا على ولدان أو على تقدير مبتدأ : أى نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر : أى ولهم حور عين ، وقرأ حمزة والكسائى : بجرّهما عطفا على أكواب . قال الزجاج : وجائز أن يكون معطوفا على جنات : أى هم فى جنات وفى حور على تقدير مضاف محذوف : أى وفى معاشرة حور . قال الفراء : فى توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الإتباع فى اللفظ وإن اختلفا فى المعنى ، لأن الحور لايطاف بهنّ ، كما فى قول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

والعين لاتزجج وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر : * علفتها تبنا وماء باردا * وقول الآخر : * متقلدا سيفا ورمحا * قال قطرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور : ويكون لهم فى ذلك لذة . وقرأ الأشهب العقيلى والنخعى وعيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل ، كأنه قيل : ويزوّجون حورا عينا ، أو ويعطون ، ورجح أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور . ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذى لم تمسه الأيدى ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد مايكون صفاء ، وانتصاب جزاء فى قوله (جزاء بما كانوا يعملون) على أنه مفعول له : أى يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم . ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف : أى يجزون جزاء ، وقد تقدّم تفسير الحور العين فى سورة الطور وغيرها (لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما) اللغو الباطل من الكلام ، والتأثيم النسبة إلى الإثم . قال محمد بن كعب : لايؤثم بعضهم بعضا ، وقال مجاهد : لايسمعون شتما ولا مأثما ، والمعنى : أنه لايقول بعضهم لبعضهم أثمت لأنهم لايتكلمون بما فيه إثم (إلا قيلا سلاما سلاما) القيل القول ، والاستثناء منقطع : أى لكن يقولون قيلا ، أو يسمعون قيلا ، وانتصاب سلاما سلاما على أنه بدل من قيلا ، أو صفة له ، أو هو مفعول به لقيلا : أى إلا أن يقولوا سلاما سلاما ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بقيلا : أى إلا قيلا سلموا سلاما سلاما ، والمعنى فى الآية : أنهم لايسمعون إلا تحية بعضهم لبعض . قال عطاء : يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، وقيل إن الاستثناء متصل وهو بعيد ، لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأثيم ، قرئ « سلام سلام » بالرفع . قال مكى : ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (إذا

وقعت الواقعة) قال : يوم القيامة (ليس لوقعتها كاذبة) قال : ليس لها مردّ يردّ (خافضة رافعة) قال : تخفض ناسا وترفع آخرين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه (خافضة رافعة) قال : أسمعت القريب والبعيد . وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب (خافضة رافعة) قال : الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياء الله إلى الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (إذا رجت الأرض رجا) قال : زلزلت (وبست الجبال بسا) قال : فتتت (فكانت هباء منبثا) قال : شعاع الشمس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (فكانت هباء منبثا) قال : الهباء الذى يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الهباء ما يثور مع شعاع الشمس ، وانبثاثه تفرقه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبي طالب قال : الهباء المنبث رهج الدواب ، والهباء المنثور غبار الشمس الذى تراه فى شعاع الكوّة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (وكنتم أزواجا) قال : أصنافا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى قوله (وكنتم أزواجا ثلاثة) قال : هى التى فى سورة الملائكة ـ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ـ . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله (والسابقون السابقون) قال : يوشع بن نون سبق إلى موسى ، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى ، وعلىّ بن أبي طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذى ذكر فى يس ، وعلىّ بن أبي طالب ، وكل رجل منهم سابق أمته ، وعلىّ أفضلهم سبقا . وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية (وأصحاب اليمين ـ وأصحاب الشمال) فقبض بيديه قبضتين فقال : هذه فى الجنة ولا أبالى ، وهذه فى النار ولا أبالى » . وأخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوا ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت (ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين) شقّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين) فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثانى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن ابن عباس (على سرر موضونة) قال : مصفوفة . وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى البعث عنه . قال : مرمولة بالذهب . وأخرج ابن أبي الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا » . وأخرج أحمد والترمذى والضياء عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة ، فقال أبو بكر : يارسول الله إن هذه الطير لناعمة ، قال : آكلها أنعم منها ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (كأمثال اللؤلؤ المكنون) قال : الذى فى الصدف . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (لا يسمعون فيها لغوا) قال : باطلا (ولا تأثيما) قال : كذبا

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩)

وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)
وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)
لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ
مَا أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا
كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦)
وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨)
قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا
ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣)
فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين وما أعدّه لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام ، وما فى هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم والتعظيم ، وهى خبر المبتدإ ، وهو أصحاب اليمين ، وقوله (فى سدر مخضود) خبر ثان أو خبر مبتدإ محذوف : أى هم فى سدر مخضود ، والسدر نوع من الشجر ، والمخضود الذى خضد شوكه : أى قطع فلا شوك فيه . قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق فى الجنان ظليلة   فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود الموقر حملا (وطلح منضود) قال أكثر المفسرين : إن الطلح فى الآية هو شجر الموز . وقال جماعة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب . قال الفراء وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك . قال الزجاج : الطلح هو أمّ غيلان ، ولها نور طيب ، فخوطبوا ووعدوا مايحبون ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . قال : ويجوز أن يكون فى الجنة وقد أزيل شوكه . قال السدى : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا : لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : المتراكب الذى قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة . قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيد ثمر كله ، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها (وظل ممدود) أى دائم باق لايزول ولا تنسخه الشمس . قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شىء طويل لاينقطع ممدود ، ومنه قوله - ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل - والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظلّ العرش ، ومن استعمال العرب للممدود فى الدائم الذى لاينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلب   دهر طويل دائم ممدود

(وماء مسكوب) أى منصبٌ يجرى بالليل والنهار أينما شاءوا لاينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبه الله فى مجاريه ، وأصل السكب الصبّ ، يقال سكبه سكبا : أى صبه (وفاكهة كثيرة) أى ألوان متنوعة متكثرة (لا مقطوعة) فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات (ولا ممنوعة) أى لاتمتنع على من أرادها فى أى وقت على أىّ صفة ، بل هى معدّة لمن أرادها لايحول بينه وبينها حائل . قال ابن قتيبة : يعنى أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا (وفرش مرفوعة) أى مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرّة . وقيل إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال (إنا أنشأناهن إنشاء) أى خلقناهنّ خلقا جديدا من غير توالد ، وقيل المراد نساء بنى آدم ، والمعنى : أن الله سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدّم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر (فجعلناهنّ أبكارا) ـ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ ـ (عربا أترابا) العرب جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها . قال المبرد : هى العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد :

وفى الحباء عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى ضوؤها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هى الحسنة الكلام . قرأ الجمهور بضم العين والراء . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وهما لغتان فى جمع فعول ، والأتراب : هنّ اللواتى على ميلاد واحد وسنّ واحد . وقال مجاهد : أترابا أمثالا وأشكالا . وقال السدّى : أترابا فى الأخلاق لاتباغض بينهن ولا تحاسد . قوله (لأصحاب اليمين) متعلق بأنشأناهن أو بجعلنا أو بأترابا ، والمعنى : أن الله أنشأهنّ لأجلهم أو خلقهنّ لأجلهم أوهنّ مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ ، أو هو خبر لمبتدإ محذوف : أى هنّ لأصحاب اليمين (ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين) هذا راجع إلى قوله (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أى هم ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين ، والمعنى : أنهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأوّلين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك : ثلة من الأوّلين . يعنى من سابقى هذه الأمة ، وثلة من الآخرين من هذه الأمة من آخرها . ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال وما أعدّه لهم فقال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) الكلام فى إعراب هذا وما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين ، وقوله (فى سموم وحميم) إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدإ محذوف ، والسموم : حرّ النار ، والحميم : الماء الحارّ الشديد الحرارة ، وقد سبق بيان معناه . وقيل السموم : الريح الحارة التى تدخل فى مسامّ البدن (وظلّ من يحموم) اليحموم يفعول من الأحم : وهو الأسود ، والعرب تقول أسود يحموم : إذا كان شديد السواد ، والمعنى : أنهم يفزعون إلى الظلّ فيجدونه ظلا من دخان جهنم شديد السواد . وقيل وهو مأخوذ من الحم وهو الشحم المسودّ باحتراق النار . وقيل مأخوذ من الحمم وهو الفحم . قال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل مافيها أسود . ثم وصف هذا الظلّ بقوله (لا بارد ولا كريم) أى ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة ، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم . قال سعيد بن المسيب : ولا كريم : أى ليس فيه حسن منظر وكلّ مالاخير فيه فليس بكريم وقال الضحاك : ولا كريم ولا عذب . قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعا لكلّ شىء نفت عنه وصفا تنوى

به الذم، تقول : ماهو بسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة . ثم ذكر سبحانه أعمالهم التى استحقوا بها هذا العذاب فقال (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) وهذه الجملة تعليل لما قبلها : أى إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين فى الدنيا : أى منعمين بما لايحل لهم ، والمترف المتنعم . وقال السدى : مشركين ، وقيل متكبرين ، والأول أولى (وكانوا يصرّون على الحنث العظيم) الحنث الذنب: أى يصرون على الذنب العظيم . قال الواحدى : قال أهل التفسير : عنى به الشرك : أى كانوا لايتوبون عن الشرك . وبه قال الحسن والضحاك وابن زيد . وقال قتادة ومجاهد : هو الذنب العظيم الذى لايتوبون عنه . وقال الشعبى : هو اليمين الغموس ، (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) الهمزة فى الموضعين للإنكار والاستبعاد ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى الصافات ، وفى سورة الرعد ، والمعنى : أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، وقد صاروا عظاما وترابا ، والمراد أنه صار لحمهم وجلودهم ترابا وصارت عظامهم نخرة بالية ، والعامل فى الظرف مايدلّ عليه مبعوثون ، لأن ما بعد الاستفهام لايعمل فيما قبله : أى انبعث إذا متنا ؟ الخ (أو آباؤنا الأوّلون) معطوف على الضمير فى لمبعوثون لوقوع الفصل بينهما بالهمزة ، والمعنى : أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم ، وقرئ وآباؤنا . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويردّ استبعادهم فقال (قل إنّ الأوّلين والآخرين لمجموعون) أى قل لهم يامحمد إن الأوّلين من الأمم والآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث (إلى ميقات يوم معلوم) وهو يوم القيامة (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) هذا وما بعده من جملة ماهو داخل تحت القول ، وهو معطوف على « إن الأوّلين » ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين ، وهما الضلال عن الحقّ والتكذيب له (لآكلون من شجر من زقوم) أى لآكلون فى الآخرة من شجر كريه المنظر كريه الطعم ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات ، ومن الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة ، والثانية بيانية ، وأن تكون الثانية مزيدة ، والأولى للابتداء (فمالئون منها البطون) أى مالئون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدّة الجوع (فشاربون عليه من الحميم) الضمير فى عليه عائد إلى الزقوم ، والحميم الماء الذى قد بلغ حرّه إلى الغاية ، والمعنى : فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ ، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكر ويؤنث . ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله « لآكلون » ، وقرئ « من شجرة » بالإفراد (فشاربون شرب الهيم) قرأ الجمهور « شرب الهيم » بفتح الشين ، وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضمها ، وقرأ مجاهد وأبو عثمان النهدى بكسرها ، وهى لغات . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم السين وفتحها وكسرها . قال المبرد : الفتح على أصل المصدر والضم اسم المصدر ، والهيم : الإبل العطاش التى لاتروى لداء يصيبها ، وهذه الجملة بيان لما قبلها : أى لايكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم التى تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهيم أهيم ، والأنثى هيماء . قال قيس بن الملوّح :

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسى مكان شفائيا

وقال الضحاك وابن عيينة والأخفش وابن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل ، والمعنى : أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثر . قال فى الصحاح : الهيام بالضم : أشد العطش ، والهيام كالجنون من العشق ، والهيام : داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لاترعى ، يقال ناقة هيماء ، والهيماء أيضا : المفازة لا ماء بها ، والهيام بالفتح : الرمل الذى لايتماسك فى اليد للينه ، والجمع هيم مثل قذال وقذل ، والهيام

بالكسر الإبل العطاش (هذا نزلهم يوم الدين) قرأ الجمهور «نزلهم» بضمتين ، وروى عن أبى عمرو وابن محيصن بضمة وسكون ، وقد تقدم أن النزل مايعدّ للضيف ، ويكون أوّل ما يأكله ، ويوم الدين يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، والمعنى : أن ماذكر من شجر الزقوم وشراب الحميم هو الذى يعدّ لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفى هذا تهكم بهم ، لأن النزل هو مايعدّ للأضياف تكرمة لهم ، ومثل هذا قوله ـ فبشرهم بعذاب أليم ـ .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقىّ عن أبى أمامة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابىّ يوما فقال : يارسول الله ذكر فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها : قال : وما هى ؟ قال : السدر فإن لها شوكا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أليس الله يقول (فى سدر مخضود ؟) يخضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام مامنها لون يشبه الآخر . وأخرج ابن أبى داود والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمى قال «كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء أعرابى فقال : يارسول الله أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها : يعنى الطلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود : يعنى الخصىّ منها ، فيها سبعون لونا من الطعام لايشبه لون آخر» وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (سدر مخضود) قال : خضده وقره من الحمل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه قال : المخضود الذى لاشوك فيه . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : المخضود الموقر الذى لاشوك فيه . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (وطلح منضود) قال : هو الموز . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ «وطلع منضود» وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف عن قيس بن عباد قال : قرأت على علىّ ابن أبى طالب (وطلح منضود) فقال علىّ : مابال الطلح ، أما تقرأ وطلع ؟ ثم قال : (وطلع نضيد) ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أنحكها فى المصحف ؟ قال : لايهاج القرآن اليوم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (منضود) قال : بعضه على بعض . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ، اقرءوا إن شئتم (وظلّ ممدود)» . وأخرج البخارى وغيره نحوه من حديث أنس . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما نحوه من حديث أبى سعيد . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (وفرش مرفوعة) قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، و مسيرة مابينهما خمسمائة عام . قال الترمذى بعد إخراجه هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى ، ورشدين ضعيف . وأخرج الفريابى وهناد وعبد ابن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقىّ فى البعث عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (إنا أنشأناهنّ إنشاء) قال : إن المنشئات التى كنّ فى الدنيا عجائز عمشا رمصا . قال الترمذى : بعد إخراجه غريب ، وموسى ويزيد ضعيفان . وأخرج الطيالسى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن قانع والبيهقىّ فى البعث عن سلمة بن يزيد الجعفى سمعت النبىّ صلى الله عليه

وآله وسلم يقول فى قوله (إنا أنشأناهن إنشاء) قال : الثيب والأبكار اللاتى كن فى الدنيا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : خلقهن غير خلقهن الأول . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (أبكارا) قال : عذارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (عربا) قال : عواشق (أترابا) يقول : مستويات . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (عربا) قال : عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون (أترابا) قال : فى سن واحد ثلاثا وثلاثين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الغروب الملقة لزوجها . وأخرج مسدد فى مسنده وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : جميعهما من هذه الأمة . وأخرج أبو داود الطيالسى ومسدد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى بكرة فى قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : هما جميعا من هذه الأمة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن عدى وابن مردويه . قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عباس « فى قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هما جميعا من أمتى » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الثلتان جميعا من هذه الأمة . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (وظل من يحموم) قال : من دخان أسود ، وفى لفظ : من دخان جهنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (شرب الهيم) قال : الإبل العطاش .

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ
نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)
أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)

قوله (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتا لهم وإلزاما للحجة : أى فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق . قال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئا وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث ؟ (أفرأيتم ماتمنون) أى ماتقذفون وتصبون فى أرحام النساء من النطف ، ومعنى أفرأيتم : أخبرونى ، ومفعولها الأول ماتمنون ، والثانى الجملة الاستفهامية ، وهى (ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا

أم نحن المقدرون المصوّرون له ، وأم هى المتصلة ، وقيل هى المنقطعة ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور « تمنون » بضم الفوقية من أمنى يمنى . وقرأ ابن عباس وأبو السماك ومحمد بن السميفع والأشهب العقيلى بفتحها من منى يمنى ، وهما لغتان ، وقيل معناهما مختلف ، يقال أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل عن احتلام ، وسمى المنىّ منيا لأنه يمنى : أى يراق (نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) قرأ الجمهور « قدّرنا » بالتشديد ، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال قدرت الشيء وقدّرته : أى قسمناه عليكم ووقتناه لكل فرد من أفرادكم ، وقيل قضينا ، وقيل كتبنا ، والمعنى متقارب . قال مقاتل : فنكم من يموت كبيرا ومنكم من يموت صغيرا . وقال الضحاك : معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ـ وما نحن بمسبوقين ـ بمغلوبين ، بل قادرين (على أن نبدّل أمثالكم) أى نأتى بخلق مثلكم . قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا . قال ابن جرير : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم وما نحن بمسبوقين فى آجالكم : أى لايتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم (وننشئكم فيما لاتعلمون) من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم ، وقيل المعنى : ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا . وقال سعيد بن المسيب : فيما لاتعلمون : يعنى فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف . وبرهوت واد باليمن . وقال مجاهد (فيما لاتعلمون) يعنى فى أىّ خلق شئنا ؛ ومن كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث (ولقد علمتم النشأة الأولى) وهى ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ولم تكونوا قبل ذلك شيئا . وقال قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم من تراب (فلولا تذكرون) أى فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى . قرأ الجمهور « النشأة » بالقصر ، وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبوعمرو بالمدّ ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت (أفرأيتم ماتحرثون) أى أخبرونى ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر (ءأنتم تزرعونه) أى تنبتونه وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحبّ (أم نحن الزارعون) أى المنبتون له الجاعلون له زرعا لا أنتم . قال المبرد : يقال زرعه الله : أى أنماه ، فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث (لو نشاء جعلناه حطاما) أى لو نشاء لجعلنا ماتحرثون حطاما : أى متحطما متكسرا ، والحطام : الهشيم الذى لاينتفع به ولا يحصل منه حبّ ولا شيء مما يطلب من الحرث (فظلتم تفكهون) أى صرتم تعجبون . قال الفرّاء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم . قال فى الصحاح : وتفكه تعجب ، ويقال تندّم . قال الحسن وقتادة وغيرهما : معنى الآية : تعجبون من ذهابها وتندمون مما حلّ بكم . وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ماسلف منكم من معصية الله . وقال أبوعمرو والكسائى : هو التلهف على مافات . قرأ الجمهور « فظلتم » بفتح الظاء مع لام واحدة . وقرأ أبو حيوة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء . وقرأ ابن عباس والجحدرى « فظللتم » بلامين : أولاهما مكسورة على الأصل ، وروى عن الجحدرى فتحها ، وهى لغة . وقرأ الجمهور « تفكهون » وقرأ أبو حزام العكلى « تفكنون » بالنون مكان الهاء : أى تندمون . قال ابن خالويه : تفكه تعجب ، وتفكن تندم . وفى الصحاح التفكن التندم (إنا لمغرمون) قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ أبو بكر والمفضل وزرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام ، والجملة بتقدير القول : أى تقولون إنا لمغرمون : أى ملزمون غرما بما هلك من زرعنا ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك وابن كيسان . وقيل المعنى : إنا لمعذبون ، قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ، ومنه قول النمر بن تولب :

سلا عن تذكره تكتما وكان رهينا بها مغرما

يقال أغرم فلان بفلان : أى أولع . وقال مقاتل : مهلكون . قال النحاس : مأخوذ من الغرام ، وهو الهلاك ومنه قول الشاعر :

ويوم النسار ويوم الجفا ركان عليكم عذابا مقيما

والظاهر من السياق المعنى الأول : أى إنا لمغرمون بذهاب ماحرثناه ومصيره حطاما ، ثم أضربوا عن قولهم هذا وانتقلوا فقالوا (بل نحن محرومون) أى حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم الممنوع من الرزق الذى لا حظ له فيه ، وهو المحارف (أفرأيتم الماء الذى تشربون) فتسكنون به مايلحقكم من العطش وتدفعون به ماينزل بكم من الظمأ . واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه ، لأنه أعظم فوائده وأجلّ منافعه (ءأنتم أنزلتموه من المزن) أى السحاب . قال فى الصحاح : قال أبو زيد : المزنة السحابة البيضاء ، والجمع مزن والمزنة المطر . قال الشاعر :

ألم تر أن الله أنزل مزنة وعفر الظبا فى الكنائس تقمع

ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر :

فنحن كماء المزن مافى نصابنا كهام ولا فينا يعدّ بخيل

وقول الآخر : فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

(أم نحن المنزلون) له بقدرتنا دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك ، فكيف لاتقرّون بالتوحيد وتصدقون بالبعث . ثم بين لهم سبحانه أنه لويشاء لسلبهم هذه النعمة فقال (لو نشاء جعلناه أجاجا) الأجاج الماء الشديد الملوحة الذى لايمكن شربه ، وقال الحسن : هو الماء المرّ الذى لاينتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما (فلولا تشكرون) أى فهلا تشكرون نعمة الله الذى خلق لكم ماء عذبا تشربون منه وتنتفعون به (أفرأيتم النار التى تورون) أى أخبرونى عنها ، ومعنى تورون : تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال أوريت النار إذا قدحتها (ءأنتم أنشأتم شجرتها) التى يكون منها الزنود ، وهى المرخ والعفار ، تقول العرب : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (نحن جعلناها تذكرة) أى جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى . قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس فى الظلام ، وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن (ومتاعا للمقوين) أى منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهى الأرض القفر كالمسافرين وأهل البوادى النازلين فى الأراضى المقفرة ، يقال أرض قواء بالمد والقصر : أى مقفرة ، ومنه قول النابغة :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة : حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

وقول الآخر : ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

ويقال أقوى إذا سافر : أى نزل القوى . وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم ، يقال : أقويت منذ كذا وكذا : أى ما أكلت شيئا ، وبات فلان القوى : أى بات جائعا ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لأختار القوى طاوى الحشا محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب : المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول ، وهو الظاهر (فسبح باسم ربك العظيم) الفاء لترتيب مابعدها من ذكر الله سبحانه ، وتنزيه على ما قبلها مما عدده من النعم التى أنعم بها على عباده وجحود المشركين لها وتكذيبهم بها .

وقد أخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبونعيم والبيهقى فى الشعب وضعفه عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لايقولن أحدكم زرعت ، ولكن يقول حرثت » . قال أبو هريرة : ألم تسمعوا الله يقول (أفرأيتم ماتحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (تفكهون) قال : تعجبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس . قال (المزن) السحاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس (نحن جعلناها تذكرة) قال : تذكرة للنار الكبرى (ومتاعا للمقوين) قال : للمسافرين .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ
كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّايَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)
فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ
وَلَٰكِن لَّاتُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧)
فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢)
فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) .

قوله (فلا أقسم) ذهب جمهور المفسرين إلى أن لا مزيدة للتوكيد ، والمعنى : فأقسم ، ويؤيد هذا قوله بعد (وإنه لقسم) وقال جماعة من المفسرين : إنها للنفي ، وإن المنفى بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين . قال الفراء : هى نفى ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون . ثم استأنف فقال أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز ، كما قال أبو حيان وغيره . وقيل إنها لام الابتداء ، والأصل فلا أقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف ، كقول الشاعر : * أعوذ بالله من العقراب *

وقد قرأ هكذا « فلأقسم » بدون ألف الحسن وحميد وعيسى بن عمر ، وعلى هذا القول ، وهذه القراءة يقدر

مبتدأ محذوف ، والتقدير : فلأنا أقسم بذلك . وقيل إن لا هنا بمعنى ألا التي للتنبيه ، وهو بعيد . وقيل لا هنا على ظاهرها ، وإنها لنفي القسم : أي فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) مع تعيين المقسم به والمقسم عليه ، ومعنى قوله (بمواقع النجوم) مساقطها ، وهي مغاربها كذا قال قتادة وغيره . وقال عطاء بن أبي رباح : منازلها . وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة ، وقال الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون مطرنا بنوء كذا . وقيل المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ ، وبه قال السدّي وغيره ، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . قرأ الجمهور « مواقع » على الجمع ، وقرأ ابن مسعود والنخعي وحمزة والكسائي وابن محيصن (١) وورش عن يعقوب بموقع على الإفراد . قال المبرد : موقع هاهنا مصدر ، فهو يصلح للواحد والجمع . ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفخيمه فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) هذه الجملة معترضة بين المقسم به والمقسم عليه ، وقوله (لو تعلمون) جملة معترضة بين جزأي الجملة المعترضة ، فهو اعتراض في اعتراض . قال الفراء والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير في إنه على القسم الذي يدل عليه أقسم ، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون . ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (إنه لقرآن كريم) أي كرّمه الله وأعزّه ورفع قدره على جميع الكتب ، وكرّمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا ، وقيل إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور ، وقيل لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه . وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم ، لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدّي إلى الحق في الدين . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة (في كتاب مكنون) أي مستور مصون ، وقيل محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة ، وقيل هو كتاب . وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه ، وقال السدّي : هو الزبور . وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذي في أيدينا (لا يمسه إلا المطهرون) قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون : أي لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة ، وقيل هم الملائكة والرسل من بني آدم ، ومعنى لا يمسه المسّ الحقيقي ، وقيل معناه : لا ينزل به إلا المطهرون ، وقيل معناه : لا يقرؤه ، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن ، فقيل لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس . كذا قال قتادة وغيره : وقال الكلبي : المطهرون من الشرك . وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا . وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى لا يمسه : لا يقرؤه إلا المطهرون : أي إلا الموحدون . وقال الفراء : لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون : أي المؤمنون . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق . وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف ، وبه قال عليّ وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي . وروى عن ابن عباس والشعبي وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمنتقى فليرجع إليه . قرأ الجمهور « المطهرون » بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول . وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل : أي المطهرون أنفسهم . وقرأ نافع وابن عمرو في رواية عنهما ، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة ، اسم مفعول من أطهر ، وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء وأصله

(١) هكذا بالأصل ، وصوابه ورويس اهـ ع .

المتطهرون (تنزيل من رب العالمين) قرأ الجمهور بالرفع ، وقرئ بالنصب ، فالرفع على أنه صفة أخرى لقران ، أو خبر مبتدإ محذوف ، والنصب على الحال (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة ، والمدهن والمداهن المنافق . كذا قال الزجاج وغيره . وقال عطاء وغيره : هو الكذاب . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مدهنون كافرون ، كما فى قوله ـ ودّوا لو تدهن فيدهنون ـ وقال الضحاك : مدهنون معرضون ، وقال مجاهد : ممالئون للكفار على الكفر ، وقال أبو كيسان : المدهن الذى لايعقل حق الله عليه ويدفعه بالعلل . والأوّل أولى لأن أصل المدهن الذى ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن فى سهولته . قال المؤرج : المدهن المنافق الذى يلين جانبه ليخفى كفره ، والإدهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسرّ خلاف مايظهر ، وقال فى الكشاف مدهنون : أى متهاونون به كمن يدهن فى الأمر : أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به انتهى . قال الراغب : والإدهان فى الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة ، وترك الجدّ : كما جعل التقريد ، وهو نزع القراد عبارة عن ذلك ، ويؤيد ماذكره قول أبى قيس بن الأسلت :

الحزم والقوّة خير من الـ … إدهان والعهه والهاع

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) فى الكلام مضاف محذوف ، كما حكاه الواحدى عن المفسرين : أى تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر . وقال الهيثم : إن أزدشنوءة يقولون مارزق فلان : أى ماشكر ، وعلى هذه اللغة لايكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر . ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب ، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله ، وأنزل عليهم المطر : سقينا بنوء كذا ، ومطرنا بنوء كذا قال الأزهرى : معنى الآية وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذى رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرّزاق . وقرأ علىّ وابن عباس « وتجعلون شكركم » وقرأ الجمهور « أنكم تكذبون » بالتشديد من التكذيب ، وقرأ علىّ وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب (فلولا إذا بلغت الحلقوم) أى فهلا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدّم لها ذكر ، لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة ، ومنه قول حاتم طى :

أماوىّ مايغنى الثراء عن الفتى … إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(وأنتم حينئذ تنظرون) إلى ماهو فيه ذلك الذى بلغت نفسه أو روحه الحلقوم . قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه ، والمعنى أنهم فى تلك الحال لايمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ماهو فيه (ونحن أقرب إليه منكم) أى بالعلم والقدرة والرؤية ، وقيل أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم (ولكن لاتبصرون) أى لاتدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، أو لاتبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها) يقال دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم . قال الفراء : دنته ملكته ، وأنشد للحطيئة :

لقد دنت أمر بنيك حتى … تركتهم أدق من الطحين

أى ملكت ، ويقال دانه : إذا أذله واستعبده ، وقيل معنى مدينين محاسبين ، وقيل مجزيين ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا … ن دناهم كما دانوا

والمعنى الأوّل ألصق بمعنى الآية : أى فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ترجعونها : أى النفس التى قد

بلغت الحلقوم إلى مقرّها الذى كانت فيه (إن كنتم صادقين) ولن ترجعوها فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين ولا مملوكين، والعامل فى قوله إذا بلغت هو قوله ترجعونها، ولولا الثانية تأكيد للأولى قال الفراء: وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد. ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال (فأما إن كان من المقرّبين) أى السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم (فروح وريحان وجنة ونعيم) قرأ الجمهور «روح» بفتح الراء، ومعناه الراحة من الدنيا والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح الرحمة. وقال مجاهد: الروح الفرح وقرأ ابن عباس وعائشة والحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدرى «فروح» بضم الراء، ورويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل ومعنى هذه القراءة الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم، والريحان: الرزق فى الجنة، قاله مجاهد وسعيد ابن جبير ومقاتل. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال خرجت أطلب ريحان الله: أى رزقه، ومنه قول النمر ابن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقال قتادة: إنه الجنة. وقال الضحاك: هو الرحمة. وقال الحسن: هو الريحان المعروف الذى يشم. قال قتادة والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، وكذا قال أبو الجوزاء وأبو العالية، ومعنى وجنة نعيم أنها ذات تنعم، وارتفاع روح وما بعده على الابتداء، والخبر محذوف: أى فله روح (وأما إن كان) ذلك المتوفى (من أصحاب اليمين) وقد تقدّم ذكرهم وتفصيل أحوالهم وما أعدّه الله لهم من الجزاء (فسلام لك من أصحاب اليمين) أى لست ترى فيهم إلا ماتحبّ من السلامة فلا تهتم بهم فإنه يسلمون من عذاب الله، وقيل المعنى: سلام لك منهم: أى أنت سالم من الاغتمام بهم، وقيل المعنى: إنهم يدعون لك ويسلمون عليك، وقيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم يحيي بالسلام إكراما، وقيل هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، وقيل المعنى: سلام لك ياصاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، (وأما إن كان من المكذبين الضالين) أى المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم (فنزل من حميم) أى فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، وهو الماء الذى قد تناهت حرارته، وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه (وتصلية جحيم) يقال أصلاه النار وصلاه: أى إذا جعله فى النار، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: وجواب الشرط فى هذه الثلاثة المواضع محذوف والتقدير: مهما يكن من شىء فروح الخ. وقال الأخفش: إن الفاء فى المواضع الثلاثة هى جواب أما وجواب حرف الشرط. قرأ الجمهور «وتصلية» بالرفع عطفا على فنزل. وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على حميم: أى فنزل من حميم ومن تصلية جحيم (إن هذا لهو حق اليقين) الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرّقين لهو حق اليقين: أى محض اليقين وخالصه، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشىء إلى نفسه. قال المبرد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، هذا عند الكوفيين وجوّزوا ذلك لاختلاف اللفظ، وأما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا، والتقدير: حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين، والفاء فى (فسبح باسم ربك العظيم) لترتيب مابعدها على ماقبلها: أى نزهه عما لايليق بشأنه، والباء متعلقة بمحذوف: أى فسبح ملتبسا باسم ربك للتبرك به. وقيل المعنى: فصلّ بذكر ربك، وقيل الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات. وقيل هى للتعدية لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة ويتعدّى بالحرف أخرى، والأوّل أولى.

وقد أخرج النسائى وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم فرّق فى السنين ، وفى لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما ، ثم قرأ (فلا أقسم بمواقع النجوم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه (فلا أقسم بمواقع النجوم) قال القرآن (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال : القرآن . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نجوم القرآن حين ينزل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضا (لا يمسه إلا المطهرون) قال : الكتاب المنزل فى السماء لا يمسه إلا الملائكة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أنس (لا يمسه إلا المطهرون) قال : الملائكة . وأخرج عبد الرزّاق وابن المنذر عن علقمة قال : أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف ، فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا ، قال : إنما قال الله (فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) وهو الذى فى السماء لا يمسه إلا الملائكة ، ثم قرأ علينا من القرآن ماشئنا . وأخرج عبد الرزّاق وابن أبى داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم : لا تمس القرآن إلا على طهر . وأخرجه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر . وأخرجه أبوداود فى المراسيل من حديث الزهرى قال : قرأت فى صحيفة عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ولا يمس القرآن إلا طاهر » وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبى العاص ، وفى أسانيدها نظر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا : لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلونى ، فإنى لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يمس القرآن إلا طاهر » وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل : « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له فى عهده : أن لا يمس القرآن إلا طاهر » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أنتم مدهنون) قال : مكذبون . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال « مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) » وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى ، ومن حديث أبى سعيد الخدرى ، وفى الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : شكركم ، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن عائشة قالت : مافسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن إلا آيات يسيرة قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : شكركم . وأخرج ابن مردويه عن علىّ « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (وتجعلون شكركم ») وأخرج أبوعبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وتجعلون شكركم » قال : يعنى الأنواء وما مطر

قوم إلا أصبح بعضهم كافرا كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عليّ أنه قرأ « وتجعلون شكركم » وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها كذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (غير مدينين) قال : غير محاسبين . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خيثم (فأما إن كان من المقرّبين) الآية قال : هذا له عند الموت (وجنة نعيم) تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث (وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم) قال : هذا عند الموت (وتصلية جحيم) قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (فروح) قال : راحة (وريحان) قال : استراحة . وأخرج ابن جرير عنه قال : يعنى بالريحان المستريح من الدنيا (وجنة نعيم) يقول : مغفرة ورحمة . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الريحان الرزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (فسلام لك من أصحاب اليمين) قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (إن هذا لهو حق اليقين) قال : ماقصصنا عليك فى هذه السورة . وأخرج عنه أيضا (فسبح باسم ربك العظيم) قال : فصلّ لربك . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عقبة بن عامر الجهنى قال « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فسبح باسم ربك العظيم) قال : اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت ـ سبح اسم ربك الأعلى ـ قال : اجعلوها فى سجودكم » .

تفسير سورة الحديد

هى تسع وعشرون آية

وهى مدنية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الحجامة يوم الثلاثاء . وأخرج الديلمى عن جابر مرفوعا « لاتحتجموا يوم الثلاثاء ، فإن سورة الحديد أنزلت علىّ يوم الثلاثاء » . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن العرباض ابن سارية « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية » . وفى إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف . وقد أخرجه النسائى عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يذكر العرباض بن سارية ، فهو مرسل . وأخرج ابن الضريس عن يحيى ابن أبي كثير قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية » قال يحيى : فنراها الآية التى فى آخر الحشر . وقال ابن كثير فى تفسيره : والآية المشار إليها والله أعلم هى قوله (هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن) الآية . والمسبحات المذكورة هى : الحديد والحشر ، والصفّ ، والجمعة ، والتغابن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) .

قوله (سبح لله مافى السموات والأرض) أى نزهه ومجده . قال المقاتلان : يعنى كل شىء من ذى روح وغيره ، وقد تقدّم الكلام فى تسبيح الجمادات عند تفسير قوله ـ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ـ والمراد بالتسبيح المسند إلى ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو مايعمّ التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجود يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال ـ ولكن لاتفقهون تسبيحهم ـ وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله ـ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ـ فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة ، كما فى قوله ـ وسبحوه ـ وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعديا بنفسه ، لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام فهى إما مزيدة للتأكيد كما فى شكرته وشكرت له ، أوهي للتعليل : أى افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصا له ، وجاء هذا الفعل فى بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة ، وفى بعضها مضارعا ، وفى بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة فى كل الأوقات لايختصّ تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى وستكون مسبحة أبدا فى المستقبل (وهو العزيز) أى القادر الغالب الذى لاينازعه أحد ولا يمانعه ممانع كائنا ما كان (الحكيم) الذى يفعل أفعال الحكمة والصواب (له ملك السموات والأرض) يتصرّف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرّفه وأمره ، وقيل أراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق (يحيي ويميت) الفعلان فى محل رفع على أنهما خبر لمبتدإ محذوف ، أو فى محل نصب على الحال من ضمير له ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : أنه يحيي فى الدنيا ويميت الأحياء ، وقيل يحيي النطف وهى موات ويميت الأحياء ، وقيل يحيي الأموات للبعث (وهو على كل شىء قدير) لايعجزه شىء كائنا ماكان (هو الأوّل) قبل كل شىء (والآخر) بعد كل شىء : أى الباقى بعد فناء خلقه (والظاهر) العالي الغالب على كل شىء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة (والباطن) أى العالم بما

بطن ، من قولهم فلان يبطن أمرفلان : أى يعلم داخلة أمره ، ويجوزأن يكون المعنى المحتجب عن الأبصاروالعقول ، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتى ، فيتعين المصير إلى ذلك (وهو بكل شىء عليم) لايعزب عن علمه شىء من المعلومات (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض . وقد تقدّم تفسيره فى سورة الأعراف وفى غيرها مستوفى (يعلم مايلج فى الأرض) أى يدخل فيها من مطر وغيره (وما يخرج منها) من نبات وغيره (وما ينزل من السماء) من مطر وغيره (وما يعرج فيها) أى يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة سبأ (وهو معكم أينما كنتم) أى بقدرته وسلطانه وعلمه ، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ وبحر (والله بما تعملون بصير) لايخفى عليه من أعمالكم شىء (له ملك السموات والأرض) هذا التكرير للتأكيد (وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره . قرأ الجمهور « ترجع » مبنيا للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر على البناء للفاعل (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) قد تقدّم تفسير هذا فى سورة آل عمران ، وفى مواضع (وهو عليم بذات الصدور) أى بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لايخفى عليه من ذلك خافية .

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسأله خادما ، فقال قولى : اللهمّ ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم ، وربنا وربّ كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحبّ والنوى ، أعوذ بك من شرّ كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكورة وتفسيرها . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لايزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شىء ، فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأوّل قبل كل شىء ، والآخر فليس بعده شىء ، وهو الظاهر فوق كل شىء ، وهو الباطن دون كل شىء ، وهو بكل شىء عليم » . وأخرج أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ماشىء أجده فى صدرى ، قال ماهو ؟ قلت : والله لاأتكلم به ، قال : فقال لى : أشىء من شك ؟ قال وضحك ، قال : مانجا من ذلك أحد ، قال حتى أنزل الله ـ فإن كنت فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ـ الآية قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئا فقل : هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وهو معكم أينما كنتم) قال : عالم بكم أينما كنتم .

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَاتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ

وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) .

قوله (آمنوا بالله ورسوله) أى صدّقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب . ويجوز أن يكون خطابا للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسلمين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه . ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فى سبيل الله فقال (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله والعباد خلفاء الله فى أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه وقيل جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم فلا تبخلوا به . كذا قال الحسن وغيره . وفيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم ويصير إلى غيرهم . والظاهر أن معنى الآية الترغيب فى الإنفاق فى الخير ، وما يرضاه الله على العموم ، وقيل هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص. ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله فقال (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة (وما لكم لاتؤمنون بالله) هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع : أى أىّ عذر لكم ، وأىّ مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلل ، وما مبتدأ ولكم خبره ولا تؤمنون فى محل نصب على الحال من الضمير فى لكم ، والعامل مافيه من معنى الاستقرار ، وقيل المعنى : أىّ شىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) فى محل نصب على الحال من ضمير لاتؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بيدعوكم : أى يدعوكم للإيمان ، والمعنى : أىّ عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ؟ وجملة (وقد أخذ ميثاقكم) فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا : أى والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم ، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان : قرأ الجمهور « وقد أخذ » مبنيا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدّم ذكره . وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول (إن كنتم مؤمنين) بما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات) أى واضحات ظاهرات ، وهى الآيات القرآنية ، وقيل المعجزات والقرآن أعظمها (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات ، أو بالدعوة (وإن الله بكم لرءوف رحيم) أى لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه وبعث رسله لهداية عباده فلا رأفة ولا رحمة أبلغ من هذه ، والاستفهام فى قوله (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله) للتقريع والتوبيخ ، والكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله ـ وما لكم لاتؤمنون بالله ـ وفى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) هو الإنفاق فى سبيل الله كما بينا ذلك ، والمعنى : أىّ عذر لكم وأىّ شىء يمنعكم من ذلك ، والأصل فى أن لاتنفقوا ، وقيل إن أن زائدة ، وجملة (ولله ميراث السموات والأرض) فى محل نصب على الحال من فاعل « ألا تنفقوا » أو من مفعوله ، والمعنى : أىّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه والحال أن كل مافى السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى

الوارث ، ولا يبقى لهم منه شيء ، وهذا أدخل فى التوبيخ وأكمل فى التقريع ، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله فى الحقيقة ، وهم خلفاؤه فى التصرّف فيها . ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل الله فقال (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح) قيل المراد بالفتح فتح مكة ، وبه قال أكثر المفسرين . وقال الشعبي والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : لايستوى من أنفق من قبل الفتح (وقاتل) ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ولدلالة ماسيأتى عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقلّ وأضعف ، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال . والجود بالنفس أقصى غاية الجود . والإشارة بقوله (أولئك) إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره (أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) أى أرفع منزلة وأعلا رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدّمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

وقد أرشد صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صحّ عنه « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » وهذا خطاب منه صلى الله عليه وآله وسلم للمتأخرين وصحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الذى ورد فيه هذا الحديث (وكلا وعد الله الحسنى) أى وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها . قرأ الجمهور « وكلا » بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر . وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدإ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعى ... علىّ ذنبا كله لم أصنع

(والله بما تعملون خبير) لايخفى عليه من ذلك شيء . ثم رغب سبحانه فى الصدقة فقال (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه ... إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبي (قرضا) أى صدقة (حسنا) أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . قال مقاتل : حسنا طيبة به نفسه ، وقد تقدّم تفسير الآية فى سورة البقرة (فيضاعفه له) قرأ ابن عامر وابن كثير « فيضعفه » بإسقاط الألف إلا أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فيضاعفه » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء ورفع الباقون . قال ابن عطية : الرّفع على العطف على يقرض ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام . وضعف النصب أبو علىّ الفارسى قال لأن السؤال لم يقع عن القرض ، وإنما وقع عن فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله (من ذا الذى يقرض الله) بمنزلة قوله أيقرض الله أحد (وله أجر كريم) وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يوشك أن يأتي قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا من هم يارسول الله ؟ أقريش ؟ قال : لا ، ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) الآية » وهذا الحديث قال ابن كثير : هو غريب بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية . وأخرج أحمد عن أنس قال « كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » والذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ « لاتسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » وفي لفظ « مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه » أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لاتسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره .

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥)

قوله (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) العامل في الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل في لهم وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له ، وقوله (يسعى نورهم) في محل نصب على الحال من مفعول ترى ، والنور هو الضياء الذي يرى (بين أيديهم وبأيمانهم) وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة . قال قتادة : إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لايضيء له نوره إلا موضع قدميه . وقال الضحاك ومقاتل : وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها ، فكتبهم بأيمانهم ، ونورهم بين أيديهم . قال الفراء : الباء بمعنى في : أي في أيمانهم ، أو بمعنى عن . قال الضحاك أيضا : نورهم هداهم ، وبأيمانهم كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبري : أي يسعى أيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم .

قرأ الجمهور « بأيمانهم » جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد الساعديّ وأبوحيوة « بإيمانهم » بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضدّ الكفر ، وقيل هو القرآن ، والجار والمجرور فى الموضعين فى محل نصب على الحال من نورهم : أى كائنا بين أيديهم وبأيمانهم (بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) بشراكم مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف : أى دخول جنات ، والجملة مقول قول مقدّر : أى يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة . قال مكيّ : وأجاز الفراء نصب جنات على الحال ، ويكون اليوم خبر بشراكم ، وهذا بعيد جدّا « خالدين فيها » حال مقدّرة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ وخبره (هو الفوز العظيم) أى لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه (يوم يقول المنافقون والمنافقات) يوم بدل من يوم الأوّل ، ويجوز أن يكون العامل فيه الفوز العظيم ، ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر : أى اذكر (للذين آمنوا) اللام للتبليغ كنظائرها . قرأ الجمهور (انظرونا) أمرا بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار : أى انتظرونا ، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار : أى أمهلونا وأخرونا ، يقال أنظرته واستنظرته : أى أمهلته واستمهلته . قال الفراء : تقول العرب أنظرنى : أى انتظرنى ، وأنشد قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل معنى انظرونا : انظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم (نقتبس من نوركم) أى نستضىء منه ، والقبس : الشعلة من النار والسراج ، فلما قالوا ذلك (قيل ارجعوا وراءكم) أى قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرا لهم وتهكما بهم : أى ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور (فالتمسوا نورا) أى اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل المعنى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم (فضرب بينهم بسور) السور : هو الحاجز بين الشيئين ، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار . قال الكسائى : والباء فى بسور زائدة . ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال (له باب باطنه فيه الرحمة) أى باطن ذلك السور . وهو الجانب الذى يلى أهل الجنة فيه الرحمة وهى الجنة (وظاهره) وهو الجانب الذى يلى أهل النار (من قبله العذاب) أى من جهته عذاب جهنم ، وقيل إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون فى العذاب وبينهم السور ، وقيل إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين ، ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك فقال (ينادونهم ألم نكن معكم) أى موافقين لكم فى الظاهر نصلى بصلاتكم فى مساجدكم ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين ؟ فقال (ينادونهم) ، ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال (قالوا بلى) أى كنتم معنا فى الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) بالنفاق وإبطان الكفر . قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل بالشهوات واللذات (وتربصتم) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبمن معه من المؤمنين حوادث الدهر ، وقيل تربصتم بالتوبة ، والأوّل أولى (وارتبتم) أى شككتم فى أمر الدين ولم تصدقوا ما نزل من القرآن ولا بالمعجزات الظاهرة (وغرتكم الأمانى) الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربص ، وقيل هو طول الأمل ، وقيل ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين . وقال قتادة : الأمانىّ هنا غرور الشيطان ،

وقيل الدنيا ، وقيل هو طمعهم فى المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل فى مسمى الأمانىّ (حتى جاء أمر الله) وهو الموت ، وقيل نصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم . وقال قتادة : هو إلقاؤهم فى النار (وغرّكم بالله الغرور) قرأ الجمهور « الغرور » بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به الشيطان : أى خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميفع وسماك بن حرب بضمها وهو مصدر (فاليوم لايؤخذ منكم فدية) تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون (ولا من الذين كفروا) بالله ظاهرا وباطنا (مأواكم النار) أى منزلكم الذى تأوون إليه النار (هى مولاكم) أى هى أولى بكم ، والمولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان ثم استعمل فيمن يلازمه ، وقيل معنى مولاكم : مكانكم عن قرب ، من الولى وهو القرب . وقيل إن الله يركب فى النار الحياة والعقل ، فهى تتميز غيظا على الكفار ، وقيل المعنى : هى ناصركم على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع * (وبئس المصير) الذى تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود (يسعى نورهم بين أيديهم) قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة ويوقد أخرى . وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ (انظرونا نقتبس من نوركم) فإنا كنا معكم فى الدنيا ، قال المؤمنون (ارجعوا وراءكم) من حيث جئتم من الظلمة (فالتمسوا) هنالك النور . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نورا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون ـ انظرونا نقتبس من نوركم ـ وقال المؤمنون ـ ربنا أتمم لنا نورنا ـ فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا » وفى الباب أحاديث وآثار . وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت : أنه كان على سور بيت المقدس فبكى ، فقيل له مايبكيك ؟ فقال : هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى جهنم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذى ذكره الله فى القرآن (فضرب بينهم بسور) هو السور الذى ببيت المقدس الشرقى (باطنه فيه الرحمة) المسجد (وظاهره من قبله العذاب) يعنى وادى جهنم وما يليه .

ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال مالا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله : باطنه فيه الرحمة المسجد ، فإن هذا غير ماسيقت له الآية وغير مادلت عليه ، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين ، وأىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا ، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ، ويجعله فى الدار الآخرة سورا مضروبا بين المؤمنين والمنافقين ، فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرحمة بالمسجد ، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد ، ويجعل المنافقين خارجه ، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس ، فإن كان مثل هذا

التفسير ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلناه وآمنا به ، وإلا فلا كرامة ولا قبول . وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ولكنكم فتنتم أنفسكم) قال : بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال : بالتوبة (وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله) قال : الموت (وغركم بالله الغرور) قال : الشيطان .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

قوله (ألم يأن للذين آمنوا) يقال أنى لك يأنى أنى : إذا حان . قرأ الجمهور « ألم يأن » وقرأ الحسن وأبو السماك « ألما يأن » وأنشد ابن السكيت :

ألما يأن لى أن تجلى عمايتى ... وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

و (أن تخشع قلوبهم) فاعل يأن : أى ألم يحضر خشوع قلوبهم ويجيء وقته ، ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لى ياقلب أن أترك الجهلا ... وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

هذه الآية نزلت في المؤمنين . قال الحسن : يستبطئهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد . قال الزجاج : نزلت في طائفة من المؤمنين ، حثوا على الرّقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرّقة والخشوع فطبقة فوق هؤلاء . وقال السدّى وغيره : المعنى ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر وأسرّوا الكفر أن تخشع قلوبهم (لذكر الله) وسيأتي في آخر البحث مايقوّى قول من قال إنها نزلت في المسلمين ، والخشوع لين القلب ورقته . والمعنى : أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعا ورقة ، ولا يكونوا كمن لايلين قلبه للذكر ولا يخشع له (وما نزل من الحقّ) معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحقّ القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين . قرأ الجمهور « نزل » مشدّدا مبنيا للفاعل . وقرأ نافع وحفص بالتخفيف مبنيا للفاعل . وقرأ الجحدرى وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية عنه مشدّدا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود « أنزل » مبنيا للفاعل (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جريا على ماتقدّم . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالفوقية على الخطاب التفاتا ، وبها قرأ عيسى وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع : أى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا ، والمعنى : النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود النصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن (فطال عليهم الأمد) أي طال عليهم الزمان بينهم

وبين أنبيائهم . قرأ الجمهور « الأمد » بتخفيف الدال ، وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها : أى الزمن الطويل ، وقيل المراد بالأمد على القراءة الأولى الأجل والغاية ، يقال أمد فلان كذا : أى غايته (فقست قلوبهم) بذلك السبب ، فلذلك حرّفوا وبدّلوا ، فنهى الله سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكونوا مثلهم (وكثير منهم فاسقون) أى خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرّفوا وبدّلوا ولم يؤمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل هم الذين ابتدعوا الرهبانية ، وهم أصحاب الصوامع (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها (قد بينا لكم الآيات) التى من جملتها هذه الآيات (لعلكم تعقلون) أى كى تعقلوا ماتضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك (إن المصدّقين والمصدّقات) قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقة ، وأصله المتصدّقين والمتصدّقات ، فأدغمت التاء فى الصاد . وقرأ أبىّ « المتصدّقين والمتصدّقات » بإثبات التاء على الأصل ؛ وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق : أى صدّقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به (وأقرضوا الله قرضا حسنا) معطوف على اسم الفاعل فى المصدّقين لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حلّ محلّ الفعل ، فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا كذا قال أبو على الفارسى وغيره . وقيل جملة وأقرضوا معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو - يضاعف - وقيل هى صلة لموصول محذوف : أى والذين أقرضوا ، والقرض الحسن عبارة عن التصدق والإنفاق فى سبيل الله مع خلوص نية وصحة قصد واحتساب أجر . قرأ الجمهور (يضاعف لهم) بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور أو ضمير يرجع إلى المصدّقين على حذف مضاف : أى ثوابهم ، وقرأ الأعمش « يضاعفه » بكسر العين وزيادة الهاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يضعف » بتشديد العين وفتحها (ولهم أجر كريم) وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (والذين آمنوا بالله ورسله) جميعا ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول ، وخبره قوله (هم الصدّيقون والشهداء) والجملة خبر الموصول . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صدّيق . قال المقاتلان : هم الذين لم يشكوا فى الرسل حين أخبروهم ولم يكذّبوهم . وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج . وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا فى سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير ، وقيل هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعا بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند الله ، وقيل إن الصدّيقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا بالله وصدّقوا جميع رسله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد . ثم بين سبحانه مالهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال (لهم أجرهم ونورهم) والضمير الأوّل راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء : أى لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد ، والمعنى : لهم الأجر والنور الموعودان لهم . ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ، وهذا مبتدأ وخبره (أصحاب الجحيم) يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ، فأنزل الله (ألم يأن للذين آمنوا) الآية » . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ، ولقد أنزل عليّ فى ضحككم آية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) قالوا : يارسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ماضحكتم » . وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ماكان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا) إلا أربع سنين . وأخرج نحوه عنه ابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج أبويعلى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أيّ شيء أحدثنا أيّ شيء صنعنا ؟ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن (ألم يأن للذين آمنوا) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن عبد العزيز بن أبى روّاد أن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا) . وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) قال : يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها . وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « مؤمنو أمتى شهداء ، ثم تلا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم) » . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : كل مؤمن صديق وشهيد . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : «إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد، ثم تلا هذه الآية » وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون) قال : هذه مفصولة ـ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ـ . وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهنى : قال « جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأدّيت الزكاة وصمت رمضان وقمته فمن أنا ؟ قال : من الصدّيقين والشهداء » .

ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢١) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَايُحِبُّ

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٤).

قوله (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة ، واللعب هو الباطل ، اللهو كل شئ يتلهى به ثم يذهب . قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . قال مجاهد : كل لعب لهو ، وقيل اللعب مارغب فى الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها ، وقيل اللعب الاقتناء ، واللهو النساء ، وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة الأنعام ، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة (وتفاخر بينكم) قرأ الجمهور بتنوين « تفاخر » والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمى بالإضافة : أى يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل يتفاخرون بالخلقة والقوة ، وقيل بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب (وتكاثر فى الأموال والأولاد) أى يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاولون بذلك على الفقراء ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبها ، وضرب لها مثلا فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) أى كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر : أى يغطونه بالتراب ، ومعنى نباته : النبات الحاصل به (ثم يهيج) أى يجف بعد خضرته وييبس (فتراه مصفرا) أى متغيرا عما كان عليه من الخضرة : والرونق إلى لون الصفرة والذبول (ثم يكون حطاما) أى فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه ، وقد تقدم تفسير هذا المثل فى سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته . ثم لايلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن . وقرئ « مصفارا » والكاف فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر بعد خبر أو خبر مبتدإ محذوف . ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، ذكر ما أعده للعصاة فى الدار الآخرة فقال (وفى الآخرة عذاب شديد) وأتبعه بما أعده لأهل الطاعة فقال (ومغفرة من الله ورضوان) والتنكير فيهما للتعظيم . قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته . قال الفراء : التقدير فى الآية إما عذاب شديد ، وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد . ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته . قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ماهو خير منه . وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له ، ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى مايوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) أى سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصى ، وقيل المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول ، وقيل المراد الصف الأول ، ولا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا ، بل هو من جملة ماتصدق عليه صدقا شموليا أو بدليا (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى كعرضهما ، وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها . قال الحسن : يعنى جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها ، وقيل المراد بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل واحد من أهل الجنة . وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشىء بعرضه دون طوله ، ومن ذلك قول الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال (أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله) ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة . وفى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان بالله ورسله ، ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لايستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب مانهاه الله عنه ، وهى أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماوعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره (فضل الله يؤتيه من يشاء) أى يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلا وإحسانا (والله ذو الفضل العظيم) فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق والجواد الذى لايبخل . ثم بين سبحانه أن مايصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره وثبت فى أمّ الكتاب فقال (ما أصاب من مصيبة فى الأرض) من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار . قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار ، وقيل الجوائح فى الزرع (ولا فى أنفسكم) قال قتادة : بالأوصاب والأسقام ، وقال مقاتل : إقامة الحدود . وقال ابن جريج : ضيق المعاش (إلا فى كتاب) فى محل نصب على الحال من مصيبة : أى إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة (من قبل أن نبرأها) فى محل جر صفة لكتاب ، والضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة ، أو إلى الأنفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ذلك ، ومعنى « نبرأها » نخلقها (إن ذلك على الله يسير) أى أن إثباتها فى الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم) أى أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على مافاتكم من الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) منها : أى أعطاكم منها ، فإن ذلك يزول عن قريب ، وكلّ زائل عن قريب لايستحق أن يفرح بحصوله ولا يحزن على فواته ، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلن يعدو امرأ ماكتب له ، وما كان حصوله كائنا لامحالة فليس بمستحقّ للفرح بحصوله ولا للحزن على فوته ، قيل والحزن والفرح المنهىّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى مالا يجوز ، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح . قرأ الجمهور « بما آتاكم » بالمدّ : أى أعطاكم ، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو بالقصر : أى جاءكم ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد (والله لايحب كل مختال فخور) أى لايحبّ من اتصف بهاتين الصفتين وهما الاختيال والافتخار ، قيل هو ذمّ للفرح الذى يختال فيه صاحبه ويبطر ، وقيل إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها ، وقيل المختال الذى ينظر إلى نفسه ، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار . والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى ، فمن حصلتا فيه فهو الذى لايحبه الله (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) الموصول فى محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لاتعلق له بما قبله ، والخبر مقدّر : أى الذين يبخلون فالله غنىّ عنهم ، ويدل على ذلك قوله (ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميد) وقيل الموصول فى محل جرّ بدل من مختال ، وهو بعيد ، فإن هذا البخل بما فى اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لالغة ولا شرعا . وقيل هو فى محل جرّ نعت له ، وهو أيضا بعيد . قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئا . وقال زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حق الله ، وقيل إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما فى يديه ، وقيل أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم قاله السدّى والكلبى : قرأ الجمهور « بالبخل » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى بفتحتين ،

وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتح الباء وإسكان الخاء . وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنىّ عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك . قرأ الجمهور «هو الغنى» بإثبات ضمير الفصل . وقرأ نافع وابن عامر فإن الله الغنى الحميد بحذف الضمير .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم) يقول فى الدين والدنيا (إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) قال نخلقها (لكيلا تأسوا على مافاتكم) من الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) منها . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو شىء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله (لكيلا تأسوا على مافاتكم) الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا ، ومن أصابه خير جعله شكرا . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

قوله (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) أى بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة (وأنزلنا معهم الكتاب) المراد الجنس ، فيدخل فيه كتاب كلّ رسول (والميزان ليقوم الناس بالقسط) قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان العدل ، والمعنى : أمرناهم بالعدل كما فى قوله ـ والسماء رفعها ووضع الميزان ـ وقوله ـ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ـ وقال ابن زيد : هو مايوزن به ويتعامل به ، ومعنى ـ ليقوم الناس بالقسط ـ ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه

وموجباته . وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب * علفتها تبنا وماء باردا * وأنزلنا الحديد (أي خلقناه كما في قوله - وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج - والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلم الناس صنعته ، وقيل إنه نزل مع آدم (فيه بأس شديد) لأنه تتخذ منه آلات الحرب . قال الزجاج : يمتنع به ويحارب ، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب . قال مجاهد : فيه جنة وسلاح ، ومعنى (ومنافع للناس) أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين والفأس والإبرة وآلات الزراعة والنجارة والعمارة (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) معطوف على قوله ليقوم الناس : أي لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم ، وقيل معطوف على علة مقدّرة ، كأنه قيل ليستعملوه وليعلم الله ، والأوّل أولى . والمعنى : أن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك وبالغيب في محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله : أي غائبا عنهم أو غائبين عنه (إن الله قويّ عزيز) أي قادر على كل شيء غالب لكل شيء ، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم) لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل ، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ، وكرّر القسم للتوكيد (وجعلنا في ذرّيتهما النبوّة والكتاب) أي جعلنا فيهم النبوّة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب (فمنهم مهتد) أي فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح وإبراهيم ، وقيل المعنى : فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الطاعة (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أي اتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم (وقفينا بعيسى ابن مريم) أي أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم ، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه (وآتيناه الإنجيل) وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وقد تقدّم ذكر اشتقاقه في سورة آل عمران . قرأ الجمهور « الإنجيل » بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بفتحها (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله في قلوبهم مودّة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك ، وأصل الرأفة اللين ، والرحمة الشفقة ، وقيل الرأفة أشدّ الرحمة (ورهبانية ابتدعوها) انتصاب رهبانية على الاشتغال : أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وليس بمعطوفة على ما قبلها ، وقيل معطوفة على ماقبلها : أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم . والأوّل أولى ، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره ، وجملة (ما كتبناها عليهم) صفة ثانية لرهبانية ، أومستأنفة مقرّرة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى : مافرضناها عليهم ، والرهبانية بفتح الراء وضمها ، وقد قرئ بهما ، وهي بالفتح الخوف من الرهب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان ، وذلك لأنهم غلوا في العبادة وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح ، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ، لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما (إلا ابتغاء رضوان الله) الاستثناء منقطع : أي ماكتبناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . وقال الزجاج : ماكتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئا ألبتة ، قال : ويكون (إلا ابتغاء رضوان الله) بدلا من الهاء والألف في كتبناها ، والمعنى : ماكتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله (فما رعوها حق رعايتها) أي لم يرعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم ، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى ، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا

وبدّلوا وتركوا الترهب ، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الذى يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه الله (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذمّ لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا . وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير : ماكتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر . ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) بترك مانهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وآله وسلم (يؤتكم كفلين من رحمته) أى نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء (ويجعل لكم نورا تمشون به) يعنى على الصراط كما قال ـ نورهم يسعى بين أيديهم ـ وقيل المعنى : ويجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به (ويغفر لكم) ماسلف من ذنوبكم (والله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة (لئلا يعلم أهل الكتاب) اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب (أن لايقدرون على شيء من فضل الله) ولا فى قوله « لئلا » زائدة للتوكيد ، قاله الفراء والأخفش وغيرهما ، وأن فى قوله « أن لايقدرون » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها مابعدها ، والجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لايقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل الله الذى تفضل به على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذى تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة (وأن الفضل بيد الله) معطوفة على الجملة التى قبلها : أى ليعلموا أنهم لايقدرون وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله (يؤتيه من يشاء) خبر ثان لأنّ ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور فى محل نصب على الحال (والله ذو الفضل العظيم) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ماقبلها ، والمراد بالفضل هنا ماتفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف . وقال الكلبى : هو رزق الله ، وقيل نعم الله التى لاتحصى ، وقيل هو الإسلام ، وقد قيل إن « لا » فى لئلا غير مزيدة ، وضمير لايقدرون للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه . والمعنى : لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لايقدر النبىّ والمؤمنون على شيء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه ، والأوّل أولى . وقرأ ابن مسعود « لكيلا يعلم » وقرأ خطاب بن عبد الله « لأن يعلم » وقرأ عكرمة « ليعلم » وقرئ « ليلا » بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بفتح اللام .

وقد أخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طرق ابن مسعود قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ياعبد الله ، قلت لبيك يارسول الله ثلاث مرات ، قال : هل تدرى أىّ عرى الإسلام أوثق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا فى دينهم ؛ ياعبد الله هل تدرى أىّ الناس أعلم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا بالعمل وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها : فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم

فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله (ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) هم الذين آمنوا بى وصدقونى (وكثير منهم فاسقون) الذين جحدونى وكفروا بى » .وأخرج النسائى والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : «كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل ،فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل فقيل لملوكهم مانجد شيئا أشد من شتم يشتمنا هؤلاء إنهم يقرءون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ـ فأولئك هم الفاسقون ـ مع مايعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعوهم فليقرءوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا ، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل ، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا مابدلوا منهما ، فقالوا ماتريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا ،وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك ، فأنزل الله (رهبانية ابتدعوهاماكتبناها عليهم إلاابتغاء رضوان الله فمارعوهاحق رعايتها) وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك وفنى من فنى منهم قالوا :نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لاعلم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبق منهم إلاالقليل انحط صاحب الصومعة من صومعته وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ،فآمنوا به وصدقوه ،فقال الله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) أجرين بإيمانهم بعيسى ونصب أنفسهم والتوراة والإنجيل ،وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم (ويجعل لكم نورا تمشون به) القرآن واتباعهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم» .وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب عن أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله (كفلين) قال : ضعفين وهى بلسان الحبشة . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله (يؤتكم كفلين من رحمته) قال : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله .

تفسير سورة المجادلة

هى ثنتان وعشرون آية

وهى مدنية . قال القرطبي : فى قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدنى وباقيها مكىّ . وقال الكلبي : نزلت جميعها بالمدينة غير قوله (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) نزلت بمكة. وأخرج ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المجادلة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (١) ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

قوله (قد سمع الله) قرأ أبوعمرو وحمزة والكسائى بإدغام الدال فى السين ، وقرأ الباقون بالإظهار . قال الكسائى : من بيّن الدال عند السين فلسانه أعجمىّ وليس بعربىّ (قول التى تجادلك فى زوجها) أى تراجعك الكلام فى شأنه (وتشتكى إلى الله) معطوف على تجادلك. والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها قد حرمت عليه ، قالت : والله ماذكر طلاقا ثم تقول أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، فهذا معنى قوله (وتشتكى إلى الله) قال الواحدى : قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان به لمم ، فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقا فى الجاهلية . وقيل هى خولة بنت حكيم ، وقيل اسمها جميلة ، والأوّل أصح ، وقيل هى بنت خويلد . وقال الماوردى : إنها نسبت تارة إلى أبيها ، وتارة إلى جدّها وأحدهما أبوها والآخر جدّها ، فهى خولة بنت ثعلبة بن خويلد ، وجملة (والله يسمع تحاوركما) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها : أى والله يعلم تراجعكما فى الكلام (إن الله سميع بصير) يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ماجادلتك به هذه

المرأة . ثم بين سبحانه شأن الظهار فى نفسه وذكر حكمه فقال (الذين يظهرون منكم من نسائهم) قرأ الجمهور « يظهرون » بالتشديد مع فتح حرف المضارعة . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « يظاهرون » بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقرأ أبو العالية وعاصم وزرّ بن حبيش « يظاهرون » بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء ، وقد تقدّم مثل هذا فى سورة الأحزاب . وقرأ أبىّ « يتظاهرون » بفك الإدغام . ومعنى الظهار أن يقول لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى : أى ولا خلاف فى كون هذا ظهارا . واختلفوا إذا قال : أنت علىّ كظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلك من ذوات المحارم ؛ فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى . وقال جماعة منهم قتادة والشعبى : إنه لا يكون ظهارا بل يختص الظهار بالأمّ وحدها . واختلفت الرواية عن الشافعى ، فروى عنه كالقول الأوّل ، وروى عنه كالقول الثانى ، وأصل الظهار مشتق من الظهر .

واختلفوا إذا قال لامرأته أنت علىّ كرأس أمى أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ؟ هل يكون ظهارا أم لا ، وهكذا إذا قال أنت علىّ كأمى ولم يذكر الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا . وروى عن أبى حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحلّ له النظر إليه لم يكن ظهارا . وروى عن الشافعى أنه لا يكون الظهار إلا فى الظهر وحده .

واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية ؛ فقيل يكون ظهارا وقيل لا ، والكلام فى هذا مبسوط فى كتب الفروع ، وجملة (ماهنّ أمهاتهم) فى محل رفع على أنها خبر الموصول : أى ما نساؤهم بأمهاتهم ، فذلك كذب منهم ، وفى هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم . قرأ الجمهور « أمهاتهم » بالنصب على اللغة الحجازية فى إعمال « ما » عمل ليس . وقرأ أبو عمرو والسلمى بالرّفع على عدم الإعمال ، وهى لغة نجد وبنى أسد . ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) أى ما أمهاتهم إلا النساء اللائى ولدنهم . ثم زاد سبحانه فى توبيخهم وتقريعهم فقال (وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا) أى وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرا من القول : أى فظيعا من القول ينكره الشرع ، والزور الكذب ، وانتصاب منكرا وزورا على أنهما صفة لمصدر محذوف : أى قولا منكرا وزورا (وإن الله لعفوّ غفور) أى بليغ العفو والمغفرة ، إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) لما ذكر سبحانه الظهار إجمالا ووبخ فاعليه شرع فى تفصيل أحكامه ، والمعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور ، ثم يعودون لما قالوا : أى إلى ما قالوا بالتدارك والتلافى كما فى قوله ـ أن تعودوا لمثله ـ أى إلى مثله . قال الأخفش (لما قالوا) وإلى ما قالوا يتعاقبان . قال ـ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ـ وقال ـ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ـ وقال ـ بأن ربك أوحى لها ـ وقال ـ وأوحى إلى نوح ـ وقال الفرّاء : اللام بمعنى عن ، والمعنى : ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . قال الأخفش أيضا : الآية فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع (فتحرير رقبة) لما قالوا : أى فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا . فالجار فى قوله (لما قالوا) متعلق بالمحذوف الذى هو خبر المبتدإ وهو فعليهم .

واختلف أهل العلم فى تفسير العود المذكور على أقوال : الأوّل أنه العزم على الوطء وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه ، وروى عن مالك . وقيل هو الوطء نفسه وبه قال الحسن ، وروى أيضا عن مالك . وقيل هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق وبه قال الشافعى . وقيل هو الكفارة ، والمعنى : أنه لا يستبيح

وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروى عن أبى حنيفة . وقيل هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر . وروى عن بكير بن الأشبح وأبى العالية والفراء . والمعنى . ثم يعودون إلى قول ما قالوا . والموصول مبتدأ وخبره (فتحرير رقبة) على تقدير فعليهم تحرير رقبة كما تقدم ، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة ، يقال حررته : أى جعلته حراً ، والظاهر أنها تجزئ أى رقبة كانت ، وقيل يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل ؛ وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه وبالثانى قال مالك والشافعى ، واشترطا أيضا سلامتها من كل عيب (من قبل أن يتماسا) المراد بالتماس هنا الجماع ، وبه قال الجمهور ، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر ، وقيل إن المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك ، وهو أحد قول الشافعى ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ وخبره (توعظون به) أى تؤمرون به ، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار ، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة . قال الزجاج : معنى الآية ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به : أى إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار (والله بما تعملون خبير) لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، فهو مجازيكم عليها . ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) أى فمن لم يجد الرقبة فى ملكه ولا تمكن من قيمتها فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى والشافعى ومالك : إنه يبنى ولا يستأنف . وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعى ؛ ومعنى (من قبل أن يتماسا) هو ما تقدم قريبا ، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك . وقال الشافعى : لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم ، والأول أولى (فمن لم يستطع) يعنى صيام شهرين متتابعين (فإطعام ستين مسكينا) أى فعليه أن يطعم ستين مسكينا ، لكل مسكين مدان ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال الشافعى وغيره : لكل مسكين مد واحد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة ، أو يدفع إليهم ما يشبعهم ، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة ، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم ، وبعضهم فى يوم آخر ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره من الأحكام ، وهو مبتدأ وخبره مقدر : أى ذلك واقع (لتؤمنوا بالله ورسوله) ويجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب ، والتقدير : فعلنا ذلك لتؤمنوا : أى لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه ، أو لتطيعوا الله ورسوله فى الأوامر والنواهى ، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ولا تعودوا إلى الظهار الذى هو منكر من القول وزور ، والإشارة بقوله (وتلك) إلى الأحكام المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره (حدود الله) فلا تجاوزوا حدوده التى حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة (وللكافرين) الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حده الله لعباده (عذاب أليم) وهو عذاب جهنم ، وسماه كفرا تغليظا وتشديدا .

وقد أخرج ابن ماجه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى تقول : يارسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) وهو أوس بن الصامت . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : كان

أوّل من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عمّ له يقال لها خولة بنت خويلد ، فظاهر منها فأسقط فى يده وقال : ما أراك إلا قد حرمت علىّ ، فانطلقى إلى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فاسأليه ، فأتت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته ، فقال : ياخولة ما أمرنا فى أمرك بشىء ، فأنزل الله على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ياخولة أبشرى ؟ قالت خيرا . قال : خيرا ، فقرأ عليها (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات . وأخرج أحمد وأبوداود وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقىّ من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال « حدّثتنى خولة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل علىّ يوما فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم رجع فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل علىّ فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لاتصل إلىّ وقد قلت ماقلت حتّى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له ، فما برحت حتّى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماكان يتغشاه ثم سرّى عنه ، فقال لى : ياخولة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك ، ثم قرأ علىّ (قد سمع الله قول التى تجادلك) إلى قوله (عذاب أليم) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مريه فليعتق رقبة ، قلت : يارسول الله ماعنده ما يعتق ، قال : فليصم شهرين متتابعين ، قلت : والله إنه لشيخ كبير مابه من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر ، قلت : والله ماذاك عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فأنا سأعينه بعرق من تمر ، فقلت : وأنا يارسول الله سأعينه بعرق آخر ، فقال : قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدّقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيرا ، قالت ففعلت » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن المنذر والبيهقىّ فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ثم يعودون لما قالوا) قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، فإذا قال ذلك فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتّى يكفر بعتق رقبة (فمن) فإن (لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) والمسّ النكاح (فمن) فإن (لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) وإن هو قال لها : أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا فليس يقع فى ذلك ظهار حتّى يحنث ، فإن حنث فلا يقربها حتّى يكفر ، ولا يقع فى الظهار طلاق . وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة قال ثلاث فيه مدّ : كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الصيام . وأخرج البزار والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقىّ عن ابن عباس قال « أتى رجل النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنى ظاهرت من امرأتى ، فرأيت بياض خلخالها فى ضوء القمر ، فوقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : ألم يقل الله من قبل أن يتماسا ، قال : قد فعلت يارسول الله ، قال : أمسك عنها حتّى تكفر » . وأخرج عبد الرزّاق وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقىّ عن ابن عباس « أن رجلا قال : يارسول الله إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها من قبل أن أكفر ، فقال : وما حملك على ذلك ؟ قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : فلا تقربها حتّى تفعل ما أمرك الله » . وأخرج عبد الرزّاق وأحمد وعبد بن حميد وأبوداود والترمذىّ وحسنه وابن ماجه والطبرانى والبغوى فى معجمه والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصارىّ قال : كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء مالم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتّى يدركنى الصبح ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شىء فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى ، فقلت : انطلقوا معى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بأمرى ، فقالوا: لا ، والله لا نفعل نتخوّف أن ينزل فينا القرآن ،

أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع مابدا لك قال : فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته خبرى ، فقال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك ، قال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك ، قال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك وها أنا ذا فأمض فيّ حكم الله فإنى صابر لذلك ، قال : أعتق رقبة ، فضربت عنقى بيدى فقلت : لا والذى بعثك بالحقّ ما أصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : هل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : فأطعم ستين مسكينا ، قلت : والذى بعثك بالحقّ لقد بتنا ليلتنا هذه وحشا مالنا عشاء ، قال : اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق ، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك ، فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السعة والبركة ، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلىّ ، فدفعوها إليه » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَايَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَاتَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

قوله (إن الذين يحادون الله ورسوله) لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادّين والمحادّة المشاقة والمعاداة والمخالفة ، ومثله قوله (إن الذين يحادّون الله ورسوله) قال الزجاج : المحادّة أن تكون فى حدّ يخالف صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحدّاد للبوّاب (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) أى أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله فلانا إذا أذله ، والمردود بالذلّ يقال له مكبوت. قال المقاتلان : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة . وقال أبوعبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال

ابن زيد : عذبوا . وقال السدّى : لعنوا . وقال الفرّاء : أغيظوا ، والمراد بمن قبلهم : كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، وقيل المعنى : على المضىّ ، وذلك ماوقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر ، وجملة (ولقد أنزلنا آيات بينات) فى محل نصب على الحال من الواو فى كبتوا : أى والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادّ الله ورسله من الأمم المتقدّمة ، وقيل المراد الفرائض التى أنزلها الله سبحانه ، وقيل هى المعجزات (وللكافرين عذاب مهين) أى للكافرين بكل ما يجب الإيمان به ، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوّليا ، والعذاب المهين : الذى يهين صاحبه ويذله ويذهب بعزّه (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف منتصب بإضمار اذكر ، أو بمهين ، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار ، أو بأحصاه المذكور بعده ، وانتصاب جميعا على الحال : أى مجتمعين فى حالة واحدة ، أو يبعثهم كلهم لايبقى منهم أحد غير مبعوث (فينبئهم بما عملوا) أى يخبرهم بما عملوه فى الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخا لهم وتبكيتا ولتكميل الحجة عليهم ، وجملة (أحصاه الله ونسوه) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل كيف ينبئهم بذلك على كثرته واختلاف أنواعه ، فقيل أحصاه الله جميعا ولم يفته منه شىء ، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه ، بل وجدوه حاضرا مكتوبا فى صحائفهم (والله على كل شىء شهيد) لايخفى عليه شىء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر . ثم أكد سبحانه بيان كونه عالما بكل شىء ، فقال (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض) أى ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لايخفى عليه شىء مما فيهما ، وجملة (مايكون من نجوى ثلاثة) الخ مستأنفة لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات . قرأ الجمهور « يكون » بالتحتية . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، ومن مزيدة للتأكيد ، ونجوى فاعل كان ، والنجوى السرار ، يقال : قوم نجوى : أى ذو نجوى وهى مصدر . والمعنى : ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى ، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين ؛ فعلى الوجه الأوّل انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه ، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أوالصفة لها . قال الفرّاء : ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة ابن أبى عبلة ، ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى (إلا هو رابعهم) هذه الجملة فى موضع نصب على الحال ، وكذا قوله ـ إلا هو خامسهم ـ (إلا هو معهم) أى مايوجد شىء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، ومعنى رابعهم جاعلهم أربعة ، وكذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى (ولاخمسة) أى ولا نجوى خمسة ، وتخصيص العددين بالذكر ، لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة ؛ أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع وخمسة فى موضع . قال الفراء : العدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قلّ أو كثر يعلم السر والجهر لايخفى عليه خافيه (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) أى ولا أقلّ من العدد المذكور : كالواحد ، والاثنين ، ولا أكثر منه : كالستة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لايخفى عليه منه شىء . قرأ الجمهور « ولا أكثر » بالجرّ بالفتحة عطفا على لفظ نجوى . وقرأ الحسن والأعمش وابن أبى إسحاق وأبو حيوة ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بن عمر وسلام بالرفع عطفا على محل نجوى . وقرأ الجمهور « ولا أكثر » بالمثلثة . وقرأ الزهرى وعكرمة بالموحدة . قال الواحدى : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ، فيحزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمرهم أن لايتناجوا دون

المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى (أينما كانوا) إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم في أيّ مكان من الأمكنة (ثم ينبئهم) أي يخبرهم (بما عملوا يوم القيامة) توبيخا لهم وتبكيتا وإلزاما للحجة (إن الله بكل شيء عليم) لايخفى عليه شيء كائنا ما كان (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) هؤلاء الذين نهوا ، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدّم ذكره من المنافقين واليهود . قال مقاتل : كان بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبين اليهود مواعدة ، فإذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظنّ المؤمن شرّا ، فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت . وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهمّ فيفزعون لذلك (ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول) قرأ الجمهور « يتناجون » بوزن يتفاعلون ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فيما بعد (إذا تناجيتم فلا تتناجوا) . وقرأ حمزة وخلف وورش عن يعقوب « وينتجون » بوزن يفتعلون ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه كالكذب والظلم ، والعدوان مافيه عدوان على المؤمنين ومعصية الرسول مخالفته . قرأ الجمهور « ومعصية » بالإفراد . وقرأ الضحاك وحميد ومجاهد « ومعصيات » بالجمع (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) قال القرطبي : إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : عليكم . وفي رواية أخرى وعليكم (ويقولون في أنفسهم) أي فيما بينهم (لولا يعذبنا الله بما نقول) أي هلا يعذبنا بذلك ، ولو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به ، وقيل المعنى : لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك (حسبهم جهنم) عذابا (يصلونها) يدخلونها (فبئس المصير) أي المرجع ، وهو جهنم (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) لما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لايتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله كما يفعله اليهود والمنافقون . ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم فقال (وتناجوا بالبرّ والتقوى) أي بالطاعة وترك المعصية ، وقيل الخطاب للمنافقين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم ، واختار هذا الزجاج ، وقيل الخطاب لليهود ، والمعنى : ياأيها الذين آمنوا بموسى ، والأوّل أولى ، ثم خوفهم سبحانه فقال (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) فيجزيكم بأعمالكم . ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي هو من جهة الشيطان ، فقال (إنما النجوى) يعني بالإثم والعدوان ومعصية الرسول (من الشيطان) لا من غيره : أي من تزيينه وتسويله (ليحزن الذين آمنوا) أي لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها (وليس بضارّهم شيئا) أو وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضارّ المؤمنين شيئا من الضرر (إلا بإذن الله) أي بمشيئته ، وقيل بعلمه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي يكلون أمرهم إليه ويفوّضونه في جميع شؤونهم ويستعيذون بالله من الشيطان ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي بسند جيد عن ابن عمر : إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : السام عليك ، يريدون بذلك شتمه ، ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ، فنزلت هذه الآية (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وصححه عن أنس « أن يهوديا أتى النبيّ صلى الله عليه وآله

وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : هل تدرون ما قال هذا ؟ قالوا : الله أعلم ، سلم يانبيّ الله ، قال لا ، ولكنه قال كذا وكذا ردّوه عليّ فردوه ، قال : قلت السام عليكم؟ قال نعم ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك : إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب ، فقولوا عليك ، قال عليك ماقلت . قال (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهود ، فقالوا السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال : ياعائشة إن الله لايحب الفحش ولا المتفحش ، قلت : ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أو ما سمعتني أقول وعليكم ، فأنزل الله (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) » وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا حيوه : سام عليك فنزلت. وأخرج ابن مردويه عنه قال : «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رءوسهم إلى المسلمين ويقولون قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) الآية » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرقه أمر أو يأمر بشيء فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء نتحدّث ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل فقال : ماهذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ قلنا : يارسول الله إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه ، فقال : ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندى منه ؟ قلنا بلى يارسول الله . قال : الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس) يقال فسح له يفسح فسحا : أى وسع له ، ومنه قولهم بلد فسيح . أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس وعدم التضايق فيه . قال قتادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون فى مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة (فافسحوا يفسح الله لكم) أى فوسعوا يوسع الله لكم فى الجنة ، أو فى كل ماتريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما ، قرأ الجمهور « تفسحوا فى المجلس » وقرأ السلمى وزر بن حبيش وعاصم « فى المجالس » على الجمع ، لأن لكل واحد منهم مجلسا ، وقرأ قتادة والحسن وداود ابن أبى هند وعيسى بن عمر « تفاسحوا » قال الواحدى : والوجه التوحيد فى المجلس ، لأنه يعنى به مجلس النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ؛ سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة ، وأن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه ، ولكن يوسع لأخيه مالم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه ، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخارى ومسلم وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « لايقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) قرأ الجمهور بكسر الشين فيها ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، يقال نشز : أى ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف ، والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا فانهضوا. قال جمهور المفسرين : أى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير . وقال مجاهد والضحاك وعكرمة : كان رجال يتثاقلون عن الصلاة ، فقيل لهم إذا نودى للصلاة فانهضوا . وقال الحسن : انهضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال الله تعالى (وإذا قيل انشزوا) عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (فانشزوا) فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ؛ والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ماهو سبب النزول فيها اندراجا أوليا ، وهكذا يندرج مافيه السياق وهو التفسيح فى المجلس اندراجا أوليا ، وقد قدمنا أن معنى نشز ارتفع ، وهكذا يقال نشز ينشز : إذا تنحى عن موضعه ، ومنه امرأة ناشز : أى متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز ، وهو ما رتفع من الأرض وتنحى ، ذكر معناه النحاس (يرفع الله الذين آمنوا منكم) فى الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما (والذين أوتوا العلم درجات) أى ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا والثواب فى الآخرة ، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات ، وقيل المراد بالذين آمنوا من الصحابة وكذلك الذين أوتوا العلم ، وقيل المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . والأولى حمل الآية على العموم فى كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض ، وفى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله ، وقد دل على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية (والله بما تعملون خبير) لايخفى عليه شىء من أعمالكم من خير وشر ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) المناجاة المساررة ، والمعنى : إذا أردتم مساررة الرسول فى أمر من أموركم فقدموا بين يدى مساررتكم له صدقة . قال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبى صلى الله عليه وآله وسلم يناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى ، فشق عليهم ذلك ، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه . وقال زيد

ابن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون إنه أذن يسمع كل ماقيل له ، وكان لايمنع أحدا من مناجاته وكان ذلك يشقّ على المسلمين ، لأن الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله ، فأنزل الله ـ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول ـ فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدّموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بالآية التى بعد هذه ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم من تقديم الصدقة بين يدى النجوى ، وهو مبتدأ وخبره (خير لكم وأطهر) لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) يعنى من كان منهم لايجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدى النجوى ، فلا حرج عليه فى النجوى بدون صدقة (ءأشفقتم أن تقدّموا بين يدى نجواكم صدقات) أى أخفتم الفقر والعيلة لأن تقدّموا ذلك ، والإشفاق : الخوف من المكروه والاستفهام للتقرير. وقيل المعنى : أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقال الكلبى : ماكان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال قتادة : ماكان إلا ساعة من النهار (فإذلم تفعلوا) ما أمرتم به من الصدقة بين يدى النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد مايتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدّم الترخيص له بقوله (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) (وتاب الله عليكم) بأن رخص لكم فى الترك ، « وإذ » على بابها فى الدلالة على المضىّ ، وقيل هى بمعنى إذا ، وقيل بمعنى إن ، وتاب معطوف على لم تفعلوا : أى وإذا لم تفعلوا وإذ تاب عليكم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والمعنى : إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدى النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه (والله خبير بما تعملون) لايخفى عليه من ذلك شىء فهو مجازيكم ، وليس فى الآية مايدلّ على تقصير المؤمنين فى امتثال هذا الأمر ، أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا فى امتثال الأمر بالصدقة ، على أن فى الآية مايدل على أن الأمر للندب كما قدّمنا . وقد استدلّ بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل ، وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضا قد فعل ذلك البعض ، فتصدّق بين يدى نجواه كما سيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية (إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس) يوم جمعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، فردّ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم مايحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يافلان وأنت يافلان ، فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشقّ ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ذلك فى مجلس القتال (وإذا قيل

انشزوا) قال : إلى الخير والصلاة . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) قال : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات . وأخرج ابن المنذر عنه قال : ماخص الله العلماء في شيء من القرآن ماخصهم في هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إذا ناجيتم الرسول) الآية قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك ظن كثير من الناس وكفوا عن المسئلة ، فأنزل الله بعد هذا (أأشفقتم) الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والنحاس وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال « لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما ترى دينار ؟ قلت لايطيقونه . قال فنصف دينار ؟ قلت لايطيقونه ، قال فكم ؟ قلت شعيرة ، قال إنك لزهيد ، قال : فنزلت ـ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ـ الآية ، فبي خفف الله عن هذه الأمة » والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد واحدة من حب الشعير . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال : ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وماكانت إلا ساعة : يعني آية النجوى . وأخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدمت بين يدى نجواى درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت ـ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ـ الآية . وأخرج الطبراني وابن مردويه ـ قال السيوطي : بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال « نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنك لزهيد ، فنزلت الآية الأخرى ـ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ـ » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ

ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

قوله (ألم تر إلى الذين تولوا قوما) أى والوهم . قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود . وقال السدّى ومقاتل : هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدلّ على الأوّل قوله (غضب الله عليهم) فإن المغضوب عليهم هم اليهود ، ويدلّ على الثانى قوله (ماهم منكم ولا منهم) فإن هذه صفة المنافقين ، كما قال الله فيهم ـ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ـ وجملة (ماهم منكم ولا منهم) فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة (ويحلفون على الكذب) أى يحلفون أنهم مسلمون ، أو يحلفون أنهم مانقلوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا داخلة فى حكم التعجيب من فعلهم ، وجملة (وهم يعلمون) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنهم يعلمون بطلان ماحلفوا عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له (أعدّ الله لهم عذابا شديدا) بسبب هذا التولى والحلف على الباطل (إنهم ساء ماكانوا يعملون) من الأعمال القبيحة (اتخذوا أيمانهم جنة) قرأ الجمهور « أيمانهم » بفتح الهمزة جمع يمين ، وهى ماكانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم . وقرأ الحسن وأبو العالية « إيمانهم » بكسر الهمزة أى جعلوا تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم (فصدّوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإسلام بسبب مايصدر عنهم من التثبيط وتهوين أمر المسلمين وتضعيف شوكتهم ، وقيل المعنى : فصدّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام (فلهم عذاب مهين) أى يهينهم ويخزيهم ، قيل هو تكرير لقوله (أعدّ الله لهم عذابا شديدا) للتأكيد ، وقيل الأوّل عذاب القبر ، وهذا عذاب الآخرة ، ولا وجه للقول بالتكرر ، فإن العذاب الموصوف بالشدّة غير العذاب الموصوف بالإهانة (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أى لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء قال مقاتل . قال المنافقون : إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذن ، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة فنزلت الآية (أولئك) الموصوفون بما ذكر (أصحاب النار) لايفارقونها (هم فيها خالدون) لايخرجون منها (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف منصوب بقوله : مهين ، أو بمقدّر : أى اذكر (فيحلفون له كما يحلفون لكم) أى يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم فى الدنيا ، وهذا من شدّة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة ، فكيف يجترئون على أن يكذبوا فى ذلك الموقف ويحلفون على الكذب (ويحسبون أنهم على شىء) أى يحسبون فى الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شىء مما يجلب نفعا ،

أو يدفع ضررا كما كانوا يحسبون ذلك فى الدنيا (ألا إنهم هم الكاذبون) أى الكاملون فى الكذب المتهالكون عليه البالغون فيه إلى حدّ لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة فى موقف القيامة بين يدى الرحمن (استحوذ عليهم الشيطان) أى غلب عليهم واستعلى واستولى . قال المبرّد : استحوذ على الشيء حواه وأحاط به ، وقيل قوى عليهم ، وقيل جمعهم ، يقال أحوذ الشيء : أى جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، والمعانى متقاربة لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم (فأنساهم ذكر الله) أى أوامره والعمل بطاعاته ، فلم يذكروا شيئا من ذلك ، وقيل زواجره فى النهى عن معاصيه ، وقيل لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره (حزب الشيطان) أى جنوده وأتباعه ورهطه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة فى الدنيا والآخرة (إن الذين يحادّون الله ورسوله) تقدّم معنى المحادّة لله ولرسوله فى أوّل هذه السورة ، والجملة تعليل لما قبلها (أولئك فى الأذلين) أى أولئك المحادّون لله ورسوله المتصفون بتلك الصفات المتقدّمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة لأنهم لما حادّوا الله ورسوله صاروا من الذلّ بهذا المكان . قال عطاء : يريد الذلّ فى الدنيا والخزى فى الآخرة (كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى) الجملة مستأنفة لتقرير ماقبلها مع كونهم فى الأذلين : أى كتب فى اللوح المحفوظ ، وقضى فى سابق علمه : لأغلبنّ أنا ورسلى بالحجة والسيف . قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو غالب فى الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة . قال الفراء : كتب بمعنى قال ، وقوله « أنا » توكيد ، ثم ذكر مثل قول الزجاج (إن الله قوىّ عزيز) فهو قوىّ على نصر أوليائه غالب لأعدائه لايغلبه أحد (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له : أى يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، وجملة « يوادّون » فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لتجد إن كان متعدّيا إلى مفعولين ، أو فى محل نصب على الحال إن كان متعدّيا إلى مفعول واحد ، أو صفة أخرى لقوما : أى جامعون بين الإيمان والموادّة لمن حادّ الله ورسوله (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) أى ولو كان المحادّون لله ورسوله آباء الموادّين الخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) يعنى الذين لايوادّون من حادّ الله ورسوله ، ومعنى (كتب فى قلوبهم الإيمان) خلقه ، وقيل أثبته ، وقيل جعله ، وقيل جمعه ، والمعانى متقاربة (وأيدهم بروح منه) أى قوّاهم بنصر منه على عدوّهم فى الدنيا ، وسمى نصره لهم روحا لأن به يحيا أمرهم ، وقيل هو نور القلب . وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة ، وقيل بجبريل ، وقيل بالإيمان ، وقيل برحمة . قرأ الجمهور « كتب » مبنيا للفاعل ونصب الإيمان على المفعولية . وقرأ زرّ بن حبيش والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول ورفع الإيمان على النيابة . وقرأ زرّ بن حبيش « عشيراتهم » بالجمع ، ورويت هذه القراءة عن عاصم (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) على الأبد (رضى الله عنهم) أى قبل أعمالهم وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة (ورضوا عنه) أى فرحوا بما أعطاهم عاجلا وآجلا (أولئك حزب الله) أى جنده الذين يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه ، وفى إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم (ألا إن حزب الله هم

المفلحون) أى الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح .

وقد أخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فقال : ذرنى آتيك بهم ، فحلفوا واعتذروا ، فأنزل الله (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية والتى بعدها » . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتقصد لأبى عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر تصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت (لا تجد قوما يؤمنون بالله) الآية .

تفسير سورة الحشر

هى أربع وعشرون آية

وهى مدنية . قال القرطبى فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحشر بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة النضير : يعنى أنها نزلت فى بنى النضير كما صرح بذلك فى بعض الروايات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٥) وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) .

قوله (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) قد تقدم تفسير هذا فى سورة الحديد . (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ، نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظارا منهم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فغدروا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن عاهدوه ، وصاروا عليه مع المشركين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى رضوا بالجلاء . قال الكلبى : كانوا أول من أجلى من أهل الذمة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم فى زمن عمر بن الخطاب ، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم . وقيل إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر ، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر ، وهى الشام . قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم : اخرجوا ، قالوا إلى أين ؟ قال إلى أرض المحشر . قال ابن العربى : الحشر أول وأوسط وآخر ، فالأول إجلاء بنى النضير ، والأوسط إجلاء أهل خيبر ، والآخر يوم القيامة .

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى فقال : هم بنو قريظة ، وهو غلط ، فإن بنى قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . واللام فى لأول الحشر متعلقة بأخرج ، وهى لام التوقيت كقوله ـ لدلوك الشمس ـ . (ما ظننتم أن يخرجوا) هذا خطاب للمسلمين : أى ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدة (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، وقوله مانعتهم خبر مقدم ، وحصونهم مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر أنهم ، ويجوز أن يكون مانعتهم خبر أنهم وحصونهم فاعل مانعتهم ، ورجح الثانى أبو حيان ، والأول أولى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أى أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك ، وقيل هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله ابن جريج والسدى وأبو صالح ، فإن قتله أضعف شوكتهم . وقيل إن الضمير فى أتاهم ولم يحتسبوا للمؤمنين : أى فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا ، والأول أولى لقوله (وقذف فى قلوبهم الرعب) فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير ، لا فى قلوب

المسلمين . قال أهل اللغة : الرعب الخوف الذى يرعب الصدر : أى يملؤه ، وقذفه إثباته فيه . وقيل كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ، والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب الذى قذفه الله فى قلوبهم هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم . قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدى المؤمنين أنهم عرضوها لذلك . قرأ الجمهور « يخربون » بالتخفيف ، وقرأ الحسن والسلمى ونصر بن عاصم وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد . قال أبو عمرو : إنما اخترت القراءة بالتشديد ، لأن الإخراب ترك الشىء خرابا ، وإنما خربوها بالهدم . وليس ماقاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد . قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته وأفرحته وفرحته واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم . قال الزهرى وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا يستحسنون الخشبة أوالعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويخرب المؤمنون باقيها . وقال الزهرى أيضا : يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة وأيدى المؤمنين بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم فى تركهم لها وأيدى المؤمنين فى إجلائهم عنها ، والجملة إما مستأنفة لبيان مافعلوه ، أو فى محل نصب على الحال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى اتعظوا وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر . قال الواحدى : ومعنى الاعتبار النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا) أى لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة . والجلاء مفارقة الوطن ، يقال جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء . والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا من جهتين : إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . الثانى أن الجلاء لايكون إلا الجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد ، كذا قال الماوردى (ولهم فى الآخرة عذاب النار) هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب وإن نجوا من عذاب الدنيا ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم ذكره من الجلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد (ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب) اقتصر هاهنا على مشاقة الله ، لأن مشاقته مشاقة لرسوله . قرأ الجمهور « يشاق » بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميفع « يشاقق » بالفك (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا فى قطع النخل فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هى مغانم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدوّ ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم فقال ـ ماقطعتم من لينة ـ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير وهم أهل كتاب : يامحمد ألست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض ، فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أىّ شىء

قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير فى تركتموها عائد إلى « ما » لتفسيرها باللينة ، وكذا فى قوله (قائمة على أصولها) ومعنى على أصولها : أنها باقية على ماهى عليه .

واختلف المفسرون فى تفسير اللينة ، فقال الزهرى ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله إلا العجوة . وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها . وقال الثورى : هى كرام النخل . وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرنى . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة ، وقيل هى ضرب من النخل ، يقال لتمره اللون ، تمره أجود التمر . وقال الأصمعى : هى الدقل ، وأصل اللينة لونة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة لين ، وقيل ليان . وقرأ ابن مسعود « ماقطعتم من لينة ولا تركتم قوما على أصولها » أى قائمة على سوقها ، وقرئ « على أصلها » وقرئ « قائما على أصوله » (وليخزى الفاسقين) أى ليذل الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ويغيظهم فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاءوا من القطع والترك ازدادوا غيظا . قال الزجاج : وليخزى الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : وليخزى الفاسقين أذن فى ذلك ، يدل على المحذوف قوله (فبإذن الله) وقد استدل بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى فى كتب الأصول (وما أفاء الله على رسوله منهم) أى ما رده عليه من أموال الكفار ، يقال فاء يفىء إذا رجع ، والضمير فى منهم عائد إلى بنى النضير (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) يقال وجف الفرس والبعير يجف وجفا : وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذ أو بد بالبيض الحديد صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب : ألا رب ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجف الركب

و« ما » فى (فما أوجفتم) نافية ، والفاء جواب الشرط إن كانت « ما » فى قوله (ما أفاء الله) شرطية وإن موصولة فالفاء زائدة ، « ومن » فى قوله (من خيل) زائدة للتأكيد ، والركاب ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما رد الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا ولا تجشمتم لها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل الله سبحانه أموال بنى النضير لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها ، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) من أعدائه ، وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشيا ، ولم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب (والله على كل شىء قدير) يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء - لايسأل عما يفعل وهم يسألون - (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) هذا بيان لمصارف الفىء بعد بيان أنه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع أهل القرى موضع قوله « منهم » أى من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لايختص ببنى النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلحا ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب ، قيل والمراد بالقرى : بنو النضير وقريظة وفدك وخيبر . وقد تكلم أهل العلم فى هذه الآية والتى قبلها ؟ هل معناهما متفق أو مختلف ، فقيل معناهما متفق كما ذكرنا ، وقيل مختلف ، وفى ذلك كلام لأهل العلم طويل : قال ابن

العربي : لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات . أما الآية الأولى ، وهي قوله (وما أفاء الله على رسوله منهم) فهي خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالصة له وهي أموال بني النضير وما كان مثلها . وأما الآية الثانية ، وهي قوله (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) فهذا كلام مبتدأ غير الأول بمستحق غير الأول وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه الله على رسوله واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال ، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهي قوله (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من هاهنا ؛ فطائفة قالت هي ملحقة بالأولى وهي مال الصلح ، وطائفة قالت هي ملحقة بالثالثة وهي آية الأنفال . والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة أو محكمة هذا معنى حاصل كلامه . وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والآية الثانية هي في بني قريظة ، ويعني أن معناها يعود إلى آية الأنفال . ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهي بعده لمصالح المسلمين (فلله وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) المراد بقوله « لله » أنه (يحكم فيه بما يشاء) « وللرّسول » يكون ملكا له « ولذى القربى » وهم بنو هاشم وبنو المطلب لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقا في الفيء . قيل تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وخمسه يقسم أخماسا . للرّسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس ، وقيل يقسم أسداسا . السادس سهم الله سبحانه ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء ، والدولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرّة ، ولهذا مرّة . قال مقاتل : المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم . قرأ الجمهور « يكون » بالتحتية دولة بالنصب : أي كيلا يكون الفيء دولة . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيان « تكون » بالفوقية دولة بالرفع : أي كيلا تقع أو توجد دولة ، وكان تامة . وقرأ الجمهور « دولة » بضم الدال . وقرأ أبو حيوة والسلمى بفتحها . قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعي هما لغتان بمعنى واحد . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة . ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) أي ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه . قال الحسن والسدّي : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه . وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتي فافعلوا ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه . والحقّ أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله صلى آله وسلم من أمر أو نهي أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرّسول وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه وخوفهم شدّة عقوبته ، فقال (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فهو معاقب من لم يأخذها ما آتاه الرّسول ولم يترك ما نهاه عنه .

وقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : كانت غزوة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة :

يعنى السلاح ، فأنزل الله فيهم (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) إلى قوله (لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا) فقاتلهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتى صالحهم على الإجلاء وجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى ، وأما قوله (لأوّل الحشر) فكان إجلاؤهم ذلك أوّل حشر فى الدنيا إلى الشام . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقىّ فى البعث عن ابن عباس قال « من شكّ أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر) قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يومئذ اخرجوا ، قالوا إلى أين ؟ قال إلى أرض المحشر » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقىّ فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بنى لؤىّ حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) » . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : اللينة النخلة (وليخزى الفاسقين) قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاكّ فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله (ماقطعتم من لينة) الآية ، وفى الباب أحاديث ، والكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير . وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ، ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) فجعل ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها . قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان من ذلك خيبر وفدك وقرى عرينة . وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعمد لينبع ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحتواها كلها ، فقال ناس هلا قسمها الله فأنزل الله عذره فقال (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) الآية . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين ، فكان الذى لله ورسوله من ذلك الكثيبة والوطيح وسلالم ووحدوه ، وكان الذى للمسلمين الشقّ ، والشقّ ثلاثة عشر سهما ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارىّ . وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صفايا فى النضير وخيبر وفدك ؛ فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءا لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله

ردّها على فقراء المهاجرين. وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبى شيبة وابن زنجويه فى الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ماعلى وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفىء حقّ إلا ماملكت أيمانكم . وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أمّ يعقوب ، فجاءت ابن مسعود ، فقالت : بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، قال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو فى كتاب الله ؟ قالت : لقد قرأت مابين الدّفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت (ما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه » .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

قوله (الفقراء) قيل هو بدل من ـ لذى القربى ـ وما عطف عليه ، ولايصح أن يكون بدلا من الرسول وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالفقر ، وقيل التقدير ـ كى لايكون دولة ـ ولكن يكون للفقراء ، وقيل التقدير : اعجبوا للفقراء ، وقيل التقدير : والله شديد العقاب للفقراء : أى شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء ، وقيل هو عطف على مامضى بتقدير الواو كما تقول المال لزيد لعمرو لبكر ، والمراد بـ (المهاجرين) الذين هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبة فى الدين ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين ، ومعنى (أخرجوا من ديارهم) أن كفار مكة أخرجوهم منها واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أى يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق فى الدنيا ، وبالرضوان فى الآخرة (وينصرون الله ورسوله) بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على يبتغون ، ومحل الجملتين النصب على الحال ، الأولى مقارنة ، والثانية مقدّرة : أى ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالا مقارنة لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله (أولئك) إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره (هم الصادقون) أى الكاملون فى الصدق الراسخون فيه . ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال (والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم) المراد بالدار المدينة ، وهى دار الهجرة ، ومعنى تبوّئهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها مباءة : أى تمكنوا منهما تمكنا شديدا ، والتبوّأ فى الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل ، وقيل إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور ، والتقدير : واعتقدوا الإيمان أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو على الفارسى : ويجوز أن

يكون على حذف مضاف : أى تبوءوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوّءوا مضمنا لمعنى لزموا ، والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى من قبلهم : من قبل هجرة المهاجرين فلا بدّ من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ وخبره (يحبون من هاجر إليهم) وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم فى أموالهم ومساكنهم (ولا يجدون فى صدورهم حاجة) أى لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا وغيظا وحزازة (مما أوتوا) أى مما أوتى المهاجرون دونهم من الفىء ، بل طابت أنفسهم بذلك . وفى الكلام مضاف محذوف : أى لا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة أو أثر حاجة ، وكلّ ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة . وكان المهاجرون فى دور الأنصار « فلما غنم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم والمشاركة لكم فى أموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم ، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين وطابت أنفسهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الإيثار تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة ، يقال : آثرته بكذا : أى خصصته به ، والمعنى : ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا « ولو كان بهم خصاصة » أى حاجة وفقر . والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت ، وهى الفرج التى تكون فيه ، وجملة ولو كان بهم خصاصة فى محل نصب على الحال ، وقيل إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص ، وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

(ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) قرأ الجمهور « يوق » بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف . وقرأ الجمهور « شحّ نفسه » بضم الشين . وقرأ ابن عمر وابن أبى عبلة بكسرها . والشحّ : البخل مع حرص ، كذا فى الصحاح ، وقيل الشحّ أشدّ من البخل . قال مقاتل : شحّ نفسه : حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شحّ النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه ولم يمنع شيئا أمره الله بأدائه فقد وقى شحّ نفسه . قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده ، والشحّ أن يشحّ بما فى أيدى الناس ، يحبّ أن يكون له ما فى أيديهم بالحلال والحرام لا يقنع . وقال ابن عيينة : الشحّ الظلم . وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشىء من الأشياء التى يقبح الشحّ بها شرعا من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك كما تفيده إضافة الشحّ إلى النفس ، والإشارة بقوله (فأولئك) إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره (هم المفلحون) والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب . ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار ، ذكر ما ينبغى أن يقوله من جاء بعدهم ، فقال (والذين جاءوا من بعدهم) وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وقيل هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوّة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوّة إلى يوم القيامة ، لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأوّلين والأنصار ، والموصول مبتدأ وخبره (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ويجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله (والذين تبوّءوا الدار والإيمان) ، فيكون يقولون فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لا محل له ، والمراد بالأخوّة هنا أخوة الدّين ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدّمهم من المهاجرين

والأنصار (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى غشا وبغضا وحسدا . أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوّليا لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به فى هذه الآية ، فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان وحلّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه والاستغاثة به ، بأن ينزع عن قلبه ماطرقه من الغلّ لخير القرون وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز مايجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع فى غضب الله وسخطه ، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة أوصاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان وزين لهم الأكاذيب المختلقة والأقاصيص المفتراة والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر ، ومازال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله وخير أمته وصالحى عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله وهجروا شعائر الدين ، وسعوا فى كيد الإسلام وأهله كل السعى ورموا الدين وأهله بكلّ حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط (ربنا إنك رءوف رحيم) أى كثير الرأفة والرحمة بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

وقد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله ؟ أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا فقال : ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله ، فقال رجل من الأنصار ، وفى رواية فقال أبوطلحة الأنصارى : أنا يارسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تدّخريه شيئا ، قالت : والله ماعندى إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففعلت ، ثم غدا الضيف على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة ، وأنزل فيهما (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل ، فنزلت فيهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أن رجلا قال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنى سمعت الله يقول (ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشحّ ، ولكنه البخل ولا خير فى البخل ، وإن الشحّ الذى

ذكره الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشرّ ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ماليس له .وأخرج ابن المنذر عن عليّ ابن أبى طالب قال : من أدّى زكاة ماله فقد وقى شحّ نفسه . وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مامحق الإسلام محق الشحّ شىء قط . وأخرج أحمد والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذمّ الشحّ . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : الناس على ثلاث منازل قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت ، ثم قرأ (والذين جاءوا من بعدهم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية (والذين جاءوا من بعدهم) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه (للفقراء المهاجرين) الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه (والذين تبوّءوا الدار والإيمان) الآية . ثم قال : هؤلاء الأنصار أفأنت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه (والذين جاءوا من بعدهم) الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَايَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَايَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ (١٣) لَايُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ
جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَعْقِلُونَ (١٤)
كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ
إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦)
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٧)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَيٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِى أَصْحَٰبُ النَّارِ وَأَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) .

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ماجرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال (ألم تر إلى الذين نافقوا) والخطاب لرسول الله ، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم عبدالله بن أبيّ وأصحابه ، وجملة (يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر ، واللام فى لإخوانهم هى لام التبليغ ، وقيل هو من قول بنى النضير لبنى قريظة ، والأول أولى ؛ لأن بنى النضير وبنى قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم ، واللام فى قوله (لئن أخرجتم) هى الموطئة للقسم : أى والله لئن أخرجتم من دياركم (لنخرجنّ معكم) هذا جواب القسم : أى لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم (ولا نطيع فيكم) أى فى شأنكم ، ومن أجلكم (أحدا) ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله (أبدا) . ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا (وإن قوتلتم لننصرنكم) على عدوّكم . ثم كذبهم سبحانه فقال (والله يشهد إنهم لكاذبون) فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم . ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصّل ماكذبوا فيه فقال (لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم) وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر (ولئن نصروهم) أى لو قدّر وجود نصرهم إياهم ، لأن مانفاه الله لايجوز وجوده . قال الزجاج : معناه لو قصدوا نصر اليهود (ليولنّ الأدبار) منهزمين (ثم لاينصرون) يعنى اليهود لايصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون ، وقيل يعنى لايصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم ، وقيل معنى الآية : لاينصرونهم طائعين ولئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار ، وقيل معنى لاينصرونهم : لايدومون على نصرهم ، والأول أولى ، ويكون من باب قوله ـ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ـ (لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله) أى لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا وخشية فى صدور المنافقين ، أو صدور اليهود ، أو صدور الجميع من الله : أى من رهبة الله ، والرهبة هنا بمعنى المرهوبية ، لأنها مصدر من المبنى للمفعول ، وانتصابها على التمييز (ذلك بأنهم قوم لايفقهون) أى ماذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذى سلطكم عليهم ، فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم ، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال (لايقاتلونكم جميعا) يعنى لايبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك (إلا فى قرى محصنة) بالدروب والدور (أو من وراء جدر) أى من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم ورهبتهم . وقرأ الجمهور « جدر » بالجمع ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وابن كثير وأبوعمرو « جدار » بالإفراد . واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبوحاتم لأنها موافقة لقوله قرى محصنة . وقرأ بعض المكيين « جدر » بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهى لغة فى الجدار (بأسهم بينهم شديد) أى بعضهم غليظ فظ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة . قال السدى : المراد اختلاف قلوبهم حتى لايتفقوا على أمر واحد . وقال مجاهد : بأسهم بينهم شديد بالكلام

والوعيد ليفعلن كذا. والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة والبأس ، وإذا لاقوا عدوّا ذلوا وخضعوا وانهزموا . وقيل المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد. وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله فى قلوبهم من الرعب ، والأوّل أولى لقوله (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فإنه يدلّ على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذى بينهم الموصوف بالشدّة . ومعنى شتى متفرقة . قال مجاهد : يعنى اليهود والمنافقين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . وروى عنه أيضا أنه قال : المراد المنافقون . وقال الثورى : هم المشركون وأهل الكتاب. قال قتادة : تحسبهم جميعا : أى مجتمعين على أمر ورأى ، وقلوبهم شتى متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم . وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحقّ . وقرأ ابن مسعود « وقلوبهم أشت » أى أشد اختلافا (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) أى ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لايعقلون شيئا ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه (كمثل الذين من قبلهم) أى مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين (قريبا) يعنى فى زمان قريب ، وانتصاب قريبا على الظرفية : أى يشبهونهم فى زمن قريب ، وقيل العامل فيه ذاقوا : أى ذاقوا فى زمن قريب ، ومعنى (ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم ، قاله قتادة . وقيل قتل بنى قريظة ، قاله الضحاك . وقيل هو عامّ فى كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأوّل أولى (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة . ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر فقال (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) أى مثلهم فى تخاذلهم وعدم تناصرهم ، فهو إما خبر مبتدإ محذوف ، أو خبر آخر للمبتدإ المقدّر قبل قوله (كمثل الذين من قبلهم) على تقدير حذف حرف العطف كما تقول : أنت عاقل ، أنت عالم ، أنت كريم . وقيل المثل الأوّل خاص باليهود ، والثانى خاص بالمنافقين . وقيل المثل الثانى بيان للمثل الأوّل . ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال (إذ قال للإنسان اكفر) أى أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان ، وقيل هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه (فلما كفر قال إنى برىء منك) أى فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان ، وقبولا لتزيينه قال الشيطان إنى برىء منك . وهذا يكون منه يوم القيامة ، وجملة (إنى أخاف الله ربّ العالمين) تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره . وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل ، والأوّل أولى . قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم ، قيل وليس قول الشيطان (إنى أخاف الله) على حقيقته . إنما هو على وجه التبرّى من الإنسان فهو تأكيد لقوله (إنى برىء منك) قرأ الجمهور « إنى » بإسكان الياء . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها (فكان عاقبتهما أنهما فى النار) قرأ الجمهور « عاقبتهما » بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها أنهما فى النار . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان ، والخبر مابعده ، والمعنى فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذى كفر أنهما صائران إلى النار (خالدين فيها) قرأ الجمهور « خالدين » بالنصب على الحال . وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن علىّ وابن أبى عبلة « خالدان » على أنه خبر أنّ والظرف متعلق به (وذلك جزاء الظالمين) أى الخلود فى النار جزاء الظالمين ، ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوّليا . ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (ولتنظر نفس ماقدّمت لغد) أى لتنظر أىّ شىء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد . وقيل ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة (واتقوا الله) كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد (إن الله

خبير بما تعملون) لايخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ (ولاتكونوا كالذين نسوا الله) أى تركوا أمره ، أو ما قد روه حق قدره ، أو لم يخافوه ، أوجميع ذلك (فأنساهم أنفسهم) أى جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصى التى توقعهم فيه ، فى الكلام مضاف محذوف : أى أنساهم حظوظ أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، وقيل نسوا الله فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد (أولئك هم الفاسقون) أى الكاملون فى الخروج عن طاعة الله (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) فى الفضل والرتبة ، والمراد الفريقان على العموم ، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى الله منهم دخولا أوّليا ، ويدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا لأن السياق فيهم ، وقد تقدّم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة ، وفى سورة السجدة ، وفى سورة ص . ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم وبين أهل النار فقال (أصحاب الجنة هم الفائزون) أى الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه :

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ألم تر إلى الذين نافقوا) قال : عبد الله بن أبىّ ابن سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظى ، وإخوانهم بنو النضير . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم فى الدلائل عنه أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ووديعة بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لانسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ماحملت الإبل إلا الحلقة ، ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) قال : هم المشركون . وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه وأحمد فى الزهد وعبد ابن حميد والبخارى فى تاريخه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن علىّ ابن أبى طالب أن رجلا كان يتعبد فى صومعة وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها ، فجاءوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إنى أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك ، فسجد له ، فذلك قوله (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) الآية . قلت : وهذا لايدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدلّ على أنه من جملة من تصدق عليه . وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه مايدلّ على أنه المقصود بالآية . وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (كمثل الشيطان) قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر .

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ

ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤).

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم استوائهم فى شىء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم ، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترقّ له الأفئدة ، فقال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله) أى من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوّة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة وشدّة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا : أى متشققا من خشية الله سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من أن لايؤدى مايجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل يقتضى علوّ شأن القرآن وقوّة تأثيره فى القلوب ويدلّ على هذا قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ وينزجروا بالزواجر ، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ، ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، والخاشع الذليل المتواضع . وقيل الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : أى لو أنزلنا هذا القرآن يامحمد على جبل لما ثبت ولتصدّع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقوّيناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الله سبحانه ثبته لما لاتثبت له الجبال الرواسى . ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته ، فقال (هو الله الذى لا إله إلا هو) وفى هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك (عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما غاب من الإحساس وما حضر ، وقيل عالم السرّ والعلانية ، وقيل ماكان وما يكون ، وقيل الآخرة والدنيا ، وقدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّما وجودا (هو الرحمن الرحيم) قد تقدّم تفسير هذين الاسمين (هو الله الذى لا إله إلا هو) كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك (الملك القدّوس) أى الطاهر من كل عيب المنزّه عن كل نقص ، والقدس بالتحريك فى لغة أهل الحجاز السطل ، لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء . قرأ الجمهور « القدّوس » بضم القاف . وقرأ أبوذرّ وأبو السماك بفتحها ، وكان سيبويه يقول سبوح قدّوس بفتح أوّلهما ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ « القدّوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل إلا السبوح والقدّوس ، فإن الضم فيهما أكثر ، وقد يفتحان (السلام) أى الذى سلم من كل نقص وعيب ، وقيل المسلم على عباده فى الجنة ، كما قال ـ سلام قولا من ربّ رحيم ـ وقيل الذى سلم الخلق من ظلمه ، وبه قال الأكثر ، وقيل المسلم لعباده ، وهو مصدر وصف به للمبالغة (المؤمن) أى الذى وهب لعباده الأمن من عذابه ، وقيل المصدّق لرسله بإظهار المعجزات ، وقيل المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدّق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب ، يقال أمنه من الأمن وهو ضدّ الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وقال مجاهد : المؤمن الذى وحد نفسه بقوله ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ . قرأ الجمهور « المؤمن » بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن . وقرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله ـ واختار موسى قومه ـ وقال أبو حاتم : لاتجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفا فأمنه غيره (المهيمن) أى

الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم . كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل : يقال هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيبا على الشيء . قال الواحدى : وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأول أولى . وقد قدّمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة (العزيز) الذى لا يوجد له نظير ، وقيل القاهر . وقيل الغالب غير المغلوب ، وقيل القوىّ (الجبار) جبروت الله عظمته ، والعرب تسمى الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير . ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم . وبه قال السدّى ومقاتل ، واختاره الزجاج والفراء ، قال : هو من أجبره على الأمر : أى قهره . قال : ولم أسمع فعالا من أفعل إلا فى جبار من أجبر ، ودرّاك من أدرك ، وقيل الجبار الذى لا تطاق سطوته (المتكبر) أى الذى تكبر عن كل نقص وتعظم عما لا يليق به ، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت　　بها كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبر فى صفات الله مدح . وفى صفات المخلوقين ذمّ . قال قتادة : هو الذى تكبرّ عن كل سوء . قال ابن الأنبارى : المتكبر ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين . فقال (سبحان الله عما يشركون) أى عما يشركونه أو عن إشراكهم به (هو الخالق) أى المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته (البارئ) أى المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها . وقيل المميز لبعضها من بعض (المصوّر) أى الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل قال النابغة :

الخالق البارئ المصور فى الـ　　أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى المصوّر بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ : أى الذى برأ المصوّر : أى ميزه (له الأسماء الحسنى) قد تقدّم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله ـ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ـ (يسبح له ما فى السموات والأرض) أى ينطق بتنزيهه بلسان الحال ، أو المقال كل ما فيهما (وهو العزيز الحكيم) أى الغالب لغيره الذى لا يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، فى قوله (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) قال : يقول لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود وعلىّ مرفوعا فى قوله (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) إلى آخر السورة قال : هى رقية الصداع . رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما . وأخرج الخطيب فى تاريخه بإسناده إلى إدريس ابن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإنى قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإنى قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإنى قرأت على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بلغت هذه الآية قال لى : ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لى ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلا السام ، والسام الموت . قال الذهبى : هو باطل . وأخرجه ابن السنى فى عمل يوم وليلة وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

أمر رجلا إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : إن متّ متّ شهيدا . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من تعوّذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلا حتى يصبح ، وإن كان نهارا حتى يمسى » . وأخرج أحمد والدارمى والترمذى وحسنه والطبرانى وابن الضريس والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « من قال حين يصبح ثلاث مرّات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن عدىّ وابن مردويه والخطيب والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (عالم الغيب والشهادة) قال : السرّ والعلانية . وفى قوله (المؤمن) قال : المؤمّن خلقه من أن يظلمهم ، وفى قوله (المهيمن) قال : الشاهد .

تفسير سورة الممتحنة

هى ثلاث عشرة آية

وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازا ، كما سميت سورة براءة الفاضحة لكشفها عن عيوب المنافقين ، وقيل الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول أضافه إلى المرأة التى نزلت فيها ، وهى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، لقوله سبحانه — فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن —

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهٰدًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) .

قال المفسرون : نزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء) فى حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى مشركى قريش يخبرهم بمسير النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ، وسيأتى ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله ، وقوله (عدوّى) هو المفعول الأوّل (وعدوّكم) معطوف عليه ، والمفعول الثانى أولياء ، وأضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيما لجرمهم ، والعدوّ مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، والآية تدلّ على النهى عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه (تلقون إليهم بالمودّة) أى توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة ، أوهى سببية . والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بسبب المودّة التى بينكم وبينهم . قال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وسرّه بالمودّة التى بينكم وبينهم ، والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ؛ ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب صفة لأولياء ، وجملة (وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ) فى محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لاتتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار . قرأ الجمهور « بما جاءكم » بالباء الموحدة . وقرأ الجحدرى وعاصم فى رواية عنه « لما جاءكم » باللام : أى لأجل ماجاءكم من الحق على حذف المكفور به : أى كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أو على جعل ماهو سبب للإيمان سببا للكفر توبيخا لهم (يخرجون الرسول وإياكم) الجملة مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب على الحال ، وقوله (أن تؤمنوا بالله ربكم) تعليل للإخراج : أى يخرجونكم لأجل إيمانكم ، أو كراهة أن تؤمنوا (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) جواب الشرط محذوف أى إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودّة ، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ، وانتصاب جهادا وابتغاء على العلة : أى إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد فى سبيلى ولأجل ابتغاء مرضاتى ، وجملة (تسرّون إليهم بالمودّة) مستأنفة للتقريع والتوبيخ : أى تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة ، وقيل هى بدل من قوله : تلقون . ثم أخبر سبحانه بأنه لايخفى عليه من أحوالهم شىء ، فقال (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) والجملة فى محل نصب على الحال : أى بما أضمرتم وما أظهرتم ، والباء فى بما زائدة : يقال علمت كذا وعلمت بكذا ، هذا على أن أعلم مضارع ، وقيل هو أفعل تفضيل : أى أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون (ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل) أى من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّى وعدوّكم أولياء ويلقى إليهم بالمودّة فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضلّ عن قصد السبيل (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء) أى إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما فى قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة ، وهى طلب مصادفة الغرّة فى المسابقة ، وقيل المعنى : إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أى يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه ، وألسنتهم بالشتم ونحوه (وودّوا لو تكفرون) هذا معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجح هذا أبو حيان ، والمعنى : أنهم تمنوا ارتدادهم وودّوا رجوعهم إلى الكفر (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أى لاتنفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم فى الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنوّ عليهم ، والمعنى : أن هؤلاء لاينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم كما وقع فى قصة حاطب بن أبى بلتعة ، بل الذى ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم ، وجملة (يوم القيامة يفصل بينكم) مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم ومعنى (يفصل بينكم) يفرّق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل المراد بالفصل بينهم

أنه يفرّ كلّ منهم من الآخر من شدّة الهول كما فى قوله ـ يوم يفرّ المرء من أخيه ـ الآية . قيل ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله : أى لن تنفعكم أرحامكم ولاأولادكم يوم القيامة فيوقف عليه . ويبتدأ بقوله (يفصل بينكم) والأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا (والله بما تعملون بصير) لايخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك . قرأ الجمهور « يفصل » بضم الياء وتخفيف الفاء وفتح الصاد مبنيا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ عاصم بفتح الياء وكسر الصاد مبنيا للفاعل . وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشدّدة . وقرأ علقمة بالنون . وقرأ قتادة وأبو حيوة بضم الياء وكسر الصاد مخففة .

وقد أخرج البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عليّ بن أبى طالب قال : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا أخرجى الكتاب ، قالت ما معى من كتاب ، فقلنا لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : ما هذا ياحاطب ؟ قال : لاتعجل عليّ يارسول الله ، إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : صدق ، فقال عمر : دعنى أضرب عنقه ، فقال : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . ونزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة) » . وفى الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة ، وأن هذه الآيات إلى قوله (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم) نازلة فى ذلك .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ (٩) .

لما فرغ سبحانه من النهى عن موالاة المشركين والذمّ لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلا حين تبرأ من قومه ، فقال (قد كانت لكم إسوة حسنة) أى خصلة حميدة تقتدون بها : يقال لى به أسوة فى هذا الأمر : أى اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به فى ذلك إلا فى استغفاره لأبيه . قرأ الجمهور « إسوة » بكسر الهمزة : وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر القدوة ، ويقال هو أسوتك : أى مثلك وأنت مثله ؛ وقوله فى إبراهيم والذين معه متعلق بأسوة ، أو بحسنة ، أو هو نعت لأسوة ، أو حال من الضمير المستتر فى حسنة ، أو خبر كان ، ولكم للبيان ، والذين معه هم أصحابه المؤمنون . وقال ابن زيد : هم الأنبياء .قال الفرّاء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ؛ والظرف فى قوله (إذ قالوا لقومهم) هو خبر كان ، أو متعلق به : أى وقت قولهم لقومهم الكفار (إنا برآء منكم) جمع برىء ، مثل شركاء وشريك ، وظرفاء وظريف . قرأ الجمهور « برآء » بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ، ككرماء فى كريم . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف ، ككرام فى جمع كريم . وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف (ومما تعبدون من دون الله) وهى الأصنام (كفرنا بكم) أى بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) أى هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم (حتى تؤمنوا بالله وحده) وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك) هو استثناء متصل من قوله : فى إبراهيم بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه ، أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه ، أو من التبرّى والقطيعة التى ذكرت : أى لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية ، أو هو منقطع : أى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فلا تأتسوا به ، فتستغفرون للمشركين ، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم - فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه - وقد تقدّم تحقيق هذا فى سورة براءة (وما أملك لك من الله من شىء) هذا من تمام القول المستثنى : يعنى ما أغنى عنك وما أدفع عنك من عذاب الله شيئا ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرنّ ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد ، فإنه إظهار للعجز وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها ، وقيل هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول ، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله ، والإنابة الرجوع ، والمصير المرجع ، وتقديم الجارّ والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) قال الزجاج : لاتظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حقّ فيفتتنوا بذلك . وقال مجاهد : لاتعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا (واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز) أى الغالب الذى لايغالب (الحكيم) ذوالحكمة البالغة (لقد كان لكم فيهم إسوة

حسنة) أي لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة ، وكرّر هذا للمبالغة والتأكيد ، وقيل إن هذا نزل بعد الأوّل بمدّة (لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر) بدل من قوله لكم بدل بعض من كلّ ، والمعنى : أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة (ومن يتولّ فإن الله هو الغنيّ الحميد) أي يعرض عن ذلك ، فإن الله هو الغنيّ عن خلقه الحميد إلى أوليائه (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة) وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم في الإسلام مودّة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقرّبة إلى الله . وقيل المراد بالمودّة هنا تزويج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأمّ حبيبة بنت أبي سفيان . ولا وجه لهذا التخصيص وإن كان من جملة ما صار سببا إلى المودّة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنها لم تحصل المودّة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده (والله قدير) أي بليغ القدرة كثيرها (والله غفور رحيم) أي بليغهما كثيرهما . ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موادّتهم فصل القول فيمن يجوز برّه منهم ومن لا يجوز فقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم) أي لا ينهاكم عن هؤلاء (أن تبرّوهم) هذا بدل من الموصول بدل اشتمال ، وكذا قوله (وتقسطوا إليهم) يقال أقسطت إلى الرّجل : إذا عاملته بالعدل . قال الزجاج : المعنى وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد (إن الله يحبّ المقسطين) أي العادلين ، ومعنى الآية : أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال ، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل . قال ابن زيد : كان هذا في أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ . قال قتادة : نسختها ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ وقيل هذا الحكم كان ثابتا في الصلح بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم . وقيل هي خاصة في حلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن بينه وبينه عهد قاله الحسن . وقال الكلبي : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف . وقال مجاهد : هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وقيل هي خاصة بالنساء والصبيان . وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة . ثم بين سبحانه من لا يحلّ برّه ولا العدل في معاملته فقال (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدّين وأخرجوكم من دياركم) وهم صناديد الكفر من قريش (وظاهروا على إخراجكم) أي عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم ، وقوله (أن تولوهم) بدل اشتمال من الموصول كما سلف (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) أي الكاملون في الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّا لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس (إلا قول إبراهيم لأبيه) قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولون لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة) قال : في صنيع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه ، وهو مشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن مردويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : أوّل من قاتل أهل الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب وفيه نزلت هذه الآية (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة) . وأخرج

ابن أبي حاتم عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل فلقي ذا الخمار مرتدًا ، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين . قال : وهو فيمن قال الله فيه (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال : كانت المودة التي جعل بينهم تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصارت أم المؤمنين ، فصار معاوية خال المؤمنين . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله ثلاث أعطنيهن ، قال نعم ، قال : تؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال نعم ، قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال نعم ، قال : وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها » الحديث . وأخرج الطيالسي وأحمد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب وأقط وسمن وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألته ، فأنزل الله (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين) الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر قالت « أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أأصلها ؟ فأنزل الله (لاينهاكم الله) الآية ، فقال : نعم صلي أمك » .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَايُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَايَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ (١٣)..

لما ذكر سبحانه حكم فريقي الكافرين في جواز البر والإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثاني ذكر حكم من يظهر الإيمان ، فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) من بين الكفار وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهنّ فقال (فامتحنوهنّ) أى فاختبروهنّ . وقد اختلف فيما كان يمتحنّ به ، فقيل كان يستحلفن بالله ماخرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حبا لله ولرسوله ورغبة فى دينه ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ولم يردّها إليه ، وقيل الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقيل ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الآية ، وهى ـ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات ـ إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عهد المدنة أم لا ؟ على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر . وعلى القول بعدمه لانسخ ولا تخصيص (الله أعلم بإيمانهنّ) هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لايعلمها إلا الله سبحانه ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم مايدلّ على صدق دعواهنّ فى الرغوب فى الإسلام (فإن علمتموهنّ مؤمنات) أى علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذى أمرتم به (فلا ترجعوهنّ إلى الكفار) أى إلى أزواجهنّ الكافرين ، وجملة (لاهنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ) تعليل للنهى عن إرجاعهنّ . وفيه دليل على أن المؤمنة لاتحلّ للكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لامجرّد هجرتها ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، أو الأوّل لبيان زوال النكاح ، والثانى لامتناع النكاح الجديد (وآتوهم ما أنفقوا) أى وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتى هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور. قال الشافعى : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض (ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ) لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم (إذا آتيتموهنّ أجورهنّ) أى مهورهنّ ، وذلك بعد انقضاء عدّتهنّ كما تدلّ عليه أدلة وجوب العدة (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قرأ الجمهور « تمسكوا » بالتخفيف من الإمساك ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لقوله ـ فأمسكوهنّ بمعروف ـ وقرأ الحسن وأبو العالية وأبوعمرو بالتشديد من التمسك ، والعصم جمع عصمة ، وهى مايعتصم به ، والمراد هنا عصمة عقد النكاح . والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين . قال النخعى : هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوّجون المسلمين ، والمسلمون يتزوّجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب . وقيل عامة فى جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثنيّ أو كتابيّ لايفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة . وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لاعدّة عليها (واسألوا

ما أنفقتم) أى اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار (وليسألوا ما أنفقوا) قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت ردّوا مهرها على زوجها الكافر (ذالكم حكم الله) أى ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم الله ، وقوله (يحكم بينكم) فى محل نصب على الحال . أومستأنفة (والله عليم حكيم) أى بليغ العلم لاتخفى عليه خافية بليغ الحكمة فى أقواله وأفعاله . قال القرطبي : وكان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار) لما نزلت الآية المتقدّمة قال المسلمون : رضينا بحكم الله وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا ، فنزل قوله (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار) مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات ، وقيل المعنى : وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة (فعاقبتم) قال الواحدى : قال المفسرون : فعاقبتم فغنمتم . قال الزجاج : تأويله وكانت العقبى لكم : أى كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) من مهر المهاجرة التى تزوّجوها ودفعوه إلى الكفار ولا تؤتوه زوجها الكافر . قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح . وحاصل معناها أن « من أزواجكم » يجوز أن يتعلق بفاتكم أى من جهة أزواجكم ، ويراد بالشيء المهر الذى غرمه الزوج ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء . ثم يجوز فى شيء أن يراد به المهر ، ولكن لابدّ على هذا من مضاف محذوف : أى من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف ، وصفته ، ويجوز أن يراد بشيء النساء : أى نوع وصنف منهنّ ، وهو ظاهر قوله (من أزواجكم) وقوله (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم) والمعنى : أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يردّ عليه المشركون مهرها كما حكم الله مثل ذلك المهر الذى أنفقه عليها من الغنيمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم ، فإن الإيمان الذى أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك (يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) أى قاصدات لمبايعتك على الإسلام ، و (على أن لايشركن بالله شيئا) من الأشياء كائنا ما كان ، هذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبايعنه ، فأمره الله أن يأخذ عليهنّ أن لايشركن (ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ) وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ) أى لايلحقن بأزواجهنّ ولدا ليس منهم . قال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهنّ وأرجلهنّ ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا (ولا يعصينك فى معروف) أى فى كل أمر هو طاعة لله . قال عطاء : فى كل برّ وتقوى ، وقال المقاتلان : عنى بالمعروف النهى عن النوح ، وتمزيق الثياب ، وجزّ الشعر ، وشقّ الجيب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه . قيل ووجه التقييد بالمعروف ، مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم لايأمر إلا به التنبيه على أنه لايجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق (فبايعهنّ) هذا جواب إذا ، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهنّ ، ولم يذكر فى بيعتهنّ الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ، وإنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء (واستغفر لهنّ الله) أى اطلب من الله المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك (إن الله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة لعباده

(ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) هم جميع طوائف الكفر، وقيل اليهود خاصة، وقيل المنافقون خاصة وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأوّل أولى، لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها (قد يئسوا من الآخرة) من لابتداء الغاية: أى أنهم لايوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أى كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، وقيل كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة، لأنهم قد وقفوا على الحقيقة وعلموا أنه لانصيب لهم فى الآخرة، فتكون «من» على الوجه الأوّل ابتدائية، وعلى الثانى بيانية، والأوّل أولى.

وقد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) حتى بلغ (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك. وأخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، وفيه وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهى عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجعها إليهم حتى أنزل الله فى المؤمنات ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فامتحنوهنّ) قال: كان امتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا علموا أن ذلك حقا منهنّ لم يرجعن إلى الكفار وأعطى بعلها فى الكفار الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صداقها الذى أصدقها وأحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهنّ أجورهنّ. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فسئلت ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها ورغبة عنه ردّت، وإن كانت خرجت رغبة فى الإسلام أمسكت وردّ على زوجها مثل ما أنفق، وأخرج ابن أبى أسامة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وابن مردويه بسند حسن كما قال السيوطى عن ابن عباس فى قوله (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ) قال: كان إذا جاءت المرأة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم حلفها عمر بن الخطاب بالله ماخرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ماخرجت من بغض زوج، وبالله ماخرجت التماس دنيا، وبالله ماخرجت إلا حبا لله ورسوله. وأخرج ابن منيع من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته فى المشركين، فأنزل الله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر). وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى والترمذى وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية (يا أيها النبىّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) إلى قوله (غفور رحيم) فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد بايعتك كلاما، والله مامست يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهنّ إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أتيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى نساء لنبايعه، فأخذ علينا مافى القرآن أن لانشرك بالله شيئا حتى بلغ - ولا يعصينك فى معروف - فقال: فيما استطعتنّ وأطقتنّ، فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يارسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إنى لا أصافح النساء، إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة» وفى الباب أحاديث. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال «بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على

الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله (ولا يأتين ببهتان يفترينه) قال : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية . قال لايلحقن بأزواجهن غير أولادهم (ولا يعصينك فى معروف) قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: قالت امرأة من النسوة ماهذا المعروف الذى لاينبغى لنا أن نعصيك فيه ؟ قال « لاتنحن ، قلت : يارسول الله إن بنى فلان أسعدونى على عمى لا بد لى من قضائهن ، فأبى على فعاودته مرارا فأذن لى فى قضائهن ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيرى » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أم عطية قالت : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يارسول الله إن فلانة أسعدتنى وأنا أريد أن أجزيها فلم يقل لها شيئا . فذهبت ثم رجعت فقالت : ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأم العلاء وبنت أبى سبرة امرأة معاذ أو بنت أبى سبرة وامرأة معاذ » . وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن النوح . وأخرج أبو إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن عمرو وزيد بن الحارث يودان رجلا من اليهود ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) الآية . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله (قد يئسوا من الآخرة) قال : فلا يؤمنون بها ولا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله .

تفسير سورة الصف

هى أربع عشرة آية

وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بمكة ، ولعل هذا لايصح عنه ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيسأله أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا رجلا رجلا فجمعنا ، فقرأ علينا هذه السورة يعنى سورة الصف كلها . وأخرجه ابن أبى حاتم ، وقال فى آخره : فنزلت فيهم هذه السورة . وأخرجه أيضا الترمذى وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين والبيهقى فى الشعب والسنن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِي إِسْرَٰءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَٰمِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩).

قوله (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) قد تقدّم الكلام على هذا ووجه التعبير فى بعض السور بلفظ الماضى كهذه السورة ، وفى بعضها بلفظ المضارع ، وفى بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح فى كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد قدّمنا نحو هذا فى أوّل سورة الحديد (وهو العزيز الحكيم) أى الغالب الذى لا يغالب : الحكيم فى أفعاله وأقواله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أى لم تقولون من الخير مالا تفعلونه ، ولم مركبة من اللام الجارّة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالها كما فى نظائرها ، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) أى عظم ذلك فى المقت ، وهو البغض ، والمقت والمقاتة مصدران ، يقال رجل مقيت وممقوت : إذا لم يحبه الناس قال الكسائى (أن تقولوا) فى موضع رفع ، لأن كبر فعل بمعنى بئس ، ومقتا منتصب على التمييز ، وعلى هذا فيكون فى كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة ، وأن تقولوا هو المخصوص بالذمّ ، ويجىء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء ، وخبره الجملة المتقدّمة عليه ، أو خبره محذوف أو هو خبر مبتدأ محذوف . وقيل إنه قصد بقوله كبر التعجب ، وقد عدّه ابن عصفور من أفعال التعجب . وقيل إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب ، بل هو مسند إلى أن تقولوا ، ومقتا تمييز محوّل عن الفاعل (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا) قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحبّ الأعمال إليه حتى نعمله ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا . فأنزل الله (إن الله يحبّ الذين يقاتلون) الآية ، وانتصاب صفا على المصدرية ، والمفعول محذوف : أى يصفون أنفسهم

صفا ، وقيل هو مصدر فى موضع الحال : أى صافين أو مصفوفين . قرأ الجمهور « يقاتلون » على البناء للفاعل . وقرأ زيد بن على على البناء للمفعول وقرئ « يقتلون » بالتشديد ، وجملة (كأنهم بنيان مرصوص) فى محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون ، أو من الضمير فى صفا على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى مرصوص : ملتزق بعضه ببعض ، يقال رصصت البناء أرصه رصا : إذا ضممت بعضه إلى بعض . قال الفراء : مرصوص بالرصاص . قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء : إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ، وقيل هو من الرصيص ، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، والتراص : التلاصق (وإذ قال موسى لقومه) لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين فى سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا فى سبيل الله وحل العقاب بمن خالفهما ، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر : أى اذكر يامحمد هؤلاء المعرضين وقت قول موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين فى سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعلوا مع نبيهم مافعله قوم موسى وعيسى معهما (ياقوم لم تؤذوننى) هذا مقول القول : أى لم تؤذوننى بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التى افترضها الله عليكم ، أو لم تؤذوننى بالشتم والانتقاص ، ومن ذلك رميه بالأدرة ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الأحزاب ، وجملة (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) فى محل نصب على الحال ، وقد لتحقق العلم أو لتأكيده ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى : كيف تؤذوننى مع علمكم بأنى رسول الله ، والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك فى الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التى توجب عليكم الاعتراف برسالتى ، وتفيدكم العلم بها علما يقينيا (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أى لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق ، وقيل فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب . قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه ، يعنى أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا (والله لايهدى القوم الفاسقين) هذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها . قال الزجاج : لايهدى من سبق فى علمه أنه فاسق ، والمعنى : أنه لايهدى كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم (وإذ قال عيسى بن مريم) معطوف على (وإذ قال موسى) معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول (يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة) أى إنى رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقا لما بين يدى من التوراة لأنى لم آتكم بشيء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على التبشير بى ، فكيف تنفرون عنى وتخالفوننى ، وانتصاب مصدقا على الحال ، (و) كذا (مبشرا) ، والعامل فيهما ما فى الرسول من معنى الإرسال ، والمعنى : أنى أرسلت إليكم حال كونى مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا بمن يأتى بعدى ، وإذا كنت كذلك فى التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبى ، وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وهو علم منقول من الصفة ، وهى تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمدا لله من غيره ، أومن المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمى وزر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم (من بعدى) بفتح الياء . وقرأ الباقون بإسكانها (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) أى لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذى جاءنا به سحر واضح ظاهر ، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة ، والأول أولى . قرأ الجمهور « سحر » وقرأ حمزة والكسائى « ساحر » (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام) أى لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على الله الكذب ، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذى هو خير الأديان

وأشرفها ، لأن من كان كذلك فحقه أن لايفترى على غيره الكذب ، فكيف يفترى به على ربه . قرأ الجمهور « وهو يدعى » من الدعاء مبنيا للمفعول . وقرأ طلحة بن مصرف « يدعى » بفتح الياء وتشديد الدال من الادّعاء مبنيا للفاعل ، وإنما عدّى بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب (والله لايهدى القوم الظالمين) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها . والمعنى : لايهدى من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) الإطفاء : الإخماد ، وأصله فى النار ، واستعير لما يجرى مجراها من الظهور . والمراد بنور الله القرآن : أى يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، أو الإسلام ، أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو الحجج والدلائل ، أو جميع ماذكر ، ومعنى بأفواههم : بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن (والله متمّ نوره) باظهار فى الآفاق وإعلائه على غيره . قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « متمّ نوره » بالإضافة والباقون بتنوين متمّ (ولو كره الكافرون) ذلك فإنه كائن لامحالة ، والجملة فى محل نصب على الحال . قال ابن عطية : واللام فى ليطفئوا لام مؤكدة دخلت على المفعول ، لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ماتلزم هذه اللام المفعول إذا تقدّم ، كقولك : لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصدت ، وقيل هى لام العلة ، والمفعول محذوف : أى يريدون إبطال القرآن أودفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا ، وقيل إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها . قال الفراء : العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائى ، ومثل هذا قوله ـ يريد الله ليبين لكم ـ وجملة (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، والهدى القرآن أو المعجزات ، ومعنى دين الحقّ : الملة الحقة ، وهى ملة الإسلام ، ومعنى ليظهره : ليجعله ظاهرا على جميع الأديان عاليا عليها غالبا لها ولو كره المشركون ذلك فإنه كائن لامحالة . قال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدّين مصدر يعبر به عن الأديان المتعدّدة ، وجواب لو فى الموضعين محذوف ، والتقدير أتمه وأظهره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله أخبرنا بأحبّ الأعمال فنعمل به ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن أحبّ الأعمال إيمان بالله لاشك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرّوا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشقّ عليهم أمره ، فقال الله (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) قال : هذه الآية فى القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفى ولم يفعلوا ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه أيضا قال : قالوا لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لفعلناه فأخبرهم الله فقال (إن الله يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) فكرهوا ذلك ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (كأنهم بنيان مرصوص) قال : مثبت لايزول ملصق بعضه على بعض . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الله الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب : والعاقب الذى ليس بعده نبى » .

يـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى
إِسْرَٰءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ (١٤) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار . قرأ الجمهور « تنجيكم » بالتخفيف من الإنجاء . وقرأ الحسن وابن عامر وأبوحيوة بالتشديد من التنجية . ثم بين سبحانه هذه التجارة التى دلّ عليها فقال (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وهو خبر فى معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ، وقدّم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هى التى يبدأ بها فى الإنفاق والتجهز إلى الجهاد . قرأ الجمهور « تؤمنون » وقرأ ابن مسعود « آمنوا وجاهدوا » على الأمر . قال الأخفش : تؤمنون عطف بيان لتجارة ، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ماذكر من الإيمان والجهاد ، وهومبتدأ وخبره (خير لكم) أى هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم (إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم ، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لاتعلمون ذلك (يغفر لكم ذنوبكم) هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، ولهذا جزم . قال الزجاج والمبرد : قوله « تؤمنون » فى معنى آمنوا ، ولذلك جاء يغفر لكم مجزوما . وقال الفراء : يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام ، وقد غلطه بعض أهل العلم . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ماينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال الرازى فى توجيه قول الفراء : إن هل أدلكم فى معنى الأمر عنده ، يقال هل أنت ساكت : أى اسكت ، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرّج إلى أن يصير عرضا وحثا ، والحثّ كالإغراء ، والإغراء أمر . وقرأ زيد بن علىّ « تؤمنوا ، وتجاهدوا » على إضمار لام الأمر . وقيل إن « يغفر لكم » مجزوم بشرط مقدّر : أى إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرأ بعضهم بالإدغام فى يغفر لكم ، والأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرّر فلا يحسن إدغامه فى اللام (ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) قد تقدّم بيان كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات (ومساكن طيبة فى جنات عدن) أى فى جنات إقامة (ذلك الفوز العظيم) أى ذلك المذكور من المغفرة ، وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذى لافوز بعده ، والظفر الذى لاظفر يماثله (وأخرى تحبونها) . قال الأخفش والفراء : أخرى معطوفة على تجارة فهى فى محل خفض : أى وهل أدلكم على خصلة

أخرى تحبونها فى العاجل مع ثواب الآخرة ، وقيل هى فى محل رفع : أى ولكم خصلة أخرى ، وقيل فى محل نصب : أى ويعطيكم خصلة أخرى . ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال (نصر من الله وفتح قريب) أى هى نصر من الله لكم ، وفتح قريب يفتحه عليكم ، وقيل نصر بدل من أخرى على تقدير كونها فى محلّ رفع ، وقيل التقدير : ولكم نصر وفتح قريب . قال الكلبي : يعنى النصر على قريش وفتح مكة . وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم (وبشر المؤمنين) معطوف على محذوف : أى قل يا أيها الذين آمنوا وبشر ، أو على تؤمنون لأنه فى معنى الأمر ، والمعنى : وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح ، أو وبشرهم بالنصر فى الدنيا والفتح ، وبالجنة فى الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة فى الآخرة . ثم حضّ سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) أى دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع « أنصارا لله » بالتنوين وترك الإضافة . وقرأ الباقون بالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معا ، واختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله « نحن أنصار الله » بالإضافة (كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله) أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى (من أنصارى إلى الله) فقالوا (نحن أنصار الله) والكاف فى « كما قال » نعت مصدر محذوف تقديره : كونوا كونا كما قال ، وقيل الكاف فى محل نصب على إضمار الفعل ، وقيل هو كلام محمول على معناه دون لفظه ، والمعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصارى إلى الله . وقوله (إلى الله) قيل إلى بمعنى مع : أى من أنصارى مع الله ، وقيل التقدير : من أنصارى فيما يقرّب إلى الله . وقيل التقدير : من أنصارى متوجها إلى نصرة الله ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة آل عمران . والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه ، وأوّل من آمن به ، وقد تقدّم بيانهم (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) أى آمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة ، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرّقوا وتقاتلوا (فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم) أى قوينا المحقين منهم على المبطلين (فأصبحوا ظاهرين) أى عالين غالبين ، وقيل المعنى : فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعا .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ فنزلت (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) فكرهوا فنزلت ـ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ـ إلى قوله ـ بنيان مرصوص ـ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه . وأخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة « أخرجوا إلىّ اثنى عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم » . وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنقباء « إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل قومى ، قالوا نعم » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (فأيدنا الذين آمنوا) قال : فقوينا الذين آمنوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فأيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته على عدوّهم فأصبحوا اليوم ظاهرين .

تفسير سورة الجمعة

هى إحدى عشرة آية

وهى مدنية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مرويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن عن أبى هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الجمعة سورة الجمعة و ـ إذا جاءك المنافقون ـ . وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن حبان والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة ـ قل ياأيها الكافرون ـ و ـ قل هو الله أحد ـ وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) هُوَ
ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلٰلٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ
ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرٰيةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰتِ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ
زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ
أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) .

قوله (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) قد تقدم تفسير هذا فى أول سورة الحديد ، وما بعدها من المسبحات (الملك القدوس العزيز الحكيم) قرأ الجمهور بالجرّ فى هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله ، وقيل على البدل ، والأوّل أولى . وقرأ أبو وائل بن محارب وأبو العالية ونصر بن عاصم ورؤبة بالرفع على إضمار مبتدإ ، وقرأ الجمهور « القدوس » بضم القاف ، وقرأ زيد بن على بفتحها ، وقد تقدم تفسيره (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) المراد بالأميين العرب ، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لايحسنها ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ،

والأمىّ فى الأصل الذى لايكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب كذلك ، وقد مضى بيان معنى الأمىّ فى سورة البقرة ، ومعنى « منهم » من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم وما كان حىّ من أحياء العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم قرابة ، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه (يتلوا عليهم آياته) يعنى القرآن مع كونه أميا لايقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد ، والجملة صفة لرسولا ، وكذا قوله (ويزكيهم) قال ابن جريج ومقاتل : أى يطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، وقال السدّى : يأخذ زكاة أموالهم ، وقيل يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان (ويعلمهم الكتاب والحكمة) هذه صفة ثالثة لرسولا ، والمراد بالكتاب القرآن ، وبالحكمة السنة ، كذا قال الحسن . وقيل الكتاب الخط بالقلم ، والحكمة الفقه فى الدين ، كذا قال مالك بن أنس (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) أى وإن كانوا من قبل بعثته فيهم فى شرك وذهاب عن الحق (وآخرين منهم) معطوف على الأميين : أى بعث فى الأميين ، وبعث فى آخرين منهم (لما يلحقوا بهم) ذلك الوقت ، وسيلحقون بهم من بعد ، أو هو معطوف على المفعول الأوّل فى يعلمهم ، أى ويعلم آخرين ، أو على مفعول يزكيهم : أى يزكيهم ويزكى آخرين منهم ، والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل المراد بهم من أسلم من غير العرب . وقال عكرمة : هم التابعون . وقال مجاهد : هم الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدّى : وجملة (لما يلحقوا بهم) صفة لآخرين ، والضمير فى منهم ولهم راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان مرسلا إلى جميع الثقلين ، فتخصيص العرب هاهنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لاينافى عموم الرسالة ، ويجوز أن يراد بالآخرين العجم لأنهم وإن لم يكونوا من العرب ، فقد صاروا بالإسلام منهم والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم (وهو العزيز الحكيم) أى بليغ العزة والحكمة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم ذكره . وقال الكلبى : يعنى الإسلام . وقال قتادة : يعنى الوحى والنبوّة . وقيل إلحاق العجم بالعرب ، وهو مبتدأ وخبره (فضل الله يؤتيه من يشاء) أى يعطيه من يشاء من عباده (والله ذو الفضل العظيم) الذى لايساويه فضل ولا يدانيه (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا فقال (مثل الذين حملوا التوراة) أى كلفوا القيام بها والعمل بما فيها (ثم لم يحملوها) أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها (كمثل الحمار يحمل أسفارا) هى جمع سفر و هو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ . قال ميمون بن مهران : الحمار لايدرى أسفر على ظهره أم زبل ؟ فهكذا اليهود . وقال الجرجانى : هو يعنى حملوا من الحمالة بمعنى الكفالة : أى ضمنوا أحكام التوراة ، وقوله : يحمل فى محلّ نصب على الحال ، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حمارا معينا ، فهو فى حكم النكرة كما فى قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى ... فمضيت ثم وقلت لايعننى

(بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التمييز محذوف ، والفاعل المفسر به مضمر ، ومثل القوم هو المخصوص بالذم ، أو مثل القوم فاعل بئس ، والمخصوص بالذمّ الموصول بعده على حذف مضاف : أى مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون فى محل جرّ ، والمخصوص بالذمّ محذوف ، والتقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء (والله لايهدى القوم الظالمين) يعنى على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوّليا (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله

من دون الناس) المراد بالذين هادوا الذين تهوّدوا ، وذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس ، وأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما فى قولهم ـ نحن أبناء الله وأحباؤه ـ وقولهم ـ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ـ فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعوا هذه الدعوى الباطلة (فتمنوا الموت) لتصيروا إلى ماتصيرون إليه من الكرامة فى زعمكم (إن كنتم صادقين) فى هذا الزعم ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار . قرأ الجمهور « فتمنوا » بضم الواو ، وقرأ ابن السميفع بفتحها تخفيفا ، وحكى الكسائى إبدال الواو همزة : ثم أخبر الله سبحانه أنهم لايفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم فقال (ولا يتمونه أبدا بما قدمت أيديهم) أى بسبب ماعملوا من الكفر والمعاصى والتحريف والتبديل (والله عليم بالظالمين) يعنى على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوّليا . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لاينجيهم وأنه نازل بهم فقال (قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه ملاقيكم) لا محالة ونازل بكم بلا شك ، والفاء فى قوله « فإنه » داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج : لايقال إن زيدا فمنطلق ، وهاهنا قال : فإنه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء : أى إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة فى الدلالة على أنه لاينفع الفرار منه ، وقيل إنها مزيدة ، وقيل إن الكلام قد تمّ عند قوله « تفرّون منه » ثم ابتدأ فقال « فإنه ملاقيكم » (ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة) وذلك يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) من الأعمال القبيحة ويجازيكم عليها .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم والبيهقى فى الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) أوّل سورة الجمعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب » وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال « كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال له رجل : يارسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسى وقال : والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء » . وأخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ « لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس ، أو قال من أبناء فارس » . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) قال : الدين . وأخرج عبد ابن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) قال : اليهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (أسفارا) قال : كتبا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا

ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (١١) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) أى وقع النداء لها ، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ، لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نداء سواه ، وقوله (من يوم الجمعة) بيان لإذا وتفسير لها . وقال أبو البقاء : إن من بمعنى فى كما فى قوله ـ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ـ أى فى الأرض . قرأ الجمهور « الجمعة » بضم الميم . وقرأ عبد الله بن الزبير والأعمش بإسكانها تخفيفا . وهما لغتان وجمعها جمع وجمعات . قال الفراء : يقال الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها . وهى صفة لليوم : أى يوم يجمع الناس . قال الفراء أيضا وأبو عبيد : والتخفيف أخفّ وأقيس، نحو: غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر . وفتح الميم لغة عقيل . وقيل إنما سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم ، وقيل لأن الله فرغ فيها من خلق كلّ شيء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات ، وقيل لاجتماع الناس فيها للصلاة (فاسعوا إلى ذكر الله)قال عطاء : يعنى الذهاب والمشى إلى الصلاة . وقال الفراء : المضىّ والسعى والذهاب فى معنى واحد ، ويدلّ على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود ـ فامضوا إلى ذكر الله ـ وقيل المراد القصد. قال الحسن: والله ماهو سعى على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات ، وقيل هو العمل كقوله ـ من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ـ وقوله ـ إنّ سعيكم لشتى ـ وقوله ـ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ـ قال القرطبى : وهذا قول الجمهور ، ومنه قول زهير :

* سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم *

وقال أيضا   سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما   تنزل ما بين العشيرة بالدم

أى فاعملوا على المضىّ إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، ويؤيد هذا القول قول الشاعر :   أسعى على جل بنى مالك   كلّ امرئ فى شأنه ساعى

(وذروا البيع) أى اتركوا المعاملة به ويلحق به سائر المعاملات . قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحلّ الشراء والبيع ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ، وهو مبتدأ وخبره (خير لكم) أى خير لكم من فعل البيع وترك السعى لما فى الامتثال من الأجر والجزاء . وفى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة (إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لايخفى عليكم أن ذلكم خير لكم (فإذا قضيت الصلاة) أى إذا فعلتم الصلاة وأدّيتموها وفرغتم منها (فانتشروا فى الأرض) للتجارة والتصرّف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم (وابتغوا من فضل الله) أى من رزقه الذى يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات والمكاسب ، وقيل المراد به ابتغاء ماعند الله من الأجر بعمل الطاعات واجتناب ما لا يحلّ (واذكروا الله كثيرا) أى ذكرا كثيرا بالشكر له على ماهداكم إليه من الخير الأخروى والدنيوىّ ، وكذا اذكروه بما يقرّبكم إليه من الأذكار ، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك (لعلكم تفلحون) أى كى تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، فأقبلت عير من الشام والنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد . ومعنى « انفضوا إليها » تفرّقوا خارجين إليها . وقال المبرد : مالوا إليها ، والضمير للتجارة ، وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهمّ عندهم ، وقيل التقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل إنه اقتصر على ضمير التجارة ، لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو ، وقيل غير ذلك (وتركوك قائما) أى على المنبر : ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا فقال (قل ماعند الله) يعنى من الجزاء العظيم وهو الجنة (خيرمن اللهو ومن التجارة) اللذين ذهبتم إليهما وتركتم البقاء فى المسجد وسماع خطبة النبىّ صلى الله عليه وآ له وسلم لأجلها (والله خير الرازقين) فمنه اطلبوا الرزق ، وإليه ترسلوا بعمل الطاعة ، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم مايجلبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن أبى هريرة قال « قلت يارسول الله لأىّ شيء سمى يوم الجمعة ؟ قال : لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن سلمان قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم : « أتدرى مايوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة : هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم أفلا أحدّثكم عن يوم الجمعة » الحديث . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » وفى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم .

وورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك فى فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفى الساعة التى فيها ، وأنه يستجاب الدعاء فيها ، وقد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف عن خرشة بن الحرّ قال : رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت أبىّ بن كعب ، قال : إن أبيا أقرأنا للمنسوخ اقرأها « فامضوا إلى ذكر الله » وروى هؤلاء ماعدا أبا عبيد عن ابن عمر قال : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم وما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا « فامضوا إلى ذكر الله » وأخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأمّ وعبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم . وأخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « فامضوا إلى ذكر الله » قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى . وأخرج عبد بن حميد عن أبىّ بن كعب أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد ابن حميد عن ابن عباس (فاسعوا إلى ذكر الله) قال : فامضوا . وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعى العمل . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب : أن رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآ له وسلم كانا يختلفان فى تجارتهما إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم يخطب فيدعونه ويقومون ، فنزلت الآية (وذروا البيع) فحرم عليهم ماكان قبل ذلك . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم فى قوله « (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) قال : ليس لطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ فى الله » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبىّ صلى الله عليه وآ له وسلم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم

وأبوبكر وعمر ، فأنزل الله (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) إلى آخر السورة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال : جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشترى ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائما على المنبر ، وبقى فى المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا . وفى الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم .

تفسير سورة المنافقين

هى إحدى عشرة آية

وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المنافقين بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج سعيد بن منصور والطبرانى فى الأوسط . قال السيوطى بسند حسن عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض بها على المؤمنين ، وفى الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين وأخرج البزار والطبرانى عن أبى عنبة الخولانى مرفوعا نحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)
وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ
حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٨) يَقُولُونَ

لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

قوله (إذا جاءك المنافقون) أى إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك ، وجواب الشرط قالوا ، وقيل محذوف ، وقالوا حال ، والتقدير : جاءوك قائلين كيت وكيت فلاتقبل منهم ، وقيل الجواب ـ اتخذوا أيمانهم جنة ـ وهو بعيد (قالوا نشهد إنك لرسول الله) أكدوا شهادتهم بإنّ واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، ومعنى نشهد نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، ومن هذا قول قيس بن ذريح :

وأشهد عند الله أنى أحبها ... فهذا لها عندى فما عندها ليا

ومثل نشهد نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم كما فى قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتينّ منيتى ... إن المنايا لاتطيش سهامها

وجملة (والله يعلم إنك لرسوله) معترضة مقرّرة لمضمون ماقبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد ؛ لا إلى منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حقّ ، والمعنى : والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدالّ على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب وموافقة باطن لظاهر (اتخذوا أيمانهم جنة) أى جعلوا حلفهم الذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم وإن محمدا لرسول الله وقاية تقيهم منكم وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، وقد تقدّم قول من قال إنها جواب الشرط . قرأ الجمهور « أيمانهم » بفتح الهمزة ، وقرأ الحسن بكسرها ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة (فصدّوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب مايصدر منهم من التشكيك والقدح فى النبوّة . هذا معنى الصدّ الذى بمعنى الصرف ، ويجوز أن يكون من الصدود : أى أعرضوا عن الدخول فى سبيل الله وإقامة أحكامه (إنهم ساء ماكانوا يعملون) من النفاق والصدّ ، وفى ساء معنى التعجب والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم ذكره من الكذب والصدّ وقبح الأعمال ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم آمنوا) أى بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا (ثم كفروا) فى الباطن ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر الكافرين ، وهذا صريح فى كفر المنافقين ، وقيل نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدّوا . والأوّل أولى كما يفيده السياق (فطبع على قلوبهم) أى ختم عليها بسبب كفرهم . قرأ الجمهور « فطبع » على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده ، وقرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، ويدل على هذا قراءة الأعمش « فطبع الله على قلوبهم » (فهم لايفقهون) مافيه من صلاحهم ورشادهم وهو الإيمان (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) أى هيئاتهم ومناظرهم ، يعنى أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق (وإن يقولوا تسمع لقولهم) فتحسب أن قولهم حقّ وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وقد كان عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين فصيحا جسيما جميلا ، وكان يحضر مجلس النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا قال سمع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم مقالته . قال الكلبى : المراد عبد الله بن أبىّ وجدّ بن قيس ، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام

ومنظر وفصاحة ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل لكلّ من يصلح له ، ويدلّ عليه قراءة من قرأ يسمع على البناء للمفعول ، وجملة (كأنهم خشب مسندة) مستأنفة لتقرير ماتقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائى وتروق الناظر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتدإ محذوف ، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لاتفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع والعلم الذى ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب . قرأ الجمهور « خشب » بضمتين ، وقرأ أبو عمرو والكسائى وقنبل بإسكان الشين ، وبها قرأ البراء بن عازب ، واختارها أبو عبيد لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن . واختار القراءة الأولى أبو حاتم . وقرأ سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب بفتحتين ، ومعنى مسندة أنها أسندت إلى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا إلى كذا ، والتشديد للتكثير . ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال (يحسبون كل صيحة عليهم) أى يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفى المفعول الثانى للحسبان وجهان : أحدهما أنه عليهم ، ويكون قوله (هم العدوّ) جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير مايبطنون ، والوجه الثانى أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله (هم العدوّ) ، ويكون قوله (عليهم) متعلقا بصيحة ، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدوّ ، والوجه الأوّل أولى . قال مقاتل والسدّى : أى إذا نادى مناد فى العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب ، ومن هذا قول الشاعر :

مازلت تحسب كلّ شىء بعدهم خيلا تكرّ عليهم ورجالا

وقيل كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم مايهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم . ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال (فاحذرهم) أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شىء من أسرارك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار . ثم دعا عليهم بقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أى لعنهم الله ، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا ، بل المراد ذمهم وتوبيخهم ، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عزّ وجلّ أن يلعنهم ويخزيهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، ومعنى (أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق ويميلون عنه إلى الكفر . قال قتادة : معناه يعدلون عن الحق . وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) أى إذا قال لهم القائل من المؤمنين قد نزل فيكم مانزل من القرآن فتوبوا إلى الله ورسوله وتعالوا يستغفر لكم رسول الله (لوّوا رءوسهم) أى حركوها استهزاء بذلك . قال مقاتل : عطفوا رءوسهم رغبة عن الاستغفار . قرأ الجمهور « لوّوا » بالتشديد . وقرأ نافع بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد (ورأيتهم يصدّون) أى يعرضون عن قول من قال لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجملة (وهم مستكبرون) فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهى يصدّون ، لأن الرؤية بصرية فيصدّون فى محل نصب على الحال ، والمعنى : ورأيتهم صادّين مستكبرين (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أى الاستغفار وعدمه سواء لاينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر . قرأ الجمهور « أستغفرت » بهمزة مفتوحة من غير مدّ ، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها . وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف (لن يغفر الله لهم) أى ماداموا على النفاق (إن الله لايهدى القوم الفاسقين) أى الكاملين فى الخروج عن الطاعة والانهماك فى معاصى الله ،

ويدخل فيهم المنافقون دخولا أوّليا . ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) أى حتى يتفرّقوا عنه ، يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم ، أو لعدم مغفرة الله لهم . قرأ الجمهور « ينفضوا » من الانفضاض ، وهو التفرّق ، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشى « ينفضوا » من أنفض القوم : إذا فنيت أزوادهم ، يقال نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض . ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال (ولله خزائن السموات والأرض) أى إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين ، لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ماشاء ويمنع من شاء ماشاء (ولكنّ المنافقين لايفقهون) ذلك ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عزّ وجلّ وأنه الباسط القابض المعطى المانع . ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ) القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعزّ نفسه ومن معه ، وبالأذلّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه ، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ، وهو عبد الله بن أبىّ ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون . ثم ردّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) أى القوّة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا لغيرهم . اللهم كما جعلت العزّة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين (ولكن المنافقين لايعلمون) بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرّ فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم والطبع على قلوبهم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن زيد بن أرقم قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سفر فأصاب الناس شدّة ، فقال عبد الله بن أبىّ لأصحابه (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) من حوله ، وقال (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ) فأتيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبىّ فسأله ، فاجتهد يمينه مافعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله ، فوقع فى نفسى مما قالوا شدّة حتى أنزل الله تصديقى فى إذا جاءك المنافقون ، فدعاهم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ليستغفر لهم فلوّوا رءوسهم ، وهو قوله (كأنهم خشب مسندة) قال : كانوا رجالا أجمل شىء . وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان . وأخرج ابن المنذر عنه (اتخذوا أيمانهم جنة) قال : حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنوا بأيمانهم من القتل والحرب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (كأنهم خشب مسندة) قال نخل قيام . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا . قال نزلت هذه الآية (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) فى عسيف لعمر بن الخطاب . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم وابن مسعود أنهما قرآ (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله) ؛ وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال « كنا مع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى غزاة . قال سفيان : يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال المهاجرىّ ياللمهاجرين وقال الأنصارىّ ياللأنصار ، فسمع ذلك النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : مابال دعوة الجاهلية ؟ قالوا رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : دعوها فإنها منتنة ، فسمع

ذلك عبد الله بن أبيّ فقال : أو قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منه الأذلّ ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقام عمر فقال : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : دعه ، لايتحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » زاد الترمذى « فقال له ابنه عبدالله : والله لاتنفلت حتى تقرأنك الذليل ، ورسول الله العزيز ، ففعل » .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغبا لهم فى ذكره فقال (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، ومعنى لاتلهكم : لاتشغلكم ، والمراد بالذكر فرائض الإسلام ، قاله الحسن . وقال الضحاك : الصلوات الخمس وقيل قراءة القرآن ، وقيل هو خطاب للمنافقين ، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهرا ، والأوّل أولى (ومن يفعل ذلك) أى يلتهى بالدنيا عن الدين (فأولئك هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران (وأنفقوا مما رزقناكم) الظاهر أن المراد الإنفاق فى الخير على عمومه ، ومن للتبعيض : أى أنفقوا بعض ما رزقناكم فى سبيل الخير ، وقيل المراد الزكاة المفروضة (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) بأن تنزل به أسبابه ويشاهد حضور علاماته ، وقدّم المفعول على الفاعل للاهتمام (فيقول ربّ لولا أخرتنى إلى أجل قريب) أى يقول عند نزول ما نزل به مناديا لربه هلا أمهلتنى وأخرت موتى إلى أجل قريب : أى أمد قصير (فأصدّق) أى فأتصدّق بمالى (وأكن من الصالحين) قرأ الجمهور « فأصدّق » بادغام التاء فى الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمنى ، وقيل إن لا فى لولا زائدة ، والأصل لو أخرتنى . وقرأ أبيّ وابن مسعود وسعيد بن جبير « فأتصدّق » بدون إدغام على الأصل . وقرأ الجمهور « وأكن » بالجزم على محل فأتصدّق ، كأنه قيل إن أخرتنى أتصدّق وأكن . قال الزجاج : معناه هلا أخرتنى ، وجزم أكن على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتنى أصدّق وأكن . وكذا قال أبو علىّ الفارسى وابن عطية وغيرهم . وقال سيبويه حاكيا عن الخليل : إنه جزم على توهم الشرط الذى يدلّ عليه التمنى ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك مامضى ... ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

فخفض ولا سابق عطفا على مدرك الذى هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن ومجاهد « وأكون » بالنصب عطفا على فأصدّق ، ووجهها واضح . ولكن قال أبو عبيد : رأيت فى مصحف عثمان « وأكن » بغير واو ، وقرأ عبيد بن عمير « وأكون » بالرفع على الاستئناف : أى وأنا أكون . قال الضحاك : لاينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية ، ثم أجاب الله سبحانه عن هذا المتمنى فقال (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) أى إذا حضر أجلها وانقضى عمرها (والله خبير بما تعملون) لايخفى

عليه شيء منه فهو مجازيكم بأعمالكم . قرأ الجمهور « تعملون » بالفوقية على الخطاب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمي بالتحتية على الخبر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم) الآية قال : هم عباد من أمتي الصالحون منهم لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وعن الصلوات الخمس المفروضة . وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كان له مال يبلغه حجّ بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل : ياابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلوا عليكم بذلك قرآنا (يا أيها الذين آمنوا) إلى آخر السورة » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (فأصدّق وأكن من الصالحين) قال : أحج .

تفسير سورة التغابن

هي ثمان عشرة آية

وهي مدنية في قول الأكثر . وقال الضحاك : هي مكية . وقال الكلبي : هي مدنية ومكية . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي ، شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جفاء أهله وولده ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم) إلى آخر السورة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه . وأخرج ابن حبان في الضعفاء ، والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله ابن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » قال ابن كثير : وهو غريب جدّا بل منكر . وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : مامن مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أوّل سورة التغابن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذٰلِكَ

بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٦) .

قوله (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التى فى سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب (له الملك وله الحمد) يختصان به ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه (وهو على كل شيء قدير) لايعجزه شيء (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) أى فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن . قال الضحاك : فمنكم كافر فى السرّ مؤمن فى العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن فى السرّ كافر فى العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر . وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر ـ وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان ـ والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدّر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل . قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال وهو الذى عليه جمهور الأمة ، وقدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن (والله بما تعملون بصير) لاتخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم . ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال (خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة . وقيل خلق ذلك خلقا يقينا لاريب فيه ، وقيل الباء بمعنى اللام : أى خلق ذلك لإظهار الحق ، وهو أن يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال (وصوّركم فأحسن صوركم) قيل المراد آدم خلقه بيده كرامة له ، كذا قال مقاتل ، وقيل المراد جميع الخلائق وهو الظاهر : أى أنه سبحانه خلقهم فى أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل . والتصوير : التخطيط والتشكيل . قرأ الجمهور « فأحسن صوركم » بضمّ الصاد ، وقرأ زيد بن علىّ والأعمش وأبو زيد بكسرها (وإليه المصير) فى الدار الآخرة ، لا إلى غيره (يعلم ما فى السموات والأرض) لاتخفى عليه من ذلك خافية (ويعلم ماتسرون وما تعلنون) أى ماتخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيم قبله لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد (والله عليم بذات الصدور) هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهى تذييلية (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، والخطاب لكفار العرب (فذاقوا وبال أمرهم) بسبب كفرهم ، والوبال : الثقل والشدّة ، والمراد بأمرهم هنا ماوقع منهم من الكفر والمعاصى ، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا (ولهم عذاب أليم) وذلك فى الآخرة وهو عذاب النار ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماذكر من العذاب فى الدارين ، وهو مبتدأ وخبره (بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أى بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة (فقالوا أبشر يهدوننا) أى قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك ، وأراد بالبشر الجنس ، ولهذا قال يهدوننا (فكفروا وتولوا) أى كفروا بالرسل وبما جاءوا به وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاءوا به ، وقيل كفروا بهذا القول الذى قالوه للرسل (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم . وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات ، وقيل استغنى بسلطانه عن طاعة عباده (والله غنىّ حميد) أى غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم « إذا مكث المنيّ فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملاك النفوس فعرج به إلى الربّ فيقول : ياربّ أذكر أم أنثى؟ فيقضى الله ماهو قاض ، فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ماهو لاق ، وقرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) » . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآ له وسلم « العبد يولد مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ، والعبد يولد كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا » .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِى أَنْزَلْنَا وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

قوله (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) الزعم : هو القول بالظنّ ويطلق على الكذب . قال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، و (أن لن يبعثوا) قائم مقام مفعول زعم ، وأن هى المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب ، والمراد بالكفار كفار العرب ، والمعنى : زعم كفار العرب أن الشأن ان يبعثوا أبدا . ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآ له وسلم بأن يردّ عليهم ويبطل زعمهم فقال (قل بلى وربى لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ) بل هى التى لإيجاب النفى ، فالمعنى : بلى تبعثون . ثم أقسم على ذلك ، وجواب القسم لتبعثنّ : أى لتخرجنّ من قبوركم لتنبؤنّ (بما عملتم) أى لتخبرنّ بذلك إقامة للحجة عليكم ثم تجزون به (وذلك) البعث والجزاء (على الله يسير) إذ الإعادة أيسر من الابتداء (فآمنوا بالله ورسوله) الفاء هى الفصيحة الدالة على شرط مقدّر : أى إذا كان الأمر هكذا فصدّقوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآ له وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال (والله بما تعملون خبير) لايخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم فهو مجازيكم على ذلك (يوم يجمعكم ليوم الجمع) العامل فى الظرف لتنبؤنّ ، قاله النحاس . وقال غيره : العامل فيه خبير ، وقيل العامل فيه محذوف هو اذكر . وقال أبو البقاء : العامل فيه مادلّ عليه الكلام : أى تتفاوتون يوم يجمعكم . قرأ الجمهور

« يجمعكم » بفتح الياء وضم العين ، وروى عن أبى عمرو إسكانها ، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعا له كما قرئ في ـ وما يشعركم ـ بسكون الراء ، وكقول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بإسكان باء أشرب ، وقرأ زيد بن عليّ والشعبي ويعقوب ونصر وابن أبي إسحاق والجحدرى « نجمعكم » بالنون ، ومعنى (ليوم الجمع) ليوم القيامة فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبيّ وأمته ، وبين كل مظلوم وظالمه (ذلك يوم التغابن)يعنى أن يوم القيامة هو يوم التغابن ، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا ، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر وأهل الطاعة أهل المعصية ، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا مايوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ والجيد بالرديء والنعيم بالعذاب ، وأهل الجنة على العكس من ذلك . يقال غبنت فلانا : إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته) أى من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته ، قرأ الجمهور « يكفر » (ويدخله) بالتحتية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ، وانتصاب (خالدين فيها أبدا) على أنها حال مقدّرة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من التكفير والإدخال ، وهو مبتدأ وخبره الفوزالعظيم) أى الظفر الذى لا يساويه ظفر (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) المراد بالآيات إما التنزيلية أو ماهو أعم منها ، ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء هاهنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه سيكون بسبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن الله : أى بقضائه وقدره ، قال الفراء : إلا بإذن الله : أى بأمر الله ، وقيل إلا بعلم الله . قيل وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ماعليه المسلمون حقا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أى من يصدّق ويعلم أنه لايصيبه إلا ماقدّره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء . قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من الله فيسلم لقضائه ويسترجع . وقال سعيد بن جبير : يهد قلبه عند المصيبة فيقول ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ وقال الكلبي : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . قرأ الجمهور « يهد » بفتح الياء وكسر الدال : أى يهده الله ، وقرأ قتادة والسلمي والضحاك وأبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرّف والأعرج وسعيد بن جبير وابن هرمز والأزرق « نهد » بالنون ، وقرأ مالك بن دينار وعمرو بن دينار وعكرمة « يهدأ » بهمزة ساكنة ورفع قلبه : أى يطمئن ويسكن (والله بكل شيء عليم) أى بليغ العلم لاتخفى عليه من ذلك خافية (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى هوّنوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله (فإن توليتم) أى أعرضتم عن الطاعة (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) ليس عليه غير ذلك وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف والتقدير فلا بأس على الرسول ، وجملة (فإنما على رسولنا) تعليل للجواب المحذوف ، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال (الله لا إله إلا هو) أى هو المستحق للعبودية دون غيره فوحدوه ولا تشركوا به (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى يفوّضوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه ، لا على غيره .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له : ماسمعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول في زعموا ؟ قال : سمعته يقول : بئس مطية الرجل . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه كره زعموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يوم التغابن من أسماء يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه في قوله (ذلك يوم التغابن) قال : غبن أهل الجنة أهل النار ، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله (ما أصاب من مصيبة) قال : هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (يهد قلبه) قال : يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨)

قوله (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم) يعني أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير ، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولا أوّليا ، وهو أن رجالا من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم ، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله ، والضمير في (فاحذروهم) يعود إلى العدوّ ، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم ، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم ، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأوّل ، لأن العدوّ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. ثم أرشدهم الله إلى التجاوز فقال (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا) أي تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها وتتركوا التثريب عليها وتستروها (فإن الله غفور رحيم) بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم ، قيل كان الرجل الذي ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا في الدين همّ أن يعاقب أزواجه وأولاده ، فأنزل الله (وإن تعفوا) الآية ، والآية تعمّ وإن كان السبب خاصا كما عرفناك غير مرة . قال مجاهد : والله ماعادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه . ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي بلاء واختبار ومحنة يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله فلا تطيعوهم في معصية الله (والله عنده أجر عظيم) لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده . ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال (فاتقوا الله ما استطعتم) أي ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه ـ فاتقوا الله حق تقاته ـ ومنهم قتادة والربيع بن أنس والسدّي وابن زيد ، وقد أوضحنا الكلام في قوله ـ فاتقوا الله حق تقاته ـ ومعنى (واسمعوا وأطيعوا) أي اسمعوا ماتؤمرون به وأطيعوا الأوامر . قال مقاتل اسمعوا : أي اصغوا إلى ماينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم . وقيل معنى اسمعوا : اقبلوا

ماتسمعون لأنه لافائدة فى مجرد السماع (وأنفقوا خيرا لأنفسكم) أى أنفقوا من أموالكم التى رزقكم الله إياها فى وجوه الخير ولا تبخلوا بها ، وقوله(خيرا لأنفسكم) منتصب بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا ، كأنه قال : ائتوا فى الإنفاق خيرا لأنفسكم ، أو قدّموا خيرا لها ، كذا قال سيبويه . وقال الكسائى والفرّاء: هونعت لمصدر محذوف : أى إنفاقا خيرا . وقال أبو عبيدة : هو خبر لكان المقدّرة : أى يكن الإنفاق خيرا لكم . وقال الكوفيون :هو منتصب على الحال ، وقيل هو مفعول به لأنفقوا : أى فأنفقوا خيرا . والظاهر : فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة ، وقيل المراد زكاة الفريضة ، وقيل النافلة ، وقيل النفقة فى الجهاد (ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يوق شحّ نفسه فيفعل ما أمر به من الإنفاق ولا يمنعه ذلك منه فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب ، وقد تقدم تفسير هذه الآية (إن تقرضوا الله قرضا حسنا) فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس (يضاعفه لكم) فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية واختلاف القراءة فى قراءتها فى سورة البقرة وسورة الحديد (ويغفر لكم) أى يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم (والله شكور حليم) يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) أى ماغاب وما حضر لاتخفى عليه منه خافية ، وهو(العزيز الحكيم) أى الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة . وقال ابن الأنبارى : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم) فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم ، فنزلت إلى قوله (فإن الله غفور رحيم) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه وابن مردويه عن بريدة قال « كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشقّ وواحدا من ذا الشقّ ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما » . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى وشتمنى عبدى وهو لايدرى ، يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر ، ثم تلا أبو هريرة (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم) »

تفسير سورة الطلاق

هي إحدى عشرة آية ، وقيل اثنتا عشرة

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الطلاق بالمدينة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا (٣) وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا (٥) .

قوله (يا أيها النبيّ إذا طلقتم النساء) نادى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أولا تشريفا له ، ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة ، والجمع للتعظيم ، وأمته أسوته في ذلك ، والمعنى : إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه (فطلقوهنّ لعدتهنّ) أي مستقبلات لعدتهنّ أو في قبل عدتهنّ ، أو لقبل عدتهنّ . وقال الجرجاني : إن اللام في لعدتهنّ بمعنى في : أي في عدتهنّ . وقال أبو حيان : هو على حذف مضاف : أي لاستقبال عدتهنّ ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد أن يطلقوهنّ في طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضي عدتهنّ ، فإذا طلقوهنّ هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ ، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله (وأحصوا العدّة) أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدّة : وهي ثلاثة قروء ،

والخطاب للأزواج ، وقيل للزوجات ، وقيل للمسلمين على العموم ، والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم (واتقوا الله ربكم) فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضارّوهن (لاتخرجوهنّ من بيوتهنّ) أى التى كنا فيها عند الطلاق مادمن فى العدّة ، وأضاف البيوت إليهنّ وهى لأزواجهنّ لتأكيد النهى ، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى فى مدّة العدّة ، ومثله قوله ـ واذكرن مايتلى فى بيوتكنّ ـ وقوله ـ وقرن فى بيوتكن ـ ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهنّ من البيوت التى وقع الطلاق وهنّ فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا فقال (ولا يخرجن) أى لايخرجن من تلك البيوت مادمن فى العدّة إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك ، وقيل المراد لايخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهنّ الأزواج فلا بأس ، والأول أولى (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى : أى لاتخرجوهنّ من بيوتهنّ ، لامن الجملة الثانية . قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا ، وذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحدّ عليها . وقال الشافعى وغيره : هى البذاء فى اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت ، ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن فى مصحف أبىّ « إلا أن يفحشن عليكم » وقيل المعنى : إلا أن يخرجن تعدّيا ، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد ، والإشارة بقوله (وتلك) إلى ماذكر من الأحكام وهو مبتدأ وخبره (حدود الله) والمعنى : أن هذه الأحكام التى بينها لعباده هى حدوده التى حدّها لهم لايحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها (ومن يتعد حدود الله) أى يتجاوزها إلى غيرها أو يخلّ بشىء منها (فقد ظلم نفسه) بإيرادها مورد الهلاك وأوقعها فى مواقع الضرر بعقوبة الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وجملة (لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليله . قال القرطبى : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة ، والمعنى : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلا . وقال مقاتل بعد ذلك : أى بعد طلقة أو طلقتين أمرا بالمراجعة . قال الواحدى : الأمر الذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين . قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله ـ لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا ـ (فإذا بلغن أجلهنّ) أى قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها (فأمسكوهن بمعروف) أى راجعوهنّ بحسن معاشرة ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارّة لهنّ (أو فارقوهن بمعروف) أى اتركوهنّ حتى تنقضى عدتهنّ فيملكن نفوسهن مع إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق وترك المضارة لهنّ (وأشهدوا ذوى عدل منكم) على الرجعة ، وقيل على الطلاق ، وقيل عليهما قطعا للتنازع وحسما لمادة الخصومة ، والأمر للندب كما فى قوله ـ وأشهدوا إذا تبايعتم ـ وقيل إنه للوجوب ، وإليه ذهب الشافعى قال : الإشهاد واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل . وفى قول للشافعى : إن الرجعة لاتفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروى نحو هذا عن أبى حنيفة وأحمد (وأقيموا الشهادة لله) هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقربا إلى الله ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة ، وقيل الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة : أى الشهود عند الرجعة فيكون قوله (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أمرا بنفس الإشهاد ، ويكون قوله (وأقيموا الشهادة) أمرا بأن تكون خالصة لله ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ماتقدّم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله ، وهو مبتدأ وخبره (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) وخص المؤمن بالله واليوم الآخر لأنه المنتفع بذلك دون غيره (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) أى من يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوف على حدوده التى حدّها لعباده وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد والمحن (ويرزقه من حيث لايحتسب) أى من وجه

لايخطر بباله ولا يكون فى حسابه . قال الشعبي والضحاك : هذا فى الطلاق خاصة : أى من طلق كما أمره الله يكن له مخرج فى الرجعة فى العدّة وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدّة . وقال الكلبي : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة . وقال الحسن : مخر [illegible] نهى الله عنه . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شيء ضاق على الناس . وقال الحسين بن الفضل : ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة ويرزقه الثواب من حيث لايحتسب : أى يبارك له فيما آتاه . وقال سهل [illegible] الله : ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع ويرزقه الجنة من حيث لايحتسب ، وقيل [illegible] . وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص ويدخل مافيه السياق دخولا أوليا (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه (إن الله بالغ أمره) قرأ الجمهور « بالغ أمره » بتنوين بالغ ونصب أمره ، وقرأ حفص بالإضافة ، وقرأ ابن أبي عبلة وداود بن أبي هند وأبو عمرو فى رواية عنه بتنوين بالغ ورفع أمره على أنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر وبالغ خبر مقدم . قال الفراء فى توجيه هذه القراءة : أى أمره بالغ ؛ والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الله سبحانه بالغ مايريده من الأمر لايفوته شيء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى القراءة الثالثة : أن الله نافذ أمره لايرده شيء . وقرأ المفضل « بالغا » بالنصب على الحال ويكون خبر إن قوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) أى تقديرا وتوقيتا أو مقدارا . فقد جعل سبحانه للشدة أجلا تنتهى إليه ، وللرخاء أجلا ينتهى إليه . وقال السدى : هو قدر الحيض والعدة (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم) وهن الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن وأيسن منه (إن ارتبتم) أى شككتم وجهلتم كيف عدّتهن (فعدّتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن) لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض : أى فعدّتهن ثلاثة أشهر ، وحذف هذا لدلالة ماقبله عليه (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) أى انتهاء عدّتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث فى هذه الآية وفى الآية الأخرى - والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا - وقيل معنى (إن ارتبتم) إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر . قال الزجاج : إن ارتبتم فى حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها . وقال مجاهد : إن ارتبتم : يعنى لم تعلموا عدّة الآيسة والتى لم تحض فالعدّة هذه . وقيل المعنى : إن ارتبتم فى الدم الذى يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة فالعدّة ثلاثة أشهر (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) أى من يتقه فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فى الدنيا والآخرة . وقال الضحاك : من يتق الله فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسرا فى الرجعة . وقال مقاتل : من يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه للطاعة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماذكر من الأحكام : أى ذلك المذكور من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم) أى حكمه الذى حكم به بين عباده وشرعه الذى شرعه لهم ، ومعنى (أنزله إليكم) أنزله فى كتابه على رسوله وبينه لكم وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه (ومن يتق الله) بترك مالايرضاه (يكفر عنه سيئاته) التى اقترفها ، لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب (ويعظم له أجرا) أى يعطه من الأجر فى الآخرة أجرا عظيما وهو الجنة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حفصة فأتت أهلها ، فأنزل الله (يا أيها النبيّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدّتهنّ) فقيل له راجعها فإنها صوّامة قوّامة وهى من أزواجك فى الجنة . وأخرجه ابن جرير عن قتاده مرسلا . وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو ركانة

أم ركانة ، ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يارسول الله مايغنى عنى إلا ماتغنى عنى هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، فأخذت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حمية عند ذلك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركانة وإخوته ، ثم قال لجلسائه : أترون كذا من كذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد يزيد : طلقها ففعل ، فقال لأبى ركانة ارتجعها ، فقال : يارسول الله إنى طلقتها ، قال : قد علمت ذلك فارتجعها ، فنزلت (يا أيها النبىّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدتهنّ) » قال الذهبى : إسناده واه ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال : ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض وتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ، وقرأ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (يا أيها النبىّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ) » . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ » . وأخرج ابن الأنبارى عن ابن عمر أنه قرأ « فطلقوهنّ لقبل عدتهنّ » . وأخرج ابن الأنبارى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد فى فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله ، فليطلقها طاهرا فى غير جماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله (فطلقوهنّ لعدتهنّ) قال : طاهرا من غير جماع ، وفى الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود (وأحصوا العدة) قال : الطلاق طاهرا فى غير جماع . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله (ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هى الفاحشة المبينة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها . وأخرج ابن أبى حاتم عن فاطمة بنت قيس فى قوله (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) قالت : هى الرجعة. وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلا سأل عمران بن حصين أن رجلا طلق ولم يشهد ، قال : بئس ماصنع ، طلق فى بدعة ، وارتجع فى غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) قال : مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذى يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه ، وفى قوله (ويرزقه من حيث لايحتسب) قال : من حيث لايدرى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) قال : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة . وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبى من طريق سالم بن أبى الجعد عن جابر قال : « نزلت هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) فى رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسأله عنها وأخبره خبرها ، فقال : كلها ، فنزلت

(ومن يتق الله) الآية » . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال « جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله إن ابني أسره العدوّ وجزعت أمه ، فما تأمرني ؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لاحول ولا قوّة إلا بالله ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها ، فتغفل عنه العدوّ ، فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) » الآية . وفى الباب روايات تشهد لهذا . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة فى الآية قالت : يكفيه همّ الدنيا وغمها . وأخرج أحمد وصححه وابن مردويه وأبونعيم فى المعرفة والبيهقى عن أبي ذرّ قال « جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلو هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) فجعل يردّدها حتى نعست ، ثم قال : يا أبا ذرّ لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) قال : ليس المتوكل الذى يقول تقضى حاجتى ، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه ودفع عنه مايكره وقضى حاجته ، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفى قوله (إن الله بالغ أمره) قال : يقول قاضى أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفى قوله (قد جعل الله لكلّ شيء قدرا) قال : يعنى أجلا ومنتهى ينتهى إليه . وأخرج ابن المبارك والطيالسى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » . وأخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أبيّ بن كعب أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية فى البقرة فى عدّة النساء قالوا : لقد بقى من عدّة النساء عدد لم يذكر فى القرآن الصغار والكبار اللاتى قد انقطع حيضهنّ وذوات الحمل ، فأنزل الله (واللائى يئسن من المحيض) الآية . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبويعلى والضياء فى المختارة وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال : « قلت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ) أهى المطلقة ثلاثا ، أو المتوفى عنها ؟ قال : هى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » . وأخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والدارقطنى من وجه آخر . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا قال : تعتدّ آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته إن الآية التى فى سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة البقرة (وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ) بكذا وكذا أشهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها . وروى نحو هذا عنه من طرق وبعضها فى صحيح البخارى . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أم سلمة : أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وفى الباب أحاديث .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا

بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧).

قوله (أسكنوهنّ من حيث سكنتم) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى ، ومن للتبعيض: أى بعض مكان سكناكم ، وقيل زائدة (من وجدكم) أى من سعتكم وطاقتكم ، والوجد القدرة . قال الفرّاء: يقول على ما يجد ، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك . قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه :

وقد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا ، هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعى أن لها السكنى ولا نفقة لها . وذهب أبوحنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة . وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور أنه لانفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق ، وقد قررته فى شرحى المنتقى بما لايحتاج الناظر فيه إلى غيره (ولا تضارّوهنّ لتضيقوا عليهنّ) نهى سبحانه عن مضارّتهنّ بالتضييق عليهنّ فى المسكن والنفقة . وقال مجاهد : فى المسكن . وقال مقاتل: فى النفقة . وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها ، فإذا بقى يومان من عدّتها راجعها ، ثم طلقها (وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ) أى إلى غاية هى وضعهنّ الحمل . ولا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة ، والسكنى للحامل المطلقة ، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال علىّ وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعى والشعبى وحماد وابن أبى ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع . وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه : لاينفق عليها إلا من نصيبها ، وهذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة (فإن أرضعن لكم) أولادكم بعد ذلك (فآتوهنّ أجورهنّ) أى أجور إرضاعهنّ والمعنى : أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهنّ منهنّ فلهنّ أجورهنّ على ذلك (وأتمروا بينكم بمعروف) هو خطاب للأزواج والزوجات : أى تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم . قال مقاتل : المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، قيل والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها أن لاتطلب مايتعاسره الزوج من الأجر (وإن تعاسرتم) أى فى أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأمّ الأجر وأبت الأمّ أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر (فسترضع له أخرى) أى يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ماتطلبه الزوجة ، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر . قال الضحاك : إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر (لينفق ذو سعة من سعته) فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم (ومن قدر عليه رزقه) أى كان رزقه بمقدار القوت ، أو مضيق ليس بموسع (فلينفق مما آتاه الله) أى مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك (لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها) أى ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه ، بل عليه مايقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق (سيجعل الله بعد عسر يسرا) أى بعد ضيق وشدة سعة وغنى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (من وجدكم) قال : من سعتكم (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) قال فى المسكن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (وإن كن أولات حمل) الآية ، قال : فهذه فى المرأة يطلقها زوجها وهى حامل ، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت حتى تفطم ، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضى عدتها ولا نفقة لها . وأخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل إنه يلبس الغليظ من الثياب ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها ؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله تأول هذه الآية (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) .

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام ، حذر من مخالفتها ، وذكر عتو قوم خالفوا أوامره ، فحل بهم عذابه فقال (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) يعنى عصت ، والمراد أهلها ، والمعنى : وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله ، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين عتت معنى أعرضت ، وقد قدمنا الكلام فى كأين فى سورة آل عمران وغيرها (فحاسبناها حسابا شديدا) أى شددنا على أهلها فى الحساب بما عملوا . قال مقاتل : حاسبها الله بعملها فى الدنيا فجازاها بالعذاب ، وهو معنى قوله (وعذبناها عذابا نكرا) أى عذبنا أهلها عذابا عظيما منكرا فى الآخرة ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير : أى عذبنا أهلها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم فى الآخرة حسابا شديدا . والنكر المنكر (فذاقت وبال أمرها) أى عاقبة كفرها (وكان عاقبة أمرها خسرا) أى هلاكا فى الدنيا وعذابا فى الآخرة (أعد الله لهم عذابا شديدا) فى الآخرة ، وهو عذاب النار ، والتكرير للتأكيد (فاتقوا الله يا أولى الألباب) أى يا أولى العقول الراجحة ، وقوله (الذين آمنوا) فى محل نصب بتقدير : أعنى بيانا للمنادى بقوله (يا أولى الألباب) أو عطف بيان له ، أو نعت (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا) قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل : أى أنزل إليكم قرآنا وأرسل إليكم رسولا ، وقال أبو على الفارسى : إن رسولا منصوب بالمصدر ، وهو ذكرا ، لأن المصدر المنون يعمل . والمعنى : أنزل إليكم ذكر الرسول . وقيل إن رسولا بدل من ذكرا ، وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة . وقيل إنه بدل

منه على حذف مضاف من الأوّل تقديره : أنزل ذا ذكر رسولا ، أو صاحب ذكر رسولا . وقيل إن رسولا نعت على حذف مضاف : أي ذكرا ذا رسول ، فذا رسول نعت للذكر . وقيل إن رسولا بمعنى رسالة ، فيكون رسولا بدلا صريحا من غير تأويل ، أو بيانا . وقيل إن رسولا منتصب على الإغراء ، كأنه قال : الزموا رسولا . وقيل إن الذكر هاهنا بمعنى الشرف كقوله ـ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ـ وقوله ـ وإنه لذكر لك ولقومك ـ . ثم بين هذا الشرف فقال (رسولا) وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الكلبي : هو جبريل ، والمراد بالذكر القرآن ، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لايخفى . ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله (يتلوا عليكم آيات الله مبينات) أى حال كونها مبينات ، قرأ الجمهور « مبينات » على صيغة اسم المفعول : أي بينها الله وأوضحها ، وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي على صيغة اسم الفاعل : أي الآيات تبين للناس مايحتاجون إليه من الأحكام . ورجح القراءة الأولى أبو حاتم وأبو عبيد لقوله « قد بينا لكم الآيات » (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) اللام متعلقة بيتلو : أي ليخرج الرسول الذى يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ويجوز أن تتعلق اللام بأنزل ، فيكون المخرج هو الله سبحانه (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى يجمع بين التصديق ، والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب مانهاه عنه (ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) قرأ الجمهور « يدخله » بالتحتية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون : وجمع الضمير فى (خالدين فيها أبدا) باعتبار معنى من ، ووحده فى يدخله باعتبار لفظها ، وجملة (قد أحسن الله له رزقا) فى محل نصب على الحال من الضمير فى خالدين على التداخل ، أو من مفعول يدخله على الترادف ؛ ومعنى (قد أحسن الله له رزقا) أى وسع له رزقه فى الجنة (الله الذى خلق سبع سموات) الاسم الشريف مبتدأ وخبره الموصول مع صلته (ومن الأرض مثلهنّ) أى وخلق من الأرض مثلهنّ يعنى سبعا .

واختلف فى كيفية طبقات الأرض . قال القرطبي فى تفسيره : واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق الله . وقال الضحاك : إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات . والأوّل أصح ، لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى والنسائى وغيرهما ، وقد مضى ذلك مبينا فى البقرة قال : وفى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين » إلى آخر كلامه ، وسيأتى فى آخر البحث مايقوّى قول الجمهور . قرأ الجمهور « مثلهنّ » بالنصب عطفا على « سبع سموات » أو على تقدير فعل : أي وخلق من الأرض مثلهنّ . وقرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره (يتنزل الأمر بينهنّ) الجملة مستأنفة ، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها ، والأمر الوحى . قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين . وقال الحسن : بين كل سماء وبين الأرض . وقال قتادة : فى كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه ، وقيل بينهنّ إشارة إلى مابين الأرض السفلى التى هى أدناها ، وبين السماء السابعة التى هى أعلاها ، وقيل هو مايدبر فيهنّ من عجيب تدبيره ، فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال . قال ابن كيسان : وهذا هو مجال اللغة واتساعها كما يقال للموت : أمر الله وللريح والسحاب ونحوها . قرأ الجمهور

« يتنزل الأمر » من التنزل ورفع الأمر على الفاعلية ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه « ينزل » من الإنزال ، ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه ، واللام فى (لتعلموا أن الله على كلّ شيء قدير) متعلق بخلق ، أو بيتنزل أو بمقدّر : أى فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى (وأن الله قد أحاط بكلّ شيء علما) فلا يخرج عن علمه شيء منها كائنا ما كان ، وانتصاب علما على المصدرية ، لأن أحاط بمعنى علم ، أو هو صفة لمصدر محذوف : أى أحاط إحاطة علما ، ويجوز أن يكون تمييزا .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فحاسبناها حسابا شديدا) يقول : لم ترحم (وعذبناها عذابا نكرا) يقول : عظيما منكرا . وأخرج ابن مردويه عنه (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا) قال : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ) إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : مايؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟ وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله (ومن الأرض مثلهنّ) قال : سبع أرضين فى كلّ أرض نبىّ كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : هذا إسناده صحيح ، وهو شاذ بمرّة لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك . والثانية مسجن الريح ، فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا يهلك عادا ، فقال : يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ؟ فقال له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهى التى قال الله فى كتابه - ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم - والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، فقالوا : يارسول الله للنار كبريت ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده ، إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت » إلى آخر الحديث . قال الذهبى متعقبا للحاكم : هو حديث منكر . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التى فيها العرش ، وسيد الأرضين الأرض التى نحن فيها .

تفسير سورة التحريم

هى اثنتا عشرة آية

وهى مدنية . قال القرطبي : فى قول الجميع ، وتسمى سورة النبىّ . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة التحريم بالمدينة ، ولفظ ابن مردويه سورة المحرّم . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت بالمدينة سورة النساء (ياأيها النبىّ لم تحرّم) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)
قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ
إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ
بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ
فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ
مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥) .

قوله (يا أيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) اختلف فى سبب نزول الآية على أقوال : الأوّل قول أكثر المفسرين . قال الواحدى : قال المفسرون : كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلما رأى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها : لاتخبرى عائشة ولك علىّ أن لا أقربها أبدا ، فأخبرت حفصة عائشة وكانتا متصافيتين ، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم حتى حلف أن لايقرب مارية ، فأنزل الله هذه السورة . قال القرطبي : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة ، وذكر القصة . وقيل السبب أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير . وقيل السبب المرأة التى وهبت نفسها للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . وسيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله وستعرف كيفية الجمع بينهما ، وجملة (تبتغي مرضات أزواجك) مستأنفة ، أو مفسرة لقوله « تحرّم » ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تحرّم : أى مبتغيا به مرضاة أزواجك ، ومرضاة اسم مصدر ، وهو الرضى ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف

إلى المفعول : أي أن ترضى أزواجك ، أو إلى الفاعل : أي أن يرضين هنّ (والله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ الله لك ، قيل وكان لك ذنبا من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل إنها معاتبة على ترك الأولى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى شرع لكم تحليل أيمانكم وبين لكم ذلك ، وتحلة أصلها تحللة ، فأدغمت . وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد ، والكفارة حلّ ، لأنها تحلّ للحالف ماحرّمه على نفسه . قال مقاتل : المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم فى سورة المائدة . أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكفر يمينه ويراجع وليدته فأعتق رقبة . قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله ؟

قلت : وهذا هو الحقّ أن تحريم ما أحلّ الله لاينعقد ولا يلزم صاحبه . فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة ، وقد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى .

واختلف العلماء هل مجرّد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفى ذلك خلاف ، وليس فى الآية مايدلّ على أنه يمين ، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وقد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هى سبب نزول الآية أنه حرّم أوّلا ثم حلف ثانيا كما قدّمنا (والله مولاكم) أى وليكم وناصركم والمتولى لأموركم (وهو العليم) بما فيه صلاحكم وفلاحكم (الحكيم) فى أفعاله وأقواله (وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثا) قال أكثر المفسرين : هى حفصة كما سبق ، والحديث هو تحريم مارية ، أو العسل ، أو تحريم التى وهبت نفسها له ، والعامل فى الظرف فعل مقدّر : أى واذكر إذ أسرّ . وقال الكلبى : أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتى على أمتى من بعدى (فلما نبأت به) أى أخبرت به غيرها (وأظهره الله عليه) أى أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها (عرّف بعضه) أى عرّف حفصة بعض ما أخبرت به . قرأ الجمهور « عرّف » مشدّدا من التعريف ، وقرأ علىّ وطلحة بن مصرف وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة والكسائى بالتخفيف . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله (وأعرض عن بعض) أي لم يعرّفها إياه ، ولو كان مخففا لقال فى ضدّه : وأنكر بعضا (وأعرض عن بعض) أى وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس ، وقيل الذى أعرض عنه هو حديث مارية . وللمفسرين هاهنا خبط وخلط ، وكلّ جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول ، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله (فلما نبأها به) أى أخبرها بما أفشت من الحديث (قالت من أنبأك هذا) أى من أخبرك به (قال نبأنى العليم الخبير) أى أخبرنى الذى لاتخفى عليه خافية (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) الخطاب لعائشة وحفصة : أى إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، ومعنى (صغت) عدلت ومالت عن الحقّ ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو إفشاء الحديث . وقيل المعنى : إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة ، وقال قلوبكما ولم يقل قلبا كما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين فى لفظ واحد (وإن تظاهرا عليه) أى تتظاهرا ، قرأ الجمهور « تظاهرا » بحذف إحدى التاءين تخفيفا . وقرأ عكرمة « تتظاهرا » على الأصل . وقرأ الحسن وأبو رجاء ونافع وعاصم [1] فى رواية عنهما « تظهرا » بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون ، والمعنى : وإن تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه

---

(١) (قوله ونافع وعاصم) وذلك فى غير المشهور الآن عنهما اهـ .

(فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) أى فإن الله يتولى نصره ، وكذلك جبريل ومن صلح من عباده المؤمنين فلن يعدم ناصرا ينصره (والملائكة بعد ذلك) آى بعد نصر الله له ونصر جبريل وصالح المؤمنين (ظهير) أى أعوان يظاهرونه ، والملائكة مبتدأ وخبره ظهير . قال أبو علىّ الفارسى : قد جاء فعيل للكثرة كقوله ـ ولا يسأل حميم حميا ـ قال الواحدى : وهذا من الواحد الذى يؤدّى عن الجمع كقوله ـ وحسن أولئك رفيقا ـ وقد تقرّر فى علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع . وقيل كان التظاهر بين عائشة وحفصة فى التحكم على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى النفقة (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) أى يعطيه بدلكنّ أزواجا أفضل منكنّ ، وقد علم الله سبحانه أنه لايطلقهنّ ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهنّ ، وهو كقوله ـ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ـ فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم . ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله (مسلمات مؤمنات) أى قائمات بفرائض الإسلام مصدّقات بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه . وقال سعيد بن جبير : مسلمات أى مخلصات وقيل معناه : مسلمات لأمر الله ورسوله (قانتات) مطيعات لله . والقنوت الطاعة ، وقيل مصليات (تائبات) يعنى من الذنوب (عابدات) لله متذللات له . قال الحسن وسعيد بن جبير : كثيرات العبادة (سائحات) أى صائمات . وقال زيد بن أسلم : مهاجرات ، وليس فى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سياحة إلا الهجرة . قال ابن قتيبة والفراء وغيرهما : وسمى الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه . وقيل المعنى : ذاهبات فى طاعة الله ، من ساح الماء إذا ذهب ، وأصل السياحة الجولان فى الأرض ، وقد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة (ثيبات وأبكارا) وسط بينهما العاطف لتنافيهما ، والثيبات : جمع ثيب ، وهى المرأة التى قد تزوّجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج . والأبكار جمع بكر ، وهى العذراء ، سميت بذلك لأنها على أوّل حالها التى خلقت عليه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبنا أو عسلا ، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فلتقل إنى أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود ، فنزلت (يا أيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) إلى قوله (إن تتوبا إلى الله) لعائشة وحفصة (وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا) لقوله : بل شربت عسلا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند صحيح عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فدخل على حفصة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه أبدا ، فأنزل الله (يا أيها النبىّ لم تحرم) الآية » . وأخرج ابن سعد عن عبدالله بن رافع قال : سألت أمّ سلمة عن هذه الآية (يا أيها النبىّ لم تحرّم) قالت : كانت عندى عكة من عسل أبيض ، فكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يلعق منها وكان يحبه ، فقالت له عائشة : نحلها تجرس عرفطا فحرّمها ، فنزلت الآية . وأخرج النسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله هذه الآية (يا أيها النبىّ لم تحرّم) » وأخرج البزار والطبرانى قال السيوطى : بسند صحيح عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث

فى شأن مارية القبطية أمّ إبراهيم أصابها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى بيت حفصة فى يومها، فوجدت حفصة فقالت : يارسول الله لقد جئت إلىّ بشيء ماجئته إلى أحد من أزواجك فى يومى وفى دورى على فراشى ، قال ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبدا ؟ قالت : بلى ، فحرّمها وقال : لاتذكرى ذلك لأحد، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه ،فأنزل الله (يا أيها النبيّ لم تحرّم) الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر عن يمينه وأصاب مارية . وأخرجا ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا . وأخرجه ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخصر منه ، وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال :حرّم سريته وجعل ذلك سبب النزول فى جميع ما روى عنه من هذه الطرق ، وأخرج الهيثم بن كليب فى مسنده والضياء المقدسى فى المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لحفصة لاتحدّثى أحدا ، وإن أمّ إبراهيم علىّ حرام ، فقالت : أتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : فوالله لا أقربها ، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف، وسنده ضعيف . فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين :قصة العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعا ، وفى كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه . وأما ما قيل من أن السبب هو تحريم المرأة التى وهبت نفسها ، فليس فى ذلك إلا ماروى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) فى المرأة التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . قال السيوطى : وسنده ضعيف . ويردّ هذا أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يقبل تلك الواهبة لنفسها ، فكيف يصحّ أن يقال إنه نزل فى شأنها (يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) فإن من ردّ ما وهب له لم يصحّ أن يقال إنه حرّمه على نفسه ، وأيضا لاينطبق على هذا السبب قوله (وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثا) إلى آخر ماحكاه الله . وأما ماثبت فى الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،فأخبره أنهما عائشة وحفصة ، ثم ذكر قصة الإيلاء كما فى الحديث الطويل ، فليس فى هذا نفى لكون السبب هو ماقدّمنا من قصة العسل وقصة السرية ، لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين ، وذكر فيه أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يراجعنه وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول (يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) . ويؤيد هذا ماقدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة ، وبين له أن السبب قصة مارية . هذا ماتيسر من تلخيص سبب نزول الآية ، ودفع الاختلاف فى شأنه فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط والخلط الذى وقع للمفسرين . وأخرج عبد الرزاق والبخارى وابن مردويه عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفر ، وقال ـ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ـ . وأخرج ابن المنذر والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى علىّ حراما ، فقال كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا (لم تحرّم ما أحلّ الله لك) قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة . وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن عائشة قالت « لما حلف أبو بكر أن لاينفق على مسطح ، فأنزل الله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) فأحلّ يمينه وأنفق عليه » . وأخرج ابن عدىّ وابن عساكر عن عائشة فى قوله (وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثا) قالت : أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتى من بعدى . وأخرج ابن عدىّ وأبو نعيم فى الصحابة والعشارى فى فضائل الصدّيق وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن علىّ وابن عباس قال : والله إن إمارة أبى بكر وعمر لفى الكتاب (وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض

أزواجه حديثا) قال لحفصة : أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدى ، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا . قلت : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله (يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك) بل فيه أن الحديث الذى أسرّه صلى الله عليه وآله وسلم هو هذا ، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة ، وهى مقدّمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فقد صغت قلوبكما) قال : زاغت وأثمت . وأخرج ابن المنذر عنه قال : مالت . وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه فى قوله (وصالح المؤمنين) قال : أبو بكر وعمر . وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس مثله . وأخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبى حاتم . قال السيوطى بسند ضعيف عن علىّ مرفوعا قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « (وصالح المؤمنين) علىّ بن أبى طالب » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (وصالح المؤمنين) قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بريدة فى قوله (ثيبات وأبكارا) قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالبكر مريم بنت عمران .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٨) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (وأهليكم) بأمرهم بطاعة الله ونهيهم عن معاصيه (نارا وقودها الناس والحجارة) أى نارا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب ، وقد تقدّم بيان هذا فى سورة البقرة . قال مقاتل بن سليمان : المعنى قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار فى الآخرة . وقال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم . قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ـ وقوله ـ وأنذر عشيرتك الأقربين ـ (عليها ملائكة غلاظ شداد) أى على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم ، لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه وحبب إليهم تعذيب خلقه ، وقيل المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان ، وقيل غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل الغلاظ ضخام الأجسام ، والشداد الأقوياء (لا يعصون الله ما أمرهم) أى لا يخالفونه فى أمره ، و « ما » فى (ما أمرهم)

يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف : أى لايعصون الله الذى أمرهم به ، ويجوز أن تكون مصدرية : أى لايعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، أو على تقدير نزع الخافض : أى لايعصون الله فى أمره (ويفعلون مايؤمرون) أى يؤدّونه فى وقته من غير تراخ لايؤخرونه عنه ولا يقدّمونه (يا أيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) أى يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييسا لهم وقطعا لأطماعهم (إنما تجزون ماكنتم تعملون) من الأعمال فى الدنيا ، ومثل هذا قوله ـ فاليوم لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ـ (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) أى تنصح صاحبها بترك العود إلى ماتاب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازى ، وهو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب وترك المعاودة له .

والتوبة فرض على الأعيان . قال قتادة : التوبة النصوح الصادقة ، وقيل الخالصة . وقال الحسن : التوبة النصوح : أن يبغض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره . وقال الكلبى : التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على أن لايعود . وقال سعيد بن جبير : هى التوبة المقبولة . قرأ الجمهور « نصوحا » بفتح النون على الوصف للتوبة : أى توبة بالغة فى النصح ، وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بضمها : أى توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح ، وأن يكون مصدرا : يقال نصح نصاحة ونصوحا . قال المبرّد : أراد توبة ذات نصح (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) بسبب تلك التوبة ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهى من الله واجبة ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ويدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرئ بالجزم عطفا على محل عسى كأنه قال : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم (يوم لايخزى الله النبىء) الظرف متعلق بيدخلكم : أى يدخلكم يوم لايخزى الله النبى (والذين آمنوا معه) والموصول معطوف على النبى ، وقيل الموصول مبتدأ وخبره (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) والأوّل أولى وتكون جملة (نورهم يسعى) فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم ، وقد تقدّم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط ، وجملة (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) فى محل نصب على الحال أيضا ، وعلى الوجه الآخر تكون خبرا آخر ، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين كما تقدّم بيانه وتفصيله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجكم الله من النار . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : أدّبوا أهليكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن أبى عمران الجونى قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر مابين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس فى قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب ، يضربُ الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر ابن الخطاب سئل عن التوبة النصوح ، قال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لايعود إليه أبدا . وأخرج أحمد

وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لايعود إليه أبدا » وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري ، وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، وهو في القرآن ، ثم قرأ هذه الآية . وأخرج الحاكم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (يوم لايخزى الله النبيء والذين آمنوا معه نورهم يسعى) الآية قال : ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : (ربنا أتمم لنا نورنا) .

يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيءُ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ
مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي
عِنْدَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١١)
وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ
رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ (١٢) .

قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) أي بالسيف والحجة ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة (واغلظ عليهم) أي شدد عليهم في الدعوة واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع . قال الحسن : أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود (ومأواهم جهنم) أي مصيرهم إليها : يعني الكفار والمنافقين (وبئس المصير) أي المرجع الذي يرجعون إليه (ضرب الله مثلا للذين كفروا) قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة : أي جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لايغني أحد عن أحد (امرأت نوح وامرأت لوط) هذا هو المفعول الأول ، ومثلا المفعول الثاني حسبما قدمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ماهو تفسير له وإيضاح لمعناه (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) وهما نوح ولوط : أي كانتا في عصمة نكاحهما (فخانتاهما) أي فوقعت منهما الخيانة لهما . قال عكرمة والضحاك : بالكفر وقيل كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه ، وقد وقع الإجماع على أنه مازنت امرأة نبي قط . وقيل كانت خيانتهما النفاق ، وقيل خانتاهما بالنميمة (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) أي فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئا من الدفع (وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أي وقيل لهما في الآخرة ، أو عند موتهما ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصي . وقال يحيى بن سلام : ضرب الله مثلا للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من

المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين تظاهرتا عليه . وما أحسن من قال ، فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لايغنى عنهما من الله شيئا ، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) الكلام فى هذا كالكلام فى المثل الذى قبله : أى جعل الله حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم فى الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر فى الشدة ، وأن صولة الكفر لاتضرهم كما لم تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين وصارت بإيمانها بالله فى جنات النعيم (إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) الظرف متعلق بضرب أو بمثلا : أى ابن لى بيتا قريبا من رحمتك ، أو فى أعلى درجات المقربين منك ، أو فى مكان لايتصرف فيه إلا بإذنك وهو الجنة (ونجنى من فرعون وعمله) أى من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر (ونجنى من القوم الظالمين) قال الكلبى : هم أهل مصر . وقال مقاتل هم القبط . قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها) معطوف على امرأة فرعون : أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران : أى حالها وصفتها ، وقيل إن الناصب لمريم فعل مقدر : أى واذكر مريم ، والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين (التى أحصنت فرجها) أى عن الفواحش ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة النساء . قال المفسرون : المراد بالفرج هنا الجيب لقوله (فنفخنا فيه من روحنا) وذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فحبلت بعيسى (وصدقت بكلمات ربها) يعنى شرائعه التى شرعها لعباده ، وقيل المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها - إنما أنا رسول ربك - الآية . وقال مقاتل : يعنى بالكلمات عيسى . قرأ الجمهور « وصدقت » بالتشديد ، وقرأ حمزة الأموى ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف . وقرأ الجمهور « بكلمات » بالجمع ، وقرأ الحسن ومجاهد والجحدرى « بكلمة » بالإفراد. وقرأ الجمهور (وكتابه) بالإفراد ، وقرأ أهل البصرة وحفص « كتبه » بالجمع ، والمراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون فى معنى الجمع ، وهى الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) قال قتادة : من القوم المطيعين لربهم . وقال عطاء : من المصلين ، كانت تصلى بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، وقال : من القانتين ولم يقل من القانتات لتغليب الذكور على الإناث .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله (فخانتاهما) قال : ما زنتا : أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتهما . وأخرج ابن المنذر عنه : قال مابغت امرأة نبى قط ، وقد رواه ابن عساكر مرفوعا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة . وأخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة : أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها (١) وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس ،

(١) لعله : على ظهرها بدليل قوله بعد : وجعل على صدرها اه مصححه .

فرفعت رأسها إلى السماء ، ف(قالت ربّ ابن لى عندك بيتا فى الجنة) إلى قوله (من الظالمين) ففرج الله لها عن بيتها فى الجنة فرأته . وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ماقص الله علينا من خبرها فى القرآن قالت (ربّ ابن لى عندك بيتا) » الآية . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . وأخرج وكيع فى الغرر عن ابن عباس فى قوله (ونجنى من فرعون وعمله) قال : من جماعته .

تفسير سورة الملك

وتسمى سورة تبارك ، والواقية والمنجية ، والمانعة ، وهى ثلاثون آية

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة تبارك الملك . وأخرج أحمد وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن الضريس والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له (تبارك الذى بيده الملك) » قال الترمذى : هذا حديث حسن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « سورة فى القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة (تبارك الذى بيده الملك) » . وأخرج الترمذى والحاكم وصححه وابن مردويه وابن نصر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : « ضرب بعض أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لايحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » . قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تبارك هى المانعة من عذاب القبر » وأخرجه أيضا النسائى وصححه والحاكم . وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « أنزلت علىّ سورة تبارك ، وهى ثلاثون آية جملة واحدة ، وهى المانعة فى القبور » وأخرج عبد بن حميد فى مسنده والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال بلى : قال : اقرأ (تبارك الذى بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ؛ فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا
مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ
ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا
بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧)
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا
بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩)
وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا
لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١) .

قوله (تبارك الذى بيده الملك) تبارك تفاعل من البركة ، والبركة النماء والزيادة ، وقيل تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ، وقيل دام فهو الدائم الذى لا أوّل لوجوده ولا آخر لدوامه . وقال الحسن : تبارك تقدّس ، وصيغة التفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء ، والملك هو ملك السموات والأرض فى الدنيا والآخرة فهو يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقيل المراد بالملك ملك النبوّة ، والأوّل أولى ، لأن الحمل على العموم أكثر مدحا وأبلغ ثناء ، ولا وجه للتخصيص (وهو على كل شىء قدير) أى بليغ القدرة لايعجزه شىء من الأشياء يتصرّف فى ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع (الذى خلق الموت والحياة) الموت انقطاع تعلق الرّوح بالبدن ومفارقته له ، والحياة تعلق الرّوح بالبدن واتصاله به ، وقيل هى مايصح بوجوده الإحساس ، وقيل مايوجب كون الشىء حيا ، وقيل المراد الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة . وقدّم الموت على الحياة لأن أصل الأشياء عدم الحياة ، والحياة عارضة لها ، وقيل لأن الموت أقرب إلى القهر . وقال مقاتل : خلق الموت : يعنى النطفة والمضغة والعلقة ، والحياة يعنى خلقه إنسانا وخلق الروح فيه ، وقيل خلق الموت على صورة كبش لايمرّ على شىء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لاتمرّ بشىء إلا حيى ، قاله مقاتل والكلبى . وقد ورد فى التنزيل ـ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ـ وقوله ـ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ـ وقوله ـ توفته رسلنا ـ وقوله ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها ـ وغير ذلك من الآيات (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) اللام متعلقة بخلق : أى خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا ،

فيجازيكم على ذلك ، وقيل المعنى : ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا وأشدّ منه خوفا ، وقيل أيكم أسرع إلى طاعة الله ، وأورع عن محارم الله . وقال الزجاج : اللام متعلق بخلق الحياة ، لا بخلق الموت . وقال الزجاج أيضا والفراء : إن قوله « ليبلوكم لم يقع على أىّ ، لأن فيما بين البلوى وأىّ إضمار فعل كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ، ومثله قوله - سلهم أيهم بذلك زعيم - أى سلهم ثم انظر أيهم ، فأيكم فى الآية مبتدأ وخبره أحسن ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله ، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلى من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين (وهو العزيز) أى الغالب الذى لا يغالب (الغفور) لمن تاب وأناب (الذى خلق سبع سموات طباقا) الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا ، وأن يكون منقطعا عنه على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أو منصوب على المدح ، وطباقا صفة لسبع سموات : أى بعضها فوق بعض ، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب ، أو مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقا ، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف : أى ذات طباق ، ويجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف أى طوبقت طباقا (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ماقبلها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له ، ومن مزيدة لتأكيد النفى . قرأ الجمهور « من تفاوت » وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحمزة والكسائى « تفوّت » مشدّدا بدون ألف وهما لغتان : كالتعاهد والتعهد ، والتحامل والتحمل ، والمعنى على القراءتين : ماترى فى خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هى مستوية مستقيمة دالة على خالقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور : الشقوق والصدوع والخروق : أى اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة . أخبر أوّلا بأنه لا تفاوت فى خلقه ، ثم أمر ثانيا بترديد البصر فى ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة . قال مجاهد والضحاك : الفطور الشقوق جمع فطر : وهو الشق . وقال قتادة : هل ترى من خلل . وقال السدّى : هل ترى من خروق ، وأصله من التفطر والانفطار ، وهو التشقق والانشقاق ، ومنه قول الشاعر :

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور

وقول الآخر : شققت القلب ثم رددت فيه هواك فليم فالتام الفطور

(ثم ارجع البصر كرتين) أى رجعتين مرّة بعد مرّة ، وانتصابه على المصدر ، والمراد بالتثنية التكثير كما فى لبيك وسعديك : أى رجعة بعد رجعة وإن كثرت . ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى مايظنه من العيب فى النظرة الأولى ولا فى الثانية ، ولهذا قال أوّلا (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ثم قال ثانيا (فارجع البصر) ثم قال ثالثا (ثم ارجع البصر كرتين) فيكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة وأقطع للمعذرة (ينقلب إليك البصر خاسئا) أى يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك ، وقيل معنى خاسئا : مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب : أى أبعدته وطردته . قرأ الجمهور « ينقلب » بالجزم جوابا للأمر . وقرأ الكسائى فى رواية بالرفع على الاستئناف (وهو حسير) أى كليل منقطع . قال الزجاج : أى وقد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللا ، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور ، وهو الإعياء ، يقال : حسر بصره يحسر حسورا : أى كلّ وانقطع ، ومنه قول الشاعر :

نظرت إليها بالمحصب من منى　　فعاد إلىّ الطرف وهو حسير

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) بين سبحانه بعد خلق السموات وخلوّها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة ، فصارت فى أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجىء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ، وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضىء كإضاءة السراج وبعض الكواكب وإن كان فى غير سماء الدنيا من السموات التى فوقها ، فهى تتراءى كأنها كلها فى سماء الدنيا لأن أجرام السموات لاتمنع من رؤية مافوقها مما له إضاءة لكونها أجراما صقيلة شفافة (وجعلناها رجوما للشياطين) أى وجعلنا المصابيح رجوما يرجم بها الشياطين ، وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهى كونها زينة للسماء الدنيا ، والمعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو فى الأصل مصدر أطلق على المرجوم به كما فى قولهم : الدرهم ضرب الأمير : أى مضروبه ، ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف محذوف : أى ذات رجم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه . وقيل إن الضمير فى قوله (وجعلناها) راجع إلى المصابيح على حذف مضاف : أى شهبها ، وهى نارها المقتبسة منها ، لا هى أنفسها لقوله - إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب - ووجه هذا أن المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا لاتزول ولا يرجم بها ، كذا قال أبو علىّ الفارسى جوابا لمن سأله : كيف تكون المصابيح زينة وهى رجوم ؟ قال القشيرى : وأمثل من قوله هذا أن نقول : هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها فى البرّ والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لايعلم وتعدّى وظلم ، وقيل معنى الآية : وجعلناها ظنونا لشياطين الإنس ، وهم المنجمون (وأعتدنا لهم عذاب السعير) أى وأعتدنا للشياطين فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا بالشهب عذاب السعير : أى عذاب النار ، والسعير : أشدّ الحريق ، يقال سعرت النار فهى مسعورة (وللذين كفروا بربهم) من كفار بنى آدم ، أو من كفار الفريقين « عذاب جهنم » قرأ الجمهور برفع « عذاب » على أنه مبتدأ وخبره « للذين كفروا » . وقرأ الحسن والضحاك والأعرج بنصبه عطفا على « عذاب السعير » (وبئس المصير) مايصيرون إليه ، وهو جهنم (إذا ألقوا فيها) أى طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار (سمعوا لها شهيقا) أى صوتا كصوت الحمير عند أوّل نهيقها ، وهو أقبح الأصوات ، وقوله « لها » فى محل نصب على الحال : أى كائنا لها ، لأنه فى الأصل صفة ، فلما قدّمت صارت حالا . وقال عطاء : الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم فى النار ، وجملة (وهى تفور) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل ، ومنه قول حسان :

تركتم قدركم لاشىء فيه　　وقدر الغير حامية تفور

(تكاد تميز من الغيظ) أى تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيظها عليهم . قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظا على الكفار . قرأ الجمهور « تميز » بتاء واحدة مخففة ، والأصل تتميز بتاءين . وقرأ طلحة بتاءين على الأصل . وقرأ البزى عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى . وقرأ الضحاك « تمايز » بالألف وتاء واحدة والأصل تتمايز ، وقرأ زيد بن علىّ « تميز » من ماز يميز ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدإ ، وجملة (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) مستأنفة لبيان حال أهلها ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تميز ، والفوج الجماعة من الناس : أى كلما ألقى فى جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) فى الدنيا (نذير) ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه ، وجملة (قالوا بلى قد

جاءنا نذير) مستأنفة بجواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا السؤال ، فقال : قالوا بلى قد جاءنا نذير فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم (فكذبنا) ذلك النذير (وقلنا مانزّل الله من شيء) من الأشياء على ألسنتكم (إن أنتم إلا فى ضلال كبير) أى فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ، والمعنى أنه قال : كلّ فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ماقاله لمن أرسل إليه : ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلا فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لايقادر قدره . ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) أى لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل ، أو نعقل شيئا من ذلك ماكنا فى عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف . قال الزجاج : لو كنا نسمع سمع من يعى أو نعقل عقل من يميز وينظر ماكنا من أهل النار ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه (فاعترفوا بذنبهم) الذى استحقوا به عذاب النار ، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء (فسحقا لأصحاب السعير) أى فبعدا لهم من الله ومن رحمته . وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد فى جهنم يقال له السحق . قرأ الجمهور « فسحقا » بإسكان الحاء . وقرأ الكسائى وأبو جعفر بضمها ، وهما لغتان مثل السحت والرعب . قال الزجاج وأبو علىّ الفارسى : فسحقا منصوب على المصدر : أى أسحقهم الله سحقا . قال أبو علىّ الفارسى : وكان القياس إسحاقا فجاء المصدر على الحذف ، واللام فى (لأصحاب السعير) للبيان كما فى « هيت لك » .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله (سبع سموات طباقا) قال : بعضها فوق بعض . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) قال : ماتفوت بعضه بعضا تفاوتا مفرقا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله (من تفاوت) قال : من تشقق ، وفى قوله (هل ترى من فطور) قال : شقوق ، وفى قوله (خاسئا) قال : ذليلا (وهو حسير) كليل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا . قال : الفطور الوهى . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (من فطور) قال : من تشقق أو خلل ، وفى قوله (ينقلب إليك البصر) قال : يرجع إليك (خاسئا) قال : صاغرا (وهو حسير) قال : معيى ولا يرى شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا خاسئا قال : ذليلا (وهوحسير) قال : عيىّ مرتجع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (تكاد تميز) قال : تتفرّق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (تكاد) تميز قال : يفارق بعضها بعضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فسحقا) قال : بعدا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ

مَايُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) .

قوله (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة ، وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول : أى غائبين عنه ، أو غائبا عنهم ، والمعنى : أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى : يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس وذلك فى خلواتهم ، أو أو المراد بالغيب كون العذاب غائبا عنهم لأنهم فى الدنيا ، وهو إنما يكون يوم القيامة فتكون الباء على هذا سببية (لهم مغفرة) عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم (وأجر كبير) وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله ـ من خشى الرحمن بالغيب ـ . ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال (وأسرّوا قولكم أو اجهروا به) هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، والمعنى : إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكلّ ذلك يعلمه الله لاتخفى عليه منه خافية ، وجملة (إنه عليم بذات الصدور) تعليل للاستواء المذكور ، وذات الصدور هى مضمرات القلوب ، والاستفهام فى قوله (ألا يعلم من خلق) للإنكار . والمعنى : ألا يعلم السرّ ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق ، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفى يعلم ضمير يعود إلى الله : أى ألا يعلم الله المخلوق الذى هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه ، وجملة (وهو اللطيف الخبير) فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم : أى الذى لطف علمه بما فى القلوب ، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور ، لاتخفى عليه من ذلك خافية . ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) أى سهلة لينة تستقرّون عليها ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشى عليها ، والذلول فى الأصل : هو المنقاد الذى يذلّ لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر الذلّ ، والفاء فى قوله (فامشوا فى مناكبها) لترتيب الأمر بالمشى على الجعل المذكور ، والأمر للإباحة . قال مجاهد والكلبى ومقاتل : مناكبها طرقها وأطرافها وجوانبها . وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها ، وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، ومنه الريح النكباء ، لأنها تأتى من جانب دون جانب (وكلوا من رزقه) أى مما رزقكم وخلقه لكم فى الأرض (وإليه النشور) أى وإليه البعث من قبوركم ، لا إلى غيره ، وفى هذا وعيد شديد . ثم خوّف سبحانه الكفار . فقال (ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى عقوبة من فى السماء ، وقيل من فى السماء : قدرته وسلطانه وعرشه وملائكته ، وقيل من فى السماء من الملائكة ، وقيل المراد جبريل ، ومعنى (أن يخسف بكم الأرض) يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعد ماجعلها لكم ذلولا تمشون فى مناكبها ، وقوله (أن يخسف) بدل اشتمال من الموصول : أى ءأمنتم خسفه ، أو على حذف من : أى من أن يخسف (فإذا هى تمور) أى تضطرب وتتحرك على خلاف ماكانت عليه من السكون . قرأ الجمهور «ءأمنتم» بهمزتين ، وقرأ البصريون والكوفيون بالتخفيف ، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا . ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل سحاب فيها حجارة ،

وقيل ريح فيها حجارة (فستعلمون كيف نذير) أى إنذارى إذا عاينتم العذاب ولا ينفعكم هذا العلم ، وقيل النذير هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله عطاء والضحاك . والمعنى : ستعلمون رسولى وصدقه ، والأول أولى . والكلام (فى أن يرسل عليكم حاصبا) كالكلام فى (أن يخسف بكم الأرض) فهو إما بدل اشتمال ، أو بتقدير من (ولقد كذب الذين من قبلهم) أى الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية . كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ وقوم فرعون (فكيف كان نكير) أى فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات) الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدّر : أى أغفلوا ولم ينظروا ، ومعنى (صافات) أنها صافة لأجنحتها فى الهواء وتبسيطها عند طيرانها (ويقبضن) أى يضممن أجنحتهنّ . قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه صافّ ، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ، ومنه قول أبى خراش :

يبادر جنح الليل فهو مزايل   تحت الجناح بالتبسط والقبض

وإنما قال (ويقبضن) ولم يقل قابضات كما قال صافات ، لأن القبض يتجدد تارة فتارة ، وأما البسط فهو الأصل ، كذا قيل . وقيل إن معنى (ويقبضن) قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران ، لاقبضها فى حال الطيران ، وجملة (مايمسكهنّ إلا الرحمن) فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن ، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه . والمعنى : أنه مايمسكهنّ فى الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كلّ شىء (إنه بكلّ شىء بصير) لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان (أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند الحزب والمنعة . قرأ الجمهور « أمّن » هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من ، وأم بمعنى بل ، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة ، لأن بعدها هنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، ومن الاستفهامية مبتدأ ، واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة ، وينصركم صفة لجند ، ومن دون الرحمن فى محل نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى : بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوزا نصر الرحمن : وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيل الثانية ، وجملة (إن الكافرون إلا فى غرور) معترضة مقرّرة لما قبلها ناعية عليهم ماهم فيه من الضلال ، والمعنى : ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به (أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) الكلام فى هذا كالكلام فى الذى قبله قراءة وإعرابا : أى من الذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر وغيره إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم (بل لجوا فى عتوّ ونفور) أى لم يتأثروا لذلك ، بل تمادوا فى عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه : أى إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره ، والعتوّ العناد والطغيان ، والنفور الشرود .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) قال : أبو بكر وعمر وعلىّ وأبو عبيدة ابن الجراح ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (فى مناكبها) قال : جبالها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أطرافها . وأخرج الطبرانى وابن عدىّ والبيهقى فى الشعب والحكيم الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يحبّ العبد المؤمن المحترف » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بل لجوا فى عتوّ ونفور) قال : فى ضلال .

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ
ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ
وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ
وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ
وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ
غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠) .

ضرب سبحانه مثلا للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما ، فقال (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى) والمكبّ والمنكبّ : الساقط على وجهه ، يقال كببته فأكبّ وانكبّ ، وقيل هو الذى يكب رأسه فلا ينظر يمينا ولا شمالا ولا أماما فهو لايأمن العثور والانكباب على وجهه . وقيل أراد به الأعمى الذى لايهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه . قال قتادة : هو الكافر يكبّ على معاصى الله فى الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه . والهمزة للاستفهام الإنكارى : أى هل هذا الذى يمشى على وجهه أهدى إلى المقصد الذى يريده (أمّن يمشى سويا) معتدلا ناظرا إلى مابين يديه (على صراط مستقيم) أى على طريق مستوى لا اعوجاج به ولا انحراف فيه ، وخبر من محذوف لدلالة خبر من الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل لاحاجة إلى ذلك ، لأن من الثانية معطوفة على من الأولى عطف المفرد على المفرد ، كقولك أزيد قائم أم عمرو ؟ وقيل أراد بمن يمشى مكبا على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشى سويا من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذى ذكرناه ، ومثله قوله ـ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ـ قل هو الذى أنشأكم ـ أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرهم بأن الله هو الذى أنشأهم النشأة الأولى (وجعل) لهم (السمع) ليسمعوا به (والأبصار) ليبصروا بها ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، وقد قدّمنا بيان هذا فى مواضع مع زيادة فى البيان (والأفئدة) القلوب التى يتفكرون بها فى مخلوقات الله ، فذكر سبحانه هاهنا أنه قد جعل لهم مايدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحا للحجة وقطعا للمعذرة وذما لهم على عدم شكر نعم الله ، ولهذا قال (قليلا ماتشكرون) وانتصاب قليلا على أنه نعت مصدر محذوف ، وما مزيدة للتأكيد : أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا ، وقيل أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم . قال مقاتل : يعنى أنكم لاتشكرون رب هذه النعم فتوحدونه (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبرهم أن الله هو الذى خلقهم فى الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره . ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى متى هذا الوعد الذى تذكرونه لنا من

الحشر والقيامة والنار والعذاب إن كنتم صادقين فى ذلك ، والخطاب منهم للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ولمن معه من المؤمنين ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا ، وهذا منهم استهزاء وسخرية . ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عليهم فقال (قل إنما العلم عند الله) أى إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لايعلمه غيره ، ومثله قوله ـ قل إنما علمها عند ربى ـ ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال (وإنما أنا نذير مبين) أنذركم وأخوّفكم عاقبة كفركم وأبين لكم ما أمرنى الله ببيانه . ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال (فلما رأوه زلفة) يعنى رأوا العذاب قريبا ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل : أى مزدلفا أوحال من مفعول رأوا بتقدير مضاف : أى ذا زلفة وقرب ، أو ظرف : أى رأوه فى مكان ذى زلفة . قال مجاهد : أى قريبا . وقال الحسن : عيانا . قال أكثر المفسرين : المراد عذاب يوم القيامة ، وقال مجاهد : المراد عذاب بدر ، وقيل رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم كما يدلّ عليه قوله (وإليه تحشرون) وقيل لما رأوا عملهم السىء قريبا (سيئت وجوه الذين كفروا) أى اسودّت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة ، يقال ساء الشىء يسوء فهو سىء إذا قبح . قال الزجاج : المعنى تبين فيها السوء : أى ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله ـ يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ـ . قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وابن محيصن بالإشمام (وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون) أى قيل لهم توبيخا وتقريعا هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الذى كنتم به تدّعون فى الدنيا : أى تطلبونه وتستعجلون به استهزاء ، على أن معنى تدّعون الدعاء . قال الفراء : تدّعون تفتعلون من الدعاء : أى تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين . وقال الزجاج : هذا الذى كنتم به تدّعون الأباطيل والأحاديث . وقيل معنى تدّعون : تكذبون ، وهذا على قراءة الجمهور « تدّعون » بالتشديد ، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر ، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه ، والمعنى : أنهم كانوا يدّعون أنه لابعث ولا حشر ولا جنة ولا نار . وقرأ قتادة وابن أبى إسحاق ويعقوب والضحاك : تدعون مخففا ، ومعناها ظاهر . قال قتادة : هو قولهم ـ ربنا عجل لنا قطنا ـ وقال الضحاك : هو قولهم ـ اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ـ الآية . قال النحاس : تدّعون وتدعون بمعنى واحد كما تقول قدر واقتدر ، وغدا واغتدى ، إلا أنّ أفعل معناه مضى شيئا بعد شىء ، وفعل يقع على القليل والكثير (قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى) أى أخبرونى إن أهلكنى الله بموت أو قتل ، ، ومن معى من المؤمنين (أو رحمنا) بتأخير ذلك إلى أجل ، وقيل المعنى : إن أهلكنى الله ومن معى بالعذاب ، أو رحمنا فلم يعذبنا (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) أى فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى : أنه لاينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه ، أو أمهلهم . وقيل المعنى ؛ إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء ، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر ، وبيان أنه السبب فى عدم نجاتهم (قل هو الرحمن آمنا به) وحده ، لانشرك به شيئا (وعليه توكلنا) لا على غيره ، والتوكل : تفويض الأمور إليه عزّ وجلّ (فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم ، وفى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور « ستعلمون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الكسائى بالتحتية على الخبر ، ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه ، وخوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) أى أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض بحيث لايبقى له وجود فيها أصلا ، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لاتناله الدلاء . يقال

غار الماء غورا : أى نضب ، والغور الغائر ، وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف (فمن يأتيكم بماء معين) أى ظاهر تراه العيون ، وتناله الدلاء ، وقيل هو من معن الماء : أى كثر . وقال قتادة والضحاك : أى جار ، وقد تقدّم معنى المعين فى سورة المؤمن . وقرأ ابن عباس « فمن يأتيكم بماء عذب » .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (أفمن يمشى مكبا) قال : فى الضلالة (أمّن يمشى سويا) قال : مهتديا . وأخرج الخطيب فى تاريخه وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هذه الآية (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) » . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات ـ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع ـ إلى ـ يفقهون ـ و (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) فإنه يبرأ بإذن الله » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (إن أصبح ماؤكم غورا) قال : داخلا فى الأرض (فمن يأتيكم بماء معين) قال : الجارى . وأخرج ابن المنذر عنه (إن أصبح ماؤكم غورا) قال : يرجع فى الأرض : وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (بماء معين) قال : ظاهر . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (بماء معين) قال عذب .

تفسير سورة نٓ

هى اثنتان وخمسون آية

وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أن من أوّلها إلى قوله (سنسمه على الخرطوم) مكىّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله (من الصالحين) مدنىّ ، وباقيها مكى كذا قال الماوردى . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها مايشاء ، وكان أوّل مانزل من القرآن « اقرأ باسم ربك » ثم نون ، ثم المزمل ، ثم المدثر . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عنه قال : نزلت سورة نٓ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ
تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ

مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) .

قوله (نٓ) قرأ أبو بكر وورش وابن عامر والكسائي وابن محيصن وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو . وقرأ الباقون بالإظهار . وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل . وقرأ ابن عامر ونصر وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميفع وهارون بضمها على البناء . قال مجاهد ومقاتل والسدّى : هو الحوت الذى يحمل الأرض وبه قال مرّة الهمدانى وعطاء الخراسانى والكلبى . وقيل إن نون آخر حرف من حروف الرحمن . وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به . وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة . وقال عطاء وأبو العالية : هى النون من نصر وناصر . قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين ، وقيل هو حرف من حروف الهجاء ، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك ، وقد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة ، والواو فى قوله (والقلم) واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به . وقال جماعة من المفسرين : المراد به القلم الذى كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيما له . قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده (وما يسطرون) ما موصولة : أى والذى يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المداول عليهم بذكره ، لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب . والمعنى : والذى يسطرون : أى يكتبون كل مايكتب ، أو الحفظة على ماتقدّم . ويجوز أن تكون ما مصدرية : أى وسطرهم ، وقيل الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ما نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها . قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله (بنعمة ربك) كلام وقع فى الوسط : أى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، قيل الباء متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل أنت برىء من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة . وقيل الباء للقسم : أى وما أنت ونعمة ربك بمجنون . وقيل النعمة هنا الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا ـ يا أيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون ـ (وإن لك لأجرا) أى ثوابا على ماتحملت من أثقال النبوّة ، وقاسيت من أنواع الشدائد (غير ممنون) أى غير مقطوع ، يقال مننت الحبل إذا قطعته . وقال مجاهد : غير ممنون غير محسوب ، وقال الحسن : غير ممنون غير مكدّر بالمنّ . وقال الضحاك : أجرا بغير عمل ، وقيل غير مقدّر ، وقيل غير ممنون به عليك من جهة الناس (وإنك لعلى خلق عظيم) قيل هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين . وقيل هو القرآن ، روى هذا عن الحسن والعوفى . وقال قتادة : هو ماكان يأتمر به من أمر الله وينتهى عنه من نهى الله . قال الزجاج : المعنى إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن ، وقيل هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم ، وقيل المعنى : إنك على طبع كريم . قال الماوردى : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب . وقد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن ، وهذه الجملة والتى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم (فستبصر ويبصرون) أى ستبصر يامحمد ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء وذلك يوم القيامة (بأيكم المفتون) الباء زائدة للتأكيد : أى أيكم المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج   نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول ، كالمعقول والميسور ، والتقدير : بأيكم الفتون أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه   لحما ولا لفؤاده معقولا

أي عقلا . وقال الفراء : إن الباء بمعنى فى : أى فى أيكم المفتون ، أفى الفريق الذى أنت فيه ، أم فى الفريق الآخر ؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة فى أيكم المفتون ، وقيل الكلام على حذف مضاف : أى بأيكم فتن المفتون ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، روى هذا عن الأخفش أيضا . وقيل المفتون المعذب ، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته ، ومنه قوله ـ يوم هم على النار يفتنون ـ ، وقيل المفتون هو الشيطان ، لأنه مفتون فى دينه ، والمعنى : بأيكم الشيطان . وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة (إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله) تعليل للجملة التى قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين (وهو أعلم بالمهتدين) إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشر (فلا تطع المكذبين) نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار ، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير ، فنهاه الله عن ذلك كما يدلّ عليه قوله (ودّوا لو تدهن فيدهنون) فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة . قال الفرّاء : المعنى لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبى . وقال الضحاك والسدّى : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر . وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك . وقال الحسن : ودّوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك . وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك . قال ابن قتيبة : كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة ، ويعبدوا الله مدّة ، وقوله « فيدهنون » عطف على تدهن داخل فى حيز لو ، أو هو خبر مبتدإ محذوف : أى فهم يدهنون . قال سيبويه : وزعم قالون أنها فى بعض المصاحف « ودّوا لو تدهن فيدهنوا » بدون نون ، والنصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة فى معنى الإدهان هو ما ذكرناه أوّلا (ولا تطع كلّ حلاف) أى كثير الحلف بالباطل (مهين) فعيل من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز . وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة : المكثار فى الشرّ ، وكذا قال الحسن . وقيل هو الفاجر العاجز ، وقيل هو الحقير عند الله ، وقيل هو الذليل ، وقيل هو الوضيع (هماز مشاء بنميم) الهماز المغتاب للناس . قال ابن زيد : هو الذى يهمز بأخيه ، وقيل الهماز الذى يذكر الناس فى وجوههم ، واللماز الذى يذكرهم فى مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبى رباح ، وقال مقاتل عكس هذا . والمشاء بنميم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نمّ ينمّ : إذا سعى بالفساد بين الناس ، ومنه قول الشاعر :

ومولى كبيت النمل لا خير عنده   لمولاه إلا سعيه بنميم

وقيل النميم جمع نميمة (مناع للخير) أى بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه ، وقيل هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن

الإسلام . قال الحسن : يقول لهم من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا (معتد أثيم) أى متجاوز الحدّ فى الظلم كثير الإثم (عتلّ) قال الواحدى : المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق . وقال الفراء : هو الشديد الخصومة فى الباطل . وقال الزجاج : هو الغليظ الجافى . وقال الليث : هو الأكول المنوع ، يقال عتلت الرجل أعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا ، ومنه قول الشاعر : * نقرعه قرعا ولسنا نعتله * (بعد ذلك زنيم) أى هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم ، والزنيم هو الدعىّ الملصق بالقوم وليس هو منهم ؛ مأخوذ من الزنمة المتدلية فى حلق الشاة ، أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزنيم المعروف بالشرّ ، وقيل هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة ، وقيل هو الظلوم (أن كان ذا مال وبنين) متعلق بقوله « لا تطع » أى لا تطع مَن هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين . قال الفراء والزجاج : أى لأن كان ، والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والمغيرة وأبو حيوة « أن كان » بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام . وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل « أأن كان » : بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التى خوّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله . وقرأ نافع فى رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين) مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى ، وقد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع (سنسمه على الخرطوم) أى سنسمه بالكىّ على خرطومه . قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم الأنف . قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار . قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة فإنه فى مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض . قال الزجاج : سيجعل له فى الآخرة العلم الذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم . وقال قتادة : سنلحق به شينا لا يفارقه ، واختار هذا ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عارا لا يفارقه كالوسم على الخرطوم ، وقيل معنى سنسمه : سنحطمه بالسيف . وقال النضر بن شميل : المعنى سنحدّه على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم ومنه قول الشاعر :

تظل يومك فى لهو وفى طرب وأنت بالليل شرّاب الخراطيم

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات والخطيب فى تاريخه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : إن أوّل شىء خلقه الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السموات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس (نون والقلم وما يسطرون) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد » . وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن

جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهى الدواة وخلق القلم ، فقال اكتب ، قال وما أكتب ؟ قال : اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة . وأخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : نّ الدواة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « النون السمكة التى عليها قرار الأرضين ، والقلم الذى خطّ به ربنا عزّ وجلّ القدر خيره وشرّه وضرّه ونفعه (وما يسطرون) قال : الكرام الكاتبون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله (وما يسطرون) قال : مايكتبون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (وما يسطرون) قال : وما يعلمون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أمّ المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن (إنك لعلى خلق عظيم) . وأخرج ابن مردويه وأبونعيم فى الدلائل والواحدى عنها قالت « ماكان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مادعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال لبيك ، فلذلك أنزل الله (وإنك لعلى خلق عظيم) » وأخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أبى الدرداء قال « سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه » . وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وصححه وابن مردويه عن أبى عبد الله الجدلى قال « قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالت : لم يكن فاحشا ولا متفاحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فستبصر ويبصرون) قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة (بأيكم المفتون) قال الشيطان ، كانوا يقولون إنه شيطان وإنه مجنون . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : بأيكم المجنون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ودّوا لو تدهن فيدهنون) يقول : لو ترخص لهم فيرخصون . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (ولا تطع كل حلاف مهين) الآية قال : يعنى الأسود بن عبد يغوث . وأخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال « قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبى بكر وعمر فقال عبدالرحمن ابن أبى بكر : إنها ليست بسنة أبى بكر وعمر ولكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذى أنزل فيه — والذى قال لوالديه أفّ لكما — الآية ، قال : فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل فى عبد الرحمن ، ولكن نزل فى أبيك (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) » وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال « نزل على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زنيم ، فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة » وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العتلّ هو الدعىّ ، والزنيم هو المريب الذى يعرف بالشرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعىّ . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه عنه أيضا قال : الزنيم الذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون رجل سوء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (زنيم) قال : ظلوم ، وقد قيل إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق ، وقيل فى الوليد بن المغيرة

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا
يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠)
فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا وَهُمْ
يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)
قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ
ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) .

قوله (إنا بلوناهم) يعني كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدّي حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحقّ الله فيها . قال الواحدى : هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل ، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ماقصّ الله فى كتابه . قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان بتلاهم الله بأن حرق جنتهم. وقيل هي جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أى حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح ، والصرم القطع للثمر والزرع ، وانتصاب « مصبحين » على الحال من فاعل ليصرمنها ، والكاف فى « كما بلونا » نعت مصدر محذوف : أى بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذى ، وإذ ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمنها جواب القسم (ولا يستثنون) يعنى ولا يقولون إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم ، أو حال . وقيل المعنى : ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) أى طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل : وقيل الطائف جبريل اقتلعها ، وجملة (وهم نائمون) فى محل نصب على الحال (فأصبحت كالصريم) أى كالشيء الذى صرمت ثماره : أى قطعت ، فعيل بمعنى مفعول ، وقال الفرّاء : كالصريم كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة . وقال الأخفش :

أى كالصبح انصرم من الليل ، يعنى أنها يبست وابيضت . وقال المبرد : الصريم الليل ، والصريم النهار : أى ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا ، وقيل سمى الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف . وقال المؤرج : الصريم الرملة لأنها لايثبت عليها شىء ينتفع به . وقال الحسن : صرم منها الخير : أى قطع (فتنادوا مصبحين) أى نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض (أن اغدوا على حرثكم) و « أن » فى قوله « أن اغدوا » هى المفسرة لأنّ فى التنادى معنى القول ، أو هى المصدرية : أى بأن اغدوا ، والمراد اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث الثمار والزرع (إن كنتم صارمين) أى قاصدين للصرم ، والغدوّ يتعدّى بإلى وعلى ، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف : أى إن كنتم صارمين فاغدوا ، وقيل معنى صارمين ماضين فى العزم ، من قولك سيف صارم (فانطلقوا وهم يتخافتون) أى ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم ، يقال خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

وإنى لم أهلك ملالا ولم أمت ... خفاتا وكلا ظنه بى عويمر

وقيل المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لايروهم ، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأوّل أولى لقوله (أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) فإنّ أن هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول . والمعنى : يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لايدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ماكان يعطيه أبوكم (وغدوا على حرد قادرين) الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . قال قتادة ومقاتل والكلبى والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ، لأن القاصد إلى الشىء حارد يقال : حرد يحرد إذا قصد ، تقول : حردت حردك : أى قصدت قصدك ، ومنه قول الراجز :

أقبل سيل جاء من عند الله ... يحرد حرد الجنة المغله

وقال ابو عبيدة والمبرد والقتيبى : على حرد على منع ، من قولهم حردت الإبل حردا : إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هى القليلة اللبن . وقال السدّى وسفيان والشعبى (على حرد) على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياد الخيل جاءت تردى ... مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر : * تساقوا على حرد دماء الأساود * ومنه قيل أسد حارد . وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالا : على حرد : أى على حسد . وقال الحسن أيضا : على حاجة وفاقة . وقيل على حرد : على انفراد ، يقال حرد يحرد حردا أوحرودا : إذا تنحى عن قومه ونزل منفردا عنهم ولم يخالطهم ، وبه قال الأصمعى وغيره ، وقال الأزهرى : حرد اسم قريتهم ، وقال السدّى : اسم جنتهم . قرأ الجمهور « حرد » بسكون الراء . وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتحها ، وانتصاب (قادرين) على الحال . قال الفراء : ومعنى قادرين : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم . وقال الشعبى : يعنى قادرين على المساكين (فلما رأوها) أى لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت مافيها (قالوا إنا لضالون) أى قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه ، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب مافيها من الثمر والزرع قالوا (بل نحن محرومون) أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول ، وقيل معنى قولهم (إنا لضالون) أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم (قال أوسطهم) أى أمثلهم وأعقلهم وخيرهم (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هلا

تسبحون : يعني تستثنون ، وسمي الاستثناء تسبيحا ، لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحا . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عزّ وجلّ ، فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله . وقيل المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) أي تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا ، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه ، وقيل معنى تسبيحهم الاستغفار : أي نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أي يلوم بعضهم بعضا في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث (قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين) أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء . قال ابن كيسان : أي طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوّضهم بخير منها فقالوا (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ وجلّ أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم ، قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها . قرأ الجمهور « يبدلنا » بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل تغيير ذات الشيء ، أو تغيير صفته ، والإبدال رفع الشيء جملة ووضع آخر مكانه ، كما مضى في سورة سبأ (إنا إلى ربنا راغبون) أي طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه وعدى بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع (كذلك العذاب) أي مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر ، وكذلك خبره (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أي أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كما بلونا أصحاب الجنة) قال : هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين ، فمات أبوهم فقال بنوه : أن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين (فأقسموا ليصرمنها مصبحين) وأن لا يطعموا مسكينا . وأخرج ابن جرير عنه (فطاف عليها طائف) قال : أمر من الله وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إياكم والمعصية ، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيء له . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كالصريم) قال : مثل الليل الأسود . وأخرج ابن المنذر عنه (وهم يتخافتون) قال : الإسرار والكلام الخفيّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (على حرد قادرين) يقول ذو قدرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (إنا لضالون) قال : أضللنا مكان جنتنا . وأخرجا عنه أيضا (قال أوسطهم) قال : أعدلهم .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩)

سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا
الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن
يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)
وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين وما أعدّه لهم من الخير ، فقال (إن المتقين عند ربهم جنات النعيم) أى المتقين مايوجب سخطه من الكفر والمعاصى عنده عزّ وجلّ فى الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذى لايشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم فى الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا : إن صح مايزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ماهى فى الدنيا ، فقال الله مكذبا لهم رادّا عليهم : أفنجعل المسلمين الآية ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره . ثم وبخهم الله ، فقال (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم (أم لكم كتاب فيه تدرسون) أى تقرءون فيه فتجدون المطيع كالعاصى ، ومثل هذا قوله تعالى ـ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ـ ثم قال سبحانه (إنّ لكم فيه لما تخيرون) قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون : أى تدرسون فى الكتاب (إن لكم فيه لما تخيرون) فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت إنك لعاقل بالكسر ، أو على الحكاية للمدروس ، كما فى قوله ـ وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ـ وقيل قد تمّ الكلام عند قوله (تدرسون) ثم ابتدأ فقال (إن لكم فيه لما تخيرون) أى ليس لكم ذلك ، وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك « أن لكم » بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد ومعنى (تخيرون) تختارون وتشتهون . ثم زاد سبحانه فى التوبيخ فقال (أم لكم أيمان علينا بالغة) أى عهود مؤكدة موثقة متناهية ، والمعنى أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها فى أن يدخلكم الجنة ، وقوله (إلى يوم القيامة) متعلق بالمقدر فى لكم أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لاتخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، وجواب القسم قوله (إن لكم لما تحكمون) لأن معنى (أم لكم أيمان) أى أم أقسمنا لكم . قال الرازى : والمعنى أم ضمنا لكم وأقسمنا لكم

بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد . وقيل قد تمّ الكلام عند قوله (إلى يوم القيامة) ثم ابتدأ فقال (إن لكم لما تحكمون) أى ليس الأمر كذلك . قرأ الجمهور « بالغة» بالرفع على النعت لأيمان ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان ، لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا (سلهم أيهم بذلك زعيم) أى سل يامحمد الكفار موبخا لهم ومقرّعا أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن : الزعيم الرسول (أم لهم شركاء) يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم فيه (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) فيما يقولون وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف ، وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة (يوم يكشف عن ساق) يوم ظرف لقوله فليأتوا : أى فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدّر : أى اذكر يوم يكشف . قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله (عن ساق) عن شدّة من الأمر . قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدّة ، وأنشد لدريد بن الصمة :

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ مايحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق . قال أبو عبيدة : إذا اشتدّ الحرب والأمر قيل كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع فى شىء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه ، فاستغير الساق والكشف عن موضع الشدّة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب فى أشعارها ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول آخر : والخيل تعدو عند وقت الاشراق وقامت الحرب بنا على ساق

وقول آخر أيضا :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وقول آخر أيضا فى سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل ساق الشىء : أصله وقوامه كساق الشجرة ، وساق الإنسان : أى يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه ، وقيل يكشف عن ساق جهنم ، وقيل عن ساق العرش ، وقيل هو عبارة عن القرب ، وقيل يكشف الربّ سبحانه عن نوره ، وسيأتى فى آخر البحث ماهو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . قرأ الجمهور « يكشف » بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبى عبلة « تكشف » بالفوقية مبنيا للفاعل : أى الشدّة أو الساعة ، وقرىء بالفوقية مبنيا للمفعول ، وقرىٔ بالنون ، وقرئ بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر : أى دخل فى الكشف (ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) قال الواحدى : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود . قال الربيع بن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله فى الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ، لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله فى الدنيا ، وانتصاب (خاشعة أبصارهم) على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الابصار ، وهو الخضوع

والذلة لظهور أثره فيها (ترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة (وقد كانوا يدعون إلى السجود) أى فى الدنيا (وهم سالمون) أى معافون عن العلل متمكنون من الفعل . قال إبراهيم التيمى : يدعون بالأذان والإقامة فيأبون . وقال سعيد بن جبير : يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون . قال كعب الأحبار : والله مانزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات . وقيل يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ، وجملة (وهم سالمون) فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) أى حل بينى وبينه وكل أمره إلىّ فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه لايشتغل به قلبك ، كله إلىّ فأنا أكفيك أمره . والفاء لترتيب مابعدها من الأمر على ما قبلها ، و « من » منصوب بالعطف على ضمير المتكلم أو على أنه مفعول معه ، والمراد بهذا الحديث القرآن ، قاله السدّى . وقيل يوم القيامة ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجملة (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله « ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها ، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لايعلمون أن ذلك استدراج ، لأنهم يظنونه إنعاما ولا يفكرون فى عاقبته وما سيلاقون فى نهايته . قال سفيان الثورى : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر . وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال استدرج فلان فلانا : أى استخرج ماعنده قليلا قليلا ، ويقال درّجه إلى كذا واستدرجه : يعنى أدناه إلى التدريج فتدرج هو . ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال (وأملى لهم) أى أمهلهم ليزدادوا إثما ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف والطور ، وأصل الملاوة المدّة من الدهر ، يقال أملى الله له : أى أطال له المدّة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به لامتدادها (إن كيدى متين) أى قوىّ شديد فلا يفوتنى شىء ، وسمى سبحانه إحسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته ووصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك (أم تسألهم أجرا) أعاد سبحانه الكلام إلى ماتقدّم من قوله ـ أم لهم شركاء ـ أى أم تلتمس منهم ثوابا على ماتدعوهم إليه من الإيمان بالله (فهم من مغرم مثقلون) المغرم الغرامة : أى فهم من غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون : أى يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال ، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) أى اللوح المحفوظ ، أو كلّ ماغاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون مايريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدلّ على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله (فاصبر لحكم ربك) أى لقضائه الذى قد قضاه فى سابق علمه ، قيل والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، وقيل هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة ، قيل وهذا منسوخ بآية السيف (ولا تكن كصاحب الحوت) يعنى يونس عليه السلام : أى لاتكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة والظرف فى قوله (إذ نادى) منصوب بمضاف محذوف : أى لاتكن حالك كحاله وقت ندائه ، وجملة (وهو مكظوم) فى محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم المملوء غيظا وكربا . قال قتادة : إن الله يعزّى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله ـ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ـ

وقيل إن المكظوم: المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس . قاله المبرّد ، وقيل هو المحبوس ، والأوّل أولى ، ومنه قول ذى الرّمة :

وأنت من حبّ ميّ مضمر حزنا   عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

(لولا أن تداركه نعمة من ربه) أى لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله وهى توفيقه للتوبة فتاب الله عليه (لنبذ بالعراء) أى لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات (وهو مذموم) أى يذمّ ويلام بالذنب الذى أذنبه ويطرد من الرحمة ، والجملة فى محل نصبّ على الحال من ضمير نبذ . قال الضحاك : النعمة هنا النبوّة . وقال سعيد بن جبير : عبادته التى سلفت . وقال ابن زيد : هى نداؤه بقوله ـ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ـ وقيل مذموم مبعد . وقيل مذنب . قرأ الجمهور « تداركه » على صيغة الماضى ، وقرأ الحسن وابن هرمز والأعمش بتشديد الدال ، والأصل تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبىّ وابن مسعود وابن عباس « تداركته » بتاء التأنيث (فاجتباه ربه) أى استخلصه واصطفاه واختاره للنبوّة (فجعله من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح وعصمه من الذنب ، وقيل ردّ إليه النبوّة وشفعه فى نفسه وفى قومه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) إن هى المخففة من الثقيلة . قرأ الجمهور « ليزلقونك » بضم الياء من أزلقه : أى أزلّ رجله ، يقال أزلقه عن موضعه إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى . قال الهروى : أى فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد وأبو وائل « ليرهقونك » أى يهلكونك . وقال الكلبى « يزلقونك » أى يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السدّى وسعيد بن جبير . وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك . وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك . قال الزجاج فى الآية مذهب أهل اللغة والتأويل أنهم من شدّة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعنى ، ونظرا يكاد يأكلنى . قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه مايعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر :

يتعارضون إذا التقوا فى مجلس   نظرا يزيل مواطئ الأقدام

(لما سمعوا الذكر) أى وقت سماعهم للقرآن لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة ، ولما ظرفية منصوبة بيزلقونك ، وقيل هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ماقبله عليه أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك (ويقولون إنه مجنون) أى ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله (وما هو إلا ذكر للعالمين) والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون : أى والحال أنه تذكير وبيان لجميع مايحتاجون إليه ، أو شرف لهم كما قال سبحانه ـ وإنه لذكر لك ولقومك ـ وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما ، وله ألفاظ فى بعضها طول ، وهو

حديث مشهور معروف . وأخرج ابن منده عن أبي هريرة في الآية قال : يكشف الله عزّ وجلّ عن ساقه .وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى ، وأخرج أبويعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه وابن عساكر عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال « عن نور عظيم فيخرّون له سجدا » . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقي عن إبراهيم النخعي عن ابن عباس في الآية قال : يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت الحرب على ساق . قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كلّ مؤمن ، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (يوم يكشف عن ساق) قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر : * وقامت الحرب بنا على ساق * قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد ، روى عنه نحو هذا من طرق أخرى ، وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها فليس كمثله شيء .

دعوا كل قول عند قول محمد   فما آمن في دينه كمخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) قال : هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وأخرج البيهقي في الشعب عنه في الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله (ليزلقونك بأبصارهم) قال : ينفذونك بأبصارهم .

تفسير سورة الحاقة

هي إحدى وخمسون آية ، وقيل اثنتان وخمسون

وهي مكية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحاقة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبراني عن أبي برزة « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الفجر بالحاقة ونحوها » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرٰيكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعٰى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرٰى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١)
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣)
وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنْشَقَّتِ
ٱلسَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَٰهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) .

قوله (الحاقة) هي القيامة ، لأن الأمر يحق فيها ، وهي تحق في نفسها من غير شك . قال الأزهري : يقال حاققته فحققته أحقه غالبته فغلبته أغلبه . فالقيامة حاقة لأنها تحاق كل محاق فى دين الله بالباطل وتخصم كل مخاصم . وقال فى الصحاح : حاقه أي خاصمه فى صغار الأشياء ، ويقال ماله فيها حق ولا حقاق ولا خصومة ، والتحاق التخاصم ، والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات بمعنى . قال الواحدى : هى القيامة فى قول كل المفسرين ، وسميت بذلك لأنها ذات الحواق من الأمور ، وهى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود . قال الكسائى والمؤرج : الحاقة يوم الحق ، وقيل سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وهى مبتدأ وخبرها قوله (ما الحاقة) على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمعنى : أيّ شيء هى فى حالها أو صفاتها ، وقيل إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها ، وهذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول : زيد ما زيد ، وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى فى سورة الواقعة . ثم زاد سبحانه فى تفخيم أمرها وتفظيع شأنها وتهويل حالها فقال (وما أدراك ما الحاقة) أى أيّ شيء أعلمك ما هى ؟ أى كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين . قال يحيى بن سلام : بلغنى أن كل شيء فى القرآن وما أدراك . فقد أدراه إياه وعلمه ، وكلّ شيء قال فيه وما يدريك فإنه أخبره به ، وما مبتدأ ، وخبره أدراك ، وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض ، لأن أدرى يتعدّى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله ـ ولا أدراكم به ـ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى ، وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا ، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين ، وجملة وما أدراك معطوفة على جملة ما الحاقة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى بالقيامة ، وسميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها . وقال المبرّد : عنى بالقارعة القرآن الذى نزل فى الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوّفونهم بذلك فيكذبونهم ، وقيل القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواما وتحط آخرين ، والأوّل أولى ، ويكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظم هولها وفظاعة حالها والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) ثمود هم قوم صالح ، وقد تقدّم بيان هذا فى غير موضع وبيان منازلهم وأين كانت ، والطاغية الصيحة التى جاوزت الحدّ ، وقيل بطغيانهم وكفرهم ، وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) عاد هم قوم هود ، وقد تقدّم بيان هذا ، وذكر منازلهم ، وأين كانت فى غير موضع ، والريح الصرصر هى الشديدة البرد ، مأخوذ من الصرّ وهو البرد ، وقيل هى الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة

السموم ، والعاتية التي عتت عن الطاعة فكأنها عتت على خزانها ، فلم تطعهم ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها ، أو عتت على عاد ، فلم يقدروا على ردّها ، بل أهلكتهم (سخرها عليهم سبع ليال) هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ومعنى سخرها سلطها ، كذا قال مقاتل ، وقيل أرسلها . وقال الزجاج : أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار ، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح ، وأن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة ، أو من الضمير في عاتية (وثمانية أيام) معطوف على سبع ليال ، وانتصاب (حسوما) على الحال : أي ذات حسوم ، أو على المصدر بفعل مقدّر : أي تحسمهم حسوما ، أو على أنه مفعول به ، والحسوم التتابع ، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوّله عن آخره قيل له الحسوم . قال الزجاج : الذي توجبه اللغة في معنى قوله حسوما : أي تحسمهم حسوما تفنيهم وتذهبهم . قال النضر بن شميل : حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم . وقال الفراء : الحسوم الاتباع ، من حسم الداء وهو الكيّ ، لأن صاحبه يكوى بالمكواة ، ثم يتابع ذلك عليه ومنه قول أبي دؤاد :

يفرق بينهم زمن طويل ... تتابع فيه أعواما حسوما

وقال المبرّد : هو من قولك حسمت الشيء : إذا قطعته وفصلته عن غيره ، وقيل الحسم الاستئصال ، ويقال للسيف حسام لأنه يحسم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته ، والمعنى : أنها حسمتهم : أي قطعتهم وأذهبتهم ، ومنه قول الشاعر :

فأرسلت ريحا دبورا عقيما ... فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد : أي حسمتهم فلم تبق منهم أحدا . وروى عنه أنه قال : حسمت الأيام والليالي حتى استوفتها ، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم . وقال الليث : الحسوم هي الشؤم : أي تحسم الخير عن أهلها ، كقوله ـ في أيام نحسات ـ .

واختلف في أوّلها ، فقيل غداة الأحد ، وقيل غداة الجمعة ، وقيل غداة الأربعاء . قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز ، كان فيها برد شديد وريح شديدة ، وكان أوّلها يوم الأربعاء ، وآخرها يوم الأربعاء (فترى القوم فيها صرعى) الخطاب لكلّ من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك ، والضمير في فيها يعود إلى الليالي والأيام ، وقيل إلى مهاب الريح ، والأوّل أولى . وصرعى جمع صريع : يعني موتى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أي أصول نخل ساقطة ، أو بالية ، وقيل خالية لاجوف فيها ، والنخل يذكر ويؤنث ، ومثله قوله ـ كأنهم أعجاز نخل منقعر ـ وقد تقدّم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم . قال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية (فهل ترى لهم من باقية) أي من فرقة باقية ، أو من نفس باقية ، أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية . قال ابن جريج : أقاموا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر (وجاء فرعون ومن قبله) أي من الأمم الكافرة . قرأ الجمهور قبله بفتح القاف وسكون الباء : أي ومن تقدّمه من القرون الماضية والأمم الخالية وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء : أي ومن هو في جهته من أتباعه ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود وأبيّ ومن معه ، ولقراءة أبي موسى ومن يلقاه (والمؤتفكات) قرأ الجمهور « المؤتفكات » بالجمع وهي قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن والجحدري « المؤتفكة » بالإفراد ، واللام للجنس ، فهي في معنى الجمع ، والمعنى : وجاءت المؤتفكات (بالخاطئة) أي بالفعلة الخاطئة ، أو الخطأ على أنها مصدر . والمراد أنها جاءت بالشرك والمعاصي . قال مجاهد : بالخطايا . وقال الجرجاني : بالخطأ العظيم

(فعصوا رسول ربهم) أى فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها. قال الكلبي : هو موسى ، وقيل لوط لأنه أقرب ، قيل ورسول هنا بمعنى رسالة ، ومنه قول الشاعر :

لقد كذب الواشون مابحت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة (فأخذهم أخذة رابية) أى أخذهم الله أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم ، والمعنى : أنها بالغة فى الشدّة إلى الغاية ، يقال ربى الشيء يربو : إذا زاد وتضاعف . قال الزجاج : تزيد على الأخذات . قال مجاهد : شديدة (إنا لما طغى الماء) أى تجاوز حدّه فى الارتفاع والعلوّ ، وذلك فى زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه ، وقيل طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه . قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا (حملناكم فى الجارية) أى فى أصلاب آبائكم ، أوحملناهم وحملناكم فى أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين . والجارية سفينة نوح ، وسميت جارية لأنها تجرى فى الماء ، ومحل فى الجارية النصب على الحال : أى رفعناكم فوق الماء حال كونكم فى السفينة ، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ماحلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول قال (لنجعلها لكم تذكرة) أى لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه ، أو لنجعل هذه الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة (وتعيها أذن واعية) أى تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت . قال الزجاج : يقال أوعيت كذا : أى حفظته فى نفسى أعيه وعيا ، ووعيت العلم ووعيت ماقلته كله بمعنى ، وأوعيت المتاع فى الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته فى غير نفسك أوعيته بالألف ولما حفظته فى نفسك وعيته بغير ألف . قال قتادة فى تفسير الآية : أذن سمعت وعقلت ماسمعت. قال الفراء : المعنى لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتى بعد . قرأ الجمهور « تعيها » بكسر العين. وقرأ طلحة بن مصرّف وحميد الأعرج وأبوعمرو فى رواية عنه بإسكان العين تشبيها لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك . قال الرازى: وروى عن ابن كثير إسكان العين ، جعل حرف المضارعة مع مابعده بمنزلة كلمة واحدة فخفف وأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف انتهى ، والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف كما فى قراءة من قرأ ـ وما يشعركم ـ بسكون الراء ، قال القرطبي : واختلفت القراءة فيها عن عاصم وابن كثير : يعنى تعيها (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) هذا شروع فى بيان الحاقة وكيف وقوعها بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين . قال عطاء : يريد النفخة الأولى . وقال الكلبي ومقاتل يريد النفخة الأخيرة . قرأ الجمهور « نفخة واحدة » بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة ، وواحدة تأكيد لها ، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل . وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور . قال الزجاج : قوله (فى الصور) يقوم مقام ما لم يسمّ فاعله (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية . قرأ الجمهور «حملت » بتخفيف الميم . وقرأ الأعمش وابن أبى عبلة وابن مقسم وابن عامر فى رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية (فدكتا دكة واحدة) أى فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها ، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا وهباء منبثا . قال الفراء : ولم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ، ومثله قوله تعالى ـ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ وقيل دكتا بسطتا بسطة واحدة ، ومنه اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره (فيومئذ وقعت الواقعة) أى قامت القيامة (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) أى انشقت بنزول مافيها من الملائكة

فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية . قال الزجاج : يقال لكل ما ضعف جداً قد وهي فهو واه ، وقال الفرّاء : وهيا تشققها (والملك على أرجائها) أي جنس الملك على أطرافها وجوانبها ، وهي جمع رجى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفا وقفوان ، والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهي مساكنهم لجئوا إلى أطرافها . قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ فينزلون إلى الأرض ويحيطون بالأرض ومن عليها . وقال سعيد بن جبير : المعنى والملك على حافات الدنيا : أي ينزلون إلى الأرض ، وقيل إذا صارت السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أي يحمله فوق رءوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك ، وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عزّ وجلّ ، وقيل ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة ، قاله الكلبي وغيره (يومئذ تعرضون) أي تعرض العباد على الله لحسابهم ، ومثله ـ وعرضوا على ربك صفا ـ ، وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به . وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال وجملة (لا تخفى منكم خافية) في محل نصب على الحال من ضمير تعرضون : أي تعرضون حال كونه لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم خافية كائنة ما كانت ، والتقدير : أيّ نفس خافية أو فعلة خافية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (الحاقة) من أسماء القيامة . وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وابن جرير عنه قال : ما أرسل الله شيئا من ريح إلا بمكيال ، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد . فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ ـ إنا لما طغا الماء ـ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثم قرأ (بريح صرصر عاتية) . وأخرج ابن جرير عن عليّ بن أبي طالب نحوه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعا : « قال ما أمر الخزّان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح ، فعتت على الخزّان فخرجت من نواحي الأبواب ، فذلك قوله (بريح صرصر عاتية) قال : عتوّها عتت على الخزّان » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بريح صرصر عاتية) قال : الغالبة . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله (حسوما) قال : متتابعات . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله (حسوما) قال : تباعا ، وفي لفظ : متتابعات . وأخرج ابن المنذر عنه (كأنهم أعجاز نخل) قال : هي أصولها ، وفي قوله (خاوية) قال : خربة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أيضا في قوله (إنا لما طغى الماء) قال : طغى على خزانه فنزل ، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن عليّ بن أبي طالب « في قوله (وتعيها أذن واعية) قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ ، فقال عليّ : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا فنسيته » قال ابن كثير : وهو حديث مرسل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ « إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعي ، وحقّ لك أن تعي ، فنزلت هذه الآية (وتعيها أذن واعية) فأنت أذن واعية لعليّ » قال ابن كثير : ولا يصح . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمر في قوله (أذن واعية) قال :

أذن عقلت عن الله . وأخرج الحاكم والبيهقى فى البعث عن أبىّ بن كعب فى قوله (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) قال : تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله ـ وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فهى يومئذ واهية) قال متخرقة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (والملك على أرجائها) قال : على حافاتها على مالم يهىّ منها . وأخرج عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمى فى الردّ على الجهمية وأبو يعلى وابن المنذر وابن خزيمة والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب فى [تالى التلخيص] عنه أيضا فى قوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا من طرق فى الآية قال : يقال ثمانية صفوف من الملائكة لايعلم عددهم إلا الله ، ويقال ثمانية أملاك رءوسهم عند العرش فى السماء السابعة وأقدامهم فى الأرض السفلى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ، مابين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود نحوه .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا
وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى
لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى
مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى
سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)
لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤)
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢).

لما ذكر سبحانه العرض ذكر مايكون فيه ، فقال (فأما من أوتى كتابه بيمينه) أى أعطى كتابه الذى كتبته الحفظة عليه من أعماله (فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه) يقول ذلك سرورا وابتهاجا . قال ابن السكيت والكسائى : العرب تقول : ها يارجل ، وللاثنين هاؤما يارجلان ، وللجمع هاؤم يارجال ، قيل والأصل هاؤكم ، فأبدلت الهمزة من الكاف ، قال ابن زيد : ومعنى هاؤم تعالوا . وقال مقاتل : هلم ، وقيل خذوا ؛ والذى صرح به النحاة أنها بمعنى خذ ، يقول ها بمعنى خذ ، وهاؤما بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا ، فهى اسم فعل ، وقد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب ، وقوله « كتابيه » معمول لقوله « اقرءوا » لأنه أقرب العاملين ، ومعمول « هاؤم » محذوف يدل عليه معمول « اقرءوا » والتقدير : هاؤم كتابيه اقرءوا كتابيه ، والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه هى هاء السكت . قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا ووصلا مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت ويوافق الخط ، يعنى خط المصحف . وقرأ ابن محيصن وابن أبى إسحاق وحميد ومجاهد والأعمش ويعقوب بحذفها وصلا وإثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ . ورويت هذه القراءة عن حمزة ، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعا للغة . وروى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا ووقفا (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) أى علمت وأيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة ، وقيل المعنى : إنى ظننت أن يأخذنى الله بسيئاتى فقد تفضل علىّ بعفوه ولم يؤاخذنى . قال الضحاك : كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك . قال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظنّ الدنيا شك . قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظنّ بربه ، فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل . قيل والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لايقدح فى الاعتقاد مايهجس فى النفس من الخطرات التى لاتنفك عنها العلوم النظرية غالبا (فهو فى عيشة راضية) أى فى عيشة مرضية لا مكروهة ، أو ذات رضى : أى يرضى بها صاحبها . قال أبو عبيدة والفراء : راضية أى مرضية كقوله - ماء دافق - أى مدفوق فقد أسند إلى العيشة ماهو لصاحبها ، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد (فى جنة عالية) أى مرتفعة المكان لأنها فى السماء ، أو مرتفعة المنازل ، أو عظيمة فى النفوس (قطوفها دانية) القطوف : جمع قطف بكسر القاف مايقطف من الثمار ، والقطف بالفتح المصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى : أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع (كلوا واشربوا) أى يقال لهم كلوا واشربوا فى الجنة (هنيئا) أى أكلا وشربا هنيئا لاتكدير فيه ولا تنغيص (بما أسلفتم فى الأيام الخالية) أى بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا . وقال مجاهد : هى أيام الصيام (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حزنا وكربا لما رأى فيه من سيئاته (ياليتنى لم أوت كتابيه) أى لم أعط كتابيه (ولم أدر ما حسابيه) أى لم أدر : أىّ شىء حسابى لأن كله عليه (ياليتها كانت القاضية) أى ليت الموتة التى متها كانت القاضية ولم أحى بعدها ، ومعنى : القاضية القاطعة للحياة ، والمعنى : أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب ، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة ، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة . قال قتادة : تمنى

الموت ولم يكن فى الدنيا شيء عنده أكره منه ، وشرّ من الموت مايطلب منه الموت . وقيل الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت علىّ (ما أغنى عنى ماليه) أى لم يدفع عنى من عذاب الله شيئا على أن ما نافية أو استفهامية ، والمعنى : أىّ شيء أغنى عنى مالى (هلك عنى سلطانيه) أى هلكت عنى حجتى وضلت عنى ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسدّى والضحاك . وقال ابن زيد : يعنى سلطانى الذى فى الدنيا ، وهو الملك ، وقيل تسلطى على جوارحى . قال مقاتل : يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، وحينئذ يقول الله عزّ وجلّ (خذوه فغلوه) أى اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال (ثم صلوه) أى أدخلوه الجحيم ، والمعنى : لاتصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظيمة (ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) السلسلة حلق منتظمة ، وذرعها طولها . قال الحسن : الله أعلم بأىّ ذراع هو . قال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف فى رحبة الكوفة . قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، ومعنى « فاسلكوه » فاجعلوه فيها ، يقال سلكته الطريق إذا أدخلته فيه . قال سفيان : بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه . قال الكلبى : تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ . وقال سويد بن أبى نجيح : بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة ، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم ، وجملة (إنه كان لايؤمن بالله العظيم) تعليل لما قبلها (ولا يحض على طعام المسكين) أى لايحث على إطعام المسكين من ماله ، أو لايحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء كما قال الشاعر :

أكفرا بعد ردّ موتى عنى وبعد عطائك المال الرعابا

أى بعد إعطائك ، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر ، والمعنى : أنه لايحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين ، وفى جعل هذا قرينا لترك الإيمان بالله من الترغيب فى التصدّق على المساكين وسدّ فاقتهم ، وحثّ النفس والناس على ذلك ما يدلّ أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشدّ المآثم (فليس له اليوم هاهنا حميم) أى ليس له يوم القيامة فى الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه (ولا طعام إلا من غسلين) أى وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار ، وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل : وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار . وقال قتادة : هو شرّ الطعام . وقال ابن زيد : لايعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى . وقال سبحانه فى موضع آخر - ليس لهم طعام إلا من ضريع - فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فليس له اليوم هاهنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار (ولا طعام) أى ليس لهم طعام يأكلونه . ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير ، وجملة (لا يأكله إلا الخاطئون) صفة لغسلين ، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب . قال الكلبى : المراد الشرك . قرأ الجمهور « الخاطئون » مهموزا ، وهو اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمدا ، والمخطئ من يفعله غير متعمد . وقرأ الزهرى وطلحة بن مصرف والحسن الخاطيون بياء مضمومة بدل الهمزة . وقرأ نافع فى رواية عنه بضم الطاء بدون همزة (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون ولا زائدة ، والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه . قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها مايبصر منها وما لايبصر ، فيدخل فى هذا جميع المخلوقات ، وقيل إن لا ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم : أى

لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فى ذلك ، والأوّل أولى (إنه لقول رسول كريم) أى إن القرآن لتلاوة رسول كريم ، على أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم . قال الحسن والكلبي ومقاتل : يريد به جبريل ، دليله قوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوّة عند ذى العرش مكين) وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو قول الله فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ (وما هو بقول شاعر) كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها (قليلا ماتؤمنون) أى إيمانا قليلا تؤمنون ، وتصديقا يسيرا تصدقون ، وما زائدة (ولا بقول كاهن) كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا (قليلا ماتذكرون) أى تذكرا قليلا ، أو زمانا قليلا تتذكرون ، وما زائدة ، والقلة فى الموضعين بمعنى النفى : أى لاتؤمنون ولا تتذكرون أصلا (تنزيل من ربّ العالمين) قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هو تنزيل . وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل : أى نزل تنزيلا ، والمعنى : إنه لقول رسول كريم ، وهو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل) أى ولو تقوّل ذلك الرسول ، وهو محمد ، أو جبريل على ماتقدّم ، والتقوّل تكلف القول ، والمعنى : لو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه ، وسمى الافتراء تقوّلا لأنه قول متكلف ، وكلّ كاذب يتكلف مايكذب به . قرأ الجمهور « تقوّل » مبنيا للفاعل . وقرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض . وقرأ ابن ذكوان « ولو يقول » على صيغة المضارع ، والأقاويل جمع أقوال ، والأقوال جمع قول (لأخذنا منه باليمين) أى بيده اليمين . قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يعاقب . وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة « لأخذنا منه باليمين » أى بالقوّة والقدرة . قال ابن قتيبة : وإنما أقام اليمين مقام القوّة ، لأن قوّة كلّ شىء فى ميامنه ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا ما راية نصبت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

وقول الآخر :   ولما رأيت الشمس أشرق نورها   تناولت منها حاجتى بيمينى

(ثم لقطعنا منه الوتين) الوتين عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه . قال الواحدى : والمفسرون يقولون إنه نياط القلب انتهى ، ومن هذا قول الشاعر :   إذا بلغتنى وحملت رحلى   عرابة فاشرقى بدم الوتين

(فما منكم من أحد عنه حاجزين) أى ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه ، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ولا تقدرون على الدفع منه ، والحجز المنع ، (وحاجزين) صفة لأحد ، أو خبر لما الحجازية (وإنه لتذكرة للمتقين) أى إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) أى أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك ، وفى هذا وعيد شديد (وإنه لحسرة على الكافرين) أى وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين وقيل هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله (وإنه لحقّ اليقين) أى وإن القرآن لكونه من عند الله حقّ فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّق إليه شك (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزهه عما لايليق به ، وقيل فصلّ لربك ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إنى ظننت) قال : أيقنت . وأخرج سعيد بن منصور وابن

أبي حاتم عن البراء بن عازب (قطوفها دانية) قال قريبة . وأخرج ابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء في الآية قال : يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (فاسلكوه) قال : السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى . وأخرج أبوعبيد وعبد بن حميد وابن المنذرعن أبي الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلى منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضى على طعام المسكين يا أم الدرداء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار . وأخرج ابن جرير عنه (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) يقول : بما ترون وما لاترون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذرعن ابن عباس في قوله (لأخذنا منه باليمين) قال : بقدرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذرعنه قال (الوتين) عرق القلب . وأخرج الفريابي وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضا قال (الوتين) نياط القلب . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عنه أيضا قال : هو حبل القلب الذى في الظهر .

تفسير سورة سأل سائل

ويقال سورة المعارج ، هي أربع وأربعون آية

وهي مكية . قال القرطبي : باتفاق . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة سأل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)

قوله (سأل سائل بعذاب واقع) قرأ الجمهور « سأل » بالهمزة ، وقرأ نافع وابن عامر بغير همزة ، فمن همز فهو من السؤال وهى اللغة الفاشية ، وهى إما مضمن معنى الدعاء ، فلذلك عدّى بالباء كما تقول دعوت لكذا ، والمعنى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع ، ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن كقوله ـ فاسئل به خبيرا ـ ومن لم يهمز ، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا ، فيكون معناها معنى قراءة من همز ، أو يكون من السيلان ، والمعنى : سال واد فى جهنم يقال له سائل كما قال زيد بن ثابت . ويؤيده قراءة ابن عباس « سال سيل » وقيل إن سال بمعنى التمس ، والمعنى : التمس ملتمس عذابا للكفار ، فتكون الباء زائدة كقوله ـ تنبت بالدهن ـ والوجه الأوّل هو الظاهر . وقال الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان . قال أبو علىّ الفارسى : وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر ، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال ـ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ـ وهو ممن قتل يوم بدر صبرا ، وقيل هو أبو جهل ، وقيل هو الحارث بن النعمان الفهرى . والأوّل أولى لما سيأتى . وقرأ أبىّ وابن مسعود « سال سال » مثل مال مال على أن الأصل سائل ، فحذفت العين تخفيفا ، كما قيل شاك فى شائك السلاح . وقيل السائل هو نوح عليه السلام ، سأل العذاب للكافرين ، وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بالعقاب عليهم ، وقوله (بعذاب واقع) يعنى إما فى الدنيا كيوم بدر ، أو فى الآخرة ، وقوله (للكافرين) صفة أخرى لعذاب : أى كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع ، واللام للعلة ، أو بسأل على تضمينه معنى دعا ، أو فى محل رفع على تقدير : هو للكافرين ، أو تكون اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبىّ بعذاب واقع على الكافرين . قال الفرّاء : التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة (ليس له دافع) صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه ، أو مستأنفة ، والمعنى : أنه لايدفع ذلك العذاب الواقع به أحد ، وقوله (من الله) متعلق بواقع : أى واقع من جهته سبحانه ، أو بدافع : أى ليس له دافع من جهته تعالى (ذى المعارج) أى ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة ، وقال الكلبى : هى السموات ، وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها ، وقيل المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق ، وقيل المعارج العظمة ، وقيل هى الغرف . وقرأ ابن مسعود « ذى المعاريج » بزيادة الياء ، يقال معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح (تعرج الملائكة والروح إليه) أى تصعد فى تلك المعارج التى جعلها الله لهم ، وقرأ الجمهور « تعرج » بالفوقية ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائى والسلمى بالتحتية ، والروح جبريل ، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيد هذا قوله ـ نزل به الروح الأمين ـ ، وقيل الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل . وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس . وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين تقبض ، والأوّل أولى . ومعنى « إليه » أى إلى المكان الذى ينتهون إليه ، وقيل إلى عرشه ، وقيل هو كقول إبراهيم ـ إنى ذاهب إلى ربى ـ أى إلى حيث أمرنى ربى (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال ابن إسحاق والكلبى ووهب بن منبه : أى عرج الملائكة إلى المكان الذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد . وقال عكرمة ، وروى عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لايدرى أحدٌ كم مضى ولا كم بقى ، ولا يعلم ذلك إلا الله . وقال قتادة والكلبى ومحمد بن كعب : إن المراد يوم القيامة ، يعنى أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه فى ساعة ، وقيل إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار ، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وقيل إن مقدار يوم القيامة على الكافرين

خمسون ألف سنة ، وعلى المؤمنين مقدار مابين الظهر والعصر ، وقيل ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، أو لطول يوم القيامة باعتبار مافيه من الشدائد والمكاره كما تصف العرب أيام الشدّة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، ويشبهون اليوم القصير بابهام القطاة ، والطويل بظل الرمح ، ومنه قول الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقيل فى الكلام تقديم وتأخير : أى ليس له دافع من الله ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقد قدّمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله فى سورة السجدة ـ فى يوم كان مقداره ألف سنة ـ فارجع إليه . وقد قيل فى الجمع إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة ، لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام ، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام ، فالمعنى : أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة ، وإن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة ، وسيأتى فى آخر البحث مايؤيد هذا عن ابن عباس . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر فقال (فاصبر صبرا جميلا) أى اصبر يامحمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرا جميلا لاجزع فيه ولا شكوى إلى غير الله ، وهذا معنى الصبر الجميل ، وقيل هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لايدرى بأنه مصاب . قال ابن زيد وغيره : هى منسوخة بآية السيف (إنهم يرونه بعيدا) أى يرون العذاب الواقع بهم ، أو يرون يوم القيامة بعيدا : أى غير كائن لأنهم لايؤمنون به ، فمعنى « بعيدا » أى مستبعدا محالا ، وليس المراد أنهم يرونه بعيدا غير قريب : قال الأعمش : يرون البعث بعيدا لأنهم لايؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة كما تقول لمن تناظره هذا بعيد : أى لايكون (ونراه قريبا) أى نعلمه كائنا قريبا ، لأن ماهو آت قريب . وقيل المعنى : ونراه هينا فى قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر . ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال (يوم تكون السماء كالمهل) والظرف متعلق بمضمر دلّ عليه واقع ، أو بدل من قوله (فى يوم) على تقدير تعلقه بواقع ، أو متعلق بقريبا ، أو مقدّر بعده : أى يوم تكون الخ كان كيت وكيت ، أو بدل من الضمير فى نراه والأوّل أولى . والتقدير يقع بهم العذاب (يوم تكون السماء كالمهل) والمهل : ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة . وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم . وقال عكرمة وغيره : هو درديّ الزيت ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف والدخان (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغا . قال الحسن : تكون الجبال كالعهن ، وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف ، وقيل العهن الصوف ذو الألوان ، فشبه الجبال به فى تكوّنها ألوانا كما فى قوله ـ جدد بيض وحمر ـ وغرابيب سود ـ فإذا بست وطيرت فى الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميما) أى لايسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه ـ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ـ وقيل المعنى : لايسأل حميم عن حميم ، فحذف الحرف ووصل الفعل . قرأ الجمهور « لايسأل » مبنيا للفاعل ، قيل والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لايسأله نصره ولا شفاعته ، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وشيبة وابن كثير فى رواية عنه على البناء للمفعول . وروى هذه القراءة البزّى عن عاصم . والمعنى : لايسأل حميم إحضار حميمه ، وقيل هذه القراءة على إسقاط حرف الجرّ : أى لايسأل حميم عن حميم ، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وجملة (يبصرونهم) مستأنفة ، أو صفة لقوله (حميما) أى يبصر كلّ حميم

حميمه ، لايخفى منهم أحد عن أحد . وليس فى القيامة مخلوق وإلا وهو نصب عين صاحبه ، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضا لاشتغال كل أحد منهم بنفسه ، وقال ابن زيد : يبصر الله الكفار فى النار الذين أضلوهم فى الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون . وقيل إن قوله (يبصرونهم) يرجع إلى الملائكة : أى يعرفون أحوال الناس لايخفون عليهم ، وإنما جمع الضمير فى يبصرونهم ، وهما للحميمين حملا على معنى العموم ، لأنهما نكرتان فى سياق النفى ، قرأ الجمهور « يبصرونهم » بالتشديد ، وقرأ قتادة بالتخفيف . ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال (يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ) المراد بالمجرم الكافر ، أو كلّ مذنب ذنبا يستحق به النار لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الذى نزل به (ببنيه وصاحبته وأخيه) فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يودّ الافتداء من العذاب بمن ذكر . قرأ الجمهور (من عذاب يومئذ) بإضافة عذاب إلى يومئذ . وقرأ أبو حيوة بتنوين « عذاب » وقطع الإضافة . وقرأ الجمهور « يومئذ » بكسر الميم ، وقرأ نافع والكسائى والأعرج وأبو حيوة بفتحها (وفصيلته التى تؤويه) أى عشيرته الأقربين الذين يضمونه فى النسب أوعند الشدائد ويأوى إليهم . قال أبو عبيد : الفصيلة دون القبيلة . وقال ثعلب : هم آباؤهم الأدنون . قال المبرّد : الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد . وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيها لها بالبعض منه . وقال مالك : إن الفصيلة هى التى تربيه (ومن فى الأرض جميعا) أى ويودّ المجرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقلين وغيرهما من الخلائق . وقوله (ثم ينجيه) معطوف على يفتدى : أى يودّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء ، وكان العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة ، وقيل إن يودّ تقتضى جوابا كما فى قوله ـ ودّوا لو تدهن فيدهنون ـ والجواب ثم ينجيه ، والأوّل أولى . وقوله (كلا) ردع للمجرم عن تلك الوذادة ، وبيان امتناع ما ودّه من الافتداء ، و« كلا » يأتى بمعنى حقا ، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، والضمير فى قوله (إنها لظى) عائد إلى النار المدلولّ عليها بذكر العذاب ، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده : ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التلظى فى النار وهو التلهب ، وقيل أصله لظظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظاءين ألفا ، وقيل لظى : هى الدركة الثانية من طباق جهنم (نزاعة للشوى) قرأ الجمهور « نزاعة » بالرفع على أنه خبر ثان لإنّ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو تكون لظى بدلا من الضمير المنصوب ، ونزاعة خبر إنّ ، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علما ، أو يكون الضمير فى إنها للقصة ، ويكون لظى مبتدأ ونزاعة خبره ، والجملة خبر إنّ ، وقرأ حفص عن عاصم وأبو عمرو فى رواية عنه وأبو حيوة والزعفرانى والترمذى وابن مقسم نزاعة بالنصب على الحال . وقال أبو على الفارسى : حمله على الحال بعيد لأنه ليس فى الكلام مايعمل فى الحال ، وقيل العامل فيها مادلّ عليه الكلام من معنى التلظى ، أو النصب على الاختصاص ، والشوى الأطراف ، أو جمع شواة ، وهى جلدة الرأس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ماله   قد جللت شيبا شواته

وقال الحسن وثابت البنانى : نزاعة للشوى : أى لمكارم الوجه وحسنه ، وكذا قال أبو العالية وقتادة . وقال قتادة : تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لاتترك فيه شيئا . وقال الكسائى : هى المفاصل . وقال أبو صالح : هى أطراف اليدين والرجلين (تدعوا من أدبر) أى تدعو لظى من أدبر عن الحقّ فى الدنيا (وتولى) أى أعرض عنه (وجمع فأوعى) أى جمع المال فجعله فى وعاء ، قيل إنها تقول إلىّ يامشرك ، إلى يامنافق ، وقيل معنى تدعو تهلك ، تقول العرب : دعاك الله : أى أهلكك ، وقيل ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من

عذابهم ، وقيل المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين فأسند الدعاء إلى النار ، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ ، وقيل هو تمثيل وتخييل ، ولا دعاء فى الحقيقة ، والمعنى : أن مصيرهم إليها ، كما قال الشاعر :

ولقد هبطنا الوادِ بين قوادنا تدعو الأنيس به الغصيص الأبكم

والغصيص الأبكم : الذباب ، وهى لاتدعو ، وفى هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه ، وكنزه ولم ينفقه فى سبل الخير ، أولم يؤدّ زكاته .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (سأل سائل) قال : هو النضر بن الحرث قال ـ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ـ وفى قوله (بعذاب واقع) قال : كائن (للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج) قال : ذى الدرجات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى قوله (سأل سائل) قال : سال واد فى جهنم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ذى المعارج) قال : ذى العلوّ والفواضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة ، ويوم كان مقداره ألف سنة قال : يعنى بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد ، فذلك مقدار ألف سنة ، لأن مابين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله ـ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ـ قال : هذا فى الدنيا تعرج الملائكة فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ، وفى قوله (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا فى قوله (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال : لو قدّرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم . قال : يعنى يوم القيامة . وقد قدّمنا عن ابن عباس الوقف فى الجمع بين الآيتين فى سورة السجدة . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى قال : « قيل يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم كان يوم مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » . وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ، وهما ضعيفان . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة مرفوعا قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر مابين الظهر إلى العصر . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله (فاصبر صبرا جميلا) قال : لاتشكو إلى أحد غيرى . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب فى المتفق والمفترق والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (يوم تكون السماء كالمهل) قال : كدردىّ الزيت . وأخرج ابن جرير عنه قال (يبصرونهم) يعرف بعضهم بعضا ويتعارفون ثم يفرّ بعضهم من بعض . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله (نزاعة للشوى) قال : تنزع أمّ الرأس .

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) .

قوله (إن الإنسان خلق هلوعا) قال فى الصحاح : الهلع فى اللغة . أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه يقال هلع بالكسر فهو هلع وهلوع على التكثير . وقال عكرمة : هو الضجور . قال الواحدى والمفسرون يقولون تفسير الهلع مابعده يعنى قوله (إذا مسه الشرّ جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) أى إذا أصابه الفقر والحاجة أوالمرض أو نحو ذلك فهو جزوع : أى كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك . وقال أبوعبيدة : الهلوع هو الذى إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشرّ لم يصبر . قال ثعلب : قد فسر الله الهلوع : هو الذى إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع ، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس ، والعرب تقول : ناقة هلوع وهلواع إذا كانت سريعة السير خفيفته ، ومنه قول الشاعر :

شكا ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع

والذعلبة : الناقة السريعة ، وانتصاب هلوعا وجزوعا ومنوعا على أنها أحوال مقدّرة ، أو محققة لكونها طبائع جبل الإنسان عليها ، والظرفان معمولان لجزوعا ومنوعا (إلا المصلين) أى المقيمين للصلاة ، وقيل المراد بهم أهل التوحيد : يعنى أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع ، والجزع ، والمنع ، وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية ، لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير . ثم بينهم سبحانه . فقال (الذين هم على صلاتهم دائمون) أى لايشغلهم عنها شاغل ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبدا . قال الزجاج : هم الذين لايزيلون وجوههم عن سمت القبلة . وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها . قال النخعى : المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة ، وقيل الذين يصلونها لوقتها والمراد بالآية جميع المؤمنين ، وقيل الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين (والذين فى أموالهم حق معلوم) قال قتادة ومحمد بن سيرين :

المراد الزكاة المفروضة . وقال مجاهد : سوى الزكاة ، وقيل صلة الرحم ، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما وبجعله قرينا للصلاة ، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم فى سورة الذاريات مستوفى (والذين يصدّقون بيوم الدين) أى بيوم الجزاء ، وهو يوم القيامة لايشكون فيه ولا يجحدونه ، وقيل يصدّقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أى خائفون وجاون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقارا لأعمالهم ، واعترافا بما يجب لله سبحانه عليهم . وجملة (إن عذاب ربهم غير مأمون) مقرّرة لمضمون ماقبلها مبينة أن ذلك مما لاينبغى أن يأمنه أحد ، وأن حق كل أحد أن يخافه (والذين هم لفروجهم حافظون) إلى قوله (فأولئك هم العادون) قد تقدم تفسيره فى سورة المؤمنين مستوفى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى لايخلون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعقدونها على أنفسهم . قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع وقرأ ابن كثير وابن محيصن « لأمانتهم » بالإفراد ، والمراد الجنس (والذين هم بشهاداتهم قائمون) أى يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد أو رفيع أو وضيع ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، وقد تقدّم القول فى الشهادة فى سورة البقرة ، قرأ الجمهور « بشهادتهم » بالإفراد ، وقرأ حفص ويعقوب وهى رواية عن ابن كثير بالجمع . قال الواحدى ، والإفراد أولى لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات . قال الفرّاء : ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى ـ وأقيموا الشهادة لله ـ (والذين هم على صلاتهم يحافظون) أى على أذكارها وأركانها وشرائطها لايخلون بشىء من ذلك . قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها . وقال ابن جريج : المراد التطوّع ، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلا ، وما وصفهم به ثانيا ، فإن معنى الدوام : هو أن لايشتغل عنها بشىء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة : أن يراعى الأمور التى لاتكون صلاة بدونها ، وقيل المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها ، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحقّ أن يستقلّ بموصوف منفرد ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصوفين بتلك الصفات (فى جنات مكرمون) أى مستقرّون فيها مكرمون بأنواع الكرامات ، وخبر المبتدإ قوله (فى جنات) وقوله (مكرمون) خبر آخر ، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون ، وفى جنات متعلق به (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) أى أىّ شىء لهم حواليك مسرعين : قال الأخفش : مهطعين مسرعين ، ومنه قول الشاعر :

بمكة أهلها ولقد أراهم ... إليهم مهطعين إلى السماع

وقيل المعنى : مابالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم ، وقيل مابالهم مسرعين إلى التكذيب ، وقيل مابال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك . وقال الكلبى : إن معنى : مهطعين ناظرين إليك . وقال قتادة : عامدين ، وقيل مسرعين إليك مادّى أعناقهم مديمى النظر إليك (عن اليمين وعن الشمال عزين) أى عن يمين النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وعن شماله جماعات متفرقة ، وعزين جمع عزة ، وهى العصبة من الناس ، ومنه قول الشاعر :

ترانا عنده والليل داج ... على أبوابه حلقا عزينا

وقال الراعى :

أخليفة الرحمن إن عشيرتى ... أمسى سراتهم إليك عزينا

وقال عنترة :

وقرن قد تركت لدى ولى ... عليه الطير كالعصب العزينا

وقيل أصلها عزوة من العزو ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى . قال فى الصحاح :

والعزة الفرقة من الناس ، والهاء عوض من التاء ، والجمع عزى وعزون ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال) متعلق بعزين ، أو بمهطعين (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة النعيم) قال المفسرون : كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلهم ، فنزلت الآية ، قرأ الجمهور (أن يدخل) مبنيا للمفعول . وقرأ الحسن وزيد بن علي وطلحة بن مصرف والأعرج ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعاصم فى رواية عنه على البناء للفاعل . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) أى من القذر الذى يعلمون به فلا ينبغى لهم هذا التكبر ، وقيل المعنى : إنا خلقناهم من أجل مايعلمون ، وهو امتثال الأمر والنهى وتعريضهم للثواب والعقاب كما فى قوله ـ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ـ ، ومنه قول الأعشى :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى أن يزارا

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الهلوع فقال هو كما قال الله (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) . وأخرج ابن المنذر عنه (هلوعا) قال : الشره . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود (الذين هم على صلاتهم دائمون) قال : على مواقيتها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عمران بن حصين (الذين هم عن صلاتهم دائمون) قال : الذى لايلتفت فى صلاته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عقبة بن عامر (الذين هم على صلاتهم دائمون) قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا . وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) قال : ينظرون (عن اليمين وعن الشمال عزين) قال : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون فقال : مالى أراكم عزين . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن سعد وابن أبى عاصم والباوردى وابن قانع والحاكم والبيهقى فى الشعب ، والضياء عن بشر بن جحاش قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) إلى قوله (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) ثم بزق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كفه ووضع عليها أصبعه وقال « يقول الله ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أو أنى أوان الصدقة » .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٤٤) .

قوله (فلا أقسم) لا زائدة كما تقدم قريبا ، والمعنى : فأقسم (برب المشارق والمغارب) يعنى مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه . قرأ الجمهور « المشارق والمغارب » بالجمع ، وقرأ أبو حيوة وابن محيصن وحميد بالإفراد (إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أى على أن نخلق أمثل منهم ، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء

(وما نحن بمسبوقين) أى بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ، واشتغل بما أمرت به ولا يعظمن عليك ماهم فيه ، فليس عليك إلا البلاغ (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وهو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف . قرأ الجمهور يلاقوا ، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وحميد ومجاهد حتى يلقوا (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) يوم بدل من يومهم ، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون ، قرأ الجمهور يخرجون على البناء للفاعل . وقرأ السلمى والأعمش والمغيرة وعاصم فى رواية على البناء للمفعول ، والأجداث جمع جدث ، وهو القبر (كأنهم إلى نصب يوفضون) قرأ الجمهور « نصب » بفتح النون وسكون الصاد . وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد ، وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد . قال فى الصحاح : والنصب مانصب فعبد من دون الله ، وكذا النصب بالضم ، وقد يحرك . قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لاتعبدنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

والجمع الأنصاب ، وقال الأخفش والفراء : النصب جمع النصب ، مثل رهن ورهن ، والأنصاب جمع النصب ، فهو جمع الجمع ، وقيل النصب جمع نصاب ، وهو حجر أو صنم يذبح عليه ، ومنه قوله ـ وما ذبح على النصب ـ وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد ، وقيل معنى (إلى نصب) إلى غاية ، وهى التى تنصب إليها بصرك ، وقال الكلبى : إلى شيء منصوب علم أو راية : أى كأنهم إلى علم يدعون إليه ، أو راية تنصب لهم يوفضون . قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون الله لايلوى أولهم على آخرهم . وقال أبو عمرو : النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته . ومعنى يوفضون : يسرعون ، والإيفاض الإسراع . يقال أوفض إيفاضا : أى أسرع إسراعا ، ومنه قول الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجن يوفض من عبقر

وعبقر : قرية من قرى الجن كما تزعم العرب ، ومنه قول لبيد : * كهول وشبان كجنة عبقر * وانتصاب (خاشعة أبصارهم) على الحال من ضمير يوفضون وأبصارهم مرتفعة به ، والخشوع الذلة والخضوع : أى لايرفعونها لما يتوقعونه من العذاب (ترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة شديدة . قال قتادة : هى سواد الوجوه ، ومنه غلام مراهق : إذا غشيه الاحتلام ، يقال رهقه بالكسر يرهقه رهقا : أى غشيه ، ومثل هذا قوله ـ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ـ والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدم ذكره . وهو مبتدأ وخبره (اليوم الذى كانوا يوعدون) أى الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به ، وإن كان مستقبلا ، فهو فى حكم الذى قد وقع لتحقق وقوعه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) قال : للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس . وأخرج ابن جرير عنه (إلى نصب يوفضون) قال : إلى علم يستبقون .

تفسير سورة نوح

هى تسع وعشرون آية أو ثمان وعشرون آية وهى مكية

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة (إنا أرسلنا نوحا) بمكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)
قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا
ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)
فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ
فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ
فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا (٢٠).

قوله (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) قد تقدم أن نوحا أول رسول أرسله الله، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدم مدة لبثه فى قومه، وبيان جميع عمره، وبيان السن التى أرسل وهو فيها فى سورة العنكبوت (أن أنذر قومك) أى بأن أنذر على أنها مصدرية، ويجوز أن تكون هى المفسرة، لأن فى الإرسال معنى القول. وقرأ ابن مسعود «أنذر» بدون أن، وذلك على تقدير القول: أى فقلنا له أنذر (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) أى عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار. وقال الكلبى: هو ما نزل بهم من

الطوفان ، وجملة (قال ياقوم إني لكم نذير مبين) مستأنفة استئنافا بيانيا على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال نوح ؟ فقال : قال لهم الخ . والمعنى : إني لكم منذر من عقاب الله ومخوّف لكم ومبين لما فيه نجاتكم (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) أن هي التفسيرية لنذير ، أو هي المصدرية : أي بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره واتقوه : أي اجتنبوا مايوقعكم في عذابه وأطيعون فيما آمركم به فإني رسول إليكم من عند الله (يغفر لكم من ذنوبكم) هذا جواب الأمر ، ومن للتبعيض : أي بعض ذنوبكم ، وهو ماسلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته . وقال السدّي : المعنى يغفر لكم ذنوبكم ، فتكون من على هذا زائدة ، وقيل المراد بالبعض مالا يتعلق بحقوق العباد ، وقيل هي لبيان الجنس ، وقيل يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ماقدّره لكم ، على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان ، وقيل التأخير بمعنى البركة في أعمارهم إن آمنوا وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا . قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم . وقال الزجاج : أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب . وقال الفراء : المعنى لايميتكم غرقا ولا حرقا ولا قتلا (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر) أي ماقدّره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء وأنتم باقون على الكفر لايؤخر بل يقع لامحالة فبادروا إلى الإيمان والطاعة . وقيل المعنى : إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لايمكنكم الإيمان ، وقيل المعنى : إذا جاء الموت لايؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب (لو كنتم تعلمون) أي شيئا من العلم لسارعتم إلى ما أمرتكم به ، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لايؤخر (قال ربّ إني دعوت قومي ليلا ونهارا) أي قال نوح مناديا لربه وحاكيا له ماجرى بينه وبين قومه وهو أعلم به منه ، إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائما في الليل والنهار من غير تقصير (فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) عما دعوتهم إليه وبعدا عنه . قال مقاتل : يعني تباعدا من الإيمان ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها ، كما في قوله ـ زادتهم إيمانا ـ . قرأ الجمهور « دعائي » بفتح الياء ، وقرأ الكوفيون ويعقوب والدوري عن أبي عمرو بإسكانها ، والاستثناء مفرّغ (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) أي كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة ، وهو الإيمان بك ، والطاعة لك (جعلوا أصابعهم في آذانهم) لئلا يسمعوا صوتي (واستغشوا ثيابهم) أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني ، وقيل جعلوا ثيابهم على رءوسهم لئلا يسمعوا كلامي ، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان ، وقيل هو كناية عن العداوة ، يقال لبس فلان ثياب العداوة ، وقيل استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم (وأصروا) أي استمروا على الكفر ، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه (واستكبروا) عن قبول الحق ، وعن امتثال ما أمرهم به (استكبارا) شديدا (ثم إني دعوتهم جهارا) أي مظهرا لهم الدعوة مجاهرا لهم بها (ثم إني أعلنت لهم) أي دعوتهم معلنا لهم بالدعاء (وأسررت لهم إسرارا) أي وأسررت لهم الدعوة إسرارا كثيرا ، قيل المعنى : أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سرا فيما بينه وبينه ، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجع ذلك فيهم . قال مجاهد : معنى أعلنت صحت ، وقيل معنى أسررت : أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها . وانتصاب جهارا على المصدرية ، لأن الدعاء يكون جهارا ويكون غير جهار ، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم : قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف : أي دعاء جهارا ، وأن يكون مصدرا في موضع الحال : أي مجاهرا ، ومعنى « ثم » الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما . قرأ الجمهور « إني » بسكون الياء ، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية

(إنه كان غفارا) أى كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل معنى استغفروا : توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار ، وقيل المراد بالسماء المطر ، كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث ؛ تقول امرأة مئناث ومذكار ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف : أى إرسالا مدرارا ، وقد تقدّم الكلام عليه فى سورة الأنعام ، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر . وفى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات) يعنى بساتين (ويجعل لكم أنهارا) جارية . قال عطاء : المعنى يكثّر أموالكم وأولادكم . أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة الخصب والغنى فى الدنيا (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى أىّ عذر لكم فى ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف : أى مالكم لا تخافون الله ، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم ، والمعنى لا تخافون حقّ عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، و (لا ترجون) فى محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين ، والعامل فيه معنى الاستقرار فى لكم ، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلى * إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبى رباح مالكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون منه عقابا . وقال مجاهد والضحاك : مالكم لا تبالون لله عظمة . قال قطرب : هذه لغة حجازية . وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج لم أبل . وقال قتادة : مالكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان . وقال ابن كيسان : مالكم لا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا . وقال ابن زيد : مالكم لا تؤدّون لله طاعة . وقال الحسن : مالكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة ، وجملة (وقد خلقكم أطوارا) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة : نطفة ، ثم مضغة ، ثم علقة إلى تمام الخلق كما تقدّم بيانه فى سورة المؤمنين ، والطور فى اللغة المرّة ، وقال ابن الأنبارى : الطور الحال وجمعه أطوار ، وقيل أطوارا صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا ، وقيل الأطوار اختلافهم فى الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى : كيف تقصرون فى توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) الخطاب لمن يصلح له ، والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة : والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب . قال الحسن : خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى قوله ـ ومن الأرض مثلهنّ ـ وانتصاب طباقا على المصدرية ، تقول طابقه مطابقة وطباقا ، أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طباقا مقامه ، وأجاز الفراء فى غير القرآن جرّ طباقا على النعت (وجعل القمر فيهنّ نورا) أى منوّرا لوجه الأرض ، وجعل القمر فى السموات مع كونها فى سماء الدنيا ، لأنها إذا كانت فى إحداهنّ ، فهى فيهنّ ، كذا قال ابن كيسان . قال الأخفش : كما تقول أتانى بنو تميم ، والمراد بعضهم . وقال قطرب فيهنّ بمعنى معهنّ : أى خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض ، كما فى قول امرئ القيس :

وهل يتعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى مع ثلاثة أحوال (وجعل الشمس سراجا) أى كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما

يحتاجون إليه من المعاش (والله أنبتكم من الأرض نباتا) يعنى آدم خلقه الله من أديم الأرض ، والمعنى : أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين ، ونباتا إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد أو مصدر لفعل محذوف : أى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى ، لأن معنى أنبتكم : جعلكم تنبتون نباتا . وقيل المعنى : والله أنبت لكم من الأرض النبات فنباتا على هذا مفعول به . قال ابن بحر : أنبتهم فى الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر (ثم يعيدكم فيها) أى فى الأرض (ويخرجكم إخراجا) يعنى يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة (والله جعل لكم الأرض بساطا) أى فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) أى طرقا واسعة ، والفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره ، وقيل الفج : المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء وفى سورة الحج مستوفى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وجعلوا أصابعهم فى آذانهم) قال : لئلا يسمعوا مايقول (واستغشوا ثيابهم) قال : ليتنكروا فلا يعرفهم (واستكبروا استكبارا) قال : تركوا التوبة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه (واستغشوا ثيابهم) قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحا ولا يسمعوا كلامه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله (مالكم لاترجون لله وقارا) قال : لاتعلمون لله عظمة . وأخرج ابن جرير والبيهقى عنه أيضا (وقارا) قال عظمة . وفى قوله (وقد خلقكم أطوارا) قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : لاتخافون لله عظمة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لاتخشون له عقابا ولا ترجون له ثوابا . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن علىّ بن أبى طالب « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف فنادى بأعلى صوته (مالكم لاترجون لله وقارا) » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله (وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمر قال : تضىء لأهل السموات كما تضىء لأهل الأرض . وأخرج عبد ابن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك ، فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سلنى عما شئت فلا تسألنى عن شىء إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن ، فقال له : أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو فى السموات السبع كما هو فى الأرض ؟ قال نعم : ألم تروا إلى قول الله (خلق سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا) . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه عن ابن عباس (وجعل القمر فيهنّ نورا) قال : وجهه فى السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه (وجعل القمر فيهنّ نورا) قال : خلق فيهنّ حين خلقهنّ ضياء لأهل الأرض ، وليس فى السماء من ضوئه شىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (سبلا فجاجا) قال : طرقا مختلفة .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) .

قوله (قال نوح رب إنهم عصونى) أى استمرّوا على عصيانى ولم يجيبوا دعوتى ، شكاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك (واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) أى اتبع الأصاغر رؤساءهم ، وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالا فى الدنيا وعقوبة فى الآخرة . قرأ أهل المدينة والشام وعاصم وولده بفتح الواو واللام . وقرأ الباقون بسكون اللام ، وهى لغة فى الولد ، ويجوز أن يكون جمعا ، وقد تقدّم تحقيقه ، ومعنى واتبعوا : أنهم استمرّوا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع (ومكروا مكرا كبارا) أى مكرا كبيرا عظيما ، يقال : كبير وكبار وكبّار [1] مثل عجيب وعجاب وعجّاب ، وجميل وجمال وجمّال . قال المبرد : كبارا بالتشديد للمبالغة ، ومثل كبارا قرّاء لكثير القراءة ، وأنشد ابن السكيت :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبى بالحسن قلب المسلم القرّاء

قرأ الجمهور « كبارا » بالتشديد . وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد بالتخفيف . قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل ، فلذلك وصفه بالجمع . وقال عيسى بن عمر : هى لغة يمانية .

واختلف فى مكرهم هذا ماهو ؟ فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح ، وقيل هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبى : هو ماجعلوه لله من الصاحبة والولد . وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم لاتذرنّ آلهتكم ، وقيل مكرهم كفرهم (وقالوا لاتذرنّ آلهتكم) أى لاتتركوا عبادة آلهتكم ، وهى الأصنام والصور التى كانت لهم ، ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور (ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) أى لاتتركوا عبادة هذه . قال محمد ابن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ودّ أكبرهم . قال الماوردى : فأما ودّ فهو أوّل صنم معبود ، سمى ودّا لودّهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

---

(١) الثانى بالتخفيف ، والثالث بالتشديد اه مصححه .

حياك ودّ فإن لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ فى قول قتادة . وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان ؛ وأما يعوق فكان لهمدان فى قول قتادة وعكرمة وعطاء . وقال الثعلبى : كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار فى همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمدانى :

يريش الله فى الدنيا ويبرى ... ولا يبرى يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير فى قول قتادة ومقاتل . قرأ الجمهور « ودّا » بفتح الواو . وقرأ نافع بضمها . قال الليث : ودّ بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح ، وبه سمى عمرو بن ودّ . قال فى الصحاح ، والودّ بالفتح : الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها فى الدال . وقرأ الجمهور « ولا يغوث ويعوق » بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين فللعجمة والعلمية . وقرأ الأعمش « ولا يغوثا ويعوقا » بالصرف . قال ابن عطية : وذلك وهم . ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة ، لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها (وقد أضلوا كثيرا) أى أضلّ كبراؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الناس ، وقيل الضمير راجع إلى الأصنام : أى ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم ـ ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس ـ وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) معطوف على ـ ربّ إنهم عصونى ـ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم . وقال أبو حيان : إنه معطوف على قد أضلوا ، ومعنى الإضلال إلا عذابا : كذا قال ابن بحر ، واستدلّ على ذلك بقوله ـ إنّ المجرمين فى ضلال وسعر ـ ، وقيل إلا خسرانا ، وقيل إلا فتنة بالمال والولد ، وقيل الضياع ، وقيل ضلالا فى مكرهم (مما خطيئاتهم أغرقوا) ما مزيدة للتأكيد ، والمعنى : من خطيئاتهم : أى من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان (فأدخلوا نارا) عقب ذلك ، وهى نار الآخرة ، وقيل عذاب القبر . قرأ الجمهور « خطيئاتهم » على جمع السلامة ، وقرأ أبو عمرو « خطاياهم » على جمع التكسير . وقرأ الجحدرى وعمرو بن عبيد والأعمش وأبو حيوة وأشهب العقيلى خطيئتهم على الإفراد . قال الضحاك عذبوا بالنار فى الدنيا مع الغرق فى حالة واحدة كانوا يغرقون فى جانب ويحترقون فى جانب . قرأ الجمهور « أغرقوا » من أغرق ، وقرأ زيد بن علىّ « غرّقوا » بالتشديد (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) أى لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم (وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) معطوف على (قال نوح ربّ إنهم عصونى) لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك . قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى إليه ـ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ـ فأجاب الله دعوته وأغرقهم . وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كلّ مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة ، وقيل بأربعين . قال قتادة : لم يكن فيهم صبىّ وقت العذاب . وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم ولكن أهلك ذرّيتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب ، ومعنى ديارا : من يسكن الديار ، وأصله ديوار على فيعال ، من دار يدور ، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما فى الأخرى ، مثل القيام أصله قيوام ، وقال القتيبى : أصله من الدار : أى نازل بالدار ، يقال ما بالدار ديار : أى أحد ، وقيل الديار : صاحب الديار ، والمعنى : لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) أى إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحقّ (ولا يلدوا إلا

فاجرا كفارا) أى إلا فاجرا بترك طاعتك كفارا لنعمتك : أى كثير الكفران لها ، والمعنى : إلا من سيفجر ويكفر . ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين ، فقال (ربّ اغفر لى ولوالدىّ) وكانا مؤمنين ، وأبوه لامك بن متوشلخ كما تقدّم ، وأمه سمحاء بنت أنوش ، وقيل أراد آدم وحواء . وقال سعيد بن جبير : أراد بوالديه أباه وجدّه . وقرأ سعيد بن جبير « ولوالدى » بكسر الدال على الافراد . (ولمن دخل بيتى) قال الضحاك والكلبي : يعنى مسجده ، وقيل منزله الذى هو ساكن فيه ، وقيل سفينته ، وقيل لمن دخل فى دينه ، وانتصاب (مؤمنا) على الحال : أى لمن دخل بيتى متصفا بصفة الإيمان فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذى قال ـ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ـ ثم عمم الدعوة ، فقال (وللمؤمنين والمؤمنات) أى واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث . ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين ، فقال (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى لاتزد المتصفين بالظلم إلا هلاكا وخسرانا ودمارا ، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) قال : هذه الأصنام كانت تعبد فى زمن نوح . وأخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : صارت الأوثان التى كانت تعبد فى قوم نوح فى العرب . أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذى كانوا يجلسون فيه أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت .

تفسير سورة الجن

هى ثمان وعشرون آية

وهى مكية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا
وَلَدًا (٣) وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)
وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ
شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَإِنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)
وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (١١) وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (١٢) وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا
يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) .

قوله (قل أوحى إلىّ) قرأ الجمهور «أوحى» رباعيا . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو إياس والعتكى عن أبى عمرو «وحى» ثلاثيا ، وهما لغتان . واختلف هل رآهم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أم لم يرهم ؟ فظاهر القرآن أنه لم يرهم ، لأن المعنى : قل يامحمد لأمتك أوحى إلىّ على لسان جبريل (أنه استمع نفر من الجنّ) ومثله قوله ـ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ـ ويؤيد هذا ماثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الجنّ وما رآهم . قال عكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى ـ اقرأ باسم ربك الذى خلق ـ وقد تقدّم فى سورة الأحقاف ذكر مايفيد زيادة فى هذا . قوله (أنه استمع نفر من الجنّ) هذا هو القائم مقام الفاعل ، ولهذا فتحت أنّ ، والضمير للشأن ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجارّ والمجرور ، والنفر اسم للجماعة مابين الثلاثة إلى العشرة . قال الضحاك : والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين . وقال الحسن : إنهم ولد إبليس . قيل هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية ، وقيل نوع من الأرواح المجرّدة ، وقيل هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله فى سورة تبارك ـ وجعلناها رجوما للشياطين . وأعتدنا لهم عذاب السعير ـ وقول الجنّ فيما سيأتى فى هذه السورة ، ـ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ـ وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن : يدخلون الجنة ، وقال مجاهد : لايدخلونها وإن صرفوا عن النار . والأوّل أولى لقوله فى سورة الرحمن ـ لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ـ وفى سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلا منهم ، بل الرسل جميعا من الإنس ، وإن أشعر قوله ـ ألم يأتكم رسل منكم ـ بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة فى الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة (فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا) أى قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم : أى سمعنا كلاما مقروءا عجبا فى فصاحته وبلاغته ، وقيل عجبا فى مواعظه ، وقيل فى بركته ، وعجبا مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف المضاف : أى ذا عجب أو المصدر بمعنى اسم الفاعل : أى معجبا (يهدى إلى الرشد) أى إلى مراشد الأمور ، وهى الحقّ والصواب ، وقيل إلى معرفة الله ، والجملة صفة أخرى للقرآن (فآمنا به) أى صدّقنا به بأنه من عند الله (ولن نشرك بربنا أحدا) من خلقه ولا نتخذ معه إلها آخر ، لأنه المتفرّد بالربوبية ، وفى هذا توبيخ للكفار من بنى آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ولم ينتفع كفار الإنس لاسيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة وتلاوته عليهم فى أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم

يتلوه عليهم بلسانهم لاجرم صرعهم الله أذلّ مصرع وقتلهم أقبح مقتل ، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون
(وأنه تعالى جدّ ربنا) قرأ حمزة والكسائى وابن عامر وحفص وعلقمة ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف والسلمى
(وأنه تعالى) بفتح أنّ ، وكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها ، وذلك أحد عشر موضعا إلى قوله (وأنه لما
قام عبد الله) وقرأ الباقون بالكسر فى هذه المواضع كلها إلا فى قوله (وإن المساجد لله) فإنهم اتفقوا على الفتح ،
أما من قرأ بالفتح فى هذه المواضع ، فعلى العطف على محل الجار والمجرور فى (فآمنا به) كأنه قيل فصدّقناه
وصدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا الخ ، وأما من قرأ بالكسر فى هذه المواضع فعلى العطف على إنا سمعنا : أى فقالوا : إنا
سمعنا قرآنا ، وقالوا إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره . واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجنّ
ومما هو محكيّ عنهم بقوله فقالوا إنا سمعنا . وقرأ أبو جعفر وشعبة بالفتح فى ثلاثة مواضع ، وهى - وأنه تعالى جدّ
ربنا . وأنه كان يقول سفيهنا . وأنه كان رجال من الإنس - قالا : لأنه من الوحى ، وكسرا مابقى لأنه من كلام
الجنّ . وقرأ الجمهور « وأنه لما قام عبد الله » بالفتح لأنه معطوف على قوله : أنه استمع . وقرأ نافع وابن عامر
وشيبة وزرّ بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم بالكسر فى هذا الموضع عطفا على فآمنا به بذلك التقدير
السابق ، واتفقوا على الفتح فى « أنه استمع » كما اتفقوا على الفتح فى « أنّ المساجد » وفى « وأن لو استقاموا »
واتفقوا على الكسر فى « فقالوا إنا سمعنا » و « قل إنما أدعوا ربى » و « قل إن أدرى » و « قل إنى لا أملك لكم » .
والجدّ عند أهل اللغة العظمة والجلال ، يقال جدّ فى عينى : أى عظم ، فالمعنى : ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه
قال عكرمة ومجاهد . وقال الحسن : المراد تعالى غناه ، ومنه قيل للحظ جدّ ، ورجل مجدود : أى محظوظ
وفى الحديث « ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » قال أبو عبيد والخليل : أى لاينفع ذا الغنى منك الغنى :
أى إنما تنفعه الطاعة ، وقال القرطبى والضحاك : جدّه آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش :
ملكه وسلطانه . وقال السدّى : أمره . وقال سعيد بن جبير (وأنه تعالى جدّ ربنا) أى تعالى ربنا ، وقيل جدّه
قدرته . وقال محمد بن علىّ بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جدّ ، وإنما قالته الجنّ
للجهالة . قرأ الجمهور « جدّ » بفتح الجيم ، وقرأ عكرمة وأبو حيوة ومحمد بن السميفع بكسر الجيم ، وهو ضدّ
الهزل ، وقرأ أبو الأشهب « جدى ربنا » أى جدواه ومنفعته . وروى عن عكرمة أيضا أنه قرأ بتنوين « جدّ » ورفع
« ربنا » على أنه بدل من جدّ (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه . قال الزجاج : تعالى
جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطإ الكفار الذين ينسبون إلى الله
الصاحبة والولد ، ونزّهوا الله سبحانه عنهما (وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططا) الضمير فى أنه للحديث
أو الأمر ، وسفيهنا يجوز أن يكون اسم كان ، ويقول الخبر ، ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول ، والجملة خبر
كان ، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر . ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم عصاتهم
ومشركوهم . وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس ، والشطط : الغلوّ فى الكفر . وقال أبو مالك :
الجور ، وقال الكلبى : الكذب ، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحدّ ، ومنه قول الشاعر :

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا   وما ذاك إلا حيث يممك الوخط

(وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذبا) أى إنا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لايكذبون على
الله بأن له شريكا وصاحبة وولدا ، فلذلك صدّقناهم فى ذلك حتى سمعنا القرآن ، فعلمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا
نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذبا على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول ، أو صفة

لمصدر محذوف : أى قولا كذبا . وقرأ يعقوب والجحدرى وابن أبى إسحاق « أن لن تقوّل » من التقوّل ، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعولا به (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ) قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه فيبيت فى جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية . قال مقاتل : كان أوّل من تعوّذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم (فزادوهم رهقا) أى زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقا : أى سفها وطغيانا ، أو تكبرا وعتوّا ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا ، لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدنا الجنّ والإنس . وبالأوّل قال مجاهد وقتادة ، وبالثانى قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد . والرهق فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق : إذا كان كذلك ، ومنه قوله ـ ترهقهم ذلة ـ أى تغشاهم ، ومنه قول الأعشى :

لا شيء ينفعنى من دون رؤيتها   هل يشتفى عاشق مالم يصب رهقا

يعنى إثما . وقيل الرهق : الخوف : أى أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعوّذ بهم خوفا منهم ، وقيل كان الرجل من الإنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادى ، ويؤيد هذا ماقيل من أن لفظ رجال لايطلق على الجنّ ، فيكون قوله برجال وصفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس : أى يعوذون بهم من شرّ الجنّ ، فيكون قوله برجال وصفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس : أى يعوذون بهم من شرّ الجنّ ، وهذا فيه بعد ، وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) هذا من قول الجنّ للإنس : أى وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لابعث . وقيل المعنى : وإن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجنّ ، والمعنى : أنهم لايؤمنون بالبعث كما أنكم لاتؤمنون (وأنا لمسنا السماء) هذا من قول الجنّ أيضا : أى طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا (فوجدناها ملئت حرسا) من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس ، و (شديدا) صفة لحرسا : أى قويا (وشهبا) جمع شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله ـ وجعلناها رجوما للشياطين ـ ومحل قوله (ملئت حرسا شديدا) النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا ، لأنه يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز أن يكون متعدّيا إلى مفعول واحد ، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد ، وحرسا منصوب على التمييز ، ووصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ ، كما يقال السلف الصالح : أى الصالحين (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى وأنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع : أى مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء ، وللسمع متعلق بنقعد : أى لأجل السمع ، أو بمضمر هو صفة لمقاعد : أى مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان ، وذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالشهب المحرقة ، وهو معنى قوله (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى أرصد له ليرمى به ، أو لأجله لمنعه من السماع ، وقوله « الآن » هو ظرف للحال واستعير للاستقبال ، وانتصاب رصدا على أنه صفة لشهابا ، أو مفعول له ، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم : لم يكن ذلك . وحكى الواحدى عن معمر قال : قلت للزهرى : أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية ؟ قال نعم ، قلت : أفرأيت قوله « وأنا

كنا نقعد منها) الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ، ولكنه لم يكن مثله فى شدّة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون فى بعض الأحوال ، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا . وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرست السماء ، ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنوّ إلى السماء . وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رميت بالشهب ، وقد تقدّم البحث عن هذا (وإنا لا ندرى أشرّ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) أى لاندرى أشرّ أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء ، أم أراد بهم ربهم رشدا : أى خيرا . قال ابن زيد : قال إبليس : لاندرى أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا . وارتفاع « أشرّ » على الاشتغال ، أو على الابتداء ، وخبره مابعده ، والأوّل أولى ، والجملة سادّة مسدّ مفعولى ندرى ، والأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد (وأنا منا الصالحون) أى قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح (ومنا دون ذلك) أى قوم دون ذلك : أى دون الموصوفين بالصلاح ، وقيل أراد بالصالحين المؤمنين ، وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأوّل أولى ، ومعنى (كنا طرائق قددا) أى جماعات متفرقة وأصنافا مختلفة ، والقدة : القطعة من الشيء ، وصار القوم قددا : إذا تفرقت أحوالهم ، ومنه قول الشاعر

القابض الباسط الهادى لطاعته فى فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى : كنا ذوى طرائق قددا ، أو كانت طرائقنا طرائق قددا ، أو كنا مثل طرائق قددا ، ومن هذا قول لبيد :

لم تبلغ العين كل نهمتها يوم تمشى الجياد بالقدد

وقوله أيضا :

ولقد قلت وزيد حاسر يوم ولت خيل عمرو قددا

قال السدّى والضحاك : أديانا مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة . وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس ، وكذا قال مجاهد . قال الحسن : الجنّ أمثالكم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة ، وكذا قال السدّى : (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض) الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين : أى وإنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله فى الأرض أينما كنا فيها ، ولن نفوته إن أراد بنا أمرا (ولن نعجزه هربا) أى هاربين منها ، فهو مصدر فى موضع الحال (وأنا لما سمعنا الهدى) يعنون القرآن (آمنا به) وصدّقنا أنه من عبد الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أى لايخاف نقصا فى عمله وثوابه ، ولا ظلما ومكروها يغشاه ، والبخس النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى : لايخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته ، وقد تقدّم تحقيق الرهق قريبا . قرأ الجمهور « بخسا » بسكون الخاء . وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش « فلا يخف » جزما على جواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء ، والتقدير : فهو لايخاف والأمر ظاهر .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : انطلق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ماحال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ماهذا الأمر الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا ـ هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم (فقالوا) ياقومنا (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ) وإنما أوحى إليه قول الجنّ . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجنّ) قال : كانوا من جنّ نصيبين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأنه تعالى جدّ ربنا) قال : آلاؤه وعظمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أمره وقدرته . وأخرج ابن مردويه والديلمى قال السيوطى بسند واه عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فى قوله (وأنه كان يقول سفيهنا) قال : إبليس. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى فى الضعفاء والطبرانى وأبوالشيخ فى العظمة وابن مردويه وابن عساكر عن عكرمة بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة ، وذلك أوّل ماذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : ياعامر الوادى أنا جارك ، فنادى مناد ياسرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ) الآية . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فزادوهم رهقا) قال : إثما . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ مافيه ، فلا يكون بشىء أشدّ ولعا منهم بهم ، فذلك قوله (فزادهم رهقا) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقا ، وأما مازادوا ، فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائما يصلى بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) يقول : منا المسلم ، ومنا المشرك ، و (كنا طرائق قددا) أهواء شتى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فلا يخاف بخسا ولا رهقا) قال : لايخاف نقصا من حسناته ولا زيادة فى سيئاته .

وَإِنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا
ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)
قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِ
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ
لَهُ رَبِّى أَمَدًا (٢٥) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ
بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا (٢٨) .

قوله (وأنا منا المسلمون) هم الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (ومنا القاسطون) أى الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل (فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا) أى قصدوا طريق الحق . قال الفراء : أمّوا الهدى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أى وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس (وألو استقاموا على الطريقة) هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على (أنه استمع نفر من الجنّ) والمعنى : وأوحى إلىّ أن الشأن او استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة ، وهى طريقة الإسلام ، وقد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح أن ههنا . قال ابن الأنبارى : والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها ، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل ، يقال فى الكلام والله لو قمت لقمت كما فى قول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حرّا ... ولا بالحرّ أنت ولا العتيق

قال : أو على أوحى إلىّ أنه استمع ، وأن لو استقاموا ، أو على آمنا به : أى آمنا به ، وبأن لو استقاموا . قرأ الجمهور بكسر الواو من لو لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن وثاب والأعمش بضمها (لأسقيناهم ماء غدقا) أى كثيرا واسعا . قال مقاتل : ماء كثيرا من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين . وقال ابن قتيبة : المعنى لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلا لأن الخير كله والرزق بالمطر ، وهذا كقوله ـ ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا ـ الآية ، وقوله ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ـ وقوله ـ استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ـ الآية . وقيل المعنى : وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج . والماء الغدق : هو الكثير فى لغة العرب (لنفتنهم فيه) أى لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم . وقال الكلبى : المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا ، لأوسعنا أرزاقهم مكرا بهم واستدراجا حتى يفتتنوا بها فنعذبهم فى الدنيا والآخرة . وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والثمالى ويمان بن زيان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله ـ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم

أبواب كل شيء ـ وقوله ـ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ـ الآية والأول أولى (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) أى ومن يعرض عن القرآن ، أو عن العبادة ، أو عن الموعظة ، أو عن جميع ذلك يسلكه : أى يدخله عذابا صعدا : أى شاقا صعبا . قرأ الجمهور « نسلكه » بالنون مفتوحة . وقرأ الكوفيون وأبوعمرو فى رواية عنه بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله ـ عن ذكر ربه ـ ولم يقل عن ذكرنا . وقرأ مسلم بن جندب وطلحة بن مصرف والأعرج بضم النون وكسر اللام ، من أسلكه ، وقراءة الجمهور من سلكه . والصعد فى اللغة المشقة ، تقول تصعد بى الأمر : إذا شق عليك ، وهو مصدر صعد ، يقال صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب مبالغة ، لأنه يتصعد المعذب : أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . قال أبو عبيد : الصعد مصدر : أى عذابا ذا صعد . وقال عكرمة : الصعد هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما فى قوله ـ سأرهقه صعودا ـ والصعود : العقبة الكئود (وأن المساجد لله) قد قدمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع : أى وأوحى إلى أن المساجد مختصة بالله . وقال الخليل : التقدير ولأن المساجد . والمساجد : المواضع التى بنيت للصلاة فيها . قال سعيد بن جبير : قالت الجن كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع لأن الأرض كلها مسجد . وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد ، وهى القدمان والركبتان واليدان والجبهة ، يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء . وقيل المساجد هى الصلاة لأن السجود من جملة أركانها قاله الحسن (فلا تدعوا مع الله أحدا) من خلقه كائنا ما كان (وأنه لما قام عبد الله) قد قدمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح أن ، عطفا على أنه استمع : أى وأوحى إلى أن الشأن لما قام عبد الله ، وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم (يدعوه) أى يدعوا الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة كما تقدم حين قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى ويتلو القرآن ، وقد قدمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر إن هنا ، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد (كادوا يكونون عليه لبدا) أى كاد الجن يكونون على رسول الله لبدا : أى متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج : ومعنى لبدا : يركب بعضهم بعضا ، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التى تفرش . قرأ الجمهور « لبدا » بكسر اللام وفتح الباء . وقرأ مجاهد وابن محيصن وهشام بضم اللام وفتح الباء ، وقرأ أبوحيوة ومحمد بن السميفع والعقيلى والجحدرى بضم الباء واللام . وقرأ الحسن وأبوالعالية والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة . فعلى القراءة الأولى المعنى ماذكرناه ، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى كثيرا كما فى قوله ـ أهلكت مالا لبدا ـ وقيل المعنى : كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حزدا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ، ويتم نوره . واختار هذا ابن جرير . قال مجاهد لبدا : أى جماعات ، وهو من تلبد الشىء على الشىء أى اجتمع ومنه اللبد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شىء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ، ويقال للشعر الذى على ظهر الأسد لبدة ، وجمعها لبد ويقال للجراد الكثير لبد ؛ ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشىء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه ، وهو المقصود بقول النابغة * أخنى عليها الذى أخنى على لبد * (قال إنما أدعوا ربى) أى قال عبد الله إنما أدعو ربى وأعبده (ولا أشرك به أحدا) من خلقه . قرأ الجمهور « قال » وقرأ عاصم وحمزة « قل » على الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت

الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك (قل إنى لا أملك لكم ضرّا ولا رشدا) أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّا ولا أسوق إليكم خيرا ، وقيل الضرّ الكفر ، والرشد الهدى ، والأوّل أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفى ، فهما يعمان كل ضرر وكل رشد فى الدنيا والدين (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد) أى لايدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى (ولن أجد من دونه ملتحدا) أى ملجأ ومعدلا وحرزا ، والملتحد معناه فى اللغة الممال : أى موضعا أميل إليه . قال قتادة : مولى . وقال السدّى : حرزا ، وقال الكلبى : مدخلا فى الأرض مثل السرب ، وقيل مذهبا ومسلكا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول الشاعر :

يالهف نفسى ولهفا غير مجدية … عنى وما من قضاء الله ملتحد

والاستثناء فى قوله (إلا بلاغا من الله) هو من قوله لا أملك : أى لا أملك ضرّا ولا رشدا إلا التبليغ من الله ، فإن فيه أعظم الرشد ، أو من ملتحدا : أي لن أجد من دونه ملجأ إلا التبليغ . قال مقاتل : ذلك الذى يجيرنى من عذابه . وقال قتادة : إلا بلاغا من الله ، فذلك الذى أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . قال الفراء : لكن أبلغكم ما أرسلت به ، فهو على هذا منقطع . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله « ملتحدا » أى ولن أجد من دونه ملتحدا إلا أن أبلغ ما يأتى من الله ، وقوله (ورسالاته) معطوف على بلاغا : أى إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته التى أرسلنى بها إليكم ، أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى . وقيل الرسالات معطوفة على الاسم الشريف : أى إلا بلاغا عن الله وعن رسالاته ، كذا قال أبو حيان ورجحه (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه (فإن له نار جهنم) قرأ الجمهور بكسر إن على أنها جملة مستأنفة . وقرئ بفتح الهمزة ، لأن مابعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، والتقدير فجزاؤه أن له نار جهنم ، أو فحكمه أن له نار جهنم ، وانتصاب (خالدين فيها) على الحال : أى فى النار أو فى جهنم ، والجمع باعتبار معنى مَن كما أن التوحيد فى قوله « فإن له » باعتبار لفظها ، وقوله (أبدا) تأكيد لمعنى الخلود : أى خالدين فيها بلا نهاية (حتى إذا رأوا مايوعدون) يعنى من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . والمعنى لايزالون على ماهم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين حتى إذا رأوا الذى يوعدون به (فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقلّ عددا) أى من هو أضعف جندا ينتصر به وأقلّ عددا أهم أم المؤمنون؟ (قل إن أدرى أقريب ماتوعدون) أى ما أدري أقريب حصول ماتوعدون من العذاب (أم يجعل له ربى أمدا) أى غاية ومدّة ، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له متى يكون هذا الذى توعدنا به ؟ قال عطاء : يريد أنه لايعرف يوم القيامة إلا الله وحده ، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لايعلمه إلا الله . قرأ الجمهور « ربى » بإسكان الياء . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بفتحها ، (ومن) فى « من أضعف » موصولة ، وأضعف خبر مبتدإ محذوف : أى هو أضعف ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء وأضعف خبرها ، والجملة فى محل نصب سادة مسدّ مفعولى أدرى ، وقوله « أقريب » خبر مقدّم « وما توعدون » مبتدأ مؤخر (عالم الغيب) قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربى ، أو بيان له أو خبر مبتدإ محذوف ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية . وقرئ بالنصب على المدح . وقرأ السدىّ علم الغيب بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء فى (فلا يظهر على غيبه أحدا) لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب : أى لايطلع على الغيب الذى يعلمه ، وهو ماغاب عن العباد أحدا منهم ، ثم استثنى فقال (إلا من ارتضى من رسول) أى إلا من اصطفاه من الرسل أو

من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالا على نبوته . قال القرطبي : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل ، فأودعهم ماشاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكف ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على مايشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . وقال سعيد بن جبير : إلا من ارتضى من رسول هو جبريل ، وفيه بعد . وقيل المراد بقوله « إلا من ارتضى من رسول » فإنه يطلعه على بعض غيبه ، وهو مايتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة ، لا مالا يتعلق برسالته من الغيوب ، كوقت قيام الساعة ونحوه . قال الواحدى : وفى هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على مايكون من حادث فقد كفر بما فى القرآن . قال فى الكشاف : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال للكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شىء من الارتضاء وأدخله فى السخط . قال الرازى : وعندى لادلالة فى الآية على شىء مما قالوه إذ لا صيغة عموم فى غيبه ، فتحمل على غيب واحد وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله (أقريب ماتوعدون) الآية . فإن قيل : فما معنى الاستثناء حينئذ ؟ قلنا : لعله إذا قربت القيامة يظهره ، وكيف لا ؟ وقد قال ـ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ـ فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة ، أوهو استثناء منقطع : أى من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الجن والإنس . ويدل على أنه ليس المراد به لايطلع أحدا على شىء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل ظهوره ، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شىء من المغيبات ، وأيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ويكون صادقا فيها ، وأيضا قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها ، فوقعت على وفق كلامها . قال : وأخبرنى ناس محققون فى علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل ، فكانت على وفق خبرها . وبالغ أبو البركات فى كتاب التعبير فى شرح حالها وقال : فحصت عن حالها ثلاثين سنة ، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارا مطابقا . وأيضا فإنا نشاهد ذلك فى أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك فى السحرة أيضا ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن فيكون التأويل ماذكرنا ، انتهى كلامه .

قلت : أما قوله إذ لا صيغة عموم فى غيبه فباطل ، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم . وأما قوله : أو هو استثناء منقطع فمجرد دعوى يأباه النظم القرآنى . وأما قوله : إن شقا وسطيحا الخ ، فقد كانا فى زمن تسترق فيه الشياطين السمع ويلقون مايسمعونه إلى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت فى الحديث الصحيح . وفى قوله ـ إلا من خطف الخطفة ـ ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه فى هذه الشريعة ، وأنه كان طريقا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية ، وقالوا ـ إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع

الآن يجد له شهابا رصدا - فباب الكهانة فى الوقت الذى كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية . وأما حديث المرأة الذى أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ماورد فى الحديث « إن فى هذه الأمة محدّثين وإن منهم عمر » فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا انقضاء لها ، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله فى آخر كلامه . فلو قلنا إن القرآن يدلّ على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن ، فيقال له ماهذه بأوّل زلة من زلاتك ، وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذى صار يتخبطك فى مباحث تفسيرك ، ياعجبا لك أيكون مابلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجبا لتطرّق الطعن إلى القرآن ، وما أحسن ماقاله بعض أدباء عصرنا :

وإذا رامت الذبابة للشمـ ... ـس غطاء مدّت عليها جناحا

وقلت من أبيات :

مهب رياح سدّه بجناح ... وقابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآنى أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ماشاء من غيبه ، فهل للرسول الذى أظهره الله على ماشاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته ؟ قلت : نعم ولا مانع من ذلك . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا مالا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ماصحّ أنه قام مقاما أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة ، وما ترك شيئا مما يتعلق بالفتن ونحوها ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه ، وكذلك ماثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يحدث من الفتن بعده ، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه . وثبت فى الصحيح وغيره « أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التى تموج كموج البحر ، فقال : إن بينك وبينها بابا ، فقال عمر : هل يفتح أو يكسر ؟ فقال : بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب ، وأن كسره قتله » كما فى الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة : هل كان عمر يعلم ذلك ؟ فقال : نعم كان يعلم أن دون غد الليلة . وكذلك ماثبت من إخباره لأبى ذرّ بما يحدث له ، وإخباره لعلىّ بن أبى طالب بخبر ذى الثدية ، ونحو هذا مما يكثر تعداده ولو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ . وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التى أظهرها الله لرسوله ، وأظهرها رسوله لبعض أمته ، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الربانى بواسطة الجناب النبوىّ . ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذى يطلع عليه الرسول فقال (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء ، والمعنى : أنه يجعل سبحانه بين يدى الرسول ومن خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدى الوحى وخلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين ، فتلقيه إلى الكهنة ، والمراد من جميع الجوانب ؟ قال الضحاك : مابعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا هذا رسول ربك . قال ابن زيد : رصدا : أى حفظة يحفظون النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم من أمامه ووراءه من الجنّ والشياطين . قال قتادة وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة . وقال الفراء : المراد جبريل . قال فى الصحاح : الرصد القوم يرصدون

كالحرس يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث ، والرصد للشيء الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصداً ورصداً والترصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) اللام متعلق بيسلك ، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد . وقال قتادة ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف تتعلق به اللام : أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ . وقيل ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير . وقيل ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم . وقيل ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط . وقال ابن قتيبة : أى ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم . قرأ الجمهور « ليعلم » بفتح التحتية على البناء للفاعل . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب وزيد بن على بضمها على البناء للمفعول : أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته : أى ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا . وقرأ ابن أبى عبلة والزهرى بضم الياء وكسر اللام (وأحاط بما لديهم) أى بما عنده الرصد من الملائكة ، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد : أى والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال . قال سعيد بن جبير : ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته (وأحصى كل شيء عددا) من جميع الأشياء التى كانت والتى ستكون ، وهو معطوف على أحاط ، وعددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محولا من المفعول به : أى وأحصى عدد كل شيء كما فى قوله ـ وفجرنا الأرض عيونا ـ ويجوز أن يكون منصوبا على المصدرية ، أو فى موضع الحال : معدودا ، والمعنى : أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال ، بل على وجه التفصيل : أى أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (القاسطون) العادلون عن الحق . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (وألو استقاموا على الطريقة) قال : أقاموا ما أمروا به (لأسقيناهم ماء غدقا) قال : معينا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدى قال : قال عمر « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » قال : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (لنفتنهم فيه) قال : لنبتليهم به . وفى قوله (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) قال : شقة من العذاب يصعد فيها . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه عنه فى قوله (يسلكه عذابا صعدا) قال : جبلا فى جهنم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (عذابا صعدا) قال : لا راحة فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (وأن المساجد لله) قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا مسجد الحرام ، ومسجد إيلياء بيت المقدس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة إلى نواحى مكة فخط لى خطا . وقال لاتحدثن شيئا حتى آتيك ، ثم قال : لايهولنك شيئا تراه ، فتقدم شيئا ، ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط ، وكانوا كما قال الله تعالى ـ كادوا يكونون عليه لبدا ـ » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال « لما سمعوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول ، فجعل يقرئه ـ قل أوحى إلى أنه

استمع نفر من الجن » . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وصححه وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا فى الآية قال « لما أتى الجن إلى رسول الله وهو يصلى بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه : كادوا يكونون عليه لبدا » . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا « لما قام عبد الله يدعوه » أى يدعو الله. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (كادوا يكونون عليه لبدا) قال : أعوانا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا (فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول) قال : أعلم الله الرسول من الغيب الوحى وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه وما يحكم الله فإنه لايعلم ذلك غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا (رصدا) قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذى أرسل إليهم به ، وذلك حتى يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها ، حتى يؤدّوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قرأ (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يعنى الملائكة الأربعة (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) اه

تفسير سورة المزمل

هى تسع عشرة آية ، وقيل عشرون آية

وهى مكية . قال الماوردى : كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، قال : وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها (واصبر على مايقولون) والتى تليها . وقال الثعلبى : إلا قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم) إلى آخر السورة ، فإنه نزل بالمدينة. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت (يا أيها المزمل) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة المزّمل بمكة إلا آيتين (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) . وأخرج البزار والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة ، فقالوا سموا هذا الرجل اسما تصدّون الناس عنه ، فقالوا كاهن ، قالوا ليس بكاهن ؛ قالوا مجنون ، قالوا ليس بمجنون ؛ قالوا ساحر ، قالوا ليس بساحر ، فتفرّق المشركون على ذلك ؛ فبلغ النبى صلى الله عليه وآله وسلم فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل ، فقال : يا أيها المزمل - يا أيها المدثر . قال البزار : بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرحمن إن معلى قد حدّث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ، لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لايتابع عليها . وأخرج أبو داود والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : « بتّ عند خالتى ميمونة ، فقام النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى من الليل ، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر ، فحزرت قيامه فى كل ركعة بقدر يا أيها المزّمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ

وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ
لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ
وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ
أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ
تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا (١٨) .

قوله (يا أيها المزّمل) أصله المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى ، والتزمل التلفف فى الثوب . قرأ الجمهور « المزمل » بالإدغام . وقرأ أبى المتزمل على الأصل . وقرأ عكرمة بتخفيف الزاى ، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا فى أفانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمّل

وهذا الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف فى معناه ، فقال جماعة : إنه كان يتزمل صلى الله عليه وآله وسلم بثيابه فى أوّل ماجاءه جبريل بالوحى فرقا منه حتى أنس به ، وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالنبوّة والملتزم للرسالة . وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ (يا أيها المزمل) بتخفيف الزاى وفتح الميم مشدّدة اسم مفعول وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالقرآن . وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه ، وقيل بلغه من المشركين سوء قول ، فتزمل فى ثيابه وتدثر ، فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر . وقد ثبت أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله وقال : زملونى دثرونى ، وكان خطابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخطاب فى أول نزول الوحى . ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة (قم الليل إلا قليلا) أى قم للصلاة فى الليل . قرأ الجمهور « قم » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك بضمها اتباعا لضمة القاف . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأىّ حركة تحرك فقد وقع الغرض . وانتصاب الليل على الظرفية . وقيل إن معنى قم صلّ ، عبر به عنه واستعير له . واختلف هل كان هذا القيام الذى أمر به فرضا عليه أو نفلا ؟ وسيأتى إن شاء الله ما روى فى ذلك . وقوله إلا قليلا استثناء من الليل : أى صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ، والقليل من الشىء هو مادون النصف ، وقيل مادون السدس ، وقيل ما دون العشر . وقال مقاتل والكلبى : المراد بالقليل هنا الثلث ، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله (نصفه) الخ ، وانتصاب نصفه على أنه بدل من الليل . قال الزجاج : نصفه بدل من الليل ، وإلا قليلا استثناء من النصف ، والضمير فى منه وعليه عائد إلى النصف . والمعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثى الليل ، أو نصفه أو ثلثه . وقيل إن نصفه بدل من قوله قليلا ، فيكون المعنى : قم الليل إلا نصفه أو أقلّ من نصفه أو أكثر من نصفه ، قال الأخفش : نصفه أى أو نصفه كما يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة ، يريد أو درهمين أو ثلاثة .

قال الواحدى : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين ، جعل له سعة فى مدة قيامه فى الليل وخيره فى هذه الساعات للقيام ، فكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشقّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لايدرى كم صلى أو كم بقى من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم ، وقيل الضميران فى منه وعليه راجعان للأقل من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصفه أوقم أنقص من ذلك الأقلّ ، أو أزيد منه قليلا ، وهو بعيد جدّا ؛ والظاهر أن نصفه بدل من قليلا ، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من قليلا .

واختلف فى الناسخ لهذا الأمر ، فقيل هو قوله « إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه » إلى آخر السورة ، وقيل هو قوله « علم أن لن تحصوه » وقيل هو قوله « علم أن سيكون منكم مرضى » وقيل هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وبهذا قال مقاتل والشافعى وابن كيسان ، وقيل هو قوله - فاقرءوا ما تيسر منه - وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة (ورتل القرآن ترتيلا) أى اقرأه على مهل مع تدبر . قال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . قال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ، ويوفى حقها من الإشباع . وأصل الترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وتأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لايلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) أى سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . قال مجاهد : حلاله وحرامه . قال الحسن : العمل به . قال أبو العالية : ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام . وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسبّ آلهتهم . وقال السدّى : ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقيل علىّ : أى يكرم علىّ . قال الفراء : ثقيلا رزينا ليس بالخفيف السفساف ، لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلا لايحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد ، وقيل وصفه بكونه ثقيلا حقيقة لما ثبت أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه (إن ناشئة الليل) أى ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أوّلا فأوّلا ، يقال نشأ الشىء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء فهو ناشئ ، وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب : إذا بدأت ، فناشئة فاعلة من نشأ ينشأ فهى ناشئة . قال الزجاج : ناشئة الليل كل مانشأ منه : أى حدث ، فهو ناشئة . قال الواحدى : قال المفسرون : الليل كله ناشئة ، والمراد أن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف . وقيل إن ناشئة الليل هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة : أى تنهض ، من نشأ من مكانه : إذا نهض . وقيل الناشئة بالحبشية قيام الليل ، وقيل إنما يقال لقيام الليل ناشئة إذا كان بعد نوم . قال ابن الأعرابى : إذا نمت من أوّل الليل ثم قمت فتلك المنشأة والنشأة ، ومنه ناشئة الليل . قيل وناشئة الليل هى مابين المغرب والعشاء ، لأن معنى نشأ ابتدأ ، ومنه قول نصيب

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشء الصغارا

قال عكرمة وعطاء : إن ناشئة الليل بدوّ الليل . وقال مجاهد وغيره : هى فى الليل كله ، لأنه ينشأ بعد النهار ، واختار هذا مالك . وقال ابن كيسان : هى القيام من آخر الليل . قال فى الصحاح : ناشئة الليل أوّل ساعاته . وقال الحسن : هى مابعد العشاء الآخرة إلى الصبح (هى أشدّ وطأ) قرأ الجمهور « وطأ » بفتح الواو وسكون الطاء

مقصورة ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ أبو العالية وابن أبي إسحاق ومجاهد وأبو عمرو وابن عامر وحميد وابن محيصن والمغيرة وأبوحيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم . قال ابن قتيبة : المعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدّت على القوم وطأة السلطان : إذا ثقل عليهم مايلزمهم منه ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهمّ اشدد وطأتك على مضر » والمعنى على القراءة الثانية أنها أشدّ مواطأة : أى موافقة ، من قولهم : واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء : إذا وافقته عليه . قال مجاهد وابن أبى مليكة : أى أشد موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه - ليواطئوا عدّة ماحرّم الله - أى ليوافقوا . وقال الأخفش : أشدّ قياما . وقال الفرّاء : أى أثبت للعمل ، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبي : أشدّ نشاطا (وأقوم قيلا) أى وأشدّ مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهدوء الأصوات ، وأشدّ استقامة واستمرارا على الصواب ، لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم . قال أبو علىّ الفارسى : أقوم قيلا : أى أشدّ استقامة لفراغ البال بالليل . قال الكلبي : أى أبين قولا بالقرآن . وقال عكرمة : أى أتمّ نشاطا وإخلاصا وأكثر بركة . وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه فى القرآن ، وقيل أعجل إجابة للدعاء (إن لك فى النهار سبحا طويلا) قرأ الجمهور « سبحا » بالحاء المهملة : أى تصرفا فى حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا ، والسبح : الجرى والدوران ، ومنه السباحة فى الماء لتقلبه ببدنه ورجليه ، وفرس سابح : أى شديد الجرى . وقيل السبح الفراغ : أى إن لك فراغا بالنهار للحاجات ، فصلّ بالليل . قال ابن قتيبة : أى تصرّفا وإقبالا وإدبارا فى حوائجك وأشغالك . وقال الخليل : إن لك فى النهار سبحا : أى نوما ، والتسبح التمدّد . قال الزجاج : المعنى إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل وابن أبى عبلة « سبخا » بالخاء المعجمة ، قيل ومعنى هذه القراءة : الخفة والسعة والاستراحة . قال الأصمعى : يقال سبخ الله عنك الحمى : أى خففها ، وسبخ الحرّ فتر وخفّ ، ومنه قول الشاعر :

فسبخ عليك الهمّ واعلم بأنه ... إذا قدّر الرحمن شيئا فكائن

أى خفف عنك الهمّ . والتسبيخ من القطن ماينسج بعد الندف ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما ... تذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب : السبخ بالخاء المعجمة التردّد والاضطراب ، والسبخ السكون . وقال أبوعمرو : السبخ النوم والفراغ (واذكر اسم ربك) أى ادعه بأسمائه الحسنى ، وقيل اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك ، وقيل اذكر اسم ربك فى وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته ، وقيل المعنى : دم على ذكر ربك ليلا ونهارا واستكثر من ذلك . وقال الكلبي : المعنى صلّ لربك (وتبتل إليه تبتيلا) أى انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته ، والتبتل الانقطاع ، يقال بتلت الشىء : أى قطعته وميزته من غيره ، وصدقة بتلة : أى منقطعة من مال صاحبها ، ويقال للراهب متبتل لانقطاعه عن الناس ، ومنه قول الشاعر :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

ووضع تبتيلا مكان تبتلا لرعاية الفواصل . قال الواحدي : والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله (ربّ المشرق والمغرب) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر بجرّ ربّ على النعت لربك أو البدل منه أو البيان له . وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ وخبره (لا إله إلا هو) أو على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هو ربّ المشرق . وقرأ زيد بن عليّ بنصبه على المدح . وقرأ الجمهور « المشرق والمغرب » مفردين ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس « المشارق والمغارب » على الجمع ، وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب (فاتخذه وكيلا) أى إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا : أى قائما بأمورك ، وعوّل عليه فى جميعها ، وقيل كفيلا بما وعدك من الجزاء والنصر (واصبر على ما يقولون) من الأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك (واهجرهم هجرا جميلا) أى لاتتعرّض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم ، وقيل الهجر الجميل الذى لاجزع فيه ، وهذا كان قبل الأمر بالقتال (وذرنى والمكذبين) أى دعني وإياهم ولا تهتم بهم فإنى أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم . قيل نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة وقد تقدّم ذكرهم . وقال يحيي بن سلام : هم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر (أولى النعمة) أى أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة فى الدنيا (ومهلهم قليلا) أى تمهيلا قليلا على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو زمانا قليلا على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء آجالهم ، وقيل إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، والأول أولى لقوله (إنّ لدينا أنكالا) وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد . كذا قال الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف فى اللغة ، ومنه قول الخنساء :

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لاتقطع

وقال مقاتل : هى أنواع العذاب الشديد . وقال أبو عمران الجونى : هى قيود لاتحلّ (وجحيما) أى نارا مؤججة (وطعاما ذا غصة) أى لايسوغ فى الحلق بل ينشب فيه ، فلا ينزل ولا يخرج . قال مجاهد : هو الزقوم . وقال الزجاج : هو الضريع كما قال - ليس لهم طعام إلا من ضريع - قال : وهو شوك العوسج . قال عكرمة : هو شوك يأخذ بالحلق لايدخل ولا يخرج ، والغصة : الشجا فى الحلق ، وهو ماينشب فيه من عظم أو غيره ، وجمعها غصص (وعذابا أليما) أى ونوعا آخر من العذاب غير ما ذكر (يوم ترجف الأرض والجبال) انتصاب الظرف إما بذرنى ، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا ، أو هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف : أى عذابا واقعا يوم ترجف ، أو متعلق بأليما . قرأ الجمهور « ترجف » بفتح التاء وضم الجيم مبنيا للفاعل ، وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول ، مأخوذ من أرجفها ، والمعنى : تتحرك وتضطرب بمن عليها ، والرجفة : الزلزلة والرعدة الشديدة (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) أى وتكون الجبال ، وإنما عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ، والكثيب الرمل المجتمع ، والمهيل الذى يمرّ تحت الأرجل . قال الواحدى : أى رملا سائلا : يقال لكل شيء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام أهلته هيلا . قال الضحاك والكلبي : المهيل الذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال ، ومنه قول حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي فى الورق القشيب

(إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم) الخطاب لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار ، والرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) يعني

موسى (فعصى فرعون الرسول) الذى أرسلناه إليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه (فأخذناه أخذا وبيلا) أى شديدا ثقيلا غليظا ، والمعنى : عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق ؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل مانزل به وإن اختلف نوع العقوبة . قال الزجاج : أى ثقيلا غليظا ، ومنه قيل للمطر وابل . وقال الأخفش : شديدا ، والمعنى متقارب ، ومنه طعام وبيل : إذا كان لايستمرأ ، ومنه قول الخنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت ... فوارس مالك أكلا وبيلا

(فكيف تتقون) أى كيف تقون أنفسكم (إن كفرتم) أى إن بقيتم على كفركم (يوما) أى عذاب يوم (يجعل الولدان شيبا) لشدّة هوله : أى يصير الولدان شيوخا ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة ، وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلا ، لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ فى الضعف وسقوط القوّة ، وفى هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم . قال الحسن : أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم ، وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوما مفعول به لتتقون . قال ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم بكفرتم ، وهذا قبيح ، والولدان الصبيان ، ثم زاد فى وصف ذلك اليوم بالشدّة فقال (السماء منفطر به) أى متشققة به لشدّته وعظيم هوله ، والجملة صفة أخرى ليوم ، والباء سببية ، وقيل هى بمعنى فى : أى منفطر فيه ، وقيل بمعنى اللام : أى منفطر له ، وإنما قال منفطر ولم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شىء لكونها قد تغيرت ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشىء . وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منفطرة ، لأن مجازها السقف ، كما قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما ... لحقنا بالسماء وبالسحاب

فيكون هذا كما فى قوله ـ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ـ وقال الفرّاء : السماء تذكر وتؤنث . وقال أبو علىّ الفارسى : هو من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر ، و ـ أعجاز نخل منقعر ـ قال أيضا : أى السماء ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع : أى ذات ارضاع على طريق النسب ، وانفطارها لنزول الملائكة كما قال ـ إذا السماء انفطرت ـ وقوله ـ والسموات يتفطرن من فوقهنّ ـ وقيل منفطر به : أى بالله والمراد بأمره ، والأوّل أولى (كان وعده مفعولا) أى وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنا لا محالة ، والمصدر مضاف إلى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولا ، فالمصدر مضاف إلى مفعوله . وقال مقاتل : كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن هشام قال « قلت لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ، قالت : ألست تقرأ هذه السورة ـ يا أيها المزمل ؟ قلت بلى ، قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أوّل هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرا ، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوّعا من بعد فرضه » وقد روى هذا الحديث عنها من طرق . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت أوّل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أوّلها وآخرها نحو

من سنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : لما نزلت يا أيها المزمل قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ـ فاقرءوا ماتيسرمنه ـ فاستراح الناس . وأخرج أبوداود في ناسخه وابن نصر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : في المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه نسختها الآية التي فيها ـ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن ـ وناشئة الليل أوله كان صلاتهم أول الليل ، يقول هذا أجدر أن تحصوا مافرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ ، وقوله (أقوم قيلا) هوأجدر أن يفقه قراءة القرآن ، وقوله (إن لك في النهار سبحا طويلا) يقول فراغا طويلا . وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله (يا أيها المزمل) قال : زملت هذا الأمر فقم به . وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضا قال : يتزمل بالثياب . وأخرج الفريابي عن أبي صالح عنه أيضا (ورتل القرآن ترتيلا) قال : تقرأ آيتين ثلاثا ثم تقطع لاتهدر . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن منيع في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم ومحمد بن نصر عنه أيضا (ورتل القرآن ترتيلا) قال : بينه تبيينا . وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جريروابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحي إليه وهوعلى ناقته وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتلت (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (إن ناشئة الليل) قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا نشأ . وأخرج البيهقي عنه قال (ناشئة الليل) أوله . وأخرج ابن المنذر وابن نصر عنه أيضا قال : الليل كله ناشئة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال (ناشئة الليل) بالحبشة قيام الليل . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن نصر والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال (ناشئة الليل) مابين المغرب والعشاء . وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله (إن لك في النهار سبحا طويلا) قال : السبح الفراغ للحاجة والنوم . وأخرج أبويعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود (إن لدينا أنكالا) قال : قيودا . وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس (وطعاما ذا غصة) قال : شجرة الزقوم . وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله (كثيبا مهيلا) قال : المهيل الذي إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (كثيبا مهيلا) قال : الرمل السائل ، وفي قوله (أخذا وبيلا) قال : شديدا . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (يجعل الولدان شيبا) قال : ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار ، قال : من كم يارب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وينجو واحد ، فاشتد ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم : إن بني آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، إنه لايموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ، ففيهم وفي أشباههم جنة الكم » . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله (السماء منفطر به) قال : ممتلئة بلسان الحبشة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : مثقلة . موقرة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : يعني تشقق السماء .

إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) .

الإشارة بقوله (إن هذه) إلى ماتقدّم من الآيات ، والتذكرة الموعظة ، والإشارة إلى جميع آيات القرآن ، لا إلى ما فى هذه السورة فقط (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقا توصله إلى الجنة (إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل) معنى أدنى أقلّ ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين السنين إذا دنت قلّ ما بينهما (ونصفه) معطوف على أدنى (وثلثه) معطوف على نصفه ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم أقلّ من ثلثى الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه ، وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور « ونصفه وثلثه » بالجرّ عطفا على ثلثى الليل ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم أقلّ من ثلثى الليل وأقلّ من نصفه وأقلّ من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله ـ علم أن لن تحصوه ـ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لايحصونه . وقال الفرّاء : القراءة الأولى أشبه بالصواب لأنه قال : أقلّ من ثلثى الليل ، ثم فسر نفس القلة (وطائفة من الذين معك) معطوف على الضمير فى تقوم : أى وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك (والله يقدّر الليل والنهار) أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ويختص بذلك دون غيره وأنتم لاتعلمون ذلك على الحقيقة . قال عطاء : يريد لايفوته علم ماتفعلون . أى أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم قدر الذى تقومونه من الليل (علم أن لن تحصوه) أن ان تطيقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة ، وفى أن ضمير شأن محذوف ، وقيل المعنى : لن تطيقوا قيام الليل . قال القرطبى : والأوّل أصحّ ، فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزل « قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه » شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لايدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم وانتقعت ألوانهم فرحمهم الله وخفف عنهم فقال (علم أن لن تحصوه) أى علم أن لن تحصوه لأنكم إن زدتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ماليس فرضا ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم (فتاب عليكم) أى فعاد عليكم بالعفو ، ورخص لكم فى ترك القيام . وقيل فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم ؛ فالمعنى : رجع بكم من التثقيل إلى التخفيف ، ومن العسر إلى اليسر (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) أى فاقرءوا فى الصلاة بالليل ماخفّ عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا . قال الحسن : هو ما نقرأ فى صلاة المغرب والعشاء . قال السدّى : ماتيسرّ منه هو مائة آية . قال الحسن : أيضا من قرأ مائة آية

فى ليلة لم يحاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية ، وقيل معنى (فاقرءوا ماتيسر منه) فصلوا ماتيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآنا كقوله ـ وقرآن الفجر ـ قيل إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه ، والنقصان من النصف ، والزيادة عليه ، فيحتمل أن يكون ماتضمنته هذه الآية فرضا ثابتا ، ويحتمل أن يكون منسوخا لقوله ـ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ـ . قال الشافعى : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس . وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ فى حقه صلى الله عليه وآله وسلم وفى حق أمته . وقيل نسخ التقدير بمقدار ، وبقى أصل الوجوب . وقيل إنه نسخ فى حق الأمة ، وبقى فرضا فى حقه صلى الله عليه وآله وسلم ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم فى حقه صلى الله عليه وآله وسلم وفى حق أمته ، وليس فى قوله (فاقرءوا ماتيسر منه) مايدل على بقاء شىء من الوجوب لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت فى صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء ومايتبعهما من التطوّع . وأيضا الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل علىّ غيرها ، يعنى الصلوات الخمس ؟ فقال لا : إلا أن تطوّع تدل على عدم وجوب غيرها ، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله ـ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ـ قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله ـ فاقرءوا ماتيسر منه ـ كان هذا فى صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين ، وثبت على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، وذلك قوله ـ وأقيموا الصلاة ـ . ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال (علم أن سيكون منكم مرضى) فلا يطيقون قيام الليل (وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) أى يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله مايحتاجون إليه فى معاشهم فلا يطيقون قيام الليل (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) يعنى المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل . ذكر سبحانه هاهنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ، ورفع وجوب قيام الليل ، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التى تنوب بعضهم . ثم ذكر مايفعلونه بعد هذا الترخيص فقال (فاقرءوا ماتيسر منه) وقد سبق تفسيره قريبا ، والتكرير للتأكيد (وأقيموا الصلاة) يعنى المفروضة ، وهى الخمس لوقتها (وآتوا الزكاة) يعنى الواجبة فى الأموال . وقال الحارث العكلى : هى صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك ، وقيل صدقة التطوّع ، وقيل كل أفعال الخير (وأقرضوا الله قرضا حسنا) أى أنفقوا فى سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا ، وقد مضى تفسيره فى سورة الحديد . قال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل ، وقيل النفقة فى الجهاد ، وقيل هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن ، فيكون تفسيرا لقوله (وآتوا الزكاة) والأوّل أولى لقوله (وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) فإن ظاهره العموم : أى أىّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر (هو خيرا وأعظم أجرا) مما تؤخرونه إلى عند الموت أو توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب خيرا على أنه ثانى مفعولى تجدوه ، وضمير هو ضمير فصل ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبو السماك وابن السميفع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ وخير خبره ، والجملة فى محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه . قال أبو زيد : وهى لغة تميم يرفعون مابعد ضمير الفصل ، وأنشد سيبويه :

تحنّ إلى ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملاء أنت أقدر

وقرأ الجمهور أيضا « وأعظم » بالنصب عطفا على خيرا : وقرأ أبو السماك وابن السميفع بالرفع ، كما قرأ برفع

« خير » وانتصاب أجراً على التمييز (واستغفروا الله) أى اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم فإنكم لاتخلون من ذنوب تقترفونها (إن الله غفور رحيم) أى كثير المغفرة لمن استغفره ، كثير الرحمة لمن استرحمه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (فاقرءوا ماتيسر منه) قال : مائة آية . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننه وحسناه عن قيس بن أبى حازم قال : « صليت خلف ابن عباس ، فقرأ فى أول ركعة بالحمد لله رب العالمين ، وأول آية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال إن الله يقول (فاقرءوا ماتيسر منه) » قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا فى معجم الطبرانى . وأخرج أحمد والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر » . وقد قدمنا فى البحث الأول من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى الناسخة لوجوب قيام الليل ، فارجع إليه .

تفسير سورة المدثر

هى ست وخمسون آية ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المدثر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وسيأتى أن أول هذه السورة أول مانزل من القرآن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)
وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ
عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا
مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ
كَانَ لِآيٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ
إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرٰيكَ
مَاسَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) .

قال الواحدي : قال المفسرون : لما بدئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي أتاه جبريل ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ ، ففزع ووقع مغشيا عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال : دثروني دثروني ، فدثروه بقطيفة ، فقال (يا أيها المدثر قم فأنذر) ومعنى يا أيها المدثر : يا أيها الذي قد تدثر بثيابه : أي تغشى بها ، وأصله المتدثر ، فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما . وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبي المتدثر على الأصل ، والدثار : هو ما يلبس فوق الشعار والشعار : هو الذي يلي الجسد ، وقال عكرمة : المعنى يا أيها المدثر بالنبوّة وأثقالها . قال ابن العربي : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك (قم فأنذر) أي انهض فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وقيل الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوّته ، وقيل إعلامهم بالتوحيد . وقال الفراء : المعنى قم فصلّ وأمر بالصلاة (وربك فكبر) أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار ، وأعظم من أن يكون له صاحبة ، أو ولد . قال ابن العربي : المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد والأصنام ولا يتخذ وليا غيره ولا يعبد سواه ، ولا يرى لغيره فعلا إلا له ولا نعمة إلا منه . قال الزجاج : إن الفاء في فكبر دخلت على معنى الجزاء كما دخلت في فأنذر . وقال ابن جني : هو كقولك زيدا فاضرب : أي زيدا اضرب ، فالفاء زائدة (وثيابك فطهر) المراد بها الثياب الملبوسة على ماهو المعنى اللغوي ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها ، وقيل المراد بالثياب العمل ، وقيل القلب ، وقيل النفس ، وقيل الجسم ، وقيل الأهل ، وقيل الدين ، وقيل الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رزين : أي عملك فأصلح . وقال قتادة : نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس . وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهر ، ومن هذا قول امرئ القيس : * فسلي ثيابي من ثيابك تنسل * وقال عكرمة : المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة . وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني بحمد الله لاثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي ، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرّم

وقول الآخر : * ثياب بني عوف طهاري نقية * وقال الحسن والقرظي : إن المعنى وأخلاقك فطهر لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه ، ومنه قول الشاعر :

ويحيي لايلام بسوء خلق ... ويحيي طاهر الأثواب حر

وقال الزجاج : المعنى وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض ، وبه قال طاوس ، والأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقي . وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة مايدلّ على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس في مثل هذا الأصل : أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف ، وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة (والرجز فاهجر) الرجز معناه في اللغة العذاب ، وفيه لغتان كسر الراء وضمها ، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزا لأنها سبب الرجز . قرأ الجمهور « الرجز » بكسر الراء . وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها . وقال مجاهد وعكرمة : الرجز الأوثان كما في قوله

ـ فاجتنبو الرجس من الأوثان ـ وبه قال ابن زيد . وقال إبراهيم النخعى : الرجز المأثم ، والهجر الترك . وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة ، وهما صنمان كانا عند البيت . وقال أبو العالية والربيع والكسائى : الرجز بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدّى : الرجز بضم الراء الوعيد ، والأوّل أولى (ولا تمنن تستكثر) قرأ الجمهور « لا تمنن » بفك الإدغام ، وقرأ الحسن وأبو السمال والأشهب العقيلى بالإدغام ، وقرأ الجمهور « تستكثر » بالرفع على أنه حال : أى ولا تمنن حال كونك مستكثرا ، وقيل على حذف أن ، والأصل ولا تمنن أن تستكثر ، فلما حذفت رفع . قال الكسائى : فإذا حذف أن رفع الفعل . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش « تستكثر » بالنصب على تقدير أن وبقاء عملها ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ولا تمنن أن تستكثر » بزيادة أن . وقرأ الحسن أيضا وابن أبى عبلة « تستكثر » بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله ـ يلق أثاما يضاعف له ـ ، وقول الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف : كما فى قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بتسكين أشرب . وقد اعترض على هذه القراءة ، لأن قوله تستكثر لايصح أن يكون بدلا من تمنن ، لأن المن غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جوابا للنهى .

واختلف السلف فى معنى الآية ، فقيل المعنى : لاتمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذى يستكثر مايتحمله بسبب الغير ، وقيل لاتعط عطية تلتمس فيها أفضل منها قاله عكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرّمه الله على رسوله ، لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجلّ الأخلاق ، وأباحه لأمته . وقال مجاهد : لاتضعف أن تستكثر من الخير ، من قولك حبل متين : إذا كان ضعيفا . وقال الربيع بن أنس : لاتعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير . وقال ابن كيسان : لاتستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته . وقيل لاتمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثره . وقال محمد بن كعب : لاتعط مالك مصانعة . وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك (ولربك فاصبر) أى لوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه ، والمعنى : لأجل ربك وثوابه . وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب . وقال ابن زيد : حملت أمرا عظيما فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله . وقيل اصبر تحت موارد القضاء لله ، وقيل فاصبر على البلوى ، وقيل على الأوامر والنواهى (فإذا نقر فى الناقور) الناقور فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب الصوت ، ومنه قول امرىء القيس : « أخفضه بالنقر لما علوته »
ويقولون نقر باسم الرجل إذا دعاه ، والمراد هنا النفخ فى الصور ، والمراد النفخة الثانية ، وقيل الأولى ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة الأنعام وسورة النحل والفاء للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم ، والعامل فى إذا ما دلّ عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) فإن معناه عسر الأمر عليهم ، وقيل العامل فيه مادل عليه « فذلك » لأنه إشارة إلى النقر ، ويومئذ بدل من إذا ، أو مبتدأ وخبره يوم عسير ، والجملة خبر فذلك ، وقيل هو ظرف للخبر ، لأن التقدير وقوع يوم عسير ، وقوله (غير يسير) تأكيد لعسره عليهم لأن كونه غير يسير ، قد فهم من قوله يوم عسير (ذرنى ومن خلقت وحيدا) أى دعنى ، وهى كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى : دعنى والذى خلقته حال كونه وحيدا فى بطن أمه لامال له ولا

ولد ، هذا على أن وحيدا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد إليه المحذوف ، ويجوز أن يكون حالا من الياء فى ذرنى : أى دعنى وحدى معه ، فإنى أكفيك فى الانتقام منه ، والأول أولى . قال المفسرون : وهو الوليد بن المغيرة . قال مقاتل : يقول خلّ بينى وبينه فأنا أتفرد بهلكته ، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه ، وقيل أراد بالوحيد الذى لايعرف أبوه ، وكان يقال فى الوليد بن المغيرة إنه دعىّ (وجعلت له مالا ممدودا) أى كثيرا ، أو يمدّ بالزيادة والنماء شيئا بعد شىء . قال الزجاج : مالا غير منقطع عنه ، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهورا بكثرة المال على اختلاف أنواعه ، قيل كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار ، وقيل أربعة آلاف دينار ، وقيل ألف دينار (وبنين شهودا) أى وجعلت له بنين حضورا بمكة معه لايسافرون ولا يحتاجون إلى التفرّق فى طلب الرزق لكثرة مال أبيهم . قال الضحاك : كانوا سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا . وقال مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل معنى شهودا أنه إذا ذكر ذكروا معه ، وقيل كانوا يشهدون معه ما كان يشهده ويقومون بما كان يباشره (ومهدت له تمهيدا) أى بسطت له فى العيش وطول العمر والرياسة فى قريش ، والتمهيد عند العرب التوطئة ، ومنه مهد الصبىّ . وقال مجاهد : إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش (ثم يطمع أن أزيد) أى يطمع بعد هذا كله فى الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله . قال الحسن : لم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى . ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال (كلا) أى لست أزيده ، ثم علل ذلك بقوله (إنه كان لآياتنا عنيدا) أى معاندا لها كافرا بما أنزلناه منها على رسولنا ، يقال عند يعند بالكسر إذا خالف الحق وردّه ، وهو يعرفه فهو عنيد وعاند ، والعاند الذى يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، ومنه قول الحارثى :

إذا ركبت فاجعلانى وسطا إنى كبير لا أطيق العندا

قال أبو صالح : عنيدا معناه مباعدا . وقال قتادة : جاحدا . وقال مقاتل : معرضا (سأرهقه صعودا) أى سأكلفه مشقة من العذاب وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذى لايطاق ، وقيل المعنى : إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار ، والإرهاق فى كلام العرب : أن يحمل الإنسان الشىء الثقيل ، وجملة (إنه فكر وقدّر) تعليل لما تقدّم من الوعيد : أى إنه فكر فى شأن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أنزل عليه من القرآن وقدّر فى نفسه : أى هيأ الكلام فى نفسه ، والعرب تقول : هيأت الشىء إذا قدّرته ، وقدرت الشىء إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه وقدّر فى نفسه مايقول ، فذمه الله وقال (فقتل كيف قدّر) أى لعن وعذب كيف قدر : أى على أىّ حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال فى الكلام : لأضربنه كيف صنع : أى على أىّ حال كانت منه ، وقيل المعنى : قهر وغلب كيف قدر ، ومنه قول الشاعر :

وما ذرفت عيناك إلا لتضرب ى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال الزهرى : عذب ، وهو من باب الدعاء عليه ، والتكرير فى قوله (ثم قتل كيف قدّر) للمبالغة والتأكيد (ثم نظر) أى بأىّ شىء يدفع القرآن ويقدح فيه ، أو فكر فى القرآن وتدبر ماهو (ثم عبس) أى قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به فى القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففا يعبس عبسا وعبوسا إذا قطب ، وقيل عبس

فى وجوه المؤمنين ؛ وقيل عبس فى وجه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (وبسر) أى كلح وجهه وتغير ؛ ومنه قول الشاعر :

صبحنا تميما غداة الحفار ... بشهباء ملمومسة باسره

وقول الآخر : وقد رابنى منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتى وبسورها

وقيل إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور فى الوجه قبلها ، والعرب تقول : وجه باسر إذا تغير واسودّ . وقال الراغب : البسر استعجال الشرّ قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته : أى طلبها فى غير أوانها . قال : ومنه قوله ـ عبس وبسر ـ أى أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر : أى وقف لايتقدّم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا : أى صرنا إلى البسور (ثم أدبر واستكبر) أى أعرض عن الحقّ ، وذهب إلى أهله ، وتعظم عن أن يؤمن (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى يأثره عن غيره ويرويه عنه . والسحر : إظهار الباطل فى صورة الحقّ ، أو الخديعة على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة ، يقال أثرت الحديث بأثره إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قول الأعشى :

إن الذى فيه تماريتما ... بين للسامع والأثر

(إن هذا إلا قول البشر) يعنى أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله ، وسيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه . ولما قال هذا القول الذى حكاه الله عنه قال الله عزّ وجلّ (سأصليه سقر) أى سأدخله النار ، وسقر من أسماء النار ، ومن دركات جهنم ، وقيل إن هذه الجملة بدل من قوله (سأرهقه صعودا) ثم بالغ سبحانه فى وصف النار وشدة أمرها فقال (وما أدراك ما سقر) أى وما أعلمك أىّ شىء هى ، والعرب تقول : وما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المبالغة فى أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ، وما الأولى مبتدأ ، وجملة ما سقر خبر المبتدإ . ثم فسر حالها فقال (لاتبقى ولا تذر) والجملة مستأنفة لبيان حال سقر ، والكشف عن وصفها ، وقيل هى فى محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ، لأن قوله (وما أدراك ما سقر) يدل على التعظيم ، فكأنه قال : استعظموا سقر فى هذه الحال ، والأوّل أولى ، ومفعول الفعلين محذوف . قال السدّى : لاتبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما . وقال عطاء : لاتبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا ، وقيل هما لفظان بمعنى واحد ، كررا للتأكيد كقولك : صدّ عنى ، وأعرض عنى (لوّاحة للبشر) قرأ الجمهور « لوّاحة » بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف ، وقيل على أنه نعت لسقر ، والأوّل أولى . وقرأ الحسن وعطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر وابن أبى عبلة وزيد بن علىّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل ، يقال : لاح يلوح : أى ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للبشر . قال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله ـ وبرزت الجحيم لمن يرى ـ وقيل معنى (لوّاحة للبشر) أى مغيرة لهم ومسوّدة . قال مجاهد : والعرب تقول : لاحه الحر والبرد والسقم والحزن : إذا غيره ، وهذا أرجح من الأوّل ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

وتعجب هند أن رأتنى شاحبا ... تقول لشىء لوحته السمايم

أى غيرته ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

لوّح منه بعد بدن وشبق ... تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال الأخفش : المعنى أنها معطشة للبشر ، وأنشد :

سقتني على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرهام الغواديا

والمراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر ، أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش (عليها تسعة عشر) قال المفسرون : يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ، وقيل تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة ، وقيل تسعة عشر صفا من صفوفهم ، وقيل تسعة عشر نقيبا مع كل نقيب جماعة من الملائكة ، والأول أولى . قال الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق . قرأ الجمهور « تسعة عشر » بفتح الشين من عشر . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكانها .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال : إن أول ما نزل من القرآن (يا أيها المدثر) فقال له يحيي بن أبي كثير : يقولون إن أول مانزل – اقرأ باسم ربك الذى خلق – فقال أبوسلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ماقلت ، فقال جابر : لا أحدثنك إلا ماحدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجثيت منه رعبا ، فرجعت فقلت دثرونى فدثرونى ، فنزلت (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) » وسيأتى فى سورة اقرأ مايدل على أنها أول سورة أنزلت ، والجمع ممكن . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (يا أيها المدثر) فقال : دثر هذا الأمر ، فقم به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه (يا أيها المدثر) قال : النائم (وثيابك فطهر) قال : لاتكن ثيابك التى تلبس من مكسب باطل (والرجز فاهجر) قال : الأصنام (ولا تمنن تستكثر) قال : لاتعط تلتمس بها أفضل منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (وثيابك فطهر) قال : من الإثم . قال : وهى فى كلام العرب نقى الثياب . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (وثيابك فطهر) قال : من الغدر ، لاتكن غدارا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله (وثيابك فطهر) قال : لاتلبسها على غدرة ، ثم قال : ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه عنه أيضا (ولا تمنن تستكثر) قال : لاتعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا (فإذا نقر فى الناقور) قال : الصور (يوم عسير) قال : شديد . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (ذرنى ومن خلقت وحيدا) قال الوليد بن المغيرة . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله ، قال : قدعلمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولا بقصيده

ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ماتحته ، قال : والله لايرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت (ذرنى ومن خلقت وحيدا) . وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا ، وكذا أخرجه ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وغير واحد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله (وجعلت له مالا ممدودا) قال : غلة شهر بشهر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وجعلت له مالا ممدودا) قال : ألف دينار . وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدرى فى قوله (سأرهقه صعودا) قال : هو جبل فى النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (عنيدا) قال : جحودا . وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الصعود جبل فى النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ، ثم يهوى وهو كذلك فيه أبدا » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لانعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج . قال ابن كثير : وفيه غرابة ونكارة انتهى ، وقد أخرجه جماعة من قول أبى سعيد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (صعودا) صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وأخرج ابن المنذر عنه قال : جبل فى النار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله (لاتبقى ولا تذر) قال : لاتبقى منهم شيئا ، وإذا بدّلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (لوّاحة للبشر) قال : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه ، فيصير أسود من الليل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (لوّاحة) قال : محرقة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن البراء : أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل ، فأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت عليه ساعتئذ (عليها تسعة عشر) .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) .

لما نزل قوله سبحانه (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل : أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوّفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار ؟ فقال أبو الأشدّ ، وهو رجل من بني جمح : يامعشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشي بين أيديكم ، فأدفع عشرة

بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر ونمضي ندخل الجنة ، فأنزل الله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) يعني ماجعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم ، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم . وقيل جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرقة والرأفة ، وقيل لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له ، وأشدهم بأسا وأقواهم بطشا (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة) أي ضلالة (للذين) استقلوا عددهم ومحنة لهم ، والمعنى : ماجعلنا عددهم هذا العدد المذكور فى القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم ، حتى قالوا ماقالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم . وقيل معنى إلا فتنة إلا عذابا كما فى قوله ـ يوم هم على النار يفتنون ـ أي يعذبون ، واللام فى قوله (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) متعلق بجعلنا ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى لموافقة مانزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم . قاله قتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لموافقة ما فى القرآن لما فى كتبهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) وقيل المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وقيل أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ، وجملة (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى نفى الارتياب عنهم فى الدّين ، أو فى أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن فى قلبه شك (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) المراد بالذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق ، فهو إخبار بما سيكون فى المدينة ، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشكّ والريب ، وهو كائن فى الكفار . قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض فى هذه الآية الخلاف ، والمراد بقوله (والكافرون) كفار العرب من أهل مكة وغيرهم ، ومعنى (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل . قال الليث : المثل الحديث ، ومنه قوله ـ مثل الجنة التى وعد المتقون ـ أي حديثها والخبر عنها (كذلك يضلّ الله من يشاء) أي مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره ، وهو قوله (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ، يضلّ الله من يشاء) من عباده ، والكاف نعت مصدر محذوف (ويهدى من يشاء) من عباده ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضلّ الله من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته ، وقيل المعنى : كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ويهدى إليها من يشاء (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد . وقال عطاء : يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لايعلم عدّتهم إلا الله ، والمعنى : أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه . ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال (وما هى إلا ذكرى للبشر) أي وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم ، وقيل (وما هى) أى الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر . وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة ، وهو بعيد . وقيل ما هى أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله وأنه لايحتاج إلى أعوان وأنصار ، وقيل الضمير فى (وما هى) يرجع إلى الجنود . ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال (كلا والقمر) قال الفراء : كلا صلة للقسم ، التقدير : أى والقمر ، وقيل المعنى : حقا والقمر . قال ابن جرير : المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم : أى ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر

وبما بعده ، وهذا هو الظاهر من معنى الآية (والليل إذ أدبر) أى ولى . قرأ الجمهور « إذا » بزيادة الألف ، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان ، وقرأ نافع وحفص وحمزة « إذ » بدون ألف ، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ، ودبر وأدبر لغتان ، كما يقال أقبل الزمان وقبل الزمان ، يقال دبر الليل وأدبر : إذا تولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين (إنها لإحدى الكبر) هذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر : أى إنّ سقر لإحدى الدواهى أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى ، وقال مقاتل : إن الكبر اسم من أسماء النار وقيل إنها : أى تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر ، وقيل إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، ومنه قول الشاعر :

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر داهية الدهر وصماء الغير

قرأ الجمهور « لإحدى » بالهمزة ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه « إنها لحدى » بدون همزة . وقال الكلبي : أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها (نذيرا للبشر) انتصاب نذيرا على الحال من الضمير فى إنها ، قاله الزجاج . وروى عنه وعن الكسائى وأبى علىّ الفارسى أنه حال من قوله « قم فأنذر » أى قم يامحمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر . وقال الفراء : هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدّر ، وقيل إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كأنه قيل أعظم الكبر إنذارا ، وقيل إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة ، وقيل منصوب بإضمار أعنى ، وقيل منصوب بتقدير ادع ، وقيل منصوب بتقدير ناد أو بلغ ، وقيل إنه مفعول لأجله ، والتقدير : وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر . قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبىّ بن كعب وابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هى نذير ، أو هو نذير .

وقد اختلف فى النذير ، فقال الحسن : هى النار ، وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال أبو رزين : المعنى أنا نذير لكم منها ، وقيل القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد (لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر) هو بدل من قوله للبشر : أى نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الطاعة أو يتأخر عنها ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر ، وقيل فاعل المشيئة هو الله سبحانه : أى لمن شاء الله أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر ، والأوّل أولى . وقال السدّى : لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما سمع أبوجهل (عليها تسعة عشر) . قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم ؟ وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا) قال : قال أبو الأشدّ : خلوا بينى وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم ، قال : وحدّثت أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وصف خزّان جهنم فقال « كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصى يجرّون أشعارهم ، لهم مثل قوّة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدّثهم عن ليلة أسرى به قال : فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا ، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية (وما يعلم جنود ربك إلا هو) » . وأخرج أحمد عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » . وأخرجه الترمذى وابن ماجه . قال الترمذى : حسن غريب ، ويروى عن

أبي ذرّ موقوفا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (إذ أدبر) قال : دبور ظلامه . وأخرج مسدّد في مسنده وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله (والليل إذ أدبر) فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان ناداني يامجاهد هذا حين دبر الليل . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر) قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠)
عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ
نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦)
حَتَّىٰ أَتَيْنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ
مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ
مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

قوله (كلّ نفس بما كسبت رهينة) أي مأخوذة بعملها ومرتهنة به ، إما خلصها وإما أوبقها ، والرهينة اسم بمعنى الرهن ، كالشيمة بمعنى الشيم ، وليست صفة ، ولو كانت صفة لقيل رهين ، لأن فعيلا يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والمعنى : كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة (إلا أصحاب اليمين) فإنهم لايرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم .

واختلف في تعيينهم ، فقيل هم الملائكة ، وقيل المؤمنون ، وقيل أولاد المسلمين ، وقيل الذين كانوا عن يمين آدم ، وقيل أصحاب الحقّ ، وقيل هم المعتمدون على الفضل دون العمل ، وقيل هم الذين اختارهم الله لخدمته (في جنات) هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله ، ويجوز أن يكون في جنات حالا من أصحاب اليمين ، وأن يكون حالا من فاعل يتساءلون ، وأن يكون ظرفا ليتساءلون . وقوله (يتساءلون) يجوز أن يكون على بابه : أي يسأل بعضهم بعضا ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون : أي يسألون غيرهم ، نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأوّل يكون (عن المجرمين) متعلقا بيتساءلون : أي يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين ، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة : أي يسألون المجرمين ، وقوله (ماسلككم في سقر) هو على تقدير القول : أي يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم : ماسلككم في سقر ، أو يسألونهم قائلين لهم : ماسلككم في سقر ، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال ، والمعنى : ما أدخلكم في سقر ، تقول سلكت الخيط في كذا : إذا دخلته فيه . قال الكلبي : يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يافلان ماسلكك في النار . وقيل إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم : ماسلككم في سقر . قال الفراء : في هذا مايقوّي أن أصحاب اليمين هم الولدان ، لأنهم

لايعرفون الذنوب . ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال (قالوا لم نك من المصلين) أى من المؤمنين الذين يصلون لله فى الدنيا (ولم نك نطعم المسكين) أى لم نتصدق على المساكين ، قيل وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة ، لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات (وكنا نخوض مع الخائضين) أى نخالط أهل الباطل فى باطلهم . قال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . وقال السدّى : كنا نكذب مع المكذبين . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قولهم كاذب مجنون ساحر شاعر (وكنا نكذب بيوم الدين) أى بيوم الجزاء والحساب (حتّى أتانا اليقين) وهو الموت ، كما فى قوله ـ واعبد ربك حتّى يأتيك اليقين ـ (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى شفاعة الملائكة والنبيين كما تنفع الصالحين (فما لهم عن التذكرة معرضين) التذكرة التذكير بمواعظ القرآن ، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ماقبله من موجبات الإقبال عليها ، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور : أى أىّ شىء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى . ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بالحمر فقال (كأنهم حمر مستنفرة) والجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل ، ومعنى مستنفرة نافرة ، يقال نفر واستنفر ، مثل عجب واستعجب ، والمراد الحمر الوحشية . قرأ الجمهور « مستنفرة » بكسر الفاء : أى نافرة ، وقرأ نافع وابن عامر بفتحها : أى منفرة مذعورة ، واختار القراءة الثانية أبوحاتم وأبوعبيد . قال فى الكشاف : المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له ، وحملها عليه (فرّت من قسورة) أى من رماة يرمونها ، والقسور الرامى ، وجمعه قسورة قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان ، وقيل هو الأسد قاله عطاء والكلبى . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع ، وقيل القسورة أصوات الناس ، وقيل القسورة بلسان العرب الأسد وبلسان الحبشة الرماة . وقال ابن الأعرابى : القسورة أوّل الليل : أى فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأوّل أولى ، وكلّ شديد عند العرب فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يابنت كونى خيرة لخيره أخوالها الحىّ وأهل القسوره

ومنه قول لبيد : إذا ماهتفنا هتفة فى ندينا أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال كأنه القسوّر الرهال

(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لايكتفون بتلك التذكرة بل يريد . قال المفسرون : إن كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله . والصحف الكتب واحدتها صحيفة ، والمنشرة المنشورة المفتوحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ـ حتّى تنزل علينا كتابا نقرؤه ـ قرأ الجمهور « منشرة » بالتشديد . وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف . وقرأ الجمهور أيضا بضم الحاء من صحف . وقرأ سعيد بن جبير بإسكانها . ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال (كلا بل لايخافون الآخرة) يعنى عذاب الآخرة لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات ، وقيل كلا بمعنى حقا . ثم كرّر الردع والزجر لهم فقال (كلا إنه تذكرة) يعنى القرآن ، أو حقا إنه تذكرة ، والمعنى : أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء أن يتعظ به اتعظ ، ثم ردّ سبحانه المشيئة

إلى نفسه فقال (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) قرأ الجمهور « يذكرون » بالياء التحتية . وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية ، واتفقوا على التخفيف ، وقوله « إلا أن يشاء الله » استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال . قال مقاتل : إلا أن يشاء الله لهم الهدى (هو أهل التقوى) أى هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته (وأهل المغفرة) أى هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين مافرط منهم من الذنوب والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (كل نفس بما كسبت رهينة) قال : مأخوذة بعملها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (إلا أصحاب اليمين) قال : هم المسلمون . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب (إلا أصحاب اليمين) قال : هم أطفال المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (حتى أتانا اليقين) قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى موسى الأشعرى فى قوله (فرّت من قسورة) قال : هم الرماة رجال القسىّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : القسورة الرجال الرماة القنص . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى جمرة قال : قلت لابن عباس : القسورة الأسد ، فقال : ماأعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصبة الرجال . وأخرج سفيان ابن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس (من قسورة) قال : هو ركز الناس : يعنى أصواتهم . وأخرج أحمد والدارمى والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدىّ وصححه وابن مردويه عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) فقال : قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعا نحوه .

تفسير سورة القيامة

هى تسع وثلاثون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة القيامة ، وفى لفظ سورة لا أقسم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت سورة لا أقسم بمكة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسٰنُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قٰدِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤)
وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧)
فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠)
وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ
بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥).

قوله (لا أقسم بيوم القيامة) قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين : إنّ لا زائدة ، والتقدير : أقسم . قال السمرقندى : أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم : أقسم ، واختلفوا فى تفسير لا ، فقال : بعضهم : هى زائدة ، وزيادتها جارية فى كلام العرب كما فى قوله ـ مامنعك ألا تسجد ـ يعنى أن تسجد ، و ـ لئلا يعلم أهل الكتاب ـ ومن هذا قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة   وكاد صميم القلب لايتقطع

وقال بعضهم : هى ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفرّاء وكثير من النحويين ، كقول القائل لا والله ، فلا ردّ لكلام قد تقدّمها ، ومنه قول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى   لا يدّعى القوم أنى أفر

وقيل هى للنفى ، لكن لا لنفى الإقسام ، بل لنفى ماينبىء عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . وقيل إنها لنفى الإقسام لوضوح الأمر ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير قوله ـ فلا أقسم بمواقع النجوم ـ وقرأ الحسن وابن كثير فى رواية عنه والزهرى وابن هرمز «لأقسم» بدون ألف على أن اللام لام الابتداء ، والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال ، وقد اعترض عليه الرازى بما لايقدح فى قوّته ولا يفتّ فى عضد رجحانه ، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته (ولا أقسم بالنفس اللوّامة) ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوّامة كما أقسم بيوم القيامة ، فيكون الكلام فى لا هذه كالكلام فى الأولى ، وهذا قول الجمهور . وقال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة . قال الثعلبى : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا ، ومعنى النفس اللوّامة : النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره ، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ، لايرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا ، والفاجر لايعاتب نفسه . قال مجاهد : هى التى تلوم على مافات وتندم ، فتلوم نفسها على الشرّ لم تعمله ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ قال الفرّاء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءا قالت : ليتنى لم أفعل . وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس ، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا . وقيل اللوّامة هى الملومة المذمومة ، فهى صفة ذمّ ، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسما ، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم به . قال مقاتل : هى نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر فى الآخرة على مافرط فى جنب الله ، والأوّل أولى (أيحسب

الإنسان أن لن نجمع عظامه) المراد بالإنسان الجنس ، وقيل الإنسان الكافر ، والهمزة للإنكار ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، والمعنى : أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتا ، فنعيدها خلقا جديدا ، وذلك حسبان باطل ، فإنا نجمعها ، وما يدلّ عليه هذا الكلام هو جواب القسم . قال الزجاج : أقسمُ بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة ليجمعنّ العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف : أى ليبعثنّ ، والمعنى : أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق (بلى قادرين على أن نسوّى بنانه) بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام ، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله « قادرين » وانتصاب قادرين على الحال : أى بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر ، وقيل المعنى : بل نجمعها نقدر قادرين . قال الفراء : أى نقدر ، ونقوى قادرين على أكثر من ذلك . وقال أيضا : إنه يصلح نصبه على التكرير : أى بلى فليحسبنا قادرين ، وقيل التقدير : بلى كنا قادرين . وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميفع (بلى قادرون) على تقدير مبتدأ : أى بلى نحن قادرون ، ومعنى (على أن نسوّى بنانه) على أن نجمع بعضها إلى بعض ، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها ، فكيف بكبار الأعضاء ، فنبه سبحانه بالبنان ، وهى الأصابع على بقية الأعضاء ، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى فى القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق ، فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة . وقال جمهور المفسرين : إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا ، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لاشقوق فيها ، فلا يقدر على أن ينتفع بها فى الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها . وقيل المعنى : بل نقدر على أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ، والأوّل أولى ، ومنه قول عنترة :

وإن الموت طوع يدى إذا ما   وصلت بنانها بالهندوان

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) هو عطف على أيحسب ، إما على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام . والمعنى : بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة . قال ابن الأنبارى : يريد أن يفجر ما امتدّ عمره ، وليس فى نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه . قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدّى وسعيد بن جبير : يقول سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت ، وهو على أشرّ أحواله . قال الضحاك : هو الأمل ، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ، ولا يذكر الموت ، والفجور أصله الميل عن الحقّ ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل ، ومنه قول الشاعر :

أقسم بالله أبو حفص عمر   ما مسها من نقب ولا دبر   اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة (يسأل أيان يوم القيامة) مستأنفة لبيان معنى يفجر ، والمعنى : يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء (فإذا برق البصر) أى فزع وتحير من برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . قرأ الجمهور « برق » بكسر الراء . قال أبوعمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما : المعنى تحير فلم يطرف ، ومنه قول ذى الرّمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرّضت   لعينيه ميّ بسافرا كاد يبرق

وقال الخليل والفراء : برق بالكسر : فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت : قد برق فهو برق ، وأنشد الفرّاء :

ونفسك فانـع ولا تنعني وداو الكلوم ولا تبرق

أى لاتفزع من كثرة الكلوم التى بك . وقرأ نافع وأبان عن عاصم « برق » بفتح الراء : أى لمع بصره من شدة شخوصه للموت . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل برق يبرق شق عينيه وفتحهما . وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى (وخسف القمر) قرأ الجمهور « خسف » بفتح الخاء والسين مبنيا للفاعل . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى والأعرج وابن أبى عبلة وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنيا للمفعول ، ومعنى خسف القمر : ذهب ضوءه ولا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا ، ويقال خسف : إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف : إذا ذهب بعض ضوئه (وجمع الشمس والقمر) أى ذهب ضوءهما جميعا ، ولم يقل جمعت لأن التأنيث مجازى ، قاله المبرد . وقال أبو عبيدة : هو لتغليب المذكر على المؤنث . وقال الكسائى : حمل على معنى جمع النيران . وقال الزجاج والفراء : ولم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما ، وقيل جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى . وقيل تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار . وقرأ ابن مسعود « وجمع بين الشمس والقمر » (يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ) أى يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفرّ : أى الفرار ، والمفرّ مصدر بمعنى الفرار . قال الفراء : يجوز أن يكون موضع الفرار ، ومنه قول الشاعر :

أين المفرّ والكباش تنتطح وكل كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردى : يحتمل وجهين : أحدهما أين المفرّ من الله سبحانه استحياء منه . والثانى أين المفرّ من جهنم حذرا منها . قرأ الجمهور « أين المفرّ » بفتح الميم والفاء مصدرا كما تقدم . وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان : أى أين مكان الفرار . وقال الكسائى : هما لغتان مثل مدب ومدب ومصح ومصح ، وقرأ الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار ، ومنه قول امرىء القيس :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

أى جيد الفرّ والكرّ (كلا لا وزر) أى لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله . وقال ابن جبير : لا محيص ولا منعة . والوزر فى اللغة : مايلجأ إليه الإنسان من حصن ، أو جبل أو غيرهما ، ومنه قول طرفة :

ولقد تعـلم بكر أننا فاضلو الرأى وفى الروع وزر

وقال آخر :

لعمرى ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

قال السدّى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال لهم الله : لا وزر يعصمكم منى يومئذ ، وكلا للردع ، أو لنفى ما قبلها ، أو بمعنى حقا (إلى ربك يومئذ المستقر) أى المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره ، وقيل إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره ، وقيل المستقر : الاستقرار حيث يقرّه الله (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أى يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشرّ . وقال قتادة : بما عمل من طاعة ، وما أخر من طاعة فلم يعمل بها . وقال زيد بن أسلم : بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة . وقال مجاهد : بأول عمله وآخره . وقال الضحاك : بما قدّم من فرض وأخر من فرض . قال القشيرى : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت . قال القرطبى : والأوّل أظهر (بل الإنسان على نفسه بصيرة) ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان ، على نفسه متعلق ببصيرة . قال الأخفش : جعله هو البصيرة كما تقول للرجل : أنت حجة على نفسك ،

وقيل المعنى : إن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما فى قوله ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ وأنشد الفرّاء :

كأن على ذى العقل عينا بصيرة   بمقعده أو منظر هو ناظر

فيكون المعنى : بل جوارح الإنسان عليه شاهدة . قال أبو عبيدة والقتيبي : إن هذه الهاء فى بصيرة هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما فى قولهم : علامة . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان مايكون منه من خير وشرّ ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أى بصير بعيوب نفسه (ولو ألقى معاذيره) أى ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك . يقال معذرة ومعاذير . قال الفرّاء : أى وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره . وقال الزجاج : المعاذير الستور ، والواحد معذار : أى وإن أرخى الستور يريد أن يخفى نفسه فنفسه شاهدة عليه ، كذا قال الضحاك والسدّى . والستر بلغة اليمن يقال له معذار ، كذا قال المبرد ، ومنه قول الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة   علينا وأطت يومها بالمعاذر

والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ، ومثله قوله ـ يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ـ وقوله ـ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ـ وقول الشاعر :

فما حسن أن يعذر المرء نفسه   وليس له من سائر الناس عاذر

(لاتحرّك به لسانك لتعجل به) كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصا على أن يحفظه صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت هذه الآية : أى لاتحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، ومثل هذا قوله ـ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ـ الآية (إن علينا جمعه) فى صدرك حتى لايذهب عليك منه شىء (وقرآنه) أى إثبات قراءته فى لسانك . قال الفرّاء : القراءة والقرآن مصدران . وقال قتادة فاتبع قرآنه : أى شرائعه وأحكامه (فإذا قرأناه) أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل (فاتبع قرآنه) أى قراءته (ثم إن علينا بيانه) أى تفسير مافيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل منه . قال الزجاج : المعنى علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس . وقيل المعنى : إن علينا أن نبينه بلسانك (كلا بل تحبون العاجلة) كلا للردع عن العجلة والترغيب فى الأناة ، وقيل هى ردع لمن لايؤمن بالقرآن وبكونه بينا من الكفار . قال عطاء : أى لايؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه . قرأ أهل المدينة والكوفيون « بل تحبون » (وتذرون) بالفوقية فى الفعلين جميعا . وقرأ الباقون بالتحتية فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعا وتوبيخا ، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس ، والمعنى : تحبون الدنيا وتتركون (الآخرة) فلا تعملون لها (وجوه يومئذ ناضرة) أى ناعمة غضة حسنة ، يقال : شجر ناضر وروض ناضر : أى حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنه وبهجته . قال الواحدى والمفسرون : يقولون مضيئة مسفرة مشرقة (إلى ربها ناظرة) هذا من النظر : أى إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة : أى تنظر إليه ، هكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به ماتواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر . قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام . وقال مجاهد : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروى نحوه عن عكرمة ، وقيل لايصح هذا إلا عن مجاهد وحده . قال الأزهرى : وقول مجاهد خطأ لأنه لايقال

نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، إذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرته كما فى قول الشاعر :

فإنكما إن تنظرانى ساعة   من الدهر تنفعنى لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه كما قال الشاعر :

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لقفال

وقول الآخر :   إنى إليك لما وعدت لناظر   نظر الفقير إلى الغنىّ الموسر

أى أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنىّ ، وأشعار العرب وكلماتهم فى هذا كثيرة جدّا . ووجوه مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة لأن المقام مقام تفصيل ، وناضرة صفة لوجوه ، ويومئذ ظرف لناضرة ، ولو لم يكن المقام مقام تفضيل لكان وصف النكرة بقوله « ناضرة » مسوّغا للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرّده مسوّغ للابتداء بالنكرة (ووجوه يومئذ باسرة) أى كالحة عابسة كئيبة . قال فى الصحاح : بسر الرجل وجهه بسورا : أى كلح . قال السدّى : باسرة : أى متغيرة ، وقيل مصفرّة ، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار (تظنّ أن يفعل بها فاقرة) الفاقرة : الداهية العظيمة ، يقال فقرته الفاقرة : أى كسرت فقار ظهره . قال قتادة : الفاقرة الشرّ ، وقال السدّى : الهلاك ، وقال ابن زيد : دخول النار . وأصل الفاقرة : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص إلى العظم ، كذا قال الأصمعى ، ومن هذا قولهم : قد عمل به الفاقرة . قال النابغة :

أبا لى قبر لا يزال مقابلى   وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله (لا أقسم بيوم القيامة) قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه ، قلت (ولا أقسم بالنفس اللوّامة) قال النفس اللؤوم ، قلت (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّى بنانه) قال : لو شاء لجعله خفا أو حافرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (اللوّامة) قال : المذمومة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : التى تلوم على الخير والشرّ تقول : لو فعلت كذا وكذا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : تندم على مافات وتلوم عليه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) قال : يمضى قدما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو الكافر الذى يكذب بالحساب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : يعنى الأمل يقول : أعمل ثم أتوب . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الأمل والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى الآية قال : يقدّم الذنب ويؤخر التوبة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه أيضا (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) يقول : سوف أتوب (يسأل أيان يوم القيامة) قال : يقول متى يوم القيامة ، قال فبين له (فإذا برق البصر) . وأخرج ابن جرير عنه قال (إذا برق البصر) يعنى الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله (لا وزر) قال : لا حصن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (لا وزر) قال : لا حصن ولا ملجأ ، وفى لفظ : لا حرز ، وفى لفظ : لا جبل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر) قال : بما قدّم من عمل ، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه فى قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة) قال : شهد على نفسه وحده (ولو ألقى معاذيره) قال : ولو اعتذر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (بل الإنسان على نفسه بصيرة) قال : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه (ولو ألقى معاذيره) قال : ولو تجرّد من ثيابه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرّك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله (لاتحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه) قال : يقول إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه (فإذا قرأناه) يقول : إذا أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه) فاستمع له وأنصت (ثم إنّ علينا بيانه) أن نبينه بلسانك ، وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفى لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (فإذا قرأناه) قال : بيناه (فاتبع قرآنه) يقول : اعمل به . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن مسعود فى قوله (كلا بل تحبون العاجلة) قال : عجلت لهم الدنيا شرّها وخيرها وغيبت الآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (وجوه يومئذ ناضرة) قال : ناعمة .وأخرج ابن المنذر والآجرى فى الشريعة واللالكائى فى السنة والبيهقى فى الرؤية عنه (وجوه يومئذ ناضرة) قال : يعنى حسنها (إلى ربها ناظرة) قال : نظرت إلى الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (إلى ربها ناظرة) قال تنظر إلى وجه ربها . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال : ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدّ محدود ولا صفة معلومة » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : « قال الناس : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فهل تضارّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة نحوه . وقد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها ، وهى تأتى فى مصنف مستقلّ ، ولم يتمسك من نفاها واستبعدها بشىء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله . وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والدارقطنى والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) » . وأخرجه أحمد فى المسند من حديثه بلفظ « إن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرّتين » . وأخرج النسائى والدارقطنى وصححه وأبو نعيم عن أبى هريرة قال « قلنا يارسول الله هل نرى ربنا ؟ قال : هل ترون الشمس فى يوم لاغيم فيه ، وترون القمر فى ليلة لاغيم فيها ؟ قلنا نعم ، قال : فإنكم سترون ربكم عزّ وجلّ ، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول : عبدى هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لى ؟ فيقول : بمغفرتى صرت إلى هذا » .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ

وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠).

قوله (كلا) ردع وزجر : أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ، ثم استأنف ، فقال (إذا بلغت التراقى) أى بلغت النفس أو الروح التراقى ، وهى جمع ترقوة ، وهى عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله ـ فلولا إذا بلغت الحلقوم ـ وقيل معنى «كلا» حقا : أى حقا أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقى ، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت . قال دريد بن الصمة :

وربّ كريهة دافعت عنها   وقد بلغت نفوسهم التراقى

(وقيل من راق) أى قال من حضر صاحبها من يرقيه ويشتفى برقيته ؟ . قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا ، وبه قال أبو قلابة ، ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقى   أم هل له من حمام الموت من راقى

وقال أبو الجوزاء : هو من رقى يرقى إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء أم ئكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل إنه يقول ذلك ملك الموت ، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها (وظنّ أنه الفراق) أى وأيقن الذى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد (والتفت الساق بالساق) أى التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به . وقال جمهور المفسرين : المعنى تتابعت عليه الشدائد . وقال الحسن : هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد بن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوّالا عليهما . وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه . وبه قال ابن زيد . والعرب لاتذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار ، والمحن العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق . وقيل الساق الأوّل تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر شدّة البعث وما بعده (إلى ربك يومئذ المساق) أى إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه (فلا صدق ولا صلى) أى لم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن ، ولا صلى لربه ، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور فى أوّل هذه السورة . قال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلى لله ، وقيل فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى لا بمعنى لم ، وكذا قال الأخفش : والعرب تقول : لا ذهب أى لم يذهب ، وهذا مستفيض فى كلام العرب ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما   وأىّ عبد لك لا ألما

(ولكن كذب وتولى) أى كذّب بالرسول وبما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) أى يتبختر ويختال فى مشيته افتخارا بذلك . وقيل هو مأخوذ من المطى وهو الظهر ، والمعنى يلوى مطاه . وقيل أصله يتمطط ، وهو التمدّد والتثاقل : أى يتثاقل ويتكاسل عن الداعى إلى الحق (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) أى وليك الويل ، وأصله أولاك الله ماتكرهه ، واللام مزيدة كما فى ـ ردف لكم ـ وهذا تهديد شديد ،

والتكرير للتأكيد : أى يتكرر عليك ذلك مرة بعد مره . قال الواحدى : قال المفسرون : أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد أبى جهل ، ثم قال (أولى لك فأولى) فقال أبو جهل : بأىّ شىء تهدّدنى لاتستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، وإنى لأعزّ أهل هذا الوادى ، فنزلت هذه الآية . وقيل معناه : الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

همت بنفسى بعض الهمو م فأولى لنفسى أولى لها

وعلى القول بأنه الويل ، قيل هو من المقلوب كأنه قيل : أويل لك ، ثم أخر الحرف المعتل . قيل ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات ، والويل لك حيا ، والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار . وقيل المعنى : إن الذمّ لك أولى لك من تركه . وقيل المعنى : أنت أولى وأجدر بهذا العذاب قاله ثعلب . وقال الأصمعى : أولى فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك . قال المبرّد : كأنه يقول : قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولى ، وهو القرب ، وأنشد الفراء : * فأولى أن يكون لك الولاء * أى قارب أن يكون لك ، وأنشد أيضا : * أولى لمن هاجت له أن يكمدا * (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى هملا لايؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ، وقال السدى : معناه المهمل ، ومنه إبل سدى : أى ترعى بلا راع ، وقيل المعنى : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لايبعث ، وجملة (ألم يك نطفة من منىّ يمنى) مستأنفة : أى ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منىّ يراق فى الرحم ، وسمى المنىّ منيا لإراقته ، والنطفة : الماء القليل ، يقال نطف الماء : إذا قطر . قرأ الجمهور « ألم يك » بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان . وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له . وقرأ الجمهور أيضا « تمنى » بالفوقية على أن الضمير للنطفة . وقرأ حفص وابن محيصن ومجاهد ويعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، واختارها أبو حاتم (ثم كان علقة) أى كان بعد النطفة علقة : أى دما (فخلق) أى فقدّر بأن جعلها مضغة مخلقة (فسوّى) أى فعدّله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح (فجعل منه) أى حصل من الإنسان ، وقيل من المنىّ (الزوجين) أى الصنفين من نوع الإنسان . ثم بين ذلك فقال (الذكر والأنثى) أى الرجل والمرأة (أليس ذلك) أى ليس ذلك الذى أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه (بقادر على أن يحيى الموتى) أى يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا ، فإن الإعادة أهون من الابتداء ، وأيسر مؤنة منه . قرأ الجمهور « بقادر » وقرأ زيد بن علىّ « يقدر » فعلا مضارعا ، وقرأ الجمهور « يحيى » بنصبه بأن . وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا ، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقيل من راق) قال : تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه ، قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب (والتفت الساق بالساق) قال : التفت عليه الدنيا والآخرة وملائكة العذاب أيهم يرقى به . وأخرج عبد بن حميد عنه (وقيل من راق) قل من راق يرقى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (والتفت الساق بالساق) يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدّة بالشدّة إلا من رحم الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (يتمطى) قال : يختال . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله (أولى لك فأولى) أشىء قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبى جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أن يترك سدى) قال :

هملا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عن صالح أبي الخليل قال : « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال : سبحانك اللهم وبلى » . وأخرج ابن مردويه عن البراء ابن عازب قال : لما نزلت هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سبحانك ربي وبلى » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند قراءته لهذه الآية « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ـ أليس الله بأحكم الحاكمين ـ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى قوله ـ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ـ فليقل بلى ، ومن قرأ والمرسلات عرفا ـ فبلغ ـ فبأيّ حديث بعده يؤمنون ـ فليقل آمنا بالله » وفى إسناده رجل مجهول . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا قرأت لا أقسم بيوم القيامة فبلغت ـ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ـ فقل بلى » .

تفسير سورة الإنسان

هى إحدى وثلاثون آية

قال الجمهور : هى مدنية . وقال مقاتل والكلبي : هى مكية . وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وقيل فيها مكى من قوله (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) إلى آخر السورة ، وما قبله مدنيّ . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سل واستفهم ، فقال : يارسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوّة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به : أنى كائن معك فى الجنة ، قال نعم والذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام ، ثم قال : من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله . ومن قال : سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ونزلت هذه السورة (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) إلى قوله (ملكا كبيرا) فقال الحبشيّ : وإن عينى لترى ماترى عيناك فى الجنة ، قال نعم ، فاشتكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدليه فى حفرته بيده . وأخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال : حدّثنى الثقة « أن رجلا أسود كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن التسبيح والتهليل ، فقال له عمر بن الخطاب : أكثرت على رسول الله ، فقال : مه ياعمر . وأنزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هل أتى على الإنسان حين من الدهر حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : مات شوقا إلى الجنة » . وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن منيع وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والضياء عن أبى ذرّ قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هل أتى على الإنسان) حتى ختمها ، ثم قال : إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطت السماء وحقّ لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجلّ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسٰنِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسٰنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنٰهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكٰفِرِينَ سَلٰسِلَا وَأَغْلٰلًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقٰيهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزٰهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) .

حكى الواحدى عن المفسرين وأهل المعانى أن (هل) هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام ، وقد قال بهذا سيبويه والكسائى والفراء وأبو عبيدة . قال الفراء : هل تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر لأنك تقول : هل أعطيتك تقرّره بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا ، وقيل هى وإن كانت بمعنى قد نفيها معنى الاستفهام ، والأصل أهل أتى ، فالمعنى : أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب ، والمراد بالإنسان هنا آدم ، قاله قتادة والثورى وعكرمة والسدّى وغيرهم (حين من الدهر) قيل أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقيل إنه خلق من طين أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وقيل الحين المذكور هنا لايعرف مقداره وقيل المراد بالإنسان بنو آدم ، والحين مدّة الحمل ، وجملة (لم يكن شيئا مذكورا) فى محل نصب على الحال من الإنسان ، أو فى محل رفع صفة لحين . قال الفراء وقطرب وثعلب : المعنى أنه كان جسدا مصوّرا ترابا وطينا لايذكر ولايعرف ولايدرى ما اسمه ولاما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا ، وقيل ليس المراد بالذكر هنا الإخبار ، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف ، كما فى قوله ـ وإنه لذكر لك ولقومك ـ . قال القشيرى : ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله سبحانه . قال الفراء : كان شيئا ولم يكن مذكورا . فجعل النفى متوجها إلى القيد . وقيل المعنى : قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان (إنا خلقنا الإنسان من نطفة) المراد بالإنسان هنا ابن آدم . قال القرطبى : من غير خلاف ، والنطفة : الماء الذى يقطر ، وهو المنىّ وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة ، وجمعها نطف ، و (أمشاج) صفة لنطفة ، وهى جمع مشج ، أو مشيج ، وهى

الأخلاط ، والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما . يقال مشج هذا بهذا فهو ممشوج : أى خلط هذا بهذا فهو مخلوط . قال المبرد : مشج يمشج إذا اختلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم . قال رؤبة بن العجاج :

يطرحن كل معجل مشاج لم يكس جلدا من دم أمشاج

قال الفراء : أمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال مشج هذا : إذا خلط ، وقيل الأمشاج : الحمرة فى البياض والبياض فى الحمرة . قال القرطبي : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة . قال الهذلى :

كأن الريش والفوقين منه خلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد . قال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة . وقيل الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة ، وجملة (نبتليه) فى محل نصب على الحال من فاعل خلقنا : أى مريدين ابتلاءه ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان ، والمعنى : نبتليه بالخير والشرّ وبالتكاليف . قال الفراء : معناه والله أعلم (جعلناه سميعا بصيرا) نبتليه وهى مقدّمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لايقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدّرة ، وقيل مقارنة . وقيل معنى الابتلاء : نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة ، والأوّل أولى . ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه مايصحّ معه الابتلاء فقال (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) أى بينا له وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشرّ كما فى قوله ـ وهديناه النجدين ـ قال مجاهد : أى بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك والسدّى وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم ، وقيل منافعه ومضارّه التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب شاكرا وكفورا على الحال من مفعول هديناه : أى مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا ، وقيل على الحال من سبيل على المجاز : أى عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا . وحكى مكيّ عن الكوفيين أن قوله إما هى إن شرطية زيدت بعدها ما : أى بينا له الطريق إن شكر وإن كفر . واختار هذا الفرّاء ، ولا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لاتدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكرا وكفورا . ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكرا وكفورا ، وتقديره : إن خلقناه شاكرا فشكور وإن خلقناه كافرا فكفور ، وهذا على قراءة الجمهور ـ إما شاكرا وإما كفورا ـ بكسر همزة إما . وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها ، وهى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب ، أو هى التفصيلية وجوابها مقدّر ، وقيل انتصب شاكرا وكفورا باضمار كان ، والتقدير : سواء كان شاكرا أو كان كفورا . ثم بين سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا) قرأ نافع والكسائى وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سلاسلا » بالتنوين ، ووقف قنبل عن ابن كثير وحمزة بغير ألف ، والباقون وقفوا بالألف . ووجه من قرأ بالتنوين فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ماقبله وهو ـ إما شاكرا وإما كفورا ـ ، وما بعده وهو ـ أغلالا وسعيرا ـ منوّن ؛ أو على لغة من يصرف جميع مالا ينصرف كما حكاه الكسائى وغيره من الكوفيين عن بعض العرب . قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل مالا ينصرف ، لأن الأصل فى الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها . قال الفراء : هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم : هو أظرف منك فإنهم لايجرّونه ، وأنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبينا

ومن ذلك قول الشاعر :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس ، وقول لبيد :

وجسور أستار دعوني لحتفها بمعالق متشابه أعلاقها

وقوله أيضا : نضلا وذو كرم بعين على الندى سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف ، وقيل إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف ، والسلاسل قد تقدم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هى القيود ، أو ما يجعل فى الأعناق كما فى قول الشاعر :

. . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غل تغل به الأيدى إلى الأعناق ، والسعير : الوقود الشديد ، وقد تقدم تفسير السعير . ثم ذكر سبحانه ما أعده للشاكرين فقال (إن الأبرار يشربون من كأس) الأبرار : أهل الطاعة والإخلاص ، والصدق جمع بر أو بار . قال فى الصحاح : جمع البر الأبرار ، وجمع البار البررة ، وفلان يبر خالقه ويبرره : أى يطيعه . وقال الحسن : البر الذى لايؤذى الذر . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر . والكأس فى اللغة هو الإناء الذى فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأسا ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة ، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصينى وغير ذلك ، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر كما فى قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

(كان مزاجها كافورا) أى يخالطها وتمزج به ، يقال مزجه يمزجه مزجا : أى خلطه يخلطه خلطا ، ومنه قول الشاعر : كأن سبية من بيت رأس كان مزاجها عسل وماء

وقول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
معتقة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

ومنه مزاج البدن ، وهو مايمازجه من الأخلاط ، والكافور قيل : هو اسم عين فى الجنة يقال لها الكافورى تمزج خمر الجنة بماء هذه العين . وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك . وقال عكرمة : مزاجها طعمها ، وقيل إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها . وقيل إنما أراد الكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ، لأن الكافور لايشرب كما فى قوله ـ حتى إذا جعله نارا ـ أى كنار . وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل . وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا ، وإنما سمى الله ماعنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب ، والجملة فى محل جر صفة لكأس . وقيل إن كان هنا زائدة : أى من كأس مزاجها كافورا (عينا يشرب بها عباد الله) انتصاب عينا على أنها بدل من كافورا ، لأن ماءها فى بياض الكافور . وقال مكى : إنها بدل من محل « من كأس » على حذف مضاف كأنه قيل : يشربون خمرا خمر عين ، وقيل إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون : أى عينا من كأس ، وقيل هى منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش وقيل منتصبة باضمار فعل يفسره مابعده : أى

يشربون عينا يشرب بها عباد الله ، والأول أولى ، وتكون جملة ـ يشرب بها عباد الله ـ صفة لعينا . وقيل إن الباء في يشرب بها زائدة ، وقيل بمعنى من قاله الزجاج ، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله . وقيل إن يشرب مضمن معنى يلتذّ ، وقيل هي متعلقة بيشرب ، والضمير يعود إلى الكأس . وقال الفراء : يشربها ويشرب بها سواء في المعنى ، وكأنّ يشرب بها يروى بها وينتفع بها ، وأنشد قول الهذلى : * شربن بماء البحر ثم ترفعت * قال : ومثله تكلم بكلام حسن ، وتكلم كلاما حسنا (يفجرونها تفجيرا) أي يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاءون ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقا كما يشقّ النهر ويفجر إلى هنا وهنا . قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم ، والجملة صفة أخرى لعينا ، وجملة (يوفون بالنذر) مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ماذكر ، وكذا ماعطف عليها ، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب ، والمعنى : يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات . قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما . وقال عكرمة : يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه ، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم . قال الفراء : في الكلام إضمار : أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا . وقال الكلبي : يوفون بالعهد : أي يتممون العهد . والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص (ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا) المراد يوم القيامة ، ومعنى استطارة شرّه فشوّه وانتشاره ، يقال استطار يستطير استطارة فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، ومنه قول الأعشى :

فباتت وقد أثارت في الفؤا   د صدعا على نأيها مستطيرا

والعرب تقول : استطار الصدع في القارورة والزجاجة : إذا امتدّ ، ويقال استطار الحريق : إذا انتشر . قال الفرّاء : المستطير المستطيل . قال قتادة : استطار شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . قال مقاتل : كان شرّه فاشيا في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) أي يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم . قال مجاهد : على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ؛ فقوله على حبه في محل نصب على الحال : أي كائنين على حبه ، ومثله قوله ـ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ـ وقيل على حبّ الإطعام لرغبتهم في الخير . قال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام . وقيل الضمير في حبه يرجع إلى الله : أي يطعمون الطعام على حبّ الله : أي يطعمون إطعاما كائنا على حبّ الله ، ويؤيد هذا قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) والمسكين ذو المسكنة ، وهو الفقير ، أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم يتامى المسلمين ، والأسير الذي يؤسر فيحبس . قال قتادة ومجاهد : الأسير المحبوس . وقال عكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثمالى : الأسير المرأة . قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف في حق الأسير الكافر . وقال غيره : بل هي محكمة ، وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام ، وجملة (إنما نطعمكم لوجه الله) في محل نصب على الحال بتقدير القول : أي يقولون إنما نطعمكم ، أو قائلين إنما نطعمكم : يعني أنهم لايتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك . قال الواحدى : قال المفسرون : لم يستكلموا بهذا ولكن عامه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه (لانريد منكم جزاء ولا شكورا) أي لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقرّرة لما

قبلها ، لأن من أطعم لوجه الله لايريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) أى نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ، ومعنى عبوسا : أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى : أنه ذو عبوس . قال الفراء وأبو عبيدة والمبرد : يوم قمطرير وقماطر : إذا كان صعبا شديدا ، وأنشد الفراء :

بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ماكان يوم قماطر

قال الأخفش : القمطرير أشد مايكون من الأيام وأطوله فى البلاء ، ومنه قول الشاعر :

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائى : اقمطرّ اليوم وازمهرّ : إذا كان صعبا شديدا ، ومنه قول الشاعر :

بنو الحرب أوصينا لهم بقمطرة ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد : إن العبوس بالشفتين ، والقطمير بالجبهة والحاجبين ، فجعلهما من صفات المتغير فى ذلك اليوم لما يراه من الشدائد ، وأنشد ابن الأعرابى :

يقدر على الصيد بعود منكسر ويقمطر ساعة ويكفهر

قال أبو عبيدة : يقال قطمرير : أى منقبض مابين العينين والحاجبين . قال الزجاج : يقال اقمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها مايسبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم) أى دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه (ولقاهم نضرة وسرورا) أى أعطاهم بدل العبوس فى الكفار نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب . قال الضحاك : والنضرة البياض والنقاء فى وجوههم . وقال سعيد ابن جبير الحسن والبهاء ، وقيل النضرة أثر النعمة (وجزاهم بما صبروا) أى بسبب صبرهم على التكاليف ، وقيل على الفقر ، وقيل على الجوع ، وقيل على الصوم . والأولى حمل الآية على الصبر على كل شىء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، وما مصدرية ، والتقدير : بصبرهم (جنة وحريرا) أى أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه فى الدنيا امتثالا لما ورد فى الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم فى كلّ من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصا كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (هل أتى على الإنسان) قال : كل إنسان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (أمشاج) قال : أمشاجها عروقها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم (أمشاج) قال : العروق . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس (من نطفة أمشاج) قال : ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال (أمشاج) ألوان : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وحمراء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الأمشاج الذى يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ومنه يكون الولد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (كان شرّه مستطيرا) قال : فاشيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (وأسيرا) قال : هو المشرك . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (مسكينا) قال : فقيرا (ويتيما) قال لا أب له (وأسيرا) قال : المملوك والمسجون . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ويطعمون

الطعام) الآية قال : نزلت هذه الآية فى علىّ بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (يوما عبوسا) قال : ضيقا (قمطريرا) قال : طويلا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (يوما عبوسا قمطريرا) قال : يقبض ما بين الأبصار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال : القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه . وأخرج ابن المنذر عنه (ولقاهم نضرة وسرورا) قال : نضرة فى وجوههم وسرورا فى صدورهم .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) .

قوله (متكئين فيها على الأرائك) منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزى ، ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان فى الدنيا ، وجوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة . قال الفرّاء : وإن شئت جعلت متكئين تابعا ، كأنه قال : جزاهم جنة متكئين فيها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون منصوبا على المدح ، والضمير من فيها يعود إلى الجنة ، والأرائك : السرر فى الحجال ، وقد تقدّم تفسيرها فى سورة الكهف (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) الجملة فى محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة ، أو من الضمير فى متكئين ، فتكون من الحال المتداخلة ، أو صفة أخرى لجنة ، والزمهرير أشدّ البرد ، والمعنى : أنهم لا يرون فى الجنة حرّ الشمس ولا برد الزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمسا ولا زمهريرا

وقال ثعلب : الزمهرير القمر بلغة طىّ ، وأنشد لشاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

ويروى ما ظهر : أى لم يطلع القمر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة مريم (ودانية عليهم ظلالها) قرأ الجمهور « دانية » بالنصب عطفا على محل لا يرون ، أو على متكئين ، أو صفة لمحذوف : أى وجنة دانية ، كأنه قال : وجزاهم جنة دانية . وقال الزجاج : هو صفة لجنة المتقدم ذكرها . وقال الفرّاء : هو منصوب على المدح . وقرأ أبو حيوة « ودانية » بالرفع على أنه خبر مقدّم وظلالها مبتدأ مؤخر ، والجملة فى موضع النصب على الحال . والمعنى : أن

ظلال الأشجار قريبة منهم مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك . قال مقاتل : يعنى شجرها قريب منهم . وقرأ ابن مسعود « ودانيا عليهم » (وذللت قطوفها تذليلا) معطوف على دانية كأنه قال : ومذللة . ويجوز أن تكون الجملة فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار ، والمعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرا كثيرا بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك . قال النحاس : المذلل القريب المتناول ، ومنه قولهم حائط ذليل : أى قصير . قال ابن قتيبة : ذللت أدنيت ، من قولهم حائط ذليل : أى كان قصير السمك ، وقيل ذللت : أى جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) أى تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة ، والأكواب جمع كوب ، وهو الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ، ومنه قول عدىّ :

متكئ تقرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره فى سورة الزخرف (كانت قواريرا قواريرا من فضة) أى فى وصف القوارير فى الصفاء وفى بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، ولونها لون الفضة . قرأ نافع والكسائى وأبو بكر « قواريرا قواريرا » بالتنوين فيهما مع الوصل ، وبالوقف عليهما بالألف ، وقد تقدّم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله « سلاسلا » من هذه السورة ، وبينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع . وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف ، وقرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى . وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما ، والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى ، والجملة فى محل جرّ صفة لأكواب . قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها . قال الواحدى : قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة ، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير . قال الزجاج : القوارير التى فى الدنيا من الرمل ، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها ، وجملة (قدّروها تقديرا) صفة لقوارير . قرأ الجمهور « قدّروها » بفتح القاف على البناء للفاعل : أى قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر مايحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان . قال مجاهد وغيره : أتوا بها على قدر ريهم بغير زيادة ولا نقصان . قال الكلبى : وذلك ألذّ وأشهى ، وقيل : قدّرها الملائكة ، وقيل قدّرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص . وقرأ علىّ وابن عباس والسلمى والشعبى وزيد بن علىّ وعبيد بن عمير وأبو عمرو فى رواية عنه « قدّروها » بضم القاف وكسر الدال مبنيا للمفعول : أى جعلت لهم على قدر إرادتهم . قال أبو على الفارسى : هو من باب القلب ، قال : لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدّرت عليهم لا قدّروها ، لأنه فى معنى قدروا عليها . وقال أبو حاتم : التقدير قدّرت الأوانى على قدر ريهم ، فمفعول مالم يسمّ فاعله محذوف . قال أبو حيان : والأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال : قدّر ريهم منها تقديرا ، فحذف المضاف فصار قدّروها . وقال المهدوى : إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى ، وكأن الأصل قدّروا عليها فحذف حرف الجرّ كما أنشد سيبويه :

آليت حبّ العراق الدهر آكله والحب يأكله فى القرية السوس

أى آليت على حبّ العراق (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر ، وإذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس ، والمعنى : أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر ،

ممزوجة بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذّ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته . وقال مجاهد وقتادة : الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقرّبون . وقال مقاتل : هو زنجبيل لايشبه زنجبيل الدنيا (عينا فيها تسمى سلسبيلا) انتصاب عينا على أنها بدل من كأسا . ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدّر : أى يسقون عينا ، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض : أى من عين ، والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب : هذا شراب سلس ، وسلسال وسلسبيل : أى طيب لذيذ . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة اسم لماء فى غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ فى حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم كأسا يصفق بالرحيق السلسل

(ويطوف عليهم ولدان مخلدون) لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ، ووصف آنيتهم ، ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب . ومعنى (مخلدون) باقون على ماهم عليه من الشباب والطراوة والنضارة ، لايهرمون ولا يتغيرون ، وقيل معنى (مخلدون) لايموتون ، وقيل التخليد التحلية : أى محلون (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤا مفرّقا . قال عطاء : يريد فى بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما . قال أهل المعانى : إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم فى الخدمة ، ولو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم ، وقيل إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون لأنهنّ لايمتهنّ بالخدمة (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) أى وإذا رميت ببصرك هناك ، يعنى فى الجنة رأيت نعيما لايوصف ، وملكا كبيرا لايقادر قدره ، وثم ظرف مكان ، والعامل فيها رأيت . قال الفرّاء فى الكلام ما مضمرة : أى وإذا رأيت ما ثم ، كقوله ـ لقد تقطع بينكم ـ أى مابينكم . قال الزجاج معترضا على الفراء : إنه لايجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيت يتعدّى فى المعنى إلى ثم . والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثم ، ويعنى بثمّ الجنة . قال السدّى : النعيم مايتنعم به ، والملك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ، وكذا قال مقاتل والكلبى . وقيل إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدّر ولا منوىّ ، بل معناه : أن بصرك أينما وقع فى الجنة رأيت نعيما وملكا كبيرا (عاليهم ثياب سندس) قرأ نافع وحمزة وابن محيصن « عاليهم » بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، أو على أن عاليهم مبتدأ ، وثياب مرتفع بالفاعلية وإن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش . وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء ، وخبره : ثياب سندس ، واسم الفاعل مراد به الجمع . وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف فى محلّ رفع على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل فوقهم ثياب . قال الفرّاء : إن عاليهم بمعنى فوقهم ، وكذا قال ابن عطية . قال أبوحيان : عال وعالية اسم فاعل ، فيحتاج فى كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب ، وقد تقدّمه إلى هذا الزجاج وقال : هذا مما لانعرفه فى الظروف ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء ، ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم فى قوله (يطوف عليهم) أى على الأبرار (ولدان) عاليا الأبرار (ثياب سندس) أى يطوف عليهم فى هذه الحال . والثانى أن يكون حالا من الولدان : أى إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا فى حال علوّ الثياب أبدانهم . وقال أبو علىّ الفارسى العامل فى الحال إنما لقاهم نضرة وسرورا ، وإما جزاهم بما صبروا . قال : ويجوز أن يكون ظرفا . وقرأ ابن سيرين ومجاهد وأبوحيوة وابن أبى عبلة : عليهم ، وهى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة . واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود : عاليتهم . وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بتنوين

ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس ، و (خضر وإستبرق) على أن السندس نعت للثياب ، لأن السندس نوع من الثياب ، وعلى أن خضر نعت لسندس ، لأنه يكون أخضر وغير أخضر ، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس : أي وثياب إستبرق ، والجمهور من القرّاء اختلفوا فى خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه ؛ فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس ورفع إستبرق عطفا على ثياب : أى عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق . وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا للثياب ، وجرّ إستبرق نعت لسندس . واختار هذه القراءة أبوحاتم وأبو عبيد ، لأن الخضر أحسن ماكانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، والإستبرق من جنس السندس . وقرأ نافع وحفص برفع « خضر وإستبرق » لأن خضر نعت للثياب ، وإستبرق عطف على الثياب . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بجرّ « خضر وإستبرق » على أن خضر نعت للسندس ، وإستبرق معطوف على سندس . وقرءوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه ، قال : لأنه أعجمى ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب . والسندس : مارقّ من الديباج . والإستبرق : ماغلظ منه ، وقد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف (وحلوا أساور من فضة) عطف على يطوف عليهم . ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة وفى سورة فاطر ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ـ وفى سورة الحج ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ـ ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، أو أنه يلبس كل أحد منه ماتميل إليه نفسه من ذلك . ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) هذا نوع آخر من الشراب الذى يمنّ الله عليهم به . قال الفرّاء : يقول هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة . والمعنى : أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا . قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ماكان فى قلبه من غش وغلّ وحسد . قال أبو قلابة وإبراهيم النخعى : يؤتون بالطعام ، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك (إن هذا كان لكم جزاء) أى يقال لهم : إن هذا الذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم : أى ثوابا لها (وكان سعيكم مشكورا) أى كان عملكم فى الدنيا بطاعة الله مرضيا مقبولا ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير هو البرد الشديد . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اشتكت النار إلى ربها فقالت : ربّ أكل بعضى بعضا ، فجعل لها نفسين : نفسا فى الصيف ، ونفسا فى الشتاء ، فشدّة ماتجدون من البرد من زمهريرها ، وشدّة ماتجدون فى الصيف من الحرّ من سمومها » . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد بن السرىّ وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله (ودانية عليهم ظلالها) قال : قريبة (وذللت قطوفها تذليلا) قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما وقعودا ومضطجعين وعلى أىّ حال شاءوا . وفى لفظ قال : ذللت فيتناولون منها كيف شاءوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال (آنية من فضة) وصفاؤها كصفاء القوارير (قدّروها تقديرا) قال : قدّرت للكف . وأخرج عبد الرزاق

وسعيد بن منصور والبيهقى عنه قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة فى صفاء القوارير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ليس فى الجنة شىء إلا وقد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وأخرج الفريابى عنه أيضا فى قوله : (قدّروها تقديرا) قال : أتوا بها على قدر الفم لايفضلون شيئا ولا يشتهون بعدها شيئا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (قدّروها تقديرا) قال : قدّرتها السقاة . وأخرج ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد والبيهقى فى البعث عن ابن عمرو قال : إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وتلا هذه الآية (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) .

قوله (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) أى فرّقناه فى الإنزال ولم ننزله جملة واحدة . وقيل المعنى : نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون (فاصبر لحكم ربك) أى لقضائه ، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته . قيل وهذا منسوخ بآية السيف (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أى لاتطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال فى كفر ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك . قال الزجاج : إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت : لاتطع زيدا وعمرا ، فأطاع أحدهما كان غير عاص ، لأنه أمره أن لايطيع الاثنين ، فإذا قال : لاتطع منهم آثما أو كفورا دلّ ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لاتخالف الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت إنهما أهل أن يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع . وقال الفرّاء : « أو » هنا بمنزلة لا ، كأنه قال : ولا كفورا . وقيل المراد بقوله (آثما) عتبة بن ربيعة ، وبقوله (أو كفورا) الوليد بن المغيرة ، لأنهما قالا للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) أى دم على ذكره فى جميع الأوقات . وقيل المعنى : صلّ لربك أوّل النهار وآخره ، فأوّل النهار صلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر (ومن الليل فاسجد له) أى صلّ المغرب والعشاء . وقيل المراد الصلاة فى بعضه من غير تعيين ، ومن للتبعيض على كل تقدير (وسبحه ليلا طويلا) أى نزّهه عما لايليق به ، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها . وقيل المراد التطوّع فى الليل . قال ابن زيد وغيره : إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس . وقيل الأمر للندب . وقيل هو مخصوص بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (إنّ هؤلاء يحبون العاجلة) يعنى كفار مكة ومن هو موافق لهم . والمعنى : أنهم يحبون الدار العاجلة ، وهى دار الدنيا

(ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) أي يتركون ويدعون وراءهم : أي خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوما شديدا عسيرا ، وهو يوم القيامة ، وسمي ثقيلا لما فيه من الشدائد والأهوال . ومعنى كونه يذرونه وراءهم : أنهم لايستعدّون له ولا يعبئون به ، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاونا به واستخفافا بشأنه ، وإن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم (نحن خلقناهم) أي ابتدأنا خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا فى ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكا ولا استقلالا (وشددنا أسرهم) الأسر : شدّة الخلق ، يقال شدّ الله أسر فلان : أي قوّى خلقه . قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم . قال الحسن : شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب . قال أبو عبيد : يقال فرس شديد الأسر : أي الخلق. قال لبيد :

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك القتد

وقال الأخطل :

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

وقال ابن زيد : الأسر القوّة ، واشتقاقه من الإسار ، وهو القدّ الذى تشدّ به الأقتاب . ومنه قول ابن أحمر يصف فرسا :

يمشي بأوظفة شداد أسرها شمّ السنابك لا تقى بالجدجد

(وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا) أي لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وقيل المعنى : مسخناهم إلى أسمج صورة وأقبح خلقة (إنّ هذه تذكرة) يعني إن هذه السورة تذكير وموعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أي طريقا يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان والطاعة . والمراد إلى ثوابه أو إلى جنته (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أي وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلا إلا أن يشاء الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، والخير والشرّ بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، فمشيئة العبد مجرّدة لاتأتي بخير ولا تدفع شرّا ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير كما فى حديث « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى » . قال الزجاج أي لستم تشاءون إلا بمشيئة الله (إن الله كان عليما حكيما) فى أمره ونهيه : أي بليغ العلم والحكمة « يدخل من يشاء فى رحمته » أي يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده . قال عطاء : من صدقت نيته أدخله جنته (والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما) انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ماقبله : أي يعذب الظالمين ، نصب الظالمين لأن ماقبله منصوب أي يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين : أي المشركين ، ويكون أعدّ لهم تفسيرا لهذا المضمر ، والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور . وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (وشددنا أسرهم) قال : خلقهم . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة (وشددنا أسرهم) قال هي المفاصل .

تفسير سورة المرسلات

هي خمسون آية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال قتادة : إلا آية منها وهي قوله (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) فإنها مدنية ، وروى هذا عن ابن عباس . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة المرسلات بمكة . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « بينما نحن مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفا ، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : اقتلوها ، فابتدرناه فذهبت ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : وقيت شرّكم كما وقيتم شرّها » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن أمّ الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفا فقالت : يابنيّ لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها آخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في المغرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ (١٣) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) .

قوله (والمرسلات عرفا) قال جمهور المفسرين : هي الرياح ، وقيل هي الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي ، وقيل هم الأنبياء ، فعلى الأوّل أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما في قوله - وأرسلنا الرياح لواقح - وقوله - ويرسل الرياح - وغير ذلك . وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه . وعلى

الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وانتصاب (عرفا) إما على أنه مفعول لأجله : أى المرسلات لأجل العرف وهو ضدّ النكر ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس ، تقول العرب : سار الناس إلى فلان عرفا واحدا : إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال : والمرسلات إرسالا : أى متتابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض : أى والمرسلات بالعرف . قرأ الجمهور « عرفا » بسكون الراء : وقرأ عيسى بن عمر بضمها ، وقيل المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة (فالعاصفات عصفا) وهى الرياح الشديدة الهبوب . قال القرطبى بغير اختلاف : يقال عصف بالشيء : إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف : أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم ، وقيل هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها ، وقيل يعصفون بروح الكافر ، وقيل هى الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها (والناشرات نشرا) يعنى الرياح تأتى بالمطر وهى تنشر السحاب نشرا ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم فى الجوّ عند النزول بالوحى ، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات . وقال الضحاك : يريد ماينشر من الكتب وأعمال بنى آدم . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح ، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر (فالفارقات فرقا) يعنى الملائكة تأتى بما يفرّق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقال مجاهد : هى الريح تفرق بين السحاب فتبدّده . وروى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل هى الرسل فرقوا مابين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن (فالملقيات ذكرا) هى الملائكة . قال القرطبى بإجماع : أى تلقى الوحى إلى الأنبياء ، وقيل هو جبريل ، وسمى باسم الجمع تعظيما له ، وقيل هى الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب . قرأ الجمهور « فالملقيات » بسكون اللام وتخفيف القاف اسم فاعل ، وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهى إيصال الكلام إلى المخاطب ، والراجح أن الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذى اختاره الزجاج والقاضى وغيرهما (عذرا أو نذرا) انتصابهما على البدل من ذكرا ، أو على المفعولية ، والعامل فيهما المصدر المنوّن ، كما فى قوله - أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما - أو على المفعول لأجله : أى للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف : أى معذرين أو منذرين . قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما . وقرأ زيد بن ثابت وابنه خارجة بن زيد وطلحة بضمهما . وقرأ الحرميان وابن عامر وأبو بكر بسكونها فى عذرا وضمها فى نذرا . وقرأ الجمهور « عذرا أو نذرا » على العطف بأو . وقرأ إبراهيم التيمى وقتادة على العطف بالواو بدون ألف ، والمعنى : أن الملائكة تلقى لوحى إعذارا من الله إلى خلقه وإنذارا من عذابه ، كذا قال الفرّاء ، وقيل عذرا للمحقين ونذرا للمبطلين . قال أبوعلىّ الفارسى : يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله - هذا نذير من النذر الأولى - فيكون نصبا على الحال من الإلقاء : أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار ، أو مفعولان لذكرا : أى تذكر عذرا أو نذرا . قال المبرد : هما بالتثقيل جمع ، والواحد عذير ونذير . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال (إنما توعدون لواقع) أى إن الذى توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لامحالة ، ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال (فإذا النجوم طمست) أى محى نورها وذهب ضوءها ، يقال طمس الشيء : إذا درس وذهب أثره (وإذا السماء

فرجت) أي فتحت وشقت ، ومثله قوله ـ وفتحت السماء فكانت أبوابا ـ (وإذا الجبال نسفت) أي قلعت من مكانها بسرعة ، يقال نسفت الشيء وأنسفته : إذا أخذته بسرعة . وقال الكلبي : سوّيت بالأرض ، والعرب تقول : نسفت الناقة الكلأ : إذا رعته ، وقيل جعلت كالحبّ الذي ينسف بالمنسف ، ومنه قوله ـ وبست الجبال بسا ـ والأوّل أولى . قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها (وإذا الرسل أقتت) الهمزة في أقتت بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرأ بالواو أبو عمرو وشيبة والأعرج وقرأ الباقون بالهمزة ، والوقت : الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه ، والمعنى : جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه ـ يوم يجمع الله الرسل ـ وقيل هذا في الدنيا : أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها ، والأوّل أولى . قال أبو عليّ الفارسي : أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتا ، وقيل أقتت : أرسلت لأوقات معلومة على ماعلم الله به (لأيّ يوم أجلت) هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب : أي لأيّ يوم عظيم يعجب العباد منه لشدّته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا ، أو في محل نصب على الحال من الضمير في أقتت . قال الزجاج : المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ، ثم بين هذا اليوم فقال (ليوم الفصل) قال قتادة : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم عظم ذلك اليوم فقال (وما أدراك ما يوم الفصل) أي وما أعلمك بيوم الفصل يعني أنه أمر بديع هائل لايقادر قدره ، وما مبتدأ وأدراك خبره ، أو العكس كما اختاره سيبويه . ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال (ويل يومئذ للمكذبين) أي ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، وويل أصل مصدر سادّ مسد فعله ، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات ، والويل الهلاك ، أو هو اسم واد في جهنم ، وكرّر هذه الآية في هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر ، وربّ شيء كذب به هو أعظم جرما من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب . ثم ذكر سبحانه مافعل بالكفار من الأمم الخالية فقال (ألم نهلك الأوّلين) أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال مقاتل : يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم (ثم نتبعهم الآخرين) يعني كفار مكة ، ومن وافقهم حين كذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم قرأ الجمهور « نتبعهم » بالرفع على الاستئناف أي ثم نحن نتبعهم . قال أبو البقاء ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى : أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين في الإهلاك . وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد . ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود « ثم سنتبعهم الآخرين » وقرأ الأعرج والعباس عن أبي عمرو نتبعهم بالجزم عطفا على نهلك . قال شهاب الدين : على جعل الفعل معطوفا على مجموع الجملة من قوله « ألم نهلك » (كذلك نفعل بالمجرمين) أي مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف : أي مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة (ويل يومئذ للمكذبين) أي ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله ، قيل الويل الأوّل لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا (ألم نخلقكم من ماء مهين) أي ضعيف حقير ، وهو النطفة (فجعلناه في قرار مكين) أي مكان حريز ، وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أي إلى مقدار معلوم ، وهو مدّة الحمل ، وقيل إلى أن يصوّر (فقدّرنا) قرأ الجمهور « فقدرنا » بالتخفيف . وقرأ نافع والكسائي بالتشديد من التقدير . قال الكسائي والفرّاء : وهما لغتان بمعنى تقول : قدّرت كذا ، وقدرته (فنعم القادرون) أي نعم المقدّرون نحن . قيل المعنى : قدّرناه قصيرا أو طويلا ، وقيل معنى

قدّرنا ملكنا (ويل يومئذ للمكذبين) بقدرتنا على ذلك . ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال (ألم نجعل الأرض كفاتا) معنى الكفت فى اللغة : الضم والجمع ، يقال كفت الشىء : إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر كفت ، والمعنى : ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها والأموات فى باطنها تضمهم وتجمعهم . قال الفرّاء : يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتا فى بطنها : أى تحوزهم وهو معنى قوله (أحياء وأمواتا) وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفاعى　　　إلى أجحارهنّ من الصقيع

قال أبو عبيدة كفاتا أوعية ، ومنه قول الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حىّ　　　وأنت غدا تضمن فى كفات

أى فى قبر ، وقيل معنى جعلها كفاتا : أنه يدفن فيها مايخرج من الإنسان من الفضلات . وقال الأخفش وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض : أى الأرض منقسمة إلى حىّ وهو الذى ينبت ، وإلى ميت وهو الذى لاينبت . قال الفرّاء : انتصاب أحياء وأمواتا بوقوع الكفات عليه : أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نوّن نصب مابعده ، وقيل نصبا على الحال من الأرض : أى منها كذا ومنها كذا ، وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة . وقال الأخفش : كفاتا جمع كافتة ، والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفت تقليب الشىء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر ، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم : أى ذهبوا (وجعلنا فيها رواسى شامخات) أى جبالا طوالا ، والرواسى الثوابت ، والشامخات الطوال ، وكل عال فهو شامخ (وأسقيناكم ماء فراتا) أى عذبا ، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به . قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث (ويل يومئذ للمكذبين) بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى هريرة (والمرسلات عرفا) قال : هى الملائكة أرسلت بالعرف . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود ـ والمرسلات عرفا ـ قال الريح (فالعاصفات عصفا) قال : الريح (والناشرات نشرا) قال : الريح وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب أنه جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب ، فقال ما العاصفات عصفا ؟ قال الرياح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (والمرسلات عرفا) قال : الريح (فالعاصفات عصفا) قال : الريح (فالفارقات فرقا) قال : الملائكة (فالملقيات ذكرا) قال : الملائكة . وأخرج ابن المنذر عنه (والمرسلات عرفا) قال : الملائكة (فالفارقات فرقا) قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل (فالملقيات ذكرا) قال : بالتنزيل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فجعل للمكذبين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (من ماء مهين) قال : ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (كفاتا) قال : كنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (رواسى شامخات) قال : جبالا مشرفات ، وفى قوله (فراتا) قال : عذبا .

ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ (٣٠)
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ (٣٣)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا
يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) .

(انطلقوا إلى ما كنتم) هو بتقدير القول : أى يقال لهم توبيخا وتقريعا (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) فى الدنيا ، تقول لهم ذلك خزنة جهنم : أى سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب ، وهو عذاب النار (انطلقوا إلى ظلّ ذى ثلاث شعب) أى إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعبا . قرأ الجمهور « انطلقوا » فى الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد . وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضى فى الثانى : أى لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا . وقيل المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار يحيط بهم ، ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، ثم يصيرون إلى النار . وقيل هو الظلّ من يحموم كما فى قوله ـ فى سموم وحميم وظلّ من يحموم ـ على ماتقدم . ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكما بهم فقال (لا ظليل ولا يغنى من اللهب) أى لايظل من الحرّ ولا يغنى من اللهب . قال الكلبى : لايردّ حرّ جهنم عنكم . ثم وصف سبحانه النار فقال (إنها ترمى بشرر كالقصر) أى كل شررة من شررها التى ترمى بها كالقصر من القصور فى عظمها ، والشرر : ماتطاير من النار متفرّقا ، والقصر : البناء العظيم . وقيل القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة وتمر وتمرة ، وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ . قال سعيد بن جبير والضحاك : وهى أصول الشجر العظام ، وقيل أعناقه . قرأ الجمهور « كالقصر » بإسكان الصاد ، وهو واحد القصور كما تقدّم . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمى بفتح الصاد : أى أعناق النخل والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد ، وهى أيضا جمع قصرة مثل بدر وبدرة وقصع وقصعة . وقرأ الجمهور « بشرر » بفتح الشين . وقرأ ابن عباس وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين . وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين ، وهى لغات ، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال (كأنه جمالات صفر) وهى جمع جمال ، وهى الإبل أو جمع جمالة : قرأ الجمهور « جمالات » بكسر الجيم . وقرأ حمزة والكسائى وحفص « جمالة » جمع جمل . وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وأبو رجاء « جمالات » بضم الجيم ، وهى حبال السفن . قال الواحدى : والصفر معناها السود فى قول المفسرين . قال الفرّاء : الصفر سواد الإبل لايرى أسود من الإبل إلا وهومشرب صفرة ، لذلك سمت العرب سود الإبل صفرا . قيل والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شىء بالإبل السود ، ومنه قول الشاعر :

تلك خيلى وتلك ركابى هنّ صفر أولادها كالزبيب

أى هنّ سود ، قيل وهذا القول محال فى اللغة أن يكون شىء يشوبه شىء قليل ، فينسب كله إلى ذلك

الشائب ، فالعجب لمن قال بهذا ، وقد قال تعالى (جمالات صفر) . وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهى مضيئة ، فلما خلق الله جهنم ، وهى موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانه وغضبه فاسودّت من سلطانه وازدادت سوادا ، وصارت أشدّ سوادا من كل شىء ، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت : وهذا الجواب لايدفع ماقاله القائل ، لأن كلامه باعتبار ما وقع فى الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء ، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار ، واسوداد شررها ، لقال الله : كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال ، لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ، فكان ما فى القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربى (ويل يومئذ للمكذبين) لرسل الله وآياته (هذا يوم لاينطقون) أى لايتكلمون قال الواحدى : قال المفسرون : فى يوم القيامة مواقف ، فى بعضها يتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدّمنا الجمع بهذا فى غير موضع . وقيل إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لاينطقون ، لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت . وقال الحسن : لاينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . قرأ الجمهور برفع « يوم » على أنه خبر لإسم الإشارة . وقرأ زيد بن علىّ والأعرج والأعمش وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ، ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل هو منصوب على الظرفية ، والإشارة بهذا إلى ماتقدّم من الوعيد كأنه قيل هذا العقاب المذكور كائن يوم لاينطقون (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) قرأ الجمهور « يؤذن » على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علىّ « ولا يأذن » على البناء للفاعل : أى لايأذن الله لهم : أى لايكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الاذن كما لو نصب . قال الفرّاء : الفاء فى فيعتذرون نسق على يؤذن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ، ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال ـ لايقضى عليهم فيموتوا ـ بالنصب ، والكل صواب (ويل يومئذ للمكذبين) بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته (هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين) أى ويقال لهم : هذا يوم الفصل الذى يفصل فيه بين الخلائق ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب فى جمعناكم للكفار فى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد بالأوّلين كفار الأمم الماضية (فإن كان لكم كيد) أى إن قدرتم على كيد الآن (فكيدون) وهذا تقريع وتوبيخ لهم . قال مقاتل : يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، وقيل المعنى : فإن قدرتم على حرب فحاربون ، وقيل إن هذا من قول النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فيكون كقول هود ـ فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون ـ (ويل يومئذ للمكذبين) لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ماكانوا عليه فى الدنيا . ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال (إنّ المتقين فى ظلال وعيون) أى فى ظلال الأشجار وظلال القصور ، لا كالظلّ الذى للكفار من الدخان ، أو من النار كما تقدّم . قال مقاتل والكلبى : المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله ، لأن السورة من أوّلها إلى آخرها فى تقريع الكفار على كفرهم . قال الرازى : فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة فى نظمها وترتيبها وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم ، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال ، والمراد بالعيون الأنهار ، وبالفواكه مايتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) أى يقال لهم ذلك ، فالجملة مقدّرة بالقول ، وهى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين ، والباء للسببية : أى بسبب ماكنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة (إنا كذلك نجزى المحسنين) أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين فى أعمالهم ، قرأ الجمهور

« فى ظلال » . وقرأ الأعمش والزهرى وطلحة والأعرج « فى ظلل » جمع ظلة (ويل يومئذ للمكذبين) حيث صاروا فى شقاء عظيم ، وصار المؤمنون فى نعيم مقيم (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين : أى الويل ثابت لهم فى حال مايقال لهم ذلك تذكير لهم بحالهم فى الدنيا ، أو يقال لهم هذا فى الدنيا ، والمجرمون المشركون بالله ، وهذا وإن كان فى اللفظ أمرا فهو فى المعنى تهديد وزجر عظيم (ويل يومئذ للمكذبين) كرّره لزيادة التوبيخ والتقريع (وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون) أى وإذا أمروا بالصلاة لايصلون . قال مقاتل : نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بها فقالوا : لانتحنى فإنها مسبة علينا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود . وقيل إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . وقيل المعنىّ بالركوع : الطاعة والخشوع (ويل يومئذ للمكذبين) بأوامر الله سبحانه ونواهيه (فبأىّ حديث بعده يؤمنون) أى فبأىّ حديث بعد القرآن يصدّقون إذا لم يؤمنوا به . قرأ الجمهور « يؤمنون » بالتحتية على الغيبة . وقرأ ابن عامر فى رواية عنه ، ويعقوب بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بشرر كالقصر) قال : كالقصر العظيم ، وقوله (جمالات صفر) قال : قطع النحاس . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله (إنها ترمى بشرر كالقصر) قال : كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقلّ ، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر . قال : وسمعته يسأل عن قوله (جمالات صفر) قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال . ولفظ البخارى : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر (كأنه جمالات صفر) حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أنه قرأ « كالقصر » بفتح القاف والصاد . وقال قصر النخل : يعنى الأعناق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كانت العرب فى الجاهلية تقول : أقصروا لنا الحطب ، فيقطع على قدر الذراع والذراعين . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود فى قوله (ترمى بشرر كالقصر) قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (كالقصر) قال : هو القصر ، وفى قوله (جمالات صفر) قال : الإبل . وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال : سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله (هذا يوم لاينطقون) ـ ولا تسمع إلا همسا ـ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ و ـ هاؤم اقرءوا كتابيه ـ فقال له : ويحك هل سألت عن هذا أحدا قبلى ؟ قال لا ، قال : أما أنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله ـ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون ـ قال بلى ، قال : فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون) يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا .

تفسير سورة عمّ

وتسمى سورة النبأ ، وهى أربعون آية ، وقيل إحدى وأربعون آية

وهى مكية عند الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت (عمّ يتساءلون) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ
أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١)
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَاءً
ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا (١٧)
يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّٰغِينَ مَآبًا (٢٢) لَٰبِثِينَ فِيهَا
أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)
إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ
كِتَٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

قوله (عمّ يتساءلون) أصله عن ما فأدغمت النون فى الميم ، لأن الميم تشاركها فى الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وممّ ونحو ذلك ، والمعنى : عن أىّ شىء يسأل بعضهم بعضا . قرأ الجمهور «عمّ» بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبىّ وابن مسعود وعكرمة وعيسى بإثباتها ، ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة ، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف ، وروى ذلك عن ابن كثير قال الزجاج : اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى تفخيم القصة كما تقول : أىّ شىء تريد : إذا عظمت شأنه . قال الواحدى : قال المفسرون : لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت

وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد وما الذى أتى به ؟ فأنزل الله (عمّ يتساءلون) قال الفرّاء : التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل ، وقد يستعمل أيضا فى أن يتحدّثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال . قال الله تعالى ـ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إنى كان لى قرين ـ الآية ، وهذا يدل على أنه التحدّث ، ولفظ ما موضوع لطلب حقائق الأشياء وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا ، فجعل الشىء العظيم الذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما . ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا وبينه فقال (عن النبأ العظيم) فأورده سبحانه أوّلا على طريقة الاستفهام مبهما لتتوجه إليه أذهانهم وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه كأنه قيل : عن أىّ شىء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب « عن النبإ العظيم » على منهاج قوله ـ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ـ فالجارّ والمجرور متعلق بالفعل الذى قبله ، أو بما يدلّ عليه . قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق بيتساءلون الظاهر ، كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ، وقيل ليس بمتعلق بالفعل المذكور ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق بيتساءلون آخر مقدّر ، وإنما كان ذلك النبأ : أى القرآن عظيما ، لأنه ينبىء عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور . قال الضحاك : يعنى نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة ، وقد استدلّ على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله (الذى هم فيه مختلفون) فإنهم اختلفوا فى القرآن ، فجعله بعضهم سحرا وبعضهم شعرا وبعضهم كهانة وبعضهم قال هو أساطير الأوّلين . وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره . ويمكن أن يقال إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة ، فصدّق به المؤمنون وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ، ومما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه ـ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ـ ومما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة . وأيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث ؛ فأثبت النصارى المعاد الروحانى ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى ، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف . وفى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين ، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله ـ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين ـ وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه ، بل شاكة فيه كما حكى الله عنهم بقوله ـ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ـ وما حكاه عنهم بقوله ـ وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ـ فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة . وقد قيل إن الضمير فى قوله يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم فيزداد يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية . قال الرازى : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون : ماهذا الذى يعدنا به من أمر الآخرة ، والموصول فى محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيما فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه (كلا سيعلمون) ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل كلا بمعنى حقا ، ثم كرّر الردع والزجر فقال (ثم كلا سيعلمون) للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الوعيد . قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة . وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب . وقرأ الضحاك الأوّل بالفوقية

والثانى بالتحتية . قال الضحاك : أيضا (كلا سيعلمون) يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم (ثم كلا سيعلمون) يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل بالعكس ، وقيل هو وعيد بعده وعيد ، وقيل المعنى (كلا سيعلمون) عند النزع ، (ثم كلا سيعلمون) عند البعث . ثم ذكر سبحانه بديع صنعه وعظيم قدرته ليعرفوا توحيده ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال (ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا) أى قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، والمهاد الوطاء والفراش كما فى قوله ـ الذى جعل لكم الأرض فراشا ـ قرأ الجمهور « مهادا » وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين « مهدا » والمعنى : أنها كالمهد للصبىّ وهو مايمهد له فينوّم عليه . والأوتاد جمع وتد : أى جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى الخيام بالأوتاد ، وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث ، لا عن القرآن ، ولا عن نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قيل ، لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث (وخلقناكم أزواجا) معطوف على المضارع المنفى داخل فى حكمه ، فهو فى قوّة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف : أى الذكور والإناث ، وقيل المراد بالأزواج الألوان ، وقيل يدخل فى هذا كلّ زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير (وجعلنا نومكم سباتا) أى راحة لأبدانكم . قال الزجاج : السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه : أى جعلنا نومكم راحة لكم . قال ابن الأنبارى : جعلنا نومكم قطعا لأعمالكم ، لأن أصل السبت القطع ، وقيل أصله التمدّد ، يقال سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق : أى ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد ، فسمى النوم سباتا ، وقيل المعنى : وجعلنا نومكم موتا ، والنوم أحد الموتتين ، فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقراب أما نهارها ... فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ـ الآية ، وقوله ـ وهو الذى يتوفاكم بالليل ـ (وجعلنا الليل لباسا) أى نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس . وقال سعيد بن جبير والسدّى : أى سكنا لكم ، وقيل المراد به مايستره عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ، لأن الجعل وقع على الليل ، لا على مايستتر به النائم عند نومه (وجعلنا النهار معاشا) أى وقت معاش ، والمعاش العيش ، وكلّ شىء يعاش به فهو معاش ، والمعنى : أن الله جعل لهم النهار مضيئا ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدّة وغلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام كما ورد ذلك (وجعلنا سراجا وهاجا) المراد به الشمس ، وجعل هنا بمعنى خلق ، وهكذا قوله (وجعلنا نومكم سباتا) وما بعده ، لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك . وقيل إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع فى جميع هذه المواضع ، والمراد به الإنشاء التكوينى الذى بمعنى التقدير والتسوية . قال الزجاج : الوهاج الوقاد وهو الذى وهج ، يقال وهجت النار تهيج وهجا ووهجانا . قال مقاتل : جعل فيه نورا وحرّا ، والوهج يجمع النور والحرارة (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) المعصرات هى السحاب التى ينعصر بالماء ولم تمطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك . وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبى : هى الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال أعصرت الريح تعصر إعصارا : إذا أثارت العجاج . قال الأزهرى : هى الرياح ذوات الأعاصير

وذلك أن الرياح تستدرّ المطر . وقال الفرّاء : المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر . قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح ، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر . ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولا واحدا ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجا . قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر وعصر القوم أي مطروا . قال المبرد : يقال سحاب معصر: أي ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء . وقال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات السموات والثجاج : المنصبّ بكثرة على جهة التتابع ، يقال ثجّ الماء : أي سال بكثرة ، وثجه : أي أساله . قال الزجاج : الثجاج الصباب . قال ابن زيد : ثجاجا كثيرا (لنخرج به حبا ونباتا) أي لنخرج بذلك الماء حبا يقتات : كالحنطة والشعير ونحوهما ، والنبات ما تأكله الدوّاب من الحشيش وسائر النبات (وجنات ألفافا) أي بساتين ملتفّ بعضها ببعض لتشعب أغصانها ، ولا واحد للألفاف : كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي . وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، وروى عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ونبت لف ، والجمع لف بضم اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد . قال الفراء : الجنة مافيه النخيل ، والفردوس مافيه الكرم (إن يوم الفصل كان ميقاتا) أي وقتا ومجمعا وميعادا للأوّلين والآخرين يصلون فيه إلى ماوعدوا به من الثواب والعقاب ، وسمي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع في بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل معنى ميقاتا : أنه حدّ توقت به الدنيا وتنتهي عنده ، وقيل حدّ للخلائق ينتهون إليه (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) أي يوم ينفخ في الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث (فتأتون) أي إلى موضع العرض (أفواجا) أي زمرا زمرا ، وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج ، وانتصاب (يوم ينفخ) على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخرا عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعني ، وانتصاب أفواجا على الحال من فاعل تأتون ، والفاء في فتأتون فصيحة تدلّ على محذوف : أي فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا (وفتحت السماء فكانت أبوابا) معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة (فكانت أبوابا) كما في قوله ـ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ـ وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعا كالأبواب ، وقيل أبوابها طرقها ، وقيل تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب ، وقيل إن لكل عبد بابين في السماء : باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله (فكانت أبوابا) أنها صارت كلها أبوابا ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة . قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي فتحت مخففا . وقرأ الباقون بالتشديد (وسيرت الجبال فكانت سرابا) أي سيرت عن أماكنها في الهواء ، وقلعت عن مقارّها ، فكانت هباء منبثا يظنّ الناظر أنها سراب ، والمعنى : أن الجبال صارت كلا شيء كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء ، وليس بماء ، وقيل معنى سيرت : أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله ـ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ـ وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ولكن الجمع بينها أن نقول : أوّل أحوالها الاندكاك ، وهو قوله ـ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ـ وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله ـ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ـ وثالث أحوالها أن تصير كالهباء ، وهو قوله ـ وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا ـ ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح كما في قوله ـ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب ـ وخامس أحوالها أن تصير سرابا : أي

لا شيء كما فى هذه الآية . ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال (إن جهنم كانت مرصادا) قال الأزهرى : المرصاد المكان الذى يرصد الراصد فيه العدوّ . قال المبرد : مرصادا يرصدون به : أى هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار . قال الحسن : إن على الباب رصدا لايدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجيء بجواز حبس . وقال مقاتل : محبسا ، وقيل طريقا وممرّا . قال فى الصحاح : الراصد للشيء الراقب له يقال رصده يرصده رصدا ، والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد . قال الأصمعى : رصدته أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت فى حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتى إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار . ثم ذكر من هى مرصد له فقال (للطاغين مآبا) أى مرجعا يرجعون إليه ، والمآب المرجع ، يقال آب يئوب : إذا رجع ، والطاغى هو من طغى بالكفر ، وللطاغين نعت لمرصادا متعلق بمحذوف ، ومآبا بدل من مرصادا ، ويجوز أن يكون الطاغين فى محل نصب على الحال من مآبا قدّمت عليه لكونه نكرة ، وانتصاب (لابثين فيها) على الحال المقدّرة من الضمير المستكنّ فى الطاغين . قرأ الجمهور « لابثين » بالألف . وقرأ حمزة والكسائى « لبثين » بدون ألف ، وانتصاب (أحقابا) على الظرفية : أى ماكثين فى النار مادامت الأحقاب ، وهى لاتنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهى جمع حقب بضمتين ، وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف ، قيل هو ثمانون سنة ، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوما ، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب . وقال السدّى : الحقب سبعون سنة . وقال بشير بن كعب : ثلثمائة سنة . وقال ابن عمر : أربعون سنة ، وقيل ثلاثون ألف سنة . قال الحسن : الأحقاب لايدرى أحدكم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة . وقيل الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ماذكرناه أوّلا من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد . وحكى الواحدى عن الحسن أنه قال : والله ماهى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد ، وجملة (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا) مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لايذوقون فى جهنم أو فى الأحقاب بردا ينفعهم من حرّها ولا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما ، وهو الماء الحارّ ، وغساقا وهو صديد أهل النار . ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلا من قوله (شرابا) وقال مجاهد والسدّى وأبو عبيدة والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى : البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم ، ومنه قول الكندى :

بردت مراشفها علىّ فصدّنى ... عنها وعن تقبيلها البرد

أى النوم . قال الزجاج : أى لايذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور . وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بردا : أى روحا وراحة . قرأ الجمهور « غساقا » بالتخفيف . وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين ، وقد تقدّم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما فى سورة ص (جزاء وفاقا) أى موافقا لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووفاقا نعت له . قال الفرّاء والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، قال الزجاج :

جوزوا جزاء وافق أعمالهم . قال الفرّاء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد . قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار ؛ وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم الله بما يسوؤهم (إنهم كانوا لايرجون حسابا) أى لايرجون ثواب حساب . قال الزجاج : كانوا لايؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور (وكذبوا بآياتنا كذّابا) أى كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدا ، وفعال من مصادر التفعل . قال الفرّاء : هى لغة فصيحة يمانية ، تقول كذبت كذابا وخرقت القميص خراقا . قال فى الصحاح : وكذبوا بآياتنا كذابا هو أحد مصادر المشدّد لأن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذّاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل ـ ومزقناهم كل ممزق ـ قرأ الجمهور « كذابا » بالتشديد . وقرأ علىّ بن أبى طالب بالتخفيف . وقال أبو علىّ الفارسى التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة . وقرأ ابن عمر « كذابا » بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب . قال أبوحاتم ونصبه على الحال . قال الزمخشرى : وقد يكون يعنى على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك حسان وبخال (وكل شىء أحصيناه كتابا) قرأ الجمهور « وكل » بالنصب على الاشتغال : أى وأحصينا كل شىء أحصيناه . وقرأ أبوالسماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب كتابا على المصدرية لأحصيناه لأن أحصيناه فى معنى كتبناه ، وقيل هو منتصب على الحال : أى مكتوبا ، قيل المراد كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأوّل أولى لقوله ـ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ـ (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات . قال الرّازى : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ؛ ومن الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها ، وكلما خبت النار زادهم الله سعيرا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (عن النبأ العظيم) قال : القرآن : وهذا مروىّ عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وجعلنا سراجا وهاجا) قال : مضيئا (وأنزلنا من المعصرات) قال : السحاب (ماء ثجاجا) قال : منصبا . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (ثجاجا) قال : منصبا . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) قال : يبعث الله الريح ، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب ، فتدرّ كما تدرّ اللقحة ، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالى [1] فتصرّفه الرياح فينزل متفرّقا . وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف عن قتادة قال : فى قراءة ابن عباس (وأنزلنا من المعصرات) بالرياح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وجنات ألفافا) قال : ملتفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : يقول : التفّ بعضها ببعض . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله (وسيرت الجبال فكانت سرابا) قال : سراب الشمس الآل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (لابثين فيها أحقابا) قال : سنين . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال : سأل علىّ بن أبى طالب هلال الهجرى ماتجدون الحقب فى كتاب الله ؟ قال : نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة .

---

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية ونحوها اهـ قاموس .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم كألف سنة مما تعدّون . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه . قال السيوطي : بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (لابثين فيها أحقابا) قال : الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة وستون يوما كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة . وأخرج البزار وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا ، والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوما ، واليوم ألف سنة مما تعدّون » . قال ابن عمر : فلا يتكلنّ أحد أنه يخرج من النار . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الحقب أربعون سنة » وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان فى قوله (لابثين فيها أحقابا) وقوله - إلا ماشاء ربك - إنهما فى أهل التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب ، لأن الله يقول (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا) . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « فى قوله (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما) قال : قد انتهى حرّه (وغساقا) قد انتهى حرّه ، وإن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاما تقعقع » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (جزاء وفاقا) قال : وافق أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشدّ منها (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) فهم فى مزيد من عذاب الله أبدا .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰئِكَةُ
صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) .

قوله (إن للمتقين مفازا) هذا شروع فى بيان حال المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعدّ الله لهم من الشرّ ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة مفازة تفاؤلا بالخلاص منها . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال (حدائق وأعنابا) وانتصابهما على أنهما بدل من مفازا بدل اشتمال ، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى ، وإذا كان مفازا بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف : أى فوز حدائق ، وهى

جمع حديقة : وهي البستان المحوّط عليه ، والأعناب جمع عنب : أي كروم أعناب (وكواعب أترابا) الكواعب جمع كاعبة : وهي الناهدة ، يقال : كعبت الجارية تكعب تكعيبا وكعوبا ، ونهدت تنهد نهودا ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت : أي صارت ثديهن كالكعب في صدورهن . قال الضحاك : الكواعب العذارى . قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة ... وكم كاعب لم تدر ما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعه :

وكان مجنى دون ماكنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب : الأقران في السن ، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة (وكأسا دهاقا) أي ممتلئة . قال الحسن وقتادة وابن زيد : أي مترعة مملوءة ، يقال أدهقت الكأس : أي ملأتها ، ومنه قول الشاعر :

ألا أسقني صرفا سقاك الساقى ... من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد (دهاقا) متتابعة يتبع بعضها بعضا . وقال زيد بن أسلم (دهاقا) صافية ، والمراد بالكأس الإناء المعروف ، ولا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب (لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا) أي لايسمعون في الجنة لغوا ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذابا : أي ولا يكذب بعضهم بعضا . قرأ الجمهور « كذابا » بالتشديد ، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد في قوله « وكذبوا بآياتنا كذابا » المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدّمنا الخلاف في كذابا هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة ؟ (جزاء من ربك) أي جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء . قال الزجاج : المعنى جزاهم جزاء ، وكذا (عطاء) أي وأعطاهم عطاء (حسابا) قال أبو عبيدة : كافيا . وقال ابن قتيبة : كثيرا ، يقال أحسبت فلانا : أي أكثرت له العطاء ، ومنه قول الشاعر :

ونعطى وليد الحي إن كان جائعا ... ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة : أي نعطيه حتى يقول حسبي . قال الزجاج : حسابا : أي مايكفيهم . قال الأخفش : يقال أحسبني كذا : أي كفاني . قال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . وقال مجاهد : حسابا لما عملوه ، فالحساب بمعنى القدر : أي يقدّر ماوجب له في وعد الرب سبحانه ، فإنه وعد للحسنة عشرا ، ووعد لقوم سبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لانهاية له ولا مقدار كقوله - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وقرأ أبو هاشم « حسابا » بفتح الحاء وتشديد السين : أي كفافا . قال الأصمعي : تقول العرب : حسبت الرجل بالتشديد : إذا أكرمته ، ومنه قول الشاعر : * إذا أتاه ضيفه يحسبه * وقرأ ابن عباس « حسانا » بالنون (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن) . قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضل عن عاصم برفع (رب) و (الرحمن) على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو على أن رب خبر مبتدإ مقدّر : أي هو رب ، والرحمن صفته ، و (لايملكون) خبر رب ، أو على أن رب مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدإ الثاني ، والجملة خبر المبتدإ الأوّل . وقرأ يعقوب في رواية عنه وابن عامر وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن رب بدل من ربك ، والرحمن صفة له . وقرأ ابن عباس وحمزة والكسائي بخفض الأوّل على البدل ، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدإ محذوف : أي هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعدلها ، فخفض رب لقربه

من ربك ، فيكون نعتا له ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره (لايملكون منه خطابا) أى لايملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه . وقال الكسائى : لايملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه ، وقيل الخطاب الكلام : أى لايملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه ، دليله ـ لاتكلم نفس إلا بإذنه ـ وقيل أراد الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون . ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ماتقدّم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقرّرة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) الظرف منتصب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصفا منتصب على الحال : أى مصطفين ، أو على المصدرية : أى يصفون صفا ، وقوله (لايتكلمون) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لتقرير ماقبله .

واختلف فى الروح ، فقيل إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال ، وقيل هو جبريل قاله الشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبوصالح ومجاهد ، وقيل هم أشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان . وقيل هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبى نجيح . وقيل هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة . وقيل هم أرواح بنى آدم تقوم صفا وتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجسام قاله عطية العوفى . وقيل إنه القرآن قاله زيد بن أسلم . وقوله (إلا من أذن له الرحمن) يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوبا على أصل الاستثناء ، ، والمعنى : لايشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ، أو لايتكلمون إلا فى حقّ من أذن له الرحمن (و) كان ذلك الشخص ممن (قالوا صوابا) قال الضحاك ومجاهد : صوابا يعنى حقا . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وأصل الصواب السداد من القول والفعل . قيل لايتكلمون : يعنى الملائكة والروح الذين قاموا صفا هيبة وإجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، وهم قد قالوا صوابا . قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لايدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل . قال الواحدى : فهم لايتكلمون : يعنى الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال فى الدنيا صوابا : أى شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره (اليوم الحقّ) أى الكائن الواقع المتحقق (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) أى مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح ، لأنه إذا عمل خيرا قرّبه إلى الله ، وإذا عمل شرّا باعده منه ، ومعنى (إلى ربه) إلى ثواب ربه قال قتادة : مآبا : سبيلا . ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) يعنى العذاب فى الآخرة ، وكلّ ماهو آت فهو قريب ، ومثله قوله ـ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ـ كذا قال الكلبى وغيره . وقال قتادة : هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين . قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأوّل أولى لقوله (يوم ينظر المرء ماقدّمت يداه) فإن الظرف إما بدل من عذاب أو ظرف لمضمر هو صفة له : أى عذابا كائنا (يوم ينظر المرء) أى يشاهد ماقدّمه من خير أو شرّ ، وما موصولة أو استفهامية . قال الحسن : والمرء هنا هو المؤمن : أى يجد لنفسه عملا ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا ، وقيل المراد به الكافر على العموم ، وقيل أبىّ بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، والأوّل أولى لقوله (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء ، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق ، أو ترابا يوم القيامة . وقيل المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وقيل إبليس ، والأوّل أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (إن للمتقين مفازا) قال : منتزها (وكواعب) قال : نواهد (أترابا) قال : مستويات (وكأسا دهاقا) قال : ممتلئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله (وكأسا دهاقا) قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : ياغلام أسقنا وادهق لنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه دهاقا . قال دراكا . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : إذا كان فيها خمر فهى كأس ، وإذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عنه أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل » ثم قرأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس (يوم يقوم الروح) قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : « الروح فى السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجىء يوم القيامة صفا واحدا » . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عباس قال « إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله ، يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ماعبدناك حق عبادتك ، مابين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) » . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله (يوم يقوم الروح) قال : يعنى حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الروح إلى الأجساد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا (وقال صوابا) قال : لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى البعث والنشور عن أبي هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدوابّ والطير وكل شىء ، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر (ياليتنى كنت ترابا) .

تفسير سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة ، هى خمس وأربعون آية ، وقيل ست وأربعون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة النازعات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا (٤)
فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً (١١)

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ
أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ الْآيَةَ
الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ (٢٦) .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع فى القوس فيبلغ بها غاية المدّ ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات : يعنى الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكلّ لتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال السدّى (النازعات) هى النفوس حين تغرق فى الصدور . وقال مجاهد : هى الموت ينزع النفس . وقال قتادة : هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم : نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم نزعت بالحبل : أى إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر . وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان . وقال عطاء وعكرمة : النازعات القسى تنزع بالسهام وإغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصل . وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلأ وتنفر ، وقيل أراد بالنازعات الغزاة الرماة ، وانتصاب (غرقا) على أنه مصدر بحذف الزوائد : أى إغراقا ، والناصب له ماقبله لملاقاته له فى المعنى : أى إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد ، أو على الحال : أى ذوات إغراق ، يقال أغرق فى الشىء يغرق فيه : إذا أوغل فيه وبلغ غايته (و) معنى (الناشطات) أنها تنشط النفوس : أى تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير : إذا حلّ عنه ، ونشط الرجل الدلو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التى يسهل حلها . قال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطا عقدته ، وأنشطته : أى حللته ، وأنشطت الحبل : أى مددته . قال الفراء : أنشط العقال : أى حلّ ونشط : أى ربط الحبل فى يديه . قال الأصمعى : بئر أنشاط : أى قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط ، وهى التى لايخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . وقال السدّى : هى النفوس حين تنشط من القدمين . وقال عكرمة وعطاء : هى الأوهاق التى تنشط السهام ، وقال قتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق : أى تذهب . قال فى الصحاح : والناشطات نشطا : يعنى النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها . وقال أبو عبيدة وقتادة : هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد . وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ، لأنها تجذب روح المؤمن برفق وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله (نشطا) مصدر ، وكذا سبحا وسبقا (والسابحات) الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص فى البحر لإخراج شىء منه . وقال مجاهد وأبو صالح : هى الملائكة ينزلون من

البهاء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع فى جريه . وقال مجاهد أيضا : السابحات الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل هى الخيل السابحة فى الغزو ، ومنه قول عنترة :

والخيل تعلم حين تسـ ـبح فى حياض الموت سبحا

وقال قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها كما فى قوله ـ وكلّ فى فلك يسبحون ـ وقال عطاء : هى السفن تسبح فى الماء ، وقيل هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله (فالسابقات سبقا) هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف . قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء . وقال أبو روق : هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وروى نحوه عن مجاهد . وقال مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . وقال الربيع : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله . وقال مجاهد أيضا : هو الموت يسبق الإنسان . وقال قتادة والحسن ومعمر : هى النجوم يسبق بعضها فى السير بعضا . وقال عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل هى الأرواح التى تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار . قال الجرجانى : عطف السابقات بالفاء ، لأنها مسببة من التى قبلها : أى واللاتى يسبحن فيسبقن ، تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب . قال الواحدى : وهذا غير مطرد فى قوله (فالمدبرات أمرا) لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبر . قال الرازى : ويمكن الجواب عما قاله الواحدى : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض كقوله : قام زيد فذهب ، ولما سبقوا فى الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير . ويجاب عنه بأن السبق لايكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لايوجب السببية والمسببية . والأولى أن يقال العطف بالفاء فى المدبرات طوبق به ماقبله من عطف السابقات بالفاء، ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ماقبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته (فالمدبرات أمرا) قال القشيرى : أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة . وقال الماوردى : فيه قولان : أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور . والثانى أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل . وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبر طلوعها وأفولها . الثانى تدبر ماقضاه الله فيها من الأحوال . ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما والفاعل للتدبير فى الحقيقة وإن كان هو الله عزّ وجلّ ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به . وقيل إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها مدبرات . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم وجواب القسم بهذه الأمور التى أقسم الله بها محذوف : أى والنازعات ، وكذا وكذا لتبعثنّ . قال الفرّاء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله (إذا كنا عظاما نخرة) وقيل إن جواب القسم قوله (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) أى إن فى يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ، لأن الكلام قد طال بينهما ، وقيل جواب القسم (هل أتاك حديث موسى) لأن المعنى : قد أتاك ، وهذا ضعيف جدا ، وقيل الجواب (يوم ترجف الراجفة) على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . وقال السجستانى : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ لأن الفاء لايفتتح بها الكلام ، والأوّل أولى (يوم ترجف الراجفة) انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم ، أو

بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردّد واضطراب كالرعد ، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، والرادفة : النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، وسميت رادفة لأنها ردفت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين . وقال ابن زيد : الراجفة الأرض ، والرادفة الساعة . وقال مجاهد : الرادفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة ، وقيل الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة ، وأصل الرجفة الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط ، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومنه قول الشاعر :

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعدني　　　وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا

ومحل (تتبعها الرادفة) النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثنّ يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها (قلوب يومئذ واجفة) قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب ، وجملة (أبصارها خاشعة) خبر قلوب والراجفة المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة . قال جمهور المفسرين : أي خائفة وجلة . وقال السدّي : زائلة عن أماكنها ، نظيره ـ إذ القلوب لدى الحناجر ـ وقال المؤرج : قلقة مستوفزة . وقال المبرد : مضطربة ، يقال وجف القلب يجف وجيفا : إذا خفق كما يقال وجب يجب وجيبا ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني جحجبي وقومهم　　　أكبادنا من ورائهم تجف

أبصارها خاشعة : أي أبصار أصحابها ، فحذف المضاف ، والخاشعة الذليلة ، والمراد أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة كقوله ـ خاشعين من الذلّ ـ قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدلّ على هذا أن السياق في منكري البعث (يقولون أإنا لمردودون في الحافرة) هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون : أي أنردّ إلى أوّل حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ، يقال رجع فلان في حافرته : أي رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب اسم لأوّل الشيء وابتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته : أي على الطريق الذي جاء منه ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة : أي عند أوّل ما التقوا وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب　　　معاذ الله من سفه وعار

أي أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلع ، وقيل الحافرة : العاجلة ، والمعنى : إنا لمردودون إلى الدنيا ، وقيل الحافرة : الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا　　　حتى يردّ الناس في الحافره

والمعنى : إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء ، وبه قال مجاهد . وقال ابن زيد : الحافرة النار ، واستدلّ بقوله (تلك إذا كرة خاسرة) . قرأ الجمهور « في الحافرة » وقرأ أبو حيوة « في الحفرة » (إذا كنا عظاما نخرة) أي بالية متفتتة ، يقال نخر العظم بالكسر : إذا بلي ، وهذا تأكيد لإنكار البعث : أي كيف نردّ أحياء ونبعث إذا كنا عظاما نخرة ، والعامل في إذا مضمر يدلّ عليه مردودون : أي أئذا كنا عظاما بالية نردّ ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة . قرأ الجمهور « نخرة » وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر « ناخرة » واختار القراءة

الأولى أبوعبيد وأبوحاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء وابن جرير وأبومعاذ النحوى . قال أبوعمرو بن العلاء : الناخرة التى لم تنخر بعد : أى لم تبل ولا بدّ أن تنخر . وقيل هما بمعنى ، تقول العرب : نخر الشىء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك . قال الأخفش : هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن . قال الشاعر :

يظلّ بها الشيخ الذى كان بادنا يدبّ على عوج له نخرات

يعنى على قوائم عوج ، وقيل الناخرة التى أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة التى فسدت كلها . وقال مجاهد نخرة : أى مرفوتة كما فى قوله ـ رفاتا ـ ، وقد قرئ « إذا كنا » و « أئذا كنا » بالاستفهام وبعدمه . ثم ذكر سبحانه عنهم قولا آخر قالوه فقال (قالوا تلك إذا كرّة خاسرة) أى رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد . وقيل معنى خاسرة كاذبة : أى ليست بكائنة ، كذا قال الحسن وغيره . وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرّة الرجعة ، والجمع كرّات . وقوله (فإنما هى زجرة واحدة) تعليل لما يدل عليه ماتقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى : لاتستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهى النفخة الثانية التى يكون البعث بها . وقيل إن الضمير فى قوله « إنما هى » راجع إلى الرادفة المتقدّم ذكرها (فإذا هم بالساهرة) أى فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض ، قال الواحدى : المراد بالساهرة وجه الأرض ، وظاهرها فى قول الجميع . قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل لأنه يسهر فى فلاتها خوفا منها ، فسميت بذلك ، ومنه قول أبى كثير الهذلى :

يردون ساهرة كأنّ حميمها وعميمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبى الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة . قال فى الصحاح : الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله (فإذا هم بالساهرة) . وقال : الساهرة أرض بيضاء ، وقيل أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها ، وقيل الساهرة الأرض السابعة يأتى بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق . وقال سفيان الثورى : الساهرة أرض الشام . وقال قتادة : هى جهنم : أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة لأنهم لاينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وجملة (هل أتاك حديث موسى) مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيب قومه وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى هل أتاك : قد جاءك وبلغك ، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أوّل مانزل عليه فى شأنهما فيكون المعنى على الاستفهام : أى هل أتاك حديثه أنا أخبرك به (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع مافيه كفاية ، وقد تقدّم الاختلاف بين القرّاء فى طوى فى سورة طه . والواد المقدّس : المبارك المطهر . قال الفراء طوى واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر . قال : والصرف أحبّ إلىّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له . وقيل طوى معناه يارجل بالعبرانية ، فكأنه قيل يارجل اذهب ، وقيل المعنى : إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين ، والأوّل أولى . وقد مضى تحقيق القول فيه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) قيل هو على تقدير القول ، وقيل هو

تفسير للنداء : أى ناداه نداء هو قوله اذهب . وقيل هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب ، لأن فى النداء معنى القول ، وجملة (إنه طغى) تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال : أى جاوز الحدّ فى العصيان والتكبر والكفر بالله (فقل) له (هل لك إلى أن تزكى) أى قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكى وهو التطهر من الشرك ، وأصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين . قرأ الجمهور « تزكى » بالتخفيف . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى . قال أبو عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفى الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إلى ، والتقدير : هل لك رغبة أو هل لك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى ، ومثل هذا قولهم هل لك فى الخير ؟ يريدون هل لك رغبة فى الخير ، ومن هذا قول الشاعر : فهل لكم فيها إلىّ فاننى بصير بما أعيا النطاسى جذيما

(وأهديك إلى ربك فتخشى) أى أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية ، لأن الخشية لاتكون إلا من مهتد راشد (فأراه الآية الكبرى) هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال ـ إن كنت جئت بآية فأت بها ـ فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف فى الآية الكبرى ماهى ؟ فقيل العصا ، وقيل يده ، وقيل فلق البحر ، وقيل هى جميع ماجاء به من الآيات التسع (فكذّب وعصى) أى فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى وبما جاء به وعصى الله عزّ وجلّ فلم يطعه (ثم أدبر) أى تولى وأعرض عن الإيمان (يسعى) أى يعمل بالفساد فى الأرض ويجتهد فى معارضة ماجاء به موسى ، وقيل أدبر هاربا من الحية يسعى خوفا منها . وقال الرازى : معنى (أدبر يسعى) أقبل يسعى ، كما يقال أقبل يفعل كذا : أى أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالاقبال (فحشر) أى فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا مايقع ، أو جمعهم ليمنعوه من الحية (فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) أى قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادى بهذا القول . ومعنى (أنا ربكم الأعلى) أنه لاربّ فوق . قال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها وقال : أنا ربّ أصنامكم وقيل أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم . والأوّل أولى لقوله فى آية أخرى ـ ما علمت لكم من إله غيرى ـ (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال نعت مصدر محذوف : أى أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف : أى أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب أوّل عمره وآخره . وقال قتادة : الآخرة قوله « أنا ربكم الأعلى » والأولى تكذيبه لموسى . وقيل الآخرة قوله « أنا ربكم الأعلى » والأولى قوله ـ ما علمت لكم من إله غيرى ـ وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له : أى أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض : أى بنكال . ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه . وقال الفرّاء : أى أخذه الله أخذا نكالا : أى للنكال والنكال اسم لما جعل نكالا للغير : أى عقوبة له ، يقال نكل فلان بفلان : إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد (إنّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى) أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ، ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في قوله (والنازعات غرقا) قال : هي الملائكة تنزع روح الكفار (والناشطات نشطا) قال : هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مابين الأظفار والجلد حتى تخرجها (والسابحات سبحا) هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض (فالسابقات سبقا) هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله (فالمدبرات أمرا) هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (والنازعات غرقا) قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار . وأخرج الحاكم وصححه عنه (والنازعات غرقا والناشطات نشطا) قال : الموت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود (والنازعات غرقا) قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله (والسابحات سبحا) قال : الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تمزّق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله : (والناشطات نشطا) أتدري ماهو ؟ قلت : يانبيّ الله ماهو ؟ قال : كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » . وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أن ابن الكوّاء سأله عن (المدبرات أمرا) قال : هي الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره . وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن ابن عباس قال (المدبرات أمرا) ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمّن على الدّعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتّى يصلى عليه ويدلى في حفرته . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (يوم ترجف الراجفة) قال : النفخة الأولى (تتبعها الرادفة) قال : النفخة الثانية (قلوب يومئذ واجفة) قال : خائفة (أئنا لمردودون في الحافرة) قال : الحياة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبيّ بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) يقول : مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (قلوب يومئذ واجفة) قال : وجلة متحركة وأخرج عبد بن حميد عنه (أئنا لمردودون في الحافرة) قال : خلقا جديدا . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه سئل عن قوله (فإذا هم بالساهرة) فقال : الساهرة وجه الأرض ، وفي لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألا ترى قول الشاعر :

« صيد بحر وصيد ساهرة »

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا (هل لك إلى أن تزكى) قال : هل لك أن تقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (فأخذه الله نكال الآخرة) قال : قوله (أنا ربكم الأعلى) والأولى قال : قوله (ماعلمت لكم من إله غيري) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : كان بين كلمتيه أربعون سنة .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ

يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ
عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ
أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا (٤٦).

قوله (أأنتم أشد خلقا أم السماء) أى أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشدّ عندكم وفى تقديركم أم خلق السماء، والخطاب لكفار مكة، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت، لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ماهو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة؟ ومثل هذا قوله سبحانه ـ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ـ وقوله ـ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ـ ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال (بناها رفع سمكها فسوّاها) أى جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، ورفع سمكها: أى أعلاه فى الهواء، فقوله (رفع سمكها) بيان للبناء، يقال سمكت الشىء: أى رفعته فى الهواء وسمك الشىء سموكا: ارتفع. قال الفرّاء كل شىء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سمك، وبناء مسموك وسنام سامك: أى عال، والسموكات: السموات: ومنه قول الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

قال البغوى: رفع سمكها: أى سقفها. قال الكسائى والفراء والزجاج: تمّ الكلام عند قوله (أم السماء بناها) لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التى بناها، فحذف التى، ومثل هذا الحذف جائز. ومعنى (فسوّاها) فجعلها مستوية الخلق معدّلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق (وأغطش ليلها) الغطش الظلمة: أى جعله مظلما، يقال غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله، ورجل أغطش وامرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذى فى عينه عمش، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فيها، والتغاطش التعامى. قال الأعشى:

ودهماء بالليل غطشى الفلا ة يؤنسنى صوت قيادها

وقوله: * وغامرهم مدلهم غطش * يعنى غمرهم سواد الليل، وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس والشمس مضافة إلى السماء (وأخرج ضحاها) أى أبرز نهارها المضىء بإضاءة الشمس، وعبر عن النهار بالضحى، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وأضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس، وهى منسوبة إلى السماء (والأرض بعد ذلك دحاها) أى بعد خلق السماء، ومعنى دحاها بسطها، وهذا يدلّ على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ماتقدّم فى سورة فصلت من قوله ـ ثم استوى إلى السماء ـ بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلا غير مدحوّة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، وقد قدّمنا أيضا بحثا فى هذا فى أوّل سورة البقرة عند قوله ـ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ـ

وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع كما فى قوله ـ عتل بعد ذلك زنيم ـ ، وقيل بعد بمعنى قبل كقوله ـ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ـ أى من قبل الذكر ، والجمع الذى ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير . يقال دحوت الشيء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض ، وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطانها حتى التنادى

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها بأيد وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال ، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وابن أبى عبلة وأبو حيوة وأبو السمال وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء (أخرج منها ماءها ومرعاها) أى فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون « وأخرج منها مرعاها » : أى النبات الذى يرعى ، ومرعاها مصدر ميمى : أى رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ، لأن السكنى لاتتأتى بمجرد البسط بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب . وإما فى محل نصب على الحال (والجبال أرساها) أى أثبتها فى الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لاتميد بأهلها . قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو ابن ميمون وأبو حيوة وأبو السمال وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء ، قيل ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب (متاعا لكم ولأنعامكم) أى منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم ، وانتصاب متاعا على المصدرية : أى متعكم بذلك متاعا ، أو هو مصدر من غير لفظه ، لأن قوله (أخرج منها ماءها ومرعاها) بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له : أى فعل ذلك لأجل التمتيع ، وإنما قال « لكم ولأنعامكم » لأن فائدة ماذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب (فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات . قال الحسن وغيره : وهى النفخة الثانية . وقال الضحاك وغيره : هى القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها . قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لاتستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طم الفرس طميما : إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطم الماء : إذا ملأ النهر كله . وقال غيره : هو من طم السيل الركية : أى دفنها ، والطم الدفن . قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها ، وجواب إذا قيل هو قوله ـ فأما من طغى ـ وقيل محذوف : أى فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا ، أو علموا أو أدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى « يومئذ يتذكر الإنسان » فإنه منصوب بفعل مضمر : أى أعنى يوم يتذكر ، أو يوم يتذكر يكون كيت وكيت . وقيل إن الظرف بدل من إذا ، وقيل هو بدل من الطامة الكبرى ؛ ومعنى تذكر الإنسان ماسعى : أنه يتذكر ماعمله من خير أو شر ، لأنه يشاهده ملونا فى صحائف عمله ، وما

مصدرية ، أو موصولة (وبرّزت الجحيم لمن يرى) معطوف على جاءت ، ومعنى برّزت : أظهرت إظهارا لايخفى على أحد . قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل (لمن يرى) من الكفار ، لا من المؤمنين ؛ والظاهر أن تبرز لكلّ راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غما إلى غمه وحسرة إلى حسرته . قرأ الجمهور « لمن يرى » بالتحتية ، وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن عليّ بالفوقية : أى لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يامحمد . وقرأ ابن مسعود « لمن رأى » على صيغة الفعل الماضى (فأما من طغى) أى جاوز الحد فى الكفر والمعاصى (وآثر الحياة الدنيا) أى قدّمها عن الآخرة ولم يستعدّ لها ولا عمل عملها (فإن الجحيم هى المأوى) أى مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذى ينزله ومأواه الذى يأوى إليه لاغيرها . ثم ذكر القسم الثانى من القسمين فقال (وأما من خاف مقام ربه) أى حذر مقامه بين يدى ربه يوم القيامة . قال الربيع : مقامه يوم الحساب . قال قتادة : يقول إن لله عزّ وجلّ مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ والأوّل أولى (ونهى النفس عن الهوى) أى زجرها عن الميل إلى المعاصى والمحارم التى تشتهيها . قال مقاتل : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها (فإن الجنة هى المأوى) أى المنزل الذى ينزله والمكان الذى يأوى إليه لاغيرها (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أى متى وقوعها وقيامها . قال الفراء : أى منتهى قيامها كرسوّ السفينة . قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهى ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها اهـ ، وقد مضى بيان هذا فى سوره الأعراف (فيم أنت من ذكراها) أى فى أىّ شىء أنت يامحمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست فى شىء من علمها وذكراها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار وردّ لسؤال المشركين عنها : أى فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه (إلى ربك منتهاها) أى منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله ـ قل إنما علمها عند ربى ـ وقوله ـ إنّ الله عنده علم الساعة ـ فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها (إنما أنت منذر من يخشاها) أى مخوّف لمن يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخصّ الإنذار بمن يخشى ، لأنهم المنتفعون بالإنذار وإن كان منذرا لكلّ مكلف من مسلم وكافر . قرأ الجمهور بإضافة « منذر » إلى مابعده . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن وشيبة والأعرج وحميد بالتنوين ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو . قال الفراء : والتنوين وتركه فى منذر صواب كقوله ـ بالغ أمره ـ ـ وموهن كيد الكافرين ـ . قال أبو علىّ الفارسى : يجوز أن تكون الإضافة للماضى ، نحو ضارب زيد أمس (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إلا قدر آخر نهار أو أوّله ، أو قدر الضحى الذى يلى تلك العشية ، والمراد تقليل مدّة الدنيا ، كما قال ـ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ـ وقيل لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها . قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب ، يقولون : آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أوّل النهار . ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامرا فى دارها * جردا تعادى طرفى نهارها * عشية الهلال أو سرارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (رفع سمكها) قال : بناها (وأغطش ليلها) قال : أظلم ليلها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (وأغطش ليلها) قال : وأظلم ليلها (وأخرج ضحاها) قال : أخرج نهارها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (والأرض بعد ذلك دحاها) قال : مع ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضا أن رجلا قال له : آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما أتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ ـ قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ـ حتى بلغ ـ ثم استوى إلى السماء ـ وقوله (والأرض بعد ذلك دحاها) قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ، ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ماخلق السماء ، وإنما قوله (دحاها) بسطها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال (دحاها) أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الطامة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة فنزلت (فيم أنت من ذكراها) » . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت « مازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله (فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها) فانتهى فلم يسأل عنها » . وأخرج عبد ابن حميد والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها) فكفّ عنها . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس . قال السيوطي بسند ضعيف : أن مشركي مكة سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) يعني مجيئها (فيم أنت من ذكراها) يعني ما أنت من علمها يامحمد (إلى ربك منتهاها) يعني منتهى علمها . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : « كانت الأعراب إذا قدموا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » .

تفسير سورة عبس

وتسمى سورة السفرة ، وهي إحدى وأربعون ، أو اثنان وأربعون آية

وهي مكية في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة عبس بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ

ذَكَرَهُ (١٢) فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ
بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ
شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠)
وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ
أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا
قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢) .

قوله (عبس وتولى) أى كلح بوجهه وأعرض . وقرئ عبس بالتشديد (أن جاءه الأعمى) مفعول لأجله : أى لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما عبس أو تولى على الاختلاف بين البصريين والكوفيين فى التنازع هل المختار إعمال الأول أو الثانى ؟ .

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه ، فأعرض عنه فنزلت ، وسيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله (وما يدريك لعله يزكى) التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن المشافهة أدخل فى العتاب : أى أىّ شىء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة (لعله يزكى) مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافى الإعراض عنه : أى لعله يتطهر بالذنوب بالعمل الصالح بسبب مايتعلمه منك ، فالضمير فى لعله راجع إلى الأعمى ، وقيل هو راجع إلى الكافر : أى وما يدريك أن ماطمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأوّل أولى . وكلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكى مما لايجوز. قرأ الجمهور « أن جاءه الأعمى » على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ماتقدّم . وقرأ الحسن « آن جاءه » بالمدّ على على الاستفهام ، فهو على هذه القرآءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه عبس وتولى ، والتقدير آن جاءه الأعمى تولى وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ ـ وكذلك قوله فى سورة الكهف ـ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ـ وقوله (أو يذّكر) عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى : أى أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ (فتنفعه الذكرى) أى الموعظة . قرأ الجمهور « فتنفعه » بالرفع ، وقرأ عاصم ابن أبى إسحاق وعيسى والسلمى وزرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجى (أما من استغنى) أى كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان وعما عندك من العلم (فأنت له تصدّى) أى تصغى

لكلامه ، والتصدّى الإصغاء . قرأ الجمهور « تصدّى » بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفى هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه وآله وسلم عن الإقبال عليهم والإصغاء إلى كلامهم (وما عليك أن لا يزكى) أى أىّ شىء عليك فى أن لا يسلم ولا يهتدى ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ، ويجوز أن تكون ما نافية : أى ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدّى . ثم زاد سبحانه فى معاتبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وأما من جاءك يسعى) أى وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجىء إليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله ، وجملة (وهو يخشى) حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف (فأنت عنه تلهى) أى تتشاغل عنه وتعرض عن الإقبال عليه ، والتلهى التشاغل والتغافل ، يقال لهيت عن الأمر ألهى : أى تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت ، وقوله (كلا) ردع له صلى الله عليه وآله وسلم عما عوتب عليه : أى لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدّى للغنى والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به (إنها تذكرة) أى أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك (فمن شاء ذكره) أى فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره . قيل الضميران فى إنها ، وفى ذكره للقرآن ، وتأنيث الأوّل لتأنيث خبره . وقيل الأوّل للسورة ، أو للآيات السابقة . والثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر ، وقيل إن معنى « فمن شاء ذكره » فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به ، والأوّل أولى . ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال (فى صحف) أى إنها تذكرة كائنة فى صحف ، فالجار والمجرور صفة لتذكرة ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى (مكرمة) أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالصحف كتب الأنبياء ، كما فى قوله ـ إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ـ ومعنى (مرفوعة) أنها رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة فى السماء السابعة . قال الواحدى : قال المفسرون : مكرمة يعنى اللوح المحفوظ (مرفوعة) يعنى فى السماء السابعة . قال ابن جرير : مرفوعة القدر والذكر ، وقيل مرفوعة عن الشبه والتناقض (مطهرة) أى منزهة لا يمسها إلا المطهرون . قال الحسن : مطهرة من كل دنس . قال السدّى : مصانة عن الكفار لا ينالونها (بأيدى سفرة) السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . قال الفراء : السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله ورسوله ، من السفارة وهو السعى بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومى ... ولا أمشى بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر ، لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة : أى أصلحت بينهم . قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد . وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال (كرام بررة) أى كرام على ربهم كذا قال الكلبى . وقال الحسن : كرام عن المعاصى ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وقيل

يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو قضى حاجته . وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم . وقيل يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبررة جمع بارّ مثل كفرة وكافر : أى أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم ، وقد تقدّم تفسيره (قتل الإنسان ما أكفره) أى لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره ، وقيل عذب ، قيل والمراد به عتبة بن أبى لهب ، ومعنى ما أكفره التعجب من إفراط كفره . قال الزجاج : معناه اعجبوا أنتم من كفره ، وقيل المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله ـ أما من استغنى ـ وقيل المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ، ويدخل تحته من كان سببا لنزول الآية دخولا أوّليا . ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغى لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكفّ عن طغيانه فقال (من أىّ شىء خلقه) أى من أىّ شىء خلق الله هذا الكافر والاستفهام التقرير . ثم فسر ذلك فقال (من نطفة خلقه) أىّ من ماء مهين ، وهذا تحقير له . قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرّتين ، ومعنى (نقدّره) أى فسوّاه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواسّ ، وقيل قدّره أطوارا من حال إلى حال ، نطفة ثم علقة إلى أن تمّ خلقه (ثم السبيل يسره) أى يسرّ له الطريق إلى الخير والشرّ . وقال السدىّ ومقاتل وعطاء وقتادة . يسره للخروج من بطن أمه ، والأوّل أولى . ومثله قوله ـ وهديناه النجدين ـ وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور : أى يسر السبيل يسره (ثم أماته فأقبره) أى جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفرّاء : وقال أبو عبيدة : جعل له قبرا وأمر أن يقبر فيه . وقال أقبره ، ولم يقل قبره ، لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر

(ثم إذا شاء أنشره) أى ثم إذا شاء إنشاره أنشره : أى أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة . قرأ الجمهور « أنشره » بالألف ، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة نشره بغير ألف ، وهما لغتان فصيحتان (كلا لما يقضى ما أمره) كلا ردع وزجر للإنسان الكافر : أى ليس الأمر كما يقول . ومعنى : لما يقض ما أمره ، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل المراد الإنسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدّة لأنه لايخلو من تقصير . قال الحسن : أى حقا لم يعمل ما أمر به . وقال ابن فورك : أى كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . قال ابن الأنبارى : الوقف على كلا قبيح والوقف على أمره جيد ، وكلا على هذا بمعنى حقا . وقيل المعنى : لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره ، بل أخلّ به : بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله إلا القليل . ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها ، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال (فلينظر الإنسان إلى طعامه) أى ينظر كيف خلق الله طعامه الذى جعله سببا لحياته ؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية ؟ قال مجاهد : معناه فلينظر الإنسان إلى طعامه : أى إلى مدخله ومخرجه ، والأوّل أول . ثم بين ذلك سبحانه فقال (أنا صببنا الماء صبا) قرأ الجمهور « إنا » بالكسر على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه ، أو بتقدير لام العلة . قال الزجاج : الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام . المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا ، وأراد بصبّ الماء المطر ؛

وقرأ الحسن بن علىّ بالفتح والإمالة (ثم شققنا الأرض شقا) أى شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر والكبر والشكل والهيئة . ثم بين سبب هذا الشقّ وما وقع لأجله فقال (فأنبتنا فيها حبا) يعنى الحبوب الذى يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لايزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حبا ، وقوله (وعنبا) معطوف على حبا : أى وأنبتنا فيها عنبا ، قيل وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ماقيد به المعطوف عليه فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض ، والقضب : هو القتّ الرطب الذى يقضب مرّة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمى قضبا على مصدر قضبه : أى قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع . قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة ، فإذا يبست فهى القتّ . قال فى الصحاح : والقضبة والقضب الرطبة ، قال : والموضع الذى ينبت فيه مقضبة . قال القتيبى وثعلب : وأهل مكة يسمون العنب القضب . والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة (وحدائق غلبا) جمع حديقة ، وهى البستان ، والغلب العظام الغلاظ الرقاب . وقال مجاهد ومقاتل : الغلب الملتفّ بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقبة ، ويقال للأسد أغلب لأنه مصمت العنق لايلتفت إلا جميعا . قال العجاج

مازلت يوم البين ألوى صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء غلب كما جمع أحمر وحمراء على حمر . وقال قتادة وابن زيد : الغلب النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : هى غلاظ الأوساط والجذوع . والفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوها . والأبّ كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جِذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ بها والمكرع

قال الضحاك : الأبّ كل شىء ينبت على وجه الأرض . وقال ابن أبى طلحة : هو الثمار الرطبة . وروى عن الضحاك أيضا أنه قال : هو التين خاصة ، والأوّل أولى . ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال (فإذا جاءت الصاخة) يعنى صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدّة صوتها لأنها تصخ الآذان : أى تصمها فلا تسمع ، وقيل سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع ، من قولك أصاخ إلى كذا أى استمع إليه ، والأوّل أصح . قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الآذان حتى تصمها بشدّة وقعها ، وأصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد ، يقال صخه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف فى قوله (يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) إما بدل من إذا جاءت ، أو منصوب بمقدّر : أى أعنى ويكون تفسيرا للصاخة ، أو بدلا منها مبنىّ على الفتح ، وخصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحنوّ والرأفة ، فالفرار منهم لايكون إلا لهول عظيم ، وخطب فظيع (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم . وقيل إنما يفرّ عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم ، وقيل يفرّ عنهم لئلا يروا ماهو فيه من الشدّة ، وقيل لعلمه أنهم لاينفعونه ولا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى ـ يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ـ والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار . قال ابن قتيبة : يغنيه : أى يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال أغن عنى وجهك : أى اصرفه . قرأ الجمهور « يغنيه » بالغين المعجمة . وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء : أى يهمه ، من عناه الأمر إذا

أهمه (وجوه يومئذ مسفرة) وجوه مبتدأ وإن كان نكرة لأنه فى مقام التفصيل ، وهو من مسوّغات الابتداء بالنكرة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى مسفرة : مشرقة مضيئة ، وهى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك مالهم من النعيم والكرامة ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء . قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء ، وقيل من قيام الليل (ضاحكة مستبشرة) أى فرحة بما نالته من الثواب الجزيل . ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال (ووجوه يومئذ عليها غبرة) أى غبار وكدورة لما تراه بما أعدّه الله لها من العذاب (ترهقها قترة) أى يغشاها ويعلوها سواد وكسوف ، وقيل ذلة ، وقيل شدّة ، والقتر فى كلام العرب الغبار ، كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه ... فوج ترى فوقه الرايات والقترا

ويدفع ماقاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار . وقال زيد بن أسلم : القترة ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة ما انحطت إلى الأرض (أولئك) يعنى أصحاب الوجوه (هم الكفرة الفجرة) أى الجامعون بين الكفر بالله والفجور ، يقال فجر : أى فسق ، وفجر : أى كذب ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : «أنزلت عبس وتولى فى ابن أمّ مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يقول : يارسول الله أرشدنى وعند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأسا ؟ فيقول لا ، ففى هذا أنزلت» . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال : « جاء ابن أمّ مكتوم ، وهو يكلم أبىّ بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) فكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك يكرمه» . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجى عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام وكان يتصدّى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله بن أمّ مكتوم يمشى ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن قال : يارسول الله علمنى مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله (عبس وتولى) الآية ، فلما نزل فيه مانزل أكرمه نبىّ الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه وقال له : ماحاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شىء ؟ قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم فى إسناده . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (بأيدى سفرة) قال : كتبة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (بأيدى سفرة) قال : هم بالنبطية القرّاء . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (كرام بررة قال : الملائكة : وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (ثم السبيل يسره) قال : يعنى بذلك خروجه من بطن أمه يسره له . وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير فى قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال : إلى مدخله ومخرجه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال : إلى خرئه . وأخرج ابن المنذر عنه (أنا صببنا

الماء صبا) قال : المطر (ثم شققنا الأرض شقا) قال : عن النبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله (وقضبا) قال : الفصفصة يعنى القتّ (وحدائق غلبا) قال : طوالا (وفاكهة وأبا) قال : الثمار الرطبة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الحدائق كل ملتفّ ، والغلب ماغلظ ، والأبّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابّ ولا يأكله الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (وحدائق غلبا) قال : شجر فى الجنة يستظل به لايحمل شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأبّ الكلأ والمرعى . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمى قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ماهو ؟ فقال : أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ؟ . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلا سأل عمر عن قوله (وأبا) فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة . وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر (فأنبتنا فيها حبا وعنبا) إلى قوله (وأبا) قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأبّ ؟ ثم رفض عصى كانت فى يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لاتدرى ما الأبّ ، اتبعوا مابين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، ومالم تعرفوه فكلوه إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال الصاخة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مسفرة) قال : مشرقة ، وفى قوله (ترهقها قترة) قال : تغشاها شدّة وذلة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (قترة) قال : سواد الوجه .

تفسير سورة التكوير

وهى تسع وعشرون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة (إذا الشمس كورت) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ

نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ
الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

قوله (إذا الشمس كورت) ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره مابعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين ، وأما عند الكوفيين والأخفش فهو مرتفع على الابتداء . والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها . قال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسى أكورها كورا ، وكورتها تكويرا : إذا لففتها . قال أبوعبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع . قال الربيع بن خثيم كورت : أى رمى بها ، ومنه كورته فتكوّر : أى سقط . وقال مقاتل وقتادة والكلبى : ذهب ضوؤها . وقال مجاهد : اضمحلت . قال الواحدى : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها ، أو لفّ ضوئها ، أو الرمى بها (وإذا النجوم انكدرت) أى تهافتت وانقضت وتناكرت ، يقال انكدر الطائر من الهواء : إذا انقضّ ، والأصل فى الانكدار الانصباب . قال الخليل : يقال انكدر عليهم القوم : إذا جاءوا أرسالا فانصبوا عليهم . قال أبو عبيدة : انصبت كما ينصب العقاب . قال الكلبى وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوما ، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع على الأرض ، وقيل انكدارها طمس نورها (وإذا الجبال سيرت) أى قلعت عن الأرض ، وسيرت فى الهواء ، ومنه قوله ـ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ـ . (وإذا العشار عطلت) العشار : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها الواحدة عشراء ، وهى التى قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لايزال ذلك اسمها حتى تضع . وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب ، وأعزّه عندهم ، ومعنى عطلت : تركت هملا بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم ، قيل وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لاتكون فيه ناقة عشراء ، بل المراد أنه لوكان للرجل ناقة عشراء فى ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتى آخر البحث إن شاء الله مايفيد أن هذا فى الدنيا . وقيل العشار السحاب ، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله ـ والحاملات وقرا ـ وتعطيلها عدم إمطارها قرأ الجمهور « عطلت » بالتشديد ، وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بالتخفيف . وقيل المراد أن الديار تعطل فلا تسكن ، وقيل الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع (وإذا الوحوش حشرت) الوحوش ماتوحش من دوابّ البرّ ، ومعنى حشرت : بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء . وقيل حشرها موتها ، وقيل إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبددها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم . قرأ الجمهور « حشرت » بالتخفيف ، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون بالتشديد (وإذا البحار سجرت) أى أوقدت فصارت نارا تضطرم . وقال الفرّاء : ملئت

بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . وقيل أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت ، وقيل فجرت فصارت بحرا واحدا . وروى عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية : يبست ولا يبقى فيها قطرة ، يقال سجرت الحوض أسجره سجرا : إذا ملأته . وقال القشيري : هو من سجرت التنور أسجره سجرا : إذا أحميته . قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم : أوقدت فصارت نارا ، وقيل معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء : أى حمراء . قرأ الجمهور « سجرت » بتشديد الجيم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها (وإذا النفوس زوّجت) أى قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار . وقال عطاء : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين . وقيل قرن كل شكل إلى شكله فى العمل ، وهو راجع إلى القول الأوّل . وقيل قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما فى قوله ـ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ وقال عكرمة (وإذا النفوس زوّجت) يعنى قرنت الأرواح بالأجساد . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل قرنت النفوس بأعمالها (وإذا الموءودة سئلت) أى المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة ، يقال : وأد يائد وأدا فهو وائد ، والمفعول به موءود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت ، ومنه ـ ولا يئوده حفظهما ـ أى لا يثقله ، ومنه قول متمم بن نويرة :

* وموءودة مقبورة فى مغارة *

ومنه قول الراجز:

سميتها إذ ولدت تموت ... والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور « الموءودة » بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة . وقرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة . وقرأ الأعمش « المودة » بزنة الموزة . وقرأ الجمهور « سئلت » مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل . وقرأ الجمهور « قتلت » بالتخفيف مبنيا للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير . وقرأ علىّ وابن مسعود وابن عباس سألت مبنيا للفاعل « قتلت » بضم التاء الأخيرة . ومعنى سئلت على قراءة الجمهور : أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد . قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفى مصحف أبىّ « وإذا الموءودة سألت بأىّ ذنب قتلتنى » (وإذا الصحف نشرت) يعنى صحائف الأعمال نشرت للحساب ، لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها ، فيقول ـ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ـ قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو « نشرت » بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير (وإذا السماء كشطت) الكشط : قلع عن شدّة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش ، والقشط بالقاف لغة فى الكشط ، وهى قراءة ابن مسعود . قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال الفراء : نزعت فطويت . وقال مقاتل : كشفت عما فيها . قال الواحدى : ومعنى الكشط رفعك شيئا عن شىء قد غطاه (وإذا الجحيم سعرت) أى أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا . قرأ الجمهور « سعرت » بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وحفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة . قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم (وإذا

الجنة أزلفت) أى قرّبت إلى المتقين وأدنيت منهم . قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها . وقال ابن زيد : معنى أزلفت تزينت . والأوّل أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب . قيل هذه الأمور الاثناعشر : ستّ منها فى الدنيا ، وهى من أوّل السورة إلى قوله (وإذا البحار سجرت) ، وستّ فى الآخرة وهى (وإذا النفوس زوجت) إلى هنا ، وجواب الجميع قوله (علمت نفس ما أحضرت) على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ماتعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف : يعنى ما عملت من خير أو شرّ ، ومعنى ما أحضرت : ماأحضرت من أعمالها ، والمراد حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس ، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لايخفى على أحد ، ويدلّ على هذا قوله ـ يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خير محضرا ـ وقيل يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت ، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على مافعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله (فلا أقسم بالخنس) لا زائدة كما تقدّم تحقيقه وتحقيق مافيه من الأقوال فى أوّل سورة القيامة : أى فأقسم بالخنس ، وهى الكواكب ؛ وسميت الخنس ، من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره أهل التفسير . ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس وتقطع المجرّة . وقال فى الصحاح : الخنس الكواكب كلها ، لأنها تخنس فى المغيب ، أو لأنها تخفى نهارا ، أو يقال هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة ، لأنها تخنس فى مجراها ، وتكنس : أى تستتر كما تكنس الظباء فى المغار ، ويقال سميت خنسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم . يقال خنس عنه يخنس خنوسا إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، ومعنى (الجوار) أنها تجرى مع الشمس والقمر ، ومعنى (الكنس) أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ؛ فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها ، وقيل خنوسها خفاؤها بالنهار ، وكنوسها غروبها . قال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى ، وتظهر بالليل وتكنس فى وقت غروبها . وقيل المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس . وقال عكرمة : الخنس البقر والكنس الظباء ، فهى تخنس إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها . وقيل هى الملائكة . والأوّل أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذى يختفى فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة (والليل إذا عسعس) قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس : إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله (والصبح إذا تنفس) قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهرى ، وقال الحسن : أقبل بظلامه . قال الفراء : العرب تقول عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس الليل : إذا أدبر ، وهذا لاينافى ماتقدّم عنه ، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على

أدبر ، وإن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار . قال المبرد : هو من الأضداد . قال : والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد ، وهو ابتداء الظلام فى أوّله وإدباره فى آخره . قال رؤبة بن العجاج :

ياهند ما أسرع ماتعسعسا   من بعد ما كان فتى ترعرعا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لو نشاء إذ دنا   كان لنا من ناره مقتبس

وقوله : * المناء على الربع القديم تعسعسا * (والصبح إذا تنفس) التنفس فى الأصل : خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله ، لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفسا له مجازا . قال الواحدى : تنفس : أى امتدّ ضوؤه حتى يصير نهارا ، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس . وقيل (إذا تنفس) إذا انشقّ وانفلق ، ومنه تنفست القوس : أى تصدّعت . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال (إنه لقول رسول كريم) يعنى جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به ، وقيل المراد بالرسول فى الآية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأوّل أولى . ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال (ذى قوّة عند ذى العرش مكين) أى ذى قوّة شديدة فى القيام بما كلف به ، كما فى قوله - شديد القوى - ، ومعنى (عند ذى العرش مكين) أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو فى محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف فلما قدّم صار حالا ، ويجوز أن يكون نعتا لرسول ، يقال مكن فلان عند فلان مكانة : أى صار ذا منزلة عنده ومكانة . قال أبو صالح : من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن ، ومعنى (مطاع) أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه (ثمّ أمين) قرأ الجمهور بفتح « ثمّ » على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو مابعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات أو أمين فيها : أى مؤتمن على الوحى وغيره ، وقرأ هشيم وأبو جعفر وأبوحيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخى فى الرتبة لأن مابعدها أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى : أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحى (وما صاحبكم بمجنون) الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره فى شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه (ولقد رآه بالأفق المبين) اللام جواب قسم محذوف : أى وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين : أى بمطلع الشمس من قبل المشرق ، لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين ، لأن من جهته ترى الأشياء . وقيل الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر :

أخذنا بأقطار السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه (ولقد رآه بالأفق المبين) مع أنه قد رآه غير مرّة ، لأنه رآه هذه المرّة فى صورته له ستمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه فى أفق السماء الشرقى . وقال ابن بحر : فى أفق السماء الغربى . وقال مجاهد : رآه نحو أجياد نحو أجياد وهو مشرق مكة ، والمبين صفة للأفق قاله الربيع . وقيل صفة لمن رآه قاله مجاهد : ، وقيل معنى

الآية : ولقد رأى محمد ربه عزّ وجلّ ، وقد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم (وما هو) أى محمد صلى الله عليه وآله وسلم (على الغيب) يعنى خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة (بضنين) بمتهم : أى هو ثقة فيما يؤدّى عن الله سبحانه . وقيل بضنين ببخيل : أى لايبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ؛ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى « بظنين » بالظاء المشالة : أى بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه . وقرأ الباقون بضنين بالضاد : أى ببخيل ، من ضننت بالشىء أضنّ ضنا : إذا بخلت . قال مجاهد : أى لايظنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقيل المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأوّل أولى (وما هو بقول شيطان رجيم) أى وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب . قال الكلبى : يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان : الشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ثم بكتهم سبحانه ووبخهم فقال (فأين تذهبون) أى أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة . وقال الزجاج : معناه أىّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم ، يقال أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق : أى إليها . قال : سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة ، وأنشد لبعض بنى عقيل :

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا وأىّ الأرض تذهب بالصياح

تريد إلى أىّ الأرض تذهب ، فحذف إلى (إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم ، وقوله (لمن شاء منكم أن يستقيم) بدل من العالمين بإعادة الجار ومفعول المشيئة « أن يستقيم » أى لمن شاء منكم الاستقامة على الحقّ والإيمان والطاعة (وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين) أى وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه ، وأنهم لايقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه ـ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ـ وقوله ـ ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ـ وقوله ـ إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء ـ والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقىّ فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (إذا الشمس كوّرت) قال : أظلمت (وإذا النجوم انكدرت) قال : تغيرت . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن أبى مريم أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال فى قوله (إذا السماء كوّرت) قال : كوّرت فى جهنم (وإذا النجوم انكدرت) قال : انكدرت فى جهنم ، فكلّ من عبد من دون الله فهو فى جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى العالية قال : ست آيات من هذه السورة فى الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست فى الآخرة (إذا الشمس كوّرت) إلى (وإذا البحار سجرت) هذه فى الدنيا والناس ينظرون إليها (وإذا النفوس زوّجت) إلى (وإذا الجنة أزلفت) هذه فى الآخرة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الأهوال وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش فماجوا بعضهم فى بعض (وإذا الوحوش حشرت) قال : اختلطت (وإذا العشار عطلت) قال : أهملها أهلها (وإذا البحار سجرت) قال : الجن

للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبيناهم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم . وأخرج الفريابى وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كلّ شيء الموت غير الجنّ والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب فى المتفق والمفترق عنه فى قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : يحشر كلّ شيء يوم القيامة حتى أن الدوابّ لتحشر . وأخرج البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله (وإذا البحار سجرت) قال : تسجر حتى تصير نارا . وأخرج الطبرانى عنه (سجرت) قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله (وإذا النفوس زوّجت) قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح فى الجنة ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، كذلك تزويج الأنفس : وفى رواية : ثم قرأ - احشروا الذين ظلموا وأزواجهم - وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا . وأخرج البزار والحاكم فى الكنى والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنى وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أعتق عن كل واحدة رقبة ، قال : إنى صاحب إبل ، قال : فأهد عن كل واحدة بدنة » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وإذا الجنة أزلفت) قال : قربت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه من طرق عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (فلا أقسم بالخنس) قال : هى الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (لا أقسم بالخنس) قال خمسة أنجم : زحل وعطارد والمشترى وبهرام والزهرة ، ليس شيء يقطع المجرّة غيرها . وأخرج ابن مردويه والخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى الآية قال : هى النجوم السبعة : زحل وبهرام وعطارد والمشترى والزهرة والشمس والقمر ، خنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود فى قوله (بالخنس الجوارى الكنس) قال : هى بقر الوحش . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هى البقر تكنس إلى الظلّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها فى أصول الشجر تتوارى فيه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : هى الظباء . وأخرج ابن راهويه وعبد ابن حميد والبيهقىّ فى الشعب عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (والجوار الكنس) قال : هى الكواكب . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (الخنس) البقر (والجوار الكنس) الظباء ، ألم ترها إذا كانت فى الظلّ كيف تكنس بأعناقها ومدّت نظرها . وأخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى عن أبى العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل ، فقال يا أمير المؤمنين ما (الجوار الكنس) فطعن عمر بمخصرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه ، فقال عمر : أحرورىّ ؟ والذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك ، وهذا منكر ، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر ولا كان لهم فى ذلك الوقت ذكر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (والليل إذا عسعس) قال : إذا أدبر (والصبح إذا تنفس) قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر . وأخرج الطبرانى عنه (إذا عسعس) قال : إقبال سواده . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا

(إنه لقول رسول كريم) قال : جبريل . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود (ولقد رآه بالأفق المبين) قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إنما عنى جبريل أن محمدا رآه فى صورته عند سدرة المنتهى . وأخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين ، قال : السماء السابعة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (بضنين) بالضاد ، وقال : ببخيل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ (وما هو الغيب بظنين) بالظاء قال : ليس بمتهم . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب فى تاريخه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرؤه (بظنين) بالظاء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت (لمن شاء منكم أن يستقيم) قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كذبوا يامحمد (وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين) .

تفسير سورة الانفطار

هى تسع عشرة آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت (إذا السماء انفطرت) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال « قام معاذ فصلى العشاء فطوّل ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أفتان أنت يامعاذ ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت » وأصل الحديث فى الصحيحين ، ولكن بدون ذكر ـ إذا السماء انفطرت ـ وقد تفرّد بها النسائى ، وقد تقدّم فى سورة التكوير حديث « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ إذا الشمس كوّرت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا
ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّاشَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ
تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَاتَفْعَلُونَ (١٢)
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ
عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨)
يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)

قوله (إذا السماء انفطرت) قال الواحدى : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله ـ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ـ والفطر الشق ، يقال فطرته فانفطر ، ومنه فطرناب البعير : إذا طلع ، قيل والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها ، وقيل انفطرت لهيبة الله (وإذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت متفرقة : يقال نثرت الشىء أنثره نثرا (وإذا البحار فجرت) أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا ، واختلط العذب منها بالمالح . وقال الحسن : معنى فجرت ذهب ماؤها ويبست ، وهذه الأشياء بين يدى الساعة كما تقدّم فى السورة التى قبل هذه (وإذا القبور بعثرت) أى قلب ترابها وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال بعثر المتاع : قلبه ظهرا لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أعلاه أسفله . قال الفراء : بعثرت أخرج مافى بطنها من الذهب والفضة ، وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ، ثم ذكرسبحانه الجواب عما تقدّم فقال : (علمت نفس ماقدّمت وأخرت) والمعنى : أنها علمته عند نشرالصحف لاعند البعث ، لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والكلام فى إفراد نفس هنا كما تقدّم فى السورة الأولى فى قوله ـ علمت نفس ما أحضرت ـ ومعنى (ماقدّمت وأخرت) ماقدّمت من عمل خير أو شرّ ، وما أخرت من سنة حسنة أوسيئة ، لأن لها أجر ماسنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ماسنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها . وقال قتادة : ماقدّمت من معصية وأخرت من طاعة ، وقيل ماقدّم من فرض وأخر من فرض ، وقيل أوّل عمله وآخره ، وقيل إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت وأخرت علما إجماليا ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند نشر الصحف (يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم) هذا خطاب الكفار : أى ما الذى غرّك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذى تفضل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلا فاهما ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التى لاتقدر على جحد شىء منها . قال قتادة : غرّه شيطانه المسلط عليه . وقال الحسن : غرّه شيطانه الخبيث ، وقيل حمقه وجهله ، وقيل غرّه عفو الله إذا لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرّة . كذا قال مقاتل (الذى خلقك فسوّاك فعدلك) أى خلقك من نطفة ولم تك شيئا ، فسوّاك رجلا تسمع وتبصر وتعقل ، فعدلك : جعلك معتدلا . قال عطاء : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة . وقال مقاتل : عدّل خلقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى : عدل بين ماخلق لك من الأعضاء . قرأ الجمهور « فعدّلك » مشدّدا ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ، واختار أبوحاتم وأبو عبيد القراءة الأولى . قال الفراء وأبو عبيد : يدلّ عليها قوله ـ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ـ ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لاتفاوت فيها ، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه وأماله إلى أىّ صورة شاء ، إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا (فى أىّ صورة ماشاء ركبك) فى أىّ صورة متعلق بركبك ، وما مزيدة ، وشاء صفة لصورة : أى ركبك فى أىّ صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله (فعدّلك) والتقدير : فعدّلك ركبك فى أىّ صورة شاءها ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال : أى ركبك حاصلا فى أىّ صورة . ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدّلك . واعترض عليه بأن أىّ لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ماقبلها . قال مقاتل والكلبى ومجاهد : فى أىّ شبه من أب أو أمّ أو خال أو عمّ . وقال مكحول : إن شاء ذكر وإن شاء أنثى ، وقوله (كلا) للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به والمعاصى له ، ويجوز أن يكون بمعنى حقا ، وقوله (بل تكذبون بالدين) إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل : بعد الردع وأنتم لاترتدعون عن ذلك بل

تجاوزونه إلى ماهوأعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام . قال ابن الأنبارى : الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى كلا قبيح ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين : أى بالحساب ، وبل لنفى شىء تقدّم وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوما عندهم وإن لم يجر له ذكر . قال الفراء : كلا ليس الأمر كما غررت به . قرأ الجمهور « تكذبون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة ، وجملة (وإن عليكم لحافظين) فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون : أى تكذبون والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان مايبطل تكذيبهم ، والحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها فى الصحف . ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة (يعلمون ماتفعلون) فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة . قال الرازى : والمعنى التعجيب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى ـ عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ـ . ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال (إن الأبرار لنى نعيم وإن الفجار لنى جحيم) والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذى سيقت له ، وهى كقوله سبحانه ـ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ـ وقوله ـ يصلونها يوم الدين ـ صفة لجحيم ؛ ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل ماحالهم ؟ فقيل (يصلونها يوم الدين) أى يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به ، ومعنى يصلونها : أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرّها يومئذ . قرأ الجمهور « يصلونها » مخففا مبنيا للفاعل ، وقرئ بالتشديد مبنيا للمفعول (وماهم عنها بغائبين) أى لايفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها ، بل هم فيها ، وقيل المعنى : وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم . ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال (وما أدراك مايوم الدين ثم ما أدراك مايوم الدين) أى يوم الجزاء والحساب ، وكرّره تعظيما لقدره وتفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره كما فى قوله ـ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ـ و ـ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ـ والمعنى : أىّ شىء جعلك داريا ما يوم الدين . قال الكلبى : الخطاب للإنسان الكافر . ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع « يوم » على أنه بدل من يوم الدين ، أو خبر مبتدإ محذوف . وقرأ أبو عمرو فى رواية « يوم » بالتنوين ، والقطع عن الإضافة . وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير أعنى أو اذكر ، فيكون مفعولا به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين ، وهو فى محل رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أو على أنه بدل من يوم الدين . قال الزجاج : يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنىّ على الفتح لإضافته إلى قوله (لاتملك) وما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح ، وإن كان فى موضع رفع ، وهذا الذى ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضى ، وأما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسى والفرّاء وغيرهما ، والمعنى : أنها لاتملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرّ (والأمر يومئذ لله) وحده لايملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان . قال مقاتل : يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة . قال قتادة : ليس ثم أحد يقضى شيئا ، أو يصنع شيئا إلا الله ربّ العالمين ، والمعنى : أن الله لايملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا ، ومثل هذا قوله ـ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ـ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (وإذا البحار فجرت) قال : بعضها في بعض ، وفي قوله (وإذا القبور بعثرت) قال : بحثت . وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (علمت نفس ماقدّمت وأخرت) قال : ماقدّمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « من استنّ خيرا فاستنّ به فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استنّ شرّا فاستنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم ، وتلا حذيفة (علمت نفس ماقدّمت وأخرت) » . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية (ماغرّك بربك الكريم) قال : غرّه والله جهله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

تفسير سورة المطففين

هي ست وثلاثون آية

قال القرطبي : وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وقال مقاتل : أيضا هي أوّل سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : هي مدنية إلا ثمان آيات من قوله (إنّ الذين أجرموا) إلى آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المطففين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : آخر مانزل بمكة سورة المطففين . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) .

قوله (ويل للمطففين) ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز . قال مكى والمختار : فى ويل وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب نحو قوله ـ ويلكم لاتفتروا ـ وللمطففين خبره ، والمطفف المنقص ، وحقيقته الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا : أى نزرا حقيرا . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذى ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لايكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشىء اليسير الطفيف . قال أبوعبيدة والمبرد : المطفف الذى يبخس فى الكيل والوزن . والمراد بالويل هنا شدّة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشرّ الشديد ، أو هو واد فى جهنم . قال الكلبى : قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية . وقال السدّى : قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا . ثم بين سبحانه المطففين من هم ؟ فقال (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أى يستوفون الاكتيال والأخذ بالكيل . قال الفرّاء : يريد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن فى هذا الموضع يعتقبان ، يقال اكتلت منك : أى استوفيت منك ، وتقول اكتلت عليك : أى أخذت ماعليك . قال الزجاج : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدّى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال ، ومثله نصحتك ونصحت لك ، كذا قال الأخفش والكسائى والفرّاء . قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ والمدّين إلى الموسم المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لايجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيدا : أى توكيدا للضمير المستكنّ فى الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا . قال أبوعبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا ، ثم يقول هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبوعبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما الخط ، ولذلك كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف . والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى : كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربىّ ؛ كما يقال صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك . وقيل هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون : أى وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى يخسرون : ينقصون كقوله ـ ولا تخسروا الميزان ـ والعرب تقول : خسرت الميزان وأخسرته : ثم خوّفهم سبحانه فقال (ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون) والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل مافعلوه من التطفيف وتفظيعه وللتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المطففين ، والمعنى : أنهم لايخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسئولون

عما يفعلون . قيل والظنّ هنا بمعنى اليقين : أي لايوقن أولئك ، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل الظن على بابه ، والمعنى : إن كانوا لايستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ويتركوا مايخشون من عاقبته . واليوم العظيم هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال (يوم يقوم الناس لربّ العالمين) انتصاب الظرف بمبعوثون المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون . أي يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البدل من محل ليوم ، أو بإضمار أعنى ، أو هو فى محلّ رفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف ، أو فى محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم ، وإنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل . قال الزجاج : يوم منصوب بقوله مبعوثون ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ، ومعنى يوم يقوم الناس : يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه ، أو لحكمه وقضائه . وفى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه وفظاعة عقابه . وقيل المراد بقوله (يوم يقوم الناس) قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم ، وقيل المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل المراد قيام الرسل بين يدى الله للقضاء ، والأوّل أولى . قوله (كلا) هى للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده . ثم استأنف فقال (إن كتاب الفجار لفى سجين) وعند أبى حاتم أن كلا بمعنى حقا متصلة بما بعدها على معنى : حقا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وسجين هو مافسره به سبحانه من قوله (وما أدراك ماسجين . كتاب مرقوم) فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم : أى مسطور ، قيل هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له . وقال قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب ، فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم . وقال أبوعبيدة والأخفش والمبرد والزجاج (لفى سجين) لفى حبس وضيق شديد ، والمعنى : كأنهم فى حبس ، جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم وهوانها . قال الواحدى : ذكر قوم أن قوله (كتاب مرقوم) تفسير لسجين ، وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب فى شىء على ماحكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله (إن كتاب الفجار) على تقدير هو كتاب مرقوم : أى مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ماذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون : أى مايكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر ، وهو سجين . ثم ذكر مايدل على تهويله وتعظيمه ، فقال (وما أدراك ماسجين) ثم بينه بقوله (كتاب مرقوم) . قال الزجاج : معنى قوله (وما أدراك ماسجين) ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . قال قتادة : ومعنى مرقوم : رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر . وكذا قال مقاتل . وقد اختلفوا فى نون سجين ، فقيل هى أصلية واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق ، من الخمر والسكر والفسق . وكذا قال أبوعبيدة والمبرد والزجاج . قال الواحدى : وهذا ضعيف لأن العرب ماكانت تعرف سجينا . ويجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وقيل النون بدل من اللام ، والأصل سجيل ، مشتقا من السجل ، وهو الكتاب . قال ابن عطية : من قال إن سجينا موضع فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله (لفى سجين) ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ،

فكتاب خبر مبتدإ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسرا لسجين ما هو ؟ كذا قال . قال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة . قال الشاعر :

سأرقم بالماء القراح إليكم ... على بعدكم إن كان للماء راقم

(ويل يومئذ للمكذبين) هذا متصل بقوله (يوم يقوم الناس لربّ العالمن) وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل . ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال (الذين يكذبون بيوم الدين) والموصول صفة للمكذبين ، أو بدل منه (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أى فاجر جائر متجاوز فى الإثم منهمك فى أسبابه (إذا تتلى عليه آياتنا) المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قال أساطير الأولين) أى أحاديثهم وأباطيلهم التى زخرفوها . قرأ الجمهور إذا تتلى بفوقيتين . وقرأ أبو حيوة وأبو السماك والأشهب العقيل والسلمى بالتحتية ، وقوله (كلا) للردع والزجر للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطع وتكذيب له ، وقوله (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين . قال أبوعبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها رينا وريونا ، وكل ماغلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك . قال الفرّاء : هو أنها كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين . ثم قرأ هذه الآية . قال أبوزيد : يقال قدرين بالرجل رينا : إذا وقع فيما لايستطيع الخروج منه ولا قبل له به . وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسودّ القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشدّ من الرين ، والإقفال أشدّ من الطبع . قال الزجاج : الرين هو كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين . ثم كرّر سبحانه الردع والزجر فقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل كلا بمعنى حقا : أى حقا إنهم ، يعنى الكفار عن ربهم يوم القيامة لايرونه أبدا . قال مقاتل : يعنى أنهم بعد العرض والحساب لاينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم . قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم فى الدنيا عن توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عزّ وجلّ يرى فى القيامة ، ولو لا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة . وقال جلّ ثناؤه - وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقيل هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك . وقال قتادة وابن أبى مليكة : هو أن لاينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم . وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان (ثم إنهم لصالوا الجحيم) أى داخلو النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخى الرتبة ، لأن صلى الجحيم أشدّ من الإهانة وحرمان الكرامة (ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) أى تقول لهم خزنة جهنم تبكيتا وتوبيخا : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا فانظروه وذوقوه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مانقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال (يوم يقوم الناس لربّ العالمين) حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الآية «(يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال : فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » . وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (يوم يقوم الناس لربّ العالمين) بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال : يارسول الله كم مقام الناس بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة ؟ قال : ألف سنة لا يؤذن لهم . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين ، وهو خدّ إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس . أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (سجين) أسفل الأرضين . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب فى جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح » . قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصح ّ . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال (سجين) الأرض السابعة السفلى . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أمّ بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابنى فأقرئه منى السلام ، فقال : غفر الله لك يا أمّ بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حين شاءت ، وإن نسمة الكافر فى سجين ؟ قال : بلى ، قالت : فهو ذلك » . وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » .

كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢)

وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦).

قوله (كلا) للردع والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة (إن كتاب الأبرار لفى عليين) مستأنفة لبيان ماتضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى حقا ، والأبرار هم المطيعون ، وكتابهم صحائف حسناتهم. قال الفراء : عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع علىّ من العلوّ. قال الزجاج : هو إعلاء الأمكنة. قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقنسرين. قيل هو علم لديوان الخير الذى دوّن فيه ماعمله الصالحون. وحكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شىء من أمر الله لايعدوها ، وقيل هو الجنة. وقال قتادة أيضا : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى ، وقيل إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى كما يقال فلان فى بنى فلان : أى فى جملتهم (وما أدراك ماعليون كتاب مرقوم) أى وما أعلمك يامحمد أىّ شىء عليون على جهة التفخيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال (كتاب مرقوم) أى مسطور ، والكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله (وما أدراك ماسجين كتاب مرقوم) وجملة (يشهده المقربون) صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ، وقيل يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب وابن إسحاق : المقرّبون هنا إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها. ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال (إنّ الأبرار لفى نعيم) أى إن أهل الطاعة لفى تنعم عظيم لايقادر قدره (على الأرائك ينظرون) الأرائك : الأسرّة التى فى الحجال ، وقد تقدّم أنها لاتطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة. قال الحسن : ماكنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ومعنى (ينظرون) أنهم ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما. وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار ، وقيل ينظرون إلى وجهه وجلاله (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أى إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق ، والخطاب لكلّ راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات : إذا أزهر ونوّر. قال عطاء : وذلك أن الله زاد فى جمالهم وفى ألوانهم مالا يصفه واصف. قرأ الجمهور «تعرف» بفتح الفوقية وكسر الراء ، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وطلحة وابن أبى إسحاق بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة (يسقون من رحيق مختوم) قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : الرحيق من الخمر مالا غشّ فيه ولا شىء يفسده ، والمختوم الذى له ختام. وقال الخليل : الرحيق أجود الخمر. وفى الصحاح الرحيق صفرة الخمر. وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد (مختوم) مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى : ختامه آخر طعمه ، وهو معنى قوله (ختامه مسك) أى آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك. وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته. والحاصل أن المختوم والختام

إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه . قرأ الجمهور « ختامه » وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاووس والكسائي « خاتمه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكا : أي آخره . والخاتم والختام يتقاربان في المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء قال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا قال ابن زيد . قال الفرزدق :

وبتن بجانبي مصرّعات وبت أفضّ أغلاف الختام

(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) أي فليرغب الراغبون ، والإشارة بقوله « ذلك » إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة ، وقيل إن في بمعنى إلى : أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل كما في قوله ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ـ وأصل التنافس التشاجر على الشيء والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه ، يقال نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة : أي ظننت به ولم أحبّ أن يصير إليه . قال البغوي : أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه ، وينفس به على غيره : أي يضن به . قال عطاء : المعنى فليستبق المستبقون . وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون ، وقوله (ومزاجه من تسنيم) معطوف على (ختامه مسك) صفة أخرى لرحيق : أي ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصبّ عليهم من علو ، وهو أشرف شراب الجنة ، وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع ، فهي عين ماء تجري من علوّ إلى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور ، ثم بين ذلك فقال (عينا يشرب بها المقربون) وانتصاب عينا على المدح . وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون عينا حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله (يشرب بها) وقال الأخفش : إنها منصوبة بيسقون : أي يسقون عينا ، أو من عين . وقال الفرّاء : إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام كما في قوله ـ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ـ والأوّل أولى ، وبه قال المبرّد . قيل والباء في بها زائدة : أي يشربها ، أو بمعنى من : أي يشرب منها . قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش ، قيل يشرب بها المقرّبون صرفا ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين . ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال (إن الذين أجرموا) وهم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر (كانوا من الذين آمنوا يضحكون) أي كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم (وإذا مرّوا بهم) أي وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم (يتغامزون) من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب : أي يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم ، وقيل يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به (وإذا انقلبوا) أي الكفار (إلى أهلهم) من مجالسهم (انقلبوا فاكهين) أي معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم . والانقلاب : الانصراف . قرأ الجمهور « فاكهين » وقرأ حفص وابن القعقاع والأعرج والسلمي « فكهين » بغير ألف . قال الفرّاء : هما لغتان ، مثل طمع وطامع ، وحذر وحاذر . وقد تقدّم بيانه في سورة الدخان أن الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم (وإذا رأوهم) أي إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان (قالوا إن هؤلاء لضالون) في اتباعهم محمدا ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى : وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأوّل أولى ، وجملة (وما أرسلوا عليهم حافظين) في محل نصب على الحال من فاعل قالوا : أي قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم (فاليوم الذين آمنوا) المراد باليوم : اليوم الآخر (من الكفار يضحكون) والمعنى : أن المؤمنين

فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم مانزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا ، وجملة (على الأرائك ينظرون) فى محل نصب على الحال من فاعل يضحكون : أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ماهم فيه من الحال الفظيع ، وقد تقدّم تفسير الأرائك قريبا . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله وهم يعذبون فى النار ، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا . وقال أبو صالح : يقال لأهل النار اخرجوا ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله ـ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ـ (هل ثوّب الكفار ماكانوا يفعلون) الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بماكان يقع منهم فى الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوّب بمعنى أثيب ، والمعنى : هل جوزى الكفار بماكانوا يفعلونه بالمؤمنين ؟ وقيل الجملة فى محل نصب بينظرون ، وقيل هى على إضمار القول : أى يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوّب الكفار ، والثواب مايرجع على العبد فى مقابلة عمله ويطلق على الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله (إن كتاب الأبرار لفى عليين) قال : روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، ففتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش وتعرج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (لفى عليين) قال : الجنة ، وفى قوله (يشهده المقرّبون) قال : أهل السماء . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين » . وأخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (نضرة النعيم) قال : عين فى الجنة يتوضئون منها ويغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم . وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود فى قوله (يسقون من رحيق مختوم) قال : الرحيق الخمر ، والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عنه فى قوله (مختوم) قال : ممزوج (ختامه مسك) قال : طعمه وريحه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله (من رحيق) قال : خمر ، وقوله (مختوم) قال : ختم بالمسك . وأخرج الفريابى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله (ختامه مسك) قال : ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول خلطه من الطيب كذا وكذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن أبى الدرداء (ختامه مسك) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (تسنيم) أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ويمزج لأصحاب اليمين . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود (مزاجه من تسنيم) قال : عين فى الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقرّبون صرفا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ومزاجه من تسنيم) قال : هذا مما قال الله ـ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين ـ .

تفسير سورة الإنشقاق

هى ثلاث وعشرون آية ، وقيل خمس وعشرون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الانشقاق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى رافع قال : « صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبى القاسم صلى الله عليه وآله وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه » . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : « سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى (إذا السماء انشقت) ـ واقرأ باسم ربك ـ » . وأخرج ابن خزيمة والرويانى فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فى الظهر (إذا السماء انشقت) ونحوها » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ
مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَـٰأَيُّهَا ٱلْإِنْسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُلَـٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ
إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١)
وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ
كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨)
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ
لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) .

قوله (إذا السماء انشقت) هو كقوله ـ إذا الشمس كوّرت ـ فى إضمار الفعل وعدمه . قال الواحدى : قال المفسرون : انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض كما فى قوله ـ ويوم تشقق السماء بالغمام ـ وقيل تنشق من المجرّة ، والمجرّة باب السماء .

واختلف فى جواب إذا ، فقال الفرّاء : إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك ألقت . قال ابن الأنبارى : هذا

غلط ، لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله ـ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ـ ومع لما كقوله ـ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ـ ولا تقحم مع غير هذين . وقيل إن الجواب قوله ـ فملاقيه ـ أى فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش . وقال المبرد : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا : أى يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت . وقال المبرد أيضا : إن الجواب قوله (فأما من أوتى كتابه بيمينه) وبه قال الكسائى ، والتقدير : إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا ، وقيل هو (ياأيها الإنسان) على إضمار الفاء ، وقيل إنه (ياأيها الإنسان) على إضمار القول : أى يقال له يا أيها الإنسان وقيل الجواب محذوف تقديره بعثتم ، أو لاقى كلّ إنسان عمله ، وقيل هو ماصرّح به فى سورة التكوير : أى علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل ليست بشرطية وهى منصوبة بفعل محذوف : أى اذكر ، أوهى مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض ، ومعنى (وأذنت لربها) أنها أطاعته فى الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشىء والإصغاء إليه (وحقت) أى وحقّ لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر : إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا ... منى وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق : أى جعلها حقيقة بذلك . قال الضحاك : حقت أطاعت ، وحقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لاتمتنع مما أراده الله بها . قال قتادة : حقّ لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فان تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت

(وإذا الأرض مدّت) أى بسطت كما تبسط الأدم ، ودكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا . قال مقاتل : سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل مدّت زيد فى سعتها ، من المدد ، وهو الزيادة (وألقت مافيها) أى أخرجت مافيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها (وتخلت) من ذلك . قال سعيد بن جبير : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله ـ وأخرجت الأرض أثقالها ـ (وأذنت لربها) أى سمعت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلى (وحقت) أى وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له ، وقد تقدّم بيان معنى الفعلين قبل هذا (ياأيها الإنسان) المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر ، وقيل هو الإنسان الكافر ، والأوّل أولى لما سيأتى من التفصيل (إنك كادح إلى ربك كدحا) الكدح فى كلام العرب : السعى فى الشىء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشىء خيرا أو شرّا ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك فى عملك ، أو إلى لقاء ربك ، مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه . قال ابن مقبل :

وما الدهـــر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة والضحاك والكلبى : عامل لربك عملا (فملاقيه) أى فملاق عملك ، والمعنى : أنه لامحالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب . قال القتيبى : معنى الآية : إنك كادح : أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك ، والملاقاة بمعنى اللقاء : أى تلقى ربك بعملك ، وقيل فملاق كتاب عملك ، لأن العمل قد انقضى (فأما من أوتى كتابه بيمينه) وهم المؤمنون (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) لامناقشة فيه . قال مقاتل :

لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب بها . وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير (وينقلب إلى أهله مسرورا) أى وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين والولدان المخلدين ، أو إلى جميع هؤلاء مسرورا مبتهجا بما أوتى من الخير والكرامة (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) قال الكلبى : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه . وقال قتادة ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك (فسوف يدعوا ثبورا) أى إذا قرأ كتابه قال : ياويلاه ياثبوراه ، والثبور الهلاك (ويصلى سعيرا) أى يدخلها ويقاسى حرّ نارها وشدّتها . قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وروى إسماعيل المكى عن ابن كثير وكذلك خارجة عن نافع وكذلك روى إسماعيل المكى عن ابن كثير أنهم قرءوا بضم الياء وإسكان الصاد من أصلى يصلى (إنه كان فى أهله مسرورا) أى كان بين أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا أشرا لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة (إنه ظنّ أن لن يحور) تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسرورا ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ، وأن فى قوله (أن لن يحور) هى المخففة من الثقيلة سادّة مع مافى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ ، والحور فى اللغة : الرجوع ، يقال حار يحور : إذا رجع ، وقال الراغب : الحور التردّد فى الأمر ، ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور : أى من التردّد فى الأمر بعد المضىّ فيه ، ومحاورة الكلام مراجعته ، والمحار المرجع والمصير . قال عكرمة وداود بن أبى هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها يرجع . قال القرطبى : الحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعنى من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفى المثل حور فى محار : أى نقصان فى نقصان ، ومنه قول الشاعر : * والذم يبقى وزاد القوم فى حور * والحور أيضا الهلكة ، ومنه قول الراجز : * فى بئر لاحور سرا وما شعر * قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور ، ولا زائدة (بلى إن ربه كان به بصيرا) بلى إيجاب للمنفىّ بلن : أى بلى ليحورنّ وليبعثنّ . ثم علل ذلك بقوله (إنّ ربه كان به بصيرا) أى كان به وبأعماله عالما لا يخفى عليه منها خافية . قال الزجاج : كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالما بأن مرجعه إليه (فلا أقسم بالشفق) لا زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة ، وقد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه ، والشفق : الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة . قال الواحدى : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعا . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، وحكاه القرطبى عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء . وقال أسد بن عمر وأبو حنيفة : فى إحدى الروايتين عنه إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع . قال الخليل : الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة . قال فى الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم ياغلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر : * أحمر اللون كحمرة الشفق * وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال (والليل وما وسق) وقال عكرمة : هو مابقى من النهار ، وإنما قالا هذا لقوله بعده (والليل وما وسق) فكأنه تعالى أقسم بالضياء

والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال: الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء ، وروى عن أسد بن عمرو الرجوع (والليل وما وسق) الوسق عند أهل اللغة : ضم الشىء بعضه إلى بعض ، يقال استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت ، والراعى يسقها : أى يجمعها . قال الواحدى : المفسرون يقولون : وما جمع وضم وحوى ولف ، والمعنى : أنه جمع وضم ما كان منتشرا بالنهار فى تصرفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شىء إلى مأواه ، ومنه قول ضابئ بن الحرث البرجمى :

فإنى وإياكم وسوقا إليكم ... كقابض شيئا لم تنله أنامله

وقال عكرمة (وما وسق) أى وما ساق من شىء إلى حيث يأوى ، فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل (وما وسق) أى وما جن وستر ، وقيل «وماوسق» أى وماحمل ، وكل شىء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ماوسقت عينى الماء : أى حملته ، ووسقت الناقة تسق وسقا : أى حملت . قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : وما وسق وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب . قال القشيرى : ومعنى حمل ضم وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شىء . وقال سعيد بن جبير : وما وسق : أى وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار ، والأول أولى (والقمر إذا اتسق) أى اجتمع وتكامل . قال الفراء : اتساقه امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلى ست عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذى هو الجمع . قال الحسن : اتسق امتلأ واجتمع . وقال قتادة : استدار ، يقال وسقته فاتسق ، كما يقال وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق : أى مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشىء : إذا تتابع (لتركبن طبقا عن طبق) هذا جواب القسم . قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وأبو عمرو لتركبن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد ، وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى العالية ومسروق وأبى وائل ومجاهد والنخعى والشعبى وسعيد بن جبير وقرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع وهم الناس . قال الشعبى ومجاهد: لتركبن يامحمد سماء بعد سماء قال الكلبى : يعنى تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى ، وقيل درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله ورفعة المنزلة ، وقيل المعنى : لتركبن حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدة ، وقيل المعنى : لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا ، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله ـ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ـ واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية قالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم . وقرأ عمر «ليركبن» بالتحتية وضم الموحدة على الإخبار ، وروى عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة : أى ليركبن الإنسان ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهى لغة ، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس . وقيل إن معنى الآية : ليركبن القمر أحوالا من سرار واستهلال ، وهو بعيد . قال مقاتل (طبقا عن طبق) يعنى الموت والحياة . وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق ، أو على الحال من ضمير لتركبن : أى مجاوزين ، أو مجاوزا (فما لهم لايؤمنون) الاستفهام للانكار ، والفاء لترتيب مابعدها من الإنكار والتعجيب على ماقبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أى شىء للكفار لايؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك (وإذا قرئ عليهم القرآن لايسجدون) هذه الجملة الشرطية وجوابها فى محل نصب على الحال : أى أى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن . قال الحسن وعطاء والكلبى ومقاتل : مالهم لايصلون . وقال أبو مسلم : المراد الخضوع والاستكانة . وقيل المراد نفس السجود

المعروف بسجود التلاوة . وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود (بل الذين كفروا يكذبون) أى يكذبون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب (والله أعلم بما يوعون) أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب ، وقال مقاتل : يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

ويقال وعاه حفظه ، ووعيت الحديث أعيه وعيا ، ومنه ـ أذن واعية ـ (فبشرهم بعذاب أليم) أى اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ، لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) هذا الاستثناء منقطع : أى لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون : أى غير مقطوع ، يقال مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فترى خلفهنّ من سرعة الرجـ ـع منينا كأنـه أهبـاء

قال المبرد : المنين الغبار ، لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون ، وقيل معنى غير ممنون أنه لا يمنّ عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (إذا السماء انشقت) قال : تنشقّ السماء من المجرّة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وأذنت لربها وحقت) قال : سمعت حين كلمها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (وأذنت لربها وحقت) قال : أطاعت وحقت بالطاعة . وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت (وإذا الأرض مدّت) قال : يوم القيامة (وألقت ما فيها) قال : أخرجت ما فيها من الموتى (وتخلت) عنهم . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (وألقت ما فيها) قال : سوارى الذهب . وأخرج الحاكم . قال السيوطى بسند جيد عن جابر قال : قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم « تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (إنك كادح إلى ربك كدحا) قال : عامل عملا (فملاقيه) قال : فملاق عملك . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليس أحد يحاسب إلا هلك ، فقلت أليس يقول الله (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ قال : ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى بعض صلاته « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا ، فلما انصرف قلت : يارسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك » وفى بعض ألفاظ الحديث الأوّل وهذا الحديث الآخر « من نوقش الحساب عذّب » . وأخرج البزار والطبرانى فى الأوسط والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا ويدخله الجنة برحمته : تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (يدعوا ثبورا) قال : الويل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (إنه ظنّ أن لن يحور) قال : يبعث . وأخرج

ابن أبي حاتم عنه أيضا (أن لن يحور) قال : أن لن يرجع . وأخرج سمويه فى فوائده عن عمر بن الخطاب قال (الشفق) الحمرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال (الشفق) النهار كله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (والليل وما وسق) قال : وما دخل فيه . وأخرج أبوعبيد فى فضائله وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه (وما وسق) قال : وما جمع . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله (والقمر إذا اتسق) قال : إذا استوى . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (والليل وما وسق) قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

إن لنا قلائصا نقانقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه (والقمر إذا اتسق) قال : ليلة ثلاثة عشر . وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب (لتركبنّ طبقا عن طبق) قال : حالا بعد حال . وأخرج البخارى عن ابن عباس (لتركبنّ طبقا عن طبق) حالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج أبوعبيد فى القراءات وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ (لتركبنّ طبقا عن طبق) يعنى بفتح الباء من تركبنّ . وقال : يعنى نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم حالا بعد حال . وأخرج الطيالسى وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم والطبرانى عنه قال (لتركبنّ) يامحمد السماء (طبقا عن طبق) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والحاكم فى الكنى والطبرانى وابن منده وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ (لتركبنّ) يعنى بفتح الباء . وقال لتركبنّ يامحمد سماء بعد سماء . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عنه (لتركبنّ طبقا عن طبق) قال : يعنى السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عنه أيضا فى الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدّهان ، وتكون واهية ، وتشقق فتكون حالا بعد حال . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (والله أعلم بما يوعون) قال : يسرّون .

تفسير سورة البروج

هى اثنتان وعشرون آية ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت (والسماء ذات البروج) بمكة . وأخرج أحمد قال : حدّثنا عبد الصمد حدّثنا زريق بن أبي سلمى حدّثنا أبو المهزم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق . وأخرج الطيالسى وابن أبي شيبة فى المصنف وأحمد والدارمى وأبوداود والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان والطبرانى والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة : أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فى الظهر و العصر بالسماء والطارق والسماء ذات البروج .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحٰتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰرُ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتٰيكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

قوله (والسماء ذات البروج) قد تقدّم الكلام فى البروج عند تفسير قوله ـ جعل فى السماء بروجا ـ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هى النجوم ، والمعنى : والسماء ذات النجوم . وقال عكرمة ومجاهد أيضا : هى قصور فى السماء . وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن . وقال أبوعبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هى المنازل للكواكب ، وهى اثنا عشر برجا لاثنى عشر كوكبا ، وهى الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . والبروج فى كلام العرب : القصور ، ومنه قوله ـ ولو كنتم فى بروج مشيدة ـ شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها ، وقيل هى أبواب السماء ، وقيل هى منازل القمر ، وأصل البرج الظهور ، سميت بذلك لظهورها (واليوم الموعود) أى الموعود به ، وهو يوم القيامة . قال الواحدى : فى قول جميع المفسرين (وشاهد ومشهود) المراد بالشاهد من يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق : أى يحضر فيه والمراد بالمشهود مايشاهد فى ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة ، لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة . قال الواحدى : وهذا قول الأكثر . وحكى القشيرى عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية ، والمشهود يوم عرفة . وقال النخعى : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر ، وقيل الشاهد هو الله سبحانه . وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، لقوله ـ وكفى بالله شهيدا ـ وقوله ـ قل أىّ شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ـ وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله ـ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ـ وقوله ـ يا أيها النبىّ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ـ وقوله ـ ويكون الرسول عليكم شهيدا ـ وقيل الشاهد جميع الأنبياء

لقوله ـ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ـ وقيل هو عيسى بن مريم لقوله ـ وكنت عليهم شهيدا مادمت فيها ـ والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد ، أو أمم الأنبياء ، أو أمة عيسى . وقيل الشاهد آدم . والمشهود ذريته . وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله ـ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ وقال مقاتل : أعضاؤه لقوله ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم لقوله ـ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ـ وقيل الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم ، وقيل الأيام والليالى . وقيل الشاهد الخلق يشهدون لله عزّ وجلّ بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد والمشهود ، وبيان ما هو الحقّ إن شاء الله (قتل أصحاب الأخدود) هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره ، وقيل تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، والظاهر أنها دعائية ، لأن معنى قتل لعن . قال الواحدى : فى قول الجميع ، والدعائية لاتكون جوابا للقسم ، فقيل الجواب قوله ـ إن الذين فتنوا المؤمنين ـ وقيل قوله ـ إن بطش ربك لشديد ـ وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل وقيل هو مقدّر يدلّ عليه قوله (قتل أصحاب الأخدود) كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وقيل تقدير الجواب : لتبعثنّ ، واختاره ابن الأنبارى . وقال أبو حاتم السجستانى وابن الأنبارى أيضا : فى الكلام تقديم وتأخير : أى قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لايجوز أن يقال : والله قام زيد ، والأخدود : الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقتّ رداءها ... عليه نقىّ اللون لم يتخدّد

وسيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله . قرأ الجمهور (النار ذات الوقود) بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها ، وذات الوقود وصفها بأنها نار عظيمة والوقود : الحطب الذى توقد به ، وقيل هو بدل كل من كل ، لا بدل اشتمال . وقيل إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكى عن الكوفيين . وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم بضمها . وقرأ أشهب العقيلى وأبو حيوة وأبو السماك العدوى وابن السميفع وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى هى النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف : أى أحرقتهم النار (إذ هم عليها قعود) العامل فى الظرف قتل : أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على مايدنو منها ، ويقرب إليها . قال مقاتل : يعنى عند النار قعود يعرضونهم على الكفر . وقال مجاهد : كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود (وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) أى الذين خدّوا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود : أى حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به . وقيل يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم . وقيل على بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع مايفعلون بالمؤمنين شهود . قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى الله (وما نقموا منهم) أى ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) : أى إلا أن صدّقوا بالله الغالب المحمود فى كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم ، وهذا كقوله ـ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ـ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قوله :

لاعيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر: ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكلا عيونها

قرأ الجمهور « نقموا » بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرها ، والفصيح الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على العظم والفخامة فقال (الذى له ملك السموات والأرض) ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد (والله على كل شيء شهيد) من فعلهم بالمؤمنين لايخفى عليه منه خافية ، وفى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين . ثم بين سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين مافعلوا من التحريق فقال (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) : أى حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فتنت الشيء : أى أحرقته ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار لتنظر جودته . ويقال دينار مفتون ، ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله ـ يوم هم على النار يفتنون ـ أى يحرقون ، وقيل معنى فتنوا المؤمنين : محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه ، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ، فلهم عذاب جهنم : أى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة فى محل رفع على أنها خبر إن ، أو الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضرّ نسخه بأنّ خلافا للأخفش ، ولهم عذاب الحريق : أى ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذى وقع منهم للمؤمنين ، وقيل إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير ، وقيل إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأوّل عذاب ببردها ، والثانى عذاب بحرّها . وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبى . ثم ذكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وظاهر الآية العموم ، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوّليا ، والمعنى : أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) : أى لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة . وقد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم : أى ذلك المذكور (الفوز الكبير) الذى لايعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر بالمطلوب ، وجملة (إن بطش ربك لشديد) مستأنفة لخطاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه : أى أخذه للجبابرة والظلمة شديد ، والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله ـ إن أخذه أليم شديد ـ (إنه هو يبدئ ويعيد) أى يخلق الخلق أوّلا فى الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت . كذا قال الجمهور ، وقيل يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأوّل أولى (وهو الغفور الودود) أى بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لايفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . قال مجاهد : الوادّ لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ، وأنشد :

وأركب فى الروع عريانة ذلول الجناح لقاحا ودودا

أى لا ولد لها تحنّ إليه . وقيل الودود بمعنى المودود : أى يودّه عباده الصالحون ويحبونه ، كذا قال الأزهرى .

قال : ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل : أى يكون محبا لهم . قال : وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه . قرأ الجمهور (ذو العرش المجيد) برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالا : لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بالجر على أنه نعت للعرش . وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون . وقيل هو نعت لربك ، ولا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه . وقال مكى : هو خبر بعد خبر ، والأوّل أولى . ومعنى ذو العرش : ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشى تثلم جانباه فلما أن تثلم أفردونى

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل المراد خالق العرش (فعال لما يريد) أى من الإبداء والإعادة . قال عطاء : لايعجز عن شىء يريده ولا يمتنع منه شىء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة . قال ابن جرير : رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لأعراب الغفور الودود ، وإنما قال فعال لأن مايريد ويفعل فى غاية الكثرة . ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال (هل أتاك حديث الجنود) والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه وكونه فعالا لما يريده ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى هل أتاك يامحمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها . ثم بينهم فقال (فرعون وثمود) وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون هو وقومه ، والمراد بثمود القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ماوقع منهم من الكفر والعناد وما وقع عليهم من العذاب ، وقصتهم مشهورة قد تكرّر فى الكتاب العزيز ذكرها فى غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب وعند مشركى العرب ودلّ بهما على أمثالهما . ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين فى عصره صلى الله عليه وآله وسلم لمن تقدّم ذكره ، وبين أنهم أشدّ منهم فى الكفر والتكذيب فقال (بل الذين كفروا فى تكذيب) أى بل هؤلاء المشركون من العرب فى تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار (والله من ورائهم محيط) أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشىء : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط . ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال (بل هو قرآن مجيد) أى متناه فى الشرف والكرم والبركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر (فى لوح محفوظ) أى مكتوب فى لوح ، وهو أمّ الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه . قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن : أى بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح . واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر وابن السميفع فإنهما قرآ بضمها . قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . قيل والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذى فوق السماء السابعة . قال أبو الفضل : اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه . قال فى الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (البروج) قصور فى السماء . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن (السماء ذات البروج) فقال : الكواكب ، وسئل عن قوله

ـ الذى جعل فى السماء بروجا ـ قال : الكواكب ، وعن قوله ـ فى بروج مشيدة ـ قال : القصور . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (واليوم الموعود وشاهد ومشهود) قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيدا لمحمد وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله ، وأحبّ الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لايوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ من شىء إلا أعاذه منه » . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة رفعه (وشاهد ومشهود) قال : الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود هو الموعود يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والمشهود يوم النحر ، والشاهد يوم الجمعة . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية « الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبى هريرة مثله موقوفا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب . وأخرج ابن ماجه والطبرانى وابن جرير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » . وأخرج عبدالرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علىّ أن رجلا سأله عن قوله (وشاهد ومشهود) قال : هل سألت أحدا قبلى ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . قال : لا ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قرأ ـ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ـ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ ـ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ـ . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه عن الحسين بن علىّ فى الآية قال : الشاهد جدّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا ـ إنا أرسلناك شاهدا ـ ذلك يوم مشهود ـ . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى الدنيا والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا ـ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ـ . وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الشاهد الله، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم واستدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشىء شاهد أومشهود ، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد والمشهود فى هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين فى هذا

المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذى ذكر فى آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا (وشاهد ومشهود) هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك . فإن قلت : هل فى المرفوع الذى ذكرته من حديثى أبى هريرة ، وحديث أبى مالك ، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب مايعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت : أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة ، وفى حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضرّ زيادة يوم عرفة عليه فى حديث أبى هريرة الثانى ؛ وأما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم عرفة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم القيامة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة ، وفى حديث جبير ابن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الاجماع على أنه يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى والطبرانى عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم ، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن : انظروا لى غلاما فهما ، أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمى ، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه ، قال : فنظروا له على ماوصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه ، وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة ، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ويبطئ على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لايكاد يحضرنى ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا قال لك أين كنت ؟ فقل عند أهلى ، وإذا قال لك أهلك أين كنت ؟ فأخبرهم أنى كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة ، يقال إنها كانت أسدا ، فأخذ الغلام حجرا فقال : اللهم إن كان مايقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان مايقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا الغلام ، ففزع الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له : إن أنت رددت على بصرى فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لاأريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذى ردّه عليك ؟ قال نعم ، فدعا الله فردّ عليه بصره فآمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذى كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذى أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردّون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلنى حتى تصلبنى وترمينى وتقول إذا رميتنى : بسم الله ربّ الغلام ، فأمر به

فصلب ثم رماه وقال : بسم الله ربّ الغلام ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ؛ فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علما ماعلمه أحد ، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ؛ قال : فخدّ أخدودا ثم ألقى فيه الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه فى هذه النار ، فجعل يلقيهم فى تلك الأخدود ، فقال : يقول الله (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) حتى بلغ (العزيز الحميد)» فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر ابن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل . ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف . وقد رواها مسلم فى أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب . وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به . وأخرجها النسائى عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به . وأخرجها الترمذى عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (أصحاب الأخدود) قال : هم الحبشة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : (والسماء ذات البروج) إلى قوله (وشاهد ومشهود) قال : هذا قسم على (إن بطش ربك لشديد) إلى آخرها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إنه هو يبدئ ويعيد) قال : يبدئ العذاب ويعيده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (الودود) قال : الحبيب ، وفى قوله (ذو العرش المجيد) قال : الكريم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (فى لوح محفوظ) قال : أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلثمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله فى قوله (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) فى جبهة إسرافيل . وأخرج أبو الشيخ ، قال السيوطى بسند جيد عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : اكتب علمى فى خلقى ، فجرى ماهو كائن إلى يوم القيامة اهـ .

تفسير سورة الطارق

هى سبع عشرة آية ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت والسماء والطارق بمكة ، وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه والطبرانى وابن مردويه عن خالد العدوانى « أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصىّ حين أتاهم يبتغى النصر عندهم ، فسمعه يقرأ (والسماء والطارق) حتى ختمها ، قال : فوعيتها فى الجاهلية ، ثم قرأتها فى الإسلام ، قال : فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقرأتها ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم مايقول حقا لاتبعناه » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَيٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا
عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا
نَاصِرٍ (١٠) وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ (١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣)
وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ
رُوَيْدًا (١٧) .

أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وهو النجم الثاقب كما صرّح به التنزيل . قال الواحدى : قال المفسرون : أقسم الله بالسماء والطارق ، يعنى الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار . قال الفرّاء : الطارق النجم لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلا فهو طارق . وكذا قال الزجاج والمبرد : ومنه قول امرئ القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذى تمائم محول

وقوله أيضا : ألم ترياني كلما جئت طارقا   وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ؟ فقيل هو زحل ، وقيل الثريا ، وقيل هو الذى ترمى به الشياطين ، وقيل هو جنس النجم . قال فى الصحاح : والطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق

أى إن آبانا فى الشرف كالنجم المضىء ، وأصل الطروق الدقّ ، فسمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . وقال قوم : إن الطروق قد يكون نهارا ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين : أى مرتين ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير » . ثم بين سبحانه ماهو الطارق ، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال (وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) الثاقب : المضىء ، ومنه يقال ثقب النجم ثقوبا وثقابة إذا أضاء ، وثقوبه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه   بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى : الطارق يقع على كل ما طرق ليلا ، ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله (النجم الثاقب) قال مجاهد : الثاقب المتوهج . قال سفيان : كل ما فى القرآن « وما أدراك » فقد أخبره ، وكل شىء قال « وما يدريك » لم يخبره به ، وارتفاع قوله (النجم الثاقب) على أنه خبر مبتدإ محذوف ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله ، كأنه قيل ماهو ؟ فقيل هو النجم الثاقب (إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدّم فى سورة هود اختلاف القرّاء فى « لما » ، فمن قرأ

بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة ، وما مزيدة : أى إن الشأن كل نفس لعليها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا : أى ماكل نفس إلا عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر وعاصم وحمزة . وقرأ الباقون بالتخفيف . قيل والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ماتكسب من خير وشرّ ، وقيل الحافظ هو الله عزّ وجلّ ، وقيل هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد . والأوّل أولى لقوله ـ وإن عليكم لحافظين ـ وقوله ـ ويرسل عليكم حفظة ـ وقوله ـ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ كما فى قوله ـ فالله خير حافظا ـ وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره (فلينظر الإنسان ممّ خلق) الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبتدإ خلقه ليعلم قدرة الله على ماهو دون ذلك من البعث . قال مقاتل : يعنى المكذب بالبعث (ممّ خلق) من أى شىء خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكر والاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته . ثم بين سبحانه ذلك فقال (خلق من ماء دافق) والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المنىّ ، والدفق : الصبّ ، يقال دفقت الماء : أى صببته ، يقال ماء دافق : أى مدفوق ، مثل ـ عيشة راضية ـ أى مرضية . قال الفرّاء والأخفش : ماء دافق : أى مصبوب فى الرحم . قال الفرّاء : وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم كقولهم : سرّ كاتم : أى مكتوم ، وهمّ ناصب : أى منصوب ، وليل نائم ونحو ذلك . قال الزجاج : من ماء ذى اندفاق ، يقال دارع وقابس ونابل : أى ذو درع وقوس ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما ، ثم وصف هذا الماء فقال (يخرج من بين الصلب والترائب) أى صلب الرجل ، وترائب المرأة ، والترائب جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والولد لايكون إلا من الماءين . قرأ الجمهور « يخرج » مبنيا للفاعل . وقرأ ابن أبى عبلة وابن مقسم مبنيا للمفعول . وفى الصلب : وهو الظهر لغات . قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام . وقرأ اليمانى بفتحهما ، ويقال صالب على وزن قالب . ومنه قول العباس بن عبد المطلب : * تنقل من صلب إلى رحم * فى أبياته المشهورة فى مدح النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . وقد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله ـ الذين من أصلابكم ـ وقيل الترائب : مابين الثديين . وقال الضحاك : ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين . وقال سعيد بن جبير : هى الجيد . وقال مجاهد : هى مابين المنكبين والصدر . وروى عنه أيضا أنه قال : هى الصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى التراقى . وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور فى اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد : * نظام درّ على ترائبها *

قال فى الصحاح : التريبة واحدة الترائب ، وهى عظام الصدر . قال أبوعبيدة : جمع التريبة تريب ، ومنه قول المثقب العبدى :

ومن ذهب بنين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس : * ترائبها مصقولة كالسجنجل * وحكي الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع

من يمنة الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر . قال قتادة والحسن : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة.وحكى الفرّاء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون معنى من بين الصلب ، من الصلب ، وقيل إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ولا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب ، وقيل إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما فى الآية ، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها (إنه على رجعه لقادر) الضمير فى إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله « خلق » عليه ، فإن الذى خلقه هو الله سبحانه ، والضمير فى رجعه عائد إلى الإنسان ، والمعنى : أن الله سبحانه على رجع الإنسان : أى إعادته بالبعث بعد الموت « لقادر » هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يردّ الماء فى الإحليل . وقال عكرمة والضحاك : على أن يردّ الماء فى الصلب . وقال مقاتل ابن حيان يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لايخرج لقادر ، والأوّل أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبى والقرطبى (يوم تبلى السرائر) العامل فى الظرف على التفسير الأوّل ، هو رجعه ، وقيل لقادر.واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل العامل فيه مقدّر :أى يرجعه يوم تبلى السرائر ، وقيل العامل فيه مقدّر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولا به ؛ وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء،فالعامل فى الظرف مقدّر ، وهو اذكر ، ومعنى تبلى السرائر : تختبر وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدرينى فاليوم أبلوك وتبتلينى

أى أختبرك وتختبرنى ، وأمتحنك وتمتحننى ، والسرائر : مايسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغثّ من السمين (فما له من قوة ولا ناصر) أى فما للإنسان من قوّة فى نفسه يمتنع بها عن عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به . قال عكرمة : هؤلاء الملوك مالهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر . قال سفيان : القوة العشيرة ، والناصر الحليف ، والأوّل أولى (والسماء ذات الرجع) الرجع : المطر . قال الزجاج : الرجع المطر لأنه يجىء ويرجع ويتكرر . قال الخليل: الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع . قال أهل اللغة : الرجع المطر . قال المتنخل يصف سيفا له :

أبيض كالرجع رسوب إذا ماباح فى محتفل يختلى

قال الواحدى : الرجع المطر فى قول جميع المفسرين ، وفى هذا الذى حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعن فى السماء تطلع من ناحية وتغيب فى أخرى . وقال بعض المفسرين : ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وقال بعضهم : معنى ذات الرجع : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعا ماقاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمى رجعا . وقيل إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض ، وقيل سمته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم ، وقيل لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت (والأرض ذات الصدع) هو ماتتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر ، والصدع : الشقّ لأنه يصدع الأرض فتنصدع له . قال أبو عبيدة والفرّاء : تتصدّع بالنبات . قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التى تصدعها المياه ، وقيل ذات الحرث لأنه يصدعها ، وقيل ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ وإن كان المراد به الشق فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذى يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله (إنه لقول فصل) أى إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما (وما هو بالهزل) أى لم ينزل باللعب ، فهو جدٌّ ليس بالهزل ، والهزل ضدّ الجدّ . قال الكميت : * تجدّ بنا فى كل يوم وتهزل * (إنهم يكيدون كيدا) أى يمكرون فى إبطال ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدين الحق . قال الزجاج : يخاتلون النبىَّ صلى الله عليه وآله وسلم ويظهرون ماهم على خلافه (وأكيد كيدا) أى أستدرجهم من حيث لايعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم ، قيل هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر (فمهل الكافرين) أى أخرهم ، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم ، وارض بما يدبره لك فى أمورهم ، وقوله (أمهلهم) بدل ، من مهل ومهل وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل ، والإمهال الإنظار ، وتمهل فى الأمر اتأد ، وانتصاب (رويدا) على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف : أى أمهلهم إمهالا رويدا : أى قريبا أو قليلا . قال أبو عبيدة : والرويد فى كلام العرب تصغير الرود ، وأنشد : * كأنها تمشى على رود *

أى على مهل ، وقيل تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتى اسم فعل نحو رويد زيدا : أى أمهله ، ويأتى حالا نحو سار القوم رويدا : أى متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهرىّ ، والبحث مستوفى فى علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والسماء والطارق) قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شئ طرقك بالليل فهو طارق . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (إن كان نفس لما عليها حافظ) قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله (النجم الثاقب) قال : النجم المضىء (إن كل نفس لما عليها حافظ) قال : إلا عليها حافظ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه (يخرج من بين الصلب والترائب) قال : مابين الجيد والنحر . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : تريبة المرأة وهى موضع القلادة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الترائب بين ثديى المرأة . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا قال : الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (إنه على رجعه لقادر) قال : على أن يجعل الشيخ شابا والشابّ شيخا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم و أبوالشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله (والسماء ذات الرجع) قال : المطر بعد المطر (والأرض ذات الصدع) قال : صدعها عن النبات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (والأرض ذات الصدع) تصدّع الأودية . وأخرج ابن منده والديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا (والأرض ذات الصدع) قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (إنه لقول فصل) قال : حقّ (وما هو بالهزل) قال : بالباطل ، وفى قوله (أمهلهم رويدا) قال : قريبا .

تفسير سورة الأعلى

ويقال سورة سبح : هى تسع عشرة آية

وهى مكية فى قول الجمهور . وقال الضحاك : هى مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة سبح اسم ربك الأعلى بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن البراء بن عازب قال : « أوّل من قدم علينا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم ، فجعلا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ـ سبح اسم ربك الأعلى ـ فى سور مثلها » . وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن علىّ قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبّ هذه السورة : سبح اسم ربك الأعلى » . أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن عن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن علىّ . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعا » وفى لفظ « وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما » وفى الباب أحاديث . وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك الأعلى » . وأخرج أبو داود والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن أبىّ بن كعب قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد » . وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة قالت « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الوتر فى الركعة الأولى بسبح ، وفى الثانية قل ياأيها الكافرون ، وفى الثالثة قل هو الله أحد والمعوّذتين » ، وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَٱلَّذِى
أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ إِنَّهُ
يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ ٱلذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ
مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . (١٩) .

قوله (سبح اسم ربك الأعلى) أى نزّهه عن كل مالا يليق به . قال السدّى : سبح اسم ربك الأعلى : أى عظمه ، قيل والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما فى قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والمعنى : سبح ربك الأعلى . قال ابن جرير : المعنى نزّه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون على هذا مقحمة . وقيل المعنى : نزّه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وقال الحسن : معنى سبح اسم ربك الأعلى : صلّ له . وقيل المعنى : صلّ بأسماء الله لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية . وقيل المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك ، ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما ... سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

والأعلى صفة للربّ ، وقيل للاسم ، والأوّل أولى ، وقوله (الذى خلق فسوّى) صفة أخرى للربّ . قال الزجاج : خلق الإنسان مستويا ، ومعنى سوّى : عدّل قامته . قال الضحاك : خلقه فسوّى خلقه ، وقيل خلق الأجساد فسوّى الأفهام ، وقيل خلق الإنسان وهيأه للتكليف (والذى قدّر فهدى) صفة أخرى للربّ ، أو معطوف على الموصول الذى قبله . قرأ علىّ بن أبى طالب والكسائى والسلمى «قدر» مخففا ، وقرأ الباقون بالتشديد . قال الواحدى : قال المفسرون : قدّر خلق الذكر والأنثى من الدوابّ فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ ، والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضا أنه قال فى معنى الآية : قدّر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل قدّر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا ، ولمراعيهم إن كانوا وحشا . وقال عطاء : جعل لكل دابة مايصلحها وهداها له . وقيل خلق المنافع فى الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها . وقال السدّى : قدّر مدّة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . قال الفراء : أى قدّر فهدى وأضلّ فاكتفى بأحدهما ، وفى تفسير الآية أقوال غير ماذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدّر وهدى إلا بدليل يدلّ عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على مايصدق عليه معنى الفعلين ، إما على البدل أو على الشمول ، والمعنى : قدّر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى مايصدر عنه وينبغى له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه (والذى أخرج المرعى) صفة أخرى للربّ : أى أنبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر (فجعله غثاء أحوى) أى فجعله بعد أن كان أخضر غثاء : أى هشيما جافا كالغثاء الذى يكون فوق السيل أحوى : أى أسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلأ إذا يبس اسودّ . قال قتادة : الغثاء الشىء اليابس ، ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس غثاء وهشيم . قال امرؤ القيس :

كأنّ ذرى رأس المجمر غدوة ... من السيل والأغثاء فلكة مغزل

وانتصاب غثاء على أنه المفعول الثانى ، أو على الحال ، وأحوى صفة له . وقال الكسائى : هو حال من المرعى : أى أخرجه أحوى من شدّة الخضرة والرىّ (فجعله غثاء) بعد ذلك ، والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهى سواد يضرب إلى الخضرة . قال فى الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذى الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

(سنقرئك فلا تنسى) أى سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن . قال مجاهد والكلبى : كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بأوّلها مخافة أن ينساها ، فنزلت (سنقرئك فلا تنسى) وقوله (إلا ماشاء الله) استثناء مفرغ من أعمّ المفاعيل : أى لاتنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء إلا ماشاء الله أن تنساه . قال الفرّاء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيئا كقوله ـ خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ـ وقيل إلا ماشاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك ، فإذن قد نسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئا نسيانا كليا . وقيل بمعنى النسخ : أى إلا ماشاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته . وقيل معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ماشاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه . وقيل المعنى : إلا ماشاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل «لا» فى قوله (فلا تنسى) للنهى . والألف مزيدة لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله ـ فأضلونا السبيلا ـ يعنى فلا تغفل قراءته وتذكره (إنه يعلم الجهر وما يخفى) الجملة تعليل لما قبلها : أى يعلم ماظهر وما بطن والإعلان والإسرار ، وظاهره العموم فيندرج تحته ماقيل إن الجهر ماحفظه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن ، وما يخفى هو مانسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضا ماقيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضا ماقيل إن الجهر جهره صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى مافى نفسه مما يدعوه إلى الجهر (ونيسرك لليسرى) معطوف على سنقرئك ، وما بينهما اعتراض . قال مقاتل : أى نهوّن عليك عمل الجنة ، وقيل نوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل ، وقيل للشريعة اليسرى ، وهى الحنيفية السهلة ، وقيل نهوّن عليك الوحى حتى تحفظه وتعمل به ، والأولى حمل الآية على العموم : أى نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين والدنيا فى كلّ أمر من أمورهما التى تتوجه إليك (فذكر إن نفعت الذكرى) أى عظ يامحمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير واهدهم إلى شرائع الدين . قال الحسن : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر . قال الواحدى : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلغا للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله ـ سرابيل تقيكم الحرّ ـ الآية . قال الجرجانى : التذكير واجب وإن لم ينفع ، فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقيل إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم ، وقيل إن بمعنى ما : أى فذكر مانفعت الذكرى ، لأن الذكرى نافعة بكل حال ، وقيل إنها بمعنى قد ، وقيل إنها بمعنى إذ . وما قاله الواحدى والجرجانى أولى وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس . قال الرازى : إنّ قوله (إن نفعت الذكرى) للتنبيه على أشرف الحالين وهو وجود النفع الذى لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بإن على الشىء لايلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشىء ، ويدل عليه آيات : منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى ـ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ـ ومنها قوله ـ ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ـ فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه ، ومنها قوله ـ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ـ والمراجعة جائزة بدون هذا الظنّ ، فهذا الشرط فيه فوائد : منها ماتقدّم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لاتنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة ، فأما الدعاء الأوّل فعامّ انتهى . ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لاتنفعه فقال (سيذكر

من يخشى) أى سيتعظ بوعظك من يخشى الله فيزداد بالتذكير خشية وصلاحا (ويتجنبها الأشقى) أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه فى معاصيه . ثم وصف الأشقى فقال (الذى يصلى النار الكبرى) أى العظيمة الفظيعة ، لأنها أشدّ حرّا من غيرها . قال الحسن : النار الكبرى نار جهنم ، والنار الصغرى نار الدنيا . وقال الزجاج : هى السفلى من أطباق النار (ثم لايموت فيها ولا يحيى) أى لايموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا مالنفس لاتموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم

وثم للتراخى فى مراتب الشدّة ، لأن التردّد بين الموت والحياة أفظع من صلى النار الكبرى (قد أفلح من تزكى) أى من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه . قال عطاء والربيع : من كان عمله زاكيا ناميا . وقال قتادة : تزكى بعمل صالح . قال قتادة وعطاء وأبو العالية : نزلت فى صدقة الفطر . قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدّم زكاتى بين يدى صلاتى . وأصل الزكاة فى اللغة النماء . وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها ، وقيل المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال زكى لاتزكى (وذكر اسم ربه فصلى) قيل المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له ، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه فصلى : أى فأقام الصلوات الخمس ، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبده ، وهو كالقول الأوّل . وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير فى أوّل الصلاة لأنها لاتنعقد إلا بذكره ، وهو قوله ـ الله أكبر ـ وقيل ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى ، وقيل هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاة ، وقيل المراد بالصلاة هنا صلاة العيد ، كما أن المراد بالتزكى فى الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة (بل تؤثرون الحياة الدنيا) هذا إضراب عن كلام مقدّر يدلّ عليه السياق : أى لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية فى الدنيا ، قرأ الجمهور « تؤثرون » بالفوقية على الخطاب ، ويؤيدها قراءة أبىّ « بل أنتم تؤثرون » وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة . قيل والمراد بالآية الكفرة ، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلية ، وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لايخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماما زائدا على اهتمامه بالطاعات وجملة (والآخرة خير وأبقى) فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون : أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا . قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؟ والإشارة بقوله (إن هذا) إلى ماتقدّم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل إنه إشارة إلى جميع السورة ، ومعنى (لفى الصحف الأولى) أى ثابت فيها ، وقوله (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى . قال قتادة وابن زيد : يريد بقوله (إن هذا) والآخرة خير وأبقى . وقالا : تتابعت كتب الله عزّ وجلّ أنّ الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : تتابعت كتب الله جلّ ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى ، وهو قوله (قد أفلح) إلى آخر السورة . قرأ الجمهور « فى الصحف الأولى صحف إبراهيم » بضم الحاء فى الموضعين ، وقرأ الأعمش وهارون وأبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور « إبراهيم » بالألف بعد الراء وبالياء بعد الهاء . وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء ، وقرأ أبو موسى وابن الزبير إبراهام بألفين .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهني قال : « لما نزلت ـ فسبح باسم ربك العظيم ـ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها فى سجودكم » ولا مطعن فى إسناده . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربى الأعلى » : قال أبوداود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا . وأخرجه موقوفا أيضا عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربى الأعلى وفى لفظ لعبد بن حميد عنه قال « إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل : سبحان ربى الأعلى » وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن الأنبارى فى المصاحف عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربى الأعلى وهو فى الصلاة ، فقيل له أتزيد فى القرآن ؟ قال : لا ، إنما أمرنا بشىء فقلته . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى موسى الأشعرى أنه قرأ فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربى الأعلى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربى الأعلى ، وكذلك هى فى قراءة أبىّ بن كعب . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال : إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربى الأعلى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فجعله غثاء) قال : هشيما (أحوى) قال متغيرا . وأخرج ابن مردويه عنه قال : « كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، فقيل له قد كفيناك ذلك ونزلت (سنقرئك فلا تنسى) » . وأخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (إلا ماشاء الله) يقول : إلا ماشئت أنا فأنسيك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (ونيسرك لليسرى) قال : للخير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود ـ ونيسرك لليسرى ـ قال : الجنة . وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (قد أفلح من تزكى) قال « من شهد أن لا إله إلا الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله (وذكر اسم ربه فصلى) قال : هى الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » . قال البزار : لايروى عن جابر إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قد أفلح من تزكى) قال : من الشرك (وذكر اسم ربه) قال : وحد الله (فصلى) قال : الصلوات الخمس . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس (قد أفلح من تزكى) قال : من قال لا إله إلا الله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم فى الكنى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم « أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد ويتلو هذه الآية (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) » . وفى لفظ قال : « سئل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن زكاة الفطر ، فقال (قد أفلح من تزكى) قال : هى زكاة الفطر » وكثير بن عبد الله ضعيف جدّا ، قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب ، وقد صحح الترمذى حديثا من طريقه ، وخطىء فى ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » وليس فى هذين الحديثين

مايدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم تلا الآية وقوله : هي زكاة الفطر ، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي ، وقد قدّمنا أن السورة مكية ، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري (قد أفلح من تزكى) قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد (وذكر اسم ربه فصلى) قال : خرج إلى العيد وصلى . وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر قال « إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) » . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : أرأيت قوله (قد أفلح من تزكى) للفطر قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها . ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود (سبح اسم ربك الأعلى) فلما بلغ (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال (بل يؤثرون الحياة الدنيا) بالياء . وأخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « هي كلها في صحف إبراهيم وموسى » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى ، وفي لفظ : هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى . وأخرج عبد ابن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذرّ قال « قلت يارسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب » الحديث .

تفسير سورة الغاشية

هي ست وعشرون آية ، وهي مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الغاشية بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وقد تقدّم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى ، والغاشية في صلاة العيد ، ويوم الجمعة »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتٰيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلٰى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقٰى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)

لَاتَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٌ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

قوله (هل أتاك حديث الغاشية) قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب : أى قد جاءك يامحمد حديث الغاشية ، وهى القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامى المتضمن التعجيب مما فى خبره ، والتشويق إلى استماعه أولى . وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما فى قوله ـ وتغشى وجوههم النار ـ وقيل الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها والأول أولى . قال الكلبى : المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك (وجوه يومئذ خاشعة) الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماهو ؟ أو مستأنفة استئنافا نحويا لبيان ماتضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة ، ووجوه مرتفع على الابتداء وإن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة القيامة ، وفى سورة النازعات . والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه : أى يوم غشيان الغاشية ، والخاشعة الذليلة الخاضعة ، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت : إذا خفى ، وخشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه . والمراد بالوجوه هنا أصحابها . قال مقاتل : يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله . قال قتادة وابن زيد : خاشعة فى النار ، وقيل أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأول أولى . قوله (عاملة ناصبة) معنى عاملة أنها تعمل عملا شاقا . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : عمل يعمل عملا ، ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملا . قيل وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار (ناصبة) أى تعبة ، يقال نصب بالكسر ينصب نصبا : إذا تعب ، والمعنى : أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله . وقيل إن قوله (عاملة) فى الدنيا إذ لاعمل فى الآخرة : أى تعمل فى الدنيا بالكفر والمعاصى ، وتنصب فى ذلك . وقيل إنها عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة ، والأول أولى . قال قتادة (عاملة ناصبة) تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله ، فأعملها الله ، وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال وحمل الأغلال والوقوف حفاة عراة فى العرصات ـ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب فأعملها وأنصبها فى جهنم . قال الكلبى : يجرون على وجوههم فى النار . وقال أيضا : يكلفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينصبون فيها أشد مايكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل . قرأ الجمهور (عاملة ناصبة) بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدإ ، أوعلى تقدير مبتدأ ، وهما خبران له ، وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد

وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم ، وقوله (تصلى نارا حامية) خبر آخر للمبتدإ : أى تدخل نارا متناهية في الحرّ ، يقال حمى النهار وحمى التنور : أى اشتدّ حرّهما . قال الكسائي : يقال اشتدّ حمى النهار وحموه بمعنى . قرأ الجمهور « تصلى » بفتح التاء مبنيا للفاعل . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمها مبنيا للمفعول . وقرأ أبو رجاء بضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام ، والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات ، والمراد أصحابها كما تقدّم ، وهكذا الضمير (تسقى من عين آنية) والمراد بالعين الآنية : المتناهية في الحرّ ، والآنى : الذى قد انتهى حره ، من الإيناء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إيناء : أى أخرّه وحبسه كما في قوله ـ يطوفون بينها وبين حميم آن ـ قال الواحدى : قال المفسرون : لو وقعت منها نطفة على جبال الدنيا لذابت . ولما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال (ليس لهم طعام إلا من ضريع) هو نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطبا ، فإذا يبس فهو الضريع . كذا قال مجاهد وقتادة وغيرهما من المفسرين . قيل وهو سمّ قاتل ، وإذا يبس لاتقربه دابة ولا ترعاه ، وقيل هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع وهلكت هزالا . قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر . وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا : بالأوّل ، ومنه قول أبي ذؤيب :

رعى الشبرق الرّيان حتى إذا ذوى وعاد ضريعا بان عنه التحايص

وقال الهذلى يذكر إبلا وسوء مرعاها :

وحبسن في هرم الضريع وكلها قرناء دامية اليدين جرود

وقال سعيد بن جبير : الضريع الحجارة ، وقيل هو شجرة في نار جهنم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرّعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك لأن آكله يتضرّع إلى الله في أن يعفى عنه لكراهته وخشونته . قال النحاس : قد يكون مشتقا من الضارع وهو الذليل : أى من شربه يلحقه ضراعة وذلة . وقال الحسن أيضا : هو الزقوم ، وقيل هو واد في جهنم ، وقد تقدّم في سورة الحاقة ـ فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين ـ والغسلين غير الضريع كما تقدّم ، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين . ثم وصف سبحانه الضريع فقال (لايسمن ولا يغنى من جوع) أى لايسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع . قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية . قال المشركون : إن إبلنا تسمن من الضريع ، فنزلت (لايسمن ولا يغنى من جوع) وكذبوا في قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه . وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع . ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال (وجوه يومئذ ناعمة) أى ذات نعمة وبهجة ، وهى وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وما أعدّه الله لهم من الخير الذى يفوق الوصف ، ومثله قوله ـ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ـ ثم قال (لسعيها راضية) أى لعملها الذى عملته في الدنيا راضية ، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرّت به عيونها ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدّم (في جنة عالية) أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر لأن فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين (لاتسمع فيها لاغية) قرأ الجمهور « لاتسمع » بفتح الفوقية ونصب لاغية : أى لاتسمع أنت أيها المخاطب ، أو لاتسمع تلك الوجوه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع

لاغية . وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع لاغية . وقرأ الفضل والجحدرى بفتح التحتية مبنيا للفاعل ونصب لاغية ، واللغو الكلام الساقط . قال الفرّاء والأخفش : أى لاتسمع فيها كلمة لغو . قيل المراد بذلك الكذب والبهتان والكفر قاله قتادة : وقال مجاهد : أى الشتم . وقال الفرّاء : لاتسمع فيها حالفا يحلف بكذب . وقال الكلبى : لاتسمع فى الجنة حالفا بيمين برّة ولا فاجرة . وقال الفرّاء أيضا : لاتسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لايتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على مارزقهم من النعيم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة فى سياق النفى من صيغ العموم ، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص ، ولاغية إما صفة موصوف محذوف : أى كلمة لاغية ، أو نفس لاغية ، أو مصدر : أى لاتسمع فيها لغوا (فيها عين جارية) قد تقدّم فى سورة الإنسان أن فيها عيونا ، والعين هنا بمعنى العيون كما فى قوله ـ علمت نفس ـ ومعنى جارية أنها تجرى مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة . قال الكلبى : لا أدرى بماء أو بغيره (فيها سرر مرفوعة) أى عالية مرتفعة السمك ، أو عالية القدر (وأكواب موضوعة) قد تقدّم أن الأكواب جمع كوب ، وأنه القدح الذى لاعروة له ، ومعنى موضوعة : أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها (ونمارق مصفوفة) النمارق : الوسائد . قال الواحدى : فى قول الجميع ، واحدتها نمرقة بضم النون ، وزاد الفرّاء سماعا عن العرب نمرقة بكسرها . قال الكلبى : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإنا لنجرى الكأس بين شروبنا ... وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال الآخر : كهول وشبان حسان وجوههم ... على سرر مصفوفة ونمارق

قال فى الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة ، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب (وزرابىّ مبثوثة) يعنى البسط ، واحدها زربى وزربية . قال أبو عبيدة والفرّاء : الزرابىّ الطنافس التى لها خمل رقيق ، واحدها زربية ، والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة . وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . قال الواحدى : ويجوز أن يكون المعنى : أنها مفرّقة فى المجالس . وبه قال القتيبى . وقال الفرّاء : معنى مبثوثة كثيرة ، والظاهر أن معنى البث : التفرّق مع كثرة ، ومنه ـ وبث فيها من كل دابة ـ (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره مما مرّ غير مرّة ، والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه ، وكذا مابعدها ، وكيف منصوبة بما بعدها ، والجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل ، والمعنى : أينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه ، أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم وأكبر مايشاهدونه من المخلوقات (كيف خلقت) على ماهى عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوّتها وبديع أوصافها . قال أبوعمرو بن العلاء : إنما خصّ الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لايحمل عليه إلا وهو قائم . قال الزجاج : نبههم على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك فى شىء من الحوامل غيره ، فأراهم عظيما من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده . وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له الفيل أعظم فى الأعجوبة ، فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لايركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب درّه ، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى والقت وتخرج اللبن ويأخذ الصبىّ بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها . وقال المبرد : الإبل هنا هى القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروى عن الأصمعى أنه قال : من قرأ « خلقت » بالتخفيف عنى به البعير ، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب (وإلى السماء كيف رفعت) أى رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لاينالہ الفهم ولا يدركه العقل ، وقيل رفعت فلا ينالها شىء (وإلى الجبال كيف نصبت) على الأرض مرساة راسخة لاتميد ولا تميل ولا تزول (وإلى الأرض كيف سطحت) أى بسطت ، والسطح بسط الشىء ، يقال لظهر البيت إذا كان مستويا : سطح . قرأ الجمهور « سطحت » مبنيا للمفعول مخففا . وقرأ الحسن : بالتشديد . وقرأ علىّ بن أبى طالب وابن السميفع وأبوالعالية : خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها . ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتذكير فقال (فذكر) والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها : أى فعظهم يامحمد وخوّفهم ثم علل الأمر بالتذكير فقال (إنما أنت مذكر) أى ليس عليك إلا ذلك ، و (لست عليهم بمصيطر) المصيطر والمسيطر بالسين والصاد : المسلط على الشىء ليشرف عليه ويتعهد أحواله كذا فى الصحاح : أى لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان ، وهذا منسوخ بآية السيف . قرأ الجمهور « بمصيطر » بالصاد ، وقرأ هشام وقنبل فى رواية بالسين . وقرأ خلف بإشمام الصاد زايا . وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول (إلا من تولى وكفر) هذا استثناء منقطع : أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهو عذاب جهنم الدائم ، وقيل هو استثناء متصل من قوله (فذكر) أى فذكر كلّ أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحقّ العذاب الأكبر ، والأوّل أولى . وإنما قال « الأكبر » لأنهم قد عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر . وقرأ ابن مسعود « فإنه يعذبه الله » وقرأ ابن عباس وقتادة « ألا من تولى » على أنها ألا التى للتنبيه والاستفتاح (إنّ إلينا إيابهم) أى رجوعهم بعد الموت ، يقال آب يئوب : إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكلّ ذى غيبة يئوب ... وغائب الموت لا يئوب

قرأ الجمهور « إيابهم » بالتخفيف ، وقرأ أبوجعفر وشيبة بالتشديد . قال أبو حاتم : لايجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام ، وقيل هما لغتان بمعنى . قال الواحدى : وأما « إيابهم » بتشديد الياء فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج (ثم إنّ علينا حسابهم) يعنى جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث ، وثم للتراخى فى الرتبة لبعد منزلة الحساب فى الشدّة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (هل أتاك حديث الغاشية) قال : الساعة (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) قال : تعمل وتنصب فى النار (تسقى من عين آنية) قال : هى التى قد طال أنيها (ليس لهم طعام إلا من ضريع) قال : الشبرق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) قال : يعنى اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها (تسقى من عين آنية) قال : قد أنى غليانها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (تصلى نارا حامية) قال : حارّة ، (تسقى من عين آنية) قال : انتهى حرّها (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يقول : من شجر من نار . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (إلا من ضريع) قال : الشبرق اليابس . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (لاتسمع فيها لاغية) يقول : لاتسمع أذى ولا باطل وفى قوله (فيها سرر مرفوعة) قال : بعضها فوق بعض (ونمارق) قال : مجالس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا (ونمارق) قال : المرافق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (لست عليهم بمصيطر) قال : جبار (إلا من تولى وكفر) قال حسابه على الله . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا (لست عليهم بمسيطر) ثم نسخ ذلك فقال ـ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (إنّ إلينا إيابهم) قال : مرجعهم :

تفسير سورة الفجر

هى ثلاثون آية ، وقيل تسع وعشرون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : نزلت (والفجر) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال : « صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطوّل ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله جئت أصلى فطوّل علىّ ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناضحى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفتان أنت يامعاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والفجر ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف فى الفجر الذى أقسم الله به هنا ؛ فقيل هو الوقت المعروف ، وسمى فجراً لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم . وقال قتادة : إنه فجر أوّل يوم من شهر محرّم ، لأن منه تتفجر السنة . وقال مجاهد : يريد يوم النحر . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله قرن الأيام به فقال (وليال عشر) أى ليالى عشر من ذى الحجة ، وبه قال السدّى والكلبى . وقيل المعنى : وصلاة الفجر أو ربّ الفجر . والأوّل أولى . وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله (إن ربك لبالمرصاد) كذا قال ابن الأنبارى ، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه : أى ليجازينّ كل أحد بما عمل ، أو ليعذبن ، وقدّره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله : أى والفجر الخ لإيابهم إلينا وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جداً ، وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله ـ هل فى ذلك قسم لذى حجر ـ وأن هل بمعنى قد ، لأن هذا لايصح أن يكون مقسما عليه أبدا (وليال عشر) هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور المفسرين . وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان ، وقيل العشر الأوّل من المحرّم إلى عاشرها يوم عاشوراء . قرأ الجمهور « ليال » بالتنوين ، وعشر صفة لها . وقرأ ابن عباس « وليالى عشر » بالإضافة ، قيل والمراد ليالى أيام عشر ، وكان حقه على هذا أن

يقال عشرة ، لأن المعدود مذكر . وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان (والشفع والوتر) الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها ، وقيل شفع الليالي ووترها . وقال قتادة : الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها ، منها شفع ومنها وتر . وقيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر . وقال مجاهد وعطية العوفي : الشفع الخلق ، والوتر الله الواحد الصمد ، وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب فيها ركعتان والوتر الركعة . وقال الضحاك : الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء . وقيل هما آدم وحواء ، لأن آدم كان وترا فشفع بحوّاء . وقيل الشفع درجات الجنة وهي ثمان ، والوتر دركات النار وهي سبع ، وبه قال الحسين بن الفضل . وقيل الشفع الصفا والمروة ، والوتر الكعبة . وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضا لقوله ـ مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ـ الآية . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كله ، لأن العدد لا يخلو عنهما . وقيل الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس . وقيل الشفع حجج القرآن ، والوتر الإفراد . وقيل الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر الجماد . وقيل الشفع ماسمي ، والوتر مالا يسمى . ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرّد الرأي الزائف ، والخاطر الخاطئ .

والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب ، وهما معروفان واضحان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد . فالمراد بالآية إما نفس العدد أو مايصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر . وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدلّ على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدلّ على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعا من تناولها لغيره . قرأ الجمهور « والوتر » بفتح الواو . وقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسرها ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه وهما لغتان ، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز ، والكسر لغة تميم . قال الأصمعي : كلّ فرد وتر ، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد . وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء ، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة ، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف (والليل إذا يسر) قرأ الجمهور « يسر » بحذف الياء وصلا ووقفا اتباعا لرسم المصحف . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف . قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرءوس الآي . قال الزجاج : والحذف أحب إليّ لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياآت . قال الفرّاء : قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ماقبلها ، وأنشد بعضهم :

كفاك كفّ ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف دما

ماتليق : أي ماتمسك . قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة ، فبتّ على باب داره سنة فقال : الليل لايسرى ، وإنما يسرى فيه ، فهو مصروف عن جهته ، وكلّ ماصرفته عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله ـ وما كانت أمك بغيا ـ ولم يقل بغية ، لأنه صرفها من باغية .

وفي كلام الأخفش هذا نظر ، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لايستلزم صرف لفظه عن بعض مايستحقه ، ولو صحّ ذلك للزم في كلّ المجازات العقلية واللفظية ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، والأصل

هنهنا إثبات الياء ، لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رءوس الآى إجراء للفواصل مجرى القوافى : ومعنى (والليل إذا يسر) إذا يمضى ، كقوله - والليل إذ أدبر - - والليل إذا عسعس - وقيل معنى يسر : يسار فيه ، كما يقال ليل نائم ونهار صائم ، كما فى قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطىّ بنائم

وبهذا قال الأخفش والقتيبى وغيرهما من أهل المعانى ، وبالأوّل قال جمهور المفسرين. وقال قتادة وأبو العالية : (والليل إذا يسر) أى جاء وأقبل . وقال النخعى : أى استوى . قال عكرمة وقتادة والكلبى ومحمد بن كعب : هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة فيها . والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون أخرى (هل فى ذلك قسم لذى حجر) هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور : أى هل فى ذلك المذكور : من الأمور التى أقسمنا بها قسم : أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار (لذى حجر) أى عقل ولبّ ، فمن كان ذا عقل ولبّ علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل هذا قوله - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - . قال الحسن (لذى حجر) أى لذى حلم . وقال أبو مالك : لذى ستر من الناس . وقال الجمهور : الحجر العقل . قال الفرّاء : الكلّ يرجع إلى معنى واحد ، لذى عقل ولذى حلم ولذى ستر ، الكلّ بمعنى العقل . وأصل الحجر المنع ، يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر ، ومنه سمى الحجر لامتناعه بصلابته ، ومنه حجر الحاكم على فلان : أى منعه . قال والعرب تقول : إنه لذو حجر : إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها . ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيرا للكفار فى عصر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وتخويفا لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) قرأ الجمهور بتنوين « عاد » على أن يكون إرم عطف بيان لعاد ، والمراد بعاد اسم أبيهم ، وإرم اسم القبيلة أو بدلا منه ، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث . وقيل المراد بعاد أولاد عاد ، وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى ، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل ، للدلالة على أنهم عاد الأولى لاعاد الأخرى ، ولابدّ من تقدير مضاف على كلا القولين : أى أهل إرم ، أو سبط إرم ؟ فإن إرم هو جدّ عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقرأ الحسن وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم . وقرأ الجمهور « إرم » بكسر الهمزة . وفتح الراء والميم . وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك « أرم » بفتح الهمزة والراء ، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفا ، وقرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التى هى الأعلام واحدها أرم ، وفى الكلام تقديم وتأخير : أى والفجر وكذا وكذا (إنّ ربك لبالمرصاد) ألم تر : أى ألم ينته علمك إلى مافعل ربك بعاد ، وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكلّ من يصلح له ، وقد كان أمر عاد وثمود مشهورا عند العرب ، لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون . وقال مجاهد أيضا : إرم أمة من الأمم ، وقال قتادة : هى قبيلة من عاد ، وقيل هما عادان ، فالأولى هى إرم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجدا تليدا بناه أوّلهم أدرك عادا وقبله إرم

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد وثمود ، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود ، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم . قال أبوعبيدة : هما عادان ، فالأولى إرم . ومعنى ذات العماد : ذات القوّة والشدّة ، مأخوذ من قوة الأعمدة ، كذا قال الضحاك . وقال قتادة ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سيارة فى الربيع ، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم . وقال مقاتل : ذات العماد يعنى طولهم ، كان طول الرجل منهم اثنى عشرة ذراعا ، ويقال رجل طويل العماد : أى القامة . قال أبوعبيدة : ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد : إذا كان طويلا . وقال مجاهد وقتادة : أيضا كان عمادا لقومهم ، يقال فلان عميد القوم وعمودهم : أى سيدهم . وقال ابن زيد : ذات العماد يعنى إحكام البنيان بالعمد . قال فى الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عماد الحىّ خرّت   على الإخفاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى : هى دمشق ، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب : هى الإسكندرية (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) هذه صفة لعاد : أى لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول والشدّة والقوّة ، وهم الذين قالوا ـ من أشدّ منا قوّة ـ أو صفة للقرية على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم أو للأرض التى كانوا فيها . والأوّل أولى ، ويدل عليه قراءة أبىّ «التى لم يخلق مثلهم فى البلاد» وقيل الإرم الهلاك . قال الضحاك إرم ذات العماد : أى أهلكهم فجعلهم رميما ، وبه قال شهر بن حوشب . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وإن حصباءها جواهر وترابها مسك ، وليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بنى آدم ، وإنها لاتزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد ، وهذا كذب بحت لاينفق على من له أدنى تميز . وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال : إن عبد الله بن قلابة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب وافتراء على افتراء ، وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء وفاقرة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب ، تارة على بنى إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على ربّ العالمين ، وتضاعف هذا الشرّ وزاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لاعلم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرّفوا وغيروا وبدّلوا . ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الذى سميته [الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة] . ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهى ثمود على قبيلة عاد فقال (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وهم قوم صالح سُموا باسم جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ، ومعنى جابوا الصخر : قطعوه ، والجوب القطع ، ومنه جاب البلاد : إذا قطعها ، ومنه سمى جيب القميص لأنه جيب : أى قطع . قال المفسرون : أوّل من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومنه قوله سبحانه ـ وتنحتون من الجبال بيوتا آمنين ـ وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها ، وقوله (بالواد) متعلق بجابوا ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادى القرى . قرأ الجمهور «ثمود» بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف . وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها . وقرأ الجمهور أيضا بالواد بحذف الياء وصلا ووقفا اتباعا لرسم المصحف . وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما . وقرأ قنبل فى رواية عنه بإثباتها فى الوصل دون الوقف (وفرعون ذى الأوتاد) أى ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدّونها بالأوتاد ، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدّون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدّهم

إليها . وقد تقدّم بيان هذا فى سورة ص ّ (الذين طغوا فى البلاد) الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون : أى طغت كل طائفة منهم فى بلادهم وتمرّدت وعتت ، والطغيان مجاوزة الحدّ (فأكثروا فيها الفساد) بالكفر ومعاصى الله والجور على عباده ، ويجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هم الذين طغوا ، أو فى محل نصب على الذم (فصبّ عليهم ربك سوط عذاب) أى أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ماعذبهم به . قال الزجاج : جعل صوته الذى ضربهم به العذاب ، يقال : صبّ على فلان خلعة : أى ألقاها عليه ، ومنه قول النابغة :

فصبّ عليه الله أحسن صبغة ... وكان له بين البرية ناصر

ومنه قول الآخر: ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصبّ على الكفار سوط عذاب

ومعنى صوت عذاب : نصيب عذاب ، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم فى الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر مايعذب به . وقيل ذكر السوط للدلالة على شدة مانزل بهم ، وكان السوط عندهم هو نهاية مايعذب به . قال الفرّاء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب ، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل معناه : عذاب يخالط اللحم والدم ، من قولهم ساطه يسوطه سوطا : أى خلطه ، فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض ، ومنه قول كعب بن زهير :

لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال الآخر : أحارث إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمسّ دم دما

وقال آخر : فسطها ذميم الرأى غير موفق ... فلست على تسويطها بمعان

(إن ربك لبالمرصاد) قد قدّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم . والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه صلى الله عليه وآله وسلم سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار ، ومعنى بالمرصاد : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . قال الحسن وعكرمة : أى عليه طريق العباد لايفوته أحد ، والرصد والمرصاد : الطريق . وقد تقدّم بيانه فى سورة براءة ، وتقدّم أيضا عند قوله ـ إن جهنم كانت مرصادا ـ .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (والفجر) قال : فجر النهار . وأخرج ابن جرير عنه قال : يعنى صلاة الفجر . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عنه أيضا فى قوله (والفجر) قال : هو المحرّم فجر السنة ، وقد ورد فى فضل صوم شهر محرّم أحاديث صحيحة ، ولكنها لاتدلّ على أنه المراد بالآية لامطابقة ولا تضمنا ولا التزاما . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن جابر « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال (والفجر وليال عشر والشفع والوتر) قال : إن العشر عشر الأضحى ، والوتر : يوم عرفة ، والشفع : يوم النحر . وفى لفظ : هى ليالى من ذى الحجة » . وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالى العشر التى ذكرها الله فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك ، قال : بلى فاشكك . وقد

ورد فى فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها مايدلّ على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من الوجوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وليال عشر) قال : هى العشر الأواخر من رمضان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه وابن مردويه عن عمران بن حصين « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : هى الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » ، وفى إسناده رجل مجهول ، وهو الراوى له عن عمران بن حصين . وقد روى عن عمران بن عصام على عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول . وقال الترمذى بعد إخراجه بالإسناد الذى فيه الرجل المجهول : هو حديث غريب لانعرفه إلا من حديث قتادة . قال ابن كثير : وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ، والله أعلم . قال : ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر . وقد أخرج هذا الحديث موقوفا على عمران بن حصين عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، فهذا يقوّى ماقاله ابن كثير . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله (والشفع والوتر) فقال : كل شىء شفع فهو اثنان ، والوتر واحد . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى بسند ضعيف عن أبى أيوب عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : « أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : يومان وليلة ، يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » . وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع قول الله ـ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ـ والوتر اليوم الثالث . وفى لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه (والليل إذا يسر) قال : إذا ذهب . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ (والفجر) إلى قوله (إذا يسر) قال : هذا قسم على إن ربك بالمرصاد . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله (قسم لذى حجر) قال : لذى حجى وعقل ونهى . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (بعاد إرم) قال : يعنى بالإرم الهالك ، ألا ترى أنك تقول أرم بنو فلان (ذات العماد) يعنى طولهم مثل العماد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معدى كرب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر (إرم ذات العماد) فقال : كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أىّ حىّ أراد فيهلكهم ، وفى إسناده رجل مجهول لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدّثه عن المقدام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (جابوا الصخر بالواد) قال : خرقوها . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : كانوا ينحتون من الجبال بيوتا (وفرعون ذى الأوتاد) قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدّون له أمره . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله (ذى الأوتاد) قال : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (إن ربك لبالمرصاد) قال : يسمع ويرى . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود فى قوله (إن ربك لبالمرصاد) قال : من وراء الصراط جسور : جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الربّ عزّ وجلّ .

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّآ إِذَا
مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ (١٧) وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا
جَمًّا (٢٠) كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)
وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ
لِحَيَاتِى (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٦) يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ
ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى
جَنَّتِى (٣٠) .

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر مايدلّ على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشرّ ، وأن مطمح أنظارهم ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه) أى امتحنه واختبره بالنعم (فأكرمه ونعمه) أى أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه(فيقول ربى أكرمن) فرحا بما نال وسرورا بما أعطى ، غير شاكر لله على ذلك ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها ، و« ما » فى قوله (إذا ما) زائدة ، وقوله (فأكرمه ونعمه) تفسير للابتلاء ومعنى (أكرمن) أى فضلنى بما أعطانى من المال وأسبغه علىّ من النعم لمزيد استحقاقى لذلك وكونى موضعا له ، والانسان مبتدأ ، وخبره « فيقول ربى أكرمن » ودخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدإ والخبر وإن تقدّم لفظا فهو مؤخر فى المعنى : أى فأما الإنسان فيقول ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام . قال الكلبى : الإنسان هو الكافر أبىّ بن خلف . وقال مقاتل : نزلت فى أمية بن خلف ، وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة وأبى حذيفة بن المغيرة (وأما إذا ما ابتلاه) أى اختبره وعامله معاملة من يختبره (فقدر عليه رزقه) أى ضيقه ولم يوسعه له ، ولا بسط له فيه (فيقول ربى أهانن) أى أولانى هوانا ، وهذه صفة الكافر الذى لايؤمن بالبعث ، لأنه لاكرامة عنده إلا الدنيا والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى مايريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ماصار إليه من الخير وما أصيب به من الشرّ فى الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لاتعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء . قرأ نافع بإثبات الياء فى « أكرمن وأهانن » وصلا وحذفهما وقفا ، وقرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه وابن محيصن ويعقوب بإثباتهما وصلا ووقفا ، وقرأ الباقون بحذفهما فى الوصل والوقف اتباعا لرسم المصحف ولموافقة رءوس الآى ، والأصل إثباتها لأنها اسم ، ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشح ظاهر غمره ... إذا ما انتصبت له أنكرن

أى أنكرنى . وقرأ الجمهور « فقدر » بالتخفيف ، وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان . وقرأ الحرميان وأبو عمرو ربى بفتح الياء فى الموضعين وأسكنها الباقون . وقوله (كلا) ردع للإنسان القائل فى الحالتين ماقال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانته ، بل للاختبار والامتحان كما تقدّم . قال الفراء : كلا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر . ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال (بل لاتكرمون اليتيم) والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية على الخبر ، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور « تحضون » وتأكلون ، وتحبون » بالفوقية على الخطاب فيها . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية فيها ، والجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان ، لأن المراد به الجنس : أى بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر ، وهى أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم . قال مقاتل : نزلت فى قدامة بن مظعون وكان يتيما فى حجر أمية بن خلف (ولا تحضون على طعام المسكين) قرأ الجمهور « تحضون » من حضه على كذا : أى أغراه به ، ومفعوله محذوف : أى لاتحضون أنفسكم ، أو لايحضّ بعضكم بعضا على ذلك ولا يأمر به ولا يرشد إليه ، وقرأ الكوفيون تحاضون بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التاءين : أى لايحضّ بعضكم بعضا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه والسلمى « تحاضون » بضم التاء من الحضّ ، وهو الحث ، وقوله (على طعام المسكين) متعلق بتحضون ، وهو إما اسم مصدر : أى على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعوم ، ويكون على حذف مضاف : أى على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين (وتأكلون التراث) أصله الوراث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة ، كما فى تجاه ووجاه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء ، وذلك أنهم كانوا لا يورّثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم (أكلا لما) أى أكلا شديدا ، وقيل معنى لما جمعا ، من قولهم : لممت الطعام : إذا أكلته جميعا . قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم ، وكذا قال أبو عبيدة . وأصل اللمّ فى كلام العرب : الجمع ، يقال لممت الشىء ألمه لما : جمعته ، ومنه قولهم : لمّ الله شعثه : أى جمع ماتفرّق من أموره ، ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخـا لا تلمه على شعث أىّ الرجال المهذب

قال الليث : اللمّ الجمع الشديد ، ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملمومة ، والآكل يلمّ الثريد فيجمعه ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفه سفا . وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألمّ بمال غيره فأكله ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب (وتحبون المال حبا جما) أى حبا كثيرا ، والجمّ الكثير ، يقال جمّ الماء فى الحوض : إذا كثر واجتمع ، والجمة : المكان الذى يجتمع فيه الماء . ثم كرّر سبحانه الردع لهم والزجر فقال (كلا) أى ماهكذا ينبغى أن يكون عملكم . ثم استأنف سبحانه فقال (إذا دكت الأرض دكا دكا) وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدكّ : الكسر والدق ، والمعنى هنا : أنها زلزلت وحركت تحريكا بعد تحريك . قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت . قال الزجاج : أى تزلزلت فدكّ بعضها بعضا . قال المبرّد : أى بسطت وذهب ارتفاعها . قال والدك : حط المرتفع بالبسط ، وقد تقدّم الكلام على الدك فى سورة الأعراف ، وفى سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى ، وانتصاب دكا الأوّل على أنه مصدر مؤكد للفعل ، ودكا الثانى تأكيد للأوّل ، كذا قال ابن عصفور . ويجوز أن يكون النصب على الحال : أى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب بابا بابا ، وعلمته

الخط حرفا حرفا ، والمعنى : أنه كرّر الدك عليها حتى صارت هباء منبثا (وجاء ربك) أى جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته ، وقيل المعنى : أنها زالت الشبه فى ذلك اليوم وظهرت المعارف وصارت ضرورية كما يزول الشك عند مجىء الشىء الذى كان يشك فيه ، وقيل جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئا من ذلك (والملك صفا صفا) انتصاب صفا صفا على الحال : أى مصطفين ، أو ذوى صفوف . قال عطاء : يريد صفوف الملائكة ، وأهل كل سماء صف على حدة . قال الضحاك : أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكونون سبعة صفوف (وجىء يومئذ بجهنم) يومئذ منصوب بجىء ، والقائم مقام الفاعل بجهنم ، وجوّز مكى أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذاك . قال الواحدى : قال جماعة من المفسرين : جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه يقول يارب نفسى نفسى . وسيأتى الذى هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن شاء الله (يومئذ يتذكر الإنسان) يومئذ هذا بدل من يومئذ الذى قبله : أى يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان ، أى يتعظ ويذكر مافرط منه ويندم على ماقدّمه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . وقيل إن قوله « يومئذ » الثانى بدل من قوله « إذا دكت » والعامل فيهما هو قوله « يتذكر الإنسان » (وأنى له الذكرى) أى ومن أين له التذكر والاتعاظ ، وقيل هو على حذف مضاف : أى ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزجاج : يظهر التوبة ومن أين له التوبة ؟ (يقول ياليتنى قدّمت لحياتى) الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله : يتذكر ، والمعنى : يتمنى أنه قدّم الخير والعمل الصالح ، واللام فى لحياتى بمعنى لأجل حياتى ، والمراد حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة . وقيل إن اللام بمعنى فى ، والمراد حياة الدنيا : أى ياليتنى قدّمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا أنتفع بها هذا اليوم ، والأوّل أولى . قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لاموت فيها (فيومئذ لايعذب عذابه أحد) أى يوم يكون زمان ماذكر من الأحوال لايعذب كعذاب الله أحد (ولا يوثق) كـ (وثاقه أحد) أو لايتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له ، والضميران على التقديرين فى عذابه ووثاقه لله عزّ وجلّ ، وهذا على قراءة الجمهور يعذب ويوثق مبنيين للفاعل . وقرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان : أى لايعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر : أى لايعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر ، وقيل إبليس ، وقيل المراد به أبىّ بن خلف . قال الفرّاء : المعنى أنه لايعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهيه فى الكفر والعناد . وقيل المعنى : أنه لايعذب مكانه أحد ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية ، وهو كقوله ـ ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق ، واختار أبوعبيد وأبوحاتم قراءة الكسائى ، قال : وتكون الهاء فى الموضعين ضمير الكافر ، لأنه معروف أنه لايعذب أحد كعذاب الله . قال أبوعلىّ الفارسى : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة : أى لايعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر . ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال (يا أيتها النفس المطمئنة) المطمئنة هى الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لايخالطها شك ولا يعتريها ريب . قال الحسن : هى المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله ، وقيل المخلصة . قال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث (ارجعي إلى ربك) أي ارجعي إلى الله (راضية) بالثواب الذى أعطاك (مرضية) عنده ، وقيل ارجعي إلى موعده ، وقيل إلى أمره . وقال عكرمة وعطاء : معنى (ارجعي إلى ربك) إلى جسدك الذى كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس « فادخلى فى عبدى » بالإفراد ، والأوّل أولى (فادخلى فى عبادى) أى فى زمرة عبادى الصالحين وكونى من جملتهم وانتظمى فى سلكهم (وادخلى جنّتى) معهم قيل إنه يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا ، ويقال لها : ادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى يوم القيامة ، والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافى ذلك نزولها فى نفس معينة ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أكلا لما) قال : سفا ، وفى قوله (حبا جما) قال : شديدا ، وأخرج ابن جرير عنه (أكلا لما) قال : شديدا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (إذا دكت الأرض دكا دكا) قال : تحريكها . وأخرج مسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وأنى له الذكرى) يقول : وكيف له ؟ وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (فيومئذ لايعذب) الآية قال : لايعذب بعذاب الله أحد ولا يوثق بوثاق الله أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا فى قوله (يا أيتها النفس المطمئنة) قال : المؤمنة (ارجعي إلى ربك) يقول : إلى جسدك . قال « نزلت هذه الآية وأبوبكر جالس ، فقال : يارسول الله ما أحسن هذا ، فقال : أما إنه سيقال لك هذا » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبير نحوه مرسلا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (يأيتها النفس المطمئنة) قال : هو النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال (النفس المطمئنة) المصدّقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : تردّ الأرواح يوم القيامة فى الأجساد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ارجعي إلى ربك راضية) قال : بما أعطيت من الثواب (مرضية) عنها بعملها (فادخلى فى عبادى) المؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لاندرى من تلاها (يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى) . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله .

تفسير سورة البلد

ويقال سورة لا أقسم ، هى عشرون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَٰنَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَٰهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) .

قوله (لا أقسم) لا زائدة ، والمعنى أقسم (بهذا البلد) وقد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير ـ لا أقسم بيوم القيامة ـ ومن زيادة « لا » فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد ضميم القلب لا يتصدّع

أى يتصدّع ، ومن ذلك قوله ـ ما منعك أن لا تسجد ـ أى أن تسجد . قال الواحدى : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة . قرأ الجمهور « لا أقسم » وقرأ الحسن والأعمش « لأقسم » من غير ألف ، وقيل هو نفى للقسم ، والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . وقال مجاهد : إن « لا » رد على من أنكر البعث ، ثم ابتدأ فقال أقسم ، والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون ، والأول أولى . والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذى أنت حلّ فيه . وقال الواسطى : إن المراد بالبلد المدينة ، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية ، وجملة قوله (وأنت حلّ بهذا البلد) معترضة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد (ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان فى كبد) واعترض بينهما بهذه الجملة ، والمعنى : ومن المكابد أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد كما يستحلّ الصيد فى غير الحرم . وقال الواحدى : الحلّ والحلال والمحل واحد ، وهو ضدّ المحرّم ، أحلّ الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل ، وقد قال صلى الله عليه وآله

وسلم «لم تحلّ لأحد قبلى ، ولا تحلّ لأحد بعدى ، ولم تحلّ لى إلا ساعة من نهار » قال : والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما ، فوعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده ، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلا انتهى . فالمعنى : وأنت حلّ بهذا البلد فى المستقبل ، كما فى قوله ـ إنك ميت وإنهم ميتون ـ قال مجاهد : المعنى ماصنعت فيه من شىء فأنت حلّ . قال قتادة أنت حلّ به لست بآثم : يعنى أنك غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصى . وقيل المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حالّ به ومقيم فيه وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حالّ به ، فأنت أحقّ بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذى أنت مقيم به تشريفا لك وتعظيما لقدرك لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيما شريفا ، وزاد على ماكان عليه من الشرف والعظم ، ولكن هذا إذا تقرّر فى لغة العرب أن لفظ حلّ يجىء بمعنى حالّ ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال (ووالد وما ولد) عطف على البلد . قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح (ووالد) أى آدم (وما ولد) أى وما تناسل من ولده أقسم بهم لأنهم أعجب ماخلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون . وقال أبو عمران الجونى : الوالد إبراهيم ، وما ولد : ذريته . قال الفرّاء : إن « ما » عبارة عن الناس كقوله ـ ماطاب لكم ـ وقيل الوالد إبراهيم ، والولد إسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال عكرمة وسعيد ابن جبير : (ووالد) يعنى الذى يولد له (وما ولد) يعنى العاقر الذى لايولد له ، وكأنهما جعلا ما نافية ، وهو بعيد ، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول : أى ووالد والذى ماولد ، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفى : هو عام فى كل والد ومولود من جميع الحيوانات ، واختار هذا ابن جرير (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنسانى ، والكبد : الشدّة والمشقة ، يقال كابدت الأمر : قاسيت شدّته ، والإنسان لايزال فى مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت ، وأصل الكبد الشدّة ، ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد ، ويقال كبد الرجل : إذا وجعت كبده ، ثم استعمل فى كل شدّة ومشقة ، ومنه قول أبى الاصبغ :

لى ابن عم لو أن الناس فى كبد   لظلّ محتجرا بالنبل يرمينى

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال أيضا : يكابد الشكر على السرّاء ، ويكابد الصبر على الضرّاء ، لايخلو عن أحدهما . قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يقال له أبو الأشدين ، وكان يأخذ الأديم العكاظى ويجعله تحت رجليه ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة حتى يتمزّق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه نزل (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) يعنى لقوّته ، ويكون معنى (فى كبد) على هذا : فى شدّة خلق ، وقيل معنى (فى كبد) أنه جرىء القلب غليظ الكبد (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أى يظنّ ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظنّ أبو الأشدّين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدّر . ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال (يقول أهلكت مالا لبدا) أى كثيرا مجتمعا بعضه على بعض . قال الليث : مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته . قال الكلبى ومقاتل : يقول أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيرا . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل : أذنب ، فاستفتى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأمره أن يكفر ، فقال : لقد ذهب مالى فى

الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين محمد . قرأ الجمهور « لبدا » بضم اللام وفتح الباء مخففا . وقرأ مجاهد وحميد بضم اللام والباء مخففا . وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشدّدا . قال أبو عبيدة : لبد فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض . قال الزجاج : فعل للكثرة ، يقال رجل حطم : إذا كان كثير الحطم . قال الفرّاء : واحدته لبدة والجمع لبد . وقد تقدّم بيان هذا فى سورة الجنّ (أيحسب أن لم يره أحد) أى أيظنّ أنه لم يعاينه أحد. قال قتادة : أيظنّ أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبى : كان كاذبا لم ينفق ماقال ، فقال الله : أيظنّ أن الله لم ير ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق . ثم ذكر سبحانه ماأنعم به عليهم ليعتبروا فقال (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما (ولسانا) ينطق به (وشفتين) يستر بهما ثغره . قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به مايدل على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة (وهديناه النجدين) النجد : الطريق فى ارتفاع . قال المفسرون : بينا له طريق الخير وطريق الشرّ . قال الزجاج : المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشرّ ، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين . وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك . النجدان : الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والأوّل أولى . وأصل النجد المكان المرتفع ، وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة ، فالنجدان الطريقان العاليان ، ومنه قول امرئ القيس :

فريقان منهم قاطع بطنَ نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

(فلا اقتحم العقبة) الاقتحام : الرمى بالنفس فى شىء من غير روية ، يقال منه : قحم فى الأمر قحوما : أى رمى بنفسه فيه من غير روية ، وتقحيم النفس فى الشىء : إدخالها فيه من غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة . والعقبة فى الأصل الطريق التى فى الجبل ، سميت بذلك لصعوبة سلوكها ، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر ، فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة . قال الفرّاء والزجاج : ذكر سبحانه هنا « لا » مرة واحدة ، والعرب لاتكاد تفرد لا مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها فى كلام آخر كقوله ـ فلا صدق ولا صلى ـ وإنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله « ثم كان من الذين آمنوا » قائما مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن . قال المبرد وأبو على الفارسى : إن « لا » هنا بمعنى لم : أى فلم يقتحم العقبة ، وروى نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدّم

أى فلم يبدها ولم يتقدم ، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقولهم : لانجاء . قال أبو زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذى بمعنى الإنكار ، تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة . ثم بين سبحانه العقبة فقال (وما أدراك ما العقبة) أى أىّ شىء أعلمك ما اقتحامها (فك رقبة) أى هى إعتاق رقبة وتخليصها من أسار الرق ، وكل شىء أطلقته فقد فككته ، ومنه : فك الرهن ، وفك الكتاب ، فقد بين سبحانه أن العقبة هى هذه القرب المذكورة التى تكون بها النجاة من النار . قال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر ، فاقتحموها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبى : هى الصراط الذى يضرب على جهنم كحدّ السيف . وقال كعب : هى نار دون الجسر . قيل وفى الكلام حذف : أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائى « فكّ رقبة » على أنه فعل ماض ونصب رقبة على المفعولية ، وهكذا قرآ أو اطعم : على أنه فعل

ماض . وقرأ الباقون « فك أو إطعام » على أنهما مصدران وجرّ رقبة بإضافة المصدر إليها ، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلا من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل : فلا فك ولا أطعم ، والفكّ فى الأصل : حلّ القيد ، سمى العتق فكا لأن الرق كالقيد ، وسمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) المسغبة المجاعة ، والسغب الجوع ، والساغب الجائع . قال الراغب : يقال منه سغب الرجل سغبا وسغوبا فهو ساغب وسغبان ، والمسغبة مفعلة منه ، وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حرّا يابن قيس بن عاصم لما بتّ شبعانا وجارك ساغبا

قال النخعى (فى يوم ذى مسغبة) أى عزيز فيه الطعام (يتيما ذا مقربة) أى قرابة ، يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى ، واليتيم فى الأصل : الضعيف يقال : يتم الرجل : إذا ضعف ، واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له ، وقيل : هو من لا أب له ولا أمّ ، ومنه قول قيس بن الملوّح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

(أو مسكينا ذا متربة) أى لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلا التراب ، يقال ترب الرجل يترب تربا ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرّا . قال مجاهد : هو الذى لايقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : هو ذو العيال . وقال عكرمة : هو المديون . وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة . وقال ابن جبير : هو الذى ليس له أحد . وقال عكرمة : هو البعيد التربة الغريب عن وطنه ، والأوّل أولى ، ومنه قول الهذلى :

وكنا إذا ما الضيف حلّ بأرضنا سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور « ذى مسغبة » على أنه صفة ليوم ، ويتيما هو مفعول إطعام . وقرأ الحسن « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول إطعام : أى يطعمون ذا مسغبة ، ويتيما بدل منه (ثم كان من الذين آمنوا) عطف على المنفىّ بلا ، وجاء بثم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان ورفعة محله . وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان ، وقيل المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم . وقيل المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله (وتواصوا بالصبر) معطوف على آمنوا : أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب (وتواصوا بالمرحمة) أى بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة (هم أصحاب الميمنة) أى أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليمن ، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ، وقيل غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره فى سورة الواقعة (والذين كفروا بآياتنا) أى بالقرآن ، أو بما هو أعمّ منه ، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التى تدل على الصانع سبحانه (هم أصحاب المشأمة) أى أصحاب الشمال ، أو أصحاب الشؤم ، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدّم (عليهم نار مؤصدة) أى مطبقة مغلقة ، يقال : أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته ، ومنه قول الشاعر :

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور « موصدة » بالواو . وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمزة مكان الواو ، وهما لغتان ، والمعنى واحد وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (لا أقسم بهذا البلد) قال : مكة (وأنت حلّ بهذا البلد) يعنى بذلك النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيى من شاء ،

فقتل له يومئذ ابن خطل صبرا ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعل فيها حراما حرّمه الله ، فأحلّ الله له ماصنع بأهل مكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله (لا أقسم بهذا البلد) قال مكة (وأنت حلّ بهذا البلد) قال : أنت يامحمد يحلّ لك أن تقاتل فيه ، وأما غيرك فلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال : نزلت هذه الآية (لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد) فىّ ، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (لا أقسم بهذا البلد) قال : أحلّ له أن يصنع فيه ماشاء (ووالد وما ولد) قال : يعنى بالوالد آدم ، وما ولد ولده . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية . قال الوالد الذى يلد ، و ما ولد العاقر لايلد من الرجال والنساء . وأخرج ابن جرير والطبرانى عنه أيضا ووالد قال آدم (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : فى اعتدال وانتصاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : فى نصب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : فى شدّة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : فى شدة خلق ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : خلق الله كل شىء يمشى على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصبا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) قال : منتصبا فى بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأمّ أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق فى الدم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله (مالا لبدا) قال : كثيرا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله (وهديناه النجدين) قال : سبيل الخير والشرّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وهديناه النجدين) قال : الهدى والضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشرّ . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «هما نجدان ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير» تفرّد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان . وقد وثقه يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد والنسائى والجوزجانى : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه ، قد روى خمسة عشر حديثا منكرة كلها ما أعرف منها حديثا واحدا ، يشبه حديثه حديث الحسن البصرى ، لايشبه حديث أنس . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول ، فذكره . وهذا مرسل ، وكذا رواه قتادة مرسلا . أخرجه عنه ابن جرير ويشهد له ما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال «يا أيها الناس إنهما نجدان : نجد خير ، ونجد شرّ ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير» ويشهد له أيضا ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «إنما هما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشرّ ، فلا يكن نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير» . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (وهديناه النجدين) قال : الثديين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله (فلا اقتحم العقبة) قال : جبل زلال فى جهنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : العقبة النار . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : عقبة بين الجنة والنار . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت «لما نزل (فلا اقتحم العقبة) قيل

يارسول الله ماعند أحدنا مايعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه ، فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لأن أمتع بسوط فى سبيل الله أحب إلى من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد » . وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ « لعلاقة سوط فى سبيل الله أعظم أجرا من هذا » . وقد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة : منها فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج » . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (فى يوم ذى مسغبة) قال : مجاعة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه (فى يوم ذى مسغبة) قال : جوع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (يتيما ذا مقربة) قال : ذا قرابة ، وفى قوله (ذا متربة) قال : بعيد التربة : أى غريبا عن وطنه وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (أومسكينا ذا متربة) قال : هو المطروح الذى ليس له بيت . وفى لفظ للحاكم : هو الذى لا يقيه من التراب شىء . وفى لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم (مسكينا ذا متربة) قال : الذى مأواه المزابل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وتواصوا بالمرحمة) يعنى بذلك رحمة الناس كلهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (مؤصدة) قال : مغلقة الأبواب . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة (مؤصدة) قال مطبقة .

تفسير سورة الشمس

هى خمس عشرة آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت والشمس وضحاها بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى عن بريدة : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فى صلاة العشاء والشمس وضحاها وأشباهها من السور » . وقد تقدم حديث جابر فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » وأخرج الطبرانى عن ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بالليل إذا يغشى والشمس وضحاها » . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نصلى ركعتى الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها والضحى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بِطَغْوَيٰهَا (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَيٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا (١٤) فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا (١٥) .

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدّم ومما سيأتي هو على حذف مضاف : أي (و) ربّ (الشمس) وربّ القمر ، وهكذا سائرها ، ولا ملجىء إلى هذا ولا موجب له ، وقوله (وضحاها) هو قسم ثان قال مجاهد : وضحاها : أي ضوئها وإشراقها ، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي . وقال قتادة : ضحاها نهارها كله . قال الفراء : الضحى هو النهار . وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس . قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظلّ ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفا . قيل والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمدّ . قال المبرد : الضحى والضحوة مشتقان من الضحّ وهو النور ، فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف فى جواب القسم ماذا هو ؟ فقيل هوقوله (قد أفلح من زكاها) قاله الزجاج وغيره . قال الزجاج : وحذفت اللام ، لأن الكلام قد طال ، فصار طوله عوضا منها ، وقيل الجواب محذوف : أي والشمس ، وكذا لتبعثنّ ، وقيل تقديره : ليدمدمنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا ، وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهمها فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جوابَ القسم فى شيء ، وقيل هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والشمس وضحاها ، والأوّل أولى (والقمر إذا تلاها) أي تبعها ، وذلك بأن طلع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلوا : إذا تبع . قال المفسرون : وذلك فى النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر فى الإضاءة وخلفها فى النور . قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس فى الضياء والنور ، يعني إذا كمل ضوءه فصار تابعا للشمس فى الإنارة ، يعني كان مثلها فى الإضاءة ، وذلك فى الليالى البيض . وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها . قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال . قال ابن زيد : إذا غربت الشمس فى النصف الأوّل من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها : يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس (والنهار إذا جلاها) أي جلى الشمس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلى تمام الانجلاء ، فكأنه جلاها مع أنها الذى تبسطه . وقيل الضمير عائد إلى الظلمة : أي جلى الظلمة ، وإن لم يجر للظلمة ذكر لأن المعنى معروف . قال الفراء : كما تقول أصبحت باردة : أي أصبحت غداتنا باردة ، والأوّل أولى ، ومنه قول قيس بن الحطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل المعنى : جلى ما فى الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل ، وقيل جلى الدنيا وقيل جلى الأرض (والليل إذا يغشاها) أي يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق ، وقيل يغشى الآفاق ، وقيل الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف ، والأوّل أولى (والسماء وما بناها) يجوز أن تكون ما مصدرية أي والسماء وبنيانها ، ويجوز أن تكون موصولة : أي والذى بناها ، وإيثار « ما » على من لإرادة الوصفية

لقصد التفخيم كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذى بناها . ورجح الأوّل الفراء والزجاج ، ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مخلّ بالنظم . ورجح الثانى ابن جرير (والأرض وماطحاها) الكلام فى «ما» هذه كالكلام فى التى قبلها ، ومعنى طحاها بسطها ، كذا قال عامة المفسرين ، كما فى قوله (دحاها) قالوا : طحاها ودحاها واحد : أى بسطها من كل جانب ، والطحو البسط ، وقيل معنى طحاها قسمها ، وقيل خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

والأوّل أولى . والطحو أيضا : الذهاب . قال أبو عمرو بن العلاء : طحا الرجل : إذا ذهب فى الأرض ، يقال ما أدرى أين طحا ؟ ويقال طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

(ونفس وما سوّاها) الكلام فى «ما» هذه كما تقدّم ، ومعنى سوّاها خلقها وأنشأها وسوّى أعضاءها . قال عطاء : يريد جميع ماخلق من الجنّ والإنس ، والتنكير للتفخيم ، وقيل المراد نفس آدم (فألهمها فجورها وتقواها) أى عرّفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح . قال مجاهد : عرّفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية . قال الفراء : فألهمها عرّفها طريق الخير وطريق الشرّ ، كما قال ـ وهديناه النجدين ـ . قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشرّ ألهمه الشرّ فعمل به . قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان . قال الواحدى : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع فى قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله فى قلب عبده شيئا ألزمه ذلك الشىء . قال : وهذا صريح فى أن الله خلق فى المؤمن تقواه ، وفى الكافر فجوره .(قد أفلح من زكاها) أى قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكلّ مطلوب وظفر بكلّ محبوب ، وقد قدّمنا أن هذا جواب القسم على الراجح ، وأصل الزكاة : النموّ والزيادة ، ومنه زكا الزرع : إذا كثر (وقد خاب من دساها) أى خسر من أضلها وأغواها . قال أهل اللغة : دساها أصله دسسها من التدسيس ، وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فمعنى دساها فى الآية : أخفاها وأخملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح ، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فيقصدها الضيوف ، وكانت لئام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين . وقيل معنى دساها : أغواها ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابى (وقد خاب من دساها) أى دسّ نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم (كذبت ثمود بطغواها) الطغوى : اسم من الطغيان كالدعوى من الدعاء . قال الواحدى : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغيانها أى الطغيان حملتهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحدّ فى المعاصى ، والباء للسببية . وقيل كذبت ثمود بطغواها أى بعذابها الذى وعدت به ، وسمى العذاب طغوى لأنه طغى عليهم فتكون الباء على هذا للتعدية . وقال محمد بن كعب : بطغواها : أى بأجمعها . قرأ الجمهور «بطغواها» بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجحدرى ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء ؛ فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الياء واوا للفرق بين الاسم والصفة لأنهم يقلبون الياء فى الأسماء كثيرا نحو تقوى وسروى ، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ونحوهما ، وقيل هما لغتان (إذ انبعث أشقاها) العامل فى الظرف كذبت ، أو بطغواها : أى حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف فعقر الناقة ، ومعنى انبعث : انتدب لذلك وقام به ، يقال بعثته على الأمر فانبعث له ، وقد

تقدّم بيان هذا فى الأعراف (فقال لهم رسول الله) يعنى صالحا (ناقة الله) قال الزجاج : ناقة الله منصوبة على معنى ذروا ناقة الله . قال الفراء : حذرهم إياها ، وكل تحذير فهو نصب (وسقياها) معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء . قال الكلبي ومقاتل : قال لهم صالح : ذروا ناقة الله فلا تعقروها وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر فلا تعرّضوا له يوم شربها فكذبوا بتحذيره إياهم (فعقروها) أى عقرها الأشقى ، وإنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله . قال قتادة : إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . قال الفراء : عقرها اثنان ، والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقياها (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها) أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ، وحقيقة الدمدمة : تضعيف العذاب وترديده ، يقال دمدمت على الشىء : أى أطبقت عليه ، ودمدم عليه القبر : أى أطبقه ، وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدمدمة : إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج . قال فى الصحاح : دمدمت الشىء : إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ، ودمدم الله عليهم : أى أهلكهم . وقال ابن الأعرابى : دمدم إذا عذّب عذابا تاما . والضمير فى فسوّاها يعود إلى الدمدمة : أى فسوّى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم ، وقيل يعود إلى الأرض : أى فسوّى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب ، وقيل يعود إلى الأمة : أى ثمود . قال الفراء : سوّى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوّى بينهم . قرأ الجمهور « فدمدم » بميم بين الدالين ، وقرأ ابن الزبير « فدهدم » بهاء بين الدالين . قال القرطبي : وهما لغتان كما يقال : امتقع لونه ، واهتقع لونه (فلا يخاف عقباها) أى فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبة ولا تبعة ، والضمير فى عقباها يرجع إلى الفعلة ، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم . وقال السدّى والضحاك والكلبي : إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه : أى لم يخف الذى عقرها عقبى ما صنع . وقيل لايخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور « ولا يخاف » بالواو ، وقرأ نافع وابن عامر بالفاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (وضحاها) قال : ضوءها (والقمر إذا تلاها) قال : تبعها (والنهار إذا جلاها) قال : أضاءها (والسماء وما بناها) قال : الله بنى السماء (والأرض وما طحاها) قال : دحاها (فألهمها فجورها وتقواها) قال : علمها الطاعة والمعصية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (والأرض وما طحاها) يقول : قسمها (فألهمها فجورها وتقواها) قال : من الخير والشرّ . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا (فألهمها) قال : ألزمها فجورها وتقواها . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين « أن رجلا قال : يارسول الله أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، شىء قد قضى عليهم ، ومضى فى قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم واتخذت عليهم به الحجة ، قال : بل شىء قد قضى عليهم ؟ قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها وتصديق ذلك فى كتاب الله (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها) » وسيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والنسائى عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » . وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد « كان إذا تلا هذه الآية (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها) قال : فذكره » وزاد أيضا « وهو فى الصلاة » . وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا . وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (قد أفلح من زكاها) يقول :

قد أفلح من زكى الله نفسه (وقد خاب من دساها) يقول : قد خاب من دسّ الله نفسه فأضله (ولا يخاف عقباها) قال : لايخاف من أحد تبعة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (وقد خاب من دساها) يعنى مكر بها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى قوله (قد أفلح من زكاها) الآية : أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير » وجويبر ضعيف . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (بطغواها) قال : اسم العذاب الذى جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها ، فقال (إذ انبعث أشقاها) قال : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة » . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والبغوى والطبرانى وابن مردويه والحاكم وأبو نعيم فى الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى : « ألا أحدّثك بأشقى الناس ؟ قال بلى . قال رجلان : أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك على هذا » يعنى قرنه « حتى تبتل منه هذه » يعنى لحيته .

تفسير سورة الليل

هى إحدى وعشرون آية

وهى مكية عند الجمهور ، وقيل مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة (والليل إذا يغشى) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : « كان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الظهر والعصر (والليل إذا يغشى) ونحوها » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته ، فقرأ (والشمس وضحاها ـ والليل إذا يغشى) فقال له أبىّ بن كعب : يارسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشىء ؟ قال : لا ، ولكن أردت أن أوقت لكم » وقد تقدّم حديث « فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى ؟ » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنى لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل (والليل إذا يغشى) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا

تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَيهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧)
ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
ٱلْأَعْلَى ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) .

قوله (والليل إذا يغشى) أى يغطى بظلمته ماكان مضيئا . قال الزجاج : يغشى الليل الأفق وجميع مابين السماء والأرض فيذهب ضوء النهار ، وقيل يغشى النهار ، وقيل يغشى الأرض ، والأول أولى (والنهار إذا تجلى) أى ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل ، وذلك بطلوع الشمس (وما خلق الذكر والأنثى) ما هنا هى الموصولة : أى والذى خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم : أى والقادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى . قال الحسن والكلبي : معناه والذى خلق الذكر والأنثى فيكون قد أقسم بنفسه . قال أبو عبيدة : وما خلق : أى ومن خلق . وقال مقاتل : يعنى وخاتى الذكر والأنثى فتكون «ما» على هذا مصدرية . قال الكلبي ومقاتل : يعنى آدم وحواء ، والظاهر العموم . قرأ الجمهور « وما خلق الذكر والأنثى » وقرأ ابن مسعود « والذكر والأنثى » بدون ما خلق (إن سعيكم لشتى) هذا جواب القسم : أى إن عملكم لمختلف : فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل للنار . قال جمهور المفسرين : السعى العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها ، وشتى جمع شتيت : كمرضى ومريض ، وقيل للمختلف شتى لتباعد مابين بعضه وبعض (فأما من أعطى واتقى) أى بذل ماله فى وجوه الخير واتقى محارم الله التى نهى عنها (وصدق بالحسنى) أى بالخلف من الله . قال المفسرون : فأما من أعطى المعسرين . وقال قتادة : أعطى حق الله الذى عليه . وقال الحسن : أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى : أى بلا إله إلا الله ، وبه قال الضحاك والسلمى . وقال مجاهد : بالحسنى بالجنة . وقال زيد بن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم ، والأول أولى . قال قتادة : بالحسنى : أى بموعود الله الذى وعده أن يثيبه . قال الحسن : بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير (فسنيسره لليسرى) أى فسنهيئه للخصلة الحسنى ، وهى عمل الخير ، والمعنى : فسنيسر له الإنفاق فى سبيل الخير والعمل بالطاعة لله . قال الواحدى : قال المفسرون : نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعذبونهم فى الله (وأما من بخل واستغنى) أى بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير ، واستغنى : أى زهد فى الأجر والثواب ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة (وكذب بالحسنى) أى بالخلف من الله عز وجل ، وقال مجاهد : بالجنة ، وروى عنه أيضا أنه قال : بلا إله إلا الله (فسنيسره للعسرى) أى فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ويضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار . قال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . قيل العسرى الشر ، وذلك أن الشر يؤدى إلى العذاب ، والعسرة فى العذاب ، والمعنى : سنهيئه للشر بأن نجريه على يديه . قال الفراء : سنيسره سنهيئه ، والعرب تقول : قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال الشاعر :

هما سيدانا يزعمان وإنما يسودانا إن يسرت غنماهما

(وما يغنى عنه ماله إذا تردى) أى لايغنى عنه شيئا ماله الذى بخل به ، أو أى شيء يغنى عنه إذا تردى : أى هلك ، يقال ردى الرجل يردى ردى ، وتردى يتردى : إذا هلك . وقال قتادة : وأبو صالح وزيد بن أسلم :

إذا تردّى : إذا سقط فى جهنم ، يقال ردى فى البئر وتردّى : إذا سقط فيها ، ويقال ما أدرى أين ردى : أى أين ذهب ؟ (إن علينا للهدى) هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها : أى إن علينا البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان : بيان حرامه وطاعته ومعصيته . قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، لقوله ـ وعلى الله قصد السبيل ـ يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال الفراء أيضا : المعنى إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله ـ سرابيل تقيكم الحر ـ وقيل المعنى : إن علينا ثواب هداه الذى هديناه (وإن لنا للآخرة والأولى) أى لنا كلّ ما فى الآخرة ، وكلّ ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا ، وقيل المعنى : إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا (فأنذرتكم نارا تلظى) أى حذرتكم وخوّفتكم نارا تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف (لايصلاها إلا الأشقى) أى يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر ، وإن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه ، والمراد بقوله يصلاها : يدخلها أو يجد صلاها ، وهو حرّها . ثم وصف الأشقى فقال (الذى كذب وتولّى) أى كذب بالحق الذى جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان . قال الفراء (إلا الأشقى) إلا من كان شقيا فى علم الله جلّ ثناؤه . قال أيضا : لم يكن كذب بردّ ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا كما تقول لقى فلان العدوّ فكذّب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال الزجاج : هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لايدخل النار إلا كافر ، ولأهل النار منازل ، فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . والله سبحانه كلّ ما وعد عليه بجنس من العذاب ، فجدير أن يعذب به ، وقد قال ـ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ فلو كان كلّ من لم يشرك لم يعذب لم يكن فى قوله ـ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ فائدة . وقال فى الكشاف : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقيل الأشقى ، وجعل مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل المراد بالأشقى أبوجهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبوبكر الصدّيق ، ومعنى (سيجنبها الأتقى) سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا . قال الواحدى : الأتقى أبوبكر الصدّيق فى قول جميع المفسرين انتهى ، والأولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين ، ويكون المعنى أنه لايصلاها صليا تاما لازما إلا الكامل فى الشقاء وهو الكافر ، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيدا كاملا بحيث لايحوم حولها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى ، فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها . والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله (لايصلاها إلا الأشقى) زاعما أن الأشقى الكافر ، لأنه الذى كذب وتولى ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين فيقال له : فما تقول فى قوله (وسيجنبها الأتقى) فإنه يدلّ على أنه لايجنب النار إلا الكامل فى التقوى ، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله فى الأشقى فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لاعلىّ ولا ليه

وقيل أراد بالأشقى والأتقى الشقىّ والتقىّ ، كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد ، ولا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب ، فإن ذلك لايكون إلا من الكافر فلا يتمّ ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين . ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال (الذى يؤتى ماله) أى يعطيه ويصرفه فى وجوه الخير ، وقوله (يتزكى) فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى : أى حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكيا لايطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز أن يكون بدلا من يؤتى داخلا معه فى حكم الصلة . قرأ الجمهور « يتزكى » مضارع تزكى . وقرأ علىّ بن الحسين بن على « تزكى » بإدغام التاء فى الزاى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الجملة مستأنفة لتقرير ماقبلها من كون التزكى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص : أى ليس ممن يتصدّق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغى بصدقته وجه الله تعالى ؛ ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء مايؤتى من ماله مجازاتها ، وإنما قال تجزى مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزيها إياه ، أو يجزيه إياها (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) قرأ الجمهور « إلا ابتغاء » بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة : أى لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول له على المعنى : أى لايؤتى إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة . قال الفراء : هو منصوب على التأويل : أى ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ، لأن محلها الرفع إما على الفاعلية وإما على الابتداء ، ومن مزيدة ، والرفع لغة تميم ، لأنهم يجوّزون البدل فى المنقطع ويجرونه مجرى المتصل . قال مكى : وأجاز الفراء الرفع فى « ابتغاء » على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد . قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضا « ابتغاء » بالمدّ ، وقرأ ابن أبى عبلة بالقصر والأعلى نعت للربّ (ولسوف يرضى) اللام هى الموطئة للقسم : أى وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم . قرأ الجمهور « يرضى » مبنيا للفاعل ، وقرئ مبنيا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس (والليل إذا يغشى) قال : إذا أظلم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصدّيق اشترى بلالا من أمية بن خلف وأبىّ بن خلف ببردة وعشر أواق فأعتقه لله ، فأنزل الله (والليل إذا يغشى) إلى قوله (إن سعيكم لشتى) سعى أبى بكر وأمية وأبىّ إلى قوله (وكذب بالحسنى) قال : لا إله إلا الله إلى قوله (فسنيسره للعسرى) قال : النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (فأما من أعطى) من الفضل (واتقى) قال : اتقى ربه (وصدّق بالحسنى) قال : صدّق بالخلف من الله (فسنيسره لليسرى) قال : للخير من الله (وأما من بخل واستغنى) قال : بخل بماله واستغنى عن ربه (وكذب بالحسنى) قال : بالخلف من الله (فسنيسره للعسرى) قال : للشرّ من الله . وأخرج ابن جرير عنه (وصدّق بالحسنى) قال : أيقن بالخلف . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (وصدّق بالحسنى) يقول : صدّق بلا إله إلا الله (وأما من بخل واستغنى) يقول : من أغناه الله فبخل بالزكاة . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنىّ أراك تعتق أناسا ضعفا ، فلو أنك تعتق رجالا جلدا يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . قال : أى أبت إنما أريد ماعند الله ، قال : فحدّثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه (فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (فأما من أعطى واتقى

وصدّق بالحسنى) قال : أبوبكر الصدّيق (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) قال : أبوسفيان بن حرب ، وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علىّ بن أبى طالب قال : « كنا مع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة ، فقال « مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى ـ إلى قوله ـ للعسرى) » . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله « أن سراقة بن مالك قال : يارسول الله فى أىّ شىء نعمل ؟ أفى شىء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام ، أم فى شىء يستقبل فيه العمل ؟ قال : بل فى شىء ثبتت فيه المقادير وجرت فيه الأقلام ، قال سراقة : ففيم العمل إذن يارسول الله ؟ قال : اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (فأما من أعطى واتقى ـ إلى قوله ـ فسنيسره للعسرى) » . وقد تقدّم حديث عمران ابن حصين فى السورة التى قبل هذه . وفى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : « لتدخلن الجنة إلا من يأبى ، قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ (الذى كذّب وتولى) » . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : لايبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة ، إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله ، فمن لم يصدّقنى فإن الله يقول (لايصلاها إلا الأشقى الذى كذّب وتولى) كذّب بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عنه . وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبى أمامة الباهلى أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لايدخل النار إلا شقىّ . قيل ومن الشقىّ ؟ قال : الذى لايعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية » . وأخرج أحمد والبخارى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كلّ أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن عروة أنّ أبا بكر الصدّيق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وزنيرة ، وأمّ عيسى ، وأمة بنى المؤمل ؛ وفيه نزلت (وسيجنبها الأتقى) إلى آخر السورة . وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله ابن الزبير ما قدّمنا عنه ، وزاد فيه ، فنزلت فيه هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى قوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وسيجنبها الأتقى) قال : هو أبو بكر الصدّيق .

تفسير سورة الضحى

هي إحدى عشرة آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس : نزلت (والضحى) بمكة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرى قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : « قرأت على إسماعيل بن قسطيطين ، فلما بلغت والضحى قال : كبر حتى تختم ، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك . وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أمره بذلك . وأخبره أبيّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره بذلك » . وأبو الحسن المقرى المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرى . قال ابن كثير : فهذه سنة تفرّد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إماما في القراآت . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث . قال ابن كثير : ثم اختلف القرّاء في موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر الليل إذا يغشى ، وقال آخرون : من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر . وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتر تلك المدّة ، ثم جاء الملك ، فأوحى إليه (والضحى والليل إذا سجى) السورة كبر فرحا وسرورا ، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي قال : اشتكى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثا ، فأنزل الله (والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربك وما قلى)» وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن جندب قال : أبطأ جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال المشركون : قد ودّع محمد ، فنزلت (ما ودّعك ربك وما قلى) . وأخرج الطبراني عن جندب قال : احتبس جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت بعض بنات عمه : ما أرى صاحبك إلا قد قلاك ، فنزلت والضحى . وأخرجه الترمذى وصححه وابن أبي حاتم عن جندب ، وفيه : فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت والضحى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

والمراد بالضحى هنا النهار كله ، لقوله (والليل إذا سجى) فلما قابل الضحى بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لابعضه . وهو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدّم فى قوله ـ والشمس وضحاها ـ والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : إن المراد به الضحى الذى كلم الله فيه موسى ، والمراد بقوله (والليل إذا سجى) ليلة المعراج ، وقيل المراد بالضحى هو الساعة التى خرّ فيها السحرة سجدا ، كما فى قوله ـ وأن يحشر الناس ضحى ـ وقيل المقسم به مضاف مقدّر كما تقدّم فى نظائره : أى وربّ الضحى ، وقيل تقديره : وضحاوة الضحى ، ولا وجه لهذا ، فلله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه : وقيل الضحى نور الجنة ، والليل ظلمة النار ، وقيل الضحى نور قلوب العارفين ، والليل سواد قلوب الكافرين (والليل إذا سجى) أى سكن ، كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم : يقال ليلة ساجية : أى ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال سجا الشىء يسجو سجوا : إذا سكن . قال عطاء : سجا إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى : سجا امتدّ ظلامه . وقال الأصمعى : سجو الليل تغطيته النهار ، مثل مايسجى الرّجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه . وقال سعيد بن جبير : أقبل . وقال مجاهد : أيضا استوى ، والأوّل أولى ، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة . ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزاد بعد ذلك (ماودّعك ربك) هذا جواب القسم : أى ماقطعك قطع المودّع . قرأ الجمهور « ماودّعك » بتشديد الدال من التوديع ، وهو توديع المفارق ، وقرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وابن أبى عبلة وأبوحيوة بتخفيفها ، من قولهم ودعه : أى تركه ، ومنه قول الشاعر :

سل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى ودعه

والتوديع أبلغ فى الودع ، لأن من ودّعك مفارقا فقد بالغ فى تركك . قال المبرد : لايكادون يقولون ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدّمت واستغنوا عنها بترك . قال أبوعبيدة : ودّعك من التوديع كما يودّع المفارق . وقال الزجاج : لم يقطع الوحى ، وقد قدّمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة (وما قلى) القلى البغض ، يقال قلاه يقليه قلاء . قال الزجاج : وما أبغضك ، وقال : وماقلى ولم يقل وماقلاك لموافقة رءوس الآى ، والمعنى : وما أبغضك ، ومنه قول امرئ القيس : * ولست بمقلىّ الخلال ولا قالى * (وللآخرة خير لك من الأولى) اللام جواب قسم محذوف : أى الجنة خير لك من الدنيا ، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوّة مايصغر عنده كلّ شرف ويتضاءل بالنسبة إليه كلّ مكرمة فى الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئا ، ولما كانت طريقا إلى الآخرة وسببا لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية (ولسوف يعطيك ربك فترضى) هذه اللام قيل هى لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ ، وليست للقسم لأنها لاتدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وقيل هى للقسم . قال أبو علىّ الفارسى : ليست هذه اللام هى التى فى قولك : إن زيدا لقائم ، بل هى التى فى قولك لأقومنّ ، ونابت سوف عن إحدى نونى التأكيد ، فكأنه قال : وليعطينك . قيل المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا والثواب فى الآخرة فترضى . وقيل الحوض والشفاعة ، وقيل ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك ، وقيل غير

ذلك . والظاهر أنه سبحانه يعطيه مايرضي به من خيري الدنيا والآخرة ، ومن أهمّ ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته (ألم يجدك يتيما فآوى) هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم : أى وجدك يتيما لا أب لك فآوى : أى جعل لك مأوى تأوى إليه ، قرأ الجمهور « فآوى » بألف بعد الهمزة رباعيا ، من آواه يؤويه ، وقرأ أبو الأشهب « فأوى » ثلاثيا ، وهو إما بمعنى الرباعى ، أو هو من أوى له إذا رحمه . وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدك واحدا فى شرفك لانظير لك فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك ، فجعل يتيما من قولهم درّة يتيمة ، وهو بعيد جدا ، والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفىّ على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيما فآوى ، والوجود بمعنى العلم ، ويتيما مفعوله الثانى ، وقيل بمعنى المصادفة ، ويتيما حال من مفعوله (ووجدك ضالا فهدى) معطوف على المضارع المنفىّ ، وقيل هو معطوف على مايقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا : أى قد وجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما فى قوله ـ لايضلّ ربى ولا ينسى ـ وكما فى قوله ـ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ـ والمعنى : أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوّة ، واختار هذا الزجاج . وقيل معنى ضالا : لم تكن تدرى القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك . وقال الكلبى والسدّى والفراء : وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله لك . وقيل وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها كما فى قوله ـ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ـ ويكون الضلال بمعنى الطلب . وقيل وجدك ضائعا فى قومك فهداك إليه ، ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل وجدك محبا للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، ومنه قول الشاعر :

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل وجدك ضالا فى شعاب مكة فهداك : أى ردّك إلى جدّك عبد المطلب (ووجدك عائلا فأغنى) أى وجدك فقيرا لا مال لك فأغناك ، يقال عال الرجل يعيل عيلة : إذا افتقر ، ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنىّ متى يعيل

أى يفتقر . قال الكلبى : فأغنى : أى رضّاك بما أعطاك من الرزق ، واختار هذا الفراء ، قال : لأنه لم يكن غنيا من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه ، وذلك حقيقة الغنى . وقال الأخفش : عائلا ذا عيال ، ومنه قول جرير :

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل فأغنى بما فتح لك من الفتوح ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية ، وقيل بمال خديجة بنت خويلد ، وقيل وجدك فقيرا من الحجج والبراهين فأغناك بها . قرأ الجمهور « عائلا » وقرأ محمد بن السميفع واليمانى « عيلا » بكسر الياء المشدّدة كسيد . ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال (فأما اليتيم فلا تقهر) أى لاتقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان . قال مجاهد : لاتحقر اليتيم فقد كنت يتيما . قال الأخفش : لاتسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه واذكر يتمك . قال الفراء والزجاج : لاتقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه ، وكذا كانت العرب تفعل فى حقّ اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إلى اليتيم ويبرّه ويوصى باليتامى . قرأ الجمهور « فلاتقهر » بالقاف ، وقرأ ابن مسعود والنخعى والشعبىّ والأشهب العقيلى « تكهر » بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف . قال النحاس : إنما يقال كهره : إذا اشتدّ عليه وغلظ . وقيل القهر الغلبة ، والكهر الزجر . قال أبو حيان : هى لغة : يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور ، واليتيم منصوب

بتقهر (وأما السائل فلا تنهر) يقال نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره ، فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له ، ولكن يبذل له اليسير أو يردّه بالجميل . قال الواحدي : قال المفسرون : يريد السائل على الباب ، يقول لاتنهره : إذا سألك فقد كنت فقيرا ، فإما أن تطعمه ، وإما أن تردّه ردّا لينا . قال قتادة : معناه ردّ السائل برحمة ولين . وقيل المراد بالسائل الذى يسأل عن الدين ، فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، والسائل منصوب بتنهر ، والتقدير : مهما يكن من شىء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل (وأما بنعمة ربك فحدّث) أمره سبحانه بالتحدّث بنعم الله عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم ، والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها . وقال مجاهد والكلبى : المراد بالنعمة هنا القرآن . قال الكلبى : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه . قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدّث به . وقال مجاهد أيضا : المراد بالنعمة النبوّة التى أعطاه الله ، واختار هذا الزجاج فقال : أى بلغ ما أرسلت به وحدّث بالنبوّة التى آتاك الله ، وهى أجلّ النعم . وقال مقاتل : يعنى اشكر ماذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتم ، والإغناء بعد العيلة فاشكر هذه النعم . والتحدّث بنعمة الله شكر ، والجارّ والمجرور متعلق بحدّث ، والفاء غير مانعة من تعلقه به ، وهذه النواهى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى نواه له ولأمته لأنهم أسوته ، فكلّ فرد من أفراد هذه الأمة منهىّ بكلّ فرد من أفراد هذه النواهى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (والليل إذا سجى) قال : إذا أقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه (إذا سجى) قال : إذا ذهب (ماودّعك ربك) قال ماتركك (وما قلى) قال : ما أبغضك . وأخرج الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «عرض علىّ ماهو مفتوح لأمتى بعدى ، فأنزل الله (وللآخرة خير لك من الأولى)» . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم عنه أيضا قال «عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماهو مفتوح على أمته من بعده فسرّ بذلك ، فأنزل الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك فى كل قصر ماينبغى له من الأزواج والخدم» وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال : رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : من رضا محمد أن لايدخل أحد من أهل بيته النار . وأخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضا فى الآية قال : لايرضى محمد وأحد من أمته فى النار ، ويدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو «أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله فى إبراهيم ـ فمن تبعنى فإنه منى ـ وقول عيسى ـ إن تعذبهم فإنهم عبادك ـ الآية ، فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هى ؟ قال : إى والله . حدّثنى محمد بن الحنفية عن علىّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى أرضيت يامحمد ؟ فأقول : نعم يارب رضيت ، ثم أقبل علىّ فقال : إنكم تقولون يامعشر أهل العراق إن أرجى آية فى كتاب الله ـ ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا ـ قلت إنا لنقول ذلك ، قال : فكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وهى الشفاعة» . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » وأخرج العسكرى فى المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على فاطمة وهى تطحن بالرّحى وعليها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال : يافاطمة تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة ، فأنزل الله (ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ) » . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : سألت ربى مسئلة وددت أنى لم أكن سألته ، قلت : قدكانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فقال تعالى : يامحمد ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى يارب » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما نزلت (والضحى) على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يمنّ علىّ ربى وأهل أن يمنّ ربى » . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله (ووجدك ضالا فهدى) قال : وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن علىّ فى قوله (وأما بنعمة ربك فحدّث) قال : ماعلمت من الخير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : إذا أصبت خيرا فحدّث إخوانك . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند والبيهقى فى الشعب والخطيب فى المتفق ، قال السيوطى بسند ضعيف عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدّث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة » . وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه أبو يعلى وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . وأخرج البخارى فى الأدب وأبو داود والضياء عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبى زور » . وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أولى معروفا فليكافئ به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره » .

تفسير سورة ألم نشرح

هى ثمان آيات

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ـ ألم نشرح ـ بمكة ، وزاد : بعد الضحى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ألم نشرح بمكة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب مايصدّ عن الإدراك ، والاستفهام إذا دخل على النفى قرّره ، فصار المعنى : قد شَرحنا لك صدرك ، وإنما خصّ الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات ، والمراد الامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ماقدر عليه من حمل أعباء النبوّة وحفظ الوحى ، وقد مضى القول فى هذا عند تفسير قوله ـ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ـ (ووضعنا عنك وزرك) معطوف على معنى ماتقدّم ، لا على لفظه : أى قد شرحنا لك صدرك ووضعنا الخ ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى الخ. قرأ الجمهور « نشرح » بسكون الحاء بالجزم ، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها . قال الزمخشرى : قالوا لعله بين الحاء وأشبعها فى مخرجها ، فظنّ السامع أنه فتحها . وقال ابن عطية : إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ، ثم إبدالها ألفا ، ثم حذفها تخفيفا كما أنشد أبو زيد :

من أى يومىّ من الموت أفر ... أيوم لم يقدَّر أم يوم قدر

بفتح الراء من لم يقدر ، ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ... ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب ، وهذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بلم ، وهو قليل جدّا كقوله :

يحسبه الجاهل مالم يعلما ... شيخا على كرسيه معمما

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة : الأول توكيد المجزوم بلم ، وهو ضعيف . الثانى إبدالها ألفا ، وهو خاص بالوقف ، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف . والثالث حذف الألف ، وهو ضعيف أيضا لأنه خلاف الأصل ، وخرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلن ، ومنه قول الشاعر :

فى كل ماهمّ أمضى رأيه قدما ... ولم يشاور فى إقدامه أحدا

بنصب الراء من يشاور ، وهذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح ، وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ماعليه لغة العرب بأسرها . وعلى كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدّة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها . والوزر : الذنب أى وضعنا عنك ماكنت فيه من أمر الجاهلية . قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل : المعنى حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية ، وهذا كقوله ـ ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخر ـ ثم وصف هذا الوزر فقال (الذى أنقض ظهرك) قال المفسرون : أى أثقل ظهرك . قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض : أى صوت ، وهذا مثل معناه : أنه لو كان حملا يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمع له صرير ، ومنه قول جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله ... وهمت ثوانى زوره أن تحطما

وقول العباس بن مرداس :

وأنقض ظهرى ماتطويت منهم ... وكنت عليهم مشفقا متحننا

قال قتادة : كان للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له ، وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوّة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له : وكذا قال أبو عبيدة وغيره

وقرأ ابن مسعود « وحللنا عنك وقرك » ثم ذكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال (ورفعنا لك ذكرك) قال الحسن : وذلك أن الله لايذكر فى موضع إلا ذكر معه صلى الله عليه وآله وسلم . قال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولاصاحب صلاة إلا ينادى ، فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله. قال مجاهد: (ورفعنا لك ذكرك) يعنى بالتأذين .وقيل المعنى : ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله وأمرناهم بالبشارة به ، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء وعند المؤمنين فى الأرض . والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذى امتنّ الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه ، وإخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عزّ وجلّ أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، وأمر الله بطاعته كقوله ـ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ـ وقوله ـ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ وقوله ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ـ وغير ذلك . وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ـ اللهم صلّ وسلم عليه وعلى آله عدد ماصلى عليه المصلون بكل لسان فى كل زمان ، وما أحسن قول حسان :

أغرّ عليه للنبوّة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبيّ مع اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

(فإن مع العسر يسرا) أى إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدّة رخاء ، ومع الكرب فرج . وفى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين . ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريرا وتأكيدا ، فقال مكرّرا له بلفظ (إن مع العسر يسرا) أى إن مع ذلك العسر المذكور سابقا يسرا آخر لما تقرّر من أنه إذا أعيد المعرّف يكون الثانى عين الأوّل سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأوّل فى الغالب ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى معنى هذه الآية « لن يغلب عسر يسرين » قال الواحدى : وهذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد واليسر اثنان . قال الزجاج : ذكر العسر مع الألف واللام ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى : إن مع العسر يسرين . قيل والتنكير فى اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو فى مصحف ابن مسعود غير مكرّر . قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر واليسر فى الموضعين . وقرأ يحيى بن وثاب وأبوجعفر وعيسى بضمها فى الجميع (فإذا فرغت فانصب) أى إذا فرغت من صلاتك ، أو من التبليغ ، أومن الغزو فانصب : أى فاجتهد فى الدعاء واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب فى العبادة ، والنصب التعب ، يقال نصب ينصب نصبا : أى تعب . قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبى : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء وارغب إليه فى المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد . قال الشعبى : إذا فرغت من التشهد فادعو لدنياك وآخرتك ، وكذا قال الزهرى . وقال الكلبى أيضا : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب : أى استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوّك فانصب لعبادة ربك . وقال مجاهد أيضا : إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك (وإلى ربك فارغب) قال الزجاج : أى اجعل رغبتك إلى الله وحده . قال عطاء : يريد أنه يضرع إليه راهبا من النار ، راغبا فى الجنة ، والمعنى : أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائنا من كان ، فلا يطلب حاجاته إلا منه ،

ولا يعوّل فى جميع أموره إلا عليه . قرأ الجمهور « فارغب » وقرأ زيد بن علىّ وابن أبى عبلة « فرغب » بتشديد الغين : أى فرغب الناس إلى الله وشوّقهم إلى ماعنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ألم نشرح لك صدرك) قال : شرح الله صدره للإسلام . وأخرج أبويعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبونعيم فى الدلائل عن أبىسعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتانى جبريل فقال : إن ربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : إذا ذكرت ذكرت معى » وإسناد ابن جرير هكذا : حدّثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد . وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبىصالح عن ابن عباس فى قوله (ورفعنا لك ذكرك) الآية قال : لايذكر الله إ. ذكر معه . وأخرج البزار وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والحاكم وابن مردويه والبيهقى فىالشعب عن أنس قال : «كان النبى صلى الله عليه آ له وسلم جالسا وحياله جحر ، فقال « العسر لودخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتّى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) » ولفظ الطبرانى « وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فإن مع العسر يسرا إن مع العسريسرا) » . وأخرج ابن النجار عنه مرفوعا نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا مرفوعا نحوه . قال السيوطى وسنده ضعيف. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فىالصبر وابن المنذر والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعا « لوكان العسر فى جحر لتبعه اليسر حتّى يدخل فيه فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) » قال البزار : لانعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح . قال فيه أبوحاتم الرازى فى حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرّة عن رجل عن عبد الله بن مسعود . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقى عن الحسن قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فرحا مسرورا وهو يضحك ويقول : « لن يغلب عسر يسرين ، إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » وهذا مرسل . وروى نحوه مرفوعا مرسلا عن قتادة . وأخرج عبد بن حميد وابنجرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فىقوله (فإذا فرغت فانصب) الآية قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء واسأل الله وارغب إليه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال الله لرسوله : إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك . وأخرج ابن أبى الدنيا فىالذكر عن ابن مسعود (فإذا فرغت فانصب) إلى الدعاء (وإلى ربك فارغب) فى المسئلة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (فإذا فرغت فانصب) قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل .

تفسير سورة التين

هي ثمان آيات

وهي مكية في قول الجمهور . وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية ، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب قال : «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فصلى العشاء فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ولا قراءة منه » . وأخرج الخطيب عنه قال : «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المغرب ، فقرأ بالتين والزيتون» . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد في مسنده والطبراني عن عبد الله بن يزيد «أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في المغرب والتين والزيتون» . وأخرج ابن قانع وابن السكن والشيرازي في الألقاب عن زرعة بن خليفة قال «أتيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة قرأ بالتين والزيتون ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ (٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ (٧) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨)

قال أكثر المفسرين : هو التين الذي يأكله الناس (والزيتون) الذي يعصرون منه الزيت ، وإنما أقسم بالتين ، لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة . قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن وأكثرها غذاء ، وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات ، وأما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية . وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى . وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس . وقال قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل . وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية . قال الفراء : سمعت رجلا يقول : التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام . قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل ، فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل

عن الشارع . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء ، وقيل إنه على حذف مضاف : أى ومنابت التين والزيتون . قال النحاس : لادليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لايجوز خلافه (وطور سينين) هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى اسمه الطور ، ومعنى سينين : المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة . وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية . وقال مجاهد والكلبى : سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسيناء بلغة النبط . قال الأخفش : طور : جبل ، وسينين شجر ، واحدته سينة . قال أبو على الفارسى : سينين فعليل فكرّرت اللام التى هى نون فيه ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة ، وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام ، وهى الأرض المقدسة كما فى قوله ـ إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ـ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه . قرأ الجمهور « سينين » بكسر السين ، وقرأ ابن اسحاق وعمرو ابن ميمون وأبو رجاء بفتحها ، وهى لغة بكر وتميم . وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة « سيناء » بالكسر والمدّ (وهذا البلد الأمين) يعنى مكة ، سماه أمينا لأنه آمن كما قال ـ أنا جعلنا حرما آمنا ـ يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين . قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن ، ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) هذا جواب القسم : أى خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم وتعديل . قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان ، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، ومعنى التقويم : التعديل ، يقال : قوّمته فاستقام . قال القرطبى : هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين . قال ابن العربى : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما ، وهذه صفات الرب سبحانه ، وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » يعنى على صفاته التى تقدم ذكرها . قلت : وينبغى أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه ـ ليس كمثله شئ ـ وقوله ـ ولا يحيطون به علما ـ ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع فلينظر فى كتاب [العبر والاعتبار] للجاحظ ، وفى الكتاب الذى عقده النيسابورى على قوله ـ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ـ وهو فى مجلدين ضخمين (ثم رددناه أسفل سافلين) أى رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوّة حتى يصير كالصبىّ فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين . قال الواحدى : والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا . وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض ، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافى هذا قوله تعالى ـ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ـ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل ، وقوله (أسفل سافلين) إما حال من المفعول : أى رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف : أى مكانا أسفل سافلين (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هذا الاستثناء على القول الأوّل منقطع : أى لكن الذين آمنوا الخ ، ووجهه أن الهرم والردّ إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى . وعلى القول الثانى يكون الاستثناء متصلا من ضمير رددناه ، فإنه فى معنى الجمع : أى رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ـ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ (فلهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع : أى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم ، فهذه الجملة على القول الأوّل مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثانى مقرّرة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الردّ ، وقال : أسفل سافلين على الجمع ، لأن الإنسان فى معنى الجمع ،

ولو قال أسفل سافل لجاز، لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. وقيل معنى رددناه أسفل سافلين: رددناه إلى الضلال، كما قال ـ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ أي إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك (فما يكذبك بعد بالدين) الخطاب للإنسان الكافر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة: أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أي أي شيء يكذبك يامحمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ماجاءك من الله أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء والأخفش: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كأنه قال: من يقدر على ذلك؟ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ماظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ماظهر، واختار هذا ابن جرير. والدين الجزاء، ومنه قول الشاعر:

دينا تمما كما كانت أوائلنا ... دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر:

ولما صرح الشر ... فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ... ن دناهم كما دانوا

(أليس الله بأحكم الحاكمين) أي أليس الذي فعل مافعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، ومعنى أحكم الحاكمين: أتقن الحاكمين في كل مايخلق، وقيل أحكم الحاكمين قضاء وعدلا. والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجابا كما تقدم تفسير قوله ـ ألم نشرح لك صدرك ـ.

وقد أخرج الخطيب وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين والزيتون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرح فرحا شديدا حتى تبين لنا شدة فرحه، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين بلاد الشام، والزيتون بلاد فلسطين، وطورسيناء الذي كلم الله عليه موسى وهذا البلد الأمين مكة (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) محمدا (ثم رددناه أسفل سافلين) عبدة اللات والعزى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين) إذ بعثك فيهم نبيا وجمعك على التقوى يامحمد، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لاتقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (والتين والزيتون) قال: مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون قال: بيت المقدس (وطور سينين) قال: مسجد الطور (وهذا البلد الأمين) قال: مكة (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين) يقول: يرد إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم (فما يكذبك بعد بالدين) يقول: بحكم الله. وأخرج ابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (والتين والزيتون) قال: الفاكهة التي يأكلها الناس (وطور سينين) قال: الطور الجبل، والسينين المبارك. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال: سينين هو الحسن. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) قال في أعدل خلق (ثم رددناه أسفل سافلين) يقول:

إلى أرذل العمر (إلاالذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) يعنى غير منقوص ، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر وكان يعمل فى شبابه عملا صالحا كتب له من الأجر مثل ماكان يعمل فى صحته وشبابه ولم يضرّه ما عمل فى كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التى يعمل بعد مايبلغ أرذل العمر . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر ، وذلك قوله (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : لايكون حتى لايعلم من بعد علم شيئا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (ثم رددناه أسفل سافلين) يقول : إلى الكبر وضعفه ، فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبيبته . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ماكان يعمل صحيحا مقيما » . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا « من قرأ التين والزيتون ، فقرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا « إذا قرأت التين والزيتون فقرأت (أليس الله بأحكم الحاكمين) فقل بلى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) قال : سبحانك اللهم فبلى اه .

تفسير سورة اقرأ

ويقال سورة العلق ، وهى تسع عشرة آية ، وقيل عشرون آية

وهى مكية بلا خلاف ، وهى أوّل مانزل من القرآن . وأخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : أوّل مانزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن الأنبارى والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبونعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) أوّل سورة أنزلت على محمد . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى وصححه عن عائشة قالت : إن أوّل مانزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ويدل على أن هذه السورة أول مانزل الحديث الطويل الثابت فى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة ، وفيه « فجاءه الحق وهو فى غار حراء ، فقال له اقرأ » الحديث ، وفى الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أوّل مانزل من القرآن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسٰنَ لَيَطْغٰى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنٰى (٧) إِنَّ إِلٰى رَبِّكَ الرُّجْعٰى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهٰى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلّٰى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدٰى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوٰى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ

ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب (١٩).

قرأ الجمهور (اقرأ) بسكون الهمزة أمرا من القراءة. وقرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء، وكأنه قلب الهمزة ألفا ثم حذفها للأمر، والأمر بالقراءة يقتضى مقروءا، فالتقدير: اقرأ مايوحى إليك، أو مانزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، وقوله (باسم ربك) متعلق بمحذوف هو حال: أى اقرأ ملتبسا باسم ربك أو مبتدئا باسم ربك أو مفتتحا، ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: اقرأ اسم ربك كقول الشاعر:

* سود المحاجر لايقرأن بالسور * قاله أبو عبيدة. وقال أيضا: الاسم صلة: أى اذكر ربك. وقيل الباء بمعنى على: أى اقرأ على اسم ربك، يقال افعل كذا بسم الله، وعلى اسم الله. قاله الأخفش. وقيل الباء للاستعانة: أى مستعينا باسم ربك، ووصف الربّ بقوله (الذى خلق) لتذكير النعمة لأن الخلق هو أعظم النعم، وعليه يترتب سائر النعم. قال الكلبى: يعنى الخلائق (خلق الإنسان من علق) يعنى بنى آدم، والعلقة الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: من علق بجمع علق لأن المراد بالإنسان الجنس، والمعنى: خلق جنس الإنسان من جنس العلق، وإذا كان المراد بقوله «الذى خلق» كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفا له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع، وإذا كان المراد بالذى خلق الذى خلق الإنسان فيكون الثانى تفسيرا للأول. والنكتة ما فى الإبهام، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أوّلا ثم فسرّ ثانيا. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال (اقرأ وربك الأكرم) أى افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة (وربك الأكرم) مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: «ما أنا بقارئ» يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمىّ، فقيل له اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم. قال الكلبى: يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم، وقيل إنه أمره بالقراءة أوّلا لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانيا للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأوّل أولى (الذى علم بالقلم) أى علم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب. قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله عزّ وجلّ عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده مالم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لايحيط بها إلا هو، وما دوّنت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا، وسمى قلما لأنه يقلم: أى يقطع (علم الإنسان مالم يعلم) هذه الجملة بدل اشتمال من التى قبلها: أى علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية مالم يعلم به منها، قيل المراد بالإنسان هنا آدم كما فى قوله ـ وعلم آدم الأسماء كلها ـ وقيل الإنسان هنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والأولى حمل الإنسان على العموم، والمعنى: أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه مالم يعلم، وقوله (كلا) ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه، وإن لم يتقدم له ذكر، ومعنى (إن الإنسان ليطغى) أنه يجاوز الحد ويستكبر على ربه. وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل، وهو المراد بهذا وما بعده إلى آخر السورة، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمسين الآيات المذكورة فى أوّل هذه السورة. وقيل «كلا» هنا بمعنى حقا قاله الجرجانى، وعلل ذلك بأنه

ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلاردّا له ، وقوله (أن رآه استغنى) علة ليطغى : أى ليطغى أن رأى نفسه مستغنيا ، أو لأن رأى نفسه مستغنيا ، والرؤية هنا بمعنى العلم ، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين فى فعلها لشىء واحد لأن ذلك من خواص باب علم ، ونحوه . قال الفرّاء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التى تريد اسما وخبرا نحو الظنّ والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتنى وحسبتنى ، ومتّى تراك خارجا ، ومتى تظنك خارجا ، قيل والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال . قرأ الجمهور « أن رآه » بمد الهمزة . وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها . قال مقاتل : كان أبوجهل إذا أصاب مالا زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه ، وكذا قال الكلبى : ثم هدد سبحانه وخوّف ، فقال (إن إلى ربك الرجعى) أى المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ، يقال : رجع إليه مرجعا ورجوعا ورجعى ، وتقدّم الجار والمجرور للقصر : أى الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره (أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) قال المفسرون : الذى ينهى أبوجهل ، والمراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية (أرأيت إن كان على الهدى) يعنى العبد المنهىّ إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أو أمر بالتقوى) أى بالإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذى تتقى به النار (أرأيت إن كذب وتولى) يعنى أبا جهل ، كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عن الإيمان ، وقوله (أرأيت) فى الثلاثة المواضع بمعنى أخبرنى لأن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له . وقد ذكر هنا أرأيت ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فتكون فى موضع المفعول الثانى لها ، ومفعولها الأوّل محذوف ، وهو ضمير يعود على الذى ينهى الواقع مفعولا أوّل لأرأيت الأولى ، ومفعول أرأيت الأولى الثانى محذوف ، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية ، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أوّل ولا ثانى ، حذف الأوّل لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه فقد حذف الثانى من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع لأنه يستدعى إضمارا ، والجمل لاتضمر ، إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة ، وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت فى الموضعين الآخرين . فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى (ألم يعلم بأن الله يرى) وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى ، ومعنى (ألم يعلم بأن الله يرى) أى يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل أرأيت الأولى مفعولها الأوّل الموصول ، ومفعولها الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور ، وأرأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد ، وقيل كل واحدة من أرأيت بدل من الأولى ، و (ألم يعلم بأن الله يرى) الخبر . قوله (كلا) ردع للناهى ، واللام فى قوله (لئن لم ينته) هى الموطئة للقسم : أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر (لنسفعا بالناصية) السفع الجذب الشديد ، والمعنى : لنأخذنّ بناصيته ولنجرنّه إلى النار وهذا كقوله ـ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ـ ويقال سفعت الشىء : إذا قبضته وجذبته ، ويقال سفع بناصية فرسه : قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس : أى بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل : به سفعة غضب اعتبارا بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتدّ به الغضب ، وقيل للصقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، وامرأة سفعاء اللون انتهى ، وقيل هو مأخوذ من سفع النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى سواد ، ومنه قول الشاعر :

أثاقِّ سفعا فى معرّس مرجل   وقوله (ناصية) بدل من الناصية ، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله (كاذبة خاطئة) وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لايجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها . وأما على مذهب البصريين ، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط ، وأنشدوا :

فلا وأبيك خير منك إنى   ليؤذينى التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجرّ « ناصية كاذبة خاطئة » والوجه ماذكرنا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدإ : أى هى ناصية ، وقرأ أبوحيوة وابن أبى عبلة وزيد بن على بنصبها على الذمّ . قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ ، فقال ناصية كاذبة خاطئة ، تأويلها : صاحبها كاذب خاطئ (فليدع ناديه) أى أهل ناديه ، والنادى : المجلس الذى يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة ؛ والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر :   * واستبّ بعدك ياكليب المجلس *   أى أهله . قيل إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتهدّدنى وأنا أكثر الوادى ناديا ؟ فنزلت (فليدع ناديه سندع الزبانية) أى الملائكة الغلاظ الشداد ، كذا قال الزجاج . قال الكسائى والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم زابن ، وقال أبو عبيدة : زبنية ، وقيل زبانى ، وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل . وقال قتادة : هم الشرط فى كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا   ولوزبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى   زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور « سندع » بالنون، ولم ترسم الواو كما فى قوله ـ يوم يدع الداع ـ وقرأ ابن أبى عبلة « سيدعى » على البناء للمفعول ورفع الزبانية على النيابة . ثم كرّر الردع والزجر فقال (كلا لاتطعه) أى لاتطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة (واسجد) أى صلّ لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه (واقترب) أى تقرّب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة . وقيل المعنى : إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء . وقال زيد بن أسلم : واسجد أنت يامحمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار ، والأوّل أولى . والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة ، وقيل سجود التلاوة ، ويدلّ على هذا ماثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، كما سيأتى إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو نعيم فى الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : « أتى جبريل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يامحمد اقرأ . فقال : وما أقرأ ؟ فضمه ثم قال : يامحمد اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) حتى بلغ (مالم يعلم) » وفى الصحيحين : وغيرهما من حديث عائشة « فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، فقال : قلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) » الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأنّ عنقه ، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا » وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى

وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عنه قال : « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن مابها رجل أكثر ناديا منى ، فأنزل الله (فليدع ناديه سندع الزبانية) فجاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى، فقيل: مايمنعك ؟ فقال : قد اسودّ مابيني وبينه » . قال ابن عباس : والله لو تحرّك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه . وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال : واللات والعزّى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأنّ على رقبته ولأعفرن وجهه فى التراب فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلى ليطأنّ على رقبته ، قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيده ، فقيل له مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لودنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » قال : وأنزل الله (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) إلى آخر السورة : يعنى أبا جهل (فليدع ناديه) يعنى قومه (سندع الزبانية) يعنى الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (لنسفعا) قال : لنأخذن . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (فليدع ناديه) قال : ناصره ، وقد قدّمنا أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يسجد فى (إذا السماء انشقت) وفى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

تفسير سورة القدر

هى خمس آيات

وهى مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردى. وقال الثعلبى : هى مدنية فى قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدى أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ (٥) .

الضمير فى أنزلناه للقرآن ، وإن لم يتقدّم له ذكر ، أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نجوما على حسب الحاجة ، وكان بين نزول أوّله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث وعشرون سنة ، وفى آية أخرى ـ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ـ وهى ليلة القدر ، وفى آية أخرى ـ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ـ وليلة القدر فى شهر رمضان . قال مجاهد : فى ليلة القدر ليلة الحكم (وما أدراك ما ليلة القدر) ليلة الحكم ، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدّر فيها ماشاء

من أمره إلى السنة القابلة . وقيل إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لفلان قدر : أى شرف ومنزلة ، كذا قال الزهرى . وقيل سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال الخليل : سميت ليلة القدر ، لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله ـ ومن قدر عليه رزقه ـ أى ضيق .

وقد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولا ، قد ذكرناها بأدلتها وبينا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى (وما أدراك ما ليلة القدر) هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لايدريها إلا الله سبحانه . قال سفيان : كلّ ما فى القرآن من قوله : وما أدراك فقد أدراه ، وكلّ مافيه وما يدريك فلم يدره ، وكذا قال الفراء . والمعنى : أىّ شىء تجعله داريا بها ؟ وقد قدّمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله ـ وما أدراك ما الحاقة ـ ثم قال (ليلة القدر خير من ألف شهر) قال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، واختار هذا الفراء والزجاج ، وذلك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع ، فلما جعل الله الخير الكثير فى ليلة كانت خيرا من ألف شهر لايكون فيها من الخير والبركة ما فى هذه الليلة . وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر ، لأن العرب تذكر الألف فى كثير من الأشياء على طريق المبالغة . وقيل وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لايسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر ، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها . وقيل إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف أن لايبلغوا من العمل مثل مابلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم ، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ، وجملة (تنزل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربهم) مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة للعلة التى صارت بها خيرا من ألف شهر ، وقوله (بإذن ربهم) يتعلق بتنزل أو بمحذوف هو حال : أى ملتبسين بإذن ربهم ، والإذن الأمر ، ومعنى تنزل : تهبط من السموات إلى الأرض . والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين : أى تنزل الملائكة ومعهم جبريل . ووجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه . وقيل الرّوح صنف من الملائكة هم أشرافهم ، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة ، وقيل الروح الرحمة ، وقد تقدّم الخلاف فى الروح عند قوله ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ قرأ الجمهور « تنزل » بفتح التاء ، وقرأ طلحة بن مصرف وابن السميفع بضمها على البناء للمفعول ، وقوله (من كلّ أمر) أى من أجل كلّ أمر من الأمور التى قضى الله بها فى تلك السنة ، وقيل إن من بمعنى اللام : أى لكلّ أمر ، وقيل هى بمعنى الباء : أى بكلّ أمر ، قرأ الجمهور « أمر » وهو واحد الأمور ، وقرأ علىّ وابن عباس وعكرمة والكلبى « امرئ » مذكر امرأة : أى من أجل كلّ إنسان ، وتأولها الكلبى على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كلّ إنسان ، فمن على هذا بمعنى على ، والأوّل أولى . وقد تمّ الكلام عند قوله من كلّ أمر ، ثم ابتدأ فقال (سلام هى) أى ماهى إلا سلامة وخير كلها لاشرّ فيها ، وقيل هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن أو مؤمنة . قال مجاهد : هى ليلة سالمة لايستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى . وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كلّ مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن ، وقيل يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض . قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته (حتى مطلع الفجر) أى حتى وقت طلوعه . قرأ الجمهور « مطلع » بفتح اللام . وقرأ الكسائى وابن محيصن بكسرها ، فقيل هما لغتان فى المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل ، وقيل بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر ، وقيل العكس ، وحتى متعلقة

يتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أى لمكثهم فى محل تنزلهم بأن لاينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر ؛ وقيل متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم . وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل فى ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر . وأخرج الترمذى وضعفه وابن جرير والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أرى بنى أمية على منبره فساءه ذلك ، فنزلت ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ يامحمد يعنى نهرا فى الجنة ، ونزلت (إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) يملكها بعدك بنو أمية . قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر لاتزيد يوما ولا تنقص يوما ، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده . قال الترمذى : إن يوسف هذا مجهول ، يعنى يوسف بن سعد الذى رواه عن الحسن بن علىّ . قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة : منهم حماد بن سلمة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد . وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفى رواية عن ابن معين قال : هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى ابن مازن . قال ابن كثير : ثمّ هذا الحديث على كلّ تقدير منكر جدا . قال المزى : هو حديث منكر ، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لاتزيد ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن جملة مدّتهم من عند أن استقلّ بالملك معاوية وهى سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنوالعباس ، وهى سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن علىّ : وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (سلام) قال : فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغلّ عفاريت الجنّ وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكلّ تائب ، فلذا قال (سلام هي حتى مطلع الفجر) قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، والأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث فى تعيينها والاختلاف فى ذلك .

تفسير سورة لم يكن

هى ثمان آيات

وهى مدنية فى قول الجمهور ، وقيل مكية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (لم يكن) بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة لم يكن بمكة . وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل ابن أبى حكيم المزنى ، حدّثنى فضيل ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الله يستمع قراءة (لم يكن الذين كفروا) فيقول : أبشر عبدى وعزتى وجلالى لأمكننّ لك فى الجنة حتى ترضى » قال ابن كثير : حديث غريب جدّا . وأخرجه أبوموسى المدينى عن مطر المزنى ، أو المدنى بنحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبىّ بن كعب « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك

(لم يكنّ الذين كفروا) قال : وسماني لك ؟ قال نعم ، فبكى » . وأخرج أحمد وابن قانع فى معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه عن أبي حية البدرى قال : «لما نزلت(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) إلى آخرها قال جبريل : يارسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ : إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة ، فقال أبيّ : وقد ذكرت ثم يارسول الله ؟ قال نعم ، فبكى » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ ٱللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتٰبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَذٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيئَةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصّٰلِحٰتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيئَةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰرُ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

المراد بـ(الذين كفروا من أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، (و) المراد بـ(المشركين) مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان ، و (منفكين) خبر كان ، يقال فككت الشيء فانفك : أى انفصل ، والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه (حتى تأتيهم البينة) وقيل الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية : أى لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة ، وقيل منفكين زائلين : أى لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال ما انفك فلان قائما : أى مازال قائما ، وأصل الفك الفتح ، ومنه فك الخلخال . وقيل منفكين بارحين : أى لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله ـ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ـ وعلى هذا فيكون قوله (والمشركين) أنهم ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعث ، فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، فلما بعث عادوه وأساءوا القول فيه . وقيل (منفكين) هالكين ، من قولهم : انفك صلبه : أى انفصل فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم . وقيل إن المشركين هم أهل الكتاب ، فيكون وصفا لهم لأنهم قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله . قال الواحدى : ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة والانقاذ به من الجهل

والضلالة والآية فيمن آمن من الفريقين . قال : وهذه الآية من أصعب مافى القرآن نظما وتفسيرا ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا فى تفسيرها طرقا لاتفضى بهم إلى الصواب . والوجه ما أخبرتك فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال . قال : ويدلّ على أن البينة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه فسرها وأبدل منها فقال (رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة) يعنى ماتتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن ، ويدلّ على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه . وقيل إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لايفارقون دينهم حتى يبعث النبيّ الموعود به ، فلما بعث تفرّقوا كما حكاه الله عنهم فى هذه السورة . والبينة على ماقاله الجمهور هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه فى نفسه بينة وحجة ولذلك سماه سراجا منيرا ، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله (رسول من الله) فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة . وقال قتادة وابن زيد : البينة هى القرآن كقوله ـ أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ـ وقال أبو مسلم : المراد بالبينة مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتيهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة ، والأوّل أولى قرأ الجمهور « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » وقرأ ابن مسعود « لم يكن المشركون وأهل الكتاب » قال ابن العربى : وهى قراءة فى معرض البيان ، لا فى معرض التلاوة . وقرأ الأعمش والنخعى : والمشركون بالرفع عطفا على الموصول . وقرأ أبىّ « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون » قرأ الجمهور « رسول من الله » برفع رسول على أنه بدل كل من كلّ مبالغة ، أو بدل اشتمال . قال الزجاج : رسول رفع على البدل من البينة . وقال الفراء : رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر : أى هى رسول أو هو رسول . وقرأ أبيّ وابن مسعود « رسولا » بالنصب على القطع ، وقوله (من الله) متعلق بمحذوف هو صفة لرسول : أى كائن من الله ، ويجوز تعلقه بنفس رسول ، وجوّز أبو البقاء أن يكون حالا من صحف ، والتقدير : يتلو صحفا مطهرة منزلة من الله ، وقوله (يتلو صحفا مطهرة) يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول ، أو حالا من متعلق الجار والمجرور قبله . ومعنى يتلو : يقرأ ، يقال تلا يتلو تلاوة ، والصحف جمع صحيفة ، وهى ظرف المكتوب ، ومعنى مطهرة : أنها منزّهة من الزور والضلال . قال قتادة : مطهرة من الباطل ، وقيل مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد ، والمعنى : أنه يقرأ ماتتضمنه الصحف من المكتوب فيها لأنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب كما تقدّم ، وقوله (فيها كتب قيمة) صفة لصحفا ، أو حال من ضميرها ، والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة ، من قول العرب : قام الشيء : إذا استوى وصحّ . وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله ـ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ـ أى حكم ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى قصة العسيف « لأقضين بينكما بكتاب الله » ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم فى كتاب الله ، فالمعنى : لأقضينّ بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ماقيل إن الصحف هى الكتب ، فكيف قال (صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) وقال الحسن : يعنى بالصحف المطهرة التى فى السماء ، يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله ـ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ـ (وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم ، وبيان أن مانسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدا ، فلما بعث تفرقوا فى أمره واختلفوا ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون . وخصّ أهل الكتاب ، وإن كان غيرهم مثلهم فى التفرّق بعد مجيء البينة لأنهم كانوا أهل علم ، فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لاكتاب له أدخل فى هذا

الوصف ، والاستثناء فى قوله (إلا من بعد ماجاءتهم البينة) مفرّغ من أعم الأوقات : أى وما تفرّقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ماجاءتهم الحجة الواضحة ، وهى بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشريعة الغرّاء والمحجة البيضاء . وقيل البينة : البيان الذى فى كتبهم أنه نبىّ مرسل كقوله ـ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم ـ قال القرطبى : قال العلماء : من أوّل السورة إلى قوله (كتب قيمة) حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، وقوله (وما تفرّق) الخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج ، وجملة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرّق بعد مجىء البينة : أى والحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحدوه حال كونهم (مخلصين له الدين) أى جاعلين دينهم خالصا له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين ، وقيل إن اللام فى ليعبدوا بمعنى أن : أى ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله ـ يريد الله ليبين لكم ـ أى أن يبين ، و ـ يريدون ليطفئوا نور الله ـ أى أن يطفئوا قرأ الجمهور « مخلصين » بكسر اللام . وقرأ الحسن بفتحها . وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات لأن الإخلاص من عمل القلب ، وانتصاب (حنفاء) على الحال من ضمير مخلصين ، فتكون من باب التداخل ، ويجوز أن تكون من فاعل يعبدوا ، والمعنى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام : أى يميل إليه (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أى يفعلوا الصلوات فى أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخصّ الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين . قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما فى شريعتنا فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا ، وهما من جملة ماوقع الأمر به فيها (وذلك دين القيمة) أى وذلك المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقامة الصلاة والزكاة (دين القيمة) أى دين الملة المستقيمة . قال الزجاج : أى ذلك دين الملة المستقيمة ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف . قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم : القائم . قال الفرّاء : أضاف الدين إلى القيمة ، وهو نعته لاختلاف اللفظين . وقال أيضا : هو من إضافة الشىء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة . ثم بين سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا فقال (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم) الموصول اسم إنّ ، والمشركين معطوف عليه ، وخبرها فى نار جهنم ، و (خالدين فيها) حال من المستكنّ فى الخبر ، ويجوز أن يكون قوله والمشركين مجرورا عطفا على أهل الكتاب ومعنى كونهم فى نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون فى نار جهنم والخلود فيها (هم شرّ البرية) أى الخليقة ، يقال برأ : أى خلق ، والبارئ الخالق ، والبرية الخليقة . قرأ الجمهور « البرية » بغير همز فى الموضعين وقرأ نافع وابن ذكوان فيهما بالهمز . قال الفرّاء : إن أخذت البرية من البراء وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من بريت القلم : أى قدّرته دخلت . وقيل إن الهمز هو الأصل لأنه يقال برأ الله الخلق بالهمز : أى ابتدعه واخترعه ومنه قوله ـ من قبل أن نبرأها ـ ولكنها خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب . ثم بين حال الفريق الآخر فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح (أولئك) المنعوتون بهذا (هم خير البرية) قال : والمراد أن أولئك شرّ البرية فى عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يبعد أن يكون فى كفار الأمم من هو شرّ منهم ، وهؤلاء خير البرية فى عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم (جزاؤهم عند ربهم) أى ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح

(جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) والمراد بجنات عدن هى أوسط الجنات وأفضلها ، يقال عدن بالمكان يعدن عدنا : أى أقام ، ومعدن الشىء : مركزه ومستقرّه ، ومنه قول الأعشى :

وإن يتضافوا إلى علمه　　　يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قدّمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر ، وهو الشجر (خالدين فيها أبدا) لايخرجون منها ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون فى نعيمها مستمرّون فى لذاتها (رضى الله عنهم ورضوا عنه) الجملة مستأنفة لبيان ماتفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرّد الجزاء ، وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره وقبلوا شرائعه ، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا ، وأن تكون فى محل نصب على الحال باضمار قد (ذلك لمن خشى ربه) أى ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه فى الدنيا وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له لا لمجرّد الخشية مع الانهماك فى معاصى الله سبحانه فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (منفكين) قال : برحين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك ، واقرءوا إن شئتم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت « قلت يارسول الله من أكرم الخلق على الله ؟ قال : ياعائشة أما تقرئين (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) » . وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « كنا عند النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل علىّ ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : والذى نفسى بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ، ونزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية » . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعا « علىّ خير البرية » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلىّ : هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » . وأخرج ابن مردويه عن علىّ مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه ، ألا أخبركم بشرّ البرية ؟ قالوا بلى ، قال : الذى يسأل بالله ولا يعطى به » . قال أحمد : حدّثنا إسحاق بن عيسى ، حدّثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبو هريرة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكره .

تفسير سورة الزلزلة

هى ثمان آيات

وهى مدنية فى قول ابن عباس وقتادة ، ومكية فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت (إذا زلزلت) بالمدينة . وأخرج أحمد وأبوداود والنسائى ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أقرئنى يارسول الله ، قال : اقرأ ثلاثا من ذوات الراء ، فقال الرجل : كبر سنى ، واشتد قلبى ، وغلظ لسانى ، قال : اقرأ ثلاثا من ذوات حم ، فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : اقرأ ثلاثا من المسبحات ، فقال مثل مقالته الأولى ، وقال : ولكن أقرئنى يارسول الله سورة جامعة ، فأقرأه (إذا زلزلت الأرض زلزالها) حتى فرغ منها ، قال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » . وأخرج الترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ إذا زلزلت الأرض عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأ : قل هو الله أحد عدلت له بثلث القرآن ، ومن قرأ : قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن » . وأخرج الترمذى وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » . قال الترمذى : غريب لانعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة . وأخرج الترمذى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل من أصحابه : هل تزوجت يافلان ؟ قال : لا والله يارسول الله ، ولا عندى ما أتزوج به ، قال : أليس معك قل هو الله أحد ؟ قال بلى ، قال : ثلث القرآن ، قال : أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح ؟ قال بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ قال بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك إذا زلزلت الأرض ؟ قال بلى ، قال ربع القرآن تزوج » . قال الترمذى : هذا حديث حسن . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من قرأ فى ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) .

قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أى إذا حركت حركة شديدة ، وجواب الشرط : تحدث ، والمراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شىء عليها . قال مجاهد : وهى النفخة الأولى لقوله تعالى ـ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ـ وذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى :

زلزالها المخصوص الذى يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها . قرأ الجمهور « زلزالها » بكسر الزاى ، وقرأ الجحدرى وعيسى بفتحها ، وهما مصدران بمعنى ، وقيل المكسور مصدر والمفتوح اسم . قال القرطبى . والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال (وأخرجت الأرض أثقالها) أى مافى جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . قال مجاهد : أثقالها موتاها تخرجهم فى النفخة الثانية ، وقد قيل للإنس والجنّ الثقلان ، وإظهار الأرض فى موضع الإضمار لزيادة التقرير (وقال الإنسان مالها) أى قال كل فرد من أفراد الإنسان مالها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقوله : مالها مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجيب : أى أىّ شىء لها ، أو لأىّ شىء زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله (يومئذ) بدل من إذا ، والعامل فيهما قوله (تحدّث أخبارها) ويجوز أن يكون العامل فى إذا محذوفا والعامل فى يومئذ تحدّث ، والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها وتحدّثهم بما عمل عليها من خير وشرّ ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدلّ على ذلك دلالة ظاهرة ، أو بلسان المقال ، بأن ينطقها الله سبحانه . وقيل هذا متصل بقوله (وقال الإنسان مالها) أى قال مالها (تحدّث أخبارها) متعجبا من ذلك ، وقال يحيى بن سلام : تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، وقيل تحدّث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت وأن الدنيا قد انقضت . قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى ، ومفعول تحدّث الأوّل محذوف والثانى هو أخبارها : أى تحدّث الخلق أخبارها (بأن ربك أوحى لها) متعلق بتحدّث ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها ، وقيل الباء زائدة ، وأنّ وما فى حيزها بدل من أخبارها ، وقيل الباء سببية : أى بسبب إيحاء الله إليها . قال الفراء : تحدّث أخبارها بوحى الله وإذنه لها ، واللام فى أوحى لها بمعنى إلى وإنما أثرت على إلى لموافقة الفواصل ، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى ، كذا قال أبوعبيدة . وقيل إن أوحى يتعدّى باللام تارة ، وبإلى أخرى ، وقيل إن اللام على بابها من كونها للعلة ، والموحى إليه محذوف ، وهو الملائكة ، والتقدير : أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض : أى لأجل مايفعلون فيها ، والأوّل أولى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) الظرف إما بدل من يومئذ الذى قبله ، وإما منصوب بمقدّر هو اذكر ، وإما منصوب بما بعده ، والمعنى : يوم إذ يقع ماذكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتا : أى متفرّقين ، والصدر : الرجوع وهو ضدّ الورود ، وقيل يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار ، وانتصاب أشتاتا على الحال : والمعنى : أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال ، مع تفرّقهم فى الأديان واختلافهم فى الأعمال (ليروا أعمالهم) متعلق بيصدر ، وقيل فيه تقديم وتأخير : أى تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) . قرأ الجمهور « ليروا » مبنيا للمفعول ، وهو من رؤية البصر : أى ليريهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وحماد بن سلمة ونصر بن عاصم وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا جزاء أعمالهم (فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره) أى وزن نملة ، وهى أصغر ما يكون من النمل . قال مقاتل : فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرّة خيرا يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به ؛ (و) كذلك (من يعمل) فى الدنيا (مثقال ذرّة شرّا يره) يوم القيامة فيسوءه ، ومثل هذه الآية قوله ـ إن الله لايظلم مثقال ذرّة ـ . وقال بعض أهل اللغة : إن الذرّة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرّة ، وقيل الذرّ مايرى فى شعاع الشمس من الهباء ، والأوّل أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دبّ محول من الذرّ فوق الأتب منها لأثرا

و« من » الأولى عبارة عن السعداء ، و« من » الثانية عبارة عن الأشقياء . وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه فى الدنيا وفى نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله ونفسه وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله شرّ ، والأول أولى . قال مقاتل : نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقلّ أن يعطيه التمرة والكسرة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول : إنما أوعد الله النار على الكافرين . قرأ الجمهور « يره » فى الموضعين بضم الهاء وصلا وسكونها وقفا ، وقرأ هشام بسكونها وصلا ووقفا ، ونقل أبو حيان عن هشام وأبى بكر سكونها ، وعن أبى عمرو ضمها مشبعة ، وباقى السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية ، وفى هذا النقل نظر ، والصواب ماذكرنا . وقرأ الجمهور « يره » مبنيا للفاعل فى الموضعين . وقرأ ابن عباس وابن عمر والحسن والحسين ابنا علىّ وزيد بن علىّ وأبو حيوة وعاصم والكسائى فى رواية عنهما والجحدرى والسلمى وعيسى على البناء للمفعول فيهما : أى يريه الله إياه . وقرأ عكرمة « يراه » على توهم أن من موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدّرة فى الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (إذا زلزلت الأرض زلزالها) قال : تحرّكت من أسفلها (وأخرجت الأرض أثقالها) قال : الموتى (وقال الإنسان مالها) قال : الكافر يقول مالها (يومئذ تحدّث أخبارها) قال : قال لها ربك قولى (بأن ربك أوحى لها) قال : أوحى لها (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) قال : من كل من ههنا وههنا . وأخرج ابن المنذر عنه (وأخرجت الأرض أثقالها) قال : الكنوز والموتى . وأخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول فى هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يومئذ تحدّث أخبارها) قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا ، فهذا أخبارها » . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا زلزلت الأرض زلزالها) حتى بلغ (يومئذ تحدّث أخبارها) » . وأخرج الطبرانى عن ربيعة الجرشى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرّا إلا وهى مخبرة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والحاكم فى تاريخه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال « بينا أبو بكر الصدّيق يأكل مع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت عليه (فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره) فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله إنى لراء ماعملت من مثقال ذرّة من شرّ ، فقال : يا أبا بكر أرأيت ماترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشرّ ويدخر لك مثاقيل ذرّ الخير حتى توفاه يوم القيامة » . وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه

عن أبي أسماء قال « بينا أبو بكر يتغدّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت هذه الآية (فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره) فأمسك أبو بكر وقال : يارسول الله ماعملنا من شرّ رأيناه ، فقال : ماترون مما تكرهون فذاك مما تجزون ويؤخر الخير لأهله فى الآخرة » . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « أنزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها وأبو بكر الصديق قاعد فبكى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مايبكيك يا أبا بكر؟ قال : يبكينى هذه السورة ، فقال : لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله قوما يخطئون ويذنبون فيغفر لهم » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر» الحديث . وقال : « وسئل عن الحمر فقال : ما أنزل علىّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره) » .

تفسير سورة العاديات

هى إحدى عشرة آية

وهى مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، ومدنية فى قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (والعاديات) بمكة . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، والعاديات تعدل نصف القرآن » ، وهو مرسل . وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعا مثله ، وزاد « وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١) .

(العاديات) جمع عادية ، وهى الجارية بسرعة ، من العدو : وهو المشى بسرعة ، فأبدلت الواو ياء لكسر ماقبلها كالغازيات من الغزو ، والمراد بها الخيل العادية فى الغزو نحو العدوّ ، وقوله (ضبحا) مصدر مؤكد لاسم الفاعل ، فإن الضبح نوع من السير ونوع من العدو ، يقال ضبح الفرس : إذا عدا بشدّة ، مأخوذ من الضبع وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين . قال أبو عبيدة والمبرد : الضبح من إضباعها فى السير ومنه قول عنترة :

والخيل تكدح فى حياض الموت ضبحا ٭ ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال : أى

ضابحات ، أو ذوات ضبح ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف : أى تضبح ضبحا ، وقيل الضبح : صوت حوافرها إذا عدت ، وقال الفراء : الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت . قيل كانت تكمم لئلا تصهل فيعلم العدوّ بهم ، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوّة ، وقيل الضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل . وقد ذهب الجمهور إلى ماذكرنا من أن العاديات ضبحا هى الخيل . وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدّى : هى الإبل ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل ، ومنه قول الشاعر : * تضبح فى الكف ضباح الثعلب * (فالموريات قدحا) هى الخيل حين تورى النار بسنابكها ، والإيراء إخراج النار ، والقدح الصك ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد . قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران والكلام فى انتصاب قدحا كالكلام فى انتصاب ضبحا ، والخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذى تقدّم فى العاديات . والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة فى هذه السورة ماتقدّم منها وما سيأتى ، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبل ، وسيأتى مافى ذلك من الخلاف بين الصحابة (فالمغيرات صبحا) أى التى تغير على العدوّ وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوّه بقتل أو أسر أو نهب وأسند الإغارة إليها وهى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم ، وانتصاب صبحا على الظرفية (فأثرن به نقعا) معطوف على الفعل الذى دلّ عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتى عدون فأثرن ، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه فى تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول ، فإن الألف واللام فى الصفات أسماء موصولة ، فالكلام فى قوّة : واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن ، والنقع : الغبار الذى أثرته فى وجه العدو عند الغزو ، وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لايظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح . وقيل المعنى : فأثرن بمكان عدوهنّ نقعا ، يقال ثار النقع وأثرته : أى هاج أو هيجته . قرأ الجمهور « فأثرن » بتخفيف المثلثة . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالتشديد : أى فأظهرن به غبارا . وقال أبو عبيدة : النقع رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فمتى ينقع صراخ صادق يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول حين سمعوا صراخا أجلبوا الحرب : أى جمعوا لها . قال أبو عبيدة : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى ، والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية كأنّ أذنابها أطراف أقلام

وقول عبد الله بن رواحة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع من كنفى كداء

وقول الآخر : كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارت الخيل على بنى فلان صبحا فأثرن به صوتا ، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة . وقيل النقع : شق الجيوب ، وقال محمد بن كعب : النقع مابين مزدلفة إلى منى ، وقيل إنه طريق الوادى . قال فى الصحاح : النقع

الغبار ، والجمع أنقاع ، والنقع محبس الماء ، وكذلك ما اجتمع فى البئر منه ، والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء (فوسطن به جمعا) أى توسطن بذلك الوقت ، أو فوسطن ملتبسات بالنقع جمعا من جموع الأعداء ، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء ، والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة ، يقال : وسطت المكان : أى صرت فى وسطه ، وانتصاب جمعا على أنه مفعول به ، والفاآت فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتب مابعد كل واحدة منها على ماقبلها . قرأ الجمهور « فوسطن » بتخفيف السين ، وقرئ بالتشديد (إنّ الإنسان لربه لكنود) هذا جواب القسم ، والمراد بالإنسان بعض أفراده ، وهو الكافر ، والكنود : الكفور للنعمة ، وقوله « لربه » متعلق بكنود ، قدّم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن ... كنودا لنعماء الرجال يبعد

أى كفور لنعماء الرجال ، وقيل هو الجاحد للحقّ ، قيل إنها إنما سميت كندة لأنها جحدت أباها . وقيل الكنود مأخوذ من الكند ، وهو القطع ، كأنه قطع ماينبغى أن يواصله من الشكر . يقال كند الحبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى : * وصول حبال وكنادها * وقيل الكنود البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسى لم تطب منك نفسا ... غير أنى أمسى بدين كنود

وقيل الكنود الحسود ، وقيل الجهول لقدره ، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام ؛ والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ماقيل (وإنه على ذلك لشهيد) أى وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه ، وقيل المعنى : وإن الله جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ، وبه قال الجمهور . وقال بالأوّل الحسن وقتادة ومحمد بن كعب ، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله (وإنه لحبّ الخير لشديد) فإن الضمير راجع إلى الإنسان ، والمعنى : إنه لحبّ المال قوىّ مجدّ فى طلبه وتحصيله متهالك عليه ، يقال هو شديد لهذا الأمر وقوىّ له : إذا كان مطيقا له ، ومنه قوله تعالى ـ إن ترك خيرا ـ ومنه قول عدىّ بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب الـ ... ـخير وحبّ الحياة كاذبها

وقيل المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل ، والأوّل أولى . واللام فى « لحبّ » متعلقة بشديد . قال ابن زيد : سمى الله المال خيرا ، وعسى أن يكون شرّا ، ولكن الناس يجدونه خيرا ، فسماه خيرا . قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحبّ للخير ، فلما قدّم الحبّ قال : لشديد ، وحذف من آخره ذكر الحبّ ، لأنه قد جرى ذكره ، ولرءوس الآى كقوله ـ فى يوم عاصف ـ والعصوف للريح لا لليوم ، كأنه قال : فى يوم عاصف الريح (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور) الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام : أى يفعل مايفعل من القبائح فلا يعلم ، وبعثر معناه نثر وبحث : أى نثر مافى القبور من الموتى وبحث عنهم وأخرجوا . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه . قال الفرّاء : سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول : بحثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى قوله ـ وإذا القبور بعثرت ـ (وحصل ما فى الصدور) أى ميز وبين مافيها من الخير والشرّ ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ، وقيل حصل أبرز . قرأ الجمهور « حصل » بضم الحاء وتشديد الصاد مكسورا مبنيا للمفعول . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد وتخفيفها مبنيا للفاعل : أى ظهر (إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير) أى إن ربّ المبعوثين بهم لخبير لاتخفى عليه منهم خافية فيجازيهم بالخير خيرا ، وبالشرّ شرّا . قال

الزجاج : الله خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى ـ أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم ـ معناه : أولئك الذين لايترك الله مجازاتهم . قرأ الجمهور « إن ربهم » بكسر الهمزة وباللام فى لخبير ، وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة وإسقاط اللام من لخبير .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد وابن مردويه عن ابن عباس قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيلا فاستمرّت شهرا لايأتيه منها خبر فنزلت (والعاديات ضبحا) ضبحت بأرجلها » ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمناخرها (فالموريات قدحا) قدحت بحوافرها الحجارة فأورت نارا (فالمغيرات صبحا) صبحت القوم بغارة (فأثرن به نقعا) أثارت بحوافرها التراب (فوسطن به جمعا) صبحت القوم جميعا . وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية إلى العدوّ فأبطأ خبرها ، فشقّ ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم ، فقال (والعاديات ضبحا) قال : هى الخيل » . والضبح نخير الخيل حين تنخر (فالموريات قدحا) قال : حين تجرى الخيل تورى نارا أصابت سنابكها الحجارة (فالمغيرات صبحا) قال : هى الخيل أغارت فصبحت العدوّ (فأثرن به نقعا) قال : هى الخيل أثرن بحوافرها ، يقول بعدو الخيل ، والنقع الغبار (فوسطن به جمعا) قال : الجمع العدو . وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال : تقاولت أنا وعكرمة فى شأن العاديات ، فقال : قال ابن عباس : هى الخيل فى القتال ، وضبحها حين ترخى مشافرها إذا عدت (فالموريات قدحا) أرت المشركين مكرهم (فالمغيرات صبحا) قال : إذا صبحت العدو (فوسطن به جمعا) قال : إذا توسطت العدو . وقال أبو صالح : فقلت قال علىّ هى الإبل فى الحج ومولاى كان أعلم من مولاك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما أنا فى الحجر جالس إذ أتانى رجل يسأل عن العاديات ضبحا ، فقلت : الخيل حين تغير فى سبيل الله ثم تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم ، فانفتل عنى فذهب إلى علىّ ابن أبى طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحا ، فقال : سألت عنها أحدا قبلى ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس ، فقال : هى الخيل حين تغير فى سبيل الله ، فقال اذهب فادعه لى ، فلما وقفت على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف تكون (العاديات ضبحا) إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات صبحا : من المزدلفة إلى منى ، فذلك جمع ، وأما قوله (فأثرن به نقعا) فهى نقع الأرض تطوّه بأخفافها وحوافرها . قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ورجعت إلى الذى قال علىّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود (والعاديات ضبحا) قال : الإبل ، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعى . قال إبراهيم : وقال علىّ بن أبى طالب : هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل ، فبلغ عليا قول ابن عباس : فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كانت تلك فى سرية بعثت . وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبى قال : تمارى علىّ وابن عباس فى العاديات ضبحا ، فقال ابن عباس : هى الخيل ، وقال علىّ : كذبت يابن فلانة ، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق . قال : وكان يقول هى الإبل ، فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعا فما شىء تثير إلا بحوافرها . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس (والعاديات ضبحا) قال : الخيل (فالموريات قدحا) قال : الرجل إذا أورى زنده (فالمغيرات صبحا) قال : الخيل تصبح العدوّ (فأثرن به

نقعا) قال : التراب (فوسطن به جمعا) قال : العدوّ . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (والعاديات ضبحا) قال : قال ابن عباس : القتال . وقال ابن مسعود : الحج . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس (والعاديات ضبحا) قال : ليس شيء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس (فالموريات قدحا) قال : هو مكر الرجل قدح فأورى (فالمغيرات صبحا) قال : غارة الخيل صبحا (فأثرن به نقعا) قال : غبارا وقع سنابك الخيل (فوسطن به جمعا) قال : جمع العدوّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (والعاديات ضبحا) قال : الخيل ضبحها زحيرها ، ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أح أح ، فذلك ضبحها . وأخرج ابن المنذر عن عليّ قال : الضبح من الخيل الحمحمة ، ومن الإبل النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود (والعاديات ضبحا) قال : هي الإبل في الحج (فالموريات قدحا) إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضا فيخرج منه النار (فالمغيرات صبحا) حين يفيضون من جمع (فأثرن به نقعا) قال : إذا سرن يثرن التراب . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد الكفور . وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (إنّ الإنسان لربه لكنود) قال لكفور . وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب والحكيم الترمذي وابن مردويه عن أبي أمامة قال : الكنود الذي يمنع رفده وينزل وحده ويضرب عبده . ورواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والديلمي وابن عساكر مرفوعا ، وضعف إسناده السيوطي ، وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك ، والموقوف أصحّ لأنه لم يكن من طريقه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وإنه على ذلك لشهيد) قال : الإنسان (وإنه لحبّ الخير) قال : المال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (إذا بعثر ما في القبور) قال : بحث (وحصل ما في الصدور) قال : أبرز .

تفسير سورة القارعة

هي إحدى عشرة آية ، وقيل عشر آيات

وهي مكية بلا خلاف . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌۢ (١١) .

(القارعة) من أسماء القيامة ، لأنها تقرع القلوب بالفزع وتقرع أعداء الله بالعذاب ، والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع . قال ابن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لراحت عنك حينا

وقال آخر: متى نقرع بمروءتكم نسؤكم ولم يوقد لنا فى القدر نار

والقارعة مبتدأ وخبرها قوله (ما القارعة) وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ عيسى بنصبها على تقدير : احذروا القارعة ، والاستفهام للتعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقدّم بيانه فى قوله ـ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ـ وقيل معنى الكلام على التحذير . قال الزجاج : والعرب تحذر وتغرى بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لجديرون بالوفاء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدلّ على هذا المعنى ، ويؤيده أيضاً قوله (وما أدراك ما القارعة) فإنه تأكيد لشدّة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لاتنالها دراية أحد منهم ، وما الاستفهامية مبتدأ ، وأدراك خبرها وما القارعة مبتدأ وخبر ، والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ؛ والمعنى : وأىّ شىء أعلمك ماشأن القارعة ؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدلّ عليه القارعة : أى تقرعهم يوم يكون الناس الخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بتقدير اذكر . وقال ابن عطية ومكى وأبوالبقاء : هو منصوب بنفس القارعة ، وقيل هو خبر مبتدإ محذوف وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء لافتحة إعراب : أى هى يوم يكون الخ ، وقيل التقدير: ستأتيكم القارعة يوم يكون ، وقرأ زيد بن علىّ برفع يوم على الخبرية للمبتدإ المقدّر . والفراش : الطير الذى تراه يتساقط فى النار والسراج والواحدة فراشة ، كذا قال أبوعبيدة وغيره . قال الفراء : الفراش هو الطائر من بعوض وغيره ، ومنه الجراد . قال وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج ، يقال : أطيش من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقول آخر : وقد كان أقوام رددت حلومهم عليهم وكانوا كالفراش من الجهل

والمراد بالمبثوث المتفرّق المنتشر ، يقال بثه : إذا فرقه ، ومثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى ـ كأنهم جراد منتشر ـ وقال المبثوث ولم يقل المبثوثة ، لأن الكل جائز كما فى قوله ـ أعجاز نخل منقعر ـ و ـ أعجاز نخل خاوية ـ وقد تقدّم بيان وجه ذلك (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) أى كالصوف الملوّن بالألوان المختلفة الذى نفش بالندف ، والعهن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدّم بيان هذا فى سورة سأل سائل وقد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة ، وقد قدّمنا بيان الجمع بينها . ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرّقهم فريقين على جهة الإجمال فقال (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) قد تقدّم القول فى الميزان فى سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الأنبياء .

وقد اختلف فيها هنا ، فقيل هى جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفرّاء وغيره ، وقيل هى جمع ميزان ، وهو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال لكلّ حادثة ميزان ، وقيل المراد بالموازين الحجج والدلائل ، كما فى قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندى لكلّ مخاصم ميزانه

ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها . قال الزجاج : أى ذات رضى يرضاها صاحبها ، وقيل عيشة

راضية : أى فاعلة للرضى ، وهو اللين ، والانقياد لأهلها . والعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة (وأما من خفت موازينه) أى رجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتدّ بها (فأمه هاوية) أى فسكنه جهنم ، وسماها أمه ، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه ، والهاوية من أسماء جهنم ، وسميت هاوية ، لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا … فيها مقابرنا وفيها نولد

وقول الآخر : ياعمرو لو نالتك أرماحنا … كنت كمن تهوى به الهاويه

والمهوى والمهواة : مابين الجبلين ، وتهاوى القوم فى المهواة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . قال قتادة : معنى « فأمه هاويه » فصيره إلى النار . قال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أمّ رأسه . قال الأخفش : أمه مستقرّه (وما أدراك ماهيه) هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لاتحيط بها علوم البشر ولا تدرى كنهها . ثم بينها سبحانه فقال (نار حامية) أى قد انتهى حرّها وبلغ فى الشدّة إلى الغاية وارتفاع نار على أنها خبر مبتدإ محذوف : أى هى نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال (القارعة) من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (فأمه هاوية) قال : كقوله هوت أمه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة (فأمه هاوية) قال : أمّ رأسه هاوية فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه مافعل فلان مافعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأمّ وبئست المربية » . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى نحوه . وأخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضا .

تفسير سورة التكاثر

هى ثمان آيات

وهى مكية عند الجميع . وروى البخارى أنها مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزل بمكة (ألهاكم التكاثر) . وأخرج الحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر » . وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق والديلمى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ فى ليلة ألف آية لقى الله وهو ضاحك فى وجهه ، قيل يارسول الله ومن يقوى على ألف آية ؟ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر إلى آخرها ، ثم قال : والذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية » . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ ألهاكم التكاثر ، وفى لفظ : وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر ، وهو يقول : ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت » . وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها بلفظ « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاثة : ما أكل فأفنى ، أو

لبس فأبلى ، أو تصدّق فأقنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والبيهقى فى الشعب وضعفه عن جرير بن عبد الله قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر ، فمن بكى فله الجنة ، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : قد جهدنا يارسول الله أن نبكى فلم نقدر عليه ، فقال : إنى قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكى فليتباكى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ (٨) .

قوله (ألهاكم التكاثر) أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها . يقال : ألهاه عن كذا وألهاه إذا شغله ، ومنه قول امرئ القيس : • فألهيتها عن ذى تمائم محول • وقال الحسن : معنى ألهاكم : أنساكم (حتى زرتم المقابر) أى حتى أدركتم الموت وأنتم على تلك الحال. وقال قتادة : إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : ألهاكم التشاغل بالمعاش . وقال مقاتل وقتادة أيضا وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا . وقال الكلبى : نزلت فى حيين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سهم تعادّوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف فى الإسلام ، فقال كل حىّ منهم نحن أكثر سيدا وأعزّ عزيزا وأعظم نفرا وأكثر قائدا ، فكثر بنو عبد مناف بنى سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم ، فنزلت (ألهاكم التكاثر) فلم ترضوا (حتى زرتم المقابر) مفتخرين بالأموات : وقيل نزلت فى حيين من الأنصار . والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها . وفى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ، وقال سبحانه (ألهاكم التكاثر) ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذمّ ، لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب ، فيدخل فيه جميع مايحتمله المقام ، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، كما تقرّر فى علم البيان ، والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كلّ شىء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره هذا على قول من قال : إن معنى (زرتم المقابر) متم ، وأما على قول من قال : إن معنى (زرتم المقابر) ذكرتم الموتى وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم ، وقيل إنهم كانوا يزورون المقابر ، فيقولون هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك (كلا سوف تعلمون) ردع وزجر لهم عن التكاثر وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد . قال الفرّاء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر ، ثم كرّر الردع والزجر والوعيد فقال (ثم كلا سوف تعلمون) وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأوّل ، وقيل الأوّل عند الموت أو فى القبر ، والثانى يوم القيامة . قال الفرّاء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد . قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد . وكذا قال الحسن ومجاهد (كلا لو تعلمون

علم اليقين) أى لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علما يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا ، وجواب لو محذوف : أى لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير وتركتم مالا ينفعكم مما أنتم فيه ، وكلا فى هذا الموضع الثالث للزجر والردع كالموضعين الأوّلين . وقال الفرّاء : هى بمعنى حقا ، وقيل هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا . قال قتادة : اليقين هنا الموت ، وروى عنه أيضا أنه قال : هو البعث . قال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم ، وقوله (لترون الجحيم) جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد : أى والله لترونّ الجحيم فى الآخرة . قال الرازى : وليس هذا جواب لو ، لأن جواب لو يكون منفيا ، وهذا مثبت ولأنه عطف عليه (ثم لتسألنّ) وهو مستقبل لابدّ من وقوعه قال : وحذف جواب لو كثير ، والخطاب للكفار ، وقيل عام كقوله ـ وإن منكم إلا واردها ـ قرأ الجمهور « لترون » بفتح التاء مبنيا للفاعل وقرأ الكسائى وابن عامر بضمها مبنيا للمفعول ، ثم كرّر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال (ثم لترونها عين اليقين) أى ثم لترونّ الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين ، وهى المشاهدة والمعاينة ، وقيل المعنى : لترونّ الجحيم بأبصاركم على البعد منكم ، ثم لترونها مشاهدة على القرب . وقيل المراد بالأوّل رؤيتها قبل دخولها ، والثانى رؤيتها حال دخولها . وقيل هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار : أى هى رؤية دائمة متصلة . وقيل المعنى : لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم فى الدنيا لترونّ الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوّروا أمر القيامة وأهوالها (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) أى عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة . قال قتادة : يعنى كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا ربّ النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به . قال الحسن : لايسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه ، وهذا هو الظاهر ، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع لأن تعريفه للجنس أو الاستغراق ، ومجرّد السؤال لايستلزم تعذيب المسئول على النعمة التى يسئل عنها ، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها ، وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر ، وقيل السؤال عن الأمن والصحة ، وقيل عن الصحة والفراغ ، وقيل عن الإدراك بالحواسّ ، وقيل عن ملاذ المأكول والمشروب ، وقيل عن الغداء والعشاء ، وقيل عن بارد الشراب وظلال المساكن ، وقيل عن اعتدال الخلق ، وقيل عن لذة النوم ، والأولى العموم كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله (ألهاكم التكاثر) قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون : مثل ذلك تفاخروا بالأحياء . ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ألهاكم التكاثر) قال : فى الأموال والأولاد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألهاكم التكاثر » يعنى عن الطاعة (حتى زرتم المقابر) يقول : حتى يأتيكم الموت (كلا سوف تعلمون) يعنى لو قد دخلتم قبوركم (ثم كلا سوف تعلمون) يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم (كلا لو تعلمون علم اليقين) قال : لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم (لترونّ الجحيم) وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش فى نار جهنم (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) يعنى شبع البطون وبارد

الشرب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم . وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) قال : الأمن والصحة . وأخرج البيهقي عن عليّ بن أبي طالب قال : النعيم العافية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : من أكل خبز البرّ وشرب ماء الفرات مبردا وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذى يسأل عنه . وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية : أكل خبز البرّ والنوم فى الظلّ وشرب ماء الفرات مبردا . ولعل رفع هذا لايصح ، فربما كان من قول أبي الدرداء . وأخرج أحمد فى الزهد وابن مردويه عن أبي قلابة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال « ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل بالنقىّ فيأكلونه » وهذا مرسل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية . قال الصحابة : يارسول الله أىّ نعيم نحن فيه ؟ وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن قل لهم : أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي فى الشعب عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت (ألهاكم التكاثر) فقرأ حتى بلغ (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) قالوا : يارسول الله أىّ نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان : الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدوّ حاضر ، فعن أىّ نعيم نسأل ؟ قال : أما إن ذلك سيكون . وأخرجه عبد بن حميد والترمذى وابن مردويه من حديث أبي هريرة . وأخرجه أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه من حديث الزبير بن العوّام . وأخرج أحمد فى الزهد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والحاكم والبيهقي فى الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أوّل مايسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصحّ لك جسدك ونروك من الماء البارد ؟ » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي فى الشعب عن جابر بن عبد الله قال « جاءنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطبا وسقيناهم ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذا من النعيم الذى تسألون عنه » . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قالا « خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا : الجوع يارسول الله ، قال : والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما فقوما فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحبا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أين فلان ؟ قالت : انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصارىّ فنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر . فقال : كلوا من هذا وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر : والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » وفى الباب أحاديث اه .

تفسير سورة العصر

هى ثلاث آيات

وهى مكية عند الجمهور. وقال قتادة : هي مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة العصر بمكة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب عن أبى مزينة الدارمى ، وكانت له صحبة قال : كان لرجلان من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر . ثم يسلم أحدهما على الآخر .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسٰنَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عزّ وجلّ وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر وللنهار عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويقال للغداة والعشىّ عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به فى الآية العشىّ ، وهو مابين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر .

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر وفى الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروى عن قتادة أيضا أنه آخر ساعة من ساعات النهار . وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر وهى الصلاة الوسطى التى أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها ، وقيل هو قسم بعصر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . قال الزجاج : قال بعضهم : معناه ورب العصر ، والأوّل أولى (إن الإنسان لفى خسر) هذا جواب القسم . الخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمعنى : أن كل إنسان فى المتاجر والمساعى وصرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص وضلال عن الحق حتى يموت . وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقيل جماعة من الكفار : وهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأوّل أولى لما فى لفظ الإنسان من العموم ولدلالة الاستثناء عليه . قال الأخفش (فى خسر) فى هلكة . وقال الفراء : عقوبة . وقال ابن زيد : لفى شرّ . قرأ الجمهور « والعصر » بسكون الصاد . وقرءوا أيضا « خسر » بضم الخاء وسكون السين . وقرأ يحيى بن سلام « والعصر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى : « خسر » بضم الخاء والسين . ورويت هذه القراءة عن عاصم (إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم فى ربح لا فى خسر ، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ومن قال : إن المراد بالإنسان الكافر فقط ، فيكون منقطعا ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لايخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح (وتواصوا بالحق) أى وصى بعضهم بعضا بالحق الذى يحق القيام به ، وهو الإيمان بالله والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب مانهى عنه . قال قتادة : بالحق : أي بالقرآن ، وقيل بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى (وتواصوا بالصبر) أى بالصبر عن معاصى الله سبحانه والصبر على فرائضه . وفى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على مايحق الصبر عليه ـ إنّ الله مع الصابرين ـ وأيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق ، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنصّ عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (والعصر) قال : الدهر . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو ساعة من ساعات النهار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : هو ماقبل مغيب الشمس من العشىّ . وأخرج الفريابى وأبو عبيد فى فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف عن علىّ بن أبى طالب أنه كان يقرأ « والعصر ، ونوائب الدهر ، إن الإنسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، وإنه لفيه إلى آخر الدهر » اه .

تفسير سورة الهمزة

هى تسع آيات ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت (ويل لكل همزة لمزة) بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) .

الويل : هو مرتفع على الابتداء ، وسوّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره (لكل همزة لمزة) والمعنى : خزى أو عذاب أو هلكة أو واد فى جهنم لكل همزة لمزة . قال أبو عبيدة والزجاج : الهمزة اللمزة الذى يغتاب الناس ، وعلى هذا هما بمعنى : وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة الذى يغتاب الرجل فى وجهه ، واللمزة : الذى يغتابه من خلفه . وقال قتادة عكس هذا . وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يغتاب الناس فى أنسابهم . وروى عن مجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يهمز الناس بيده ، واللمزة :

الذى يلمزهم بلسانه . وقال سفيان الثورى : يهمزهم بلسانه ويلمزهم بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة : الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذى يكسر عينه على جليسه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، والأول أولى ، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلى بودّ إذا لاقيتنى كذبا ... وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر : إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى ... وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز الكسر ، يقال : همز رأسه كسره ، ومنه قول العجاج : * ومن همزنا رأسه تهشما *

وقيل أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع ، يقال : همزه يهمزه همزا ، ولمزه يلمزه لمزا : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر :

ومن همزنا عزه تبركعا ... على استه زوبعة أو زوبعا

البركعة : القيام على أربع ، يقال بركعه فتبركع : أى صرعه فوقع على استه ، كذا فى الصحاح وبناء فعلة يدلّ على الكثرة ، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيرا ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة . قرأ الجمهور « همزة لمزة » بضم أوّلهما وفتح الميم فيهما . وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما . وقرأ أبو وائل والنخعى والأعمش « ويل للهمزة اللمزة » والآية تعمّ كلّ من كان متصفا بذلك ، ولا ينافيه نزولها على سبب خاص ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (الذى جمع مالا وعدّده) الموصول بدل من كلّ ، أو فى محل نصب على الذمّ ، وهذا أرجح ، لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب ، والعلة فى الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، فلأجل ذلك يستقصر غيره . قرأ الجمهور « جمع » مخففا . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالتشديد . وقرأ الجمهور « وعدّده » بالتشديد ، وقرأ الحسن والكلبى ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف ، والتشديد فى الكلمتين يدلّ على التكثير وهو جمع الشىء بعد الشىء وتعديده مرّة بعد أخرى . قال الفراء : معنى عدّده أحصاه . وقال الزجاج : وعدّده لنوائب الدّهور . يقال أعددت الشىء وعددته : إذا أمسكته . قال السدّى : أحصى عدده . وقال الضحاك : أعدّ ماله لمن يرثه . وقيل المعنى : فاخر بكثرته وعدده ، والمقصود ذمه على جمع المال ، وإمساكه وعدم إنفاقه فى سبيل الخير . وقيل المعنى على قراءة التخفيف فى عدّده : أنه جمع عشيرته وأقاربه . قال المهدوى : من خفف وعدّده فهو معطوف على المال : أى وجمع عدده ، وجملة (يحسب أن ماله أخلده) مستأنفة لتقرير ماقبلها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال : أى يعمل عمل من يظنّ أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت . وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد فى عمره ، والإظهار فى موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ . وقيل هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية ، لا المال . وقوله (كلا) ردع له عن ذلك الحسبان : أى ليس الأمر على مايحسبه هذا الذى جمع المال وعدده ، واللام فى (لينبذن فى الحطمة) جواب قسم محذوف : أى ليطرحنّ فى النار وليلقينّ فيها . قرأ الجمهور « لينبذنّ » وقرأ علىّ والحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن : لينبذانّ بالتثنية : أى لينبذ هو وماله فى النار . وقرأ الحسن أيضا : لينبذنّ [1] : أى لينبذن ماله فى النار (وما أدراك ما الحطمة) هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول وتبلغه الأفهام .

---

(١) أى بالبناء للفاعل اه مصححه .

ثم بينها سبحانه فقال (نار الله الموقدة) أى هى نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه ، وفى إضافتها إلى الإسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك فى وصفها بالإيقاد : وسميت حطمة لأنها تحطم كل مايلقى فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا   يوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل : هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم ، وقيل الطبقة الثانية منها ، وقيل الطبقة الرابعة (التى تطلع على الأفئدة) أى يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محلّ العقائد الزائغة ، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها : أى إنهم فى حال من يموت وهم لايموتون . وقيل معنى (تطلع على الأفئدة) أنها تعلم بمقدار مايستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرّفها الله بها (إنها عليهم مؤصدة) أى مطبقة مغلقة كما تقدّم بيانه فى سورة البلد ، يقال أصدت الباب : إذا أغلقته ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا   مصبيا مؤصدا عليه الحجاب

(فى عمد ممدّدة) فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم : أى كائنين فى عمد ممدّدة موثقين فيها ، أو فى محلّ رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هم فى عمد ، أو صفة لمؤصدة : أى مؤصدة بعمد ممدّدة . قال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ثم شدّت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح . ومعنى كون العمد ممدّدة : أنها مطوّلة ، وهى أرسخ من القصيرة . وقيل العمد أغلال فى جهنم ، وقيل القيود . قال قتادة : المعنى هم فى عمد يعذّبون بها ، واختار هذا ابن جرير : قرأ الجمهور « فى عمد » بفتح العين والميم . قيل هو اسم جمع لعمود . وقيل جمع له . قال الفرّاء : هى جمع لعمود كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هى جمع عماد . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بضم العين والميم جمع عمود . قال الفرّاء : هما جمعان صحيحان لعمود . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور . قال الجوهرى : العمود عمود البيت ، وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد ، وقرئ بهما . قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ويل لكلّ همزة لمزة) قال : هو المشاء بالنميمة ، المفرّق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان . وأخرج ابن جرير عنه (ويل لكلّ همزة) قال : طعان (لمزة) قال : مغتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (إنها عليهم مؤصدة) قال : مطبقة (فى عمد ممدّدة) قال : عمد من نار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : هى الأدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هى الممدّدة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : أدخلهم فى عمد فمدّت عليهم فى أعناقهم فشدّت بها الأبواب .

تفسير سورة الفيل

هى خمس آيات ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة (ألم تر كيف فعل ربك) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) .

الاستفهام فى قوله (ألم تر) لتقرير رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم بإنكار عدمها . قال الفراء : المعنى ألم تخبر . وقال الزجاج : ألم تعلم ، وهو تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم بما فعله الله (بأصحاب الفيل) الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوبة بالفعل الذى بعدها ، ومعلقة لفعل الرؤية ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون لكلّ من يصلح له . والمعنى : قد علمت يامحمد ، أو علم الناس الموجودون فى عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل وما فعل الله بهم فما لكم لاتؤمنون ؟ والفيل هو الحيوان المعروف ، وجمعه أفيال ، وفيول ، وفيلة . قال ابن السكيت : ولا تقول أفيلة ، وصاحبه فيال ، وسيأتى ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله (ألم يجعل كيدهم فى تضليل) أى ألم يجعل مكرهم وسعيهم فى تخريب الكعبة واستباحة أهلها فى تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم ، والهمزة للتقرير كأنه قيل : قد جعل كيدهم فى تضليل ، والكيد : هو إرادة المضرّة بالغير ، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبى ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) أى أقاطيع يتبع بعضها بعضا كالإبل المؤبلة . قال أبو عبيدة : أبابيل جماعات فى تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبابيل : أى جماعات من ههنا وههنا . قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان تؤبل على فلان : أى تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم : واحده أبول مثل عجول . وقال بعضهم : أبيل . قال الواحدى : ولم نر أحدا يجعل لها واحدا . قال الفراء : لاواحد له من لفظه . وزعم الرؤاسى وكان ثقة أنه سمع فى واحدها : أبالة مشدّدا . وحكى الفرّاء أيضا : أبالة بالتخفيف . قال سعيد بن جبير : كانت طيرا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها . قال قتادة : هى طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره لايصيب شيئا إلا هشمه . وقيل كانت طيرا خضرا خرجت من البحر لها رءوس كرءوس السباع . وقيل كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكفّ كأكف الكلاب . وقيل فى صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل فى الطير كما فى قول الشاعر :

ترامى إلى الداعى سراعا كأنهم   أبابيل طير تحت دجن مسجن

وتستعملها فى غير الطير كقول الآخر :

كادت تهد من الأصوات راحلتى   أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل

(ترميهم بحجارة من سجيل) الجملة فى محل نصب صفة لطير . قرأ الجمهور (ترميهم) بالفوقية . وقرأ أبوحنيفة وأبومعمر وعيسى وطلحة بالتحتية ، واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل : الضمير فى القراءة الثانية لله عز وجل . قال الزجاج (من سجيل) أى مما كتب عليهم العذاب به ، مشتقا من السجل . قال فى الصحاح قالوا : هى حجارة من طين طبخت بنارجهنم مكتوب فيها أسماء القوم . قال عبدالرحمن بن أبزى : (من سجيل) من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط ، وقيل : من الجحيم التى هى سجين ، ثم أبدلت النون لاما ، ومنه قول ابن مقبل : * ضربا تواصت به الأبطال سجيلا *   وإنما هو سجينا . قال عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى ، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة ، وقد قدمنا الكلام فى سجيل فى سورة هود (فجعلهم كعصف مأكول) أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . وقيل المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقى منه بقايا ، أو أكلت حبه فبقى بدون حبه . والعصف جمع عصفة وعصافة وعصيفة ، وقد قدمنا الكلام فى العصف فى سورة الرحمن فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحدا ، قالوا : لانرجع حتى نهدمه وكانوا لايقدمون فيلهم إلا تأخر ، فدعا الله الطير الأبابيل ، فأعطاها حجارة سودا عليها الطين ، فلما حاذتهم رمتهم فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكة ، فكان لايحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب ، فقال لملكهم : ماجاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شىء ؟ فقال : أخبرت بهذا البيت الذى لايدخله أحد إلا أمن ، فجئت أخيف أهله ، فقال : إنا نأتيك بكل شىء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال الله (ترميهم بحجارة من سجيل) فجعل الفيل يعج عجا (فجعلهم كعصف مأكول) . وقصة أصحاب الفيل مبسوطة مطولة فى كتب التاريخ والسير فلا نطول بذكرها . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (ترميهم بحجارة من سجيل) قال : حجارة مثل البندق وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره حلقت عليهم من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم . وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل يريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها ، ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ويبقى عظاما خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا (فجعلهم كعصف مأكول) يقول : كالتبن . وأخرج ابن إسحاق فى السيرة والواقدى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر . وأخرج أبونعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل . وأخرج ابن إسحاق وأبونعيم والبيهقي عن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل .

تفسير سورة قريش

ويقال سورة لإيلاف ، وهي أربع آيات

وهي مكية عند الجمهور . وقال الضحاك والكلبي : هي مدنية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (لإيلاف) بمكة . وأخرج البخاري في تاريخه ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « فضل الله قريشا بسبع خصال لم يعطها أحدا قبلهم ولا يعطيها أحدا بعدهم : أني فيهم . وفي لفظ : النبوّة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجابة فيهم ، والسقاية فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين . وفي لفظ : عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم (لإيلاف قريش) ». قال ابن كثير : هو حديث غريب . ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوّام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فضل الله قريشا بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لايعبده إلا قريش ، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم ، وهي لإيلاف قريش ، وفضلهم بأن فيهم النبوّة ، والخلافة ، والسقاية » . وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه ، وهو مرسل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

اللام في قوله (لإيلاف) قيل هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها ، كأنه قال سبحانه : أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش . قال الفرّاء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ، لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال (لإيلاف قريش) أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون : هم أهل بيت الله عزّ وجلّ ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتا في اليمن يحجّ الناس إليه ، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ، فذكرهم نعمته : أي فعل ذلك لإيلاف قريش: أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم ، وذكر نحو هذا ابن قتيبة . قال الزجاج : والمعنى ـ فجعلهم كعصف مأكول (لإيلاف قريش) أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف . وقال في الكشاف : إن اللام متعلق بقوله (فليعبدوا) أمرهم أن يعبدوه لأجل

إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى : أما لا فليعبدوه . وقد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد . والمعنى : إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . وقال الكسائى والأخفش : اللام لام التعجب : أى اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل هى بمعنى إلى . قرأ الجمهور « لإيلاف » بالياء مهموزا من ألفت أؤلف إئلافا . يقال : ألفت الشىء ألافا وألفا ، وألفته إيلافا بمعنى ؛ ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر « لإلاف » بدون الياء ، وقرأ أبو جعفر « لإلف » وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

وقرأ عكرمة « ليألف قريش » بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود وفتح لام الأمر لغة معروفة . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » واستشهد بقول أبى طالب :

تذود الورى من عصبة هاشمية إلافهم فى الناس خير إلاف

وقريش هم : بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشى . وقريش يأتى منصرفا إن أريد به الحىّ . وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر : « وكفى قريش المعضلات وسادها » وقيل إنّ قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر . والأوّل أصح . وقوله (إيلافهم) بدل من إيلاف قريش . و (رحلة) مفعول به لإيلافهم وأفردها ، ولم يقل رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس . وقيل إن إيلافهم تأكيد للأوّل لا بدل ، والأوّل أولى . ورجحه أبو البقاء . وقيل إن رحلة منصوبة بمصدر مقدّر : أى ارتحالهم رحلة (الشتاء والصيف) وقيل هى منصوبة على الظرفية ، والرحلة : الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارّة ، والرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة . وروى أنهم كانوا يشتون بمكة . ويصيفون بالطائف . والأوّل أولى ، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف فى الجاهلية والإسلام . قال ابن قتيبة : إنما كانت تعيش قريش بالتجارة وكانت لهم رحلتان فى كل سنة : رحلة فى الشتاء إلى اليمن . ورحلة فى الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام ، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرّف (فليعبدوا ربّ هذا البيت) أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم : أى إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة ؛ والبيت الكعبة . وعرّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها . وقيل لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيرا لنعمته (الذى أطعمهم من جوع) أى أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وقيل إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليهم ، فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد القحط ، فقالوا : يامحمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون ، فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط (وآمنهم من خوف) أى من خوف شديد كانوا فيه . قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها بعضا ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ويحكم ياقريش ، اعبدوا ربّ هذا البيت الذى أطعمكم من

جوع وآمنكم من خوف » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (لإيلاف قريش) قال : نعمتى على قريش (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف (فليعبدوا ربّ هذا البيت) قال : الكعبة (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) قال : الجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه (لإيلاف قريش إيلافهم) قال : لزومهم (الذى أطعمهم من جوع) يعنى قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال ـ وارزق أهله من الثمرات ـ (وآمنهم من خوف) حيث قال إبراهيم ـ ربّ اجعل هذا البلد آمنا ـ وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا فى قوله (لإيلاف قريش) الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت ، وكفاهم المؤنة ، وكانت رحلتهم فى الشتاء والصيف ولم يكن لهم راحة فى شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد وردت أحاديث فى فضل قريش وإن الناس تبع لهم فى الخير والشرّ ، وإن هذا الأمر يعنى الخلافة لا يزال فيهم ما بقى منهم اثنان ، وهى فى دواوين الإسلام .

تفسير سورة أرأيت

ويقال سورة الدين ، ويقال سورة الماعون ، ويقال سورة اليتيم ، وهى سبع آيات

وهى مكية فى قول عطاء وجابر ، وأحد قولى ابن عباس ، ومدنية فى قول قتادة وآخرين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت (أرأيت الذى يكذب بالدين) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧) .

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين . والرؤية : بمعنى المعرفة ، والدين : الجزاء والحساب فى الآخرة . قيل وفى الكلام حذف ، والمعنى : أرأيت الذى يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ . قال مقاتل والكلبى : نزلت فى العاص بن وائل السهمى . وقال السدّى : فى الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك : فى عمرو بن عائذ . وقال ابن جريج فى أبى سفيان ، وقيل فى رجل من المنافقين . قرأ الجمهور (أرأيت) بإثبات الهمزة الثانية . وقرأ الكسائى بإسقاطها . قال الزجاج : لا يقال فى رأيت ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا . وقيل الرؤية : هى البصرية ، فيتعدّى إلى مفعول واحد ، وهو الموصول : أى أبصرت المكذب . وقيل إنها بمعنى أخبرنى ، فيتعدى إلى اثنين . الثانى محذوف : أى من هو (فذلك الذى يدعّ اليتيم) الفاء جواب شرط مقدّر : أى إن تأملته أو طلبته فذلك الذى يدعّ اليتيم ،

ويجوز أن تكون عاطفة على الذى يكذب : إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة . فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبر لمبتدإ محذوف : أى فهو ذلك ، والموصول صفته . وعلى الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الذى هو فى محل نصب . ومعنى يدعّ يدفع دفعا بعنف وجفوة : أى يدفع اليتيم عن حقه دفعا شديدا ، ومنه قوله سبحانه ـ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ـ وقد قدّمنا أنهم كانوا لايورّثون النساء والصبيان (ولا يحضّ على طعام المسكين) أى لايحضّ نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلا بالمال ، أو تكذيبا بالجزاء ، وهو مثل قوله فى سورة الحاقة ـ ولا يحضّ على طعام المسكين ـ (فويل) يومئذ (للمصلين) الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل إذا كان ماذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين (الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى عذاب لهم ، أو هلاك ، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل ، ومعنى ساهون : غافلون غير مبالين بها ، ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ماذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ماذكر . قال الواحدى : نزلت فى المنافقين الذين لايرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا ، وهو معنى قوله (الذين هم يراءون) أى يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراءون الناس بكل ماعملوه من أعمال البرّ ليثنوا عليهم . قال النخعى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) هو الذى إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو الذى لايقرأ ولا يذكر الله . وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون (ويمنعون الماعون) . قال أكثر المفسرين : الماعون اسم لما يتعاوزه الناس بينهم : من الدلو والفأس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح . وقيل هو الزكاة : أى يمنعون زكاة أموالهم . وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرّد : الماعون فى الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل مافيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منـه بماعونه   إذا ماسماؤهم لم تغم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرّد أيضا : والماعون فى الإسلام الطاعة والزكاة ، وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحمن إنا معشر   حنفا نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله من أموالنا   حقّ الزكاة منزلا تنزيلا
قوم على الإسلام لما يمنعوا   ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وقيل الماعون الماء . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون الماء ، وأنشدنى :

* تمجّ صبيرة الماعون صبا *

والصبيرة السحاب ، وقيل الماعون : هو الحق على العبد على العموم ، وقيل هو المستغلّ من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن ، وهو القليل . قال قطرب : أصل الماعون من القلة ، والمعن : الشىء القليل ، فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا ، لأنه قليل من كثير ، وقيل هو مالايبخل به كالماء والملح والنار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أرأيت الذى يكذب بالدين) قال : يكذب بحكم الله (فذلك الذى يدعّ اليتيم) قال : يدفعه عن حقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عنه (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم

إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضا هم ، وهي الماعون . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم المنافقون يتركون الصلاة فى السرّ ويصلون فى العلانية . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبويعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبىّ : أرأيت قول الله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) أينا لايسهو ، أينا لايحدّث نفسه ؟ قال : إنه ليس ذلك ، إنه إضاعة الوقت . وأخرج أبويعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها . قال الحاكم والبيهقى : الموقوف أصح . قال ابن كثير : وهذا يعنى الموقوف أصح إسنادا . قال : وقد ضعف البيهقى رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه قال السيوطى بسند ضعيف عن أبى برزة الأسلمى قال « لما نزلت هذه الآية (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كلّ رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه » وفى إسناده جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسمّ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبوداود والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن مسعود قال : كنا نعدّ الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم ، فأنزل الله (ويمنعون الماعون) . وأخرج أبونعيم والديلمى وابن عساكر عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال : ماتعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميرى « أنهم وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا : يارسول الله ماتعهد إلينا ؟ قال : لاتمنعوا الماعون ، قالوا : وما الماعون ؟ قال : فى الحجر والحديدة وفى الماء ، قالوا : فأىّ الحديدة ؟ قال : قدوركم النحاس وحديد الفأس الذى تمتهنون به ، قالوا : وما الحجر ؟ قال : قدوركم الحجارة » . قال ابن كثير : غريب جدا ، ورفعه منكر ، وفى إسناده من لايعرف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : الماعون : الفأس والقدر والدلو . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى ، والضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى الآية قال : عارية متاع البيت . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى فى سننه عن علىّ بن أبى طالب قال : الماعون الزكاة المفروضة (يراءون) بصلاتهم (ويمنعون) زكاتهم .

تفسير سورة الكوثر

هي ثلاث آيات

وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

قرأ الجمهور (إنا أعطيناك) وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني « أنطيناك » بالنون . قيل هي لغة العرب العاربة . قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك يصان الحلال وتنطى الحلولا

و (الكوثر) فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة ، مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرا ، ومنه قول الشاعر .

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا * فالمعنى على هذا : إنا أعطيناك يامحمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية . وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل هو حوض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف قاله عطاء . وقال عكرمة : الكوثر النبوّة . وقال الحسن : هو القرآن . وقال الحسن بن الفضل : هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع . وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة . وقال ابن كيسان : هو الإيثار . وقيل هو الإسلام ، وقيل رفعة الذكر ، وقيل نور القلب ، وقيل الشفاعة ، وقيل المعجزت ، وقيل إجابة الدعوة ، وقيل لا إله إلا الله ، وقيل الفقه في الدين ، وقيل الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ماهو الحق (فصلّ لربك) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة (وانحر) البدن التي هي خيار أموال العرب . قال محمد بن كعب : إن ناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون صلاته ونحره له . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد صلاة العيد ، ونحر الأضحية . وقال سعيد بن جبير : صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى . وقيل النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله محمد ابن كعب . وقيل هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره . وقيل هو أن يستقبل القبلة بنحره قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول نتناحر : أي نتقابل : نحر هذا إلى نحر هذا أي قبالته ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنت عمرا مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي المتقابل . وقال ابن الأعرابي : هو انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب ، من قولهم : منازلهم تتناحر

تتقابل . وروى عن عطاء أنه قال : أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمى : المعنى : وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك . وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر وأن يجعلهما لله عزّ وجلّ لا لغيره . وما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له . وسيأتى إن شاء الله (إن شانئك هو الأبتر) أى إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم : فيعمّ خيرى الدنيا والآخرة . أو الذى لاعقب له . أو الذى لايبقى ذكره بعد موته . وظاهر الآية العموم . وأن هذا شأن كل من يبغض النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . ولا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل ، فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما مرّ غير مرّة . قيل كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا : قد بتر فلان . فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد . فنزلت الآية . وقيل القائل بذلك عقبة بن أبى معيط . قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذى لا ولد له ، ومن الدوابّ : الذى لاذنب له . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . وأصل البتر القطع . يقال بترت الشىء بترا : قطعته .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبوداود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال « أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه مبتسما فقال : إنه أنزل علىّ آنفا سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة . آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يارب إنه من أمتى . فيقال إنك لاتدرى ما أحدث بعدك » . وأخرجه أيضا مسلم فى صحيحه ، وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ . فضربت بيدى إلى مايجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر ، قلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله » وقد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن جرير وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فى بطنان الجنة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة . وأخرج الطبرنى فى الأوسط عن حذيفة فى قوله (إنا أعطيناك الكوثر) قال : نهر فى الجنة . وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعا « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر ، فقال : أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » . وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه « أن رجلا قال : يارسول الله ما الكوثر ؟ قال : هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة ، فيتعين المصير إليها ، وعدم التعويل على غيرها ، وإن كان معنى الكوثر : هو الخير الكثير فى لغة العرب ، فمن فسره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوىّ . كما أخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار : قال سعيد بن جبير فى الكوثر : قلت حدّثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير ، فقال : صدق إنه للخير الكثير ، ولكن حدّثنا ابن عمر قال نزلت (إنا أعطيناك الكوثر) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب يجرى على الدرّ والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من

العسل » . وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : فى الكوثر هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه . وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوىّ كما عرّفناك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فسره فيما صح عنه أنه النهر الذى فى الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن علىّ بن أبى طالب قال « لما نزلت هذه السورة على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم (إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل : ماهذه النحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ فقال : إنها ليست بنحيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : رفع اليدين من الاستكانة التى قال الله - فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون - » وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن علىّ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال « إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر » . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى فى الأفراد وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (فصلّ لربك وانحر) قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره فى الصلاة . وأخرج أبو الشيخ والبيهقى فى سننه عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن شاهين فى سننه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس (فصلّ لربك وانحر) قال : إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستو قائما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحى . وأخرج البيهقى فى سننه عنه (وانحر) قال : يقول واذبح يوم النحر . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة . فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال : أنتم خير منه ، فنزلت (إن شانئك هو الأبتر) ونزلت - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب - إلى قوله - فلن تجد له نصيرا - قال ابن كثير : وإسناده صحيح . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب قال : لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابئ قد بتر الليلة فأنزل الله (إنا أعطيناك الكوثر) إلى آخر السورة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القاسم ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم وهو أوّل ميت من أهله وولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله (إن شانئك هو الأبتر) وفى إسناده الكلبى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (إن شانئك هو الأبتر) قال : أبو جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (إن شانئك) يقول : عدوّك .

تفسير سورة الكافرون

هي ست آيات

وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة (يا أيها الكافرون) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن الزبير قال : أنزلت (يا أيها الكافرون) بالمدينة . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهذه السورة ، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) » . وأخرج الحاكم وصححه عن أبيّ قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بسبح ، و (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) وأخرج محمد بن نصر والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، و (قل يا أيها الكافرون) تعدل ربع القرآن ، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر » . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن » . وأخرج الطبراني في الصغير والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ (قل يا أيها الكافرون) فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ (قل هو الله أحد) فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وأخرج أحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « خرجت مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فمرّ برجل يقرأ (قل يا أيها الكافرون) فقال : أما هذا فقد برئ من الشرك ، وإذا آخر يقرأ (قل هو الله أحد) فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : بها وجبت له الجنة » ، وفي رواية « أما هذا فقد غفر له » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال : يارسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال « اقرأ (قل يا أيها الكافرون) ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك » . وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنوفل بن معاوية الأشجعي « إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) فإنك إذا قلتها فقد برئت من الشرك » . وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة ، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة ، وهو أخو زيد بن حارثة قال : « قلت يارسول الله علمني شيئا أقوله عند منامي قال : إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) حتى تمرّ بآخرها فإنها براءة من الشرك » . وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ « اقرأ (قل يا أيها الكافرون) عند منامك فإنها براءة من الشرك » . وأخرج أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أدلكم على

كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرءون (قل يا أيها الكافرون) عند منامكم». وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه عن خباب أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) وإن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت فراشه قط إلا قرأ (قل يا أيها الكافرون) حتى يختم». وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من لقى الله بسورتين فلا حساب عليه (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد)». وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن الضريس عن أبى مسعود الأنصارى قال: من قرأ (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) فى ليلة فقد أكثر وأطاب.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦).

الألف واللام فى (يا أيها الكافرون) للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطابا لمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك، لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه. وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم (لا أعبد ما تعبدون) أى لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام، قيل والمراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الذى فى معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، والمعنى: أنه لم يعهد منى ذلك (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، وهذا على قول من قال إنه لا تكرار فى هذه الآيات لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل لما قدّمنا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال، والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل فى لن: إن أصله لا، فالمعنى: لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل، ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى. ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى ولست فى الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم فى الحال بعابدين معبودى؛ وقيل بعكس هذا، وهو أن الجملتين الأوليين للحال، والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) كما لو قال القائل: أنا ضارب زيدا، وأنا قاتل عمرا، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش والفرّاء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله فى الحال وفيما يستقبل. وقيل إن كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال، ولكنا نخص أحدهما بالحال، والثانى بالاستقبال رفعا للتكرار. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ولا أعبد ما تعبدون للاستقبال، وإن كان صحيحا على

مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لايتم جعل قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) للاستقبال ، لأن الجملة اسمية تفيد الدوام والثبات فى كل الأوقات فدخول النفى عليها يرفع مادلت عليه من الدوام ، والثبات فى كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحا للزم مثله فى قوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) وفى قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فلا يتم ماقيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ماقيل من العكس ، لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ لا فى كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال والاستقبال مختلفة . وأما قول من قال : إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار ، لأن حمل هذا على معنى وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذى لايدل عليه دليل . وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التى لاتجحد ، واستعمالاتهم التى لاتنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا ، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لايحتاج إلى إقامة البرهان عليه لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ويبرهن على ماهو متنازع فيه . وأما ماكان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لايشك فيه شاك ، ولايرتاب فيه مرتاب فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل . وقد وقع فى القرآن من هذا مايعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر فى بعض السور كما فى سورة الرحمن وسورة المرسلات وفى أشعار العرب من هذا ما لايأتى عليه الحصر ، ومن ذلك قول الشاعر : يالبكر انشروا لى كليبا يالبكر أين أين الفرار

وقول الآخر : هلا سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر : ياعلقمة ياعلقمة ياعلقمه خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر : ألا يااسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر : ياجعفر ياجعفر ياجعفر إن أك دحداحا فأنت أقصر

وقول الآخر : * أتاك أتاك اللاحقوك احبس احبس *

وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات ، وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع فى السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما التى لغير العقلاء فى المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك كما فى قوله : سبحان ماسخركن لنا ونحوه ، والنكتة فى ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد ولا يختلف . وقيل إنه أراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . وقيل إن « ما » فى المواضع الأربعة هى المصدرية لا الموصولة : أى لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتى الخ ، وجملة (لكم دينكم) مستأنفة لتقرير قوله (لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) كما أن قوله (ولى دين) تقرير لقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فى الموضعين : أى إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى كما فى قوله ـ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ـ والمعنى : أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لايتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون ، ودينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لايتجاوزه إلى الحصول لكم . وقيل المعنى : لكم جزاؤكم ولى جزائى ، لأن الدين الجزاء . قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل ليست بمنسوخة ، لأنها أخبار والأخبار لايدخلها النسخ .

قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله « ولى » وقرأ نافع وهشام وحفص والبزى بفتحها . وقرأ الجمهور أيضا بحذف الياء من ديني وقفا ووصلا ، وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلا ووقفا . قالوا لأنها اسم فلا تحذف . ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسما .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى عن ابن عباس « أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يامحمد وكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال : ماهى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتينى من ربى ، فجاء الوحى من عند الله (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) إلى آخر السورة ، وأنزل الله ـ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ـ إلى قوله ـ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ـ » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف عن سعيد ابن مينا مولى أبي البحترى قال « لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : يامحمد هلمّ فلنعبد ماتعبد وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى نحن عليه أصحّ من الذى أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا ، وإن كان الذى أنت عليه أصحّ من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظا ، فأنزل الله (قل يا أيها الكافرون) إلى آخر السورة » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فأنزل الله (قل يأيها الكافرون) السورة كلها .

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع ، هى ثلاث آيات

وهى مدنية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة (إذا جاء نصر الله والفتح) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوسط أيام التشريق بمنى ، وهو فى حجة الوداع (إذا جاء نصر الله والفتح) حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنها الوداع . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعيت إلىّ نفسى » . وأخرج ابن مردويه عنه قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعيت إلىّ نفسى وقرب إلىّ أجلى » . وأخرج النسائى وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) نعيت لرسول الله نفسه حين أنزلت ، فأخذ فى أشدّ ماكان قط اجتهادا فى أمر الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أمّ حبيبة قالت « لما أنزل (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبىّ الماضى قبله ، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل ، وهذه لى عشرون سنة وأنا ميت فى هذه السنة ، فبكت فاطمة ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : أنت أوّل أهلى بى لحوقا ، فتبسمت » . وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فاطمة وقال : إنه قد نعيت إلىّ نفسي ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ؟ فقال : اصبري فإنك أوّل أهلي لحاقا بي فضحكت » وقد تقدّم في تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

إذا انصرف الشهر الحرام فودّعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

يقال نصره على عدوّه ينصره نصرا : إذا أعانه ، والاسم النصرة ، واستنصره على عدوّه : إذا سأله أن ينصره عليه . قال الواحدي : قال المفسرون (إذا جاء) ك يا محمد (نصر الله) على من عاداك ، وهم قريش (والفتح) فتح مكة ، وقيل المراد نصره صلى الله عليه وآله وسلم على قريش من غير تعيين ، وقيل نصره على من قاتله من الكفار ، وقيل هو فتح سائر البلاد ، وقيل هو مافتحه الله عليه من العلوم ، وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجيء للإيذان بأنهما متوجهان إليه صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل إذا بمعنى قد ، وقيل بمعنى إذ . قال الرازي : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقا ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف عليه الفتح ؛ أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة ؛ أو يقال النصر الظفر ، والفتح الجنة ، هذا معنى كلامه . ويقال الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجا بعد فوج . قال الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا : أي جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدا واحدا ، واثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام . قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين ، وانتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون ، ومحل قوله يدخلون في دين الله النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني (فسبح بحمد ربك) هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله . وقال مكي : العامل في إذا هو جاء ، ورجحه أبو حيان وضعف الأوّل بأن ماجاء بعد فاء الجواب لايعمل فيما قبلها ، وقوله (بحمد ربك) في محل نصب على الحال : أي فقل سبحان الله ملتبسا بحمده ، أو حامدا له . وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي

النصر والفتح لأمّ القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ماهو معروف من قولهم : هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن ، ونحو ذلك . ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار : أى اطلب منه المغفرة لذنبك هضما لنفسك واستقصارا لعملك ، واستدراكا لما فرط منك من ترك ماهو الأولى ، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرّع وإن كان قد غفر الله له ماتقدّم من ذنبه وما تأخر . وقيل إن الاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به ، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم . وقيل إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته وتعريضا بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار . وقيل إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه . وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلاة . والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورا بالنعمة ، وفرحا بما هيأه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ونزول الذلة بهم وحصول القهر لهم . قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لى إنك أنت التوّاب . قال قتادة ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين ، وجملة (إنه كان توّابا) تعليل لأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار : أى من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتوّاب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين . وقد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله (إذا جاء نصر الله والفتح) فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : فأنت يا ابن عباس ماتقول؟ قال : قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نعيت له نفسه . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ماتقولون فى قول الله عزّ وجلّ (إذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا ، فقال : ماتقول؟ فقلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه الله له ، قال (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ماتقول . وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر أن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعيت إليه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، وأستغفره وأتوب إليه ، فقلت : يارسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقال : خبرنى ربى أنى سأرى علامة من أمتى ، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها (إذا جاء نصر الله والفتح) فتح مكة (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّابا) » . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ،

اللهم اغفر لى يتأوّل القرآن » يعنى إذا جاء نصر الله والفتح ، وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : جاء أهل اليمن هم أرقّ قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المدينة إذ قال الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) قال : ليخرجنّ منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا » .

تفسير سورة تبت

هى خمس آيات

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة قالوا : نزلت (تبت يدا أبى لهب) بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥).

معنى (تبت) هلكت . وقال مقاتل : خسرت ، وقيل خابت . وقال عطاء : ضلت . وقيل صفرت من كل خير ، وخصّ اليدين بالتباب ، لأن أكثر العمل يكون بهما . وقيل المراد باليدين نفسه ، وقد يعبر باليد عن النفس ، كما فى قوله ـ بما قدّمت يداك ـ أى نفسك ، والعرب تعبر كثيرا ببعض الشيء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما فى قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وقوله (وتبّ) أى هلك . قال الفراء : الأوّل دعاء عليه ، والثانى خبر ، كما تقول : أهلكه الله ، وقد هلك . والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ويؤيده قراءة ابن مسعود : وقد تبّ . وقيل كلاهما إخبار ، أراد بالأوّل هلاك عمله ، وبالثانى هلاك نفسه . وقيل كلاهما دعاء عليه ، ويكون فى هذا شبه من مجيء العامّ بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة . وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ، ولكون اسمه كما تقدّم عبد العزى ، والعزّى اسم صنم ، ولكون فى هذه الكنية ما يدلّ على أنه ملابس للنار ، لأن اللهب هى لهب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا ، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار . قرأ الجمهور « لهب » بفتح اللام والهاء . وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير

وابن محيصن بإسكان الهاء ، واتفقوا على فتح الهاء فى قوله (ذات لهب) وروى صاحب الكشاف أنه قرئ تبت يدا أبو لهب ، وذكر وجه ذلك (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى مادفع عنه ماحل" به من التباب وما نزل به من عذاب الله ماجمع من المال ولاما كسب من الأرباح والجاه ، أو المراد بقوله : ماله ما ورثه من أبيه ، وبقوله (وما كسب) الذى كسبه بنفسه . قال مجاهد : وما كسب من ولد ، وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون « ما » فى قوله (ما أغنى) استفهامية : أى أىّ شىء أغنى عنه ؟ وكذا يجوز فى قوله (وما كسب) أن تكون استفهامية : أى وأىّ شىء كسب ؟ ويجوز أن تكون مصدرية أى وكسبه . والظاهر أن ما الأولى نافية ، والثانية موصولة . ثم أوعده سبحانه بالنار فقال (سيصلى نارا ذات لهب) قرأ الجمهور « سيصلى » بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام : أى سيصلى هو بنفسه ، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلى وأبو السماك والأعمش ومحمد بن السميفع بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، والمعنى سيصليه الله ، ومعنى (ذات لهب) ذات اشتعال وتوقد ، وهى نار جهنم (وامرأته حمالة الحطب) معطوف على الضمير فى يصلى ، وجاز ذلك للفصل : أى وتصلى امرأته نارا ذات لهب ، وهى أم" جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت تحمل الغضى والشوك فتطرحه بالليل على طريق النبىّ صلى الله عليه وآ له وسلم ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرّة الهمدانى . وقال مجاهد وقتادة والسدّى : إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس . والعرب تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نمّ به ، ومنه قول الشاعر :

إن بنى الأدرم حمالوا الحطب ● هم الوشاة فى الرضا والغضب ● عليهم اللعنة تترى والحرب

وقال آخر : من البيض لم يصطد على ظهر لامة ● ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب

وجعل الحطب فى هذا البيت رطبا لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشرّ ، ومن الموافقة للمشى بالنميمة . وقال سعيد بن جبير : معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، كما فى قوله ـ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ـ وقيل المعنى : حمالة الحطب فى النار . قرأ الجمهور « حمالة » بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب ، وأما على ماقدّمنا من عطف وامرأته على الضمير فى تصلى ، فيكون رفع حمالة على النعت لامرأته ، والإضافة حقيقية لأنها بمعنى المضىّ ، أو على أنه خبر مبتدإ محذوف : أى هى حمالة . وقرأ عاصم بنصب « حمالة » على الذمّ ، أو على أنه حال من امرأته . وقرأ أبو قلابة « حاملة الحطب » (فى جيدها حبل من مسد) الجملة فى محل نصب على الحال من امرأته ، والجيد العنق ، والمسد الليف الذى تفتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقذوفة بدخيس النحض نازلها ● له صريف صريف القعواء بالمسد

وقول الآخر: يامسد الخوص تعوّذ منى ● إن كنت لدنا لينا فإنى

وقال أبوعبيدة : المسد هو الحبل يكون من صوف . وقال الحسن : هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد . وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ، كانت تعير النبىّ صلى الله عليه وآ له وسلم بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها فخنقها الله به فأهلكها ، وهو فى الآخرة حبل من نار . وقال مجاهد وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها . وقال قتادة : هوقلادة من ودع كانت لها . قال الحسن : إنما كان خرزا فى عنقها . وقال سعيد بن المسيب : كانت

لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللات والعزّى لأنفقنها فى عداوة محمد ، فيكون ذلك عذابا فى جسدها يوم القيامة . والمسد الفتل يقال : مسد حبله يمسده مسدا : أجاد فتله اه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : « لما نزلت ـ وأنذر عشيرتك الأقربين ـ خرج النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتكم لوأخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقىّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ؛ فقال أبولهب : تبالك إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة (تبت يدا أبى لهب وتبّ) » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (تبت يدا أبى لهب) قال : خسرت . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ابنه من كسبه ، ثم قرأت (ما أغنى عنه ماله وما كسب) قالت : وماكسب ولده . وأخرج عبد الرزاق والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وما كسب) قال : كسبه ولده . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (وامرأته حمالة الحطب) قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ليعقره وأصحابه ، وقال حمالة الحطب) نقالة الحديث (حبل من مسد) قال : هى حبال تكون بمكة . ويقال : المسد العصا التى تكون فى البكرة . ويقال : المسد قلادة من ودع . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر قالت « لما نزلت (تبت يدا أبى لهب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

* مذمما أبينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا *

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس فى المسجد ومعه أبوبكر ، فلما رآها أبوبكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنها لن ترانى وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى ـ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ـ فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : يا أبا بكر إنى أخبرت أن صاحبك هجانى ، قال : لا وربّ البيت ماهجاك ، فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها » وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لانعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد .

تفسير سورة الإخلاص

هى أربع آيات

وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر ، ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّى . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه والترمذى وابن جرير وابن خزيمة وابن أبى عاصم فى السنة والبغوى فى معجمه وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبىّ ابن كعب « أن المشركين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : يامحمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله ـ قل هو الله أحد ، لم يلد ولم يولد ، ـ الخ ليس شىء يولد إلا سيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وإن الله لايموت ولا يورث ـ ولم يكن له كفوا أحد ـ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شىء » ورواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسلا ولم يذكر أبيا ، ثم قال : وهذا أصح . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر

والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي عن جابر قال « جاء أعرابي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : انسب لنا ربك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد) إلى آخر السورة » وحسن السيوطي إسناده . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انسب لنا ربك فنزلت هذه السورة (قل هو الله أحد) » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن عديّ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس « أن اليهود جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ، فقالوا : يامحمد صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد) فيخرج منه الولد . ولم يولد ، فيخرج منه شيء » . وأخرج أبو عبيد في فضائله وأحمد والنسائي في اليوم والليلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وأخرج ابن الضريس والبزار والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد مائتي مرة غفر له ذنب مائتي سنة » . قال البزار : لانعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبي جعفر والأغلب بن تميم ، وهما يتقاربان في سوء الحفظ . وأخرج أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه عن أنس قال « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني أحبّ هذه السورة (قل هو الله أحد) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حبك إياها أدخلك الجنة » . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن الأنباري في المصاحف عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ (قل هو الله أحد) ثلاث مرّات في ليلة ؟ فإنها تعدل ثلث القرآن » وإسناده ضعيف . وأخرج محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من قرأ (قل هو الله أحد) خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة » وإسناده ضعيف . وأخرج الترمذي وابن عديّ والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ (قل هو الله أحد) مائتي مرة ، كتب الله له ألفا وخمسمائة حسنة ، ومحى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره ، ولفظ الترمذي « من قرأ في يوم مائتي مرة (قل هو الله أحد) ، محي عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » ، وفي إسناده حاتم بن ميمون المذكور . وأخرج الترمذي ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عديّ والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه ، ثم قرأ (قل هو الله أحد) مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ : ياعبدي ادخل على يمينك الجنة » وفي إسناده أيضا حاتم ابن ميمون المذكور . قال الترمذي بعد إخراجه : غريب من حديث ثابت . وقد روى من غير هذا الوجه عنه . وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن أنس قال « كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالشام ، وفي لفظ : بتبوك فهبط جبريل فقال : يامحمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك ، أفتحبّ أن تصلي عليه ؟ قال نعم ، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شيء ولزق بالأرض ورفع له سريره فصلى عليه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : من أيّ شيء أوتي معاوية هذا الفضل ، صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستة آلاف ملك ؟ قال : بقراءة (قل هو الله أحد) كان يقرؤها قائما وقاعدا وجائيا وذاهبا ونائما » ، وفي إسناده العلاء بن محمد الثقفي وهو متهم بالوضع . وروى عنه من وجه آخر بأطول من هذا ، وفي إسناده هذا المتهم . وفي الباب أحاديث في هذا المعنى وغيره . وقد روى من غير الوجه أنها تعدل ثلث القرآن ، وفيها ماهو صحيح وفيها ماهو حسن ؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم والترمذي وصححه وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ (قل هو الله أحد) ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ثم خرج نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنى قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » يعنى (قل هو الله أحد) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن » . وأخرج مسلم وغيره من حديث أبى الدرداء نحوه . وقد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة وحديث ابن مسعود ، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وروى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن وبعضها ضعيف ، ولو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى ومسلم وغيرهما « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلا فى سرية ، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : سلوه لأىّ شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحبّ أن أقرأ بها ، فقال : أخبروه أن الله تعالى يحبه » هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد . وأخرج البخارى أيضا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال « كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لاترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، قال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أخبروه الخبر ، فقال : يافلان مايمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وماحملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ فقال : إنى أحبها ، قال : حبك إياها أدخلك الجنة » وقد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

قوله (قل هو الله أحد) الضمير يجوز أن يكون عائدا إلى مايفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول ، وأن المشركين قالوا : يامحمد انسب لنا ربك ، فيكون مبتدأ ، والله مبتدأ ثان ، وأحد خبر المبتدإ الثانى ، والجملة خبر المبتدإ الأوّل ، ويجوز أن يكون الله بدلا من هو ، والخبر أحد . ويجوز أن يكون الله خبرا أوّل ، وأحد خبرا ثانيا ، ويجوز أن يكون أحد خبرا لمبتدإ محذوف : أى هو أحد . ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم ، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه ، والأوّل أولى . قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتم تبيين نسبته هو الله أحد ، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد . وقال أبو البقاء : همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد ، ومما يفيد الفرق بينهما ماقاله الأزهرى : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ، ولا درهم أحد ، كما يقال رجل واحد ودرهم واحد ،

قيل والواحد يدخل فى الأحد والأحد لايدخل فيه فإذا قلت لايقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لايقاومه أحد . وفرّق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل فى العدد ، وأحد لايدخل فيه . وردّ عليه أبوحيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل . قرأ الجمهور « قل هو الله أحد » بإثبات قل . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبىّ « الله أحد » بدون قل . وقرأ الأعمش « قل هو الله الواحد » وقرأ الجمهور بتنوين أحد ، وهو الأصل . وقرأ زيد بن علىّ وأبان بن عثمان وابن أبى إسحاق والحسن وأبو السماك وأبوعمرو فى رواية عنه بحذف التنوين للخفة كما فى قول الشاعر

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين . ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر (الله الصمد) الإسم الشريف مبتدأ ، والصمد خبره ، والصمد هو الذى يصمد إليه فى الحاجات : أى يقصد لكونه قادرا على قضائها ، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض لأنه مصمود إليه : أى مقصود إليه ، قال الزجاج : الصمد السند الذى انتهى إليه السؤدد فلا سيد فوقه . قال الشاعر :

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل معنى الصمد : الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزول . وقيل معنى الصمد ماذكر بعده من أنه الذى لم يلد ولم يولد . وقيل هو المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقيل هو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول . وقيل هو الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد . وقيل هو الكامل الذى لاعيب فيه . وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله ابن بريدة وعطاء وعطية العوفى والسدّى : الصمد هو المصمت الذى لاجوف له ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لاتزال جياده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لاينافى القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير ، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينــة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى ، وقيل إن الصمد صفة للاسم الشريف والخبر هو مابعده ، والأول أولى لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة (لم يلد ولم يولد) أى لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شىء ، لأنه لايجانسه شىء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقا ولاحقا . قال قتادة : إن مشركى العرب قالوا : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عزير ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله فأكذبهم الله فقال (لم يلد ولم يولد) قال الرازى : قدّم ذكر نفى الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، واليهود : عزير ابن الله ، والنصارى : المسيح ابن الله ، ولم يدّع أحد أن له والدا ، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ

فقال (لم يلد) ثم أشار إلى الحجة فقال (ولم يولد) كأنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدا لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد فى الماضى ولم يذكر مايفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل لأنه ورد جوابا عن قولهم : ولد الله كما حكى الله عنهم بقوله ـ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ـ فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفى فيما مضى ، وردت الآية لدفع قولهم هذا (ولم يكن له كفوا أحد) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ماقبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفا بالصفات المتقدمة كان متصفا بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله ولايشاركه فى شىء ، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل ، وقوله « له » متعلق بقوله « كفوا » قدم عليه لرعاية الاهتمام ، لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته . وقيل إنه فى محل نصب على الحال ، والأوّل أولى . وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر ، وههنا لم يجعل خبرا مع تقدّمه ، وقد ردّ على المبرد بوجهين : أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتما بل جوّزه . والثانى أنا لانسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبرا ويكون كفوا منتصبا على الحال وحكى فى الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربىّ الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقرّ ، واقتصر فى هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره ، فإنه قال فى آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربىّ جيد كثير انتهى . قرأ الجمهور « كفوا » بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع فى رواية عنه بإسكان الفاء ، وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوا وصلا ووقفا ، وقرأ نافع فى رواية عنه « كفأ » بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مدّ ، وقرأ سليمان بن علىّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المدّ ، وأنشد قول النابغة * لاتقذفنى بركن لا كفاء له * والكفء فى لغة العرب النظير ، يقول هذا كفؤك : أى نظيرك ، والاسم الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والمحاملى فى أماليه والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه . قال (الصمد) الذى لاجوف له ، ولا يصح رفع هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال (الصمد) الذى لاجوف له ، وفى لفظ : ليس له أحشاء . وأخرج ابن أبى عاصم وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عنه قال (الصمد) الذى لايطعم ، وهو المصمت . وقال : أو ماسمعت النائحة وهى تقول :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لايطعم عند القتال ، وقد روى عنه أن الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وأنه أنشد البيت واستدلّ به على هذا المعنى ، وهو أظهر فى المدح وأدخل فى الشرف ، وليس لوصفه بأنه لايطعم عند القتال كثير معنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال (الصمد) السيد الذى قد كمل فى سودده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والغنىّ الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسودد ، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغى إلا له ليس له كفو وليس كمثله شىء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود قال (الصمد) هو السيد الذى قد انتهى سودده فلا

شيء أسود منه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال (الصمد) الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء . وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله (ولم يكن له كفوا أحد) قال : ليس له كفو ولا مثل .

تفسير سورة الفلق

هي خمس آيات

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة ، وأخرج أحمد والبزار والطبراني وابن مردويه من طرق . قال السيوطي : صحيحة عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوّذتين في المصحف يقول : لاتخلطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله ، إنما أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوّذ بهما ، وكان ابن مسعود لايقرأ بهما . قال البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة ، وقد صح عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتتا في المصحف . وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن زرّ بن حبيش قال « أتيت المدينة فلقيت أبيّ بن كعب ، فقلت له : أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لايكتب المعوّذتين في مصحفه ، فقال : أما والذي بعث محمدا بالحقّ لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك ، قال : قيل لي قل ، فقلت فقولوا فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » . وأخرج الطبراني عن ابن مسعود « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن هاتين السورتين ، فقال قيل لي ، فقلت فقولوا كما قلت » . وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنزلت عليّ الليلة آيات لم أر مثلهنّ قط (قل أعوذ بربّ الفلق) و (قل أعوذ بربّ الناس) » وأخرج ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه في الشعب عن عقبة بن عامر قال « قلت يارسول الله : أقرئني سورة يوسف وسورة هود ، قال : ياعقبة اقرأ بقل أعوذ بربّ الفلق ، فإنك لن تقرأ سورة أحبّ إلى الله وأبلغ منها ، فإذا استطعت أن لاتفوتك فافعل » . وأخرج ابن سعد والنسائي والبغوي والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يا أبا حابس أخبرك بأفضل ماتعوّذ به المتعوّذون ؟ قال بلى يارسول الله ، قال (قل أعوذ بربّ الفلق — و — قل أعوذ بربّ الناس) هما المعوّذتان » . وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوّذ من عين الجانّ ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورة المعوّذتين أخذ بهما وترك ماسوى ذلك » . وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود « أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره عشر خصال ، ومنها أنه كان يكره الرقى إلا بالمعوّذتين » . وأخرج ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب السور إلى الله (قل أعوذ بربّ الفلق — و — قل أعوذ بربّ الناس) » . وأخرج النسائي وابن الضريس وابن حبان في صحيحه وابن الأنباري وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال « أخذ بمنكبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال اقرأ ، قلت : ما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : قل أعوذ بربّ الفلق ؛ ثم قال اقرأ ، قلت : بأبي أنت وأمي ما أقرأ ؟ قال : قل أعوذ بربّ الناس ، ولم تقرأ بمثلهما » . وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه

بالمعوّذتين وينفث ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتهما » . وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور . وأخرج عبد بن حميد فى مسنده عن زيد بن أرقم قال « سحر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجل من اليهود ، فاشتكى فأتاه جبريل ، فنزل عليه بالمعوّذتين ، وقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، والسحر فى بئر فلان ، فأرسل عليا فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية ويحلّ حتى قام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كأنما نشط من عقال » . وأخرجه ابن مردويه والبيهقى من حديث عائشة مطوّلا ، وكذلك أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس . وقد ورد فى فضل المعوّذتين ، وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهما فى الصلاة وغيرهما أحاديث ، وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج الطبرانى فى الصغير عن علىّ بن أبى طالب قال « لدغت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عقرب وهو يصلى ، فلما فرغ قال : لعن الله العقرب لاتدع مصليا ولا غيره ، ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وقل أعوذ بربّ الفلق ، وقل أعوذ بربّ الناس » .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

(الفلق) الصبح ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، وسمى فلقا لأنه يفلق عنه الليل ، وهو فعل بمعنى مفعول : قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح ، وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول ذى الرّمة :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق هادئة فى أخريات الليل منتصب

وقول الآخر :

ياليـلة لم أنمها بتّ مرتفقا أرعى النجوم لى أن نوّر الفلق

وقيل هو سجن فى جهنم ، وقيل هو اسم من أسماء جهنم ، وقيل شجرة فى النار ، وقيل هو الجبال والصخور ، لأنها تفلق بالمياه أى تشقق ، وقيل هو التفليق بين الجبال ، لأنها تنشق من خوف الله . قال النحاس : يقال لكل ما اطمأنّ من الأرض فلق ، ومنه قول زهير :

مازلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدى الركاب بهم من راكس فلقا

والراكس : بطن الوادى ، ومثله قول النابغة * ودونى راكس فالضواجع * وقيل هو الرحم تنفلق بالحيوان ، وقيل هو كل ما انفلق عن جميع ماخلق الله من الحيوان والصبح والحبّ والنوى وكلّ شيء من نبات وغيره قاله الحسن والضحاك . قال القرطبي : هذا القول يشهد له الاشتقاق ، فإن الفلق الشقّ ، فلقت الشيء فلقا : شققته ، والتفليق مثله ، يقال فلقته فانفلق وتفلق ، فكلّ ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحبّ ونوى وماء فهو فلق . قال الله سبحانه ـ فالق الإصباح ـ وقال ـ فالق الحبّ والنوى ـ انتهى . والقول الأوّل أولى لأن المعنى وإن كان أعمّ منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق . وقد قيل فى وجه تخصيص الفلق الإيماء

إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائذ كل مايخافه ويخشاه ، وقيل طلوع الصبح كالمثال لمجىء الفرح ؛ فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح ، كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاح ، وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير (من شرّ ماخلق) متعلق بأعوذ : أى من شرّ كلّ ماخلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعمّ جميع الشرور ، وقيل هو إبليس وذرّيته ، وقيل جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضارّ البدنية . وقد حرّف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه وتقويما لباطله ، فقرءوا بتنوين شرّ على أن « ما » نافية ، والمعنى : من شرّ لم يخلقه ، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن عائذ (ومن شرّ غاسق إذا وقب) الغاسق الليل ، والغسق الظلمة ، يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم . قال الفراء : يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا   واشتكيت الهمّ والأرقا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار ، والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن فى الليل تخرج السباع من آجامها والهوامّ من أماكنها وينبعث أهل الشرّ على العبث والفساد ، كذا قال ، وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين . ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم   لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أى دخل العذاب عليهم ، ويقال وقبت الشمس : إذا غابت ، وقيل الغاسق الثريا ، وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد . وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق . وقال الزهرى : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ولم يلاحظ معنى الغسوق ، وقيل هو القمر إذا خسف ، وقيل إذا غاب . وبهذا قال قتادة وغيره ، واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت « نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما إلى القمر لما طلع فقال : ياعائشة استعيذى بالله من شرّ هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » . قال الترمذى : بعد إخراجه حسن صحيح ، وهذا لا ينافى قول الجمهور ، لأن القمر آية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وهكذا يقال فى جواب من قال إنه الثريا . قال ابن الأعرابى : فى تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر . وقيل الغاسق : الحية إذا لدغت . وقيل الغاسق : كلّ هاجم يضرّ كائنا ما كان ، من قولهم غسقت القرحة : إذا جرى صديدها . وقيل الغاسق هو السائل ، وقد عرّفناك أن الراجح فى تفسير هذه الآية هو ماقاله أهل القول الأوّل ، ووجه تخصيصه أن الشرّ فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل (ومن شرّ النفاثات فى العقد) النفاثات هنّ السواحر : أى ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات ، والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر ، قيل مع ريق ، وقيل بدون ريق ، والعقد جمع عقدة ، وذلك أنهنّ كنّ ينفثن فى عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول عنترة :

فان يبرأ فلم أنفث عليه   وإن يعقد فحقّ له العقود

وقول متمم بن نويرة :

نفث فى الخيط شبيه الرقى   من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات هنّ بنات لبيد الأعصم اليهودى ، سحرن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ الجمهور « النفاثات » جمع نفاثة على المبالغة . وقرأ يعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر « النافثات » جمع نافثة . وقرأ الحسن « النفاثات » بضم النون . وقرأ أبو الربيع « النفثات » بدون ألف (ومن شرّ حاسد إذا حسد) الحسد : تمنى زوال النعمة التى أنعم الله بها على المحسود ، ومعنى إذا حسد : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود . قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة يا ظالما وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه فى هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شرّه ومزيد ضرّه ، وهو الغاسق والنفاثات والحاسد ، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ (قل أعوذ برب الفلق) فقال : يا ابن عبسة أتدرى ما الفلق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : بئر فى جهنم » . وأخرجه ابن أبى حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع . وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ (قل أعوذ بربّ الفلق) هل تدرى ما الفلق ؟ باب فى النار إذا فتحت سعرت جهنم » وأخرج ابن مردويه والديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله عزّ وجلّ (قل أعوذ بربّ الفلق) فقال : هو سجن فى جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتتعوّذ بالله منه » . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جبّ فى جهنم » .

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكان المصير إليها واجبا ، والقول بها متعينا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق سجن فى جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق الصبح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الفلق الخلق . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (ومن شرّ غاسق إذا وقب) وقال : النجم هو الغاسق ، وهو الثريا . وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع . وقد قدّمنا تأويل هذا ، وتأويل ماورد أن الغاسق القمر . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد » ، وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (و من شرّ غاسق إذا وقب) قال : الليل إذا أقبل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (ومن شر النفاثات فى العقد) قال : الساحرات . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو ماخالط السحر من الرق . وأخرج النسائى وابن مردويه عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » . وأخرج ابن سعد وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن أبى هريرة قال « جاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعودنى فقال : ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل ؟

فقلت : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك» (من شر النفاثات فى العقد ومن شرّ حاسد إذا حسد) فرقى بها ثلاث مرّات » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ومن شر حاسد إذا حسد) قال : نفس ابن آدم وعينه اه .

تفسير سورة الناس

هى ست آيات

والخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذى تقدّم فى سورة الفلق . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بمكة (قل أعوذ برب الناس) . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل بالمدينة (قل أعوذ برب الناس) وقد قدّمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة وما ورد فى فضلها فارجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

قرأ الجمهور (قل أعوذ) بالهمزة . وقرئ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام . وقرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس ، وقرأ الكسائى بالإمالة . ومعنى ربّ الناس : مالك أمرهم ومصلح أحوالهم ، وإنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس فى صدورهم ، وقوله (ملك الناس) عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر (إله الناس) هو أيضا عطف بيان كالذى قبله لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد والإعدام ، وأيضا الربّ قد يكون ملكا ، وقد لايكون ملكا ، كما يقال ربّ الدار وربّ المتاع ، ومنه قوله ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ فبين أنه ملك الناس . ثم الملك قد يكون إلها ، وقد لايكون ، فبين أنه إله لأن اسم الإله خاصّ به لايشاركه فيه أحد ، وأيضا بدأ باسم الربّ وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس . ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق وأن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس ، وكرّر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ، ولأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس (من شر الوسواس) قال الفرّاء : هو بفتح الواو بمعنى الاسم : أى الموسوس ، وبكسرها المصدر : أى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وقيل هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة ؛ والوسوسة : هى حديث النفس ، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة : أى حدّثته حديثا ، وأصلها الصوت الخفىّ ، ومنه قيل لأصوات الحلى وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت ... قال الزجاج : الوسواس هو الشيطان : أى ذى الوسواس ،

ويقال إن الوسواس ابن لإبليس ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله ـ فوسوس لهما الشيطان ـ ومعنى (الخناس) كثير الخنس ، وهو التأخر ، يقال خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمى يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

فإن دحسوا بالشرّ فاعف تكرّما وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله خنس وانقبض ، وإذا لم يذكر انبسط على القلب . ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى ـ فلا أقسم بالخنس ـ يعنى النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدّم ، وقيل الخناس اسم لابن إبليس كما تقدّم فى الوسواس (الذى يوسوس فى صدور الناس) الموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للوسواس ، ويجوز أن يكون منصوبا على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير مبتدإ . وقد تقدّم معنى الوسوسة . قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له ، وإذا ذكر العبد ربه خنس . قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسته هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفىّ يصل إلى القلب من غير سماع صوت ، ثم بين سبحانه الذى يوسوس بأنه ضربان : جنى وإنسى ، فقال (من الجنة والناس) أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع فى الصدر من كلامه الذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه ـ شياطين الإنس والجنّ ـ ويجوز أن يكون متعلقا بيوسوس : أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ، ويجوز أن يكون بيانا للناس . قال الرازى وقال قوم : من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله (فى صدور الناس) لأن القدر المشترك بين الجنّ والإنس يسمى إنسانا ، والإنسان أيضا يسمى إنسانا ، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك . والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجنّ ما روى أنه جاء نفر من الجنّ ، فقيل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجنّ . وأيضا قد سماهم الله رجالا فى قوله ـ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ ـ وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ بربّ الناس من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس ، وقيل المراد بالناس الناسى وسقطت الياء كسقوطها فى قوله ـ يوم يدع الداع ـ ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى بالنسيان ، وأحسن من هذا أن يكون قوله (والناس) معطوفا على الوسواس : أى من شرّ الوسواس ومن شرّ الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس . قال الحسن : أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتادة : إن من الجنّ شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس ، وقيل إن إبليس يوسوس فى صدور الجنّ كما يوسوس فى صدور الإنس ، وواحد الجنة جنىّ كما أن واحد الإنس إنسىّ . والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال ، وإن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لاتكون إلا بالمعنى الذى قدّمنا ، ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبى داود عن ابن عباس فى قوله (الوسواس الخناس) قال : مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس .

وأخرج ابن أبي الدنيا فى مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسيه التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله « الوسواس الخناس » قال : الشيطان جاث على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه والضياء فى المختارة ، والبيهقى عنه قال : ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله (الوسواس الخناس) وقد ورد فى معنى هذا غيره ، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان ، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة ، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن على بن محمد الشوكانى ، غفر الله له ذنوبه . وكان الفراغ منه فى ضحوة يوم السبت لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية .

اللهم كما مننت علىّ بإكمال هذا التفسير وأعنتنى على تحصيله وتفضلت علىّ بالفراغ منه ، فامنن علىّ بقبوله ، واجعله لى ذخيرة خير عندك ، وأجزل لى المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب فى تحريره وتقريره ، وانفع به من شئت من عبادك ليدوم لى الانتفاع به بعد موتى ، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف ، واجعله خالصا لك ، وتجاوز عنى إذا خطر لى من خواطر السوء مافيه شائبة تخالف الإخلاص ، واغفر لى مالايطابق مرادك ، فإنى لم أقصد فى جميع أبحاثى فيه إلا إصابة الحق وموافقة ماترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات ، ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، يابارئ البريات ، وأحمدك لا أحصى حمدا لك ، وأشكرك لا أحصى شكرك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأصلى وأسلم على رسولك وآله اه .

تمّ سماعا على مؤلفه حفظ الله عزّته يوم الاثنين صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأوّل سنة ١٢٤١ هـ .

كتبه

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما

فهـــرس

الجزء الخامس من فتح القدير

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة